مجلة المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء الأول

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر- الثلاثاء- سلخ المحرم ١٣٢٦ — ٣ مارس (آذار) سنة ١٩٠٨)

فاتحة السنة الحادية عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ، تبصرة وذكرى لأولي الالباب ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ، الذي بعث في الاميين ليعلمهم الكتاب والحكمة ، محمد النبي الامي ، العربي الحجازي ، وعلى آله وأصحابه خير الآل والاصحاب ، ومن تبعهم واهتدى بهديهم الى يوم المآب ، ٢٩:١٣ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طوبى لهُمْ وَحُسْنُ مآبٍ *

أما بعد فان المنار بحمد الله وعنايته ، وتوفيقه وهدايته ، قد أتم عشر

سنين كاملة، وتجاوز الاعداد المفردة الى الاعداد المركبة، وهو في نمو طبيعي، وارتقاء تدريجي، لم تظفر به مساعدة الكبراء، كما ظفرت بكثير من العاملين، ولم تظفر به مكايدة الرؤساء، كما ظفرت ببعض المصلحين، بل سار لطيته على استقلاله، في جميع أعوامه وأحواله، سلاحه تحري الحق، وعدته التزام الصدق، وجنته الاخلاص لله، وحصنه تقوى الله باتباع سنن الله، ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾

جاهد في سبيل الاصلاح بقدر الامكان، وما تقتضيه حال الزمان والمكان، فهاجته السياسة بدسائسها فنالت من قريبه وصديقه، ولكنها لم تزحزحه عن طريقه، وواثبته الخرافات بوساوسها، فحالت دون سرعة انتشاره، ولكنها لم تقو على صد تياره، وصادمته التقاليد بهواجسها، فصدت الكثيرين من متقلبيها عنه، ولكنها لم تنل منه، بل عز هؤلاء وأولئك في الخطاب، ٣٨: ١١ ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾

ثم قد انهزم من أمامه الدجالون فلا يجدون قوة ولا حولا، وانهزم كذلك المقلدون فلا يرجعون اليه قولا، وأنى للمتوكىء على عكاز القال والقيل، أن ينافح متقضي سيف الدليل، تحت لواء السنة والتنزيل؟ ألا انهم لا يصدونه بل يصدون عنه، ولا يقولون له ولكن يقولون فيه، وكذلك كان يقول المقلدون، اذ دعوا الى غير ما كانوا يعتقدون، ٣٨: ٥ ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾ — ٧ ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب﴾

الحق أبلج، لا يخيل سبيله، ولا تخفى على الناظر البصير غرته وحجوله ، فلا يضره ضعف الداعي وغربته ، اذا قويت عارضته وعرفت حقيقته، والباطل لجلج، وان كثر قبيله، ودعمت فروعه واصوله، فلا تنفعه قوة الداعي وعصبته ، اذا ضعفت سريرته ودحضت حجته ، وانما يثبت المقلدون، حيث لا يوجد المستدلون، ويسود المتواكلون، ما سكت عن معارضتهم المستقلون ٣٩ : ٩ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ *

لا خوف على الحق الا من الاستبداد، بمنع حرية العلم والارشاد، فالحق لا يوجد الا حيث توجد الحرية والاستقلال، وتظهر آثار مواهب الناس في الاقوال والاعمال ، لهذا لا نخاف على دعوة الاصلاح في هذه البلاد ، أو تعود اليها سلطة الاستبداد ، نعم ان سيره قد يسرع وقد يبطئ ، وان الداعي اليه يصيب في رميه ويخطئ ، ولكنه يستفيد من الخطإ كما يستفيد من الاصابة ، وقد يزداد مضاء في الرفض والاجابة ، حتى يعمل الاستعداد للاصلاح عمله، ويبلغ الكتاب أجله (١٣ : ٢٨ لكل اجل كتاب ٣٩ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ٤٠ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ *

ان للاسلام ثلاث مظاهر أو مراتب التقليد وعليه أكثر المسلمين المتقدين، والبصيرة وعليها نفر من العلماء المحققين، والجنسية وهي تشمل حتى المارقين من المتفرنجين ، وقد هوجم أولا في تقاليده لتحويل العامة عنه ، وهوجم في كتابه وسنته لزلزال الخاصة فيه، وهوجم في جنسيته لحل رابطة المتصمين به،

على انه لا يخشى عليه من مهاجمة الاجانب عنه ، وانما يخشى عليه من مهاجمة الذين يعدون منه ، فالمتفرنجون منهم يفتنون العامة عن تقليدهم باسم المدنية ، وشُبه العلوم والفنون العصرية ، ويحلون جنسيتهم الاسلامية بدعوتهم الى الجنسية الوطنية، وهم لا يتهمون في ذلك بالايقاع بالدين، لانهم يأتون العامة عن اليمين ، ويدعون الى ما يدعون ، معتقدين انهم مصلحون فتعيّن على أهل البصيرة والعرفان ، ان ينافحوا عن هذا الدين بالبرهان ، واقفين عند حدود السنة والقرآن ، فان كلا من مسلمي التقليد والجنسية ، يعترفون بأن مرتبة البصيرة هي المرتبة العلية ١٣ : ١٨ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ *

ألا وان من المحال حفظ تقاليد المقلدين، من غارة اخوانهم المتفرنجين، فانها من قبيل العادات ، التي يعروها (كما نشاهد) المحو والاثبات، ألا وان مصارعة الجنسية الوطنية، للجنسية الاسلامية، مجهولة العواقب، لا حيث يساعدها الحكام مع الاجانب ، فهنالك يرجح ان تكون آية الوطنية هي المرفوعة ، والراية الاسلامية هي الموضوعة ، ويتبع ذلك سرعة تسلل العوام، من هذه التقاليد المعزوة الى الاسلام ، ويعود الاسلام في مثل هذه البلاد غريبا كما بدا، لان أهل البصيرة هم الاقلون عددا، والاضعفون ساعدا وعضدا، اذا غلبوا بالبرهان، يغلبون بالسلطان، فهم إما مضطهدون جهرا، وإما مهددون سرا، على انهم لا يقنطون من رحمة الله، ولا ييأسون من روح الله ٣٩ : ١٠ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

ها انا ذا أقول على رءوس الاشهاد ان طالب الاصلاح الديني مهدد حتى في هذه البلاد ، ورب مقاومة خفية ، شر من صدمة علنية ، ورب اصطدام أحدث ظهورا ، خير من اهمال أوجب فتورا ، (٢ : ٢١٦ وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ،) فما ظهر حق الا بعد اضطهاد ، ولا خذل باطل الا بعد عناد ، فلا يغررك تقلب الظالمين في البلاد ، ٣٩ : ٢١ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ *

فيأيها الكائدون الظالمون ، انما كيدكم على ملتكم ان كنتم تعقلون ، ويأيها المقلدون الجامدون ، ان تقاليدكم تتحول عنكم تحول الظل وأنتم لا تشعرون ، ويأيها العابثون بالجنسية انكم لبنائكم تهدمون ، وتبنون لغيركم من حيث لا تعلمون ، ويأيها المصلحون المستبصرون ، اصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، ٣ : ١٠٢ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * لا تغرنكم عوامل المدنية فان دينكم عون لكم عليها ان كنتم تفقهون ، ولا تفتننكم سلطة الامم الاوربية فتقلدوها فيما لا تعلمون ، فان روح المدنية والسلطة هو الدين والآداب ،

وقد انعم الله عليكم من ذلك باكمل مما انعم به على أهل الكتاب ، ٢: ٢٠٠
فَمِنَ الناس مَنْ يقول ربّنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق
٢٠١ ومنهم مَنْ يقولُ ربّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنا
عذاب النار ٢٠٢ اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريعُ الحساب *

ان الفساد قد طرأ على جسم هذه الامة من زمن بعيد ، فهو يحتاج الى تكوين جديد، ومن المبشرات ان نرى المسلمين، قد تنبهوا الى الحاجة الى هذا التكوين ، ولكن اختلفت فيه الآراء ، وعبثت به الاهواء ، ولا زعيم يرجع اليه، ولا امام يقتدى به ، وما على طلاب الاصلاح الآن ، الا اقامة الحجة والبرهان ، وتربية استعداد الامة ، الى ان ينهض زعيم من الائمة ، ولا بد من مسالمة الفرق والاحزاب ، واحاطة استقلال الرأي بسياج الآداب ،
٣٩ : ٨ فَبَشِّرْ عِبَادِي الذين يَسْتَمِعُونَ القولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسنَهُ اولئك
الذين هداهمُ اللهُ واولئك هم أُولو الالبابِ *

منشيء المنار ومحرره
محمد رشيد رضا الحسيني

الدعوة الى انتقاد المنار

انا نكرر الدعوة الى انتقاد المنار في كل عام ونعد بنشر ما ينتقد به على ما ننشر من المسائل الدينية والعلمية لعدة أمور

(١) انا نتحرى في كل ما نكتب الحق والارشاد الى الخير ونعتقد انا عرضة للخطأ مهما بذلنا من الجهد في تحري الاصابة فغرضنا الاول من دعوة العلماء الى انتقاد ما نكتبه هو تكميل نفسنا ومساعدتنا على ما نتوخاه من الارشاد

(٢) حرصنا على تكميل غيرنا من قراء المنار بما نحب ان نكمل به نفسنا من معرفة الحق والخير والمصلحة وكراهة ان يعلق ما عسى ان نقع فيه من الخطأ بنفس بعض القراء فلا يجدوا عنه مصرفا

(٣) اقامة فريضتي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان كثيراً من أهل العلم يعتذرون عن تركهم لذلك بأن الناس لا يقبلون أمراً ولا نهياً بل يعادون من ينصح لهم ويرشدهم الى الحق وربما آذوه بالقول او الفعل فها نحن أولاء نؤمنهم من العداء والايذاء ونعدهم بقبول النصح والارشاد

(٤) فتح باب المناظرة التي تعلم كل واحد من المتناظرين ما لم يكن يعلم وتدفعه الى بذل الجهد والعناية في استكناه الحقائق والاحاطة بأطراف المسائل وترك الحكم للقراء

(٥) قطع ألسنة أهل الدعوى، والمتبعين للهوى، الذين يقولون هذا حق وهذا باطل، وهذا حلال وهذا حرام، وفلان مخطئ او ضال، أو نافع او ضار، وهم على غير بينة فيما يقولون، أو على غير اخلاص فيما به يحكمون، فالمنار يقول لمن يخوض فيه منهم ان كنتم تقولون الحق فأبرزوه للقارئين، وهاتوا برهانكم ان صادقين، والا فانتم تأكلون لحم أخيكم بالغيبة، وبحسدكم الذي زين لكم هذه الوقعة، تقولون ما لا تعملون، أو تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون،

هذا واننا نشترط على المنتقد الذي نعد بنشر انتقاده أن يوجه انتقاده الى ما كتبنا من المسائل العلمية دينية أو غير دينية مبينا موضع المسألة من المنار بأن يقول ذكرتم في صفحة كذا من مجلد كذا ما هو كيت وكيت

وهو خطأ: ويبين ذلك بالدليل. ولا نعد بنشر الانتقاد المبهم «نحو انتم تقولون كذا» مما لعلنا لم نقله ولم يخطر ببالنا وانما جاءه من وقيعة بعض الكاذبين او من سوء الفهم - ولا الانتقاد الغفل من الدليل - ولا ما كان موجها الى الاعمال الادارية أو الشخصية أو اختيار المباحث والمسائل أو أسلوب الكتابة. فكل هذا مما نترك لنفسنا الخيار فيه، مع الشكر عليه، لان فائدته في الغالب خاصة بنا وعدم العلم بها لا يضر القراء شيئاً

شرط الاشتراك

(١) كل من قبل الجزء الأول من مشتركي المنار السابقين يعد مشتركا فيه الى آخر السنة ويجب عليه دفع ستين قرشاً ان كان من مصر أو السودان وثمانية عشر فرنكا ان كان من سائر الاقطار وان ردّ المجلة في أثناء السنة لان ضياع بعض أجزاء السنة علينا كضياع جميعها

(٢) يجب على من يطلب الاشتراك ان يرسل القيمة سلفاً وان يكون اشتراكه من أول السنة (المحرم) أو من منتصفها (رجب)

(٣) اذا لم يصل الى المشترك أحد الاجزاء فان الادارة ترسله اليه بغير ثمن اذا هو طلبه في مدة لا تتجاوز شهراً واحداً من موعد وصوله اليه في بلده. واذا طلبه بعد ذلك كان عليه ان يرسل ثمنه كمن فقد الجزء وطلب بدله وثمن الجزء الواحد ستة قروش مصرية

﴿ تنبيه ﴾

لم ننشر في هذا الجزء شيئاً من التفسير لسبب عارض

القرآن ونجاح دعوة النبي

عليه الصلاة والسلام

وآراء علماء أوربا في ذلك

ألف القسيسون وأعوانهم من المتعصبين للنصرانية كتبا كثيرة في القرون المتوسطة يمثلون بها الاسلام في أقبح صورة ينتزعها خيال الكاتب منهم على حسب تمكنه في الكذب والبهتان ولما ارتقت العلوم والفنون في اوربا وضعف التعصب الأعمى على المخالف بقدر ذلك كثر الباحثون من علماء الافرنج في شؤون الشرق بالانصاف فتغير لذلك اعتقادهم في الاسلام والمسلمين وألفوا في بيان مزايا هذا الدين التي كانت مجهولة وفضائل أهله التي كانت مهضومة كتبا كثيرة . ومن هؤلاء المؤلفين البرنس كايتاني الايطالي فإنه ألف كتاباً في تاريخ الاسلام يقال انه كتبه بحرية وانصاف بحسب ما وصل اليه علمه . وقد زار مصر في هذا الشتاء فاحتفى به نادي المدارس العليا واكرم مثواه واثنت عليه جرائد المسلمين ثناء حسناً . وقد ترجم المؤيد في أوائل هذا الشهر تقريظ جريدة التيمس لتاريخ البرنس كايتاني ومنه هذه العبارة :

« ومن رأي المؤلف على إعجابه الفائق بصاحب الشريعة الاسلامية ان مزية النبي هي كفاءته العجيبة كسياسي محنك أكثر منه كنبي موحى اليه . ويؤيد قوله بدليل سبق إهماله حتى الآن وهو ان حنكته وحسن

سياسته افادا في تأييد سلطته أكثر من إفادة القرآن او أي حجة دينية» اهـ
نص ترجمة المؤيد لعبارة التيمس

وهذا الذي قاله كايتاني هو اعتقاد الافرنج العارفين بنشأة الاسلام، وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، أي انهم يعتقدون ان النبي (ص) قام بما قام به بحنكته وسياسته، لا بتأييد الله تعالى له بوحيه وعنايته، ولولا هذا لما كان لهم مندوحة عن الدخول في الاسلام، ومثل الافرنج في هذا الرأي كل من لا يدين بالاسلام من علماء الشرق. فدعوى ان نجاح النبي (ص) كان بسياسته وحنكته أي تجاربه هي أكبر شبههم على الاسلام

ومن الشواهد على ذلك من كلام علماء بلادنا غير المسلمين الاسطر والابيات الآتية التي كتبها الي الدكتور شبلي شميل الفيلسوف المشهور بعدم التدين ، حمله عليها قراءة المنار وهي :

« الى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

« انت تنظر الى محمد كنبي وتجعله عظيما وانا أنظر اليه كرجل واجعله أعظم ، ونحن وان كنا في الاعتقاد (الدين او المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في القول وذلك أوثق بيننا لعرى المودة   من صديقك الدكتور شميل

(الحق اولى أن يقال)

دع من محمد في سدى قرآنه   ما قد نحاه للحمة الغايات (١)

(١) يريد بالغايات معناها اللغوي وهي المقاصد يعني المقاصد الدينية ويعني بالامر بتركها تركه البحث فيها أي انه يبحث في القرآن من حيث هو كتاب اجتماعي لا من حيث هو كتاب ديني كما قال لنا مشافهة

اني وان اك قد كفرت بدينه | هل اكفرن بمحكم الآيات
اوما حوت في اصح الالفاظ من | حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو أنهم عقلوا بها | ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه | رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدها | بطل (٢) حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى | وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الابطال في كل الورى | من سابق او لاحق او آت

***

(المنار) كتب الدكتور الي بهذا لا لينشر بل ليقرأ على انه خواطر جاشت في صدره ثم بعد ان نشر المؤيد مانشره عن التيمس ورددت عليه في الجريدة استأذنت الدكتور بنشر ما كتبه فاذن وهو كما يرى القارئ اكثر من البرنس كايتاني تعظيما للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا للقرآن الحكيم الذي لم يدرك البرنس كايتاني تأثيره لانه لا يفهمه كالدكتور شميل . ونحن – على كوننا نشكر لشميل ما اعترف به من مزايا نبينا وكتابنا ونسأل الله ان يهديه للباقي منها وهو المهم الاعظم – لا نقول انه اعترف بنبوته ولا بحقية كون كتابه إلهيا . وننكر عليه اشد الانكار قوله ان النبي صلى الله عليه وسلم من حيث كونه رجلا أعظم منه من حيث كونه نبيا على انهم لا يعنون بمثل هذا التعبير الذي قاله شميل وكايتاني انه نبي وسياسي وان نبوته اقوى من سياسته بل يعنون انه نجح بسياسته لا بنبوته التي ادعاها ولكن المؤيد غفل عن هذا وادعى ان ماقاله كايتاني حق ولو كان حقا لكان هو وجميع علماء أوروبا وعلماء اهل الكتاب والوثنيين العارفين

بتاريخ الاسلام كلهم على الحق واستلزم ذلك كون المسلمين على غير الحق فيما يتعلق بأصل دينهم لانهم يقولون بخلاف هذا القول !!

نبهت « الجريدة » المؤيد الى هذه الهفوة وقالت ان ما ترجمه عن التيمس من قول كايتاني كفر ما كان لصاحب جريدة تفتخر بأنها اسلامية ان ينقله ويقره . فرد عليها صاحب المؤيد بقوله الآتي نقلا عن عدده الذي صدر في ٣ المحرم والعنوان منا فقط :

رأي المؤيد في القرآن

«أما نحن فنقول للجريدة . اننا نقلنا عبارة البرنس كايتاني عن التيمس ونحن نعتقد انها ليست كفرا فلا نلام اذا لم نرد عليها وأما الجريدة فقد نقلتها وهي تعتقدها كفرا ولم ترد عليها فهي المقصرة والملومة

«ان غرض البرنس كايتاني من عبارته ظاهر وهو الاعجاب باخلاق النبي صلى الله عليه وسلم واعتبارها فوق كل قوة دينية أخرى كانت له . والله تعالى يقول في كتابه الكريم «وانك لعلى خلق عظيم » فلم يرد البرنس كايتاني بقوله هذا حطا من شرف الدين الاسلامي ولا تحقيرا للقرآن الكريم وماذا يفعل القرآن وحده اذا كان الداعي به على اخلاق غير الاخلاق العالية التي اشتهرت عن النبي صلى الله عليه وسلم : بل القرآن نفسه يقول « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » فجعل مناط قوة ارتباط المؤمنين به والتفافهم حوله وانتصارهم له وفدائهم اياه بالنفس والمال سلامة أخلاقه من العيوب المنفرة . فلو كان فظا غليظ القلب ما نفعه قرآن ولا حمية دينية . وهذا كلام يقوله كل مسلم يعقل ويعرف ما هو الاسلام الذي

جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وروحه الاخلاق الشريفة التي أعجب بها البرنس كايتاني

«وليس المقام مقام مقارنة بين القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم وأيهما أفضل لان هذا لا يؤخذ من عبارة البرنس كايتاني ولا هو غرض مؤرخ كبير كهذا بل هذه المباحث العقيمة الآن تليق بجريدة مثل «الجريدة» لا يذوق محررها طعما لكلام مؤلف ولا يعرف وزنا تميمة رأي مؤرخ

«أليس القرآن بيننا الآن كما هو بين المسلمين منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى الآن ؟ فهل يستطيع مسلم ان يقول ان قوة الاسلام الحقيقية كانت في عهد مثلها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وهل لذلك سبب سوى الاخلاق العالية التى وهبها الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم وهل اخلاقه الفائقة الا موهوبة من عند الله وهي معجزة من معجزاته فهل يكون كافراً بالله من قال ان قوة هذه المعجزة بخصوصه كان لها دخل في فتوحات الاسلام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم اكثر من كل معجزة دينية أخرى

ان للقرآن الكريم وظيفة أخرى لا يشاركه فيها مشارك وهي كونه شريعة الهية جمعت بين مصالح الدين والدنيا ففاق بهذه المزية كل الكتب الالهية الاخرى كما فاقها في الاسلوب والبيان فهل ينقص من فضل القرآن ومزيته ان يقال ان أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم كانت قوة تأثيرا في فتوحاته وبسطة سلطانه

«هذا ما أردنا بيانه ونترك للجريدة المشاغبة واللغط والوثوب من خطأ الى غلط » اه كلام المؤيد

(المنار) ان المؤيد جرى في الرد على الجريدة في هذه المسألة على طريقة المراء المعتاد في المناقشات السياسية فحرف كلام كايتاني عن موضعه وجعله من باب الاعجاب بالاخلاق التى أكرم الله بها نبيه وتفضيل تأثيرها على تأثير القرآن وانما كلام كايتاني في غير ذلك اذ زعم ان جعل نجاح النبي (ص) أوكله بسياسته وحكمته أي تجاربه - لا اخلاقه الموهوبة من الله - كما قال فيه الدكتور شميل انه رب السياسة والدهاء . وكان للمؤيد مندوحه عن تأييد شبهة كايتاني وتقويتها بأن يقول للجريدة انه سكت عليها لانه لا يطالب غير المسلم بأن يقول في الاسلام أكثر من ذلك مع العلم بأن المسلمين لا يأخذون عقيدتهم عن مؤرخ نصراني . ولكنه لم يوفق لذلك فاضطررنا الى كشف الشبهة بالمقالة الآتية في الجريدة

رد شبهة المؤيد على القرآن (*

يقول المنكرون لنبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام سواء كانوا من الاوربيين أو غيرهم ان ما تم على يديه من جمع كلمة العرب وكذا وكذا مما هو ثابت في التاريخ انما كان بالدهاء والسياسة وسمو الافكار وعلو الاخلاق الذي يكون عادة لكثير من الرجال كالبرنس بسمارك ونابليون الاول . وان ما ادعاه من النبوة وما جاء به من القرآن لا تأثير لها في نفسها وانما التأثير له هو بنفسه وبهما لانه استخدمها في تنفيذ

---

*) كتبنا هذه المقالة في ادارة الجريدة على عجل ولم يكن في يدنا مصحف نراجع فيه عدد السور والآيات للشواهد التي أوردناها فيها فوضعنا الاعداد الآن ولم نزد في المقالة شيئا سواها بل نقلت عن الجريدة بحروفها

سياسته (١٨: ٥ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا)

ويعتقد المسلمون ان النبي (صلى الله عليه وسلم) بشر كسائر البشر لا يمتاز على غيره الا بالنبوة وما تستلزمه كما هو نص قوله تعالى (١٨: ١١٠ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) الآية. وقوله تعالى (١٢: ١٠٩ و١٦: ٤٣ و٢١: ٧ وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم)

ويعتقدون ان النبي صلى الله عليه وسلم قضى سن الشباب وبلغ الأربعين ولم يعمل عملا اجتماعيا ولا سياسيا وان ما تم على يديه بعد ذلك انما كان بالنبوة التي اختصه الله بها وبالقرآن الذي أوحاه اليه فكان روحا أحياه به حياة جديدة وأحيا به من اتبعه فكان اهتداء الجميع بالقرآن لا بتأثير صفات النبي الشخصية كما قال تعالى (٤٢: ٥٢ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) فالله تعالى هو الذي هدى المؤمنين بكتابه ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي هداهم بصفاته البشرية وكفاءته الشخصية ولذلك أنزل الله عليه قوله (٢٨: ٥٦ انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله (٨: ٦٣ لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)

بل يعتقد المسلمون ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتقي في أفكاره وأخلاقه بالقرآن نفسه فكلما أنزل الله عليه شيئاً منه ازداد كمالا به ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن أخلاقه كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وغيرهما

ومما هداه الله تعالى اليه بكتابه مشاورة أصحابه في الامر فكان

يستشيرهم ويعمل برأي الجمهور وان خالف رأيه كما فعل في غزوة أحد وكانوا يسألونه اذا أشار بأمر هل هو وحي فيطاع بلا بحث ولا تردد أم هو الرأي ليذكروا ما عندهم فاذا قال هو الرأي ذكروا ماعندهم كما كان يوم بدر وقد ترك صلى الله عليه وسلم رأيه الى رأيهم

فمن هذه العجالة يعلم ان القرآن هو الاصل في هداية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهداية أصحابه عليهم الرضوان الى كل ماتم على يديه وأيديهم معه وبعده مما أدهش التاريخ اذ لم يجد له نظيراً . ولو شئنا لأتينا بأكثر مما أتينا به من الشواهد على ذلك من الآيات والأحاديث ووقائع السيرة النبوية وتاريخ الراشدين ولكن ما جئنا به كاف في التذكير بما يؤمن به كل مسلم

هذا هو اعتقادنا نحن المسلمين وذلك الذي ذكرنا في أول المقال هو اعتقاد من ينكر صحة ديننا ونبوة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ويزعمون ان الاسلام وما فيه من المزايا وما تم له من النجاح كان منشؤه سياسة النبي صلى الله عليه وسلم وحنكته كما يعهد من الرجال العظام عادة ؟

وقد نقل المؤيد في يوم الاحد الماضي عن جريدة التيمس عبارة للبرنس كايتاني الايطالي مؤلف تاريخ الاسلام في ذلك الاعتقاد الذي يراد به هدم الاسلام وهي « ومن رأي المؤلف على اعجابه الفائق بصاحب الشريعة الاسلامية ان مزية النبي هي في كفاءته العجيبة كسياسي محنك أكثر منه كنبي موحى اليه . ويؤيد قوله بدليل سبق اهماله حتى الآن وهو ان حنكته وحسن سياسته أفادا في تأييد سلطته أكثر من افادة القرآن وأي حمية دينية » ؟

نقل المؤيد هذه العبارة وأقرها فأنكرت عليه (الجريدة) ان يقل الكفر ويقره على فخره بكون جريدته اسلامية وكونه من أبناء الازهر . فبماذا أجاب صاحب المؤيد على هذا الانكار؟ أجاب بأنه يعتقد ان تلك العبارة (التي تنيط نجاح عمل النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة والسياسة لا بالنبوة) ليست كفراً وبين ذلك بما هو العجب العجاب . قال في العدد الذي صدر أمس (يوم الاربعاء ثالث المحرم) مانصه:

« ان غرض البرنس كايتاني من عبارته ظاهر وهو الاعجاب بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم واعتبارها فوق كل قوة دينية أخرى كانت له والله تعالى يقول في كتابه الكريم « وانك لعلى خلق عظيم » فلم يرد البرنس كايتاني بقوله هذا حطا من شرف الدين الاسلامي ولا تحقيراً للقرآن الكريم . وماذا يفعل القرآن وحده اذا كان الداعي به على أخلاق غير الاخلاق العالية التي اشتهرت عن النبي صلى الله عليه وسلم . بل القرآن نفسه يقول « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » فجعل مناط قوة ارتباط المؤمنين به والتفافهم حوله وانتصارهم له وفدائهم اياه بالنفس والمال سلامة أخلاقه من العيوب المنفرة فلو كان فظاً غليظ القلب ما نفعه قرآن ولا حمية دينية . وهذا كلام يقوله كل مسلم يعقل يعرف ما هو الاسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وروحه الاخلاق الشريفة التي أعجب بها البرنس كايتاني »

ونحن نقول له انه لا يوجد مسلم يعقل ويعرف ماهو الاسلام يقول مازعم صاحب المؤيد ان كل مسلم يقوله . وانما يقول كل مسلم ان روح

الاسلام هو القرآن الذي به بلغت اخلاق من أنزل عليه تلك الدرجة العالية كما قالت عائشة وهذه هي العقيدة التي صرح بها القرآن في الآية التي أوردناها آنفا وهي «وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا» ولولا القرآن لما اجتمع حوله صلى الله عليه وسلم أحد ولما فعل شيئا ولما فداه المؤمنون بالنفس والمال فقد صرح الله تعالى بأن كل عمل له كان بالقرآن فهل نتبعه أم نتبع كاتباني واضرابه الذين يقولون ان كل ذلك كان بمزايا الشخصية البشرية

كاد يقع بين الاوس والخزرج العدوان وتصلى نار الحرب لمناظرة وقعت فنزل قوله تعالى (٣: ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) الآيات فرجعوا وتابوا وأنابوا وحبل الله هو القرآن ولم يقل ان سياسة النبي وحنكته وأخلاقه هي التي الفت بين قلوبهم . على ان اخلاقه هي القرآن فهو أصل كل شيء

قال صاحب المؤيد بعد ذلك في الاستدلال على عدم كون القرآن هو منبع قوة المسلمين «أليس القرآن بيننا الآن كما هو بين المسلمين منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى الآن ؟ فهل يستطيع مسلم ان يقول ان قوة الاسلام كانت في عهد مثلها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهل لذلك سبب سوى الاخلاق العالية التي وهبها الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم»

ونقول في دفع هذه الشبهة ان المسلمين كانوا في قوة وعزة ما كانوا عاملين بالقرآن في عهده صلى الله عليه وسلم كانوا اشد استمساكا بحبله المتين وعروته الوثقى لا لصفات النبي الشخصية البشرية بل لنبوته وما لها من المزايا وللقدوة به في تمسكه بالقرآن التي عاتبه الله تعالى على مبالغته فيها بمثل

قوله (٢٠: ١طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى) ثم كانوا في زمن أبي بكر وعمر مقربة من ذلك ثم صاروا يتدلون بترك القرآن . ويعتقد كل مسلم عاقل عارف بحقيقة الاسلام انهم اذا عادوا الى الاعتصام به تعود اليهم قوتهم وعزتهم فهم ليسوا حجة على الاسلام (يا صاحب السعادة) بل القرآن حجة عليك وعليهم

فأدعوك الى التوبة والرجوع عما كتبت في تأييد أقوى الشبهات على الاسلام والقرآن والنبوة وأن تعلن توبتك في جريدتك وتصرح بأنك تؤمن بأن القرآن هو روح الاسلام وبوحيه الى النبي صلى الله عليه وسلم واهتدائه به عمل بعناية الله ما عمل، وترد قول كايتاني ان حنكته وسياسته أكثر فائدة من القرآن ومن كل حمية دينية حباه الله هو ومن اتبعه اياها» فان ذلك كفر وهدم للاسلام محمد رشيد رضا

صاحب المنار

وقد أجاب المؤيد عن هذه المقالة بما يأتي بنصه نقلا عن عدد المؤيد الذي صدر في سادس المحرم وهو :

ما عدا مما بدا

قال اللورد كرومر أمس « ان الجامعة الاسلامية تستلزم السعي في القرن العشرين في اعادة مبادئ وضعت منذ ألف سنة هدى لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة وهذه المبادئ منها ما يجيز الرق ومنها ما يتضمن سننا وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآداب أهل هذا العصر ومنها ما يتضمن أمرا أهم من ذلك كله وهو افراغ

القوانين المدنية والجنائية والملية في قالب واحد لا يقبل تغييرا ولا تحويرا وهذا ما وقف تقدم البلدان التي دان أهلها بدين الاسلام »

وقال البرنس كايتاني اليوم « ان مزية النبي هي في كفاءته العجيبة كسياسي محنك أكثر منه كنبي موحى اليه - ان حنكته وحسن سياسته أفادا في تأييد سلطته أكثر من افادة القرآن أو أية حمية دينية»

فلماذا اتسع صدرنا لعبارة اللورد ورأينا من اللياقة وحسن الادب تأويلها مع انها كادت تكون صريحة في ان الدين الاسلامي دين وضعي - ولم يتسع صدرنا لما قاله البرنس مع ان عبارته تشعر بأنه معترف للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه نبي موحى اليه وان قرآنه مفيد ؟

اذا كانت هناك بواعث حملت الشيخ رشيدا على التفرقة بين الاثنين وتشنيع احدى العبارتين - فان الحق الذي لا تتلاعب به البواعث يشهد بأن عبارة البرنس لا توجب اللوم ولا التعيير بله التضليل والتكفير !!

بل الانصاف يقاضانا الثناء على جناب البرنس والاعجاب بحرية ضميره لاعترافه بصدق النبوة كما أشرنا اليه آنفا .

أما كون البرنس جعل التأثير في تأييد سلطة النبي صلى الله عليه وسلم للمزايا التي انطوت عليها نفسه الشريفة أولا ثم للقرآن ثانيا كما هو نص عبارته - فهذا لا يقدح في قوله ولا يجعله من باب الكفر . نعم اذا كان للبرنس رأي خاص في النبي صلى الله عليه وسلم كآراء بعض رجال أوروبا فيه على ما أشار اليه الشيخ رشيد في مقدمة كلامه فهذا لا يلزمنا مناقشته فيه ما دام انه مستور في نفسه بل نراه قد صرح بضده في عبارته حيث قال انه « نبي موحى اليه » فهل لا تكون تلك العبارة قرينة

على ان البرنس ليس على رأي أولئك المنكرين لنبوته صلى الله عليه وسلم واذا راجعنا ما قاله المفسرون في تفسير آية «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» رأيناهم يفسرونها بكلام يأتلف مع ما قاله البرنس كما يأتي . فلم تكن عبارة البرنس اذن كفراً بل هي الحقيقة الدينية التي علمنا بها القرآن الكريم .

«قال الطبري في تفسير هذه الآية احتملت (يا محمد) اذى من نالك منهم اذاه وعفوت عن ذى الجرم منهم جرمه واغضيت عن كثير ممن لو جفوته واغلظت عليه لتركك ففارقك ولم يتبعك . ولا (أي ولم يتبع) ما بعثت به من الرحمة» فقوله الاخير نص في أن مزايا النبي الذاتية كانت السبب في أن يتبعه العرب ويصدقوا بالقرآن الذي أتى به . وقال الالوسي «لانفضوا من حولك أي لتفرقوا عنك ونفروا منك ولم يسكنوا اليك وترددوا في مهاوي الردى ولم ينتظم أمر ما بعث به من هدايتهم وارشادهم الى الصراط» فعدم فظاظته وغلاظته اللتين لو كانتا فيه لذهبتا بكفاءته وحنكته وسياسته هو السبب الاول في انتظام أمر بعثته . وقال بعض المفسرين ما هو أصرح من كل ذلك كله قال «وكل واحد من الامرين (أي الفظاظة والغلاظة) لا يليق بمنصب النبوة : لان المقصود من البعثة ان يبلغ الرسول تكاليف الله الى الخلق وذلك لا يتم الا بميل قلوبهم اليه وسكون نفوسهم لديه وهذا لا يتم الا اذا كان رحيما بهم كريما يتجاوز عن ذنوبهم ويعاملهم بالبر والشفقة» فلولا كفاءته الذاتية التي هي عبارة عن مجموع مواهبه ومزاياه وخصاله الكريمة لما تم أمر البعثة فلم يلتفوا حواليه صلى الله عليه وسلم ولم يعوا القرآن الكريم الذي أنزل عليه فالكفاءة اذن

هي العامل الاول في تأييده أو تأييد سلطته الذي أراده البرنس

فهل تكون بعد هذا كله عبارة البرنس كفرا وطعنا في الدين الى حد لا تسعه صدورنا كما وسعت كلام اللورد ويكون المصريون مخطئين في اقامة الاحتفال له واعلان الثناء عليه - أم لا يكون شيء من ذلك وانما للشيخ رشيد حكمة من وراء صنيعه هذا يعلمها هو والواقفون على أطواره . وخفي أسراره اه كلام المؤيد

وقد رددناهذا التمرية والمغالطة بمقالة أخرى نشرناها في عدد الجريدة الذي صدر في اليوم السابع من المحرم وهي :

جواب المؤيد عن شبهته
« على القرآن »

لا يترك المؤيد شنشنته في الجدال فهو يشاغب ويكابر في أصول الدين وعقائده كما يفعل في المناقشات السياسية والشخصية فقد انكرنا عليه ما كتبه في قيام الاسلام وثبات سلطته وعزوه اياه الى المسلمين . وقوله انه اعتقادهم وهو ان السبب الاول والعمدة فيه هو كما يقول البرنس كايتاني سياسة النبي صلى الله عليه وسلم وحنكته أي ما أفادته اياه التجارب . انكرنا عليه هذه الدعوى وبينا له بالآيات البينات أن ذلك كان بما آتاه الله من النبوة وانزل عليه من القرآن

فرد علينا أمس باننا أولنا طعن لورد كرومر في الاسلام فلماذا ننكر على البرنس كايتاني ونشنع عليه ونخطئ المصريين الذين قاموا له بالاحتفال فحاصل جواب الشيخ علي يوسف عما انكرناه عليه هو اننا

فعلنا فيما مضى فعلاً كان يجب علينا ان نعيده الآن وانا شنعنا على البرنس كايتاني وذلك يتضمن تخطئة المصريين الذين احتفلوا به .

ولقد رأى القراء انه ليس في عبارتنا تشنيع على كايتاني واكثر ما فيهم من ردنا على صاحب المؤيد ان ماقرره عن البرنس كايتاني مخالف لعقيدة المسلمين في القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام وليس هذا بتشنيع عليه لانه ليس بمسلم فيطالب بأن يكون كلامه مطابقاً لاعتقاد المسلمين . واما احتفال المصريين به فلم يأت له ذكر في كلامنا لا تصريحاً ولا تلويحاً وهم لم يحتفلوا به لانه مسلم بل لانه كتب تاريخاً صرح فيه باعتقاده من غير تحامل ولا تعصب . وقد صرح لورد كرومر بانتقاده فرأيت كما رأى المؤيد ان كلامه كاد يكون طعناً في أصل الاسلام فكتبت اليه كتابة كان أثرها انه كتب يبرئ القرآن والسنة من الطعن . وقد صرح صاحب المؤيد يومئذ بان ما كتبه لي اللورد هو رجوع عما كتب في تقريره . فأنا الآن اطلب من صاحب المؤيد كما طلبت من اللورد تبرئة القرآن مما كتبه فعسى ان لا يكون لورد كرومر خيراً منه في الرجوع الى الحق بعد ماتبين له

وغرض صاحب المؤيد مما كتبه ظاهر وسببه بين وهو انه عجز عن رد الحجج التي دمغنا به دعواه في القرآن وصعب عليه الاعتراف بالحق الذي طالبناه به فاتهم منا بتحريض من احتفلوا بالبرنس علينا وهم أعلى فهما وآدابا من ان ينخدعوا بمثل ما كتب . ولم يذكر انكارنا عليه حتى لا يدري به من يقرأ المؤيد ولم يكن اطلع على الجريدة يوم الخميس الماضي تلك شنشنته وذلك مبلغه من العلم ولولا انه عاد الى تأييد قوله

الاول - بأن اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فوق كل قوة دينية كانت له أي فوق اصطفاء الله له بالنبوة وتأييده بالقرآن وان العمدة في نفوذه هي السياسة والحنكة - واحتج بقوله تعالى «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» لما كتبنا اليوم شيئاً في اعادة دعوته الى التوبة مما كتب والرجوع عنه كتابة في المؤيد

أمّا الدليل في المقالة الاولى على ماقلنا انه اعتقاد المسلمين وأيدناه بالآيات والاحاديث ومنه ان اخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) العليا وسياسته المثلى مستمدة من القرآن فصرف الشيخ علي نظره عن ذلك وعاد ينقل لنا ما قاله بعض المفسرين في قوله تعالى «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك» ولم يذكر الآية بتمامها لانها حجة لنا عليه فكان مثله كمثل من استدل على تحريم الصلاة بقوله تعالى «يا أيها الذين امنوا لاتقربوا الصلاة» وسكت عن قوله «وانتم سكارى» الخ

هذا نص الآية (٣: ١٥٩ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين) فهل تدل هذه الآية على ان تلك الاخلاق العالية والمعاملة الحسنة كانت بتأييد الله اياه وتأديبه له بالقرآن كما نعتقد نحن المسلمين أم كانت بسياسته وحنكته أي تجاربه صلى الله عليه وسلم كما يقول الشيخ علي يوسف تأييداً لكلام البرنس كايتاني ؟ ؟

ألم يصرح جهابذة المفسرين بان قوله تعالى «فبما رحمة» يفيد ان هذا كان برحمة الله وتوفيقه اياه وان تأكيد السببية هنا بلفظ «ما»

يدل على الحصر كما في الكشاف ومعنى هذا انه لم يكن ذلك بكسبه واجتهاده ولا سياسته وتجاربه وانما هو بتأييد الله وتوفيقه . وذلك من آثار النبوة التي هي غير مكتسبة بالتجارب والسياسة ؟ ؟ ويؤيد ذلك بقية الآية وبامثالها وامثالها معونة تلك الرحمة كان رؤوفاً رحيما لا فظا ولا غليظا. ويدعم ذلك قوله في اخرها « فاذا عزمت فتوكل على الله» ولم يقل توكل على سياستك وتجاربك

ومن أمثلة هذا في القرآن قوله تعالى (٨٠ : ١عبس وتولى ٢ان جاءه الاعمى) الآيات وسببها معروف ملخصه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عظماء قريش الى الاسلام في أول الاسلام فجاءه عبد الله بن أم مكتوم الاعمى وهو من السابقين الاولين يسأله ان يعلمه فعبس (ص) وأعرض عنه لئلا ينفر من اقباله عليه أولئك الكبراء وكان من اجتهاده (ص) يومئذ ان الكبراء اذ دخلوا في الاسلام أولاً لا يلبث ان يتبعهم الناس فعاتبه الله على ذلك عتابا شديداً ونهاه عن مثل ما فعل فقال (٨٠ : ١عبس وتولى ٢أن جاءه الاعمى ٣وما يدريك لعله يزكى ٤او يذكر فتنفعه الذكرى ؟ ٥اما من استغنى ٦فانت له تصدى ؟ ٧وما عليك الا يزكى ؟ ٨واما من جاءك يسعى ٩وهو يخشى . ١٠فانت عنه تلهى ؟ ١١كلا) فعمل صلى الله عليه وسلم بهذا التأديب والتعليم الالهي من أول الاسلام فكان ذلك عونا على استمرار دعوته التى كان روحها والمؤثر الاكبر فيها هو القرآن لا السياسة والحنكة كما يدعي الشيخ علي يوسف

اما الدلائل النقلية على تأثير القرآن في جذب العرب الى الاسلام

فهي كثيرة وأذكر لسعادة صاحب المؤيد منها اسلام عمر رضي الله عنه وهو الذي أعز الله به الاسلام كما ورد . كان عمر في الجاهلية فظاً غليظاً ولما سمع باسلام اخته وختنه (زوجها) عظم عليه الامر فجاءهما وضربها حتى أدماها وكانت تقرأ هي وزوجها صحفاً من القرآن الكريم فأخفتها عنه فما زال حتى أخذها وقرأها فجذبته الى الاسلام جذباً وكان بعد ذلك من رحمته أن كان يطوف بالليل يتفقد المحتاجين وقصته في حمل الدقيق ليلا الى موضع تلك المرأة البائسة وطبخه مشهورة

وحسبك من تأثير القرآن ان كان الغالون في العناد والجحود من كفار قريش يهربون من سماعه لئلا يجذبهم الى الاسلام بقوة تأثيره (٢٦:٤١ وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

فأدعو سعادة الشيخ علي يوسف بعد هذا البيان الى الرجوع عما كتبه من قبل والتصريح بان قوة النبي الدينية ، كانت فوق كل قوة له بشرية ، وكل سياسة وحنكة عادية ، وان القرآن الحكيم هو منشأ آدابه واخلاقه وسياسته عليه الصلاة والسلام وان سيادته ونجاحه كانا بذلك قبل كل شيء وفوق كل شيء والسلام على من اتبع الهدى

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

وبعد ان نشرنا في الجريدة ما تقدم رأينا كثيرا من اهل العلم والغيرة مرتاحين مسرورين مما كتبناه وقالوا ان هذا الرد من فروض الكفاية قمت به فسقط الحرج عن كل عالم قادر عليه . وكتب الينا عبدالله افندي الانصاري مدرس العلوم العربية في المدرسة التوفيقية ما يأتي :

حضرة العلامة المفضال صديقنا الصادق في الله تعالى السيد محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله . اما بعد فلقد اطلعت في صحيفة المؤيد على ما نشرته من رأي البرنس كايتاني في محمد صلى الله عليه وسلم ومجادلتها عنه وعلى ماجاء في الجريدة عن ذلك وردكم هو الحق الصراح ، والنور الوضاح ، والبيان الفضاح ، لدسائس الملحدين ، لنور رب العالمين ، فجزاكم الله خيرا عن الاسلام واهليه ، والشرع وحامليه ، ولما رأيت مجادلة صاحب المؤيد عن ذلك الرأي ، واصراره على عدم رتق هذا الفتق ، والانصياع الى سلطان الحق ، محاباة في الرد ، ومداراة للقصد ، اختلست ساعة من أوقاتي المملوءة بالاشغال المدرسية ، كما لا يخفى لتحرير هذه المقالة تأييدا لرأيكم الاصيل ، وتسديدا لقولكم النبيل ، فأرجو نشرها ان استحسنتم في ناركم الرفيع والسلام عليكم اولا وآخرا وباطنا وظاهرا

من أخيكم عبد الله الانصاري

وهذه هي مقالة الاستاذ الانصاري المفيدة بنصها

لا هوادة في الدين

لقد جاء انتقاد الجريدة وردودها على ما نشرته صحيفة المؤيد من رأي البرنس كايتاني في مبلغ الرسالة الاسلامية واعجابها به مطفئا لما اتقد في صدور ذوي الغيرة على الدين بنفثات الذين يريدون المحاباة في الاسلام والتساهل الذي قد اتخذه كثير من دعاة المدنية المصرية من المسلمين وسيلة الى احداث شأن جديد في الدين عند من اكبرتهم نفوسهم ممن

ممن لا تروج لديهم بضائع اهل الملل والاديان ولا يروق في نظرهم ان ينسبوا ماجاء في الشرائع الالهية، وعلم من آداب الاديان السماوية، الا الى مجرد فطنة ودهاء واضعيها بصفة كونهم ساسة عقلاء لا رسلا وأنبياء

ذلك ما يقرع الاسماع كثيرا من بعض المخالفين في كنه العقيدة الاسلامية وما القصد من ذلك الا ان يتبعض اعتقاد المسلمين في قرآنهم القائم بين أيديهم الى الآن وتنفصم عراه من قلوبهم فلا يتمسكون به حتى يضعوا ايديهم في يد اهل المدنية الغربية ، ولو آل الامر الى المجازفة في مثل ذلك الرأي ونبذ عقيدة ان الدين وضع الهي وان الكتاب وحي سماوي لم يكن للرسل فيه ولا للالتفاف الناس حولهم الا التبليغ والتبيين « وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا » هوّن ذلك التساهل على سعادة صاحب المؤيد أن ينشر على ملأ المسلمين ذلك الرأي بصورة رائقة ويجادل عنه وكله كما لا يخفى على بصير مغامز مخالفة لصريح القرآن، هادمة لمبنى الايمان، اذ يجعل نجاح الدعوة المحمدية ، بما كان له صلى الله عليه وسلم من كمال الاخلاق البشرية والحنكة - التي ربما يقولون بعد «إنها كما تكون له تكون لغيره من البشر قبله وبعده من العقلاء المجربين، والساسة المحنكين» - اكثر من كونه نبيا مرسلا ، وصاحب كتاب منزل

هكذا قال أباة الحق من العرب ومكابروهم فيه وقد خصمهم الله وألزمهم الحجة وانتهى الامر باعتراف المؤمن وغير المؤمن بسمو مكانة القرآن الكريم عند من يدرك معناه ويتصور مبناه من حين نزوله الى اليوم . أما الآن وقد مضى على التنزيل اكثر من ثلاثة عشر قرنا فقد

اصبحنا نروج هذه الدعوى ونرضاها على لسان المسيو كايتاني ليقال انا متساهلون متسامحون ، او متنورون متمدنون

لست اقصد رمي سعادة صاحب المؤيد بما رمته به الجريدة من المروق لنشر هذا المعتقد وترويجه بين المسلمين وانما اقول أولا لا نصدق ان سعادته لا يصل ذهنه الى اعماق هذا الرأي وما وراءه ولا نسيء الظن فيه بكونه يرضاه عقيدة له فلم يكن هناك الا ذلك التساهل الذي ما ساق كثيرا من الناس اليه الآن إلا اعظام كل ماجاء على ألسنة متقصينا من موافق ومخالف ، والزهد فيما لدينا من تالد وطارف ، وإلا فليس ما رضيه الشيخ اليوم عن كايتاني بأهون مسا ولا اخف وخزا في احشاء الاسلام من ذلك الرأي الغابر الذي ارهف له قلمه وجرده يقطر غيرة وحمية ، ام هي الاهواء ، تقبح وتحسن ما تشاء ،

ما أخسرنا واضيعنا في كل حال لو بذلنا في اغراضنا ومقاصدنا الدنيوية إسلامنا وطوحنا بقرآننا في مهاوي التساهل الماحي والتسامح الماحق لندرك كلمه تقال فينا أو جذب عاطفة تشيدلنا بآثرقينا وادركنامن شأو المتقدمين ما تشرئب اليه الأعناق وما نحن ببالغي ذلك منهم ولو صرنا لعبادتهم خاضعين

نشأ محمد صلى الله عليه وسلم أميا بين اميين ليسوا اهل ملك وسياسة حتى بلغ الاربعين ولم يكن له من شؤون دنياه في اكثر حالاته الا الاشتغال بعبادة ربه والانقطاع عما فيه الناس حينئذ فهو الى ذلك الحين أبعد عن مجاري السياسة ، ومولج حيل الرئاسة ، حتى صدع بالدعوة بلا هوادة فيها وسار بها من أول امرها وفي جميع اطوارها برعاية ربه وعناية مرسله

سيراً حثيثاً كان له فيه القلب من أوله الى آخره بين جدال وجلاد، وبلاء واجتهاد، والقران لا غير مصدره ومورده، ومرشده ومعتمده، في كل شيء. ولقد كان يرجئ الامر حتى يتلقى فيه قرآناً ونحن نخاطب بذلك من يتصورون أطوار الرسالة المحمدية ويتخيلون حالة الامة العربية حينئذ ويمضون في فهم كتاب الله ويقدرونه قدره وما كان عليه العرب من النزول على حكم البيان الذي بلغ في القرآن مبلغ الاعجاز فكان عليه وحده في الهداية ونجاح الدعوة المعول اكثر من كونه صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم او ذا سياسة وحنكة

(وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض الا الى الله تصير الأمور)

لم يذق أحد من نبغاء المسلمين اليوم ولا قبل اليوم بقرون فضلا عن المسيو كايتاني حتى سعادة الشيخ علي يوسف ما ذاق أصحاب النبي في عهده من القرآن وهم في حجور الوثنية، واحضان الهمجية، فانتشلهم وطهرهم فكان موقع القرآن منهم موقع الزلال من ذي الغلة، والدواء من ذي العلة، والا فما كان يفعل محمد صلى الله عليه وسلم بدون تأييد الوحي المنزل الذي هو حجته الكبرى وآيته العظمى القائمة عند من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فلا يقال حينئذ « والا فالقرآن بين أيدينا ولم يعمل عمله فينا » (أولم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

لم يرتض اصحاب رسول الله ما قاله أبو سفيان وقد أقبلت جموع الفتح قبيلة قبيلة وهو قائم بين جمع من الصحابة وفيهم (العباس) أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم حتى اقبل مع ابي بكر وعمر في كتيبته الخضراء يقولون الحمد لله وحده، صدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فقال ابو سفيان (لعثمان) صار لابن اخيك ملك عظيم . فقال مه يا ابا سفيان انما ذلك الوحي والرسالة. فكيف نرضي او نقبل ان يكون ما وصل اليه نبينا من الظفر والغلب في أمر دعوته الى الله بسياسته وحنكته ، اكثر من نبوته ورسالته؟ اللهم انا نبرأ اليك من هذا براءة الحق من الباطل. فليصن سعادة صاحب المؤيد غيرته على الاسلام من ان يغمض طرفه على اذى فيه فرب تلميح انكأ من تصريح ، ومدح آلم من تجريح ، وليحفظ مكانته في قلوب أهل ملته ، من ان يحابي في دينهم ، على مرأى ومسمع منهم ، فانه لا هوادة في الدين

عبد الله الانصاري

(المنار) هذا وان الموضوع يتسع لاطالة القول وايراد الشواهد الكثيرة من الآيات الكريمة والسيرة النبوية وانما اكتفينا بما كتبناه على عجل في ادارة «الجريدة» لاننا نقصد به تذكير المسلمين ،لا إقامة الحجة على المخالفين ، وقد سكت صاحب المؤيد بعد نشرنا المقالة الثانية ويغلب على ظننا انه ندم على ما فرط منه ولكن كان يجب عليه ان ينشر حقيقة العقيدة الاسلامية في ذلك بالمؤيد ليطلع عليها من قرأوا كتابته الأولى اذ ما كل من يقرأ المؤيد يقرأ الجريدة (وبالعكس) ولو فعل لما نشرنا شيئاً من هذا البحث في المنار .

ما هي اللغة

خطبة احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية في نادي دار العلوم

الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهوره الى معونة الجهاز المخصوص الذي يكون به الكلام . وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع او المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس • ينتج من هذا ان الكلام يتنوع باختلاف الشارات التي تدل على الافكار وان تلك الشارات تنقسم الى قسمين طبيعية وصناعية

فالاولى هي التي تصدر عن الذات من حيث هي اي بمقتضى وجودها المادي وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الاعضاء ومثل الاصوات التي ليست الفاظاً والكلام اي النطق

والثانية خارجة عن الذات وهي تحدث من تأثير الانسان في المباديات الخارجة عنه وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى ان لها دواماً طويلا كان او قصيراً كالاعلام والنقش او الرسم والحفر والكتابة

ومما تقدم يتبين ان الكلام الطبيعي عام لكونه مفهوماً بذاته مع جميع الناس ومن الحيوان احياناً كما هو الحال بالنظر لشارات الاعضاء واصوات الغضب او الاستحسان من غير ان يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي او الاتفاقي لانه عبارة عن مجموع

الالفاظ المخصوصة الموضوعة للمعاني المخصوصة وعن التراكيب او الصيغ الناتجة من تأليف هذه الالفاظ لتوصل الى الذهن بواسطة الاذن او العين معاني مخصوصة متفق عليها

وقد يتأتى ان يكون الكلام الصناعي عاما اي ان كل الناس يدركون المراد منه كالرسم مثلا وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بأنها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم

والصحيح ان اللغة هي مجموعة العادات المخصوصة التي تجري عليها كل امة في التعبير عن اغراضها بواسطة الكلام او الكتابة وتقدم بيان معنى الكلام

ولا يصح اطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع الا اذا كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله لان قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة بحيث ان الاذن او العين ترسم في ذهن السامع او القارئ صورة المدلول كما هي ولا يتم ذلك الا باجتماع شروط ثلاثة

الشرط الاول ان يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره ابداً

الشرط الثاني ان تكون هذه العلامة قابلة للتغيير بتغير المدلول وتبعاً له

الشرط الثالث ان تكون قابلة للاشتقاق لمدلولها فاذا اشتق منه مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقية بهذا الاسم ثلاثة ايضاً الاول . ان يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن تمام المطابقة بين

الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا الا اذا سهل استعمال اللفظ قدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لاجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنيل هذه المزية اللهم الا لغة علماء الرياضة بل ان اللغات الاخرى لن تنالها ابداً

الثاني الملابسه وهي الخاصة الموجودة في الالفاظ او التراكيب اي الصيغ . تلك الخاصة التي يدرك بها افهام نظائر المدلول ونقائضه والملابسة تقتضي تحليل الفكر الانساني وذلك غير ميسور عادة في اللغات الاصلية الا نادراً

الثالث الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين ولصناعة ترتيب الالفاظ وتركيب الجمل ترتيبا وتركيبا ينتفي معهما الابهام ويرتفع الشك والالتباس ومن اللغات ما تميل باهلها الى الاغراب في التعبير ... في ظلمتها وتعسر فهمها وكلما كان القول طبيعيا اي بسيطا ... طرق الكلام على انها طريقة العلم ...

النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فاني
اجهل لغات امم اوروبا المعروفة بهذا
، غيرها فاجدها لغات ممتازة تماما
، هو لا يعرف كلمة واحدة
... ية هي لغة
.. عن اصلها
.. نه

على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة اجنبية . هم يعملون ذلك حتى في العلوم فترى الحكيم الفرنساوي وهو يقرر مذهبه عند ما يأتي على ما يخالفه من مذاهب الالمان اذا وصل الى معنى خاص باحدهم لم يفكر ان يعبر عنه بغير لفظه الالماني وهكذا ثم يذكر بهامش كتابه معناه

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يثير عاطفة الحنان والاشفاق عليها بل ما ازدادت لغاتهم بهذا الا طلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجري عند الامم الغربية عامة لتكون الالفاظ الغريبة عن لغتهم برهاناً عن سعة مداركهم ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلا على مصدر المسمى ومذكرة بجزء من ترجمته

قالوا ان ذلك جائز عندهم لتماثل احرف هجائهم واتحاد صورها واشكالها واما نحن فلا قبل لنا على عمل ما يعملون لاختلاف احرف هجائنا وصورها واشكالها ولست أرى في هذا الاعتراض الا انه دليل أحد امرين فاما شعور يعجزنا عن المجاراة لفتور في همتنا او قصور في معارفنا واما ان احرف هجائنا واشكالها وصورها محتاجة هي أيضاً الى الاصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير باشكال وصور تجعلنا ننطق كلامهم كما ينطقون وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون

نحن اما عرب او مستعربون واما اجانب عن لغة العرب او مولدون فان كنا الاولين فلنا حقنا في التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا وان كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام اصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد ان بادوا ليس لأحد ان ينازعنا في استعمال ما كان مباحاً لآبائنا من قبلنا وان كنا اجانب او مولدين فمن له ان يسيطر علينا ويحرمنا ثمرة الكد

في حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان

اخذ العرب العلوم عن اهلها ونقلوها الى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء في بعض المواضع ذللوها واخضعوا الغريب عنها لاحكامها فأيمرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على ادراك ماطلبوا من نور وعرفان

نسينا نحن ان زماننا غير زمانهم فكانوا اصحاب حول وطول وذوي مجد وسلطان ونحن على مانعلم من الضعف والانزواء على انهم في عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من انفسهم لم يعتزوا بلغتهم فينفروا من العجمة لانها عجمة بل استخدموها حيث وجب الاخذ بها تمكينا للغتهم وحذراً من ان يصيبها الوهن اذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم وهم اولو الرأي فيه وخوفا من ان يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الامم التي كانت تعاصرهم . أيجوز لنا أن نتخلف عن السير في طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم بحجة انهم انقرضوا وبادوا فلا حق لنا في متابعة الرقي ولا يجوز ان نخطوا بعدهم خطوة الى الامام؟ لكن من الذي استأجرنا حراسا من الحرس على هذه الوديعة؟ وباي قوة اخضعنا على الوقوف هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم أنقص في الافهام، ام قصر في الاجسام، ام جهل بانا من البشر لنا كل حقوق الانسان ؟؟

ليس لنا ان نتمسك بالقديم لقدمه وان اصبح عديم الجدوى ، والا فاولى بنا ان نكف عن الدرس والمطالعة وان نكتفي من كل شيء بما ورثنا

عن الاباء لنعيش كما عاش الاولون . غير اني ارجوكم ان تتعلموا الصبر فلا تجزعوا اذا اصابتكم مصائب التقدم فتركتم آخر القوم، ولا تحزنوا اذا حصرتكم عوامل الرقي فنيتم بين يقف متفرجا عليكم وانتم كالصور المتحركة الناطقة لكنها تتحرك بحركة هي عبارة عن اهتزاز الشيء مكانه وتنطق بلغة دائرة قد خلت من العلم الذي اصبح دارجا على ألسنة المتفرجين

جزع خصوم مذهبنا على اللغة العربية وحسبوها طعاماً سهل التناول والهضم في معد اللغات الاعجمية فاستجاروا من التعريب وصاحوا اننا لا نطيق اسما عجمياً يدخل عليها

أليست هي تلك اللغة الحافلة بالالفاظ والتراكيب العالية والقول الفصيح المصونة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهي لن تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها في كل عام بل ان هذا العمل مما يؤيدها ويشد أزرها ويرفع مقامها بين اللغات فلا يطمع الاعاجم في اعتبارها من اللغات الميتة

قالوا ذلك يفسد علينا لغة القرآن وما أسد ما اجاب به عن هذا الاعتراض حضرة الفاضل السيد رشيد افندي فلا خوف على القرآن مادام في الوجود مسلم . الا ترون أن القرآن محفوظ مصون عند من لم يعرف العربية من المسلمين البكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا تلك امم تعد خلقاً كثيراً من المسلمين لا يعرف الواحد منهم غير لغة امته وهو مع ذلك يحرص على القرآن أشد من حرص الجبان على دمه

أيعجزكم ان تحافظوا على القرآن بيمينكم وتفسحوا المجال في لغتكم للتقدم باليسار لتنالوا السعادتين وتكونوا من الناجحين في الدارين؟

قالوا العلم نافع قالوا كثير منهُ مخالف للدين قالوا الحضارة تهددنا فلنتقها بها قالوا هي تخالف الدين قالوا حدثت مستحدثات فسموها قالوا حرام عليكم ان كنتم فاعلين ٠ من جراء هذا قال الفرنج عنا انا قوم جامدون وما جمودنا الا من الدين فصحنا مع هذا وقلنا لهم بل انتم قوم ظالمون ٠ مالنا وللدين نجره في كل امر ونقيمهُ حاجزا في وجه كل باحث حتى في الامور التي يأمر هو بتناولها . يأمرنا الدين بتعلم ماخلق الله وان نسير على سنة التقدم التي سنها للبشر ونحن كل يوم في احجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب

عليكم بالتقدم فادخلوا ابوابه المفتحة امامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم في هذا الوجود ولا تقدم لكم الا بلغتكم فاعتنوا بها واصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون لكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس المعقول ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك او التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة وهي لا تلبث ان تدخل على لغة الخاصة ٠ اقيموا في وجه هذا السيل الجارف سدا من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين اه

(المنار) ألقى أحمد فتحي باشا هذه الخطبة في الاجتماع الثالث لنادي دار العلوم وزاد عليها ما جادت به البديهة ارتجالا من الفوائد والنصائح ٠ وخطب بعده حفني بك ناصف رئيس النادي خطبة مطولة في اللغة وفنونها ٠ واتفق الجمهور بعد ذلك على وجوب التماس الالفاظ العربية للمستحدثات بالترجمة والتجوز والاشتقاق ثم يلجأ الى التعريب ان لم يتيسر ذلك

وقد كتب الينا النادي صورة هذا الاتفاق بالعبارة الآتية وأرسلها الى جميع الصحف المشهورة :

﴿ قرار نادي دار العلوم في الترجمة والتعريب ﴾

« هذه صورة القرار الذي صدر بنادي دار العلوم في الساعة العاشرة من مساء يوم الخميس ٢٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بعد سماع ما قاله جميع الخطباء في موضوع تسمية المسميات الحديثة فقرر ان يكون العمل على النحو الآتي : يبحث في اللغة العربية عن أسماء للمسميات الحديثة بأي طريق من الطرق الجائزة لغة فاذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الاعجمي بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ويستعمل في اللغة الفصحى بعد ان يعتمده المجمع اللغوي الذي سيؤلف لهذا الغرض رئيس النادي

حفني ناصف

(المنار) قد تحامى رئيس النادي في عبارته اللفظ الذي اتفق عليه جمهور من حضروا الاجتماع الاخير من اعضاء النادي وغيرهم وهو لفظ (التعريب) فقال « يستعار اللفظ الاعجمي » وهو يرمي بذلك الى عدم تسمية ما يؤخذ من الكلم الاعجمي معربّاً محافظة على اصطلاح المتقدمين . ولكنه عبر بلفظ اصطلاحي آخر من الاستعارة وهو لا يقصد به معنى الاستعارة في فن البيان وانما يقصد معناه اللغوي الموافق للاصطلاح الشرعي والمتبادر انه يرمي بذلك الى ان هذا الاخذ يجب ان يكون من قبيل العارية التي تستعمل زمنا ثم ترد ولكن هذا خلاف ما وافق عليه الجمهور كما تقدم ولعله قرار خاص لمجلس ادارة النادي . وعلى هذا يكون الخلاف في المسألة على حاله

الدين الاسلامي والمدنية

رسالة لصاحب التوقيع اقتبس بها بعض شهادات علماء الأفرنج للاسلام والعرب نشرناها ترغيبا لمثله في هذا الموضوع وان سبق لنا نشر هذه الافكار في المنار

(فهرس) حالة العالم قبل وجود الديانة الاسلامية ـ حقيقة الديانة الاسلامية ـ أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته ـ الدين الاسلامي دين الفطرة ـ الدين الاسلامي دين المدنية والترقي ـ سديو ودروي ـ اثبات نبوته صلى الله عليه وسلم ـ قول العمرانيين فيه ـ حكم المؤرخين عليه ـ الاسلام ليس بدين جديد ـ الدين الاسلامي ليس بالدين الضيق ـ كل رقي في العلوم الطبيعية يدعو الى التقرب من الديانة الاسلامية ـ الدين الاسلامي هو أنشودة الفلاسفة في المستقبل

***

اني أكتب ما أكتب عالماً علم اليقين ان الديانة الاسلامية ليست بالشيء العويص الذي لا يمكن للانسان استكناه مجاهيله، أو استشفاف مساتيره، بل هي مما يمكن تحققها بالاختبار والتجربة اذا صعد الانسان بمنطاد بحثه الى سماء الحقيقة غير متعصب لفريق دون آخر فهذا يطل الانسان على كبد حقيقتها ويعرف كنهها من سمو ترتيبها ومتانة قواعدها واحكام نظامها فيحكم بأنها ليست بالديانة التي أوجدتها قريحة آدمي مهما حاز الصفات والكمالات ولكنها هي هداية الٓهية، تخالف جوهرها جوهر الافكار البشرية ـ

ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب وقد كان قومه في هوة الانحطاط بعيدين عن التمدن والرقي الفكري يدلك على ذلك وأدهم لبناتهم ومن على قيد الحياة وعبادة الاوثان وغير ذلك من الاخلاق الذميمة التي تفضي بمتبعها الى الخسران والهلاك المبين وليست بلاد العرب فقط هي التي كانت في تلك الحالة بل ما جاورها ايضا من بلاد الرومان في الغرب وبلاد العجم في الشرق فان هاتين الدولتين كانتا يتنازعان الحياة وناهيك بما حصل في شأن ذلك من الفتن والقلاقل التي لم تدع قلباً سليما في البشرية يتمتع بالراحة الا واسقته مما هو أمرّ من الصاب والعلقم — كل هذه القلاقل المزعجة والكوارث المدلهمة جاء الاسلام ليمحوها من على ظهر الوجود وليؤيد السلام العام والوئام التام وليكون واسطة بين التمدن الحديث وبين التمدن القديم فلم يمض غير قليل بعد وفاته صلى الله عليه وسلم الا ورأينا بلاد العرب في وقت واحد ترسل جيشين أحدهما لمحاربة القياصرة والثاني لمحاربة الاكاسرة ففتحوهما وانهالت عليهم خيراتهما وظلوا ناهجين في التقدم الى ان بلغوا في ظرف ثمانين سنة مالم يبلغه الرومان في ظرف ثمانية قرون واستخرجوا كنوز اليونان والاعاجم والهنود في العلوم والمعارف وبلغوا الطبقة الثالثة من الرقي في العلوم الطبيعية وهي طبقة الامتحان والتجربة واليك شهادة عالم من كبار علماء الطبيعة

قال: « يجب علينا معاشر البحاثين ان نهتم بالكنوز التي تركها العرب فان فيها حقائق وأفكاراً سامية تدعو الى الاكتشاف والاختراع لان العرب تقدموا في العلوم الطبيعية تقدماً مدهشاً للغاية حتى بلغوا الطبقة الثالثة من الرقي فيها الا وهي طبقة الامتحان والتجربة وناهيك ان نظرية الانحراف في

خص

كتب هي

في الآلات

النظر وانعكا

والنظر كتاباً في ا

ومقدار الاشياء الظا

عند الشروق أو الغروب

وقال أيضاً دروى في

لا يرون الضوء الا من سم ا

الاسلامية من علوم ادب وفلسـ

كانت بغداد والبصرة وسمرقند ودم

مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنه

أوروبا في القرون المتوسطة مكتشفات

وهذه هي اقوال الفلاسفة وكبار المو

دلنية على ان الدين الاسلامي دين الترقي والمدنية . هذه هي آثار الدين وآثار اهله الذين تمسكوا به واما حقيقة الدين فهى كما قال مسيو مسمير رئيس الارسالية المصرية رداعلى الفيلسوف ارنست ريناز في خطبة له في جمعية العلماء « نحن معاشر المحققين من الفلاسفة نقول ان من تأمل كلام القرآن رأى ان محور الاسلام الوحدانية وقطبيه المؤاخاة وتحسين شؤون العالم بالتدريج بواسطة العلم وهذه هي حقيقة اسباب نصرة الاسلام » وقال كاتب آخر من مشاهير كتاب الغرب في مجلة (الكوارترلى رفيو) في مقالة عنوانها (الاسباب الحقيقية في ارتقاع وانحطاط الامم الاسلامية) « لما كان الدين الاسلامي جامعا بين الدين والدنيا كان ذلك من اهم اسباب كثرة الواردين اليه فان الرجل عند ما يسلم يصبح اخا لثلاث مئة مليون من النفوس له مالهم وعليه ما عليهم ولعمري ان ذلك مما يزيد علائق المحبة ويربط الهيئة الاجتماعية ثم استدل على ذلك بكلام كتبه بوسويرث سميث في كتابه المسمي (محمد والديانة المحمدية) لا حاجة لنا بسرده في هذا المقام

يرى القارئ الكريم من خلال هذه السطور التى كتبناها عن الديانة الاسلامية مستندين على أقوال الفلاسفة والحكماء وكبار المؤرخين والكتاب ان الديانة الاسلامية تزداد كل يوم في الحجج ويشهد العلماء المحققون بروحانيتها حتى أن المسيو ارنست رنان الذي حمل حملته على الديانة الاسلامية والعلوم العربية كتب بعدان زمجر واوعد وابرق وارعد «ان في دين الاسلام احكاما رفيعة المقام وما دخلت جامعا الا وحصل لي انجذاب لدين الاسلام وتأسفت على عدم كوني مسلما لولا ان هذا الدين أخر العقل البشري وحجبه عن التأمل في حقائق الاشياء » ولكن

عبارة مسيو رنان الاخيرة ليس لها ادنى نصيب من الصحة وقد علم من كلامنا الذي أسلفناه الجواب الشافي من علة المسيو رنان. والى هنا نمسك عنان اليراع عن الخوض فى هذا الموضوع فان في ذلك القدر الكفاية ، لارباب العقول والهداية ،
علي سيد يوسف

(المنار) ان حكيمي الاسلام السيد جمال الدين والاستاذ الامام قد ردا في اوربا على رينان ، وقطعا ماجاء به من الزور والبهتان ، بسيف الحجة والبرهان ، حتى اضطر الى الاذعان ، فرحمهما الله وحباهما الروح والريحان



كلمات عن العراق واهله

﴿ لعالم غيور على الدولة . ومذهب أهل السنة ﴾

العراق ولا ازيدك به علما من افضل الاقطار تربة وطيب هواء وعذوبة ماء وبه أنهار عظيمة كدجلة والفرات وزياله وقارون تنساب فيه انسياب الافعوان ، وتخترق منه كل مكان ، غيران اكثره خراب ، ينعق فيه البوم والغراب ، لعسر المواصلات وفقد الامن وحرمانه من نور المعارف والمدنية . والحكومة فيه كما هي في غيره : عبارة عن شركة سلب ونهب وفساد ، تعمل في خراب البلاد وهلاك العباد ، وهم في غمرتهم ساهون ، وعن الدسائس الاجنبية عمون ، حتى أصبح بر العراق كله

أجمع لفنون الفضل وصفات الكمال كشكري افندي الآلوسي وابن عمه الحاج علي افندي فلقد رأيت من سعة اطلاعهما وقوة دينهما وسلامة عقيدتهما السلفية واستنارة عقولهما ووقوفهما على حكمة الدين واسراره، واطلاعهما على أمراض الاسلام، والتهابهما غيرة وحمية على الدين ومجاهدتهما في سبيله فريقا من الجامدين من المقلدة وعباد القبور مابهرني وعشقني فيهما. ولقد اوذوا في هذا السبيل وامتحنوا فما ضعفوا وما استكانوا ولا يزالان يصدعان بالحق ويهتفان بضرورة الاصلاح مع منازعة اليأس لهما . واعداؤهما من عبدة القبور والأوهام وانصار التقليد والخرافات ينبذونهم باسم الوهابية لينفروا منهم، ويحرضوا الحكومة على اضطهادهم غير أن حزبهم من ذوي العقول النيرة وطلاب الاصلاح أخذ ينمو عدده ويكثر عضده، وكلهم أو جلهم من الاعيان، وذوي المكانة ورفعة الشان، ولم أر احدا يقدر مؤلفات ابن تيمية وابن القيم قدرها مثلهما . . . تمشق غريب فيها وقد سعيا في طبع الكثير . . .

تتبعهما والسعي في طبـ الادا . . .

بالشيخ نعمان افندي الآلوسي رحمه الله لتأليفه كتاب (جلاء العينين في محاكمة الاحمدين) وذمه وذم عائلته وذكر انهم أصيبوا بالمحن فلم يعتبروا ولا اتعظوا. ويزعم انه من مجددي الدين في هذا العصر. وهكذا بلغ به الغرور الى هذا المبلغ والجنون فنون» اه ما أردنا نشره من هذه الرسالة ويليه كلام حسن في الاستاذ الامام والمنار وصاحبه يتعلق بالاصلاح أضربنا عن ذكره مع حمد كاتبه وشكره

ونقول قد ذكرتنا هذه الرسالة بما كنا كتبناه في المجلد الثاني من المنار (في رمضان سنة ١٣١٧) من نشر مذهب الشيعة في العراق وهذا نصه :

قرأنا في بعض الجرائد ان الدولة العلية قد عزمت على ارسال بعض العلماء الى سناجق البصرة والمنتفك وكربلا لارشاد القبائل الرحالة هناك وقرأنا في بعضها انه قد صدرت الارادة السنية بذلك فملا ونحمد الله تعالى ان الدولة العلية قد تنبهت لهذا الامر قبل ان يخرج من يدها بالمرة فقد سبقها الشيعة وبثوا الوعاظ والمرشدين في هذه القبائل وغيرها من العربان الضاربين على ضفاف الدجلة والفرات فادخلوا معظمهم في مذهب الشيعة . يذهب الملا الشيعي الى القبيلة فيمتزج بشيخها امتزاج الماء بالراح بما يسهل عليه من أمر التكاليف الشرعية ويحمله على هواه فيها كاباحة التمتع بالعدد الكثير من النساء الذي له الشأن الاكبر عند أولئك الشيوخ وغير ذلك حتى يكون وليجته وعيبة سره ومستشاره في أمره فيتمكن الملا بذلك من بث مذهبه في القبيلة بأقرب وقت ويكتفي من السياسة غالبا بافهام القوم ان رئيس طائفة الشيعة المحقة شاه العجم ورئيس الطائفة الاخرى المسماة بالسنية السلطان عبد الحميد ولا شك ان هؤلاء

يكونون عوناً لرئيس مذهبهم اذا وقع نزاع (لا قدر الله) بينه وبين رئيس المذهب الآخر وان كانوا في بلاد الآخر ويمكن للدولة العلية ان تتدارك الامر بعض التدارك اذا كان الذين تختارهم للارشاد والتعليم أهل حكمة وغيرة حقيقية يهمهم الاصلاح والارشاد بحيث يقدمونه على منافعهم الشخصية على ان الذي يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة لا يحرم من أجر الدنيا بل ربما كان نجاحه أتم وقد استغنى جميع دعاة الشيعة في تلك القبائل مع حصولهم على غرضهم في نشر المذهب . وليبدأ دعاة الدولة العلية بمن على الفرات فان فيهم عدداً كبيراً لم يزل على مذهب أهل السنة ، والله الموفق اه (من ص ٦٨٧ م ٢)

هذا ما كتبناه من نحو تسع سنين . ونقول الآن أن أكثر من اجابوا دعوة علماء الشيعة هناك لم يكونوا على شيء من مذهب أهل السنة فاذا كان اولئك الدعاة يبثون فيهم الوعاظ يعلمونهم الفرائض واحكام الحلال والحرام فان ذلك يكون خيرا لهم في دينهم من الحالة التي كانوا عليها ، فنحن لا نعد الامر من الجهة الدينية بلاء نازلا كما عده الاستاذ كاتب الرسالة ولكن الامر مهم من الجهة السياسية فان السياسة هي التي كانت ولا تزال مثار الخلاف بين أهل السنة والشيعة ولولاها لما كان خلاف وما أضاع الدين والدنيا علينا الا الخلاف . وقد كان طلاب الاصلاح بالوحدة الاسلامية مغتبطين بما حصل في هذه السنين الاخيرة من التآلف والتعارف بين الفريقين حتى وقع أخيرا ما وقع من التعدي على الحدود فباتوا يخشون ان تهدم السياسة السوءى في سنة واحدة ما بناه دعاة الاصلاح في عشرات من السنين . فنسأل الله ان يقي الاسلام شرها ويكفي المسلمين فتنها وضررها

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

أسئلة من الحجاز

﴿ القطب والابدال والانجاب والخضر وسند أهل الطريق ﴾

(س١-٧)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

حضرة الاستاذ الحكيم والمصلح العظيم علامة الزمان سيدي العزيز السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار حفظه الرب المنان

أحييكم تحية تليق بمقامكم الكريم واسأل الله تعالى ان يحفظكم بحفظه السرمدي وان يهدي الله بكم الضالين . وها أنا ذا مقدم لمقامكم الكريم أسئلة ذات بال نرجوكم الجواب عنها على صفحات ناركم المنير

ذكر الشيخ يوسف النبهاني في كتابه شواهد الحق (ص ١٠١) أحاديث استدل بها على وجود الاقطاب والابدال والانجاب والاوتاد والنقباء ووجود الخضر عليه السلام وهذا لفظها :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في الارض ثلاثمائة قلبهم على قلب آدم وله أربعين قلوبهم

على قلب موسى وله سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم وله خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل وله واحد قلبه على قلب اسرافيل فاذا مات الواحد أبدل الله سبحانه وتعالى مكانه من الثلاثة . الخ

عن علي رضي الله عنه انه قال البدلاء بالشام والنجباء بمصر والعصائب بالعراق والنقباء بخراسان والاوتاد بسائر الارض والخضر عليه السلام سيد القوم الخ

ولم يذكر النبهاني سنداً ولا من أي كتاب من كتب الحديث أخرجها فأرجوكم أن تفيدوني هل تصح هذه الاحاديث وهل الخضر عليه السلام حي الى هذا الزمان وما قولكم فيمن يكذب بوجود الخضر وغيره من الاقطاب نرجوكم الجواب الكافي الشافي

وفي كتاب النبهاني شواهد الحق ص ١٣٢ يقول ان الشيخ الامير أجازه بثبته وما اشتمل عليه من علوم الشريعة والطريقة ومن معقول ومنقول وذكر سنده من الامير الى الحسن البصري عن سيدنا علي عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن اسرافيل عن عزرائيل عن اللوح عن القلم عن الرب الجليل جل جلاله وتقدست صفاته واسماؤه

ارجوكم ان تفيدوني عن هذه الاجازة بهذه الصيغة المذكورة هل هي معتبرة عند المحدثين ويعمل بها ام هي ضرب من الخرافات وما على من من انكرها وهل يصح اجتماع الحسن البصري بسيدنا علي ام لا أفيدوني ولكم الاجر سيدي

في كتاب النبهاني صحيفه ١٣٠ قال ومن كتب الامام ابن تيمية

كتاب العرش قال في كشف الظنون ذكر فيه ان الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش وقد اخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك ابو حيان في النهر في قوله سبحانه وتعالى « وسع كرسيه السموات والارض » وقال يعني أبا حيان قرأت في كتاب العرش لاحمد بن تيمية ماصورته بخطه : انتهت عبارة كشف الظنون ثم نقلها من طريق آخر عن السبكي وحط على الشيخ ابن تيمية ونسبه الى القول بالتجسيم وهو براء من ذلك . فلما رأيت هذه العبارة بحثت عن كتاب العرش ووجدته عند بعض الاصدقاء فقرأته مرارا ونسخته بيدي من النسخة وما وجدت لهذه العبارة رائحة والنسخة التي قرأتها ونسختها هي بخط يماني بدون نقط الظاهر انها كتبت من عهد قديم وكادت ان تمزق من قدمها ولحقتها الارضة . فما قولكم في هذه العبارة ايجوز نسبتها الى هذا الامام بعد ان بحثنا عنها فما وجدناها في كتابه؟ افيدوني ولكم الاجر سيدي

محبكم بالحجاز

م ح ن

﴿ أجوبة المنار ﴾

نقول قبل كل شيء ان الشيخ يوسف النبهاني لا يوثق بعلمه ولا بنقله، ولا ينبغي لكم ان تحفلوا بكتبه ، وقد سئلنا غير مرة عن بعض الخرافات التي يشها في كتبه الملفقة فلم نجب السائلين بشيء ، اذ كان يتوقف ذلك على مراجعة الكتب التي يسألون عما ورد فيها وأي عاقل يسمح باضاعة وقته في مراجعة تلك الكتب ، اما وقد ذكرتم في هذا الرقيم ماسألتم عنه فاليكم الجواب والله الهادي الى الصواب

أما الجواب عن السؤال الاول فاعلم انه قد ورد في الأبدال عدة روايات لا يصح منها شيء وان اشار في كنز العمال الى تصحيح حديث علي عند احمد «الابدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الاعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب» وفي رواية عنه انهم ستون . وفي رواية عن عبادة عند أحمد وأخرى عن ابي هريرة انهم ثلاثون أخرجها عنه ابن حبان في تاريخه .

ولم أرَ أحدا من المحدثين الحفاظ خرج ماذكره النبهاني عن علي ولكن ذكره ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية على انه من كلام علي كرم الله وجهه لا من روايته المرفوعة الى النبي صلى الله عليه وسلم . وكذلك حديث ابن مسعود لم أر من أخرجه عنه باللفظ الذي ذكره . ولكن ابن حجر اورده في فتاواه بعد أثر علي عازيا اياه الى اليافعي (وذكر في نسخة الفتاوى المطبوعة بمصر الرافعي وهو غلط مطبعي) ولم ينقل عن ابن مسعود ولا غيره من الصحابة رضي الله عنهم . وكأن أبي ابن حجر نقل عن اليافعي ان الابدال سبعة على الاصح ولذلك قال بعد ان أورد حديثه «والحديث الذي ذكره ان صح فيه فوائد خفية (منها) انه مخالف للعدد السابق قبله . (ومنها) انه يقضي ان الملائكة أفضل من الانبياء ؟؟ يعني خلافا لجمهور أهل السنة» الى آخر ماقاله على تقدير صحة الحديث وماهو بصحيح فلا حاجة الى التعب في استنباط الفوائد والمباحث فيه . ثم قال ابن حجر بعد بحثه فيه «واعلم ان هذا الحديث لم أر من خرجه من حفاظ المحدثين الذين يعتمد عليهم ولكن وردت أحاديث تؤيد كثيرا مما ورد فيه

وذكر ماورد وحاول تقويته بالحديث الصحيح الذي رواه الشيخان

وغيرها من طرق كثيرة وهو « لا تزال طائفة من امتي قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي امر الله وهم ظاهرون على الناس » ثم نقل عن الامام احمد ان الابدال هم اهل الحديث وعبارته « ان لم يكونوا اهل الحديث فمن هم » واعتمد ابن حجر ان الخلاف في العدد من قبيل الاصطلاح

ثم ذكر واقعة له مع مشايخه في ذلك نذكرها هنا لما فيها من الدلالة على انهم كانوا يقلدون المتصوفة في هذه المسائل من غير ان يقوم عليها دليل من النقل قال

« ولقد وقع لي في هذا المبحث غريبة مع بعض مشايخي هي اني انما ربيت في حجور بعض اهل هذه الطائفة أعني القوم السالمين من المحذور واللوم فوقر عندي كلامهم لانه صادف قلبا خاليا فتمكن . فلما قرأت في العلوم الظاهرة وسني نحو اربعة عشر سنة (كذا) فقرأت مختصر ابي شجاع على شيخنا ابي عبد الله الامام المجمع على بركته ونسكه وعلمه الشيخ محمد الجويني بالجامع الازهر بمصر المحروسة فلازمته مدة وكان عنده حدة فانجر الكلام في مجلسه يوما الى ذكر القطب والنجباء والنقباء والابدال وغيرهم ممن مر فبادر الشيخ الى انكار ذلك بغلظة وقال « هذا كله لا حقيقة له وليس فيه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم » فقلت له وكنت اصغر الحاضرين معاذ الله بل هذا صدق وحق لا مرية فيه لان اولياء الله اخبروا به وحاشاهم من الكذب وممن نقل ذلك الامام اليافعي وهو رجل جمع بين العلوم الظاهرة والباطنة . فزاد انكار الشيخ واغلاظه علي ثم لم يسعني الا السكوت فسكت واضمرت انه لا ينصرني عليه الا شيخنا

شيخ الاسلام والمسلين وامام الفقهاء والعارفين ابو يحيي زكريا الانصاري وكان من عادتي اني اقود الشيخ محمد الجويني لانه كان ضريرا واذهب انا وهو الى شيخنا المذكور اعني شيخ الاسلام زكريا يسلم عليه. فذهبت أنا والشيخ محمد الجويني الى شيخ الاسلام فلما قربنا من محله قلت للشيخ الجويني لا بأس ان اذكر لشيخ الاسلام مسألة القطب ومن دونه وتنظر ماعنده فيها. فلما وصلنا اليه اقبل على الشيخ الجويني وبالغ في اكرامه وسؤال الدعاء منه ثم دعا لي بدعوات منها «اللهم فقهه فى الدين» وكان كثيرا مايدعو لي بذلك. فلما تم كلام الشيخ واراد الجوينى الانصراف قلت لشيخ الاسلام يا سيدي القطب والاوتاد والنجباء والابدال وغيرهم ممن يذكره الصوفية هل هم موجودون حقيقة؟ فقال نعم والله ياولدي: فقلت له ياسيدي ان الشيخ — واشرت الى الشيخ الجويني — ينكر ذلك ويبالغ في الرد على من ذكره. فقال شيخ الاسلام هكذا تفعل ياشيخ محمد؟ وكرر ذلك عليه حتى قال له الشيخ محمد يا مولانا شيخ الاسلام آمنت بذلك وصدقت به وقد تبت. فقال هذا هو الظن بك يا شيخ محمد. ثم قمنا ولم يعاتبني الشيخ الجويني على ما صدر مني» اه

فيؤخذ من هذه الواقعة أمور (منها) ان ابن حجر الهيتمي ترنى في حجر بعض أهل الطريق وصار تقليدهم وجدانا له لا يقبل فيه قول مشايخه وان كانوا اعنده من أئمة العلم والعمل والتنسك كالشيخ الجويني وهذا هو السبب في انكاره الشديد على شيخ الاسلام ابن تيمية الذي كان لا يقبل في الدين شيئاً الا اذا ثبت في الكتاب او السنة نصا أو دلالة. ومن اتبع وجد انه وشعوره النفسي في الأمر لا يقبل فيه دليلا وقد قال الاستاذ

الامام « ان غاية التصوف جعل الدين وجدانا للانسان الذي يتربى عليه لا يقبل فيه مناقشة ولا جدالا » وهذا حسن اذا لم يدس في الدين ما ليس منه.

(ومنها) بيان انه كان يوجد في علماء الازهر الاعلام الصالحين الى ذلك العصر من ينكر جهرا على من يقول بوجود القطب والابدال واضرابهم (ومنها) ان سؤال شيخ الاسلام زكريا عن المسألة كان مبنيا على ان ما يقوله الصوفية في القطب والابدال صحيح ام لا لا على ان ذلك هل صح في الاحاديث ام لا . وكذلك كان جواب ابن حجر لشيخه الجوفي فقد قال له ان الاولياء اخبروا بذلك وحاشام من الكذب ولم يقل ان ذلك قد صح في الحديث . وهذا يوافق قوله الذي أشرنا اليه آنفا في الاختلاف في عدد الأبدال انه من الاصطلاحات ولا مشاحة في الاصطلاح (ومنها) ان شيخ الاسلام لم يحتج على الشيخ الجوفي بحديث في ذلك . ونحن نقول أيضا ان الصوفية اصطلحوا على وضع هذه الاسماء لمسميات اعتبروا فيها صفات خاصة ولا مشاحة في الاصطلاح كما قال ابن حجر

وجملة القول ان حديث ابن مسعود الذي أورده النبهاني لم يروه الحفاظ عنه فهو مختلق عليه وان حديث علي لم يرد ايضا باللفظ الذي اورده النبهاني بل ورد بألفاظ أخرى أقواها ما اخرجه الامام أحمد وقد تقدم . ومن هنا تعلم ان النبهاني لا علم له بالحديث وانما هو حاطب ليل لا يوثق بنقله كما لا يوثق برأيه ولا يعتد باختياره فانه مقلد للمقلدين الذين يروجون الخرافات وكل ما يحظى صاحبه عند العامة : فهذا هو الجواب عن السؤال الاول

وأما الجواب عن الثاني وهو هل الخضر في الاحياء الى اليوم فاعلم

ان العلماء قد اختلفوا فيه فنفاه بعضهم وأثبته آخرون ولكن لم يقل أحد إنه يجب على الناس الايمان به والنفي هو الاصل وليس عند المثبتين دليل من كتاب الله ولا من الاحاديث التي يحتج بها ولا من الاجماع الاصولي (كيف والمسألة خلافية) والقياس لا مدخل له في المسألة فدعوى وجود الخضر في الاحياء لا تقوم لها حجة شرعية وانما تبع القائلون بها الصوفية لثقتهم بهم في كل شيء حتى انهم لا ينكرون عليهم ما يخالف الشرع مخالفة صريحة بل يؤولونه ان لم يؤولوا النص الشرعي . على أن بعض الصوفية يقولون ان الخضرية مقام أو مرتبة لبعض الصالحين يطلق لفظ (الخضر) على كل من يصل اليها . فما ذكر من اجتماع بعض الصوفية بالخضر يفسر بذلك . ومنهم الشيخ الاكبر صاحب الفتوحات المكية فانه يذكر انه اجتمع بالخضر كثيرا ويذهب بعضهم الى ان مراده بذلك الاجتماع الروحاني كما يقول انه اجتمع بفلان وفلان من الانبياء وغيرهم ممن علم موتهم باليقين كالسبتي ابن هارون الرشيد فاني قرأت له في الفتوحات انه رأى انسانا يطوف بالبيت مع الطائفين فينفذ من بين الرجلين المتلاصقين من غير ان يفصل بينهما او يشعر ابه فعلم انه روحاني فتبعه حتى كلمه وعلم انه السبتي ابن هارون الرشيد . وقد أطال السيد الآلوسي الكلام في هذه المسألة في تفسيره روح المعاني فكتب فيها عدة أوراق لعله أودعها كل ما قيل فيها وخرج منها على انه لا دليل على وجود الخضر حيا لا من الشرع ولا من العقل

وأما الجواب عن الثالث وهو ما حكم من يكذب بوجود الخضر وغيره من الاقطاب؟ فقد علم مما مر أنه لا يطالب مسلم بأن يؤمن بذلك ولم يقل أحد من أئمة الاصول والكلام إن ذلك من عقائد المسلمين فلا شيء على

من كذب ذلك وقد رأيت ان الشيخ الجويني كان ينكر ذلك وهو معدود من أئمة العلماء الصالحين بالازهر ولولا واقعة ابن حجر معه التي استتبعت معاتبة شيخ الازهر أو شيخ الاسلام زكريا لبقي على انكاره ككثير من العلماء

وأما الجواب عن الرابع وهو هل إجازة اهل الطريق التي ذكرها النبهاني معتبرة عند المحدثين وعن الخامس وهو هل أخذ الحسن البصري عن علي كرم الله وجهه فجوابهما «لا لا» قال الشوكاني في الفوائد المجموعة في الاحاديث الموضوعة: «حديث ان النبي صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة عند الصوفية باطل لا أصل له . قال ابن حجر «لم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية أحدا من أصحابه ولا أمر أحدا من أصحابه بفعل ذلك . وكل ما يروى في ذلك صريحا فهو باطل» وقال «من المفترى ان عليا ألبس الخرقة الحسن البصري فان أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعا فضلا عن ان يلبسه الخرقة» وقد صرح بمثل ماذكره ابن حجر جماعة من الحفاظ كالدمياطي والذهبي وابن حبان والعلائي والعراقي وابن ناصر» اه

واما الجواب عن السادس — وهو «ما على من انكرها» اي اجازة الصوفيه بخرقتهم عن الحسن عن علي — فقد علم جوابه مما قبله وهو انه ليس على المنكر لذلك الا ما على كل من ينكر الاحاديث الموضوعة المعزوة الى الرسول صلى الله عليه وسلم كذبا وافتراء عليه وهل عليهم الا الثناء الحسن؟

واما الجواب عن السابع وهو أيجوز نسبة تلك العبارة في التجسيم الى شيخ الاسلام ابن تيمية بعد ما وجد كتاب العرش الذي قيل انها فيه فتبين انها ليست

فيه «والجواب ان ذلك لايجوز بل كان من الادب مع هذا الامام الجليل أن يبرأ من مثل هذه العبارة وان وجدت في كتاب معزو اليه، ويحكم بانها مدسوسة في ذلك الكتاب عليه، فقد عهد من المضلين، ان يدسوا في كتب المشهورين، كما وقع للشعراني في حياته وأثبت هو وغيره وقوع ذلك لغيره . كيف لا وان بين ايدينا كتبا كثيرة في التوحيد من مصنفات ابن تيمية وكلها مؤيدة لمذهب أهل السنة الصحيح وسلف الامة الصالحين لاتعدوه قط

باب الاخبار والآراء

الى الاحرار في روسيا وفي البلاد العثمانية وفي سائر البلاد (*)

أيها الاخوان : نخبركم بمزيد الاسف ان الدستور الايراني الجديد صار على شفا السقوط بسعي الحكومة المستبدة. ثم ان حكومتنا الايرانية المستبدة لضعيفة امام حزب المجاهدين الايرانيين . ولكن ما الحيلة والحكومات المستبدة تتعاون وتتحد على اضطهاد الفقراء واستئصال المطالبين بالحرية والعدل . كانت الحكومات المستبدة المجاورة لفرنسا تساعد امبراطور فرنسا على محاربة طلاب الحرية كذلك تساعد الحكومة الروسية والحكومة العثمانية حكومة ايران المستبدة على اسقاط الدستور الايراني وتبديد شمل احزاب الاشتراكيين الديموقراطين في ايران

ايها الاخوان : اذا كانت الحكومة المستبدة تتعاون على محافظة استبدادها ومصالحها فماذا يكون اذا نحن معاشر الاحرار اتحدنا على محاربة الاستبداد والمستبدين فنحن معاشر حزب الاشتراكيين

(*) جاءتنا هذه الرسالة باللغة التترية فترجمناها ونشرناها

الديموقراطين الايرانيين نرجو من اخواننا الاحرار في روسيا والبلاد العثمانية وغيرهما من البلاد باسم الانسانية والحرية والنصيحة للنوع البشري ان يساعدونا في هذا السبيل ويظهروا امتعاضهم واستياءهم من الحكومتين الروسية والعثمانية اللتين لا تألوان جهداً في السعي لاسقاط الدستور الايراني بالتداخل في امور ايران الداخلية نحن معاشر المجاهدين نرفع اصواتنا على عتبة مجلس الشورى الايراني قائلين :

ليحي جميع الاحرار والناصحين لوجه الانسانية على وجه البسيطة ، لتحي الجمهورية الديموقراطية ولتسقط الحكومة المقلقة وليسقط الاغنياء الظالمون

حزب الديموقراطيين الاشتراكيين الايراني ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٢٥

فقيد الصحافة والوطنية

« مصطفى باشا كامل »

مالنا لا ننتهي من نعي" الا الى نعي" ، ولا نفرغ من ترجمة مبكي الا ونفجأ بتأبين مبكي ، وما بال أم لهيم تلتهم من المسلمين أشهر الكتاب والسياسيين ، فهاهي ذي قد اغتضرت اليوم أندى الصحافيين المصريين صوتا ، وأبعدهم في عالم السياسة صيتا ، وأشدهم في دهماء بلده تأثيرا ، وأكثرهم وليا ونصيرا ، مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء العربية ، ومدير جريدتي اللواء الفرنسية والانكليزية ، ورئيس الحزب الوطني الذي تأسس في مرض مماته ، واختاره رئيسا له مدة حياته ،

قضى رحمه الله تعالى عن أربع وثلاثين ربيعا قضى نصفها في السياسة ونصف هذا النصف في الصحافة ، باذلا فيها أخذ فيه جميع أوقاته ، مفرغا

فيه منتهى وجدانه وشعوره ، ومازال الشعور والوجدان، أقوى المؤثرات في الانسان، وقد أعجب بخطته في اللواء جمهور القارئين ، ثم تحزبت له نابتة كبيرة من المتعلمين ، بل عشقه بعض طلاب الحقوق عشقا، وملك قلوبهم ملكا، فظهر أثر تحزبها في تشييع جنازته بمظهر غريب، ماروي مثله من نسيب ولا قريب، حتى أثرت حالهم في جميع المشيعين، وجذبت قلوب الناظرين ، بل استعبرت المقل الجامدة ، وسعرت الافئدة الخامدة ، بل كان لهم بعد ذلك سلطان على اكثر الجرائد المصرية، حتى المخالفة للفقيد في آرائه السياسية، ومن كان بينه وبين اصحابها مناصبة شخصية، بل صار لهم ظهور سياسي يرجو الجذع نائله ، ويخشى القارح عقابله ، ومشى في جنازته خلق كثير ، في مشهد لم يعهد له نظير ، حمل فيه تلاميذ المدارس رايات الحداد ، يعلوها السواد ، وقدر عدد من شهد الجنازة بخمسة عشر ألفا ، ورأى بعضهم انهم يناهزون ثلاثين ألفا ،

كان رحمه الله تعالى مصداقا بينا لقوله صلى الله عليه وسلم « كل ميسر لما خلق له » فقد كان في سن الدراسة ، يحدث نفسه بالسياسة ، ويمنيها بالرياسة ، فيحدو به ذلك الى مثافنة الكبراء ، ويزجيه الى مناقشة الرؤساء والوزراء ، حتى فتحت له السياسة وهو في مدرسة الحقوق أبوابها ، وزينت له بأن يكون طلابها ، فآثر لحبها التناوة ، على المذاكرة بجد وعناية ، حتى ظهر أثر ذلك في الامتحان ، على ما كان عليه من اللوذعية وجرأة الجنان ، على انه نال بعد ذلك شهادة الحقوق في مدرسة طولوز الفرنسية

وكان كبير النفس ، طموحا الى المعالي ، جريء الجنان ، طلق اللسان ، قوي الشعور والوجدان ، متلافا للمال اذا اقتضت الحال ، فهذه هي الصفات

الفطرية ، التي أهلته لتلك الغاية الكسبية ، باقتراض الحوادث ، وموآتاة الوقائع ، ومساعدة الزمان ، واستعداد البيئة والمكان ،

أما استعداد البيئة فمنشؤه انه كان قد سبق لهذا الشعب حركة حيوية ، ونهضة اجتماعية ادبيه ، تلتها يقظة وطنية ، أنتجت ثورة شعبية عسكرية ، وعقب ذلك احتلال الانكليز للبلاد ، وايقاف حركة ذلك الاستعداد ، فسكتت الالسنة وسكنت الاقلام ، وغلت الايدي وقيدت الاقدام ، ولكن هذا الوقوف كان في الظاهر ، دون ماتنطوي عليه السرائر ، من ضغائن مضطربة ، وحفائظ مضطرمة ، وأوهام مفزعة ، وأحلام مزعجة ، مع مجاراة الامير توفيق للاحتلال ، وموآتاته له في كل حال ،

فبعد ان قضى الامير توفيق وولي الامير عباس دخلت البلاد في عهد جديد من الحركة الوطنيه ، تجلت فيه كتجليات الحقيقة الكلية ، فكان تجليها الاول هو التجلي العام ، الذي ظهر في الخواص والعوام ، وكان لسانه الناطق جريدتا المؤيد والاهرام ، ثم فتر التجلي في جميع الطبقات ، ثم ظهر في طبقة الضباط وقتا من الاوقات ، ثم فتر طائفة من الزمان ، ثم ظهر في مظهره الذي هو عليه الآن ، بأن نفخت روحه في الناشئين ، ففعلت فعلها في غير أصحاب العمائم من المتعلمين ، لان هؤلاء لا يعرفون لهم جنسية الا في الدين ، وقد كان مصطفى كامل (رحمه الله) هو المجلي في ميدان هذا الطور من اطوار التجلي ، ثم صار داعية النابتة الى هذه الوطنية وهاديها ، أو سائقها وحاديها ، وهي هي فوق المدعو والمهادي ، وامام المسوق والحادي ،

وقد كنت اعجبت بما رأيت من تجلي الوطنية اول مقدمي لهذه البلاد فكتبت فيها مقالة في المؤيد عنوانها (الحياة الوطنية) اعجب بها كثيرون حتى

استظهرها بعض أساتذة المدارس الاميرية ، ثم رأيت الدعوة موجهة الى جعل الوطنية جنسية للمسلمين، فانكرتها في المنار بالبرهان المبين، واكثرت من الكتابة فيها حتى في تفسير القرآن، ولا ينبغي لي الخوض في ذلك الآن ،

عرفت مصطفى كامل في السنة الاولى من هجرتي لهذه البلاد وكنت أراه كثيراً في ادارة المؤيد اذ كنت اطبع المنار في مطبعة الآداب وكان معجبا بالمنار حتى كان يهنئني احيانا ببعض المقالات ويقول لي انك قادر على خدمة الاسلام أنفع خدمة واجلها ولكن الكتابة لا تكفي وحدها فاطلب من الشيخ محمد عبده ان يجعلك خطيبا في أحد المساجد الكبيرة فان له نفوذا يمكنه من ذلك وهو صاحبك فيما أرى ولو كان لي به صحبة لطلبت لك منه ذلك ، ومن هذه العبارة يعلم رأيه في تأثير الخطابة

ثم اصدر جريدة اللواء — والمنار يومئذ في اصيل سنته الثانية — فنصحت له في تقريظها بان يتتبع ما يكتب في الجرائد الاوربية عن الاسلام ويترجمه لجريدته ليكون لها امتياز عن غيرها من الجرائد الاسلامية وان يترك ما اشترطه من عدم ارسالها الا لمن يدفع قيمة الاشتراك سلفا فساءه ذلك ولكنه علم بعد التجربة انه لباب النصيحة . وانتقدت عليه الارجاف بمسألة الخلافة العربية اذ كان كتب ان في مصر من يسعى لها سعيها وبينت له وجه الضرر في ذلك الارجاف . فكبر عليه ذلك وقطع المبادلة الصحافية بيننا وبينه وانحى علينا بعد ذلك كثيراً لما كان عليه عفا الله عنه من الشدة على من خالفه ولو مهضوما ، ونصر من وافقه ظالما كان او مظلوما، وكان الاول من اسباب بطء انتشار اللواء، على ما كان فيه من مواضع اعجاب الدهماء ، كالمبالغة في ذم المحتلين، وانتقاد الحكومة ،ومدح الامة، وتحامي الانتقاد عليها، والتنويه

بالاستقلال ، والتعجل بطلب محو الاحتلال ، ولكن اللواء صار في هذه المدة الاخيرة من اهم الجرائد المصرية واكثرها انتشارا . فرحم الله مؤسسه وعفا عنه ولعلنا نوفق بعد الى كتابة شيء عن العبرة بسيرته في حياته وموته ،

تاريخ العرب والاسلام

(في سلك القصص والروايات)

لاسلوب القصص المعروفة بالروايات تشويق للمطالعة لا ينال منه الملل ، وجذب الى القراءة لا يخشى معه السأم ، فاذا هي أودعت من الفوائد النافعة في التاريخ والآداب والاخلاق والسياسة وشؤون الاجتماع ما يتفق مع اللذة كانت من أقوى ذرائع تهذيب الجمهور ورفع طبقات العامة الى مستوى يتصلون به مع طبقات الخاصة حتى تكون الامة كسلسلة اذا تحرك أحد طرفيها انتقلت الحركة الى الطرف الآخر . وانه ليحزننا ان نرى اكثر القصص او الروايات كما يقال خالية من هذه الفوائد مشتملة على كثير من المفاسد ، تغري الفتيان والفتيات بالغرام ، وتجرئ الحيي على ارتكاب الحرام ، وتعلم الاغرار ، حيل الشطار ،

هذا واننا نحن المسلمين قد أصبحنا وامسينا أجهل الامم بتاريخنا ، وكيفية تلك النشأة الصالحة لملتنا ، وينابيع تلك الآداب ، التي أخضعت أمم المدنية اشرافهم من الاعراب ، ذلك بأن تاريخ تلك النشأة لم ينظم في السلك العلمي الحديث ، وانما هي روايات متفرقة كروايات الحديث ، لم يرزق من فلاسفة التاريخ من يستنبط حكمه كما رزق الحديث من الفقهاء من استنبط احكامه ،

فنحن الان في حاجة الى وضع تاريخ الاسلام في اسلوب علمي لاجل الخواص ، والى إيداعه في اسلوب قصصي يسهل تناوله حتى على العوام ، وقد كان الوضع الاول آخر عمل توجهت اليه همة الاستاذ الامام ، وفي عزمنا ان نخلفه فيه ان شاء الله وامهلتنا الايام ، وأما الثاني فقد شرع فيه صديقنا السيد عبد الحميد الزهراوي العالم الاسلامي والكاتب الاجتماعي ، وقد سمى الرواية الاولى (خديجة ام المؤمنين) وسننشرها في المنار بالتدريج ، وهاك مقدمتها في هذا الجزء

خديجة ام المؤمنين

(مقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن ، وقد كان له دوي قوي وأثر كبير في آسيا وأوربا وأفريقيا وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعاً الى كلمة النبي الذي قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك وفوزهم بهذا الهجوم وانتصارهم وغلبتهم على الامم وانضمام أمم كثيرة الى عقيدتهم وتكون ملكهم العظيم من حدود الهند الى البحر الاطلانتيكي شرقاً وغرباً ومن سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالا وجنوباً في أسرع ما عرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكر كأنه معتاد الحدوث كثيراً فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكر بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيه أولئك القوم بسرعة

جديرة أن نشبهها بلمح البصر . وبعضهم يتلقاه كما هو أي يفهم انه حادث من أكبر الاحداث التي حدثت في الدنيا ويراه جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر ولدى التأمل نجد هناك جزئين تمّ بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمد عليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به ونصروه من العرب . وبديهي ان أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبي في إقامة هـذا الصرح العظيم

ومن الامور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء ان هـذا الفضل الاول أي السبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشراف قومها هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الاولى من هذا الحادث العظيم لا تخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزمعت ان أقدم في هذه الاوراق لمحبي الفوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتطفاً هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ولكن رأيت من اللازم جدا قبل دخولي بالقارئ على سيرتها ان أمرّ به مرة على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة فان تعرفه بهم يساعده على معرفة هذه السيدة الجليلة

* *
*

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا معروفة نقف الآن عند هاتين الكلمتين ونلتفت قليلا الى مبحث لطيف نختصر فيه الكلام ثم نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام انهم يعرفون أصول أممهم الى أبي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون انهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لا يستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر من تلك الاصول والاوائل . ومن تسامح بتصديق ما يروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات ، ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لا يستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم الى أول أصل ؟ لا ندري ولكن يلوح لنا انه لذت للا كثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً

اما الباحثون عن انساب الشعوب فلما يئسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد آنسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (١) السامية و (٢) الاريانية و (٣) التورانية

وظاهر من هذا انهم لما أرادوا وضع اسماء للاصول القليلة التى تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض ما نقل في حكاية البشر مما قبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين فيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا، ويبقى

الخياليون مستمسكين بما قد حكي لهم من قبل وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجابها رؤية تماثيلها وما تماثيلها الا أساطير الاولين

اما نحن فنرى انه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لاننا اذا اشتهينا المعرفة فأمامنا مما قد نستطيع معرفته ما تنفد مراحل أعمارنا من غير ان نقطع في ميدانه شوطاً بعيداً، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما يجوز ان نطمع فيه

فاذا أردنا الآن ان نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء ان نريح أنفسنا من الطمع بمعرفة سلسلتهم الآدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا طمعنا من معرفة ذلك في سائر الامم فلهذا لا حاجة الى ما يذكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال أنى لهم العلم بسام ابي الشعوب السامية وكيف يبني أهل الفن مبادىء على شيء غير معروف بالطرق التي تفيد العلم اليقيني؟ وما أغنى من يريد ان يعرف جيلاً كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

* * *

يقول المؤرخون ان العرب ثلاثة أقسام (١) بائدة و(٢) عاربة و(٣) مستعربة اما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم الاولى، واما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان، والعرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم وهو لا يعجبني لان البائدة ليست بموجودة حتى تعد وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنها لم تبد، وقد

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسماً مستقلا ولم يذكروا لنا من هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسما مستقلا ولم يأتوا بدليل قويم على انه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل ما ذكروه ان اسماعيل الذي كان غريباً في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها ، فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يذكر اذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسما مستقلاً هو ثالث ثلثة أو ثاني اثنين اذا ذكر العرب ؟ لسنا ندري ولكننا نعرف ان هذا من جملة الاقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لا تزول فتغر الاكثرين وهي في الحقيقة لا تصبر على النقد والحك فليت أولي الالباب يكثرون من حك هذه المشهورات

وانما يعجبني جداً في هذا الباب ما روي من ان النبي العربي عليه السلام كان اذا انتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزه ويقول « كذب النسابون » (١) ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح

اما الذي لا ينير النقد من سطوع جوهره شيئاً فهو ان العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسباً تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه . والمشهور ان لقبائل الحجاز أصلا ، ولقبائل اليمن أصلا آخر ، وللقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين .

---

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتتمته : قال الله تعالى « وقروناً بين ذلك كثيراً »

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا ، فعدنان هوأبو عرب الحجاز غالبا، وقحطان هوأبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا

وان قال قائل كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون، متقاتلون متذابحون، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع، ولا يد لهم في الاعمال الاجتماعية ، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم ، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ولسنا نعرفهم الا بالاسلام ، فالاسلام قد جمع الاوزاع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت ان العرب كانوا يعرفون قبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم ؟ ؟

نقول لصاحب هذا القول ان العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم فاذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم ، واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا ان نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لان من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم لان في مملكتهم ملوكا وقوادا وولاة من العرب، والديانة المجوسية تعرفهم لان منهم من كان على دين ملوك فارس ، والكنائس تعرفت بهم لان منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا ، وبيع اليهود ما جهلتهم والفلسفة ما أنكرتهم ، والحضارة قد ألمت بمساكنهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم ، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟

ان العرب كانوا معروفين . ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر فاذا رجعوا الى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة الى أب لها ثم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا. ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير ابطالها أن يعني كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم . وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره أو كثر ماله انفرد بأهله وانضمت اليه الذرية ووضعوا لانفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الاولى لان لهم عند التناصر حظا منها عظيما

يذكر أحد علماء هذا الشأن ان العرب كانت قبائلهم ارحاء وجماجم فالارحاء هي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالارحاء على أقطابها الا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب. والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكتف باسم معروف بموضعه

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ما ذكروه عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وذلك انه رأى في منى رجلا على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ويوسعون له

فدنا منه وقال له: ممن الرجل؟ فقال «اني رجل من مهرة ممن يسكن الشجر» قال يزيد فكرهته ووليت عنه فناداني من ورائي: مالك؟ قلت «لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك» قال «ان كنت من كرام العرب فسأعرفك» قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت «اني من كرام العرب» قال فمن أنت؟ قلت «من مضر» قال «فمن الفرسان أنت أم من الارحاء؟» فعلمت انه أراد بالفرسان قيسا وبالارحاء خندفا . فقلت «بل من الارحاء» قال «أنت امرؤ من خندف» قلت «نعم» قال «من الارومة أنت أم من الجماجم؟» فعلمت انه أراد بالارومة خزيمة وبالجماجم بني اد بن طابخة . قلت «بل من الجماجم» قال «فانت امرؤ من بني اد بن طابخة» قلت «أجل» قال «فمن الدواني أنت أم من الصميم؟» فعلمت انه أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بني تميم . قلت «من الصميم» قال «فأنت اذاً من بني تميم» قلت «أجل» قال «فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الآخرين؟» فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم الآخرين بني عمرو وبني تميم . قلت «من الاكثرين» قال «فأنت اذا من ولد زيد» قلت «أجل» قال «فمن البحور أنت أم الذرا أم من الثماد؟» فعلمت انه أراد بالبحور بني سعد وبالذرا بني مالك بن حنظلة وبالثماد امرأ القيس ابن زيد . قلت «بل من الذرا» قال «فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة» قلت «أجل» قال «فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب؟» فعلمت انه أراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهشلا وباللباب بني عبد الله بن دارم . فقلت له «من اللباب» قال «فأنت من بني عبدالله بن دارم» قلت «أجل» قال «فمن البيوت أنت أم من الدوائر؟» فعلمت انه أراد بالبيوت ولد زرارة وبالدوائر

الاحلاف . قالت « من البيوت » ، قال « فأنت يزيد بن شيبان بن علقمة ابن زرارة بن عدس وقد كان لابيك امرأتان فأيهما أمك ؟

***

ولقد غلط من ظنوا ان العرب لم يكن لهم من حضارة ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط كلا بل كان لهم حضارات وملوكهم التبابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ . وملوك الحيرة في العراق مشهورون من عرف تاريخ الفرس عرفهم . ان جهل تاريخ العرب أولهم مالك بن فهم بن غنم بن دوس من سلالة الازد من ولد كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين وملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعد عمرو ابن أخيه جذيمة الابرش بن مالك بن فهم وجذيمة هذا هو صاحب الحديث المشهور مع الزباء (زنوبيا) صاحبة تدمر، وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جذيمة قتل أباها فاحتالت عليه الزباء وأطمعته في نفسها حتى اغتر وقدم اليها فقتلته وأخذت بثار ابيها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن اخته عمرو اللخمي جد الملوك المناذرة اللخميين .

والملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضا لا يجهلهم من عرف تاريخ الرومان اذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن الغوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .

وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وكان ابتداء ملكهم قبل الاسلام باربع مئة سنة وقيل أكثر من ذلك، ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاعة ومن بالشام من الروم، وبنى بالشام عدة مصانع ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة، وبنى بالشام عدة ديور منها دير حالي ودير أيوب ودير هند، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء. ثم ملك الحارث بن ثعلبة، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى القناطر وأدرح والقسطل، ثم ملك بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعه، ثم ملك بعده المنذر الاكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الاول، ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الايهم بن الحارث وبنى دير ضخم ودير النبوة. ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ثم ملك جفنة الاصغر ابن المنذر الاكبر، وهو الذي أحرق الحيرة، وبذلك سموا ولده آل محرق. ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر بن المنذر الاكبر ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر، وبنى قصر السويدا ولم يكن عمرو أبو النعمان المذكور ملكا وفي عمرو المذكور يقول النابغة الذبياني

علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان، وهو الذي قابل المنذر اللخمي بن ماء السماء. ثم ملك بعده النعمان بن الايهم بن الحارث بن ثعلبة، ثم ملك أخوه الحارث بن الايهم، ثم ملك بعده ابنه النعمان بن الحارث، وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض

ملوك الحيرة اللخميين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوهما حجر بن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثم ملك ابنه الحارث ابن جبلة ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث ، ثم ملك بعده الايهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسر وبنى له قصراً بالبرية عظيما ومصانع ، ثم ملك بعده اخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده اخوهما شراحيل بن جبلة ثم ملك اخوهم عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن اخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الايهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي اسلم في خلافة عمر ثم عاد الى الروم

***

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلف على الملك ابنه عمرو المقصور سمي بالمقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لانه وافق كسرى قباذ بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباذ المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شان الحارث المذكور فلما ملك انوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفساً من ذوي قرباه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث الى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجر أبو امرؤ

القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه ابوه على بني أسد بن خزيمة فبقي أمره متماسكاً فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طاعته ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أبياتاً منها

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه خلل

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد ابيه فاستنجد ببكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه وهربت منهم بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن السماء فتفرقت جموع امرىء القيس خوفاً من المنذر ، وخاف امرؤ القيس منه أيضاً فصار يدخل على قبائل العرب ، وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عاديا اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ثم سار الى ملك الروم مستنجداً به وأودع أدراعه عند السموأل وكانت مئة وفي مسيره الى ملك الروم قال قصيدة تشعر بلسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لاتبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقيال، وقد وقفت أمام الامم والاجيال، سنين من الدهر، لايعرف لها حصر، لعمرك ان القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين وانهم كانوا متشتتين من غير ملك جامع، ولا شرع وازع، هو قول يرسله صاحبه من غير ان يكلف نفسه بحثا وهو لما يحط بذلك خبرا

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا — ولدينا مزيد — كانوا هم أحق بمعرفة انفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم . وما نقل الينا عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شاهدة، وأمثاله امام أعيننا مشاهدة ، واذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق فان تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والنظائر الناطقة

فمن شاء ان لا يثق بمنقول البتة لا يصرفني رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا وانما يضره وحده . بقلل استفادته من المنقول ، ويكثر وساوسه وغروره ، ثم يصل الى درجة لا يثق معها أحد بمقوله . ومن شاء ان يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقشه لانه شهد لي على نفسه شهادة كافية

ولا أزيده شيئاً على ما أوضحت به ان العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم

* * *

من أجل هذا نؤمن بما نقل الينا من نسب سيدتنا التي نروي هنا سيرتها وهي خديجة القرشية فان هذا النقل من النقول التي لا تجد النفس حاجة للتردد في قبولها

وقد قلنا آنفاً ان لهؤلاء العرب المعروفين أصلين معروفين عندهم ومجهول ما وراءهما وهما عدنان وقحطان ، فاما قحطان فقد اختلف في ذريته

بحظها من الملك لأن كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته واما عدنان فان حظ ذريته تأخر قليلا ولكنه كان لعظمه متجاوز النسبة أي انه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفىء مجدهم وحظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور مبين بهر العالمين أجمعين

فلذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لاننا نريد ان يتعرف القارىء بقوم خديجة المخصوصين ٠ ‹‹ فعدنان ›› ولد له ‹‹ معد ›› ومعد ولد له ‹‹ نزار ›› وأولاد نزار أربعة ‹‹ مضر ›› واياد وربيعة وأنمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق ٠ ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالجود وقس بن ساعدة الايادي المشهور بالفصاحة ٠ ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر ووائل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب . ومن بني بكر ابن وائل بنو شيبان ومن مشهوريهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيفة ومن مشهوريهم مسيلمة الكذاب

وولد لمضر بن نزار ‹‹ إلياس ›› وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم مرضعة النبي (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر وصعصعة وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نمير وباهلة ومازن وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنترة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة وكان بين بني عبس وبني ذبيان حرب داحس التي ظلت أربعين عاماً ٠ ومن بني ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور

وولد لالياس بن مضر « مدركة » وطابخة ومن ذرية طابخة بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة

وولد لمدركة بن الياس « خزيمة » وهذيل والى هذيل هذا تنتسب جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور

وولد لخزيمة بن مدركة « كنانة » وأسد والهون وولد لكنانة ابن خزيمة « النضر » وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن بني عبدمناة بنو غفار ومن مشهوريهم أبو ذر ، وبنو بكر. ومن بني بكر هؤلاء الدئل. ومن مشهوريهم أبو الاسود الدئلي وبنو ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة « مالك » ولم يعرف له ولد سواه وولد لمالك هذا « فهر » وفهر هذا هو الذي سمي قريشاً ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر « غالب » ومحارب والحارث فمن محارب بنو محارب ومن الحارث بنو الخلج ومن مشهوريهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر « لؤي » وتيم الادرم ومن تيم المذكور بنو الادرم ومعنى الادرم ناقص الذقن

وولد للؤي بن غالب « كعب » وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة . ومن ذرية عامر بن كعب عمرو بن ود فارس العرب الذي قتله عليّ بن أبي طالب

وولد لكعب بن لؤي « مرة » وهصيص وعدي فمن هصيص

بنو جمح ومن مشهوريهم أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف وكلاهما كانا عدوين عظيمين للنبي (ص) ومن هصيص أيضاً بنو سهم ومن عدي بنو عدي ومن مشهوديهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرة بن كعب «كلاب» وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن مشهوريهم أبو بكر الصديق وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهوريهم خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام

وولد لكلاب بن مرة «قصي» وزهرة ومن ذرية زهرة سعد ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (ص) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا عظيماً في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي أثل مجدهم

وولد لقصي بن كلاب «عبد مناف» وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنو شيبة حجاب الكعبة ومن مشهوريهم النضر ابن الحارث كان من اشداء اعداء النبي ، ومن عبد العزى ايضا سيدتنا خديجة بنت خويلد التي نروي سيرتها

وولد لعبد مناف بن قصي «هاشم» وعبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس امية ومنه بنو امية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان مؤسس الملك الاموي . ومن المطلب ابن عبد مناف المطلبيون ومن ذريتهم الامام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم «عبد المطلب» ولم يعلم له ولد سواه . وولد لعبد المطلب «عبد الله» وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين

وولد لعبد الله بن عبد المطلب «محمد» النبي عليه الصلاة والسلام

مجلة المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء الثاني

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر

WWW.ALUKAH.NET

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر الاربعاء — ٢٩ صفر ١٣٢٦ — أول إبريل (نيسان) سنة ١٩٠٨)

كتاب مصر الحديثة للورد كرومر

نظرة إجمالية في الكتاب

أقام لورد كرومر في مصر نحو ربع قرن متصرفا بنفوذ الحاكم المطلق فعرف من أحوال حكومتها وسيرها الاجتماعي ما يعز على غيره من حكام البلاد أو نزلائها من الاوربيين ان يعرفوه ثم أودع زبدة ما عرفه في كتاب يدخل في ثلاثة مجلدات طبع اثنان منها وأوصى هو بطبع الثالث عقب موته لانه خاص بحال مصر في عهد الامير الحالي عباس باشا الثاني والظاهر أنه أشد الاجزاء وَطأً وأثقل قيلا على مصر والمصريين على ان الجزء الثاني لا تستخف وطأته ، بل لا تطاق كلمته ، فهو قد حكم

لكل الشعوب التى تتبوأ ارض مصر وطيها ولكنه حكم على المصريين لا لهم ولم يحكم عليهم بالمساواة بل فضل القبط على المسلمين تفضيلا من حيث دينهم وما فيه من المرونة التي تساعدهم على مجاراة المدنية مالا يساعد الاسلام أهله على زعمه

ولم يكتف بالحكم في قضايا الشعوب من حيث هو حاكم سياسي اجتماعي بل حكم ايضاً في قضايا الرجال المشهورين الذين عرفهم من بعض الوجوه وكان حكمه عليهم من غير الوجه الذي عرفهم به اذ حكم على مطويات العقائد ومكنونات الضمائر وخطرات القلوب

ولم يرضه هذا حتى رفع نفسه الى مستوى الحكم على الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة ونظام اجتماعي فحكم من الحيثية الاولى له وعليه ومن الحيثية الثانية عليه لا له وانتقل من الحكم عليه الى الحكم على أهله عامة حتى في مستقبل أمرهم فكان حكمه هذا صاخة تصخ المسامع وقارعة تصدع القلوب بل هو عبرة للمعتبرين وموعظة للمصريين وسائر المسلمين

رأيت حديث الناس في هذا الكتاب يدور على قطبين (أحدهما) الحكم على شعور الكاتب حينما دون حكمه على المصريين وعلى الاسلام والمسلمين فارأيت بينهم خلافا في كونه كتب بمداد الحقد والحنق وقلم الحفيظة والانتقام من المصريين بما فوقوا اليه من سهامهم ، وصوبوا اليه من اسنة اقلامهم ، في وقت مفارقته لديارهم ، وهو وقت ضاق فيه ذلك الصدر الواسع عن احتمال الانتقاد ، بله الشماتة والازراء ، على انه قد ظهر ضيق صدر اللورد قبل ذلك في تقريره الاخير ، ثم في خطبته التي خطبها قبيل الرحيل ،

هذا وأما القطب الثاني لحديث الناس في الكتاب فهو غرضه منه وقد رأيت أهل الفهم والذكاء يقولون من غير مواطأة ولا تقليد ان غاية اللورد من هذا الكتاب هي ان يستل من نفوس أحرار قومه فكرة توقيت الاحتلال ، والخروج من مصر في يوم من الايام ، ويقنعهم ويقنع أوربا معهم بأن لا ضمان لحفظ مصالح الاوربيين في مصر بل ولا مصالح المصريين الا ببقاء الانكليز في مصر لان المصري شديد التمسك بدينه الذي لا يتفق مع المدنية فان هو تركه واتبع هذه المدنية كما يحب الاوربيون ويحبون كانت مدنيته تقليدية لا حقيقية وكان بذلك شرا من المسلم المتدين وأشد عداوة للاوربي وللمسيحي ولو غير أوربي

ويرون ان تصريحه بعدم استحسان ضم مصر الى املاك انكلترا وما أظهره من الميل الى اعدادهم للاستقلال هو من التمويه وذر الرماد في العيون وإلهاء المصريين بالاماني والاحلام. وأصحاب هذا القول غافلون عن طرق الاستعمار الجديدة ومنها حكم البلاد باسم أهلها والرضى بالسلطة الفعلية بديلا من السلطة القولية وقد سبق لنا بيان لهذه الطرق في السنة الاولى من المنار وفي غيرها أيضاً

هذه صفوة الآراء التي دارت بين الناس في شعور مؤلف كتاب مصر الحديثة وفكره المستولي عليه عند الكتابة وفي غايته منه وذلك ضرب من ضروب انتقاد المصنفات مطروق الابواب ، معهود عند الكتاب ،

ومما ينتقد على هذا الكتاب وهو من أصول الانتقاد استنباط القواعد الكلية ، من شواذ الحوادث الجزئية ، ولم يسلم اللورد من ذلك فانه في المقابلة بين عقل الغربي والشرقي اورد الامثلة لعقل الشرقي الضعيف

التنظيم والادراك « لاعتقاده بالقضاء والقدر وخضوعه لكل سلطة تتولى أموره » فانه بعد ان دعم الحكم على عقل الشرقي بهاتين العلتين مثل للحكم الكلي العام بما نص ترجمته

(قال اللورد) «حدث أكثر من مرة ان المفتش في مصلحة الحديد المصرية حول الخط والقطار عليه لم يمر الا نصفه الى الخط الآخر فادى ذلك الى انقلاب القطار وحدث ايضا ان سائق قطار نسي احيانا اي مفتاح يجب ان يحرك لكي يوقف القطار وحدث مرة ان عمال السكة الحديدية قتلوا لانهم ناموا بعد ان وضعوا رءوسهم على الخط الحديدي وانما فعلوا ذلك ليثقوا بأنهم يستيقظون على صوت القطار الآتي »

ونقول ان أمثال هذه الجزئيات تقع في أوربا وفي جميع البلاد من جميع الشعوب وناهيك بالطبقة الدنيا من العمال فان ذكي الفطرة عالي النفس لا يرضى لنفسه بأن يكون من أحقر عمال سكة الحديد، وناهيك بالمبتدئين من أهل هذه المهنة بها والغالب ان يكون أصحاب ذلك الشذوذ الذي ذكره منهم . فمثال أمثال هؤلاء لا يصح ان يكون مناط المقابلة بين الشعوب في ارتقاء العقل وملكة النظام فيه . وانما ينظر في حالهم من جهة النشاط في العمل والصبر عليه ولعله لو قابل بين فعلة الاوربيين وفعلة المصريين في هذه المزايا لما قدر ان يبخس المصريين حقهم، وان ظن ان القضاء والقدر قد فتك باستعدادهم لكل عمل !! ونسي ان أكثر المستخدمين في سكة الحديد من القبط الذين هم على شاكلته في عدم الايمان بالقضاء والقدر

واني أذكر له شيئاً من بلادة بعض الاوربيين وغفلتهم هو أبعد عن العقل والنظام مما صدر عن صغار فعلة السكة الحديدية في مصر ناقلا إياه عن

كتاب صفوة الاعتبار لصديقه الشيخ محمد بيرم الثقة العدل رحمه الله تعالى فانه كتب في الفصل الذي عقده لبيان عادات أهل فرنسا وصفاتهم ما نصه:

« ومع ذلك (أي انتشار المعارف) فلا يزال في فرنسا خلق كثير على السذاجة والجهل . ودونك حكاية ظريفة تقيس عليها ما يقرب منها . ففي سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م كان أحد أصحاب العمل باليد مشتغلا جهة « باريس » وكان له ابن مشتغل جهة « بردو » فلم يوفر الابن من كسبه ما يشتري به حذاء فأرسل الى أبيه يشتكي له القل ويطلب منه شراء حذاء له فاشتراه له وحمله في الطريق وهو مفكر في كيفية إيصاله اليه فبينما هو ماش اذ مر محاذياً للسلك الكهربائي فقال هذا أيسر طريق ! ! إني أحمله الحذاء وهو يوصله لابني . فجاء الى عود السلك وعلق فيه الحذاء وأسر الى العود بقوله « أوصل هذا لابني فلان في المكان الفلاني » وذهب مسروراً باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف . ثم مر من غد متفقداً ما فعل السلك بالحذاء فوجد في ذلك المكان حذاء عتيقا أفناه اللبس ففرح وقال « ان ابني لعاقل حيث أرسل لي القديم لاستعين به على ثمن الجديد » فانظر الى هذه البلاهة التي لو صدرت من أحد المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بأنه وحشي بعيد عن المعارف وتهذيب الاخلاق »

(وقد صدّق ظنّه صديقه لورد كرومر فانه شنع على الشرقيين كافة بما وقع من بعض فعلة سكة الحديد بمصر)

(ثم قال بيرم) « واعلم ان مثل هذا الرجل كثير سيما في القرى الصغيرة والجبال بل وفي أهل المدن كثير ممن يعتقد بالخرافات الباطلة ويعتقد التأثير لاحجار وجمادات، ويتشاءم بالاوقات، فقد رأيت في كثير من بلدانهم

وبلدان الطليان وكذا الانكليز طاقات في حيطان فيها منارات توقد ليلا بالزيت أو بالشمع العسلي تقربا الى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب اليه بتلك الطاقة . ولا ينورونها بغير ماذكر من الانواع لان القسوس يقولون لهم ان شمع الشحم أو الغاز من البدع التي لا يتقرب بها . وكذلك يطلبون البخت وقضاء الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقاد حلول ارواح فيها . وقد ذكر من هذا النوع في كشف المخبا عن فنون أوربا ما يتعجب منه السامع مما ترى الاوربايين ومن تشكل بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عبئه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها سخرية وينزهون أوربا عن مثلها مع أنها حاوية لشبهها ولاشد منها . بل ربما أسند ذلك الجاهل او المتجاهل الى دياتنا الشريفة وحاشا لله ان تؤدي أو ترشد لمثل ذلك بل انها هي المهذبة والمنقذة من غياهب الجهل الى نور المعارف الحاثة على العلم وفتح البصائر » اه بحروفه

هذا ما قاله عن اهل فرنسا وهم أسبق الاوربيين الى العلم والمدنية واذ كانوا أذهانا . على أنه قال ان الانكليز كذلك بل قال في كلامه من عادات الانكليز وصفاتهم ما نصه :

« وأما أطوار الطبقة السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في همج الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون من أشياء كادت ان لاتحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى مايرطن لهم القسوس في الكنائس » الخ

أقول اما خرافات القبور والاولياء التي قال انهم يعيبون الاسلام

بمثلها وهو منها بريء فقد أخذها المسلمون عنهم وهم أخذوها عن اجدادهم أو مجاوريهم من الوثنيين فالاسلام والنصرانية الحقيقية بريئان منها وقد قال صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ - قال « فمن ؟ » رواه الشيخان وغيرهما

وان تعجب فعجب مقارنته في هذا المقام بين الاوربي مطلقا والعامي المصري في الحساب فقد قال بعد ماتقدم مترجمته كما في المؤيد:

« وقارن أيضا بين تقدير الاوربي للحساب وبين المصري العامي الذي يشكل عليه إشكالا كاملا كل أمر يتعلق بالارقام أو الكمية فان عددا قليلا من عامة المصريين يعرفون عمرهم . فاذا سألت المصري عن عمر رجل متقدم في السن يكون جوابه غالباً « ان عمر الرجل مئة سنة » ويقول في نفسه ماذا يهم التدقيق في هذا الامر أو أي أمر آخر علمي »

قلت ان هذا من مواطن العجب لان المقارنة فيه بين الاوربي المتعلم والمصري العامي ولماذا لم يقارن في الحساب والارقام بين المتعلم من الفريقين ؟ لعله لانه يعلم ان المصريين من اقوى الشعوب استعداداً للبراعة في الحساب وسائر العلوم الرياضية وقد أراد الانكليز منذ بضع سنين ان يجعلوا ترقية المهندسين منهم على المهندسين من المصريين مبنيا على قاعدة عادلة لظنهم أن الانكليز اعلم وأبرع فامتحنوا الفريقين فاسفر الامتحان عن فوز المصريين وتخلف الانكليز عنهم وسكت الفريقان على ذلك الامتحان فلم يعلموا به الجرائد . اما الانكليز فلما هو ظاهر واما المصريون فلخوفهم ان يحنق عليهم رؤساؤهم وينتقموا منهم

ومما ينتقد عليه في كتابه تقليده لغير واحد من كتاب الاوربيين في

آرائهم في الاسلام وكان أجدر من كثير من أولئك الكاتبين بمعرفة حقيقة الاسلام لو أراد أن يعرفه وينصفه فانه عاش في مصر عمراً طويلا وعرف أشهر علمائها بل أشهر علماء الاسلام المعروفين في العالم كله الآن وناهيك بالاستاذ الامام وطول باعه في علوم الدين ورسوخه في فهم القرآن وهو الذي لم يكن يحتاج في مخاطبته إياه وفهمه عنه الى ترجمان كما كان يحتاج في مخاطبة غيره من شيوخ الازهر . ولكنه لم يكن يسأله عن أصول الاسلام وحكمه وأحكامه ولا الاستاذ الامام كان يبتدئه بشيء من ذلك وانما كان يقصد اليه لاجل الكلام في المسائل المصرية لاسيما المحاكم الشرعية . ومما ذكر لي عنه انه كان يذاكره مرة في اصلاح هذه المحاكم ومعارضة قاضي مصر وبعض المشايخ ومقاديهم في ذلك كما حصل في مجلس شورى القوانين وذكر اللورد كثرة شكوى الاهالى من الظلم وضياع الحقوق في هذه المحاكم ولما بين له الاستاذ الامام انه ليس في اصل الشرع شيء ينافي الاصلاح العدل قال له اللورد هل تصدق يا أستاذ انه يخطر في بالي ان شريعة قامت على أساسها مدنية عظيمة تكون غير عادلة ؟ كلا انني أعلم ان كل هذه المفاسد مسائل « اكليركية » اي من تقاليد المشايخ التي تشبه تقاليد رجال « الاكليروس » عند النصارى

أنقل هذا بالمعنى كما احفظه عن الاستاذ الامام واستطرد من ذلك الى انتقاد ما كتبه اللورد عنه ثم ألخص كلامه في الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة وأبين خطأه وخطله فيه وانتقل من ثم الى المقصد الاعظم وهو مستقبل الاسلام والمسلمين ومراد اللورد وامثاله من أساطين السياسة واما نيهم في ذلك وما يجب علينا من العبرة

والعمل في هذا المقام ، مع تعدد السبل واشتباه الاعلام ،

قول اللورد في الشيخ محمد عبده

لم يسلك اللورد مسلك اصحاب التراجم من المؤرخين فيذكر ما للرجال الذين ترجمهم من الصفات والمزايا وما عليهم من التقصير وانما ألم بذكر بعض كبار الرجال المشهورين إلماما ولم ينظر الى أحد من المسلمين بعين الرضى كما نظر الى الشيخ محمد بيرم التونسي على أنه مدحه بشيء يراه هو مدحا ويراه جميع المسلمين ذما اذ قال فيه «علمه ذكاؤه الفطري ان النظامات التي تعلق بها أسلافه (يعني الشريعة التي جرى عليها المسلمون السابقون) لا بد أن تتلاشى اذا قابلتها المبادئ السامية المرقومة على راية الانكليزي !! رأى كل هذه الامور بعين الناقد البصير » وقال بعد ذلك ان مثله اذا ناقش المسيحي في الامور العامة يكون من النتيجة المحزنة أنه « يكتفي بندب مصير ذلك الدين الذي يحبه وذلك النظام المؤذي الذي اوجده دينه » ثم ذكر انه لا يوجد عند أمثال بيرم من خيار المسلمين طريقة قادرة على احياء الاسلام الذي هو في حالة الموت السياسي والاجتماعي !! ونحن نعلم فيما رأينا من مؤلفات الشيخ محمد بيرم وما سمعنا عنه ممن لقيه أنه كان متمسكا بهذا الفقه ويراه أحسن نظام ويعتقد انه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا كان مع ذلك يفضل عليه المبادئ والقوانين الانكليزية او يرى انه نظام مؤذ فكيف يكون راسخا ذلك الرسوخ في الاسلام ؟ أرى انه على إطرائه لبيرم في الدين قد ذمه من

حيث اراد مدحه ولم يعرف حقيقته الدينية كما هي ولا يرضي مريدي الشيخ محمد عبده ان يكون مثله مرضيا للورد في ذلك وان كانوا يعلمون انه لا يمدحهم هذا الفقه ولا اكثره من الدين . وانا نذكر الآن رأي اللورد في الاستاذ الامام في تقريره لسنة ١٩٠٥ ثم نشفعه برأيه في مصر الحديثة ونبين سبب الاختلاف بينهما

قوله فيه بتقرير سنة ١٩٠٥!

اختطفت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر أريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتيت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضياً في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فأصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثالا على نفع عمله الفتوى التي أفتاها في ما اذا كان يحل للمسلمين تثمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم باباً به يحل لهم تثمير أموالهم فيها من غير أن يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء

أما الفئة التي ينتمي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فمعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ

الجليل السيد أحمد الشهير الذي أنشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاماً . والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير أن يزعزعوا أركان الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لا تخلو من أساس ديني . فعملهم شاق وقضاؤه عسير لانهم يستهدفون دائماً لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخلص بعضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء أغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

أما مريدو الشيخ محمد عبده وأتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة الملية بمنزلة الجيروندست في الثورة الفرنسوية فالمسلمون المتطعون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم في سبيلهم . والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة . فهم وسط بين طرفين ، وغرض انتقاد الفريقين عن الجانبين ، كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين ، غير ان معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله ما يكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ماذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولا . وعسى الهيئة الاجتماعية أن تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد اليه المرحوم الشيخ

محمد عبده هو السبيل . الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الاوربيين . ولعلهم يجدون بعض التنشيط من قبلي قولا الرجل من اهل دينهم وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفاً والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة » وههنا ذكر عبارة عن كاتب هندي اسمه السيد محمود تضاهي عبارته في المقدار

ومما كتب في اواخر الفصل الذي يتكلم فيه عن المحاكم الشرعية ما ترجمته

« هذا واني أوافق السر ملكولم مكاريث على ماقال عن الضربة الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد عبده فقد أشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا التقرير وأعود فابسط الرجاء أيضاً ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لا تخور عزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم لذكراه أحسن اظهار بترقية المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته » اه

اما ماقاله السر ملكولم مكاريث وصرح به اللورد بموافقته عليه فهذا نص ترجمته

قول المستشار القضائي في الشيخ محمد عبده

« ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وان أبدي شديد أسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت هذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق

بالشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيراً للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها . وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء وظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد ان تكل اليه امر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . اما الآن فانه يتعذر وجود احد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلا تشعر بخسارتها بفقده » اه كلام المستشار

قول اللورد فيه بكتاب مصر الحديثة

أما الشيخ محمد عبده فكان عالما من طراز يفضل كثيراً طراز اخوانه الذين أشرت اليهم (كالسادات والبكري) وكان أحد زعماء الفتنة العرابية فلما جئت مصر سنة ١٨٨٣ كان مغضوبا عليه ولكن الخديوي توفيق عفا عنه بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك وعينه قاضياً فأحسن العمل وأدى الامانة حقها . وكان متوسعاً في آرائه وعلى علم ونباهة فلم

ينكر المساوئ الناشئة في الحكومات الشرقية وعرف انه لا بد من الاستعانة بالاوربيين للاصلاح الا انه لم يكن من عداد المصريين المتفرنجين وكان يقول انهم لم يحسنوا تقليد ماحاولوا تقليده من الاخلاق الاوربية وكان عدوا للخديويين والباشاوات وأريد بذلك انه لو عثر على باشاوات صالحين لما أعرض عنهم ولا عارضهم ولكنه لم يوفق الا الى عدد قليل من خيارهم مع اختباره الطويل . وحقيقة الامر ان الرجل كان مفطورا على الخيال ويرى آراء لا يمكن الجري عليها الا انه كان مع ذلك مصريا وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكون أمثاله كثاراً ولكن اذا نظرنا الى نسيج محمد عبده والذين يعلمون تعاليمه من جهة امكان اتخاذهم ساسة المستقبل نجد ان هناك بعض اوجه الضعف وقد قال المستر ستانلي لاين بول ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون أحد اثنين « اما متعصب او ملحد في سره » فمثل هذه الحيرة على شكل تخلف قد أوجدت عقبات في سبيل المسيحيين الذين يؤمنون بحرفية تعاليم المسيح دون معناها أنها عقبات أعظم للمسلم الاصيل الذي يبذل عناية كلية بحرفية تعليم دينه دون معناها وأخشى ان يكون صديقي محمد عبده في حقيقة امره « لا أدريا » ولو انه يستاء من هذه النسبة لو نسبت اليه . وكان معاشروه ومخالطوه يعلمون بمقدرته ولكنهم كانوا يرمقونه شزرا ويقولون انه « فيلسوف » وكل من يدرس الفلسفة اي كل من يدرك الفرق بين القرن السابع والقرن العشرين هو في أعين المتمسكين بالقديم سائر الى الهلاك لا محالة . هذا وان أهمية محمد عبده السياسية هي في أنه اسس مدرسة فكرية في مصر على مثال ما أسس في الهند سيد احمد

منشئ كلية عليكرة وغاية الذين ينتمون الى تلك المدرسة هي تزكية طرق الاسلام في عين الانسان او بالحري في عين الرجل المسلم ولكن شدة اشتباه المسلم المحافظ فيهم واتهامه اياهم بالمروق من الدين يمنعانه من المسير معهم طويلا وتزاحم من الجهة الاخرى غالبا غير متفرنجين الى حد ان يجذبوا اليهم المصري المقلد للطرق الاوربية فهم أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وادنى من المصرى المغالي في تفرنجه ولذلك ترى مهمتهم عسيرة جدا ولكنهم جديرون بكل تشجيع ومساعدة يمكن امدادهم بهما لانهم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون وسيرى كل مصري محب لوطنه ان في تقدم اتباع محمد عبده خير رجاء له في انفاذ برجرامه الا وهو جعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا »

وقد علق اللورد في ذيل هذه الصحيفة قوله — اني قدمت لمحمد عبده كل تنشيط استطعته مدة سنين كثيرة ولكنه عمل شاق فضلا عن العداء الشديد الذي كان يلاقيه من المسلمين المحافظين كان لسوء الحظ على خلاف كبير مع الخديو ولم يتمكن من البقاء في منصب الافتاء لولا ان الانكليز أيدوه بقوة . وقد اثنيت عليه في تقاريري السنوية ثناء عظيما وأنا أعظم الناس أسفاً حقيقياً على وفاته على اني في الوقت نفسه لا أرى بدا من الاعتراف بما عراني من الدهشة عند ماطالعت بعض الانباء الجديدة في كتاب المستر ولفرد بلنت فيظهر ان المستر ولفرد بني آراءه في المسائل المصرية على ماسمعه من محمد عبده فقال عنه في كتابه التاريخ السري انه فيلسوف كبير ووطني عظيم . وقد قرأت بدهشة وأسف مما مايأتي بلسان محمد عبده .

« عرض على الشيخ جمال الدين الفتك باسماعيل يوما عند مروره عربته يوميا على كوبري قصر النيل فاستحسنت رأيه ووافقته ولكن الامر اقتصر على الكلام بيننا ولم نوفق الى شخص يتولى تنفيذ هذا العمل » فكفاني أن أقول بعد هذا ان العالم المتمدن عموما ينظر شزرا الى الوطنيين ويحتقر بالاكثر اولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل » اه من ترجمة المؤيد

المقابلة بين القولين

من قابل بين ما قاله اللورد في تقريره وما كتبه في كتابه مصر الحديثة» يرى فرقاً عظيما بين القولين فان عبارة التقرير لا ذم فيها ولا تعريض وعبارة التاريخ فيها ذم صريح ، وتعريض ظاهر بل المدح الذي فيها بمعنى ما في التقرير ضئيل مبهم يحتمل صرفه الى الذم في بعض المواضع فانه لما وصفه بالعلم فضله على السادات والبكري وهما ليسا من العلماء ولما ذكر انه متهم بالفلسفة فسر ذلك بالتفرقة بين القرن السابع والقرن العشرين . وقد قال المؤيد في هذا التفاوت ما يأتي

« قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر وقضى هذا اللورد زمنه الذي صادق فيه هذا الشيخ وهو يساعده في الوظائف ويدافع عنه فيها . ويقول الآن بصريح العبارة انه لولاه ما بقي في منصب الافتاء طويلا . كان اللورد يطريه مدحاً في حياته كلما ذكر اسمه في مجلسه وكلما جاءت مناسبة لذكره

في تقاريره ويخيل لقارئ كتاب مصر الحديثة الآن ان اللورد يحاول ان يطعن عليه أكثر من كل انسان في مصر لولا ماسبق له من المدح فيه . فلم هذا ؟؟

رأي المؤيد في صداقة اللورد للشيخ

« ان جواب هذا السؤال موجود بين سطور اللورد كرومر فيما كتب عن هذا الرجل في كتابه الاخير » .

ثم ذكر المؤيد في بيان ذلك انه كان من زعماء الثورة العرابية وأوضح ذلك وأكده وذكر قول اللورد ان الخديوي السابق عفا عنه بتشديد الانكليز عليه في ذلك ، وانه كان على خلاف كبير مع الخديوي ثم بين صاحب المؤيد رأيه وأضاف اليه كلمة طالما حاكت في صدره ونوه بها حتى لفظها اليوم فأراحنا وأراح الناس قال ما نصه :

« من خلال هذا الكلام يظهر الجواب الحقيقي وهو أن اللورد كرومر لم يكن صديقا للمرحوم الشيخ محمد عبده كما كان هذا صديقا مخلصا له ولكنه كان متمسكا بصداقته الظاهرية لانه كان يريد أن يضع في يده رجلا قوي المعارضة لدود الخصام عدواً لتوفيق باشا أولا ولخلفه ثانيا ولاسماعيل باشا قبل ذلك . ولا مراء في أن المرحوم الشيخ محمد عبده كان يكره طائفة الباشوات كما يقول عنه اللورد من جهة وكان وطنيا صادقا من جهة أخرى . فكان اللورد يحبه من الجهة الاولى ولا يستطيع أن يخلص له الحب من الجهة الثانية . لذلك كان يطريه وهو ينتفع باطرائه . أما الآن وقد مات الشيخ محمد عبده وفارق اللورد كرومر

مصر فلم تكن ثمت حاجة لان يداري اللورد فيه كل المداراة وانا لاحظ أن يداري نفسه لما كتب عنه أولا فيما كتب عنه ثانيا فجاءت كتابته هكذا خليطا من المدح والقدح وثوب الرياء يشف عما تحته

قول المؤيد في الشيخ نفسه

«وعندنا ان المرحوم الشيخ محمد عبده كان رجلا عالما فاضلا ذا خلال محمودة كثيرة من صفات النجدة والوفاء والمروءة ولا نقول كما قال اللورد عنه انه كان ملحداً أو لا أدريا أو ضعيف الايمان لان الايمان من أعمال القلوب التي يستأثر الله بعلمها وأما ظواهره فكانت مجال مقال كثير لاصدقائه من جهة ولاعدائه من جهة أخرى ولكنه كان على كل حال عالما مصلحا يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لا تفتر وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك. وأضعف الجوانب في أعمال وآراء الشيخ محمد عبده كان الجانب السياسي منه فكان فكره السياسي خياليا غالبا كما قال اللورد لانه كان في كثير من الظروف يخيل له أن يقبض بكلتا يديه على اللورد كرومر من جهة وعلى الجناب الخديوي من جهة فيفشل في الامرين معا حتى يقول الجناب الخديوي من جهته مايقول فيه وحتى يضحك اللورد من هذا الضعف السياسي فيه

« هذه كلمتنا في المرحوم الشيخ محمد عبده قلناها بحرية تامة في هذه المناسبة لنقول : ان كان اللورد أصاب في بعض ما قاله عن المرحوم الشيخ

محمد عبده فقد أخطأ في حقه مرتين الاولى في حياته لانه لم يكن يعضده ويساعده الا لغرض واحد وهو أن يكون عدواً حقيقياً دائما للخديو فكان يدفعه دائما الى الامام في ذلك والثاني أنه تعرض الآن للطعن على عقيدته والعقيدة مسكنها القلب خصوصا وان الطاعن مسيحي على عالم مسلم فيما هو مسلم به

ولكن اللورد أراد من هذا الطعن شيئا آخر وهو ان المسلم ان صار مصلحا يوما مالم يستطع أن يكون كذلك الا وهو مارق من الدين حتى انه لما مدح الشيخ بيرم وذكر من صفاته انه كان يحاول أن يطبق أحكام الاسلام على المعلومات المصرية قال عنه انه كان كمن يحاول أن يربع الدائرة »

قولنا فيما كتب المؤيد

اذا تنازع الكاتب فكران أو شعوران عند الكتابة في موضوع هو أصل في أحدهما والآخر فرع له فيوشك ان يذهله الفرع عن اهم أركان الاصل كما وقع للمؤيد فوجب ان نبين ما غلط به المؤيد هنا حتى خفي عليه به خطأ اللورد الحقيقي لنفي الموضوع حقه فنقول

(١) ان الاساس الذي بنى عليه المؤيد تفرقته بين كلامي اللورد في هذا المقام غير صحيح وهو ان اللورد كان يطري الشيخ في حياته اذ كان ينتفع باطرائه في دفعه لعداء الخديو، ثم ذمه بعد موته وخروجه هو من مصر لزوال هذه الحاجة . فان هذا الثناء العظيم في تقريره الذي ليس عندنا مدح منه سواه قد كتبه بعد موته واذا كان عند صاحب المؤيد رواية لسانية عن اللورد فهي لا تقوم حجة عليه ولا يصح مقابلتها بما كتبه اليوم الا ان يكون على سبيل التبع

(٢) ان كون الاستاذ الامام كان من زعماء الثورة العرابية لا يصلح سببا ولا جزء سبب لمساعدة اللورد إياه والا لساعد سائر زعمائها

(٣) ان اللورد فسر بغض الشيخ محمد عبده للباشوات بأنه قلما وجد فيهم صالحا وانه متى وجد الصالح لا يعرض عنه ولا يعارضه لصدق وطنيته فوافقه صاحب المؤيد على كونه كان يكره الباشوات وعلى كونه كان صادق الوطنية. ثم مثل بغضه للباشوات بمداوة الخديو الحال وابيه وجده ونحن لا نوافقه على هذا التمثيل الذي يوهم الحصر. أما كرهه لاسماعيل فهو معقول مهما كانت سنه ومعارفه السياسية في ذلك العهد وسنبين ذلك ٠ واما توفيق فقد كان هو وأستاذه جمال الدين من حزبه وشيعته على أبيه وقد نقم منه اخراج استاذه من البلاد ونفيه هو الى بلده وكان راضيا منه أتم الرضى عند ماساعد الوزارة الرياضية على الاصلاح في البلاد. ولما حدثت مبادي الثورة العرابية كان الشيخ مقاوما للعرابيين ولما استفحل الامر كان مرشداً معتدلا بحسب علمه وقد ظهر له في اثناء ذلك استعانة توفيق باشا بالانكليز على العرابيين فكرهه في أثناء ذلك كراهة شديدة كما يعلم من مذكراته في شأن تلك الحوادث ومنها ان مذبحة الاسكندرية كانت بايعاز من الخديو ليثبت لانكلترا وسائر الاوربيين عجز عرابي عن حمايتهم وقد كتب برودلي المحامي عن العرابيين شيئاً من هذا في كتابه نقلا عنه ٠ وأما العباس أيده الله بتوفيقه وعنايته فقد كان في اكثر مدة ولايته على مودة مع المرحوم وهو الذي اقترح من نفسه جعله مستشاراً في الاستئناف وهو هو الذي اختاره بنفسه مفتيا للديار المصرية ولم يكن للورد دخل في ترقي الشيخ محمد عبده في الوظائف الا عدم المعارضة والفضل الايجابي في ذلك

للامير وحده كما كان يصرح به الشيخ مراراً ولكن حدث في السنين الاخيرة بينهما شيء من سوء التفاهم بسعاية بعض المفسدين الذين يعرفهم صاحب المؤيد أكثر من غيره اذا كان يقاوم سعايتهم ومفاسدهم الى ان غضب هو أيضاً . وزاد سوء التفاهم تلك المسألة التي أشار اليها المؤيد في ترجمة حسن باشا عاصم فقال ما معناه انها مسألة كان يرى نفسه فيها قائماً بواجب تفرضه عليه الذمة وكان يراه مولاه فيها متعنتاً . — وله ان يقول مثل ذلك في صديقه وشريكه فيها الشيخ محمد عبده —

فمن هذه الخلاصة الوجيزة يعلم ان اظهار اللورد الصداقة للشيخ بضع عشرة سنة لا يتأتى ان يكون المراد به دفعه في عداوة الخديو كما قال المؤيد . على انه كان أثبت من ان يندفع بيد اللورد أو غيره فقد كان في الذروة العليا من الاستقلال في فكره وارادته وناهيك أيضاً بوطنيته وديانته . حقا أقول انني كنت أراه حتى في المدة الاخيرة التي قوي فيها سوء التفاهم بينه وبين الامير يتمنى لو يكون الامير موفقاً مؤيداً في كل شيء يرفع شأن البلاد ويفيدها مصوناً من كل شيء ضار وانني سمعته غير مرة يقول إننا كنا معلقون برجليه فاذا اهبطه الانكليز درجة هبطنا تحته لا معه ، واننا كنا مرة نتحدث في استرضائه فأقسم بأنه لو أمره ان يخرج من البلد لامتثل . ولكنه كان ينكر على المعية اموراً كثيرة ويتمنى الوفاق الممكن الذي لا يصحبه ضرر من جهة أخرى . على ان المؤيد استنبط من عبارة اللورد انه يحاول ان يطعن على الشيخ أكثر من كل انسان في مصر لولا ما سبق له من المدح فيه فهل يكفي ان يكون سبب هذا هو الاستغناء عنه بموته وخروجه هو من مصر ؟؟

(٤) توجيه المؤيد قول اللورد في الاستاذ الامام انه كان خيالياً غير وجيه فانه جعل تأويل ذلك بعد التسليم به ان الاستاذ كان يخيل له ان يقبض بكلتا يديه على اللورد من جهة وعلى الخديو من جهة فيفشل في الامرين . وهذا الاستنباط من خيال المؤيد ما أظن انه طاف بخيال اللورد اذا البعد بين الخيالين شاسع جداً . ولخيال المؤيد وجه ودليل من الخارج فان الشيخ رحمه الله كان يتقرب من الامير للاستعانة به قبل كل شيء على خدمة دينه في نحو اصلاح الازهر ثم إبداء النصيحة الواجبة اذا عرض موجبها وكثيراً ما كان يعرض ذلك وقد سمعت من فم الامير في قصره بالقبة انه يستشير الشيخ ويعجبه رأيه ويثق به. وكان أيضاً يختلف الى اللورد للاستعانة به على خدمة وطنه وما كان يطلب منهما شيئاً لنفسه . ومن مصلحة البلاد ان يكون فيها رجال يثق أمير البلاد وعميد الاحتلال معا بكفاءتهم وصدقهم وذلك من الحقيقة لا من الخيال

(٥) ذكر المؤيد في مواضع ان اللورد طعن في دين الشيخ محمد عبده وجعله لا أدريا أو ملحداً حتى ان من قرأ عباراته ولم يكن عارفاً بكلمة اللورد يظن انه جزم بهذا الطعن واللورد لم يجزم بذلك وإنما قال « أخشى » كما في ترجمة المؤيد نفسه ، أو « أظن » كما فى ترجمة بعض الجرائد فوجب علينا ان نبين ذلك

(٦) قال المؤيد انه لا يطعن في ايمان الشيخ لان الايمان محله القلب وان ظواهره كانت مجال مقال كثير لاصدقائه ولاعدائه !! فنقول اننا نحن نوافق المؤيد على قوله ان الايمان من أعمال القلوب التى يستأثر الله بعلمها ويؤيد هذا القول الحديث الصحيح « هل شققت عن قلبه » لمن

قال يارسول الله اعط فلانا فانه مؤمن . ولكن المؤيد وقع في الحكم على القلب الذي انكره على اللورد اذ قال « قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر » فالاخلاص كالايمان محله القلب ولا يمكن ان يطلع عليه الا الله تعالى فكيف أجاز المؤيد الحكم على القلب مرة ومنعه اخرى ؟

أما الظواهر التي تدل على قوة ايمانه فهي اقوى من الظواهر التي تدل على اخلاصه في صداقة اللورد مع العلم بانه كان ابعد الناس عن النفاق والرياء فانه لم يعمل للورد عملا خاصا به أو بدولته ولكنه وقف حياته على خدمة مصر والاسلام ابتغاء مرضاة الله . والمؤيد وان كان قد ادخل في مسألة الظواهر كلمة محتملة ككلمة ابي سفيان لهرقل فقال انها كانت مجال مقال كثير — قد قال من نفسه مقالا جازما هذا نصه :

« ولكنه كان على كل حال عالما يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لاتفتر . وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك » فالذي يعتقد هذا الاعتقاد لا يمكن ان يكون ملحدا او لا ادريا اي شاكا في وجود الله يقول لا أدري أهو موجود ام لا ؟

صدق المؤيد وان كان في تعبيره بلفظ « رسول اصلاح » غرابة لما من المعنى الشرعي الذي ليس بمراد هنا . فان الاستاذ الامام كان يعتقد ان دين الاسلام لابد ان يعود اليه مجده ونوره الذي حال دونه

ظلام البدع والخرافات والتقاليد والعادات وانه هو عالم بحقيقته وبكيفية تسرب البدع اليه وقادر على بيان ذلك وازالته بالحجة وان هذا العمل فرض محتم عليه . وقد غمر هذا الاعتقاد عقله وقلبه وملك جنانه ووجدانه فبذلك كان يرى انه كان ملهم ومسخر من الله تعالى لهذا العمل ليس في استطاعته ان يتوانى فيه . وقد ذكر قاسم بك امين في تأبينه ان بعض اصدقائه كانوا يلومونه على تفريطه في صحته وتعبه في بعض الاعمال التي قلما تأتي بما يتوخاه من الفائدة فيها فيعدهم بالتخفيف ولكنه يصبح في الغد اشد اهتماما وعناية مما كان عليه بالامس . وصدق المؤيد في قوله انه لم ينل حظ الثقة العامة باصلاحه اذ لو نال هذا الحظ لما قال لورد كرومر في الاسلام ما قاله اليوم لأن الاصلاح العملي كان يمنعه من ذلك

رأينا في سبب اختلاف قولي اللورد

قال المؤيد ان الجواب عن التفاوت بين كلامي اللورد مذكور في كتابه وقد صدق في هذه ولكن اخطأ اجتهاده فيما بينه به اذ لا اجتهاد في مورد النص . اما هذا النص فهو في موضعين ذكر أحدهما المؤيد فيما ترجمه من كلام اللورد في الشيخ وأهله في الرد وأغفل أحدهما في الموضعين . اما الذي ذكره وأهمله فهو هامش اللورد (١) الذي يذكر فيه دهشته من استمداد مستر بلنت اخبار تاريخه السري للاحتلال من محمد عبده وفي هذا الكتاب من التشنيع على اللورد وسياسته ما فيه . واما الذي اغفله المؤيد فدونك ترجمته نقلا عن حاشية ص ٥٢٤ من المجلد الثاني في سياق الكلام عن المعارف : « لقد دهشت بل اعترتني خيبة أمل عند ما قرأت في كتاب ألفه

(١) راجع الاسطر الاخيرة من ص ٩٥ من المنار

مسيو جورفيل رسالة للشيخ محمد عبده أعطى فيها ذلك الرجل الشهير رجاحة اسمه «أوقوة اسمه» لتهم أو تعريضات من هذا النوع ولا بد انه كان على يقين من انها لا أساس لها . وكنت أرجو منه افضل من هذا » اه علق هذا على هامش معناه هل نظر الانكليز الى انحطاط المصريين السياسي أو الاجتماعي نظر المقتطف فلم يحاولوا ترقيتهم كما يزعم بعض سفلة الناقدين ؟

ونحن نقول ان الرجل لم يعط اسمه لترويج التهم أو التعريضات كما ظن اللورد وانما أراد الموعظة والتنبيه الى الصواب الذي يعتقده ولكن صاحب الكتاب استخدم اسمه لترويج كتابه وهو ما كان يقول الا ما يعلم تمام العلم ان أنه صحيح كل الصحة . واذا كان اللورد يرجو منه يوم كتب تلك الرسالة الى جورفيل أمرا أفضل من هذا فهو أيضا ربما كان يرجو من اللورد قبيل ذلك أمرا أفضل مما رأى منه عند الحاجة الى مساعدته في أهم وافضل غرض له من حياته . وانا نورد الآن ما جاء في رسالة الاستاذ الامام عن المعارف وهو :

ما كتبه الاستاذ الامام لجرفيل عن المعارف

(التعليم العام) لا تنفق الحكومة المصرية على التعليم العام الا مبلغ مئتي ألف جنيه مع ان في وسعها انفاق اكثر منه لان دخلها قد بلغ في الميزانية اثني عشر مليونا من الجنيهات وهي لا تنفك عن زيادة اجور التعليم التي تتقاضاها من الناس على تعليم اولادهم من حين الى حين وقد بلغت من ذلك الى حد ان صارت تربية الاولاد عبأ ثقيلا حتى على أوساط الناس واذا استمر هذا التزايد أمسى التعليم زخرفا لا يتسنى التحلي به الا في بيوت

الاغنياء فقط ومن المبادئ التي يجري عليها القابضون على ازمة امورنا ان لا حق لاولاد الفقراء في نوع ما من التعليم فهم يجاهرون به كل المجاهرة ويبدونهم على الدوام في حديثهم وتقاريرهم وكتبهم .

ثم انه من المسلم الى حد محدود أن الوالد الذي يخصص جزأ من دخله لتربية أولاده يهمه ان يحصل من التربية على مقابل هذا الجزء وانه يراقب ولده في التعلم مراقبة فعلية ليحمله على الاستفادة من تعليم يكلفه كثيراً من النفقات ولكن الذي لا يسلم به أحد ولا دليل عليه من التجربة هو ان يستنتج من هذا ان كل تعليم مجاني يكون عقيماً فانه مما تنبغي ملاحظته ان التعليم في المدارس المصرية من عهد محمد علي (باشا) الى سنة ١٨٨٢ كان مجانيا في كل هذه المدة ولم يمنع هذا ان تنتج تلك المدارس عدداً من الرجال المتعلمين تعلما حقيقيا ومعظمهم من الفقراء ولم يضر اوربا ان التعليم مجاني في كثير من البلدان ولكن أي فائدة لنا من الاستشهاد بما غبر من الاختبار في مصر وما حضر من الاعتبار باوربا مادام الذين بيدهم مقاليد حكومتنا مصممين على ان لا يقبلوا الا ما يهديهم اليه فكرهم

يشق على الانسان ان يرى كل سنة مشهد توارد الآباء والامهات على نظارة المعارف يقودون صغارهم اليها سائلين التصدق عليهم بقبولهم مجانا في مدارسها معتذرين بفقرهم ومدلين بما يكون بعض أفراد أهلهم قد أدوه الى الحكومة من الخدم مؤملين على الدوام ان العناية الالهية والمرحمة القلبية تلين صلابة ذلك المبدإ ولو مرة واحدة ولكنهم يضطرون في آخر الامر الى الرجوع الى بيوتهم أو الى قراهم خائبين خائري العزائم غير راضين لا يدرون ماذا يفعلون بهؤلاء الابناء الاعزاء الذين تمنوا لهم اماني كثيرة

ما حيلتنا؟ يقولون لنا «ان بين ظهرانيكم من أبناء وطنكم اغنياء في وسعهم إنشاء مدارس مجانية للفقراء»

آه وأسفاه! نعم ان أبناء وطننا في وسعهم القيام بهذا العمل وبأحسن منه ولكن مصر لما يوجد فيها محبون للانسانية وأخص من بينهم محبي الانسانية المستنيرين، قد يوجد احيانا بعض منهم يشيدون مساجد لا حاجة اليها لكثرتها عندنا وبعض آخر يقف جزءا من عقاره على ولي ولكن همة الناس وانبعاثها الى العمل لم توجه نحو التعليم فأمتنا أقامت زمنا طويلا تعتمد على الجماعة في كل شيء ومن أجل كل شيء

أما اذا نحن نظرنا الى هذا التعليم الذي تقوم به الحكومة المصرية من جهة قيمته فاننا نضطر الى القول بأنه قلما يكون رجلا في قدرته ان يمارس حرفة تقوم بمعيشته ويستحيل ان ينشيء عالما أو كاتبا أو فيلسوفا فكيف بالنوابغ في شيء من هذا

وليس للتعليم العالي بمصر سوى مدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة المهندسخانة. اما جميع العلوم الاخرى التي تتألف منها معارف الانسان فالمصري قد يأخذ منها بعض معلومات سطحية في المدارس التجهيزية ولكن يكاد يكون من المتعذر عليه ان يدرسها دراسة وافية بل يقضي عليه غالبا ان يجهلها — فعلم الاجتماع بفروعه التاريخية والاخلاقية والاقتصادية وعلم الفلسفة القديمة والحديثة وعلم آداب اللغة العربية واللغات الاوربية وكذلك الفنون الجميلة لا تعلم بالكلية في مدرسة ما من المدارس المصرية

فكان فينا القضاة والمحامون، والاطباء والمهندسون، ممن تختلف درجاتهم في العلم ولكنا لا نجد في طبقة منهم ذلك الباحث ولا ذلك المفكر

ولا ذلك الفيلسوف ولا ذلك العالم ولا ذلك الانسان الذي يمتاز ببعد الفكر والنظر وبشهامة الفؤاد وكرم السجايا الذي أوقف حياته كلها على السعي وراء مطلب من مطالب الكمال

وصفوة القول ان خطة الحكومة التي رسمتها لنفسها ويظهر انها مصممة على ان لاتحيد عنها تتلخص في أمور ثلاثة (أولها) مساعدة التعليم الابتدائي في المدارس الصغيرة المسماة بالكتاتيب حيث تعلم الكتابة والقراءة وقواعد الحساب الاربع (ثانيها) التقليل من نشر التعليم في الامة ما أمكن (ثالثها) حصر التعليم الثانوي والتعليم العالي في اضيق الدوائر

المصريون موقنون بأن من بيدهم مقاليد أمورهم العمومية لا يعملون كل مافي وسعهم لترقية الناشئين اخلاقا وعقولا وهذا الرأي مما يدعو الى الاسف والاسى من جميع الوجوه فانه سيحدث في الرأي العام تياراً من الاستياء ان لم يكن عاجلا فآجلا وليت شعري ماذا يربح الانكليز من التمادي في ترك هذا الاعتقاد راسخا في النفوس ؛ واذا كان ثمة أمر يصح ان يتلاقى فيه الطرفان ويكون قاعدة للاتحاد فانما هو التعليم العام اذ لا يمكن ان يوجد تناقض بين مصلحة الانكليز ومصلحة المصريين في هذا القصد

فمن أراد استدرار ما في مصر من المنافع والخيرات فسبيله في ذلك ان يعنى بتعهد كل ما فيها من موارد الثروة وان يبدأ بالانسان بكل ما فيه من معاني الانسان فلا بد من امتزاج العنصرين الاوروبي والوطني واخذهما على التكاتف في السير نحو هذه الغاية يدا بيد

ولعمري ان الانكليز ليسيئون الى أنفسهم اذا اوهنوا الاهلين وارخصوا من قيمتهم وصغروا من شأنهم فانما مصلحتهم في ان يكون ابناء هذا الوطن

اعزاء اغنياء احراراً فان موارد الثروة والخير للانكليز منوطة بما يصيبنا من ثراء ورخاء »

هذا ماجاء في رسالة الشيخ محمد عبده لجورفيل عن المعارف ويليه كلام عن الحقانية ومعاملة للانكليز للموظفين المصريين ملخصه انهم يلتمسون ضعيف الارادة الذي يخضع لهم في كل شيء ، ولا يناقشهم في عمل ما ويقصون المستقلين في الفكر والارادة . وان كل رئيس منهم يعد نفسه مشترعا فكلما خطر له استبدال قانون بقانون وضع قانونا جديدا وأنفذه لان مجلس النظار لا استقلال له فيناقش أو يعارض ومجلس شورى القوانين ليس له الا حق بيان الرأي والحكومة غير مكلفة الاخذ بقوله على ان فيه من الضعف مافيه لان الافراد الذين يصلحون فيه للبحث قليلون

فأيّ شيء من هذه الرسالة ينكر اللورد لنثبته له ؟ اما انه لا ينكر منها شيئاً ولكنه عز عليه ان يرى في كتاب أوربي كلاما في عيوب ادارة مصر لرجل معروف بالصدق وعلو المكانة عند الاوربيين ولذلك قال انه أعطى رجاحة اسمه لجورفيل الخ

ان اللورد نفسه قد اعترف كتابة بأن المعتدلين الذين سماهم حزب أو أتباع محمد عبده لم يشجعوا كما ينبغي وقال في تقرير سنة ١٩٠٥ ان تعيين سعد باشا زغلول فى الوزارة وهو أشهرهم انما هو تجربة . فهل له ان يقول مع ذلك ان ما كتبه الشيخ لموسيو جورفيل لا أساس له في اعتقاده ؟

لقد كان هو وجميع أهل الرأي في مصر يعتقدون حقية ما كتبه وهذا الاعتقاد لا يزول الا بعمل ينقضه فاذا كانت الحكومة الاحتلالية مخلصة فيما فعلت وتفعل لمصر وكان ما ذكره الشيخ من عيوب ادارتها غير متعمد

منها فلتتداركه بمساعدة المستقلين من المصريين ولا يعسر عليها الاهتداء اليهم

أما ماقاله الشيخ في رسالة عن المعارف فمنه ماهو حكاية عن اعتقاد المصريين واستيائهم وهو مؤيد بما تذكره جميع الجرائد آنا بعد آن وبما ظهر في مجلس الشورى والجمعية العمومية فكيف يقول اللورد انه لاأساس له ؟ ألم ينبأ بما جرى في هذا العام — حتى بعد ان قام ناظر المعارف بهذه النهضة الجديدة في ترقية التعليم من جهات متعددة — من قيامة التلاميذ والجرائد والناس على مستر دنلوب بما كان قد ازدحم في مراكز الفكر والشعور من سوء حال الماضي . ان لم يكن قد ظهر به مصداق قول الشيخ انه سيحدث في الرأي العام تيار استياء عام من حال التعليم عاجلا أو آجلا فان ما ظهر قريب منه ولولا هذا الاصلاح الجديد لظهر اتم الظهور

اما باقي كلام الشيخ فهو حكاية عن سياسة المحتلين في التعليم وهو مؤيد بما كتبه اللورد في تقرير تلك السنة فانه قال (كما في ص ١٣٣ ومابعدها من النسخة العربية لتقريره عن سنة ١٩٠٥)

« يراد بهذه السياسة ابطال التعليم المجاني تدريجا من المدارس الاميرية التي هي فوق الكتاتيب وزيادة الاجور فيها » ثم احتج على ذلك بكون الغرض منها تعليم التلاميذ تعليما أوربيا لكي تعد جمهورا من الشبان المصريين لخدمة الحكومة ولتعاطي بعض الفنون » ثم ذكر ان محمد علي انشأ هذه المدارس لفرنجة البلاد وان عباسا الاول ألغاها بعد ان خرج منها ما يزيد على عدد الوظائف وأعادها اسماعيل لفرنجة البلاد كما كانت وانها كانت مجانا بل كان التلاميذ فيها يأكلون ويأخذون مرتبات واظهر استحسان ذلك من قبل والاستغناء عنه الآن ثم قال « ويجب على الحكومة

ان تتوخى جعل اجرة التعليم في كل مدارسها المتفرنجة مقاربة للنفقات التي تنفقها عليه . والاموال التي تنفقها على هذه المدارس تصير تنفقها على التعليم الاهلي الالزم لحاجة الامة » ويعني بالالزم لحاجات الامة تعليم الكتاتيب والصنائع فقط وهذا مالا يسلم به مصري قط

ثم ذكر ان الانكليز لما احتلوا البلاد وجدوا ان كل ما تنفقه المعارف العمومية « انما تنفقه على تعليم أولاد فئة صغيرة أكثرها من اغنى أغنياء السكان ولا تعلمهم الا تعليما أوربيا فأخذوا في تغيير تلك الحال وبذلت الهمة منذ سنة ١٨٨٤ لاخذ الاجور من التلامذة ولا بطال التعليم المجاني تدريجا ولكن بقي النجاح في هذا السبيل بطيئاً جداً الى عهد قريب » ثم استدل بذلك على « ان ابطال التعليم المجاني وازدياد أجرة التعليم ليسا من دلائل التأخر ولا هما مضران بمصلحة البلاد الحقيقية بل هما بمثابة ابطال امتياز » الخ

فكيف يقول اللورد مع هذا ان الشيخ كتب ما يعلم انه لا أساس له ؟ سبحان الله كأن الشيخ كان يكتب سنة ١٩٠٥ لجورنيل في الوقت الذي كان اللورد يكتب فيه لناظر خارجيتهم ما يؤيد قوله ! ألم تر ان الشيخ قد كتب انهم يعني ولاة الامور يقولون لنا ان فيكم أغنيا يجب أن ينشئوا المدارس المجانية للفقراء ، وان اللورد كتب في تقريره (ص ١٣٥ و ١٣٦) « واذا أريد تمهيد السبل للتلامذة الذين تبدو عليهم مخايل النجابة الفائقة لكي يدخلوا المدارس العليا ووسائطهم المالية لا تكفي لذلك وجب ان يقف المحسنون اموالا لتلك المدارس التي يعلم بها من كان مثل أولئك التلامذة ووقف هذه الاموال لتعليم التلامذة الفقراء الذين يستحقون ان يساعدوا انفع جداً من تكثير المدارس الابتدائية المتفرنجة » (للكلام بقية)

دعا سليم افندي سركيس السوريين بمصر وغيرها الى الاكتتاب للاحتفال بحافظ افندي ابراهيم الذي ينوه بفضلهم ليكون هذا الاحتفال تودداً من شعب الى شعب هما بمنزلة الشقيقين، فلبى الدعوة كثيرون وبعد انتهاء مدة الاكتتاب اقيمت الحفلة بفندق شبرد وحضرها جمع جمهور المكتتبين كثيرون من وجهاء وادباء المصريين واصحاب الجرائد وكان ترتيبها هكذا

افتتح الاحتفال سليم افندي سركيس ببيان الغرض منه، خطب سليمان افندي البستاني في الشعر والشعراء، انشد نقولا افندي رزق الله قصيدة «مصر وسوريا»، خطب سليم بك باخوس في إكرام الرجال للرجال: تليت قصيدة الأمير شكيب ارسلان، خطب اسماعيل بك عاصم، أنشد امين افندي البستاني قصيدة له خطب رفيق بك العظم تليت قصيدة لاسعد افندي رستم قرىء كتاب في تحية الصحافة للشعراء المرسل من ادارة جريدة مرآة الغرب بنيويورك أنشد الدكتور ابراهيم افندي شدودي قصيدة له وقدم سليم افندي سركيس لحافظ افندي هدية رواق المعري في البرازيل وهي قلم من الذهب بشكل الريشة ثم الهدية الاكرامية من مجموع السوريين وهي دواة ومقلمة من الفضة . وختمت الحفلة بقصيدة الشكر من حافظ وهي

لمصر ام لربوع الشام تنتسبُ ... هنا العلى وهناك المجد والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلبُ الهلال عليها خافقٌ يجب
خدران (للضاد) لم تهتك ستورهما ... ولا تحوّل عن مغناهما الادب
أمُّ اللغات غداة الفخر أمهما ... وان سألت عن الآباء فالعرب
ايرغبان عن الحسنى وبينهما ... في رائعات المعالي ذلك النسب
ولا يمتّان بالقربى وبينهما ... تلك القرابة لم يقطع لها سبب
إذا ألمت بوادي النيل نازلةٌ ... باتت لها راسيات الشام تضطرب
وان دعا في ثرى الاهرام ذو ألم ... اجابه في ذرى لبنان منتحب
لو أخلص النيل والأُردنُّ ودّهما ... تصافحت منهما الأمواه والعُشب
بالواديين تمشى الفخر مشيته ... يحفُّ ناحيتيه الجود والدأب
فسال هذا سخاء دونه ديمٌ ... وسال ذاك مضاء دونه القضب
نسيمَ لبنان كم جادتك عاطرةٌ ... من الرياض وكم حياك منسكب

في الشرق والغرب أنفاس مسعَّرة　　تهفو إليك وأكباد بها لهب
لولا طلاب العلا لم يبتغوا بدلاً　　من طيب رياك لكنَّ العلا تعب
كم غادة ٍ بربوع الشام باكية ٍ　　على أليف ٍ لها يرمي به الطلب
يمضي ولا حلية إلا عزيمته　　وينثني وحلاه المجد والذهب
يكرُّ صرف الليالي عنه منقلباً　　وعزمه ليس يدري كيف ينقلب
بأرض (كولمبَ) أبطالٌ غطارفة　　أسدٌ جياعٌ إذا ما ووثبوا وثبوا
لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عددٌ　　سوى مضاء تحامى ورده النوب
أسطولهم أملٌ في البحر مرتحلٌ　　وجيشهم عملٌ في البرّ مغترب
لهم بكلّ خضمّ مسربٌ نهجٌ　　وفي ذرى كل طود ٍ مسلك عجب
لم تبدُ بارقةٌ في أفق منتجع ٍ　　إلا وكان لها بالشام مرتقب
ما عابهم أنهم في الأرض قد نُثروا　　فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضرْهم سراءٌ في مناكبها　　فكل حيّ له في الكون مضطرب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا　　إلى المجرّة ركباً صاعداً ركبوا
أو قيل في الشمس للراجين منتجع　　مدوا لها سبباً في الجو وانتدبوا
سعوا إلى الكسب محموداً وما فتئت　　أمُّ اللغات بذاك السعي تكتسبُ
فأين كان الشآميون كان لها　　عيشٌ جديد وفضل ليس يحتجب
هذي يدي عن بني مصر تصافحكم　　فصافحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانةُ إلا الشام عاج على　　ربوعها من بنيها سادة نُجُب
لولا رجال تغالوا في سياستهم　　منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا
إن يكتبوا لي ذنباً في مودتهم　　فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

انجيل برنابا — مقدمتنا له

قد تم طبع إنجيل برنابا كما قلنا في الجزء الثاني عشر من السنة الماضية وقد كتب له مترجمه الدكتور خليل سعادة مقدمة ذكر فيها ملخص ما قاله علماء الافرنج فيه ورأيه في ذلك فنشرناها وقفينا عليها بمقدمة منا هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وعلى عيسى المؤيد بروح الله، وعلى جميع الانبياء والمرسلين، ومن اهتدى بهديهم الى يوم الدين

أما بعد فاننا نرى مؤرخي النصرانية قد أجمعوا على انه كان في القرون الأولى للمسيح عليه السلام أناجيل كثيرة وان رجال الكنيسة قد اختاروا منها أربعة أناجيل ورفضوا الباقي. فالمقلدون لهم من أهل ملتهم قبلوا اختيارهم بغير بحث وسيكون ذلك شأن أمثالهم الى ما شاء الله

وأما من يحب العلم ويجتنب التقليد من كل أمة فهو يود اذا اراد الوقوف على أصل هذا الدين وتاريخه لو يطلع على جميع تلك الاناجيل المرفوضة ويقف على كل ما يمكن الوقوف عليه من أمرها ويبني ترجيح بعضها على بعض بعد المقابلة والتنظير على الدلائل المرجحة التي تظهر له هو وان لم تظهر لرجال الكنيسة

لو بقيت تلك الاناجيل كلها لكانت اغزر ينابيع التاريخ في بابها ما قبل منها أصلا للدين وما لم يقبل ولرأيت لعلماء هذا العصر من الحكم عليها والاستنباط منها بطرق العلم الحديثة المصونة بسياج الحرية والاستقلال في الرأي والارادة ما لا يأتي مثله من رجال الكنيسة الذين اختاروا تلك الأربعة ورفضوا ما سواها

إنجيل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام واحد هو عبارة عن هديه وبشارته بمن يجيء بعده ليتم دين الله الذي شرعه على لسانه وألسنة الانبياء من قبله فكان كل منهم يبين للناس منه ما يقتضيه استعدادهم وإنما كثرت الاناجيل

لان كل من كتب سيرته عليه السلام سماها إنجيلا لاشتمالها على ما بشر وهدى به الناس

من تلك الاناجيل «إنجيل برنابا» وبرنابا حواري من أنصار المسيح الذين يلقبهم رجال الكنيسة بالرسل صحبه بولص زمنا بل كان « هو الذي عرف التلاميذ ببولص بعد ما اهتدى (بولص) ورجع الى اورشليم »(١) فلعل تلاميذ المسيح ما كانوا ليثقوا بإيمان بولص بعد ما كان من شدة عداوته لهم لولا برنابا الذي عرفه أولا وعرفهم به بعد ان وثق به . ومقدمة هذا الانجيل الذي نقدم ترجمته لقراء العربية اليوم ناطقة بأن بولص انفرد بتعليم جديد مخالف لما تلقاه الحواريون عن المسيح . ولكن تعاليمه هي التي غلبت وانتشرت واشتهرت وصارت عماد النصرانية . ويذهب بعض علماء الافرنج الى أن انجيل مرقس وانجيل يوحنا من وضعه كما في دائرة المعارف الفرنسية . فلا غرو اذا عدت الكنيسة إنجيل برنابا إنجيلا غير قانوني أو غير صحيح

لم نقف على ذكر لانجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في بيان الكتب التي يحرم قراءتها فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا . وقد تولى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد أي قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم على ان بعض علماء أوربا يرتابون اليوم في ذلك المنشور كما ذكر الدكتور سعادة في مقدمته والمثبت مقدم على النافي

مرت القرون وتعاقبت الاجيال ولم يسمع أحد ذكراً لهذا الانجيل حتى عثروا في أوربا على نسخة منه منذ مئتي سنة فعدوها كنزاً ثمينا ولو وجدها أحد في القرون الوسطى قرون ظلمات التعصب والجهل لما ظهرت وأنى يظهر الشيء في الظلمة والنور شرط الظهور ?

ظهرت هذه النسخة في نور الحرية المتألق في تلك البلاد وكانت موضع اهتمام العلماء وعنايتهم وموضوع بحثهم واجتهادهم وانبرى بعض فضلاء الانكليز في العام الماضي لترجمتها بالانكليزية وتمم نشرها وقد أهدت الينا نسخة منها

(١) اع ٩: ٢٧ كما في ص ٢٢٣ من الجزء الاول من قاموس الكتاب المقدس

عند نشرها فرأينا انه يجب ان لا يكون حظ قراء العربية منها أقل من حظ قراء الانكليزية فكاشفنا بذلك صديقنا الدكتور خليل سعادة فوافقت رغبته رغبتنا وترجم النسخة بالعربية ترجمة حرفية وباشرنا طبعها بعد معارضتها معه على الاصل لاجل الدقة في تصحيحها

بحث علماء أوربا في هذه النسخة وكتبوا في شأنها فصولاً طويلة لخصها الدكتور سعادة في مقدمته فن مباحثهم ماهو علمي دقيق ككلامهم في نوع ورقها وتجليدها ولغتها ومنها ماهو من قبيل الخرص والتخمين كأقوالهم في الكاتب الأول لها والزمن الذي كتبت فيه وتبعهم في مثل هذا البحث أصحاب مجلتي المقتطف والهلال

ويجب ان ننبه في هذا المقام على قاعدة من قواعد البحث الفلسفية ، وأصل من أصوله العقلية ، وهي قاعدة إطلاق البحث أو بنائه على أسه ولو مفروضاً . فان كثيراً من الباحثين يبنون أبحاثهم على فرض يتخذونه قاعدة مسلمة وربما كان فاسداً فيجيء كل ما بني عليه مثله لأن مابني على الفاسد فاسد حتماً . مثال هذا ما امتحن به بعض الفلاسفة تلاميذه وهو انه عمد الى جرة كانت في الشمس فقلبها من غير ان يروه ودعاهم فقال اني أرى وجه هذه الجرة المقابل للشمس بارداً ثم قلبها ولمس الجانب الآخر منهم فاذا هو سخن فطالبهم بعلة ذلك فطفقوا ينتحلون العلل وهو يردها ولما سألوه عن رأيه في ذلك قال انه يجب أن يثبت من صحة الشيء أولا ثم يبحث عن علته ، وكون الجانب المقابل للشمس من هذه الجرة بارداً والجانب المقابل للارض سخناً غير صحيح بل قلبتها انا لاختبر فطنتكم

وكذلك فعل بعض الباحثين في إنجيل برنابا فرضوا أنه من وضع بعض المسلمين ثم حاروا في حزر تعيين واضعه هل هو غربي أم شرقي عربي أم عجمي قديم ام حادث ، وما قال أحد فيه قولا الا وجد من الباحثين من يفنده حتى رأى الدكتور سعادة بعد الاطلاع على تلك الأقوال ان الاقرب الى التصور أن يكون كاتبه يهوديا أندلسياً من أهل القرون الوسطى تنصر ثم دخل في الاسلام وأتقن

اللغة العربية وعرف القرآن والسنة حق المعرفة بعد الاحاطة بكتب العهد العتيق والجديد . واستدل على هذا الفرض بعلمه الواسع بأسفار العهد القديم وموافقة التلمود واحاطته بالعهد الجديد وغفل عن عزوه الى كتب العهدين ما لا يوجد في نسخها التي عرفت في القرون الوسطى وهي التي بين أيدينا الآن كعزو قصة هوشع وهي الى كتاب دانيال ، وعن مخالفته لها احيانا في مسائل أخرى ولو كان من أهل القرون الوسطى وما بعدها لما وقع في هذا الغلط الظاهر مع علمه الواسع

واستدل أيضا بموافقة بعض مباحثه القرآن والاحاديث وما كل ما وافق شيئا في بعض مباحثه يكون مأخوذا منه والا لزم ان تكون التوراة مأخوذة من شريعة حمورابي لا وحيا من الله لوسى عليه السلام . على أن معظم مباحث هذا الانجيل لم تكن معروفة عند أحد من المسلمين وأسلوبه في التعبير بعيد جداً من أساليب المسلمين عامة والعرب منهم خاصة كما بين ذلك بعض القسيسين في مجلة دينية وأي مسلم يذكر الله ولا يثني عليه والانبياء ولا يصلي عليهم ويسمي الملائكة بغير الاسماء الواردة في الكتاب والسنة

وقد كانت مسألة اليوبيل أقوى الشبهات عندي على كون كاتبه من أهل القرون المتوسطة لا من قرن المسيح حتى بين الدكتور سعادة ضعفها بدقة نظره فلم يبق للباحثين دليل يعول عليه في هذا المقام فان موافقة بعض ما فيه لبعض ما ورد في شعر دانتي يمكن ان يعلل بأن دانتي اطلع عليه وأخذ منه ان لم يكن ذلك من قبيل توارد الخواطر

أما الهوامش العربية التي وجدت على النسخة فيحتمل ان تكون للراهب فرمرينو الذي اكتشف هذا الانجيل في مكتبة البابا بأن يكون دخوله في الاسلام حمله على تعلم العربية حتى كان مبلغ علمه فيها ان يترجم بعض الجمل بعبارة سقيمة تغلب عليها العجمة وما فيه من العبارات الصحيحة على قلتها لاينافي ذلك فان كل من يتعلم لغة اجنبية في سن الكبر تكون كتابته فيها لاول العهد من هذا القبيل: صواب قليل، وخطأ كثير، على ان اكثر العبارات الصحيحة في هذه الهوامش منقول من القرآن أو بعض الكتب العربية التي يمكن ان يكون قد اطلع عليها الكاتب . ويحتمل

أن يكون بعض القسوس أو من هم على شاكلتهم قد تعلم العربية ليتبين هل فيها مصادر لهذا الانجيل يمكن ارجاعه اليها . و يرجح هذا الاحتمال تسميته الفصول سورا تشبيها له بالقران أما عزو هذه الهوامش الى مسلم عريق في الاسلام فخطأ لا يحتمل الصواب اذ لا يوجد مسلم عربي ولا عجمي يطلق لفظ السور على غير سور القرآن أو يقول « الله سبحان » كما جاء في مواضع منها هامش ص ١٤١ و ١٦ لان كلمة « سبحان الله » مما يحفظه كل مسلم من اذكار دينه ، أو يقول ميخائيل بدل ميكائيل و يجهل اسم اسرافيل فيسميه اوريل أو رفائيل ، او يقول ان السموات اكثر من سبع وان العدد لا مفهوم له كما قال علماء الاصول . ولذلك أمثلة أخرى أضف اليها عدم اطلاع علماء المسلمين في الاندلس وغيرها على هذا الانجيل كما حققه الدكتور مرجليوث مؤيداً تحقيقه بخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصارى من ذكره ، وناهيك بابن حزم الاندلسي وابن تيمية المشرقي فقد كانا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطلاعا كما يعلم من كتبهما ولم يذكرا في ردهما على النصاري هذا الانجيل

بقي أمر يستنكره الباحثون في هذا الانجيل بحثا علميا لا دينيا أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم « النبي محمد » عليه الصلاة والسلام قائلين لا يعقل ان يكون ذلك كتب قبل ظهور الاسلام اذ المعهود في البشارات ان تكون بالكنايات والاشارات والمريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خبر الوحي وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الانجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي (ص) وفيها يقول المسيح « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئا من هذه الاناجيل التي فيها البشارات الصريحة فيظهر ان في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الاناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأولى مالو ظهر لأزال كل شبهة عن انجيل برنابا وغيره .

على انه لا يبعد ان يكون مترجم برنابا باللغة الايطالية قد ذكر اسم « محمد » ترجمة وانه في الاصل الذي ترجم هو عنه قد ذكر بلفظ يفيد معناه كلفظ البارقليط

ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة كما بينه الشيخ رحمة الله بالشواهد الكثيرة من كتبهم في الامر السابع من المسلك السادس من الباب السادس من كتابه اظهار الحق وزاده بعد ذلك بيانا في البشارة الثامنة عشرة

ولا يحسبن القارئ المسلم ان علماء أوربا وبعض علماء بلادنا كالدكتور سعادة وأصحاب المقتطف والهلال يظهرون الريب في هذا الانجيل الموافق في أصول تعاليمه للاسلام تعصباً للنصرانية فان الزمن الذي كان التعصب فيه يحمل العلماء على طمس الحقائق التاريخية وغيرها قد مضى . وقد بحث علماء أوربا مثل هذه المباحث في الاناجيل الأربعة فبينوا انه لا يعرف متى كتبت ولا بأي لغة ألفت وقال بعضهم ان مؤلفيها غير معروفين واتهم بعضهم بولس بوضع أكثرها كما ترى في دائرة المعارف الفرنسية وغيرها بل منهم من جعل أصول تعاليمها مأخوذة من الاديان الوثنية

أكثر العلماء في هذا العصر أحرار مستقلون في مباحثهم الا من غلب عليه التقليد الديني أو مصانعة المتدينين ألا ترى ان الدكتور مرجليوث الانكليزي هو الذي دحض شبهة من قال ان لهذا الانجيل أصلاً عربياً وانه من وضع المسلمين ، وان الدكتور سعادة هو الذي فند رأي المستدل على كونه من وضع القرون الوسطى بما فيه من ذكر كون اليوبيل كل مئة سنة ، وان أصحاب المقتطف يجوزون أن يكون له أصل ترجمت عنه النسخة الايطالية ويحثون على البحث عنه ، فأمثال أولئك العلماء يجب احترام رأيهم وان لم يكن دليله واضحاً وتعليله ظاهراً

ومن لاحظ ان بعض القسيسين يجعلون العمدة في اثبات الاناجيل الاربعة مافيها من التعاليم الادبية العالية ثم قرأ تعاليم انجيل برنابا يظهر له مكانه العالي في تعاليمه الالهية والأدبية . فاذا صرفنا النظر عن فائدته التاريخية وعن حكمه لنا في المسائل الثلاث الخلافية - التوحيد وعدم صلب المسيح ونبوة محمد (ص) - فحسبنا باعثا على طبعه وراء قيمته التاريخية مافيه من المواعظ والحكم والآداب وأحاسن التعاليم ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ،

القاهرة في ٢١ صفر سنة ١٣٢٦ — محمد رشيد رضا الحسيني

منشئ المنار



خطبة حفني بك ناصف

(رئيس نادي دار العلوم في مسألة التعريب)

أكثر القائلون بتطبيق «سياسة الباب المفتوح» على اللغة العربية من ذكر جمود أمتنا واشتغالها عن الجواهر بالاعراض ووقوفها موقف المستضعفين أمام الامم الغربية ونعوا علينا تحرجنا قبول الدخيل في لغتنا ورمونا « بالرجوع الى الوراء والنفور من كل جديد والوقوف عند ما أماته الزمان ومخالفة سنة اللغات الحية صاحبة الحركة الدائمة التي قدر أهلها أن ينتفعوا بكل ماخلقه الله » الى آخر ما أتوا به من القضايا الخطابية بقصد التأثير في أفكار السامعين حتى تخيلوا ان الكلم الاعجمية واجبة الاستعمال في اللغة العربية حرصا على الزمن أن يضيع في انتقاء ألفاظ عربية تسد مسدها وإن قواعد الاقتصاد السياسي تقضي بصرفه في اختراع آلة حربية أو معمل صناعي أو مصرف مالي ولقد كدت من شدة التأثير أمسك عن الكلام خيفة ان أضيع عليكم ساعة يمكنكم فيها اختراع بندقية جديدة أو آلة للطيران أو علاج للسرطان

مسكينة الامة المستضعفة لاتدري من أين تؤتى ولا تعرف لتأخرها علة فتذهب مع كل ذاهب وتمشي وراء كل حاطب

ظننا النيل سبب رخاوتنا فعدلنا عنه الى الآبار فما نشطنا وخلنا الازياء

الواسعة مانعتنا عن الحركة فاستبدلنا بها أزياء ضيقة فما عدونا . وحسبنا اقتعاد السيارات والدراجات يوصلنا الى المدنية فاقتعدناوما استفدنا ، وزعمنا ملاهي التمثيل ، أقرب سبيل ، فأبعدتنا ، وعددنا النفازج (البالو) معارج فما عرجنا ، وغيرنا العمائم بالقلانس والدور بالقصور وظهور الصافنات يبطون العربات فما أخرجنا كل ذلك عما نحن فيه من الاستضعاف ولاسما بنا الى راقي الالمان ، والانكليز واليابان

ان لارتقاء الامم وانحطاطها أسبابا خاض فيها الحكماء وأفاض في بيانها العلماء وليس المقام الآن مقام ذكرها وان المسألة التي نحن بصددها مسألة نقلية يرجع فيها الى كتب اللغة والادب وليس لاحد ان يأخذ فيها بالهوى أو يسترسل مع الوجدان أو يقتصر فيها على مجرد الاستقباح والاستحسان فكما لايجوز في التاريخ ان تنكروا غلبة اليابان للروس محتجين بان الصغير لايغلب الكبير لايجوز في العربية أن تنصبوا الفاعل وتقدموا خبر ان على اسمها احتجاجا بأن المعنى لا يتغير ولا ان تقولوا «ما الفرق بيننا وبين العرب الاولى حتى جاز لهم وضع ألفاظ مقتضبة وتعريب كلمات أعجمية والشذوذ عن القياس وامتنع علينا أليسوا رجالا ونحن رجال؟»

ليس لاحد ان يقول ذلك الا اذا خرج من الربقة وخلع العذار ورضي بان يكون طليقا لا يتقيد بشيء . المسألة منصوصة في الاسفار فمن شاء ان يخرق الاجماع ولا يقصر شيئاً على السماع ويستريح من عناء الدروس فليصنع ماشا فليس عندنا ما يرغمه على اتباع الجماعة ولا فائدة في الجدال معه واذا شاء ان يتبع المنصوص فها هو بيانه .

اتفق العلماء على أن اللغة العربية كانت لسان عاد وثمود وأميم وعبيل

وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار من أولاد إرم بن سام

وأول تنقيح دخلها كان بعمل يعرب بن قحطان رأس العرب العاربة وجرى اولاده على لغته في انحاء اليمن كلها ثم تفرق جماعة منهم في نجد والحجاز وتهامة والشام والحيرة

ولما اصهر اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام الى قبيلة جرهم أدخل تنقيحا ثانيا في اللغة وجرى على أثره القبائل من أولاده كربيعة ومضر وكنانة ونزار وخزاعة وقيس وضبة

والتنقيح الثالث أدخلته قريش بالتدريج انتخابا من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم في كل عام وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوما منها ثلاثة ايام بسوق ذي المجاز وسبعة بسوق مجنة وثلاثون بسوق عكاظ وعشرة في مناسك الحج

والتنقيح الرابع هو اختيار علماء المصرين البصرة والكوفة (نقلة اللغة في عصر الامويين والعباسيين) فقد قصروا اختيارهم على ست قبائل من صميم العرب لم تختلط بغيرها وهم قيس عيلان واسد وهذيل وبعض تميم وبعض كنانة وبعض طي ولم يأخذوا عن لخم وجذام لمخالطتهم القبط اهل مصر، ولا عن قضاعة وغسان واياد لمخالطتهم اهل الشام والروم وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا عن تغلب لانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا عن بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا عن عبد القيس وازد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين الهنديين والفرس ، ولا عن اهل اليمن (حمير وهمدان وخولان والازد) لمخالطتهم الحبشة والزنج والهنديين ولا عن بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف والطائف لمخالطتهم تجار اليمن عندهم

ولا عن حاضرة الحجاز وقت نقل اللغة لفساد لغتها بالاختلاط

وعدوا لغة قريش أفصح اللغات العربية لانها خالية من عنعنة تميم وهي ابدال الهمزة عينا نحو عَنْتَ وعنك أي أنت وانك ، وعن تلتلة بهراء وهي كسر أول المضارع نحو تِلْعب وتِلهو ، وعن كسكسة ربيعة ومضر وهي إلحاق سين بعد كاف الخاطب رأيتكَسْ ، وعن كشكشة هوازن وهي إلحاق شين بعد كاف المخاطبة نحو رأيتكِشْ وعن فحفحة هذيل وهي قلب الحاء عينا نحو عَتّى أي حتى ، وعن وكم ربيعة وهي كسر كاف الخطاب بعد الياء الساكنة أو الكسرة نحو عليكِم وبكِم ، وعن وهم بني كلب وهي كسر هاء الغيبة اذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة نحو عنهِمْ وبينهِم وعن جعجعة قضاعة وهي قلب الياء الاخيرة جيما نحو الساعج يدعج أي الساعي يدعي وعن وتم أهل اليمن وهو قلب السين المتطرفة تاء نحو النات أي الناس ، وعن الاستنطاء في لغة سعد والازد وقيس وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو أنطى أي أعطي ، وعن شنشنة اليمن وهي قلب الكاف شينا نحو لبيش اللهم لبيش ، وعن لخلخانية الشحر وعمان وهي حذف الالف في نحو مشاءالله أي ماشاء ، وعن طمطمانية حمير وهي جعل أل « ام » نحو ، وعن طاب امهواء أي الهواء ، وغمغمة قضاعة وهي اخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

ولم ينظر نقله اللغة الى لغة كل قبيلة على حدتها بل جمعوا الالفاظ التي يتكلم بها كل القبائل التي عولوا على الاخذ عنها وجعلوها لغة واحدة مقابل اللغة الاعجمية لا يخطئ المتكلم الا اذا خرج عنها كلها فلفظ المدية لغة دوس (بطن من الازد) ولفظ السكين لغة قريش فتقبل الائمة اللفظين

وأباحوا لكل انسان أن يتكلم بأيهما شاء ولو لم يوجد في العرب من تكلم بهما معا ومن هنا جاء الترادف في اللغة والاشتراك اللفظي ولو جمعوا لغة كل حي من العرب على حدتها لتكرر العمل وطال الزمن

ثم نظروا بعد ذلك الى المفردات فما كان منها كثير الدوران على ألسنة العرب عدوه غريبا ووحشيا يعد استعماله مخلا بالفصاحة ولو كان معروفاً عند المخاطبين

واستخرجوا من استعمالات العرب قواعد تتعلق بأحوال أواخر الكلم وقواعد تتعلق بباقي أحوالها وسموها علم النحو والصرف وجعلوا لبعض تلك القواعد قيوداً واستثناآت حتى يكون الاستعمال الكثير مضبوطاً بقوانين تحتذى عند القياس وما شذ عن ذلك جعلوه سماعيا يقبل من العربي ولا يقبل من المولد

وكانوا شديدي الحرص على بيان السماعي والقياسي فاذا لم يكن اللفظ (مادة أو هيئة) قد سمع من العرب منعوه بتاتا وشنعوا على مستعمله

ولاجل أن يعرف السامع مقدار عنايتهم بالمسموع من العرب ومقدار الانحطاط الذي كان يلحق بمن يخطئ منهم أروي لك قصة وفود سيبويه على يحيي بن خالد البرمكي ببغداد فقد عقد يحيي مجلسا جمع فيه بين سيبويه رئيس نحاة البصرة وبين علي الكسائي رئيس نحاة الكوفة فقال له الكسائي: تسألني أو أسألك؟ فقال سيبويه سل أنت فسأله الكسائي عن قول العرب « قد كنت أظن ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي» أيجوز «فاذا هو اياها» فقال سيبويه لا يجوز النصب فقال الكسائي العرب ترفع ذلك وتنصبه فقال يحيي لقد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما فقال

له الكسائي هذه العرب ببابك قد سمع منهم أهل البلدين فيُحضَرون ويُسأَلون فقال يحيى وجعفر أنصفت وامرا باحضار أعرابي من أهل البادية وسألوه فقال «القول قول الكسائي» فقال سيبويه ليحيى «مره أن ينطق بذلك فان لسانه لا يطاوعه» فاكتفى المجلس بحكم الاعرابي وخجل سيبويه وسافر بعد ذلك الى فارس فأقام بها حتى مات وكانت هذه المسألة سبب علته وكانت وفاته في سنة ١٨٠ وعمره ٣٢ وهكذا كانت عادة علماء البلدين متى اختلفوا في أمر تلمَّسوه عند البدو وتسمَّعوه منهم

وعرفوا المعرّب بأنه الاسم الاعجمي الذي فاهت به العرب الموثوق بعربيتهم فاذا فاه به غير العربي سمي مولداً وقد تبعهم في ذلك كل من كتب في اللغة كأصحاب الصحاح والقاموس والمحكم والعباب وأجمع العلماء على أن لا يستشهد في اللغة والصرف والنحو الا بكلام العرب ولا يجوز الاستشهاد بكلام المولدين الا في علوم البلاغة

واجازوا استعمال الكلم في غير ماوضعت له متى وجدت مناسبة بين المعنى الاصلي والمعنى المراد وقامت قرينة تمنع ارادة المعنى الاصلي وحصروا تلك المناسبات بالاستقراء وسموها علاقات وهي

المشابهة نحو فاه الخطيب بالدرر أي الكلمات الحسان

والسببية — نحو رعينا الغيث أي الكلاء

والمسببية — نحو أمطرت السماء نباتاً أي ماء

والكلية — نحو «يجعلون أصابعهم في آذانهم

والجزئية — نحو بث الامير العيون أي الجواسيس

والحالية — نحو «ففي رحمة الله هم فيها خالدون» أي الجنة

والمحلية – نحو سال الوادي وجرى الميزاب أي ماؤه

واللازمية – كاطلاق الحرارة على النار

والملزومية نحو دخلت الشمس من الكوة أي ضوءها

والاطلاق – نحو « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد » أي لا صلاة كاملة

والتقييد كاطلاق المشفر على شفة الانسان والمشفر للبعير كالشفة للانسان

والعموم – كاطلاق الابيض والاسمر على السيف والرمح والدابة على ذات الاربع

والخصوص – كاطلاق اسم الشخص على القبيلة نحو تميم وقريش وربيعة

والبدلية – نحو في ملك فلان الف دينار أي متاع يساوي الفا

والمبدلية – نحو * أكلت دما ان لم أرعك بضرة * أي أكلت دية

واعتبار ما كان – نحو « وآتوا اليتامى أموالهم » أي الذين كانوا يتامى

واعتبار ما يكون – نحو « أراني أعصر خمرا » أي عنبا

الدالية – نحو فهمت الكتاب أي معناه

والمدلولية – نحو * قرأت معناه مشفوعا بتقبيل * أي قرأت لفظه

والمجاورة – نحو شربت من الراوية أي المزادة المجاورة للجمل وقد تكون المجاورة في الذكر فقط كما في المشاكلة نحو: اطبخوا لي جبة وقميصا

والآلية – نحو « واجعل لي لسان صدق » أي ذكراً حسنا صادقاً

والتعلق – كاطلاق لفظ المصدر على الفاعل أو المفعول كشاهد عدل « وهذا خلق الله »

والشرطية – نحو « وما كان الله ليضيع ايمانكم » أي صلاتكم

والمصدرية — نحو «فرجعوا الى أنفسهم» أي آرائهم

والمظهرية — نحو «يد الله فوق أيديهم» أي قدرته

والتضاد — كاطلاق البصير على الاعمى

ومتى اشتهر اللفظ في معناه المجازي صار حقيقة عرفية له حكم الحقيقة الوضعية

وقد صارت اللغة بهذا التنقيح الاخير لغة العرب عامة لا لغة قبيلة بعينها فأي لفظ نطقت به فانت مصيب وأي استعمال جريت عليه فلست بمخطئ ما دمت لم تخرج عن المنقول وأية علاقة صادفتك من العلاقات السالفة الذكر توصلك الى تسمية مالم تسمه العرب فلست مقيداً بلفظ أعجمي ولا بلهجة حي معين وصرت بذلك بعيدا عن الخطأ واسع المجال في النثر والنظم والتقلب في الاساليب الانشائية تصول وتجول وتتهم وتنجد حسبما يسمو اليه استعدادك وتصل اليه درجتك من الاطلاع وتمكنك منه بضاعتك فلك ان تقول المدية كما تقول دوس وان تقول السكين كما تقول قريش وان تنطق كلمة «حيث» بتسع لغات ولفظ «ياربي» بست لغات وتركيب (بادئ بدء) بثمانية عشر وجهاً وان ترفع الخبر وتنصبه في نحو ما هذا بشراً وان تطلق الاسد على السبع والشجاع والعين على الباصرة والذهب والجاسوس وتصرح وتعمي حيث تحتاج لذلك وتنقل الى العربية كل ما فهمته من اللغات الاخرى

وقد وقع جاسوس عربي في يد العدو فحبسوه وألزموه أن يكتب كتاباً الى ملكه يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلة عددهم وعُددهم غشا وتغريراً فكتب الى الملك كتاباً قال فيه :

« أما بعد فقد أحطت علما بالقوم ، وأصبحت مستريحا من السعي في تعرف احوالهم ، واني قد استضعفتهم بالنسبة اليكم وقد كنت أعهد في أخلاق الملك المهلة بالامور والنظر في العاقبة فقد تحققت انكم الفئة الغالبة باذن الله ، ولقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام »

وسلم الكتاب الى العدو فأرسلوه الى الملك بعدما اطلعوا عليه فتفطن الملك لما أراد الكاتب وقال لحاشيته ان الجاسوس وقع في الاسر فأصبح مستريحا من السعي وانه رآهم أضعافنا وانا قليل بالنسبة لهم اذ لمح بآية « كم من فئة قليلة » ولفتني الى الاناة اذ جعلها عادة لي وأراد قلب حروف الجملة الاخيرة فتكون « كلهم عدوٌّ كبيرٌ عدٍّ فتحصن »

على هذا استقرت اللغة العربية وتم إحكامها وحصرت مفرداتها الاصلية وقوانينها وأبيح استعمال مفرداتها في غير ما وضعت له عند الاحتياج ، بشرط العلاقة والقرينة وانتهت أدوار التنقيح فيها فلم يبق الا استظهارها والعمل بها . وقد اغتبطت الامة العربية بذلك وعكفت على العمل بها قرونا قضت فيها لبانة للعلم والسياسة وتفرغت للفتوح والاستعمار وملأت طباق الارض بالتصانيف في الشرائع والحكمة وكل ما كان على وجه الارض من العلوم فأنارت الخافقين ونشرت المدنية في الدنيا . ولما ضعف أمرهم ورثهم الغربيون في حكمتهم وأخذوها عنهم وأضافوا اليها ما تجدد من الصناعات والفنون ولا يزال الافرنج يدأبون في اقتناء الكتب العربية ويستخرجون منها من الفوائد مالم يكن في حسباننا ولكل مجتهد نصيب

هذا ما حضرني من النصوص المحتوية عليها كتب العرب، المتضافر عليها من أئمة الأدب، فمن شاء فليؤمن بها ومن شاء فليكفر بها فقد تبين الرشد من الغي

ولما قعدت هم الخالفين وانتشر فساد اللغة مادة وقوانين رأى فريق من الناس أن يكفونا مؤنة التحصيل فهبوا الى فتح ثغور اللغة العربية للدخيل من الالفاظ وطفقوا يحسنون صنيعهم بأقيسة خطابية وجدلية لا تغني من الحق شيئاً

فقالوا أولا : ان العرب أخذوا ألفاظا من الاعاجم في أطوار تنقيح العربية واستعملها الفصحاء وورد منها كثير في القران والأحاديث فما لنا لا ننشئ مذهبا خامسا في التنقيح وفاتهم أن ما أخذه العرب قليل جداً بالنسبة الى ما نبذوه ونادر بالاضافة الى مادة لغتهم الاصلية والقليل النادر لا يقاس عليه فاذا فتحنا اليوم باب القياس في مادة اللغة نفتحه غداً بالاولى في هيئتها أي في الصرف والنحو فنقيس على ما ورد شذوذاً عن العرب افليست المادة بأقل خطورة من الهيئة ولا الجوهر بأدنى احتراما من العرض فننصب خبر المبتدا وخبر انّ ونشتق من الجوامد كلها ونميل الالف حيثما وجدت ونستخرج من كل فعل ثلاثي مزيدات ونستعمل الزيادة لكل المعاني وبالجملة نجعل عالي اللغة العربية سافلها ونحدث فيها الاحداث الهائلة فتتبلبل فيها الالسنة وتفقد بعد قليل من الزمن مع أن « أصحاب اللغات الحية » الذين يريدون أن يتشبهوا بهم لم يرضوا أن يتركوا عاداتهم من الكلام والكتابة ولو كانت خطأً فلا يزالون يقولون في ٧٥ ستون وخمسة عشر وفي ٩٨ أربع عشرينات وثمانية عشر ولا يزالون

يكتبون جملة حروف في الكلمة لا ينطق بشيء منها ويفوهون بحروف لا يكتب منها شيء

وقالوا ثانيا: انه يجب ان يكون لكل مدلول دال خاص به لا يدل على غيره أبدا وتكون دلالته بنفسه لا بعلاقة أخرى وان تسمية المحدثات بلفظ عربي مهما كانت علاقته يوقع في الاشتراك ويزيدنا آلاما الى آلامنا: وغرضهم بذلك منع الاشتراك اللفظي بالمرة أو عدم زيادته وفاتهم ان الاشتراك اللفظي واقع لا محالة في جميع اللغات لان ألفاظ كل لغة محصورة والمعاني غير محصورة فلو وزعت الالفاظ على المعاني وجب المصير الى الاشتراك حتما وانه لا ضرر من استعماله مع القرينة، ففي الهندسة مثلا تستعمل الزاوية والعمود والسطح والهرم والكرة والضلع ولا يخطر في البال شيء من معانيها القديمة، وفي الطبيعة والكيميا تستعمل العدسة والملح والبلورات ولا تحس بأصل معناها، وفي القوانين تستعمل وضع اليد وسحب الورقة وحبس العين والقذف والضبط والربط ولا يجيء في الخاطر معناه الاصلي والذي يسمع جملة «سيارة الامير سبقت القطار» لا يتوهم القافلة ولا الجمال فأين هي الآلام التي تخشون من زيادتها؟ ومن منكم يمكنه ان يتكلم كلاما خاليا من المشترك والمجاز؟ أنا أراهنكم على كتابة عشرة أسطر بأي لغة شئتم في وصف حادثة من الحوادث ذات البال فمن قدر على اخلائها من المجاز والمشترك فله مني عشرة دنانير وأمهلتكم شهرا . والحقيقة ان هذه الآلام آلام وهمية توجد عند ما يريد أن يتألم منها

وقالوا ثالثا: ان دلالة الكلم الاعجمية أصرح لانها تدل على صنف مخصوص بخلاف الكلم العربية فانها في الغالب تكون عامة: وفاتهم ان

الاصطلاح يجعل العام خاصا والمطلق مقيدا فالنسافة والبارجة والدارعة والمنطاد لاعموم فيها بعد الاصطلاح عليها وغلبة الاسمية على الوصفية معروفة في اللغات قديما وحديثا فيقولون في السيف أبيض ومرهف وهندي ويماني وفي الرمح أسمر ولدن وسمهري ورديني وكلها أوصاف غلبت عليها الاسمية

وقالوا رابعا: ان التعريب أسهل من انتقاء اللفظ العربي واستعمال الاعجمي أخف على السمع فاذا قلت للبدال «أعطني قدحا من الجعة» اشمأز منك وسخر السامعون بخلاف «البيرا». وقلنا أن هذه الصعوبة تزول بعد الاهتداء الى الكلمة العربية والاصطلاح عليها والالحاح في استعمالها لفظا وكتابة على أن هذه الصعوبة انما تكون على الاشخاص المكلفين باستخراج الكلم بخلاف الذين يتعلمونها جديدا فانهم يجدونها بدون عناء كالذي يلبس الثوب لايحس بعناء حائكه وخائطه وقارىء الصحيفة لايحس بعناء محررها وجامع حروفها وطابعها . ولا بد من قوم يعانون الاعمال وآخرون ينتفعون بها ونحن لانكلف أفراد الامة بالاشتغال معنا في انتقاء الالفاظ بل يكفي ان يتعب منا فريق في هذا الامر مقابل تعب الآخرين في أعمال اخرى على قاعدة التبادل المدني أما استهزاء العامة فلا يعوقنا عن العمل لانا لا نعمل لهم بل للخاصة والنشء الجديد الذين يتعلمون في المدارس، وخالي الذهن يحفظ مايلقى اليه سواء كان اللفظ الذي يحفظه عربيا أو أعجميا، واني أذكركم أننا كنا نستعمل كلمة قومسيون وقومبتيه وجرنال وغازيته وأفوكاتو وكوليرا ووابور وقنصل جنرال ولما ابتدأ الصحافيون يغيرونها بلجنة وصحيفة ومحام

ووباء وقطار ومعتمد كنا نتقززها فلما ألحوا في استعمالها زال التقزز شيئا فشيئا حتى عفنا الكلمات الاولى فجازاهم الله عن العربية خيرا . فلم لا يعمل المحدثون من الصحافيين مثل ماعمل الاقدمون ؟ ولماذا لا يحذو مترجمو اليوم حذو مترجمي أمس ؟ ولم لانساعد هؤلاء وهؤلاء على اداء ذلك الواجب ؟

وقالوا خامسا : ليس لنا أن نتمسك بالقديم لمجرد قدمه : فنقول لهم وليس لنا أن نبذ القديم لمجرد قدمه فما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ والواجب على من رأى المصلحة في القديم أن لا يتركه مالم تقم الادلة على أصلحية الجديد وقد جربنا القديم مئات من السنين فقام بالكفاية ولم نر للآن منفعة في الالفاظ الجديدة بل الضرر محقق لانا لو فتحنا الباب لدخول الجديد لاستعجم على الخالفين فيهم كل المؤلفات منذ الف سنة الى الآن وانقطع الاتصال بين السابق واللاحق وضاع على المتأخرين تراث اسلافهم المتقدمين

وبعد فاني لم أفهم للآن وجها للتشبث بحب الاعجمي فاما أن نكون مصابين بمرض الشعوبية وهو تفضيل العجم على العرب واما أن نكون لاستضعافنا مقلدين الغالب كما قال ابن خلدون ، واما ان يكون في طباعنا اخلاد الى الراحة والسكون فلا نريد أن نماني أعمالا جديدة لم نتعودها فتخدعنا هذه الطباع الى تحسين مانحن عليه ونقول بالتعريب لاننا يمكننا أن نعرب كل يوم الف كلمة ولا نجد في الشهر عشرين كلمة عربية فيعتقد كل منا أن ماوصل اليه هو منتهي الكمال وأن مايزيد عن ذلك يحسب من التقعر والتفيهق ولا يريد ان يعترف بكمال بعد الحد الذي وقف عنده فيسجل

على نقصه النقص ، ان لم يكن هذا ولا ذاك فما سبب هذا التشبث يا ترى؟
لقد وعيت كل ما سبق من الادلة فلم أجد فيها برهانا فلعل جمود قريحتي
ضرب بني وبين الحقيقة حجابا مستورا

وقد نشأ من التساهل في حياطة اللسان العربي أن تطرق الفساد الى مادته وهيئته وتولد عنه لسان آخر لا هو بالعربي ولا هو بالاعجمي وسماه الناس باللغة العامية أو الدارجة وهو المستعمل لهذا العهد في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب والمغرب والسودان لا يتكلمون بغيره وان كانوا لا يزالون يكتبون بالعربية الفصحى او ما يقرب منها

ونرى الطفل يتعلم العامية في أقل من خمس سنين ولا يتعلم الفصحى في أقل من عشر والسبب في ذلك ظاهر وهو انه في أول أمره لا يسمع غير العامية ولا يتكلم بغيرها فهو أينما سار وحيثما ذهب مشتغل بها فترسخ في ذهنه رسوخ الفرنسية في أذهان أطفال الفرنسيس والانكليزية في أذهان أطفال الانكليز وليس الحال كذلك في ابان تعلمه لغة الكتابة ولو فرضنا صبيا نشأ في بلد يتكلم أهله بالعربية الفصحى بالسليقة وبعد سن مخصوص يتعلمون العامية ويستعملونها في الكتابة فقط لانعكس معه الحال وتعلم العامية في أقل من عشر ، فليس من طبيعة اللسان العربي الصحيح شيء من الصعوبة وانما هي طريقة التلقين وبيئة التعلم

وعلى كل حال فالجمع بين العامية والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة كان يغني عنها خمس لو اقتصر المعلم على احداهما ويضيع على كل متعلم عشر سنين من عمره فاذا تحققت الآمال وصار التعليم اجباريا فكم تخسر الامة كل سنة من أعمار افرادها ؟ فاذا أخذنا المعدل السنوي للمواليد وهو

٤٧٠٠٠٠ وطرحنا منه معدل وفيات الاطفال الى سن العشرة (ونفرض أنه النصف) ٢٣٥٠٠٠ يكون عدد الباقين ٢٣٥٠٠٠ نضربه في عشرة أعوام وهي مقدار مايخسره كل واحد فتكون النتيجة ان الامة تخسر في كل عام عمل شخص واحد في ٢٣٥٠٠٠٠ سنة وبعبارة أخرى يفوتها ربح زراعة ١٠٢٧٥٠٠٠ فدان على فرض ان الفدان يزرعه اثنان وهي خسارة لا يحسن السكوت عليها * فياضيعة الاعمار تمشي سبهللا *

وقد استنكر الصبر على هذه الخسارة جماعة من الاقتصاديين فاتفقوا على وجوب الاقتصار على تعلم احدى اللغتين واختلفوا في تعيينها فقال فريق منهم يقتصر على العامية ومنهم المهندس الشهير ويلككس والقاضي الكبير ويلمور . وقال الفريق الآخر ومنهم العالم الشهير والمربي الكبير يعقوب أرتين (باشا) بالاقتصار على الفصحى

واورد على الاول (١) ان لكل قطر عامية مخصوصة بل لكل مديرية لهجة معينة فاذا رجحنا لغة اقليم تحكما منا نكون قد ألزمنا سكان الاقاليم الاخرى بتعليم لغة ذلك الاقليم وعناؤهم في ذلك لا ينقص عن عناء تعلم العربية الفصحى بل الفصحى أسهل لان كل شيء فيها قد ضبط ونقح ووضعت له كتب متعددة (٢) وان العامية في البلد الواحد تتبدل بتبدل العصور فلكل زمان ألفاظ تدخل مع أصحاب القوة ولذلك نرى في لغة مصر مفردات من الرومية والكردية والتركية والشركسية والفرنسية والانكليزية (٣) وان التزام العامية يحدث حجابا كثيفا دون الاستنباط من القرآن والحديث والمأثور من كلام السلف فتذهب أعمال الاولين هباء وتقع الخسارة على المسلمين وغيرهم ممن يستخرجون كنوز العلوم من

بطون الكتب العربية القديمة ولولا كتب العرب ما أشرق على أوربا ذلك النور الساطع وبالجملة تنقطع الصلة بين الازمنة والامكنة العربية ويحرم ابن هذا الزمان من ثمار أفكار السابقين وقاطن هذا المكان من تبادل آراء المعاصرين من أبناء اللغة الواحدة فلا جرم كان من المتعين نبذ الرأي الويلككسي والاخذ بالمذهب الارتيني

وخلاصة هذا المذهب أن تترك العامة يتكلمون بما يريدون وتدرب التلاميذ في المدارس على التكلم بالفصحى ويجب اليهم التحاور بها كلما اجتمع لفيف منهم حتى ترسخ فيهم ملكتها وتملك ألسنتهم دربتها ويكون أخذهم بالتمرين تدريجيا يطبقون على ما عرفوه ويكملون محاورتهم بالعامية فيما لم يعرفوه وكلما زادت درجتهم في التعليم زادت قوتهم في التطبيق الى أن تهجر العامية وتحل الفصحى محلها

فاذا ضم الى ذلك مطالعة الصحف والمجلات العربية وسماع الخطب العلمية في النوادي العربية والتردد على معاهد العظات ومشاهد التمثيلات ومواقف المرافعات وتعليم الفتيات واحتذاء أساليب المنشئين وطبع كتب المبرزين فان اللغة العامية تنقرض في أقل من عشرين عاما وتخلفها اللغة الصحيحة ويرجع اللسان العربي الى عصر مجده وأيام سعده

ولقد هم ذلك المربي الكبير منذ عشرين سنة بإلزام تلاميذ المدارس بالتكلم بالعربية الفصحى ما داموا تحت نظر معلميهم وأخذ يمهد لهذا الامر عدته وعتاده وسألني رأيي في ذلك وكنت معلما في مدرسة الحقوق فقلت له ان الامر ميسور والخطب سهل فطلب الي تجربة ذلك قبل أن يصدر الاوامر فقلت نعم وكرامة ولم يمض شهر حتى دعوته لشهود التجربة مع

من شاء من المفتشين فأسفرت التجربة عن نجاح باهر وارتقاء ظاهر فصمم على امضاء عزيمته لولا احتجاج فريق من المعلمين، بل نفر من العاجزين، بأن التطبيق متعذر قبل حفظ اللغة واتمام القواعد ولولا التوكؤ على هذه المغالطة لكانت العامية الآن، في خبر كاد ان لم تكن في خبر كان،

والذي يسمع كلام الباحثين الاصليين والمنتصرين لهما يخال ان بين الفريقين حربا عوانا وخلافا ما بعده اتفاق . ومنشأ هذا الافتراق الذي حمي وطيسه واحتدم أوراه ان أدلة الفريق الاول تنتج أكثر من المدعى ويجر التسليم بها الى اذهاب اللغة العربية والاتيان بخلق جديد ولو لا ذلك لكان الخلاف نظريا لا يترتب عليه أثر وتتضح ذلك اذا حددنا موضع النزاع وحصرناه في الدائرة التي يجب حصره فيها، واحسن طريق للتحديد سرد مواطن الوفاق حتى نتحاماها اذا التقى الجمعان واليكم البيان

(١) تقسم أولا اللغة العربية الى لغتين لغة عامية ولغة فصحى فالعامية لا يمكن أن تكون محل نزاع لان الباحث الاول يقول بصقل اللفظ الاعجمي ووضعه في القوالب العربية والثاني يقول بعدم الخروج عما ورد فمحل النزاع اذاً اللغة الفصحى

(٢) ثم تقسم اللغة الفصحى الى أجزائها حرف وفعل واسم فالحرف لا يمكن أن يكون محل النزاع لان ما وجد منه كاف واف بحاجة اللغة فلا ضرورة لزيادة نحو «يس» و«نو» و«آند» لوجود نعم ولا وحرف العطف والفعل كذلك غير محتاج للمزيد فلا باعث لزيادة نحو «جون» و«كم» لوجود ما يماثلها في العربية وقد وقع في كلام الباحث الاول (١) ما يفهم منه

(١) هو الشيخ محمد الخضري

رغبته في زيادة أفعال تشتق من الاسماء الاعجمية كأترم وتمبل وأمبس ولعل ذلك فرط منه أثناء احتدام الجدال والا فما وجه تفضيل الاعجمي على العربي ولم يقل أحد بجواز أبغل وأحمر وأفرس والبغل والحمار والفرس أعرق في العربية من الترام اللهم الا أن يكون وجه التفضيل شدة السرعة وعندنا قاعدة مذهبة نبني عليها وهي أنه لا يصار الى التعريب الا اذا ألجأت الحاجة اليه ولا حاجة الى اترم كما لا حاجة الى أبغل لامكان التعبير بركب الترام لو سلمنا بقبول كلمة ترام فمحل النزاع اذاً الاسم

(٣) ثم نقسم الاسم الى ما ينوب عن الفعل كشتان ووي وصه والى مالا ينوب عن الفعل والاول كالفعل لا حاجة الى الزيادة فيه فمحل النزاع اذا الثاني

(٤) ثم نقسم مالا ينوب عن الفعل الى مشتق وجامد فالمشتقات في العربية كافية وهي أصرح من نظائرها في اللغات الاخرى فالنزاع في الجامد

(٥) ثم نقسم الجامد الى اسم معنى واسم ذات فاسماء المعاني كثيرة جداً في العربية حتى عدها الباحث الاول ثروة واسعة فالنزاع في اسم الذات

(٦) ثم نقسم اسم الذات الى ما وضع لمعين بلا واسطة وهو العلم والى ما وضع لمعين بواسطة ملازمة وهو الضمير واسم الاشارة والاسم الموصول والى ما وضع لغير معين وهو اسم الجنس

فالعلم يشمل أسامي الاناسي والبلاد والجبال والانهار والبحار والامم والاقاليم وماله شأن خاص من غيرها ، والاتفاق على انها لا تخص امة معينة الا باعتبار معناها الاصلي قبل العلمية وانها تبقى على ما وضعه لها واضعها الا لضرورة والضرورة اما أن تكون بوجود حروف أعجمية

لا نظير لها في العربية كالحرف الذي بين الباء والفاء والحرف الذي بين الفاء والواو والحرف الذي بين الجيم والقاف والكاف والغين وبعبارة أخرى كجيم القاهرة أوقاف الصعيد وهي قاف تميم والحرف الذي بين الجيم العربية والياء وبعبارة أخرى كجيم المغاربة والحرف الالماني الذي بين الخاء والشين فيبدل الحرف الاعجمي بحرف يقاربه

واما أن تكون بوجود حركات أعجمية لا نظير لها في العربية كالحركة التي بين الفتحة والضمة كما تقول أهل القاهرة خوخ والحركة التي بين الضمة والكسرة عند الفرنسيس فتبدل بحركة عربية تقاربها أما الحركة التي بين الفتحة والكسرة فلها نظير في العربية في لغة نجد وقيس وأسد كما تسمع من القراء فتبقى كما هي أو تبدل بفتحة خالصة والمد بعدها بألف خالصة

واما باشتمال العلم على ما لا تجيزه أصول العربية كالابتداء بساكن وكالانتهاء بواو ساكنة قبلها ضمة وكالانتهاء بواو أو ياء بعد حرف مد فيحرك الساكن أو يتوصل اليه بهمزة وصل ويحرك احد الساكنين وتقلب الواو الساكنة ياء والضمة قبلها كسرة أو تحذف وتقلب الواو أو الياء المتطرفة بعد مدة همزة وهذا التغيير هو الذي يسمى صقلا أو وضعا في القوالب العربية فالعلم موضع اتفاق بين الباحثين أيضا

والضمائر واسماء الاشارات والاسماء الموصولة كافية بل فيها زيادة عن نظائرها في اللغات الاخرى فلا حاجة للزيادة فيها وانما النزاع في اسم الجنس كما صرح الباحث الاول مرارا

(٢) ثم نقسم اسم الجنس الى ما استعملت له العرب لفظا سواء

وضعته له من عندها أو عربته من لغة غيرها والى ما لم تستعمل له لفظا
الاول يقبل ولا ينظر الى أصل اللفظ قبل التعريب لان التعريب جعله
في حكم العربي فليس موضع نزاع والنزاع فيما لم تستعمل له العرب لفظا

(٨) ثم نقسم ما لم تستعمل له العرب لفظا الى ما اصطلح المولدون على اطلاق لفظ عربي عليه بأي مناسبة كانت كنسافة وغواصة ودارعة وقطار ولا خلاف بين الباحثين في قبوله ، والى ما لم يصطلحوا على اطلاق لفظ عليه للآن ولا خلاف بين الباحثين في انه يجب البحث والتنقيب في كتب اللغة عن لفظ عربي يمكن اطلاقه عليه بأي مناسبة من المناسبات الجائزة في اللغة العربية ويصطلح على دلالته عليه كما اصطلح من قبلنا على لفظ نسافة وغواصة

ولم يقل أحد منهما بتعطيل حركات الخطابة والكتابة ودواوين الانشاء وصحف الاخبار في مدة البحث والتنقيب بل لا بد من ملء الفراغ بلفظ أعجمي واستعماله موقتا للضرورة كما يفعل الطالب الذي ينتقل بالتعليم تدريجا من لغة العامة الى اللغة الفصحى

فاذا انقضى دور البحث ولم يعثر على كلمة عربية يمكن الاصطلاح عليها وهو ما لا يكون الا نادرا تصقل الكلمة وتستعمل وحينئذ يراها الباحث الاول بالمنظار الذي يرى به المعربات التي صقلتها العرب ويقول قد احتطت وما فرطت فرحبا بالدخيل العتيد ، وبعدا للاصيل الشريد ، وما لي أشغل آمالي بنشد ضالة ان جاءت فلا كرامة ، وان ذهبت فلا شيعتها غمامة ،
ويراها الباحث الثاني بمنظار آخر غير ما يرى به المعربات فيحسبها كالرقعة

في الثوب والحصاة بين الدر ويقول للضرورة أحكام، وحبذا لو صحت الاحلام، ووجدت طابتي في يوم من الايام،

هذا هو الخلاف الطويل العريض ضيق البحث حلقاته رويداً حتى تضاءل وانتهى الى تقدير النظر الى الكلمة المجتلبة واستقبالها اما بالترحيب، واما بالتقطيب، وهو خلاف غريب،   حفني ناصف



باب المناظرة والمراسلة

السنن والاحاديث النبوية

جاءتنا هذه الرسالة من الشيخ صالح بن علي اليافعي أحد العلماء المقيمين في حيدراباد الدكن يرد فيها على الدكتور محمد توفيق افندي صدقي فيما كتبه في النسخ وكون الاحاديث ليست من أصول الدين ولطولها ننشرها بالتدريج مبتدئين بمقدمتها التمهيدية وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق، وجعل له لسان الصدق، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه، ومتبعيه وأنصاره واحزابه،

أما بعد فاني قد وقفت على رسائل لحضرة العالم الباحث الدكتور محمد توفيق افندي صدقي كان يرمي فيها أولا الى أن الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن مجرداً عن بيان الرسول (ص) وتعاليمه غير معتبر لما زاده الله على ما في القرآن من أحكامه ولازم قوله بل صراحته دالة على محو صورة الاسلام الموجودة وجواز تشكيله ا.

شاء بأي صورة شاء وكأنه استشعر شناعة ذلك فأعلن رجوعه عن اطلاق القول في رد جميع السنن وخص منها قبول السنن الفعلية التي نقلتها الامة بالاجماع او بالتواتر . ورد جميع السنة القولية زاعما أنها آحاد وما تواتر منها ليس فيه شيء من الاحكام

وقوله هذا - وان كان أهون من قوله السابق ظاهرا - مآله وحقيقته بعد التزامه ثم تطبيقه على مافي نفس الامر الواقع هو حقيقة قوله الاول من رد اكثر السنن الفعلية بل لا يبعد اذا قلنا كلها لانه مامن فعل نقل الينا من تلك الافعال الا وقد اختلف في هيآته وأحكامه المقومة لحقيقته . والمسلمون الناقلون لتلك الاعمال انما كان مستند اختلافهم في ذلك اما السنن القولية واما اجتهاد من يتأتى له الاجتهاد منهم فاذا لم يجب أن تكون سنن الرسول (ص) القولية من الدين فلأن لاتكون مجهودات غيره من الدين أولى وأحرى

واذا كان كل فعل من السنن الفعلية قد اختلفت في صفاته وهيآته الطوائف والمذاهب بحيث يكون حقيقة هذا الفعل عند هؤلاء غير حقيقته عند أولئك - واذا كان المستند السنن القولية أو الاجتهاد وسلمنا أن كلا منهما ليس من الدين - لزم أن لا يلزم المتدين أخذه وأن لايجب عمل مخصوص للزوم انتفاء المدلول بانتفاء دليله والمسبب بانتفاء سببه اذ لا دليل ولا سبب لوجوب أو حرمة أو ندب أو كراهة الا السنن القولية المفسرة للقرآن والناصة على أحكام الاعمال فاذا انتفت انتفى كل ذلك وجاز لمن شاء أن يقول ان الواجب من الاعمال كذا وكذا وان معنى القرآن ومراده ذا اوذا كيف شاء فماد الامر في جميع أمور الدين

الى الاجمال والابهام ولزم الانسلاخ عن دين الاسلام وهذا هو ماتحاشا عنه كل من يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم

والحقير قد نبه حضرة الدكتور في رسالة ارسلتها الى حضرة سيدنا منشئ المنار الأغر ولكنه أرسل الي مكتوبا يذكر فيه ان بعض تلك الرسالة ضاع عنه ويطلب ارسال ذلك اليه ليطبع الرسالة ولكني اعتذرت حيث لم يبق لدي منها شيء لاني ارسلت الى حضرته المسودة. ولما كتب حضرة الدكتور رسالته الاخرى التي طبعت في المنار (الجزء التاسع من المجلد العاشر) بعنوان (النسخ في الشرائع الالهية) رأيته صدر رسالته بالكلام على حقيقة النسخ واختار القول بجوازه عقلا وشرعا ووقوعه في الشرائع الالهية والقوانين الوضعية البشرية وهذا شيء لا ننازعه فيه لكنه انكر وقوعه في القرآن فعلا وخص ذلك بالسنة النبوية ثم تدرج من مسئلة النسخ الى تقسيم السنة الى قسميها فعلية وقولية وكل منهما الى متواتر وآحاد تمهيدا لما خلاصته ان القولية لا سيما الآحاد منها لا يجب العمل به بعد زمن رسول الله (ص) وزعم ان السنن القولية مطلقا انما هي شريعة وقتية تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية وعلل ذلك بالنهي عن كتابتها وزعم ان النبي (ص) واصحابه لم يعاملوها بالعناية التي عومل بها القرآن قصدا منهم لان تندثر وتزول من بين المسلمين فلا يعملون بها

هذه خلاصة قوله لكنه يظهر من تناقض كلامه وجوب العمل وقبول ما كان متواترا من ذلك لا ما نقل آحادا سواء كان حسنًا أو صحيحا أو مشهوراً أو مستفيضا

وحيث كان ذلك مخالفا لدين الاسلام فيما أعتقد لا

الآحاد الصحيح بجميع اقسامه مستلزم للطعن في القرآن وتكذيبه ومخالف لجماهير المسلمين بل لجميعهم بل لجميع الاديان والملل وسائر متبعيها بل مخالف لما عليه مدار الاجتماع البشري كل ذلك على ما أعتقد ولا احسب ان احدا ممن عرف بالعلم والعقل كحضرة الدكتور يخالفني وينازعني في ذلك بعد التفكر وبشرط الانصاف - حيث كان الامر كذلك فيما أعتقد بعثني حب اظهار الحق والتعاون على البر والنصيحة الى مناقشة حضرة الاخ الدكتور فيما كتبه في رسالته مما رأيته خلاف الصواب لما عرفت من حسن نيته ورجوعه الى الحق كما هي عادته

وألتمس من مولانا المرشد وسيدنا العلامة القدوة داعي الانام ، لاتباع حقيقة الاسلام ، منشي المنار مولانا حضرة السيد محمد رشيد رضا وأرجوه أن يدرج هذه البضاعة المزجاة في مناره، وان يسقط ما فيها من الغلط بصائب أفكاره ، وان يشركنا في صالح دعواته، ولنمدلماكنا بصدده من الشروع في المقصود فنقول : (سيأتي المقصد)

﴿ تنبيه للمستفتين ﴾

اذا أراد المستفتي ان لا يتأخر نشر سؤاله والاجابة عنه فليكتبه على ورقة مستقلة ولا يجعله في غمرة كتاب آخر فيكلفنا استخراجه منه اذ ربما تمر الشهور ولا نجد وقتا لنسخه . ومن سأل في ورقة واحدة عدة أسئلة فليفصل بينها في الكتابة فيبتدىء كل سؤال بسطر جديد . وليكن الخط واضحا . ومن علم ان في عبارته غلطا فليأذن لنا بتصحيحها ان شاء والا نشرناها على علاتها اوأهملناها

الفصل الأول (*)

(مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب ، قصي عن العمران ، في واد غير زرع ، لا تنساب فيه الأمواه ، ولا تكتنفه الحدائق ، ولا تقوم الصناعات فيه دولة ، ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالا ، ولكن أبدأه الله جمالا معنويا ، وكساه جلالا روحانيا ، فالافئدة تهوى اليه ، والمطايا تزجى له من كل فج عميق ،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشهيرة التي لا يجهل اسمها وشهرتها أحد ، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة الحجاز من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها

لم نقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلتها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا ان نحزر أهليها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل . وذلك أن قصي بن كلاب استطاع ان يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث ان صارت لهم خاصة

---

*) من رواية خديجه أم المؤمنين

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرّفوها ويحجون اليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقي متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزال عنها القشور أمّا من حيث الحضارة فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر من البلدان وانما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق الى يومنا هذا لم يزدد على طول القرون الا تشريفاً وتكريماً ولم يتغير فيه الا أشكال الابنية وازدياد التجارة والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وانما بني هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيدانها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمده من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ص) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لأنه لم يكن بمكة من ماء الا في آبار

بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت انصرف الحاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابناء السبيل نعلم شيئاً من روح تربية الهمم وترقية العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه «خديجة »

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك انهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكأنهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسر في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حدذاتها ان تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالاخبار كلها دالة على ان القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نعهد له نظيراً ان كل فرد من أفراده تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبة ، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه أذاهم نجد ان ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب فاذا أزيلت يصبح اول مجتمع

راق في الدنيا وخليقاً ان يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت بديع جماله ، وأشرأبت الى عظيم كماله ، ثم تاقت الى تعريف العالم بما كانت تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية

وقد وقع ذلك فان الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري، من ينظفه من تلك العيوب التي اشرنا اليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

اما الجمهورية التي أشرنا الى انها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك انهم رأوا الشرف انتهى الى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة، ثم اجمعوا امرهم على ان يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على ان يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة تختص بها تعد من مفاخره فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف وبذلك أعطوا الاعمال التي يمجدبها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم .

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها، وعظموا في أنفسهم حقها، وبها كانوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود ، ويفصلون ما يفصلون في بعض القضايا والحقوق

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كانهم عدوها لغواً اذا صدقوا

في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارادتهم الحق وقليلة الجدوى اذا مرض تضامنهم ووهى نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة اذا وجدت مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الأقربين . أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لانهم كلهم يحملون بين أضالعهم نفوس الملوك وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام موقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالمحاربات فعلاقاتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم فان نزل بهم مايطيقونه كشفوا اللثم عن قوتهم وبرزوا من غير تريث وان نزل بهم مالاقبل لهم به تريثوا وعمدوا الى الاناة وفتقوا من الحيلة أبوابا يخرجون منها الى السعة من الضيق ومن فل الجيوش بالحسام الى فلها بالبيان وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً . ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي أبرهة الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فقدهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبي (ص) وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف بعض الشئ من حدته التي كان بها مسوقا لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية فقفل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في اهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال

ثم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجباً من الأمر وذلك

انه لما أتاهم أرسل اليهم رجلا حميرياً كان معه اسمه حناطة وأوصاه ان يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه ان الملك لا يريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لا نريد حربه قال حناطة انه أوصاني ان يريد مواجهتك ان لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه واكرمه وأخذه الى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول ما يبدو له فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه بل أظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له اذا لم يكن لك غير هذا الأرب فرد علينا أبلنا قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في الاموال وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه فقال له انه ما كان ليمتنع مني فأجابه أنت وذاك ورد ابرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصراً على عزمه ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم ان يعتصموا بالجبال، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون وقد أتى من لدن العناية الغيبية ما لم يكن في الحساب فان أبرهة لما أصبح وتهيأ لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرن واتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يقم ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاءم ابرهة وتذكر ما انذره به ذلك الرجل الجليل السني

الطلعة عبد المطلب من حماية هذا البيت بطريقة لا يبلغها عقله فخمدت في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل .

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها . وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى مجمل هذه الحادثة في القرآن المجيد

الفصل الثاني

﴿ بيوتات قريش وخصائصها ﴾

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم ،

واما الامور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابة ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبة ، والاعنة ، والسفارة ، والايسار ، والاموال المحجرة ،

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحي يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهورياً على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

وأما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفيه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضاً في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

وأما العقاب فهي راية قريش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها

واما السدانة والحجابة فمناها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدنيتهم وجمهوريتهم

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمدنة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متممات مدنيتهم ولمن

يتولونها شأن يذكر عندهم . وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس ببعيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برآسة الوزراء أو رآسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة ان رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعواناً

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرماً اودية وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد صدقه قريش واعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه

واما القبة فأشبه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعمدون اليها وقت الحرب فقط ولعل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي أيضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ فن التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر، وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شبوب نارها وتعاظم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

وأما الايسار فهي الأزلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمراً وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا يعطونها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في الامم بسماح من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين منهم صفوان بن أمية صاحبها

واما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابهاً . وقد كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة . واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار أسرهم وعشائرهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وانما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون الامور باشباهها

وهنا يخطر في بال القارئ أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوي عن الضعيف . وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف والذود عنه وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبد الله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

ثم كان من النقص في نظامهم أن لا تكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا ان نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والأمر في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها ان يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . واما الحوادث

الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعاً من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصون باجتناب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابنا لها:

أبنيّ لا تظلم بمكـ ـة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنيّ ولا يغرّنك الغرور
أبنيّ من يظلم بمكـ ـة يلق أطراف الشرور
أبنيّ يضرب وجهه ويلح بخديه السعير
أبنيّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها والعصم تأمن في ثبير

وتواصيهم بالنهي عن الظلم يقربنا بتعرف فلسفة القوم التي كانت تحثهم على مثل هذا

الفصل الثالث

ديانة أهل مكة عند البعثة

ويظهر لنا انهم طرقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ما هي نفوسنا ومن أين مبدأها والى اين منتهاها وماذا يزكيها وماذا يدسّيها نعم طرقوا هذا الباب ولكن يفتح لهم عن الطريق الموصل الى

هذه الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الا كثرين ظنوناً ورجماً بالغيب

أدرك القوم ان للعالم خالقاً ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيهن ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافئدة ، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذا السبيل تاهوا فتركوا ههنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لأناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله

لقد غلطوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخيلهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى

وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم ولم يكن جائزاً أن يشركوا به الجماد ،

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويزكيهم ؛

غلطوا في كل هذا وتسفلت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعاً مدبراً عظيماً هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قد رقق على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعاً من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحث على مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم الا قليلاً

فاذا صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزغات الوثنية لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمة وهي التي اضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ولم يكن يعوزهم الا ان يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لمجيء المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لقي أراضي في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار والى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج الى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر

كلهم الا قليلاً كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال جذوره ولا ندري السر في هذا. ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة كيف أقامت لها شأناً رفيعاً في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن في جوار البيت المشرّف وأحسنت المقام في هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من سقايتهم ورفادتهم ، وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالعدل والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لأمر عظيم وشرف جسيم على انهم ليسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى ناصراً . لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا في صفاء العقول الغاية ، والأمم والشعوب تحيي بافراد وتموت بأفراد

واذا سخر الاله سعيداً لاناس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حريتهم التي كانوا عليها فانهم لما خلصوا من تمليك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التمليك فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع وكانت مكاسبهم لانفسهم لا يشاركهم فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم انهم يتحاكمون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من أحكامه فرائصهم وانما يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي يثأر له العموم أو يثأر له من أصابهم خاصة

وكان جائزاً لا حدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله وقد كان لبعضهم فلسفة فى النشور والجزاء الأخروي ولبعضهم انصراف عن عبادة الاوثان ولبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراماً بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة فى التجارة والرحلة فيها الى الشأم وغيرها فى الصيف والشتاء

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امائه على البغاء ليأخذ ما يعطين في سبيله

أما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن بعولة بيد انه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى رأي أهليهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن ان يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهوه ربهم الأعلى ، الذي خلق فسوّى ،

مجلة المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء الثالث

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

WWW.ALUKAH.NET

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر الجمعة ٣٠ ربيع الاول ١٣٢٦ — أول مايو (أيار) سنة ١٩٠٨

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٨ : ١١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

(١١٩ : ١١٥) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

(١٢٠ : ١١٦) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ

قال الاستاذ الامام ان الآيات السابقة من اول السورة كانت في الحجاج مع أهل الكتاب وكذا مع المشركين بالتبع والمناسبة وان هذه الآيات وما بعدها الى آخر السورة في بيان احوال المؤمنين ومعاملة بعضهم لبعض وارشادهم في أمرهم يعني ان أكثر الآيات السابقة واللاحقة في ذلك

ثم ذكر لبيان اتصال هذه الآيات بما قبلها ثلاث مقدمات (١) انه كان بين المؤمنين وغيرهم صلات كانت مدعاة الى الثقة بهم والإفضاء اليهم بالسر واطلاعهم على كل امر منها المحالفة والعهد ومنها النسب والمصاهرة ومنها الرضاعة (٢) ان الغرة من طباع المؤمن فانه يبني أمره على اليسر والامانة والصدق ولا يبحث عن العيوب ولذلك يظهر لغيره من العيوب وان كان بليدا مالا يظهر له هو وان كان ذكيا (٣) ان المناصبين للمؤمنين من اهل الكتاب والمشركين كان همهم الاكبر اطفاء نور الدعوة وابطال ماجاء به الاسلام وكان همّ المؤمنين الاكبر نشر الدعوة وتأييد الحق . فكان الهمان متباينين ، والقصدان متناقضين ، (ثم قال) فاذا كانت حالة الفريقين على ماذكر فهي لاشك مقتضية لان يفضي النسيب من المؤمنين الى نسيبه من اهل الكتاب والمشركين وكذا المحالف منهم لمحالفه من غيرهم بشيء مما في نفسه وان كان من أسرار الملة التي هي موضوع التباين والخلاف بينهم وفي ذلك تعريض مصلحة الملة للخبال . لذلك جعل الله تعالى للصلات بين المؤمنين وغيرهم حدا لا يتعدونه فقال

﴿ ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر ﴾ الى آخر الآيات

« بطانة » الرجل وليجته وخاصته الذين يستنبطون أمره و يتولون سره مأخوذ من بطانة الثوب وهو الوجه الباطن منه كما يسمى الوجه الظاهر ظهارة . و « من دونكم » معناه من غيركم و « يألونكم » من الإلو وهو التقصير والضعف و « الخبال » في الاصل الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالأمراض التي تؤثر في المخ فيختل ادراك المصاب بها أي لا يقصرون ولا يَنون في إفساد أمركم . والأصل في استعمال فعل « لا » ان يقال فيه نحو « لا آلو في نصحك » وسمع مثل « لا آلوك نصحاً »

على معنى لا أمنعك نصحاً وهو ما يسمونه التضمين . و « عنتم » من العنت وهو المشقة الشديدة و « البغضاء » شدة البغض

اما سبب النزول فقد أخرج ابن اسحاق وغيره عن ابن عباس قال « كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم هذه الآية » وأخرج عبد بن حميد انها نزلت في المنافقين . وروى ابن جرير القولين عن ابن عباس . وذكر الرازي وجهاً ثالثاً انها في الكافرين والمنافقين عامة قال « واما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية فانه ثبت في أصول الفقه ان أول الآية اذا كان عاماً وآخرها اذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم أولها » وسيأتي عن ابن جرير ترجيح الأول

واما المعنى فهو نهي المؤمنين ان يتخذوا لأنفسهم بطانة من الكافرين الموصوفين بتلك الأوصاف على القول بأن قوله « لا يألونكم » الخ نعوت للبطانة هي قيود للنهي كذا على القول بأنه كلام مستأنف مسوق للتعليل فالمراد واحد وهو ان النهي خاص بمن كانوا في عداوة المؤمنين على ما ذكر وهو انهم لا يألونهم خبالاً وإفساداً لأمرهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فهذا هو القيد الأول . والثاني قوله عز وجل « ودوا ما عنتم » أي تمنوا عنتكم أي وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة . والثالث والرابع قوله « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم . فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها ويعز عليهم اخفاؤها على أن ما تخفي صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليها . وهذا النوع من البغضاء والعداوة مما يلقاه القائمون بكل دعوة جديدة في الاصلاح ممن يدعونهم اليه وما كان المسلمون الأولون يعرفون سنة البشر في ذلك اذ لم يكونوا على علم بطبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ حتى أعلمهم الله بذلك ولذلك قال

﴿ قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾ يعني بالآيات هنا العلامات الفارقة بين من يصح ان يتخذ بطانة ومن لا يصح ان يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته . أي

ان كنتم تدركون حقائق هذه الآيات والفصول الفارقة بين الاعداء والاولياء فاعتبروا بها ولا تتخذوا أولئك بطانة

وانت ترى ان هذه الصفات التي وصف بها من نهى عن اتخاذهم بطانة لو فرض ان اتصف بها من هو موافق لك في الدين والجنس والنسب لما جاز لك ان تتخذه بطانة لك ان كنت تعقل فما أعدل هذا القرآن الحكيم وما أعلى هديه وأسمى إرشاده ؟ لقد خفي على بعض الناس هذه التعليلات والقيود فظنوا أن النهي عن المخالف في الدين مطلقاً ولو جاء هذا النهي مطلقاً لما كان أمراً غريبا ونحن نعلم ان الكافرين كانوا إلباً على المؤمنين في أول ظهور الاسلام إذ نزلت هذه الآيات لاسيما اليهود الذين نزلت فيهم على رأي المحققين . ولكن الآيات جاءت مقيدة بتلك القيود لان الله تعالى — وهو منزلها — يعلم ما يعتري الأمم وأهل الملل من التغير في الموالاة والمعاداة كما وقع من هؤلاء اليهود فانهم بعد أن كانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا في أول ظهور الاسلام قد انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في بعض فتوحاتهم (كفتح الاندلس) وكذلك كان القبط عوناً للمسلمين على الروم في مصر فكيف يجعل عالم الغيب والشهادة الحكم على هؤلاء واحداً في كل زمان ومكان أبد الابيد ؟ ألا إن هذا مما تنبذه الدراية ، ولا تروي غلته الرواية. فأن أرجح التفسير المأثور يؤيد ماقلنا .

قال ابن جرير يرد على قتادة القائل بأن الآية في المنافقين ويؤيد رأيه الموافق لما اخترناه ما نصه: «ان الله تعالى ذكره إنما نهى المؤمنين ان يتخذوا بطانة ممن قد عرفوه بالغش للاسلام وأهله والبغضاء إما بأدلة ظاهرة دالة على ان ذلك من صفتهم . وإما باظهار الموصوفين بتلك العداوة والشنآن والمناصبة لهم فأما من لم يتأسوه معرفة انه الذي نهاهم الله عز وجل عن مخالته ومباطنته فغير جائز ان يكونوا نهوا عن مخالته ومصادقته الا بعد تعريفهم إياهم إما باعيانهم وأسمائهم وإما بصفات قد عرفوهم بها . واذا كان ذلك كذلك وكان إبدا المنافقين بألسنتهم مافي قلوبهم من بغضاء المؤمنين الى إخوانهم الكفار (أي كما قال قتادة) غير مدرك به المؤمنون معرفة ماهم عليه لهم مع إظهارهم الايمان بألسنتهم لهم والتودد اليهم كان بينا ان الذين نهى الله عن

اتخاذهم لأنفسهم بطانة دونهم هم الذين قد ظهرت لهم بغضاؤهم بألسنتهم على ما وصفهم الله عز وجل به فعرفهم المؤمنون بالصفة التي نعتهم الله بها وأنهم هم الذين وصفهم الله تعالى ذكره بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون ممن كان له ذمة وعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أهل الكتاب لأنهم لو كانوا المنافقين لكان الأمر منهم على ما بينا ولو كانوا الكفار ممن ناصب المسلمين الحرب لم يكن المؤمنون متخذيهم لأنفسهم بطانة من دون المؤمنين مع اختلاف بلادهم وافتراق أمصارهم ولكنهم الذين كانوا بين أظهر المؤمنين من أهل الكتاب أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن كان له من رسول الله (ص) عهد وعقد من يهود بني إسرائيل » اه

فهذا شيخ المفسرين وأشهرهم يجعل هذا النهي فيمن ظهرت عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه ممن كان لهم عهد فخانوا فيه كبني النضير الذين حاولوا قتل النبي (ص) في اثناء ائتمانه لهم لمكان العهد والمحالفة ويمنع ان يكون مراداً به جميع الكافرين أو المنافقين

فهذا حكم من احكام الاسلام في المخالفين أيام كان جميع الناس حربا للمسلمين فهل ينكر أحد له مسكة من الانصاف انه في هذه القيود التي قيد بها يعد منتهى التساهل والتسامح مع المخالفين، إذ لم يمنع اتخاذ البطانة الا ممن ظهرت عداوتهم و بغضاؤهم للمسلمين، فهم لا يقصرون في إفساد أمرهم ويتمنون لهم من الشر فوق ذلك. لو كانت هذه القيود للنهي عن استعمال المخالفين في كل شيء ومشاركتهم في كل عمل لكان وجه العدل فيها ازهر، وطريق العذر فيها أظهر، فكيف وهي قيود لاتخاذهم بطانة يستودعون الاسرار ويستعان برأيهم وعملهم على شؤون الدفاع عن الملة وصون حقوقها ومقاومة أعدائها ؟ ؟

ما أشبه هذا النهي في قيوده بالنهي عن اتخاذ الكفار انصاراً وأولياء إذ قيد بقوله عز وجل (٦٠ : ٨ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ٩ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم

ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقد شرحنا هذا البحث في تفسير قوله تعالى (٣ : ٢٨ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون الله) (١)

هذا التساهل الذي جاء به القرآن هو الذي أرشد عمر بن الخطاب الى جعل رجال دواوينه من الروم وجرى الخليفتان الآخران وملوك بني أمية من بعده على ذلك الى ان نقل الدواوين عبد الملك بن مروان من الرومية الى العربية . وبهذه السيرة وذلك الارشاد عمل العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين في إناطة أعمال الدولة باليهود والنصارى والصابئين ومن ذلك جعل الدولة العثمانية أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الاجانب من النصارى . ومع هذا كله يقول متعصبو أوربا ان الاسلام لا تساهل فيه !! « رمتني بدائها وانسلت » ألا ان التساهل قد خرج عند المسلمين عن حده حتى كتب الاستاذ الامام في ذلك مقالة في العروة الوثقى صدرها بالآية التي نفسرها نوردها هنا برمتها لانها تدخل في باب تفسير الآية والاعتبار بها على أكمل وجه وهذا نصها (نقلا من الجزء الثاني من تاريخه) :

* * *

« قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والاهب الوافرة والاسلحة الجيدة . قلنا نعم هي أحراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها ولا حراسة الا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة يوطئون طرق الامن ويبسطون بساط الراحة ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة الى أسمى مكانة تمكن لها . ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها وحتى تكون

(١) راجع ص ٢٧٦ وما بعدها من الجزء الثالث من التفسير

الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم وزاجرا عما لا يليق بهم وغضاضة وألما موجعاً عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر ويوجس عليها من خطر ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي و يصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة.

« يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود و يوفر العدد من كل نوع بنقد النقود و بذل النفقات ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا اليهم : عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم .لا بد ان يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ويراعي ناموس الطبيعة فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق وقلما يخطئ في رأيه أو يتأود في عمله من أخذ به دليلاً وجعل له من هديه مرشداً وإذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

« من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية انما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها . هذه فطرة فطر الله الناس عليها . ان الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عند ما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أو دينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمة من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه خصوصاً ان كان بيده هامات أمورها وفي قبضته زمام التصرف فيها فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر ومصيبته بالمضرة أعظم وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر فيكون اهتمامه بشؤون الأمة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة

فعلى ولي الأمر في مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلاً من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل. هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ما عدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يعلي شأنه بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه . هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم و براءتهم من أغراض أخر فما ظنك بالاجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الاقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الاسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي

تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها و بسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في أعمالها، فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً اذا كان بين الغرباء و بين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

« نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة و يطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك اذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة فيقع الخلل في نظام الأمة و يضرب فيها الفساد ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب الى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لمهامات الأمور في البلاد لان صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا ان ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى وان ماشد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها و يميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

« لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الاسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمر المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وادارة وحماية للاجانب عنهم بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعدما رأوا كثرة المطامع فيها لهذا الزمان وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من اجيال بعيدة بعد ماعلمتهم التجارب انهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عززوا أهانوا ، يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير

بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون اليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخديعة ،

« اما آن لامراء الشرق ان يدينوا لاحكام الله التي لاتنقض ؟ ألم يأن لهم ان يرجعوا الى حسهم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم ان يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وايدي اعدائهم ، ألا أيها الامراء العظام مالكم وللأجانب عنكم ؟ « هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » قد علمتم شأنهم ، ولم تبق ريبة في أمرهم « ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها » سارعوا الى ابناء أوطانكم واخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير ، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس اجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين ، ألم تروا ألم تعلموا ألم تحسوا ألم تجربوا ؟ ؟ الى متى الى متى إنا لله وإنا اليه راجعون » اه

***

هذا بيان يريك بالحجج الاجتماعية الناهضة ان الغريب عن الملة لايتخذ بطانة للقائمين بأمر الملة ، والغريب عن الدولة لايتخذ بطانة لرجال الدولة ، وان لم يكن هؤلاء الغرباء متصفين بما ذكر في الآية من العدوان والبغضاء فكيف اذا كانوا كذلك

بينت لنا الآية التي فسرناها بعض حال اولئك الذين نهي المؤمنون عن اتخاذ البطانة منهم مع المؤمنين فدونك هذه الآية التي تبين حال المؤمنين معهم :

﴿ ها انتم اولاء تحبونهم ولايحبونكم ﴾ فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفا المسلمين بهذا الوصف الذي هو من أثر الاسلام وهو انهم يحبون اشد الناس عداوة لهم الذين لايقصرون في افساد أمرهم وتمني عنتهم على ان بغضاءهم لهم ظاهرة وما تخفي منها اكبر مما ظهر . اولئك المبغضون هم الذين قال الله فيهم او في طائفة منهم (٥ : ٨٢ لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود) الخ يعني اولئك اليهود المجاورين لهم في الحجاز . أليس حب المؤمنين لاولئك اليهود الغادرين الكائدين واقرار القرآن اياهم على ذلك لانه اثر من آثار الاسلام في نفوسهم هو أقوى البراهين على ان هذا

الدين دين حب ورحمة وتساهل وتسامح لا يمكن ان يصوب العقل نظره الى اعلى منه فى ذلك؟ بلى ولكن وجد في الناس من ينكر عليه ذلك و يصفه بضده زورا و بهتانا، بل تعصبا خروا عليه صما وعميانا ،

من هم الذين يرمون الاسلام بانه دين بغض وعدوان ؟ لا اقول انهم النصارى الذين كانوا أجدر بحبنا وودنا من اليهود لقوله تعالى في تتمة الآية التي استشهدنا بها آنفا (ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) بل هم قسوس اوروبا المتعصبون على الاسلام من حيث هو دين، وساستها المتعصبون على الاسلام من حيث هو شرع ونظام قامت به دول وممالك . فاوروبا التي تتهم الاسلام — والشرق الأدنى كله لاجل الاسلام — بالتعصب والبغضاء المخالف هي التي ابادت من بلادها كل مخالف لدينها الا الترك فانها لم تقو على ابادتهم حتى الآن ولولا ما بين دولها من التنازع السياسي لقضت عليهم . فنصارى الشرق ومسلموه وكذا وثنيوه إنما اغترفوا غرفة من بحر تعصب أوروبا ولكنهم لا قوة لهم على الدفاع عن انفسهم أمام اولئك المعتدين

أما قوله تعالى ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ فمعناه أنكم تؤمنون بجميع ما انزل الله من كتاب سواء منه ما نزل عليكم وما نزل عليهم فليس في نفوسكم من الكفر ببعض الكتب الالهية او النبيين الذين جاؤا بها ما يحملكم على بغض اهل الكتاب فانتم تحبونهم بمقتضى ايمانكم هذا . وذكر بعضهم ان جملة « وتؤمنون » حالية من قوله « ولا يحبونكم » والمعنى انهم لا يحبونكم مع انكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم فكيف لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أحق ببغضهم أي ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم

قال ابن جرير : « في هذه الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعني المؤمنين والكافرين ورحمة أهل الايمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم ، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الايمان ، كما حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة : قوله « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله » فوالله ان المؤمن ليحب المنافق ويأوي اليه ويرحمه ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المنافق منه لأباد خضراءه » . حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني

حجاج عن ابن جريج قال « المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن يرحمه ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه » اهـ

فهؤلاء أئمة التفسير من سلف الأمة يقولون إن المسلم خير الكافر والمنافق منهما له حباً ورحمة ومعاملة . وكذلك قالوا في السني مع المبتدع كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية قالوا ان من علامة أهل السنة ان يرحموا المخالف لهم ولا يقطعوا أخوته في الدين . ولذلك يذكرون في كتب العقائد « لا نكفر أحداً من أهل القبلة » بل كان رواة الحديث من أئمة أهل السنة كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن يروون عن الشيعة والمعتزلة لا يلتفتون الى مذهب الراوي بل الى عدالته في نفسه .

ونتيجة هذا كله ان الانسان يكون في التساهل والمحبة والرحمة لإخوانه البشر على قدر تمسكه بالايمان الصحيح وقربه من الحق والصواب فيه . وكيف لا يكون كذلك والله يقول لخيار المؤمنين « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم » فبهذا نحتج على من يزعم أن ديننا يغرينا ببغض المخالف لنا كما نحتج على بعض الجاهلين منا بدينهم الذين يطعنون ببعض علمائهم وفضلائهم ، لمخالفتهم إياهم في مذاهبهم وآرائهم ، أو في ظنونهم وأهوائهم ، والذين سرت اليهم عدوى المتعصبين ، فاستحلوا هضم حقوق المخالفين لهم في الدين ،

ثم قال تعالى شأنه مبينا الشأن طائفة منهم اسندها اليهم في الجملة على قاعدة تكافل الامة وكونها كشخص واحد ﴿ واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ ﴾ كان بعض اليهود يظهرون الايمان للنبي (ص) والمؤمنين نفاقا وخداعا ومنهم من كان يظهره ثم يرجع عنه ليشكك المسلمين كما تقدم في آية (٧٢) من هذه السورة (*) واذا خلا بعضهم الى بعض اظهروا مافي نفوسهم من الغيظ والحقد الذي لا يستطيعون معه الى التشفي سبيلا. وعض الانامل كناية عن شدة الغيظ ويكنى به ايضا عن الندم ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ فان الاسلام الذي هو سبب غيظكم لا يزداد باعتصام أهله به الا عزة وقوة وانتشارا وقال ابن جرير « موتوا بغيظكم الذي على المؤمنين لاجتماع كلمتهم وائتلاف

*) راجع ص ٣٣٣ من الجزء الثالث من التفسير

جماعتهم، فليعتبر المسلمون اليوم بهذا لعلهم يتذكرون انه ما حل بهم ماحل من الأرزاء الا بزوال هذا الاجتماع والائتلاف وبالتفرق بعد الاعتصام ﴿ان الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ماتضم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد فكيف يخفى عليه ماتقولون في خلواتكم وما يبديه بعضكم لبعض من ذلك. ويعلم كذلك ماتنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم

ثم قال مبينا حسدهم وسوء طويتهم ﴿ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ المس في الاصل كاللمس والمراد بتمسسكم هنا تصبكم ولعل اختيار لفظ المس في جانب الحسنة والاصابة في جانب السيئة للاشعار بان اولئك الكافرين يسوءهم مايصيب المسلمين من خير وان قل بان كان لا يزيد على مايمس باليد وانما يفرحون بالسيئة اذا اصابت المسلمين اصابة يشق احتمالها . هذا ما كان يتبادر الى فهمي ولكن رأيت صاحب الكشاف يجعلها هنا بمعنى واحد ويستدل باستعمال القرآن لكل منها في موضع الآخر ويقول ان المس مستعار للاصابة . ثم خطر لي ان اراجع تفسير أبي السعود فاذا هو يقول « وذكر المس مع الحسنة والاصابة مع السيئة للايذان بان مدار مساءتهم ادنى مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة . وإما لأن اليأس مستعار لمعنى الاصابة » والاول هو الوجه وهو من دقائق البلاغة العليا . والحسنة المنفعة سواء كانت حسية او معنوية وأعظمها انتشار الاسلام ودخول الناس فيه وانتصار المسلمين على المعتدين عليهم المقاومين لدعوتهم . قال قتادة في بيان ذلك كما رواه عنه ابن جرير « فاذا رأوا من اهل الاسلام الفة وحماية وظهورا على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم واذا رأوا من اهل الاسلام فرقة واختلافا واصيب طرف من اطراف المسلمين سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به ، فهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحدوثته وأوطأ محلته، وأبطل حجته وأظهر عورته، فذلك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقي إلى يوم القيامة »

ثم أرشد الله المسلمين الى ما إن تمسكوا به سلموا من كيدهم الذي يدفعهم اليه الحسد والبغضاء فقال ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾

ذهب بعضهم الى ان المراد وان تصبروا على عداوتهم وتتقوا اتخاذهم بطانة وموالاتهم من دون المؤمنين لا يضركم كيدهم لكم وهم بمعزل عنكم . وذهب آخرون الى أن المراد وان تصبروا على مشاق التكاليف وامتثال الأوامر عامة وتتقوا ما نهيتم عنه وحظر عليكم — ومنه اتخاذ البطانة منهم — لا يضركم كيدهم . و « يضرّكم » بتشديد الراء من الضرر وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب « يضِركم » بكسر الضاد وسكون الراء المخففة من ضاره يضيره والضير بمعنى المضرة . وقال الأستاذ الإمام ان الصبر يذكر في القرآن في مقام ما يشق على النفس، وحبس الإنسان سره عن وديده وعشيره ومعامله وقريبه مما يشق عليه فان من لذات النفوس ان تفضي بما في الضمير الى من تسكن اليه وتأنس به فلما نهوا عن اتخاذ بطانة ممن دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم وعلل بما علل به من بيان بغضائهم وكيدهم حسن ان يذكروا بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم وباتقاء ما يجب اتقاؤه لأجل السلامة من عاقبة كيدهم . ويصح ان يراد بالتقوى الأخذ بوصاياه وامتثال أمره تعالى في البطانة وغيرها .

أقول ومن الاعتبار في الآية انه تعالى أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكائدين وباتقاء شرهم ولم يأمرهم بمقابلة كيدهم وشرهم بمثله وهكذا شأن القرآن لا يأمر إلا بالمحبة والخير والإحسان ودفع السيئة بالحسنة ان أمكن كما قال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فان لم يمكن تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها فانه يجيز دفع السيئة بمثلها من غير بغي ولا اعتداء كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة بني النضير الذين نزلت الآية فيهم أولا بالذات فإنه حالفهم ووادهم فنكثوا وخانوا غير مرة أعانوا عليه قريشاً يوم بدر وادعوا انهم نسوا العهد ثم اعانوا الاحزاب الذين تحزبوا لإبادة المسلمين ثم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم فتعذرت موادتهم واستمالتهم بالمحبة وحسن المعاملة فكان اللجأ الى قتالهم وإجلائهم ضربة لازب

ثم قال ﴿ ان الله بما يعملون محيط ﴾ قال الاستاذ الامام مامثاله: المحيط بالعمل هو الواقف على دقائقه فهو اذا دل على طريق النجاة لعامل من كيد الكائدين والوسيلة

الخلاص من ضررهم فانما يدل على الطريق الموصل للنجاة حتما ، والوسيلة المؤدية الى النجاح قطعا ، فالكلام كالتعليل لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح . وهناك وجه آخر وهو أن الخطاب بتعلمون عام للمؤمنين والكافرين جميعا — يعني على قراءة الحسن وابي حاتم « تعملون » بالمثناة الفوقية او على الالتفات — ومن كان عالما بعمل فريقين متحادين محيطاً باسباب ما يصدر عن كل منهما ومقدماته ، ونتائجه وغاياته ، فهو الذي يعتمد على ارشاده في معاملة احدهما للآخر ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه في حاضرها وآتيها ما يعرفه ذلك المحيط بعمله وعمل من يناهضه ويناصبه فهداية الله تعالى للمؤمنين خير ما يبلغون به المآرب ، وينتهون به إلى أحسن العواقب ،

وأقول ان الإحاطة إحاطتان إحاطة علم وإحاطة قدرة ومنع وهذا التفسير مبني على ان الإحاطة هنا إحاطة علم لتعلقها بالعمل وذلك من المجاز الذي ورد في التنزيل كقوله تعالى (٦٥:١٢ احاط بكل شيء علماً) وقوله (١٠: ٣٩ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) واما الإحاطة بالشخص أو بالشيء قدرة فهي تأتي بمعنى منعه مما يراد به وهذا ليس بمراد هنا وبمعنى منعه مما يريده وبمعنى التمكن منه ومنه الإحاطة بالعدو اي اخذه من جميع جوانبه بالفعل او التمكن من ذلك ومنه قوله تعالى (٢: ٨١ واحاطت به خطيئته) وقوله (١١ : ٩٢ إنَّ ربي بما تعملون محيط) وقوله (١٠ : ٢٢ وظنوا انهم احيط بهم) كل هذا من باب واحد وان فسر كل قول بما يليق به . فيصح ان يكون منه ما نحن فيه والمعنى حينئذ ان الله قد دلكم يامعشر المؤمنين على ما ينجيكم من كيد عدوكم فعليكم بعد الامتثال ان تعلموا انه محيط بأعمالهم إحاطة قدرة تمنعهم مما يريدون منكم معونة منه لكم كقوله (٤٨ : ٢١ واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها) فعليكم بعد القيام بما يجب عليكم ان تثقوا به وتتوكلوا عليه ،

ومن مباحث اللفظ في الآيات قوله « ها أنتم أولاء » أصله انتم هؤلاء فقدمت أداة التنبيه التي تلحق اسم الاشارة « أولاء » على الضمير . ويقال في المفرد « ها أناذا » وعلى ذلك فقس . واعرابه: ها التنبيه وأنتم مبتدأ وأولاء خبره وتحبونهم في موضع النصب على الحال أو خبر بعد خبر . وجوز بعضهم ان تكون أولاء اسم موصول وتحبونهم صلته

اليمن

سبب فتنتها وامام الزيدية فيها

إن العرب في اليمن وحضرموت ونجد وسائر جزيرة العرب يحبون الدولة العثمانية محبة صادقة وزادهم حباً فيها وحرصاً على بقائها في هـذا الزمن اعتقادهم أن دول اوربا تتربص بها الدوائر وتحاول إزالة سلطتها لإزالة سلطة الإسلام من الوجود وهم على بقاء مميزاتهم الجنسية والوطنية على نحو ما كانوا في القرون الماضية والأجيال الغابرة لم يطرأ عليهم من التغير ما طرأ على أهل الاستانة ومصر والشام والاناطول وغيرها من الاقطار الإسلامية : لاتزال الرابطة الدينية عندهم فوق رابطة الجنس واللغة والوطن لم تعلمهم المدنية الأوربية التعصب للجنس كما علمت الاتراك ولا للبقعة كما علمت المصريين فهم يتمنون لو يجدون من الترك حكاماً يقيمون العدل ويحكمون بالشرع لا يجدون في صدورهم حرجاً من ذلك

ولكن الذي لا يطيقون احتماله ولا يصبرون عليه هو الظلم والجور والخيانة والغدر لأنهم ورثوا الاستقلال الشخصي والقومي وعزة النفس وإباء الضيم منذ آلاف من السنين

وقد بينت في المنار من قبل ان فئة قليلة من العمال (الحكام) المسلمين العدول العارفين بالشرع المهتدين به يكفون الدولة في اليمن امر هذه الحروب التي طالت عليها السنين فخربت البلاد واضاعت على الدولة من الأموال والرجال ما هي في أشد الحاجة اليه لصيانة استقلالها من عبث أوربا التي تواثبها المرة بعد المرة ، وأضرت بها انواعاً أخرى من المضرات لا حاجة إلى شرحها الآن

الزيدية طائفة من عرب اليمن تدين بوجوب إقامة إمام لها من العترة النبوية فهم بذلك أجدر العرب بعدم الخضوع للدولة العثمانية ولكنهم مع ذلك يتمنون لو تقيم الدولة في بلادهم العدل وتحكم بالشرع ويكون لها منهم ما يريدون فما بالك بغيرهم حاولت الدولة غير مرة ان تقيم الحجة الشرعية على هؤلاء بوجوب طاعة

السلطان ، وتحريم الخروج والعصيان ، فأرسلت من خاطب إمامهم بذلك غير مرة فكانت حجة الإمام أنهض ، وحجة رسول السلطان أدحض ، لأن الظلم والبغي بغير الحق حجج عملية ، لا تبطلها الحجج القولية ، ولا تفيد معها شيئاً

وقد عثرنا في هذه الأيام على نص ما أجاب به إمام الزيدية عما وجهه اليه الشيخ محمد الحريري مفتي حماه المندوب الذي أرسله اليه السلطان منذ سنين ومنه يعلم صحة رأينا في هؤلاء القوم وهذا نصه :

المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين

﴿ عصمتي بالله وما توفيقي إلا بالله ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم أيد دينك القويم بالعلماء العاملين ، واكشف ببركتهم جهل الجاهلين ، وارفع بحميد سعيهم غفلة الغافلين ، فهم بحور العلم الزاخرة ، ونجوم الهدى الزاهرة ، وزينة الدنيا والدين والآخرة ، وأهل الفضائل المتكاثرة ، منهم ذو المجد الشامخ المنيف ، والحسب الباذخ الشريف ، والأدب المثمر روضه الوريف ، السيد محمد الحريري الرفاعي الحسني الحموي ، ألبسه الله جلباب التقوى ، وقاده إلى التمسك بالحبل الأقوى ، واعاد على محياه السلام الأسنى ، والإكرام الأهنى ، وصلى الله على محمد خاتم أنبياه ، وعلى آله سفينة النجاة ، وتراجمة الكتاب وقرناه ، وعلى صحابته الذين اتبعوه بعد مماته وفي محياه ،

أما بعد فانا نحمد الله الذي لا يرجى ويخشى سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، وانه وافانا منك أيها السيد كتاب كريم ، ومسطور رائق فخيم ، افاد معرفة بحقوق العترة النبوية ، والسلالة العلوية ، بما ورد فيهم من الآيات القرآنية ، والاحاديث الصحيحة المروية ، وان دواعي المحبة اقتضت المراسلة ، وبواعث المودة جذبت الى المكاتبة والمواصلة ، وان من لوازم المحبة والايمان ، بذل النصيحة للإخوان ، لا سيما ولاة الأمور ، الذين ناط الله

بهم صلاح الجمهور ، وافاد اسعده الله انه مستنكر لما جرى بيننا و بين الولاة المرسلين من حضرة الدولة العثمانية ، والسدة الخاقانية ، من الحرب والاختلاف ، وعدم التوافق والائتلاف ، وانه يرى الخير في إصلاح ذات البين ، ورفع الفتنة التي تؤدي إلى التهلكة والحين ، وانه ورد الحث عليه في السنة والكتاب ، وانه مناط الرضا لرب الأرباب ، وان السلطان الاعظم ممن أقام الله به الدين ، وانتظمت به أحوال المسلمين ، وتشرف بخدمة الحرمين الشريفين ، وأقام بجهاد الكفار ، ومنابذة الاشرار ، وان رغبته في صلاح الدنيا والدين ، وقمع الفجار المعتدين ، وان القطر اليماني المحروس بالله محل الايمان ، كما ورد عن سيد ولد عدنان ، وان سعيه في ذلك نصيحة دينية ومحبة ايمانية

فنقول نعم الامر كما ذكرتم مما وقع بيننا وبين من تعلق بالسلطة القاهرة اعز الله بها الاسلام ، وقمع بها ذوي الالحاد الطغام ، ولم يكن لنا من الرياسة الدنيوية طلب ، ولا في الراحة البدنية أرب ، ولا نعول على جمع المال ووفرة المكسب ، ولا مزيد على مانحن فيه من الحسب والنسب ، لكنا رأينا المأمورين لم يؤدوا حقوق الله ، ولا رعوا حرمة ماحرمه الله ، ولا غضبوا يوما على معاصي الله ، ولم يعملوا بشيء من كتاب الله ، ولا سنة رسول الله ، و « شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » ، وارتكبوا المعاصي ، ورموا اليها الناس باطراف النواصي ، وجاهروا الله بشرب الخمور ، وارتكاب الفجور ، وظلموا كل ضعيف ، واهانوا كل شريف ، حتى فسدت الذرية ، وارتفعت كلمة اليهودية والنصرانية ، وصارت الاكراد والمجوس تحكم في البرية . « لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة » . ولا تأخذهم في المسلمين رأفة ولا رحمة ، ولما لم نجد عن أمر الله بدا ، استعنا وتوكلنا عليه و بذلنا في الجهاد جهدا ، امتثالا لقول الله عز وجل « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وقوله عز وجل « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » وقوله « كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وخوفا مما خوفنا الله به من نحو قوله تعالى « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » حتى اذا بلغ الكتاب أجله كان هو الله المنتصر لنفسه

ولم نزل نتوخى ان السلطة القاهرة أعز الله بها الاسلام، اذا رفعت اليها تلك القبائح التي لا يختلف في وقوعها اثنان، أن تأخذها حمية الدين والايمان ، على تلافي مافرط من الاضاعة ، وتستدرك مافات من حق عترة رسول الله الذين لا تستحق بدون اتباعهم الشفاعة، فلم يزدادوا مع طول المدة الا انسلاخا من الدين ، وتوسعا من تأمر الفجرة المعتدين ،

فان قلت ايها السيد ان تلك القبائح مباحة في الاسلام ، وان فعلها مستحل من أتباع شريعة سيد الانام ، فهات الدليل ، ولا يقول بذلك الا ضليل ، وان انكرت ايها السيد أن ذرية الرسول ، هم الحجة في الفروع والاصول ، صاح بك قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن ذلك هو الفضل الكبير » وقوله تعالى « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ونحو قوله صلى الله عليه وسلم « اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي ابدا كتاب الله وعترتي اهل بيتي ان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض » وقوله صلى الله عليه وسلم « إن عند كل بدعة تكون من بعدي وليا من ذريتي » وقوله صلى الله عليه وسلم « اهل بيتي امان لاهل الارض » وقوله صلى الله عليه وسلم « اهل بيتي كسفينة نوح » وغير ذلك مما لا يتحمله المقام فالظهور أبين للحجة ، واوضح للمحجة ، لا ما خوفتنا به من القتل والنكال ، فانا اهل بيت لا تزعزعنا كواذب الآمال ، ولا نعد بذل نفوسنا في سبيل الله إلا من اشرف الخصال ، ولا نفزع الى غير ذي الجلال ، ولا ندعو سواه في البكور والآصال

على ان قومي تحسب الموت مغنما وان فرار الزحف عار ومغرم

« امّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون الا في غرور » ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم

من بعده «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم * ونريد ان نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين* الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور» فنحن من وعد ربنا على يقين «والعاقبة للمتقين» وانك لاتجد في خطتنا المنصورة إلا قائما لعبادة ربه اذا اسدل الليل جناحه، او تاليا كتاب الله وذاكرا اذا أطلع الفجر صباحه، ومساجدنا معمورة بالعلم والعمل، وقلوبنا ضالة عن الجبن والفشل، ولا نفتخر كغيرنا بآلات الحرب الفاخرة، ولا بالسيوف المتكاثرة، التي تحت امرنا عاثرة، بل نتبرأ من الحول والقوة، ونتمسك باذيال سيرة الامامة والنبوة

مدارس طابت في ربا الفضل فالتقت على انبياء الله والخلفاء

اذا حمل الناس اللواء علامة كفاهم مثار النقع كل لواء

فقد اوضحنا لك ايها السيد طريقتنا، وأبلغنا اليك أفعال أعادينا «فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون» ولو يعلم السلطان الاعظم حقيقة الحال، لسارع الى اعانتنا في الحال والمآل، ورفع جميع المأمورين من الخطة اليمانية، وأمرهم بحرب الفرقة الكفرية، ولمنعهم عن محاربة العترة النبوية، التي هي بضعة من الذات الشريفة المحمدية، ولأوفى جدنا الاعظم اجر تبليغ الانباء المشار اليه «بقل لا اسألكم عليه» الآية. ولتباعد عن مشابهة من قال فيهم خاتم النبيين «من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتل مع الدجال» وعن الدعوة النبوية في قوله لأهل بيته «انا حرب لمن حاربتم سلم لمن سالمتم» وقد امر الله تعالى بالكون مع الصادقين بقوله تعالى «ياايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» وثبتهم بقوله «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله واولئك هم الصادقون * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين* ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم* ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء * وياقوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني إلى النار) فاذا وجدت ايها السيد خلاصا من اوامر

الله افدنا من كتاب الله ومن سنة رسول الله ودع عنك التخويف بالمخلوقين كما قد قيل

جاء شقيق عارضا رمحه ان بني عمك فيهم رماح

واما اجتماع الكلمة على الحق فمن أين لنا ذلك ، والا فهو عندنا من اعظم المسالك ، حقنا للدماء ، ورفعا للدهماء ، ونسأل الله ان يرفع عن الامة المحمدية السوء والمحن ، ويجعلها على اتباع الكتاب وقرنائه اهل بيت النبي المؤتمن ، وان يعيذنا من نزغات الشيطان الرجيم ، ومضلات الفتن وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان اللائق بحال اركان السلطان الاعظم ان يجعل القطعة اليمانية من جملة الممالك التي بأيدي الكفار وقد اضربوا عنها صفحاً ، وطووا عنها كشحا ، وما سارعوا لغير مملكة اليمن التي بايدي أولاد رسول الله ، يحكمون فيها بما انزل الله ، ويمنعون محارم الله ، فهلا جعلوا آل الرسول كالكفار الذين تركوا لهم ممالكهم ؟ اللهم اشهد وكفى بك شهيدا » اه

(المنار) تسمع الدولة هذه الاخبار وتقرأ مثل هذا الجواب ثم هي توالي ارسال الجيوش الى اليمن فاذا توالى انكسارهم ارسلت من الرسل السلميين من يقيم الحجة على امام الزيدية ! الم نعتبر باخفاق محمد الحريري وحسن خالد الصيادي فارسلت في العام الماضي وفدا من علماء مكة فكانت حجتهم كحجة من سبقهم . ولو سمعت كلامنا نحن الناصحين المخلصين لأرسلت واليا عادلا حكيما وعمالا من اهل الدين والاستقامة فبذلك لا بسواه تنطفئ نار الفتنة ، وتخضع اليمن للدولة ، فاذا اعوز الدولة هذا العلاج ، فلتعلم ان جميع بلاد العرب ستتبع اليمن في الخروج عليها ، او الخروج من سلطتها ،

المؤتمر الاسلامي

سبق لنا قول في المؤتمر الإسلامي الذي اقترحه اسماعيل بك غصبرنسكي القريمي ونقول الآن ان اللجنة التي تألفت للبحث في ذلك وسمت نفسها اللجنة التأسيسية قد وضعت لهذا المؤتمر قانوناً طبعته وأرسلته مع دعوة عامة مطبوعة بالعربية

والتركية والفارسية الى الجرائد الإسلامية في القطر المصري وغيره من الأقطار الإسلامية والى من عرفت من أهل الفضل والرأي من المسلمين. وقد جعلت الباب الثاني من القانون خاصاً ببيان موضوع المؤتمر وفيه ثلاث «مواد» نذكرها بنصها وهي:

﴿ المادة الرابعة عشرة ﴾ وظيفة المؤتمر هي البحث في الاسباب التي أوجبت تأخر المسلمين من الوجهة الاجتماعية ومما داخل الدين من البدع والنظر في إزالة تلك الأسباب وفيما يؤدي الى رقيهم

﴿ المادة الخامسة عشرة ﴾ لا تقبل الآراء التي تعرض من الوجهة الدينية إلاّ اذا كان لها سند من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس

﴿ المادة السادسة عشرة ﴾ لا يجوز التعرض في مناقشات المؤتمر وأبحاثه للمسائل السياسية أيا كان نوعها اه

وقد سرنا موافقة الشيخ سليم البشري رئيس اللجنة على المادة الخامسة عشرة سروراً عظيماً وعددناها من بشائر الإصلاح، وأمارات النجاح، ذلك بأن الإصلاح الإسلامي مع التزام المذاهب المعروفة والجمود على كتب متبعيها محال ولذلك جرينا في المنار على اتباع الدليل في المسائل الدينية وترك التقليد وإقامة الحجج على المقلدين، لان المنار كالمؤتمر علم لجميع المسلمين .

وقد قلنا في مقالة طويلة عنوانها (بحث في المؤتمر الإسلامي) نشرناها في الجزء التاسع من السنة الماضية ما نصه (ص ٦٨٠ م ١٠)

« ثم انه ينبغي ان تكون القاعدة الاساسية الاولى للإصلاح الديني في المؤتمر هي المحافظة على المجمع عليه عند المسلمين لا سيما ما كان منه معلوماً من الدين بالضرورة وذلك هو القرآن المجيد وما استفيد منه بالنص القطعي وبعض السنن المتبعة — ونعني بالسنة معناها اللغوي الذي كان يفهمه الصحابة ومنه ما هو فرض أو واجب ككون الصلوات المفروضة خمساً، ركعات كل صلاة منها كذا يقرأ فيها كذا ويركع في ركعة مرة ويسجد مرتين ومنها ما هو مندوب في اصطلاح الفقهاء كما هو معروف

« ذلك ان المؤتمر الإسلامي عام لجميع المسلمين وفيهم السني السلفي وغير

السلفي والشيعي والأباضي . ومن السنية الحنفي والمالكي الخ ومن الشيعة الجعفري والزيدي ، فالذي يجمع بين هؤلاء ويوحد كلمتهم هو كتاب الله والسنن العملية المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتلقي عن آله وأصحابه رضي الله عنهم . وبذلك يكون المؤتمر غير مقيد بالتقاليد الاجتهادية التي تثير النزاع وتفرق الكلمة فلا يمنع أعضاءه مانع من الاعتصام بحبل الله ودعوة سائر المسلمين الى الاعتصام به »

كتبنا هذا لتنبيه لجنة المؤتمر قبل الابتداء بعملها إلى هذا الاساس الذي لا يفيد المؤتمر بدونه شيئاً وكنا نخاف أن يحاول من دخل في اللجنة من علماء الأزهر تقييد المباحث الدينية في المؤتمر بنصوص كتب المذاهب وكان أخوف من نخاف في ذلك رئيس اللجنة الشيخ سليم البشري لأنه كان يبلغنا عنه انه ممن ينكرون على المنار الإنحاء على التقليد والاعتماد في مباحثه على الأدلة الشرعية فلما رأيناه الآن ، وافق على قانون المؤتمر الذي جعل أساس مباحثه الدينية الاجتهاد دون التقليد حل الرجاء محل الخوف ووجب علينا ان نثني على الأستاذ الكبير الشيخ سليم البشري أجمل الثناء فحياه الله تحية مباركة طيبة ،

انما قصرنا الثناء على الشيخ سليم من دون سائر اعضاء اللجنة الواضعة لهذا القانون لان معارضة مثل الشيخ سليم من كبار العلماء أصحاب الشهرة والصفة الرسمية في مسألة اجازة الاجتهاد ومنع التقليد تعد عقبة في سبيل الاصلاح وموافقته عليها تعد تمهيدا عظيما لهذه السبيل التي هي سبيل الله وعونا كبيرا للسالكين فيها ، ولا نبخس احدا من اعضاء اللجنة حقه ، ولا نظامه شيئا من فضله ، بل نرجو ان يكثر فينا من أمثالهم الجاهرون بهذه الدعوة كما كثر المعتقدون لها وان لم يصرحوا بها

ان في علماء الازهر كثيرين يعتقدون بطلان التقليد ووجوب اتباع الدليل ولكن يقل فيهم من يجهر بذلك قولا ويندر من يتجرأ منهم على كتابة ذلك في الصحف المنشرة والدعوة اليه على رءوس الاشهاد . ذلك بان كبراء الشيوخ ذوي المكانة عند الامراء والشهرة عند العامة ينكرون ذلك على قائله ويضطهدونه ان استطاعوا ويبالغون في ذلك مبالغة هي عندي من مثارات العجب . افلا يحق لنا اذاً أن نكبر إجازة الشيخ سليم البشري جعل قبول ما يقدم للمؤتمر من الآراء والمباحث

الدينية مشروطا بأن تكون مؤيدة بدليل من الكتاب او السنة او الاجماع او القياس ونحن نعلم أنه من أولئك الشيوخ الكبراء بل هو في ناصيتهم وذروتهم اذ هو شيخ المالكية وكبيرهم الآن وكان بالامس شيخ الازهر ؟ وقد اشتهر بانه اعلم اهل الازهر الآن بالحديث ولعل الخير جاء من هذه الناحية فأهل الحديث مازالوا أبعد الناس عن التقليد.

ونعود الى مباحث المؤتمر فنقول ان المباحث الدينية قد اشترط فيها هذا الشرط الذي سررنا به على اجماله واما المباحث الاجتماعية فلم يشترط فيها شيء واذا يسر الله واجتمع المؤتمر فاننا سنحتاج الى تحديد ما هو اجتماعي غير ديني وفي ذلك من العسر مافيه لا سيما في المسائل العائلية والمالية بل أقول ان المسألة الجنسية لها علاقة عند المسلمين بالدين وقد كان السيد جمال والشيخ محمد عبده يقولان ان المسلمين لا جنسية لهم في غير دينهم ولكن كثيراً من الاتراك والمصريين يقولون اليوم بجنسية النسب وجنسية الوطن ولا يعدون هذا مما يتعلق بالدين وهذه المسئلة من اكبر المسائل التي ننتظر من المؤتمر — ان اجتمع — حل عقدتها

ذكر اسماعيل بك غصبرنسكي في احد اعداد جريدته « ترجمان احوال زمان » ان أحد اذكياء الترك يريد ان يلقي في المؤتمر خطابا يبين فيه أن ارتقاء امة الترك يتوقف على انفصالها من العربية لغة ودينا وسياسة !!! وربما يسمع المصري وغير المصري ممن لا يعرفون الغاية التي وصلت اليها نابتة الترك من التفرنج هذا القول فيرونه عجيبا غريبا ولكن لا يعجب منه من يعلم ان كبار كتاب الترك قد دارت بينهم منافسات طويلة في هذه المباحث استمرت عدة سنين وكان فيهم من كتب مثل هذا الرأي حتى غلا بعضهم فقال انه يجب تطهير التركية مما فيها من مفردات اللغة العربية نحن نعد هذا شذوذا وغلوا ويوافقنا على رأينا كثير من فضلاء الترك لا سيما المتدينين منهم . واذا انعقد المؤتمر فان جمهور المسلمين من جميع الشعوب سيسمعون من اخبار امراض المسلمين الاجتماعية والدينية مالا يخطر لهم الآن في بال ، ونسأل الله ان يحسن العاقبة والمآل

الرد على اللورد كرومر

(تتمة الكلام في مسألة المعارف)

ان اللورد يعلم انه استعمل المغالطة في هذا الفصل فعمل محمد علي وعباس واسماعيل ليس حجة على ما يجب اتباعه الآن من حصر تعليم الحكومة في فرنجة عدد معين للوظائف . والانفاق في وقت كانت الحكومة فيه على شفا الافلاس لا يجعل مقياساً لوقت زيد فيه دخلها على خرجها زيادة عظيمة . ولو كان عمل محمد علي وعباس واسماعيل مما يصح ان يتبع في هذا العصر لكان الواجب على الناس ان يرجعوا القهقرى دائماً ولما ساغ لانكلترا ان تدعي ان هذه البلاد محتاجة اليها في تقدمها وارتقائها فانها تقدر بنفسها ان تكون على احسن من زمن اسماعيل فما بال اللورد يمثل ظلمات الماضي الحالك شر تمثيل ثم هو يجعلها أساساً يبني عليه سياسته في التعليم؟

اللورد قد ذم المتفرنجين في كتابه ذماً بليغاً وبين انهم لا قيمة لهم في نظر الشيخ محمد عبده فكيف لا يعذره اذا طلب لبلاده تعليماً أنفع من هذا التعليم الذي لا يقصد منه الا تكوين المتفرنجين؟

ومن المغالطة في تقرير اللورد قوله ان ابطال التعليم المجاني كان إلغاء لامتياز جائر لان الذين كانوا يعلمون مجاناً هم في الغالب اولاد الاغنياء، فان العدل في ازالة هذا الامتياز بما يوافق المصلحة انما يكون بتحويل الامتياز عن الاغنياء وتخصيصه بالفقراء وما أسهل ذلك على الحكومة لو أراده القابضون على أزمتها

او كانت الطريقة التي أزيل بها امتياز أولاد الاغنياء على أولاد الفقراء في التعليم المجاني عادلة لكان من العدل ان يمنع الماء عن الاراضي التي كان الاغنياء يميزون فيها على الفقراء في الري حتى لا تزرع منها أرض فقير ولا غني فان العلم حياة النفوس كما ان الماء حياة الارض.

لم يكن الشيخ محمد عبده راضيا عن سياسة التعليم بمصر في وقت من الاوقات . ففي زمن توفيق باشا حمل على نظارة المعارف حملة قلمية منكرة في جريدة الحكومة الرسمية ومقالاته في ذلك مثبتة في الجزء الثاني من التاريخ الذي وضعناه له . وقد حمل ذلك الحكومة على الشروع في اصلاح التعليم والتربية ولكن جاءت الثورة العرابية فأوقفت كل عمل وتلاها الاحتلال ونفي الشيخ من البلاد . وبعد عودته رأى سياسة التعليم غير سديدة فقدم لعميد الدولة المحتلة - واياك اعني ايها اللورد - لائحة [1] فيما يجب اتباعه في التربية والتعليم فوضعت في زوايا الاهمال .

لعل اللورد لم ينس ان الشيخ كتب في هذه اللائحة ما نصه «المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة » [2] ثم ذكر غرض محمد علي باشا من انشائه لها وما كان حظها من خلفه الى عهد اسماعيل باشا . ولكن الشيخ ذكر ذلك حجة على فقد التربية والمعارف الحقيقية منها فجاء اللورد يذكره من بعده في تقرير ١٩٠٥ ويجعله حجة على بقاء ما كان على ما كان الا المجانية فانه يرى ابطالها بعد انتظام مالية الحكومة وامتلاء خزائنها !!

مرت الايام على موت هذه اللائحة والشيخ محمد عبده قاض في المحاكم ليس له طريق رسمي الى دعوة الحكومة الى اصلاح التربية والتعليم وقد

(١) ص ٣٦٤ من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام (٢) ص ٣٢٩ منه

جرب طريق النصيحة فلم يجده موصلا الى المطلوب فلما صار مفتيا وعضوا في مجلس الشورى حاول ان يجعل مجلس الشورى وسيلة الى غرضه ورأيه طلب بعض اعضاء الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ان تعرض قوانين ولوائح التعليم في نظارة المعارف (بروجراماتها ومنشوراتها) على المجلس ولم ينس اللورد تلك المناقشة التي دارت في ذلك بين الشيخ محمد عبده وفخري باشا ناظر المعارف في الجمعية العمومية (وقد بينا ضعف اقوال الناظر يومئذ في المنار ص ١١٠ و ١٤٩ م ٥)

ثم ان الشيخ محمد عبده اقترح باسم المجلس في سنة ١٩٠٤ ان يعلم تاريخ الاسلام باللغة العربية في المدارس التجهيزية . وقد ذكر في آخر تقرير له بشأن امتحان مدرسة دار المعلمين الناصرية (دار العلوم) ضعف تعليم التوحيد والتفسير والحديث فيها فاذا كان تعلم المعلمين للدين ضعيفا فكيف يكون تعليم هؤلاء المعلمين له ؟

نكتفي بهذه المذكرات في بيان غلط اللورد في قوله ان ما كتبه الشيخ محمد عبده لمسيو جرفيل كان يعلم انه لا أصل له فهي تذكره ان كان ناسيا - ان لها أصلا أصيلا مؤيدا بالبرهان والدليل ، ومن العجائب ان يكابر اللورد في هذا مع ما يعلمه من مؤيداته الرسمية وغير الرسمية : فمن ذا كتب ما يعلم انه لا أصل له ؟ ألشيخ ام اللورد؟ اللورد يعرف ذلك اذا لم يكن السخط قد انساه تلك اللائحة التي قدمت اليه وتلك الحجج المدونة في المحاضر والدواوين الرسمية وكلها ناطقة بأن الشيخ محمد عبده لم يكن راضيا من التعليم والتربية في مدارس الحكومة . فهذا ما نقول في السبب الاول لسخط اللورد على الاستاذ الامام وتغيير كلامه فيه

افضاء الاستاذ الامام لمستر بلنت بعيوب الاحتلال

اما السبب الثاني لسخط اللورد على الشيخ وهو ما ظهر له من انه هو الذي لقن مستر بلنت جل ما في كتابه (التاريخ السري للاحتلال) من عيوب ادارة المحتلين بمصر[1] فهو مما يعذر فيه فان هذا مما يغيظ السياسي والحاكم المطلق حقيقة . واي شيء يؤلم الانسان اكثر من بيان عيوبه واظهار سيئاته ؟ ولكن يجب على المؤرخ ان يعذر حافظي الوقائع التاريخية ورواتها ومدونيها . واللورد في كتابه « مصر الحديثة » مؤرخ لا حاكم فكان يجب ان يتذكر ذلك . ثم إذا كان هو في تدوينه لتاريخ مصر لم يتحام القدح في امرائها وعلمائها وعمالها وجميع أهلها بناء على انه مؤرخ يجب عليه إظهار الحقائق - اذا فرضنا ان كل ما كتبه حقائق - فكيف يسخط على من سلك طريقته ومن أعانه على ذلك ؟ اليس من العدل العام ، أن يدين المرء كما يدان ؟

هذا ما يقال من الجهة العامة . ويقال من الجهة الخاصة ان مستر بلنت كان صديقا للشيخ محمد عبده وكان كل منهما يثق بأمانة الآخر وإخلاصه فبأي حق يحجر اللورد على صديقين متجاورين ان يفضي كل منهما الى الآخر بما في نفسه من المسائل العامة او الخاصة ويكاشفه بشعوره لا سيما اذا كان مؤلما له والشاعر الحكيم يقول

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ألا إن منتهى الاستبداد ، واحتقار حرية الافراد ، أن يؤاخذ الناس بما يتناجون به في زوايا بيوتهم ، وما يسرونه لاصدقائهم ومحبيهم ، ثم ان اللورد يعلم كما يعلم كل عاقل انه لا يخطر في بال الانسان عند

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

ما يحدث صديقه ان كل ما يقوله سيحفظ ويدون وينشر بين الناس ولذلك ينتقد بعض أهل الرأي على مستر بلنت ذكر مسائل وخواطر حدثه بها الشيخ محمد عبده فنشرها وهي مما لا ينبغي نشره كتمني جمال الدين لو يقتل اسماعيل باشا واستحسان محمد عبده لرأيه . على ان هذه المسألة اصغر من القالب الذي وضعها لورد كرومر فيه كما سنبينه

بقي علينا وقد بينا اختلاف قولي اللورد في الاستاذ الامام وسبب هذا الاختلاف ان نبين الحق فيما لمزه به فنقول انه ينحصر بحسب ما اطلعنا عليه من ترجمة الجرائد في ثلاث مسائل

الاولى وصفه بأنه خيالي

قول اللورد في الشيخ انه كان مفطورا على الخيال [1] لا يتفق مع قوله فيه من الجهة العملية في الحكومة وغيرها انه كان مصلحا - ومن الجهة السياسية والاجتماعية انه أنشأ في مصر مدرسة فكرية وان اتباعه اذا نجحوا وسوعدوا على ما اختطه لهم من المبادىء المعتدلة فبهم تصل البلاد الى الاستقلال وانهم كالجيرونديين في أحزاب الثورة الفرنسية أي في الاعتدال والعقل ، كما لا يتفق مع قول المستشار القضائي الذي وافقه هو عليه - ومن الجهة العلمية والشرعية انه كان متضلعا من علوم الشرع مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن

ما هي الآراء الخيالية التي كان يبديها اللورد فيتعذر عليها تنفيذها له لانها خيالية لا عملية ? لعله يعني بها تلك اللائحة [2] التي اقترح بها عليه جعل التربية الدينية أساس التعليم في المدارس والكتاتيب وبين له فيها انه لا يصلح حال

(١) راجع ص ٩٤ من الجزء الماضي (٢) تقدمت الاشارة الى هذه اللائحة

البلاد المصرية وتكون بمأمن حتى من التعصب وفتنه الا بالتربية الدينية الصحيحة لان الدين الاسلامي رائد الالفة ورسول المحبة . ان كان يعني اللورد باتباع الاستاذ الامام للخيال هذا الرأي الذي أوضحه أتم الايضاح في تلك اللائحة وكان يظهر على لسانه شيء منه في كل فرصة (كاقتراحه في مجلس شورى القوانين تعليم تاريخ الاسلام في المدارس التجهيزية) فلماذا يسيء الظن بدينه وهل تكون هذه الغيرة على الدين لضعاف الايمان أو للاأدريين ؟

للورد ان يعد طلب التربية الدينية والتعليم الاسلامي امرا خياليا لان سياسته في ذلك مناقضة لاعتقاد الاستاذ الامام فان أحدهما يرى ان الاسلام الحقيقي هو منتهى الكمال البشري كما عرف ذلك عنه القريب والبعيد وصرحت به المجلة الفرنسية (١) ، والآخر يمثل الاسلام بأنه آفة المدنية ومقيد البشر بالقيود التي لا يرتقون مالم يتركوها ويتركوه معها . ويمكن ان يقال ان تقديمه تلك اللائحة لعميد انكلترا وأمله بأن يقنعه بما فيها هو الامر الخيالي فانه قد بالغ في تحسين الظن بهذا العميد وبدولته حتى أراد ان يستعين بهم على اصلاح شأن الاسلام ، وتخيل انه ربما يصل الى ذلك بالبرهان ، على انا نحن نعرف السبب في محاولته ذلك وهو انه لما كان منتهى غرضه من حياته الاصلاح الديني بالتربية والتعليم كان يتوسل الى ذلك بكل ما يخطر في البال انه ممكن قائلا « اذالم ينفع لا يضر »

اذا كانت تلك اللائحة هي دليل اللورد على ان الرجل كان خياليا فلا يبعد ان يكون تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية خياليا أيضا في نظر اللورد

---

(١) جاء ذلك في بعض اعداد سنة ١٩٠٥ منها — راجع ص ٢٢٨ من مجلد المنار العاشر

فان لم يكن التقرير نفسه خياليا فالحاح كاتبه على اللورد بالسماح بالمال من خزينة الحكومة لتنفيذه هو الخيالي فانه انما سكت عن هذه المطالبة حين قال له اللورد « انني لا أعطي قرشا واحداً للمحاكم الآن » كما اخبرني بذلك الاستاذ الامام في وقته وقال « إنه هكذا قال لا أعطي بضمير المتكلم وهكذا يقول » فليقل لنا اللورد أي شيء في ذلك التقرير يعد من الخياليات أو من الاماني والاحلام التي هي غير ممكنة في ذاتها ؟ ولكن يمكن لمن أساء الظن باللورد وحكومته ان يقول انهم لا ينفذون تقريراً فيه اصلاح لمحاكم شرعية وراء اصلاحها اصلاح كبير للبيوت الاسلامية لان من سياسة انكلترا موت الشرع في مصر وإبطال ثقة المسلمين به حتى ان لورد كرومر الذي يعد من خيارهم يرى مطالبته باصلاح المحاكم الشرعية من الخيالات والاوهام ، أو من الاماني والاحلام ، ؟ اذا قال من يسيؤن الظن باللورد وحكومته مثل هذا القول أفلا يكون رمي الشيخ محمد عبده بأنه خيالي رميا للورد وحكومته بما هو شر من ذلك ؟

ثم انه كان للاستاذ الامام ، آمال في حسن مستقبل الاسلام ، قد قد يعدها حتى بعض المسلمين من الاماني والاحلام ، فان منها أنه سينتشر في اوروبا نفسها في يوم من الايام، ولكن هذه الآمال مما لا أظن ان لورد كرومر قد علمها اذ لو علم بها لما ظن او خشي ان يكون الشيخ «لا أدريا» فانها آمال مبنية على الايمان بصدق وعود القرآن اولا ، وعلى فلسفة دقيقة في طبيعة الاديان وطبائع البشر ثانيا ، فهو قد كان يقول على رءوس الاشهاد في قوله تعالى « ٢٤: ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى

لم » الآية « ان هذه الآية لم يأت تأويلها بعد ولا بد ان يأتي ولو بعد حين وان كان بعيدا » فهل تكون هذه الثقة بوعد في القرآن كهذا (قيل انه قد حصل) من رجل لا أدري ؟؟

نحن اعرف بالاستاذ الامام من لورد كرومر فاننا نعرف منه كل شيء واللورد لا يعرف منه الا اشياء محدودة منها بعض الآراء في مصلحة مصر وكان صاحب هذه المجلة من بطانته ومواضع سره ولا أعرف عنه شيئا يمكن اللورد ان يستدل به على كونه كان مفطورا على الخيال غير ماذكرت من مطالبة اللورد بالمساعدة على التربية الاسلامية وإصلاح المحاكم الشرعية الا ان يكون ذلك توجه همته الى اصلاح الازهر ولكن كل ماتشبث به من الاصلاح كان عمليا وقد نفذ شيء كثير منه كما هو مدون بالتفصيل في كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين) ومالم يتم منه لم يكن المانع من تمامه كونه خياليا وانما كان له مانع آخر يعرفه اللورد وكثير من الناس وليس هذا المقام بمحل لذكره

ثم انه كان للاستاذ الامام آمال في الازهر هي أعلى وأسمى مما تشبث به من مبادىء الاصلاح التدريجية - آمال لها ارتباط قوي بآماله في الاسلام وهي تربية رجال يعرفون حقيقة الاسلام ويقدرون على بيانها والدفاع عنها بالكتابة والخطابة ليكون منهم دعاة يدعون جميع الامم اليه ، وهداة يهدون جميع طبقات أهله الى ماجهلوا منه ، ولكن العوائق التي اعترضته في طريق الاصلاح حالت دون الدعوة الى هذا المقصد أو الى مقدماته الاولية ، وما أظن ان اللورد كان مطلعا على هذا وإلا لما خطر في باله ان يكون الرجل « لا أدريا »

أما المسائل المتعلقة بالقضاء أو الادارة فعهدي ان آراء الاستاذ الامام فيها كانت تعجب اللورد سواء عمل بها كعدوله عن إلغاء النيابة العمومية عملا برأيه أو لم يعمل بها كمشروع الجنايات الاخير الذي طالت فيه المناقشة بينهما ولكن بعد ان كان اللورد قد أشرب المشروع في قلبه وان أكثر النابغين من رجال القضاء كانوا على رأي الاستاذ الامام في معارضة المشروع

وما ذهب اليه المؤيد في تأويل كلمة اللورد من أن الشيخ كان يحاول القبض على السلطتين فيجعل الامير وعميد الاحتلال معا في يديه فهذا من آراء صاحب المؤيد التى لم تخطر للورد على بال فيما يغلب على ظني

الثانية ظن اللورد انه لاادري

نبز اللورد الاستاذ الامام بلقب « اللاأدري » (*) وهو قد أخذه من ستانلي على أنه لم يجزم به فقد ترجم المؤيد عبارته فيه بكلمة « واخشى » ان يكون كذا وترجمها بعض الجرائد « وأظن » ان يكون كذا . وهذا من الظن الذى قال الله فيه « إن بعض الظن إثم » وقد قال بعض العلماء النابغين من مريدي الاستاذ الامام ان اللورد قال هذه الكلمة لينفرنا من طريقة المرحوم الدينية ولكننا لا نترك ما عندنا من اليقين فيه لاجل ظن لورد كرومر

اما أنا فأقول ان قاعدة ستانلي التى استنبط منها اللورد كلمته هي من المسلمات عندهم فينا وهي « ان المسلم من الطبقة العليا لا بد ان يكون احد

(*) راجع صفحة ٩٤ من الجزء الماضي

اثنين متعصبا او ملحدا في سره » وعندنا قاعدة مثلها كنت اسمعها وانا تلميذ مبتدي ، وهي « ان النصراني المتعلم ملحد لا دين له فان تعصب لقومه وأهل دينه فانما يتعصب لهم تعصبا جنسيا » ومما كنا نسمعه من آبائنا وبعض مشايخنا : « ان مما يمتاز به الاسلام على النصرانية المعروفة ان المسلم يزداد قوة في الاسلام كلما ازداد سعة في العلم وان النصراني اذا تعلم العلوم مرق من الدين ولذلك كانت مدنية المسلمين وعلومهم في حياة ونمو أيام كان الاسلام حيا في نفوسهم في أول نشأتهم ولم يصر للنصارى علم ولا مدنية الا بعد ضعف الدين وزعزعته عندهم » فالامم والملل تتشابه في حكم بعضها على بعض

قد ذكرنا دليل المسلمين على قاعدتهم من الجهة النظرية ويؤيدونه من الجهة الحسية بحال من يعرفون من النصارى المجاهرين بالالحاد وكثير ما هم. ولما كان النصراني يعتقد بطلان الاسلام اعتقادا تقليديا ان كان متدينا واعتقادا نظريا ان كان ملحدا كان للملحد منهم ان يظن بهذا الدليل النظري ان المسلم العاقل المطلع على العلوم والفلسفة لا بد ان يكون ملحدا ولا يعدمون من المسلمين المتفرنجين من يجاهرون امامهم بالكفر ويسكرون معهم في نهار رمضان فيؤيدون دليلهم بالحس ولا يعلمون ان هؤلاء الذين يظنون انهم قد ألحدوا بعد اسلام لم يعرفوا يوما ما من الاسلام شيئا

قد عرفت رجلا من فضلاء الانكليز ذوي التربية العالية فيهم وجرى بيني وبينه مناظرات كثيرة في المسائل الدينية فكان كلما سمع مني جوابا عن شبهة من الشبه التي يوردها على الدين مطلقا أو على الاسلام خاصة يقول « ان ما تقوله معقول ولكنه فلسفة لا دين وما أظن ان علماء الازهر

يقولون به لو سئلوا هذا السؤال » . وقال لي مرة « ان كان الاسلام ما تقرره فأنا مسلم » . وقال لي مرة بعد كلام قلته في الاسلام « اني أنا اعتقد هذا فاما ان اكون مسلما واما ان تكون كافرا » وقال لي مرة « ما اظن ان احداً يوافقك على هذا الاعتقاد في الدين الا الشيخ محمد عبده » ولا يبعد ان يكون ظنه فينا كظن اللورد في الاستاذ الامام . وقد ذكرت في المنار سؤاله اياي في رمضان : هل تصوم ؟ وعن جوابي له وماذكرته له من حكمة الصيام واعجابه به

وقد دعاني غير واحد من فضلاء النصارى للغداء في رمضان وعرضوا علي القهوة مرارا كثيرة فكنت أقول متعجبا أو نسيتم اننا في رمضان ؟ فيقولون او أنت تصوم أيضا ؟ فأقول : أي شيء يبيح لي الفطر ولست مريضا ولا على سفر ؟

ولكن اذا كان الملحد من النصارى هو الذي يظن ان المسلم العاقل لا بد ان يكون اسلامه ظاهريا وهو يسر الالحاد في قلبه فهل اللورد ملحد ام هو مقلد لستانلي في قاعدته من غير دليل ولا فكر ؟ وكيف يتفق هذا مع شهادته للشيخ محمد عبده بالايمان والعقل جميعا ؟

قال اللورد بعد ماذكر أنه يخشى ان يكون الشيخ محمد عبده لاأدريا « وان كان يستاء من هذه النسبة » فقوله هذا يشعر بأنه ذكر أمامه ما يدل على انه يظن فيه هذا الظن تصريحا او تلويحا فاستاء وامتعض وتبرأ من ذلك وأنكره وكيف لاينكره على اللورد مستاء وقد كان دينه اعز شيء عليه وهو الذي جعله لايخاف في الحق لومة لائم وهو الذي جعل السياسة مأيوسا منها عنده فكان جل قصده من معرفة رجالها ومداراتهم الاستعانة بهم على خدمة العلم والدين

من جهة وخدمة مصر من جهة أخرى فكان يتردد على الامير ليستعين به على اصلاح الازهر ويختلف الى اللورد ليستعين به على اصلاح المحاكم والمعارف وغير ذلك من المصالح التي شهد له اللورد بالوطنية الصادقة لسعيه لديه فيها . كان يستجليهما معا لمصر وللاسلام وقد اعطى كل منهما قليلا وأكدى . فلا عجب اذا جاءت كلمة اللورد في دين الاستاذ الامام غثة باردة تتضاءل في طرر بال فانها عبارة عن ظن لم يستيقنه ، في موضوع لم يعرفه ،

الثالثة استحسان قتل اسماعيل باشا

نقل اللورد عن كتاب التاريخ السري للاحتلال ان السيد جمال الدين كاشف الشيخ محمد عبده بفكرة خطرت له وهي قتل اسماعيل باشا عند مروره على « الكبري » اذا كان يمر كل يوم عليه وان الشيخ محمدا استحسن ذلك ولكن الامر لم يتجاوز الكلام بينهما [1] اي لم يكاشفا به أحدا لاعتقادهما انهما لا يجدان من يتجرأ على ذلك

كبر اللورد هذه المسألة وعظمها ووجه قوة عقله المنطقي الاوربي الانكليزي للاستنتاج منها فكانت نتيجته « ان العالم المتمدن كله ينظر بعد هذا الى الوطنيين شزرا !! ويحتقر بالاكثر أولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل »

ربما يسهل على اضعف الشرقيين الذين يقول اللورد عنهم ان عقولهم غير منطقية فهي ضعيفة الاستنتاج والاستنباط بل على أضعف المصريين الذين يعدهم من اضعف الشرقيين عقولا واستنتاجا ان يفندوا أمثال هذه النتائج التي استخرجها ذلك العقل الغربي المنطقي الكبير . فلو سألنا أحد

(١) راجع ٦٦ من الجزء الماضي

لابسي الجلابيب الزرقاء من فلاحي مصر والفيلسوف سبنسر والفيلسوف أرسطو: هل تقولون ان تفكر رجل غريب كالسيد جمال الدين الافغاني في قتل أمير ظالم كاسماعيل باشا واستحسان تلميذه كمحمد عبده المصري لفكرته وهو شاب في سن الطلب والتحصيل ينتج وجوب احتقار العالم المتمدن لهما وللوطنيين المصريين دائما الان تلميذا منهم استحسن منذ زهاء ثلاثين سنة قتل أمير خرب بلاده ومهد للاجانب احتلالها ؟؟ — لو سئل الثلاثة هذا السؤال لاجاب الفلاح المصري واشهر الفلاسفة المتقدمين وهو أرسطو مؤسس علم المنطق واشهر الفلاسفة المتاخرين وهو سبنسر بجواب واحد وهو ان الوطنيين لا يلحقهم ذنب ولا لوم من تلك الفكرة ان فرضنا انها فكرة تنافي المدنية ، وان المنطق يتبرأ ممن يقول بمثل هذه النتيجة

وفد السيد جمال الدين على مصر في سنة ١٢٨٦ وكان الشيخ محمد عبده في سن العشرين (لانه ولد سنة ١٢٦٦) وكان همه من حياته ايجاد حكومة اسلامية عزيزة قوية فاستمال الناس اليه بالعلم والفلسفة حتى اذا ما اجتمعوا حوله بث فيهم افكاره السياسية بطريق تعليم الكتابة والخطابة حتى كون لنفسه حزبا له ارتباط بولي عهد الخديوية (توفيق باشا) وكان اسماعيل باشا هو العقبة الكؤد في طريق الاصلاح المطلوب له فهل يعد من الغريب عند الامم المدنة ان يتمنى ازالتها او يفكر فيها فينظر العالم المدن الى جميع الوطنيين المصريين الآن النظر الشزر لان من علمهم السياسة وطلب الاصلاح فكر في ذلك منذ ثلاثين سنة ؟؟

يالله من هذا العالم المدني الذي لم يفكر في مثل هذا قط ؟ ما هو واين هو ؟ أليس هو العالم الاوربي الذي قتل من الملوك والرؤساء في بلاده

واحدا وعشرين ملكا ورئيسا في مدة لا تتجاوز قرنا من الزمان (*) ونعني بالرؤساء رؤساء الجمهوريات الذين تبعتهم اقل من تبعة الملوك

ان خطور الذنب بالبال ومكاشفة بعض البطانة به قد يكون تمنيا لا يصل الى درجة العزم، وقد يعزم الانسان على الشيء حتى اذا هم بمباشرته راجع نفسه وثني عزمه فرجع عنه نادما، فليت شعري ماذا كان يكون حكم لورد كرومر على جمال الدين ومحمد عبده وجميع الوطنيين المصريين الذين يودون استقلال بلادهم لو وفق السيد جمال الدين بوشنا الى تنفيذ ذلك الخاطر؟؟

اما كون السيد جمال الدين كان يعمل في مصر عملا سياسيا فهذا مما لا يجهله لورد كرومر ولا أحد من ساسة انكلترا وفرنسا الواقفين على احوال مصر الاخيرة، وهم يعلمون انه اذا ترك السعي لقتل اسماعيل باشا فانه قد سعى لعزله

قال الاستاذ الامام في كتاب تاريخ الثورة العرابية الذي عهد اليه بتأليفه الأمير عباس حلمي الثاني في سياق الكلام على السعي في عزل اسماعيل باشا وذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأموراً فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على ذلك ما نصه

« ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (اي اسماعيل) بعيداً عن كرسي الخديوية، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخابرات في هذا الامر فسعى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو

(*) ذكر ذلك في ص ٢٥٥ من جزء المقتطف الرابع الصادر في ابريل الماضي

الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تنالا ما تطلبان عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحول الامر على السلطان

«ثم ذهب وفد من المصريين ومنهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح ويسعى اليه وأن الاصلاح المطلوب لمصر لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم «الحزب الوطني الحر» اه المراد منه

ان لورد كرومر يعلم هذا ويعلم ان اسماعيل باشا لم يكن امثل من اولئك الملوك الذين قتلهم العالم المتمدن وآخرهم ملك البرتغال بل ولا من اولئك الذين ثاروا عليهم وقتلوهم بمحاكمة او بغير محاكمة ومنهم شارل الاول ملك الانكليز الذي قامت في وجهه الثورة الاهلية المشهورة وانتهت بقتله، وان اغتيال ملك او أمير مخرب للبلاد، ظالم للعباد، مضيع للملك، مهلك للحرث والنسل، أهون في نظر الفيلسوف من القيام بثورة عليه تسفك فيها دماء الالوف الكثيرة من الشعب، ثم يقتل الملك بعد ذلك بمحاكمة صورية او حقيقية ان لم يقتل اغتيالا

ان ما شرحه لورد كرومر في تاريخ «مصر الحديثة» من فظائع اسماعيل باشا كاف في بيان كونه أسوأ حالا من الملوك الاوربيين الذين ثارت عليهم رعيتهم بتدبير فلاسفتهم وعقلائهم فأين من اسماعيل باشا لويس السادس عشر وشارل الاول

قد مثل الاستاذ الامام في تاريخ الثورة العرابية حالة مصر التي تركها عليها اسماعيل باشا تمثيلا تلطف فيه واستعمل الرأفة التامة في الحكم لانه كتب ذلك لحفيده الامير الحالي كتابة حاول فيها الاعلام مع توقي الإيلام فقال:

﴿ شؤون البلاد المصرية في شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﴾

« تولى الجناب الخديو السابق توفيق باشا بعد ان تداخل دولتا فرنسا وانكلترا في شؤون البلاد المالية وارتبطت الحكومة معهما بعقود ووعود عدت قوانين وأصولا يجب احترامها

— وبعد أن كان قد أفضى الامر الى تعيين وزيرين أحدهما انكليزي للمالية والآخر فرنساوي للاشغال العمومية في أواخر عهد اسماعيل باشا

— وبعد ان كادت أحكام المحاكم المختلطة تؤدي بتنفيذها الى اشهار افلاس الحكومة ، وأدت بالفعل الى انتزاع املاك كثير من ذوي الثروة من الاهلين

— وبعد أن كان موظفو الحكومة من أية طبقة كانوا في اضطراب من حالتهم المعاشية لتعود الحكومة على تأخير دفع المرتبات لاربابها اشهرا

— وبعد ان صار رجال الحكومة في درجة من الغفلة عن مصالح البلاد الى حد انهم كانوا لا يفهمون للوظائف معنى الا انها وسيلة لتحصيل النقود من الاهالي بأية طريقة ليُدَس منها شيء في جيوب المباشرين للتحصيل ويرسل الباقي الى خزائن الخديو او الى صناديق بعض المحتفين به والمقربين اليه

وبعد ان صارت الجندية في البلاد صورة لا يقصد بها دفاع ولا حماية

وإنما يراد بها الظهور بعظمة الملك فلم يكن فيها تربية عسكرية ولا تدريب حربي وكثيرا ما كانت تستعمل في حفر الترع وإقامة الجسور للمنافع العامة او الخاصة وكان المرجع في بعض الحروب الى ضباط من الاجانب كانوا أركان حربها، وعليهم المعوّل في أغلب شؤونها

ــ وبعد ان فتح على الاهالي أنفسهم باب الاسراف والرفه في المعيشة تقليداً للمقربين من مسند الخديوية ومن يليهم وذلك قبل ان يعرفوا لنفقاتهم ميزانا صحيحا يعادلون به بين ما بأيديهم من الاموال وما ينفقون في اللذات

ــ وبعد أن نشأ عن هذا وعن شره الحكام في التحصيل وعدم رعايتهم لما عليه الاهالي من غنى وفقر واستعمالهم اشد العقوبات في سلب ما بأيديهم أن اضطر الاهالي الى التداين بالربا الفاحش حتى كان صاحب الارض يأخذ من المرابي المئة بمئة في ثلاثة أشهر ولم يكن يرى في ذلك عيبا ولا يخشى عاقبة فان أمامه القدوة العظمى وهي الحكومة تستلف النقود بمبالغ من الفائدة لا يمكن لعقل عاقل تصديقها لو نسبت الى حكومة ما لو لم يرها بعينه

ــ وبعد ان صار للربويين بذلك سلطة على الاهلين وطمع في اموالهم يفوقان سلطة الحكام وطمعهم

وبعد ان تعود كثير من الذين يسمونهم اكابر البلاد وأعيانها ، أو ذوات الحكومة وأمراءها ، على أن ينالوا من الحكومة ما يشتهون في الوقت الذي يريدون متى صادفوا مكانا من رضى الخديو او بعض

المقربين اليه فكانوا يسخرون الاهالي في أعمالهم الخاصة ويتصرفون فيهم كما يتصرف الراعي في ماشيته بدون ان يراعي أحد منهم في ذلك نظاما ولا عدلا ولا استبقاء منفعة من يوم الى آخر وتعود الاهالي على الشكوى الى الله وحده من ضيق الحال وخمود العزائم وانطفاء مصابيح الرشد في جميع الطبقات

– وبعد ان صار كل واحد من الناس في خوف دائم واضطراب لا يهدأ على نفسه وما بيده، اذا تكلم تمتم في كلامه، واذا قصد امراً أخطا اليه على غير هدى، يتلفت وراءه خوف مفاجأته بما يكره

– وبعد ان كانت الفاقة قد شملت جميع الطبقات الدنيا والوسطى حتى خيف القحط العام لو استمرت الحكومة على سيرها الماضي سنة أخرى من الزمان

– وبعد أن صارت عيون الناس بأسرهم شاخصة الى ما عساه ينزل من السماء ليمدهم بالمعونة على الخروج مما هم فيه

– هذه كانت حالة البلاد عند ما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية فيها. هذه كانت شدائد مهلكة، وظلمات حالكة، يضل فيها الرشيد، ويتعثر فيها العزم الشديد» اه المراد مما كتبه هناك

وقد استطرد منه الى بيان اعتقاد أهل مصر في حكامهم الى ذلك العهد ثم الى بيان ما أحدثه السيد جمال الدين من الانقلاب في الافكار وقد سبقت الاشارة اليه – وكان كل ذلك من مبادي الحوادث العرابية ومقدماتها، وان شئت قلت من عللها وأسبابها، فكل ما كتبه عن سوء حال البلاد في حكم اسماعيل لم يكتب على سبيل القصد ولم يرد منه الاستقصاء في بيان الحال، فضلا

عن المبالغة في التقبيح والتنفير، فهل يلام من له عقل يفكر، وقلب يشعر، اذا مقت ذلك الامير، وتمنى لو يفتأ له احد من اولئك المظلومين المقهورين او استحسن تمني من تمنى ذلك ؟؟

الشيخ محمد عبده وموقف حزبه بمصر

وهناك مسألة أخرى عدها بعض الناس قدحا من اللورد في الشيخ محمد عبده وحزبه وهي قوله فيهم انهم «أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وأدنى من المصري الغالي في تفرنجه» [1] والحق ان هذه العبارة لا ينتقد منها الا لفظها فهي مدح كتب في حال استياء واستعاض فجاء شبيها بالذم اذ توهم انهم دون الفريقين في علم او فضل ومعناها الحقيقي ان هؤلاء القوم وسط بين طرفين مذمومين طرف المتشددين في المحافظة على الرسوم والتقاليد القديمة باسم الدين وطرف المغالين في تقليد الافرنج الذين اضاعوا دينهم وثروتهم في ذلك وقد بالغ اللورد في ذمهم . ولم يرد اللورد بهذه العبارة الا ما اوضحه في تقرير سنة ١٩٠٥ من ان حزب الشيخ محمد عبده هو الحزب المعتدل في مصر الذي يناط بنجاحه استقلال هذه البلاد الاستقلال الحقيقي فلا فرق بين عبارته في التقرير وعبارته في التاريخ في بيان المراد الا ان احداهما كتبت في حال رضى فتلت المعنى مضيئا واضحا والثانية كتبت في حال السخط فغشي المعنى فيها غاشية من ظلمة الايهام

وقد زلّ قلم اللورد بسورة تأثير وجدان السخط زلة اشنع من هذه لعله اذا ذكرها يعرق من الخجل وهي انه ذكر في التقرير ان توفيق باشا صنيع

(١) راجع ص ٩٥ من الجزء الماضي

عن الشيخ محمد عبده « طبقاً لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق »(١) وقال في كتاب مصر الحديثة انه عفا عنه « بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك »(٢) فزيادة انقياده لتشديد الانكليز نقضت ما قبلها الموافق لما ذكر في التقرير فان العفو اذا كان عن انقياد لتشديد الانكليز لا يكون عن حلم وكرم خلق والا فلا أثر لتشديد الانكليز بل لم يكن هنالك حاجة اليه

فالورد جدير بأن يخجل من هذه العبارة اذا قابلها بعبارة تقريره في المسألة لانها جعلت كلامه متناقضا او متعارضا وأبانت انه محابي في المدح عند الرضى فانه جعل عفو توفيق باشا عن الشيخ محمد عبده عند رضاه عنهما معا كرما و حلما و كرم خلق فلما سخط من الثاني جعل ذلك العفو ناشئا عن تشديد من الانكليز في طلبه لا عن مجرد الطلب فيقال إنه طلب وافق حلم توفيق وكرم خلقه وانما أراد الورد بذلك أن يظهر فضله عليه، ليثبت أنه أساء الى من أحسن اليه، بما أظهر عن عيوب سياسة الاحتلال وادارته لمستر بلنت . والمؤرخ المحابي متهم لا يوثق بمدحه لمن يرضى عنه، ولا بذمه لمن يسخط عليه، وبناء على هذه القاعدة نقول ان ثناء الورد على الشيخ محمد عبده في كتاب مصر الحديثة يعد بما فيه من الشوائب منتهى الفضل وشهادة الورد به شهادة جديرة بالاعتبار والايثار وهو يلخص في هذه الكلمات

(١) انه احسن العمل في القضاء وأدى الامانة حقها

(٢) كان واسع الرأي

«١» راجع ص ٩٠ من الجزء الماضي «٢» ص ٩٥

(٣) كان على علم ونباهة

(٤) كان عدوا للخدويين والباشوات غير الصالحين

(٥) كان وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكثر امثاله

(٦) انه أسس في مصر مدرسة فكرية

(٧) ان له في مصر حزبا معتدلا يجمع بين أصول الاسلام والمدنية

(٨) ان أتباعهم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون الجديرون بمساعدته

(٩) إن له برجراما لجعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا

(١٠) ان تقدم اتباعه خير رجاء له في تنفيذ برجرامه هذا

فحسبنا من اللورد الشهادة بهذه العشر ولا يضرنا مما ظنه انه كان لا أدريا ، ولا جزمه بأنه كان خياليا ، ولا إيهام عبارته أن حزبه الوسط دون كل من الطرفين الذي هو وسط بينهما

نعم كان حزب الشيخ محمد عبده معه ولا يزال من بعده وسطا بين المحافظين الجامدين ، والمتفرنجين المقلدين ، ومنهم من هو أقرب الى هؤلاء ومن هو اقرب الى أولئك ، اما الشيخ نفسه فقد كان من آياته أن أذكياء كل فريق من المتفرنجين والجامدين يجلونه مع احتقار كل منهما للآخر . وقد عرف أصحاب المقطم والمقتطف من كنه هذه المزية ما لم يعرفه اللورد او صرحوا بما لم يصرح هو به اذ قالوا في تأبينه بالمقطم (ع ٤٩٥٢) مانصه[1] :

« فأول مزية امتاز بها الفقيد انه كان في مقدمة كل فريق من الفريقين اللذين انقسم اليهما المصريون في هذا العصر : فقد كان عالما يهتدي بنور علمه فريق المحافظين الذين لا يروقهم غير ما جرى عليه

(١) ص ٤٥ من الجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام

المتقدمون كالعلماء والائمة وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم . وكان قائدا للآراء ومديراً للافكار عند الفريق الذي جعل شعاره التقدم والارتقاء من أبناء هذا العصر الذين يرون ان التقدم لا يغني عن الحديث وان من لا يتقدم يتأخر والسكون المطلق محال . وقول ولا يخشى في الحق لومة لائم ان الفقيد فاق الاقران كلهم في هذه المزية حتى انفرد فيها او كاد » الخ

وكتبوا في الجزء الثامن من المجلد الثلاثين لمجلة المقتطف ما نصه (١) :

« وكان ذكي الفؤاد بالطبع قوي الحجة حسن المحاضرة لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يهيب الكبراء والعظماء لمجرد ما هم فيه او ما أدركوه من رفعة المقام فاستطاع ان يكون علما يهتدي بنور علمه المحافظون الذين لا يروقهم الا ما جرى عليه المتقدمون كاكثر العلماء وطلبة العلوم الدينية واللغوية ومن جرى مجراهم لانه كان ثقة فيهم - وعضدا قويا لابناء هذا العصر الذين استناروا بالعلوم الحديثة والآراء الجديدة ، ومرشداً صادقاً للذين يطلبون الاستنارة بها والسير في سبيلها » الخ

هذا رأي أصحاب المقطم والمقتطف سقناه الى اللورد لان شتيه غير متهمين عند اللورد بقلة المعرفة ولا بالتشيع للشيخ محمد عبده

واذا أراد اللورد ان يعرف مكان الاستاذ الامام من نفوس أرق الطائفتين (المحافظين والمتفرنجين) فليقرأ ما أثنى به الشيخ احمد ابو خطوة أرق الازهريين علما وفهما وقاسم بك أمين أرق المتعلمين في أوربا واللورد يشهد بنبوغه وقد اثنى عليه في خطبته التي ودع بها مصر ذلك الوداع المشهور

---

(١) ص ٣ من ج ٣ من التاريخ المذكور

قال القاضي الشرعي الشيخ أبو خطوة في ابتداء كلامه «اجتمعنا اليوم هنا حوالي هذا القبر الجليل الموقر الذي انتهى اليه أمر الامام الكبير الاستاذ الشيخ محمد عبده» الخ ثم فصل اصلاحه للازهر والمحاكم الشرعية تفصيلا

وقال القاضي الاهلي قاسم بك في ابتداء كلامه «مهما قلبنا النظر ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في امتنا من يعوض علينا ما خسرناه بفقد استاذنا الشيخ محمد عبده». وقال انه «وصل الى أسمى مقام يمكن ان يناله انسان في هذه الحياة .... مقام الامامة بأوسع معناها تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجرأ على ان يدعي فيه استحقاقا بعده» ثم قال:

«سادتي: ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح، والجمال المطلق لا يوجد في هذا العالم ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها فتنمو زهرة الجمال فيها نموا عجيبا وتتكاثر فروعها وتمتد طولا وعرضا ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها. ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز. نفس خلقت على أحسن شكل، زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثالا في الجمال يجب ان نضعه دائما أمامنا لنتعلم منه» كذا وكذا وذكر بعض مزايا الامام ثم قال «ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق في انسان اجتهد في تقويمه وتربيته وباهاه حتى أوصلها الى اقصى ما تصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال»

وبهذا نكتفي في هذه المسألة التي يعرف منها طريق الورد في الكلام عن رجالنا وننتقل منها الى المقصد الام وهو كلامه في الاسلام والمسلمين فنقول

القرآن والعلم

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

اشتبه بعض علماء الافرنج من المستشرقين وغيرهم الباحثين في الإسلام في آيات كثيرة من القرآن الشريف لم يفهموا معناها الصحيح بسبب ما وجدوه في بعض كتبنا من التفاسير السخيفة والآراء السقيمة ٠ وقد اتبعهم في ذلك دعاة المسيحيين متخذين بعض آراء هؤلاء المستشرقين ذريعة للطعن في الكتاب العزيز ناسبين إليه الجهل والخطأ لتشكيك عوام المسلمين في دينهم القويم ٠ وقد سبق لي ان تكلمت على كثير من هذه الشبهات في (مقالات الدين في نظر العقل الصحيح) بما يشفي العلة، ويروي الغلة، ولكن فاتني ان استقصيها جميعاً إذ ذاك ٠ فلذا رأيت الآن أن أستدرك ما فاتني خدمة للإسلام وتذكيراً للعلماء كي ينظروا في هذا الدين ويقدروه قدره. فانه ما نظر فيه عالم محقق من اي وجهة كانت الا وجد الحق والصواب عماداً لجميع مبانيه، والعلم والعقل أساساً لكافة عقائده وأوامره ونواهيه، وقد رايت أن أذكر الآية أولاً، ثم أعلق عليها بما يفتح الله به عليّ حتى يتضح الدليل، وتستبين السبيل، فأقول وبالله أستعين:

المسألة الاولى

(الحجر)

قال الله تعالى (١٥ : ٨٠ ولقد كذّب اصحاب الحِجر المرسلين ٨١ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ٨٢ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) ٠ اعلم

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

انه يوجد بين العقبة والبحر الميت مدينة شهيرة عند السائحين تدعى باللغة اليونانية (بترا) أي الصخرة وهي المسماة في العهد القديم بمدينة « سالع » كما في سفر الملوك الثاني (١٤: ٧) وفي كتاب اشعيا (١٦ : ١) وكلا الاسمين « بترا » و « سالع » بمعنى واحد لكنهما بلغتين مختلفتين . يحيط بهذه المدينة جبال وعرة أعلاها جبل هور المذكور في سفر العدد (٣٣ : ٣٨) ولذلك كان اليهود يسمون اهلها الأولين بالموريين ومعناه سكان الكهوف لأن بيوتهم منحوتة في الصخور ومنظر هذه المدينة من اعجب المناظر

فلما رأى بعض سياح الافرنج هذه المدينة وسمع ذكر « الحجر » في القرآن الشريف ظن ان هذه الكلمة ترجمة لفظ « بترا » اليوناني لتوهمه انها بفتح الحاء والجيم « الحجَر » وبنى على ذلك ان « الحجر » في القرآن هو « سالع » في العهد القديم . ولما كانت مدينة سالع هذه معروف عنها ماينافي ان اهلها اهلكهم الله بالصيحة ومايدل على انها كانت عامرة بالسكان الى ما بعد الميلاد بقليل اخذوا يطعنون على القرآن الشريف وينسبون اليه الخطأ والجهل بالتاريخ والله يعلم انهم لكاذبون . اذ لولا تسرع هؤلاء الحمقى وجهلهم لعلموا ان الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم غير بترا او سالع وان احداهما تبعد عن الاخرى بعدا عظيما فان الحجر قرية صغيرة على خط سكة الحديد الحجازية الآن الى جنوب دومة الجندل وتنزل بها حجاج الشام وتسمى بمدينة صالح وهو النبي الذي ارسله الله الى اهلها « ثمود » ولا تزال الى الآن آثار مساكنهم التي كانوا ينحتونها في جبالها المساة « أثالب » كما قال في دائرة المعارف العربية ويمكن لكل احد ان يذهب اليها والى سالع ليرى بعيني راسه أنهما مدينتان متباعدتان في موضعين مختلفين وان المسافة بينهما تقارب مابين الاسكندرية والعقبة وان الحجر في الجنوب الشرقي لسالع . ومعنى الحجر المكان الذي حوله حجارة وهو غير معنى « سالع » أي الصخرة . وما يزعمه بعضهم ان جميع ماتراه فيهما من البيوت كانت قبوراً لامساكن لم يقم دليل على صحته كذلك لا يبعد ان بعضها كان كذلك والقرآن لم يقل ان جميعها كانت مساكن ولا ان جميع مساكنهم كانت منحوتة

في الجبال بل قال ان بعض المساكن كانت تبنى على الارض والبعض الآخر ينحت في الجبل كما في سورة الاعراف (٧ : ٧٤ و بوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا — الى قوله — ٧٨ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) فكانت لهم قبورا بعد اهلاكهم وان لم تكن جميعها كذلك في اول أمرهم. ومن ذلك تعلم خطأ ماقاله المستشرق الشهير مرجليوث في كتابه المسمى (محمد) في هذه المسألة

المسألة الثانية

﴿ الإسراء وتاريخ بيت المقدس ﴾

قال الله تعالى (١٧ : ١ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) المسجد الحرام هو الحرم المكي والمسجد الأقصى هو بيت المقدس . وهذا البيت كان خربه تيطس الروماني سنة سبعين للميلاد وأحرقه بالنار فلم يكن له وجود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلا آثاراً وأطلالاً فكيف يقول القرآن الشريف إن النبي أسرى به اليه ؟ الجواب (١) المسجد في اللغة مكان السجود والعبادة ولا يشترط فيه ان يكون محاطا بالبناء ولا ان تكون سقفه مرفوعة على أعمدة او نحو ذلك مما اعتاده الناس الآن وما كانت مساجد العرب في مبدإ الإسلام إلا أمكنة بسيطة خالية من الأبنية الضخمة والزخرف والزينة وكل مكان يعبدون الله فيه يسمونه مسجداً لهم بل سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع الأرض مسجدا لصحة العبادة في أي جزء منها فقال « وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » فلا يلزم من قول القرآن إن النبي أسري به إلى المسجد الاقصى انه كان إذ ذاك مبنياً مشيداً كما كان قبل تخريب الرومان له. ولذلك كان العرب يذهبون إلى أورشليم وغيرها من بلاد الشام ويعرفون ما كان عليه المسجد الاقصى من الخراب ومع ذلك لم يسمع من أحد منهم انتقاد على عبارة القرآن الشريف هذه أو تردد في

(١) المنار: راجع ص ٦٩٩ وما بعدها من المجلد السادس

فيها أو تكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم فيها وغاية ما سمع منهم تكذيبه في ذهابه إلى هذا المسجد بهذه السرعة العجيبة لا في وجود ما يسمى عندهم بالمسجد الأقصى وإن كان خربا ، على ان الظاهر ان القرآن الشريف يريد بالمسجد الأقصى بلدة (أورشليم) وبالمسجد الحرام بلدة (مكة) اي إنّ النبي سار ليلاً من مكة إلى أورشليم لأن المسجد الحرام ما كان بيتا للنبي صلى الله عليه وسلم ينام فيه بل كان نائماً في بيت أم هانيء أحد بيوت مكة كما جاء في الروايات الواردة في هذه المسألة . فالقرآن أطلق هنا المسجد الحرام على مكة وأطلق المسجد الأقصى على أورشليم من باب تسمية الكل بالجزء الذي هو أعظم وأشهر شيء فيه

ومثل هذا الاطلاق شائع في العربية وغيرها وكثير في القرآن الشريف ولذلك ورد فيه تسمية الحرم كله بالبيت العتيق كما في قوله تعالى في الذبائح (٢٢ : ٢٢ لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق) مع ان الذبح لا يعمل في نفس البيت وانما يعمل في « منى » بالقرب منه

اما ماورد في بعض الروايات من ان النبي صلى الله عليه وسلم ربط زمام البراق في احدى حلقات بيت المقدس فالاقرب عندي ان هذه الروايات وأمثالها هي مما وضعه الواضعون بعد تعمير بلاد المسلمين لهذا البيت اي بعد فتح عمر لبلاد الشام وإقامة مسجد مكان الهيكل (بيت المقدس) وقد غاب عن هؤلاء الواضعين هذه الحقائق كما هو شأن الكذابين فلم يعرفوا ان مايشاهدونه في زمنهم لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم (١)

واعلم ان القرآن الشريف قد ذكر تاريخ بيت المقدس وما لحقه من التخريب فلا يقال اننا فيما قلنا ملفقون أو اننا لاجل دفاعنا عن القرآن ننسب اليه مالم يعرفه ولم يخطر على بال مؤلفه كما يقولون . بل ورد فيه في نفس هذه السورة (الاسراء) بعد الآية السابقة قوله تعالى (١٧ : ٤ وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدُنّ في الارض مرتين ولتعلنّ علوا كبيرا ٥ فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا) هم بختنصر وقومه الكلدانيون (أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار) اليهودية اي

(١) المنار : في ص ٧٠١ م ٦ توجيه لهذه المسألة مبني على صحة الحديث

جالوا وترددوا فيها للنهب والقتل والسلب والسبي والتدمير (وكان وعداً مفعولا ٦ ثم رددنا لكم الكرة عليهم) بأن أرسلنا عليهم كورش ملك فارس فدمر مملكتهم وفتح بابل واتقذ اليهود من أسرهم واكرم مثواهم وأحسن اليهم وردهم الى بلادهم فصاروا فيها أعزاء وسادوا على اعدائهم الذين تركهم الكلدانيون فيها تحت رعايتهم فعاد الى اليهود شيء كبير من مجدهم السابق ثم عمروا بيت المقدس الذي كان خربه بختنصر وأحرقه وصاروا يقيمون شعائر دينهم فيه كما كانوا يفعلون من قبل (وامددنا كم باموال وبنين وجعلنا كم اكثر نفيرا) فرجعوا من الاسر باشياء كثيرة من الذهب والفضة وأمتعة وبهائم وتحف وغيرها كما في سفر عزرا (١ : ٤ — ١١)

(٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة) العقوبة الثانية (بعثنا عليكم عباداً لنا ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد) أي بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) فدخله تيطس الروماني بجيشه ونهبه وأحرق الهيكل ودمره تدميراً كما فعل الكلدانيون من قبل وتشتت اليهود بعد ذلك في العالم ولم تعد إليهم الدولة إلى الآن .

وإنما قال القرآن « كما دخلوه أول مرة » مع ان الداخلين المدمرين للمسجد في المرة الثانية غير الذين دمروه في المرة الأولى لأن الجامع بينهم شيء واحد وهو كونهم جميعاً عباداً لله فانه قال في أول القصة « بعثنا عليكم عباداً لنا » بدون ذكر جنسهم . وهذا على حد قولك « دخل الأور بيون الجامع الأزهر مرة ثم دخلوه مرة أخرى » مع أن الداخلين في المرة الثانية قد يكونون انكليزاً وفي الأولى فرنساويين ولاشتراكهم في الوصف (وهو كونهم أوربيين) كان هذا التعبير صحيحاً ومثل ذلك قوله تعالى مخاطباً ليهود العرب (٢: ٥٥ وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) مع أن ذلك لم يحصل لهم وإنما حصل لبني اسرائيل في زمن موسى ولاشتراك يهود العرب معهم في الدين جاز هذا التعبير وهو شائع في جميع اللغات

فمما تقدم تعلم ان القرآن الشريف ذكر أن المسجد الأقصى خرّب مرتين وذكر لليهود عقوبتين الأولى ما اوقعه الكلدانيون بهم والثانية ما فعله الرومانيون أما الواقعة الأولى فقد تمت في سنة ٥٨٧ قبل الميلاد وبها زال استقلال اليهود

وصاروا خاضعين للكلدانيين ثم الفرس ثم اليونان ثم الرومان

وأما الثانية فقد تمت في سنة سبعين بعد الميلاد وبها تشتت اليهود في أنحاء العالم وقضي عليهم قضاء أبدياً

ومن ذلك تعلم ان هاتين الواقعتين يدور حولهما تاريخ الأمة اليهودية وعليهما يقام هيكله فلولا وحي الله لما أمكن لذلك العربي الأمي العامي الناشئ بين الوثنيين أن يستخلصها من تاريخ الامة اليهودية الطويل العريض وليس في بلاده كتب يرجع اليها بل لا يتيسر له اذا أراد ولم يقم على تربيته معلم وليس له مدارس ومع ذلك قد لخص هذا التاريخ الكبير في كلمة صغيرة هي نهاية الاعجاز وعبرة العبر وحكمة الحكم مع مافيها من الاشارات الدقيقة إلى الحقائق التاريخية التي يفهمها الراسخون في العلم

هذا وقد كان أسر اليهود الى بابل من اكبر ماحل بهم من المصائب حتى كانوا كل يوم ينتظرون الفرج والخلوص العاجل وقد كان كورش ملك فارس المخلص الاكبر لهم من ذلك وكانوا يسمونه مسيح الرب (أشعياء ٤٥ : ١) فلذا كثر الثناء عليه في كتب العهد القديم لانقاذه اياهم من المحن والبلايا والرزايا التي حلت بهم في بابل التي اطنبت كتبهم في وصفها وتعديدها وانذرهم الانبياء بها قبل وقوعها ثم صاروا يبشرونهم بالخلاص منها . وهذا هو سبب ورود لفظ الخلاص ونحوه كثيرا في كتب العهد القديم ككتاب أشعياء وغيره مما صار النصارى يزعمون أنه رموز إلى المسيح عيسى عليه السلام والحقيقة أنه لاعلاقة لأكثره به ولكنهم ولعوا وولع مؤلفو العهد الجديد بذلك من قبل حتى انهم كانوا ينسبون للمسيح عليه السلام من الحوادث ماينسبون ثم يستشهدون عليها بعبارات في العهد القديم كاستشهاد متى (٢ : ١٥) بكلام هوشع عن خروج بني اسرائيل من مصر (اصحاح ١١ : ١) وزعمه ان ذلك نبوة عن المسيح عليه السلام وكاستشهاده في الاصحاح ٢٧ : ٩ بكلام يزعم أن أرميا النبي قاله مع أنه لا وجود له في كتابه وإنما يوجد في كتاب زكريا بعض ألفاظ تشبهه (أصحاح ١١ : ١٣) ولا مناسبة بينها وبين ما يقوله متى في انجيله . وإنما ذكرنا ذلك إبطالاً لدعاويهم العريضة ورداً لكيدهم وتحاملهم

على القرآن الشريف مع الجهل والتعصب كما بيناه ونبينه

ولما أصيب اليهود للمرة الثانية بما أصيبوا به من الرومانيين صاروا يترقبون مجيء مخلص لهم ككورش وهم إلى الآن ينتظرون ذلك ! !

هذا شيء من تاريخ اليهود ذكرناه هنا تفصيلاً لتفسير ما جاء في أول سورة الاسراء ومنه تعلم أن القرآن الشريف ذكر تخريب المسجد الأقصى في المرتين فلا يقال إنه أخطأ وجهل التاريخ كما يدعي جهلة المسيحين افتياتاً عليه ورغبة منهم في تكذيب حادثة الاسراء وهي كما ترى ليس فيها شيء ينافي العلم أو يناقض حكم العقل الصحيح . وما نشاهده من حركات الأجرام الكونية وما اخترعه البشر من آلات البخار والكهرباء يقرب إلى العقل تصور تلك الحركة السريعة التي حصل بها الاسراء إن كان ذلك جسمانياً كما عليه جمهور المسلمين وأما إن كان روحانياً او رؤيا منامية كما عليه بعضهم فلا شبهة عليه والله أعلم (لها بقية)

باب المناظرة والمراسلة

السنن والاحاديث النبوية

٢

بحث النسخ

قال حضرة الدكتور «النسخ هو ابطال حكم لبدل اولغير بدل» واقول ماذكره من تعريف النسخ غير كاف ولا واف فانه غير جامع ولا مانع ولا نطيل بالمناقشة فيما يتعلق بالعبارة اذ مراده بذلك الكلام على النسخ المعروف عند المسلمين وهو صريح في اختياره النسخ بمعناه عند المتأخرين — اما هو في عرف السلف فهو زيادة على ماذكره يعم رفع دلالة العام والمطلق والظاهر إما بتخصيص او تقييد او

حمل على مقيد وتفسيره وتبيينه. قال شيخ الاسلام ابن القيم رحمه الله حتى انهم ليسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد. فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ بل بأمر خارج عنه وبذلك تزول اشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر انتهى ملخصا — وهل الإنساء والنسخ شيء واحد أم هما شيئان ؟ ذهب بعض السلف الى الاول والظاهر انه اعم من النسخ اما على قول من قال ان معناه التأخير والإرجاء فهو قبل نزوله واوان ظهوره للتكليف لا يوصف بنسخ ولا عدمه

واعلم ايها القاري انه يتفرع على النسخ بمعناه عند الخلف خلاف بينهم هل يجوز نسخه بالآحاد الصحيحة ام ببعضها دون البعض ؟ اما السلف فلا نعلم عنهم خلافا في جوازه

قال حضرة الدكتور فالنسخ عندنا لا يقع الا في الاحكام (الاوامر والنواهي) ولا يقع في القصص او في القضايا العقلية اذ لا معنى لوقوعه في ذلك

واقول اذا سلمنا ان معنى النسخ هو ما ذكره المتأخرون حيث قالوا في تعريفه « هو ان يدل على خلاف حكم شرعي دليل شرعي متراخ » فلا شك ان المنسوخ لا يجوز ان يكون من الاخبار عن الامور الماضية او الواقعة في الحال او الاستقبال مما يؤدي نسخه الى كذب او جهل — بخلاف الاخبار عن حل الشيء او حرمته ونحوها فانه يجوز النسخ في هذا الاخير وكذلك القضايا العقلية لا يجوز النسخ فيها لإفضاء ذلك الى الجهل وكذلك اذا قيد نصا بتأبيد او توقيت فلا يجوز نسخه لاستحالة العبث والجهالة

اما اذا فسر النسخ بمعناه عند السلف فلا مانع من وقوعه في كل ما ذكرناه لانهم لم يشترطوا في الناسخ منافاة المنسوخ . ودونك ما ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره عنهم بعد قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او مثلها » الآية قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ما ننسخ من آية قال ابن جريج عن مجاهد ما نمحو من آية وقال ابن ابي نجيح عن مجاهد « ما ننسخ من آية » قال نثبت خطها ونبدل حكمها . حدث به عن اصحاب ابن مسعود رضي الله عنه . وقال ابن ابي حاتم وروي عن ابي العالية ومحمد بن كعب القرظي

نحو ذلك وقال الضحاك ما ننسخ من آية ما ننسك وقال عطاء اما ماننسخ فما نترك من القرآن وقال ابن ابي حاتم يعني ترك فلم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وقال السدي ماننسخ من آية نسخها قبضها قال ابن ابي حاتم يعني قبضها رفعها مثل قوله « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة » وقوله « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا » وذكر عن ابن جرير مامؤداه اختيار مذهب المتأخرين في تفسير معنى النسخ وانت ترى بعدا بين مافهموه وما فهمه المتأخرون الا ما نقل عن اصحاب عبد الله بن مسعود لكنه محمول على ماهو معروف عن السلف من انهم كثيرا مايفسرون الشي ببعض معانيه نظرا لحال السامع تارة ولما يقتضيه المقام تارة ولظهوره في باقي معانيه الاخرى ولم يكونوا ليحدوا الأشياء بالحدود والتعاريف التي اصطلح عليها المتأخرون فاذا كان النسخ عندهم مفسرا بالرفع والقبض الذي هو أعم منه عند المتأخرين فالله جل شأنه ينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم الاحكام في جميع انواع الموضوعات والقصص والاخبار للاذعان والاعتبار ورداً على المعاندين الكفار فاذا قامت الحجة وحصل لرسوله صلى الله عليه وسلم الفلج وعليهم الفلبة فالعقل لا يوجب إبقاء الحجة مسطورة مكتوبة كما انه لا يجب ولا يلزم حبس وابقاء الجيش العظيم على البلد بعد فتحها وكما ان الاحكام تختلف باختلاف حال المكلفين كذلك التعاليم الاخلاقية ونحوها تختلف باختلاف أحوالهم أيضاً — فاذا أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما شاء من اخبار أو غيرها لمقتض ولمصلحة ثم رفعها على ما لها من الاجلال فائزة بالنصر وقهر الاعداء غير منقوضة بريب أو تكذيب لاسيما اذا أحل محلها وأنزل بدلها ماهو أنسب وخير منها لنا فيا ترى أيّ جهل وعبث يلزم فسبحان ربك رب العزّة عما يصفون »

ثم قال حضرة الدكتور: فلسنا ممن يسلم القول بنسخ لفظ بلفظ كما يتوهمون أو بنسخ لفظ وابقاء حكمه كما يزعمون. واستدل على ذلك باستلزامه الجهل أو العبث

وأقول هذا الاستبعاد من حضرة الدكتور منشؤه عدم الامعان في معاني القرآن لأن الله جل شأنه وعظم سلطانه ذو الكمال وخالق الكمال النسبي وكلتا يديه يمين فهو يعبر لرسوله صلى الله عليه وسلم عن شؤونه بما شاء مما هو كاف في اعجاز مخلوقه القاصر والمعاند

الكافر ولا محذور في ان يرفع عبارة قد اعتبر وابدلوها ثم يكررها ثانياً لمقتض في قالب عبارة وألفاظ أكمل من الأولى أو أنسب بالحال منها فانه ما من كمال نراه الا وعند الله أكمل منه والكل بالنسبة الينا معجز وكمال كما قال تعالى « نأت بخير منها »

ومما يوضح ذلك ويقربه ماهو واقع في المحكم بين دفتي المصحف من ذكر القصة الواحدة في مواضع متعددة بألفاظ وعبارات متغايرة لفظاً متحدة معنى وقد تراها بزيادة ونقص وما ذلك الا لاختلاف ما يقتضيه الحال لسوقها في الاستشهاد بها ولاختلاف أحوال المتلقين عن رسوله صلى الله عليه وسلم لان منهم من يميل الى التطويل وحفظه ومنهم من يميل الى الاقتصار على الاختصار اما لعدم الفرص أو غير ذلك — فاذ حسن ذكر القصة الواحدة بعبارات وألفاظ متغايرة لفظاً مع بقاء الكل فجوازه كذلك بعد رفع الاول ونسخه أولى واحرى وهذا ظاهر لا غبار عليه — على انه قد يقال لم لا تسلم وتحمل ذلك على ما نزل قبل التحدي بالإعجاز؟

واذا رفع بالنسخ أو الإنساء ما هو كذا فقد قدمنا الحكمة فيه وسببه واذا بقي محفوظاً لأفراد لا يصح ان يثبت برواياتهم آيات قرآنية فما ذلك الا ليتحقق صدق قوله تعالى «ما ننسخ من آية أو ننسها» الآية وليعرف ان البدل خير من المبدل فيشكروا الله على ما أعطاهم وانظر الى ما روي في الصحيح « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » . فانه كان قرآناً يتلى أي ثم رفع وانسي لفظه وإنما بقي محفوظاً لدى من لا يثبت بروايته آيات قرآنية والعلة التي أدركناها في ذلك ما ذكرناه فاذا تتبعنا المصحف وجدنا ماهو أولى وأظهر مثل قوله تعالى « وتحبون المال حباً جماً » الآية — اما مايذكر في آية « الشيخ والشيخة » الى آخره كما في الصحيح وان ذلك كان قرآناً يتلى ثم نسخ لفظه كذا قالوا فلا يبعد ان يقال ان هذا مما نسخ لفظه وحكمه لان الرجم أول مانزل في أول الإسلام ثم نسخ بنزول حد الزاني وحينئذ قال صلى الله عليه وسلم — في حديث عبادة رضي الله عنه «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا الثيب بالثيب جلد مائة والرجم منسوخ — ثم شرع الرجم مرة أخرى لأنه رجم ماعزا والغامدية

بعد ان قال ذلك . انظر ذلك في زاد المعاد لشيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله

ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول: اذا لم يشترط في النسخ المنافاة والمناقضة بين الناسخ والمنسوخ وهو ما يدل عليه كلام عامة السلف وهو ظاهر القرآن حيث جعل متعلق النسخ والإنساء — الآية — ولم يخص بذلك حكمها واذا جاز الإنساء فالنسخ كذلك قال تعالى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله »

فلا عيب ولا نقص في نسخ ما شاء كيف شاء وسواء في ذلك رفع لفظ بلفظ و رفع لفظ وابقاء حكمه لما تقدم ولانه اذا تفضل بالبدل فهو لا شك يبد له بما هو خير منه لانه اذا وعد بإعطاء احد خيرين فكرمه وكرامته لرسوله صلى الله عليه وسلم تقتضي ان يمن عليه صلى الله عليه وسلم بأفضلهما واكملهما « ولسوف يعطيك ربك فترضى » او يقال نأت بخير منها او مثلها أي المنسية والله اعلم بمراده

فان قيل ما الحكمة في رفع ألفاظ وابدالها بالفاظ او رفع لفظ بعد نزوله؟ قلت قد بينا ذلك فيما تقدم ولكن نحن مهما جهدنا فلا نستطيع ان نعلل ذلك باصح واحكم مما اجاب الله به منكري النسخ بقوله تعالى « نأت بخير منها او مثلها » اي لما كان المنسوخ قبل نسخه مناسبا للمصلحة ومطابقا للحكمة فاذا نسخناه لمقتض فانما هو لنأتي بخير منه اي اكثر مناسبة واشد مطابقة للحكمة

اما ما استدل به حضرة الدكتور وعلل به جواز وقوع النسخ حيث قال والسبب في وقوعه اختلاف حال المكلفين باختلاف الزمان والمكان فما يلائم البشر في زمن طفوليتهم قد لا يلائمهم في زمن كهولتهم او شيخوختهم ومثل لذلك باختلاف حالة الانسان بالصحة والمرض — فهذا التعليل للنسخ انما اخذه حضرته عن المتكلمين الذين ادعوا لانفسهم الكمال فوق كل احد حتى انهم قد يدعون لانفسهم انهم يعرفون من الدين ما لم يعرفه السلف وانهم قد يصلحون منه ما يزعم بعضهم انه ناقص منه ومادرى المساكين ان النقص وصفهم اللازم الذاتي ولله در الشاعر

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

ولو كان لا يكون النسخ في الشرائع الا اذا صار المنسوخ بمنزلة ما لا يلائم حالة البشر بحيث يكون نسبته اليهم كنسبة ما لا يناسب حالة المريض لكان ذلك اي النسخ

لا يكون الا بعد احراجهم غاية الاحراج بحيث يكونون قد عانوا ماقرب ان يكون خرج عن حد استطاعتهم وهذا لايجوز من واسع الرحمة فكيف يستقيم قول حضرة الدكتور؟ قدمنا ذلك لتعلم ان النسخ لمقتض او لحكمة لاعيب فيه عند العقل الخ لانه يفهم منه ان ابقاء التكليف وعدم النسخ والحالة هذه جائز عقلا وشرعا والذي يقال ان تأخير النسخ الى تلك الحالة ممتنع عقلا وشرعا لقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » والنسخ شرعا هو الذي دل القرآن دلالة الكريم عليه وهو تبديل ذي الخير مما اوحي الى رسوله صلى الله عليه وسلم بما هو اكثر خيرا منه — وهو من باب التوسيع فيما كثرت فوائده وعمت عوائده وفيه تنبيه هذه الامة لفتح ابواب المعارف والرقي الى مدارج الكمال والاستعداد لكل ماعسى ان ينجم من خير يقدم او بلاء يهجم

فما ذكره حضرة الدكتور من الحكمة في النسخ ليس هو حكمته نعم هو يقرب ويضارع ما نصبه الشارع مسوغا للترخص في المحكم لانه ألزم عباده بامتثال ماشرعه محكما بشروط واسباب مالم تعارض ذلك موانع ورخصات فاذا عرض مانع او مرخص فقد رفع عن العباد الاثم وجاز لهم فعل او ترك مااقتضاه الحال وبذلك قد ينقلب الواجب محرما والمحرم واجبا اوجائزا في حق من قام به مانع والحكم يختلف باختلاف المكلف وتارة يعتبر مع ذلك المكان وتارة الزمان وقد يختلف الحكم بالنسبة الى شخص أو أشخاص باختلاف حال ما احتف به من البشر، وبحاله من صغر وكبر، واقامة وسفر، وضعف وقوة، وامن وخوف، وقد يختلف بالمواسم تبعا للضرورات، اوتوقعها ولو ظنا في بعض الحالات، وللضرورات احكام تخصها ولهذا صح المثل « عند الضرورات تباح المحظورات » قال تعالى « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » وألحق بذلك ماصح عنه عليه الصلاة والسلام انه قال « رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »

فاختلاف الحكم باختلاف حال المكلف اوالمكلفين — بحيث لا يبقى ملائما لطبائعهم بان تكون نسبته اليهم كنسبة مالا يلائم حالة المريض — لا يصلح ان يكون علة النسخ وحكمته كما عرفت بل هو باق ومعتبر للترخص في الشريعة المحكمة

الثابتة الباقية فكيف يجعل مناطاً وسبباً للنسخ وقت التشريع لاسيما وقد نص الله في كتابه على سبب النسخ كما قد قدمنا ذلك

ومن تأمل وأمعن النظر فيما ذكرناه اتضح له الحق وعرف منشأ الغلط الذي ارتكبه كثير من جهابذة النقاد والنظار في استبعاد جواز النسخ والتردد فيه وعرف أن منشأه ما أصلوه واصطلحوا عليه مما أوجب لهم الحيرة «وعلى نفسها جنت براقش» وماضيقوه مما وسعه الله فعليهم «لا علينا»

وبما ذكرناه من التيسير والتوسعة في هذا الدين تظهر بعض حكمة بقاء هذا الدين الى آخر الابد ولزوم انه دين عامة البشر وانه وحي يوحى ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه شرع على لسان من لا ينطق عن الهوى. اللهم احينا عليه و به وامتنا متمسكين به يا ارحم الراحمين (الكلام بقية)

الجامعة المصرية

﴿ وهبة حسن بك زايد ﴾

نام مشروع هذه المدرسة زمناً طويلاً وشغل الناس عنها ما أصيبت به البلاد من العسرة المالية. ثم اختير للجنة التأسيس الامير أحمد فؤاد باشا رئيساً عاملا فجد واجتهد مع اللجنة فهب المشروع من نومه حتى تقرر ان تفتح أبواب الجامعة في أواخر هذا العام لتدريس آداب اللغات العربية والانكليزية والفرنسية وتاريخ مدنية الإسلام

وكان احياء هذا العمل بأمرين لولاهما ما تيسر الشروع فيه (أحدهما) أمر الأمير بأن يخصص للجامعة خمسة آلاف جنيه كل سنة من الأوقاف الخيرية (ثانيهما) تبرع حسن بك زايد من أهل الثراء في مديرية المنوفية بوقف خمسين فداناً وكسور من أطيانه الجيدة على الجامعة

وقد احتفل في السادس عشر من هـذا الشهر بتلاوة الوقفية في داره ببلده فأجاب الدعوة إلى هـذا الاحتفال كثير من الوجهاء وأصحاب الصحف العربية والأفرنجية يتقدمهم الأمير أحمد فؤاد وأعضاء لجنة الجامعة

و بعد أن افتتحت الحفلة بتلاوة آيات من القرآن الكريم تلا حسين رشدي باشا مدير الأوقاف خطبة للأمير فؤاد باشا رئيس لجنة الجامعة بالنيابة عنه وهي تتضمن الثناء على حسن بك زايد و بيان ان الجامعة صارت قادرة بعد هبته هذه على الظهور في عالم الوجود .

ثم تلا حفني بك ناصف ناموس لجنة الجامعة (سكرتيرها) الوقفية . وقا ، بعده الدكتور علوي باشا فألقى خطبة في تقدم الأمم بالعلم والحث على التبرع للجامعة . ولا غرو فقد كان الدكتور ممن ا كتتب لها بألف جنيه فهو ما قال الا وقد فعل .

ثم قام من بعده قاسم بك أمين نائب رئيس اللجنة العامل وألقى خطبة نفيسة أودعها من الفوائد الاجتماعية ما يقتضيه المقام ، وما يناسب الحال العامة بمصر في هـذه الأيام ، ولعلها آخر ما دونه بقلمه من المنشآت الجميلة فقد وافته منيته بعدها بأيام معدودات ، واننا ننشرها لما فيها من الفائدة وهذا نصها :

أيها السادة

في هذه الايام (١) التي كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمكاتب والمستشفيات وغير ذلك ولا يمد يديه لمساعدتها ويحمل جزء من مغارمها الا عدد قليل من سكان العاصمة أرى ان عمد البلاد وأعيان الاقاليم هؤلاء الذين يصح أن أسميهم منكوبي المشروعات الخيرية هم أحسن أبناء وطننا و يستحقون ثناء الامة واعجابها .

وفي الحقيقة ان كل مشروع قام به الافراد في بلادنا كان الفضل في نجاحه راجعا على الاكثر الى سكان الارياف فانهم وهبوا من الحياء الطبيعي ما يجعلهم يخجلون من رفض أي مساعدة تطلب منهم وعندهم من كرم الاخلاق ما يدفعهم

(١) الظرف متعلق بقوله « أرى ان عمد البلاد » الخ وقوله ولا يمد يديه الخ اعتراض و يوشك ان يكون في الكلام تحريف

الى بذل المال حتى اذا لم يكن في حيازتهم لتعضيد الاعمال النافعة

طبيعة شريفة وكرم جميل وسهولة أخلاق محبوبة ولكن أستسمحكم اذا قلت ان هذه الصفات كانت تفيد اكثر مما أفادت لو كانت الادارة التي تديرها أكثر اعتدالا في حركتها وأكثر تمييزاً في تأدية وظيفتها واذا أردت التوسع أقول ان أهل البر في بلادنا على العموم لا يعرفون كيف يصرفون أموالهم

أيها السادة . ان عمل الخير حسن على كل حال ولكن أحسن منه وضع الخير في محله .

لو كان المحسنون يوجهون ارادتهم الى احياء أمتهم وتعظيم وطنهم اكثر من اهتمامهم بشراء الزهور وتشييد القبور واضاءة الاضرحة — لو كانوا يجودون للاعمال بنسبة الخير المنتظر منها لكانت الجامعة المصرية اليوم كأمثالها في البلاد الاخرى أغنى جمعية في هذا القطر . ولكنها أفقرها جميعاً

من التبرعات الجسيمة التي تحصل سنوياً في هذا القطر على شكل هبة أو وقف من كل هذا المال الذي يصرف في وجوه قليلة النفع او غير نافعة كان نصيب الجامعة شيئاً قليلا لا يذكر

ولولا أن عناية الجناب الخديوي أدركتها ومنحتها مرتبا سنويا قدره خمسة آلاف جنيه لرأينا في هذا العصر الذي تعده الجرائد والخطباء والشعراء مبدأ النهضة الوطنية وتتغنى فيه بمدح الشعور الوطني على نغمة تطرب السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم أيضاً — في هذا العصر الذي نريد ان نجعله حداً فاصلاً بين ماضينا ومستقبلنا ونطلب أن تتحقق فيه أمانينا العزيزة — في هذا العصر لولا ان أدركتها هذه العناية العظيمة لرأينا شيئاً محزنا مخجلا وهو ان أنفع مشروع ظهر في مصر ولد فيها ميتا .

ولكي يكون الاعتراف بالحق تاماً لا استطيع ان امنع نفسي من التصريح بشيء يجتهد دائماً دولة الامير الذي يرأس هذه الحفلة أن يخفيه لشدة تواضعه وهو انه من اليوم الذي قبل فيه أن يشرف لجنة ادارة الجامعة برئاسته لها وصار في مقدمة العاملين فيها تحققنا ان النجاح صار مضموناً .

أيها السادة : إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها

عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الامم وفتحوا البلاد ولم نسمع انهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم فيحسن بنا أن نقتدي بهم ونهجر القول ونعتمد على العمل

اذا أردنا ان ننفع بلادنا ينبغي علينا قبل كل شيء ان ننظر الى انفسنا ونعرف قيمتنا ونزن قوتنا وندرس اسباب تأخرنا ثم نسعى ونعمل لتحسين حالنا

يجب علينا ان نفهم ان مسألتنا الاجتماعية ليست شيئاً وجد بالصدفة او يتغير بمعجزة بل انها كسائر القضايا العلمية مسألة تحليل وتركيب وان لتكوين ونمو الجمعيات الانسانية أسباباً عديدة ترتبط بالدين والشرائع والاخلاق والاقليم والجنس واللغة وطرق التربية فتغيير الحال الاجتماعية انما يكون بتغيير الاسباب التي اشتركت في تكوينها

فكل ما يكتب ويعمل ويقال في هذا الموضوع هو خير مبارك منتج وما عداه فهو تعب ضائع

أيها السادة : إن من أهم اسباب انحطاط الامم وارتقائها طرق التعليم والتربية وإذا نظرنا الى ما يجري عندنا وجدنا ان التعليم الموجود الآن لا يصلح الا لإعداد موظفين او اصحاب فن يحترفون به القيام بحاجات الحياة التي لا يستغنى عنها كالطب والهندسة والمحاماة وهذا التعليم يوزع في مدارسنا على الطلبة بمقدار معلوم لا يزيد عن الغاية التي وضع لاجلها

تلك هي خطة الحكومة في التعليم وقد حذا حذوها اصحاب المدارس الخصوصية والحكومة تعترف بأن هذا القدر من التعليم غير كاف ولكنها اضطرت الى عدم التوسع فيه للاسباب التي شرحتها في تقاريرها العديدة وأهمها كما تعلمون هي مسألة المال

وفي الحقيقة انه لا توجد حكومة في العالم تستطيع أن تتولى بنفسها أمر التعليم العام بجميع فروعه ودرجاته واذا نظرنا الى ما يجري في البلاد المتمدنة نجد ان القسم الاعظم من التعليم في يد جمعيات علمية هي المؤسسة والمديرة لنظامه وان عمل الحكومة فيها محصور في تعضيدها ومساعدتها على قدر الامكان

هذا هو الذي حمل الحكومة المصرية على استنهاض همة الاهالي لنشر التعليم الابتدائي وهذا ما دعانا أيضا الى ان نطالب من أبناء وطننا ان يفكروا في نشر التعليم العالي وان يبذلوا ما في وسعهم في سبيله ليكمل نظام التعليم في بلادنا ويصبح وافياً بجميع حاجات الامة

ايها السادة : نحن لا يمكننا ان نكتفي الآن بان يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة بل نطمع ان نرى بين ابناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول . فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم . نود ان نرى من ابناء مصر كما نرى في البلاد الاخرى عالماً يحيط بكل العلم الانساني واختصاصياً أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به . وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة . وكاتباً ذاع صيته في العالم . وعالماً يرجع اليه في حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون

أيها السادة : اذا نظرنا الى طائفة المتعلمين في مصر وهم متخرجو المدارس العالية نجد انهم يعملون على مبدإ « اكسب كثيرا واتعب قليلا » ولا نجد فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذي تحتل شهوة العمل في قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته ولا تقبل منافساً أو منازعاً أو شريكاً أو ضيفاً بجانبها . وانما نجد افراداً قليلين جداً يصرفون وقتا قصيراً من حين إلى حين لتكميل معارفهم ولكنهم مجردون عن تلك الحمية تلك النار التي تشعل القلب والشعور والتي بدونها لا تبحث النفس عن تجديد العمل ولا تطلب الارتقاء إلى المراتب السامية

ألا يظهر لكم مثلي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لإحساسه وان أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة . أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون في

مصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو عالماً حكيماً أو ولياً طاهراً أو نبياً كريماً

أيها السادة : ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب ان نفكر في إزالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج في جميع أمورنا حتى في الأشياء التي بطبيعتها يجب ان تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب . وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا من هذه الجهة تغيراً محسوساً إلا إذا تم اصلاح العائلة المصرية

هل يجوز أن يؤخذ من اعترافنا هذا اننا نخشى أن الجامعة المصرية إذا فتحت أبوابها لا تجد طلاباً للعلم ؟ سمعت هذا الاعتراض واعتقادي التام انه وهم باطل. نحن اذا كنا نأسف لعدم بلوغ حب التعلم الدرجة التي نتمناها له فليس معنى ذلك أنه مفقود في بلادنا . حب التعليم موجود ووجد في بلادنا من قديم الزمان ولا يزول عن أرضنا أبداً ! وتاريخ مصر الحديث يثبت بأقوى البراهين أن حب التعليم كان ولا يزال ينمو في نفوس أمتنا من عهد المرحوم محمد علي باشا إلى الآن ولي أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سبباً في ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال . وما حالة القلق والاضطراب التي نلاحظها فيها الآن الا انذار مطمئن يدلنا على أنها مملوءة بقوة عظيمة تطلب ميداناً تتصرف فيه لتتمتع بالتوازن اللازم لصحتها

هذا هو البناء الفخيم الذي يحب أن الأمة المصرية تشيده بيدها ليبقى أثراً خالداً في هذا القطر وشاهداً على حسن استعدادها للنمو العقلي والرقي الأدبي فكل من وضع حجراً في هذا البناء يخدم أمته أجل خدمة . فشكراً للسابقين وشكراً للاحقين في هذا العمل الصالح . واني أرى في الصف الأول من صفوف المحسنين المتبصرين الذين يعرفون كيف يصرفون أموالهم في سبيل الخير رجلين قاما بما يجب عليهما وهما حضرة أحمد بك الشريف وصاحب هذه الدار الكريمة اهـ

باب الأخبار والآراء

مصاب مصر بقاسم بك أمين

يموت كل يوم خلق كثير فيخلفهم مثلهم فتمسي الأمة وتصبح وكأنها لم تفقد أحداً . ولكن في الناس أفراداً امتازوا بالمزايا النادرة في قومهم فأولئك اذا مات الواحد منهم يشعر أهل البصيرة من أمتهم بأنهم فقدوا من لا يقوم مقامه غيره ولا يعمل عمله سواه . ومن هؤلاء الأفراد من فقدته مصر اليوم ألا وهو قاسم بك أمين القاضي بمحكمة الاستئناف الأهليــة ونائب رئيس إنشاء الجامعة المصرية ومؤلف كتابي « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » — اغتالته المنية فجأة (في ٢١ من هذا الشهر) فلم تنذره بمرض ولا سقم بل لم تنذر عقلاء البلاد ليعدوا لهذا الخطب عدته ، ويأخذوا المصاب بأهبته ، بتوطين النفس على الصبر ، وتوجيه قواها الى الجلد أو التجلد ،

امتاز قاسم بك أمين بمعظم المزايا التي تعوز المصريين في سبيل الحياة الاستقلالية التي ولوا وجوههم شطرها

امتاز باستقلال الفكر وجودة الرأي وصفاء الذهن وسعة الخيال وقوة الإرادة والعدل في الحكم والوفاء في الصداقة والإخلاص للبلاد وكان مع هــذا من علماء الحقوق والاخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية وقد وجه همته في السنين الاخيرة الى فرع من فروع هذه العلوم وهو ترقية البيوت (العائلات) بتعليم النساء وتهذيبهن فلم يكتف بكتابيه فيه بل جعله همه الأكبر الى أن وافته منيته ولسانه رطب بذكر تهذيب النساء وتمدينهن وتمني مشاركة الفتيات المصريات للفتيان في محافل العلم والأدب. قال ذلك في خطبة فرنسية ألقاها في نادي المدارس العليا قبل وفاته بساعة أو ساعتين

كان قاسم بك أمين يعد في استقلاله وفي الحرص على ترقية بلاده من طبقة يعد رجالها على الانامل وهم أصدقاء بعضهم لبعض ، مات إمامهم وكبيرهم فكر

أكثرهم على أثره : مات الأستاذ الإمام فتلاه صديقه علي بك فخري أحد أركان النهضة الوطنية العاملين في ترقية القضاء والمحاكم الأهلية فحسن باشا عاصم المصلح في القضاء وفي المعية ، وقطب إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، فحسن باشا عبد الرازق الذي كان في مجلس الشورى هو الثنيان ، بعد البدء الذي هو الاستاذ الإمام ، وهذا قاسم بك أمين خامسهم فلا غرو اذا تفاقم بالرزيئة به الخطب ، وعظم على البلاد به الكرب ، فانه كاد يتحقق به قول الأستاذ الإمام ، ان الأمة مصابة بالعقم وقحط الرجال ، فللأمة ان تتمثل اليوم بقول ابن النبيه :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

فقد كنا نقول ان هذا البيت من الشعريات ، وصرنا نقول اليوم انه من المشاهدات ، ولا ننسى ان مصر فقدت أيضاً في هذه المدة القليلة الشيخ أحمد أبا خطوة نابغة الأزهر وابراهيم بك اللقاني الذي كاد يكون في آخر عمره منسياً لحيلولة المرض بينه وبين العمل وهو في مقدمة كتاب مصر وخطبائها ومن أركان النهضة الجمالية الأولى فيها وكان كلا الرجلين من أصدقاء الأستاذ الإمام أيضاً فيا لله ما كان أشأم فقده على هذه البلاد فقد ذكرني بما تتابع بعده من فقد خيار الرجال قتل عمر بن الخطاب إذ فتح على المسلمين باب الفتنة في السلطة فقتل بعده عثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين)

كمل للأستاذ الامام قوة الفكر والنظر ، مع القدرة والمرانة على القول والعمل ، وكان حسن عاصم أقوى في العمل ، منه (اي من نفسه) في القول والنظر ، وأما قاسم أمين فكان نظرياً ، أكثر مما كان عملياً ، فكان يسبح في بحر لجي من الفكر ، ويطير في جو واسع من الخيال ، فيؤلف بين الحكم العقلية ، وبين التخيلات الشعرية ، فلهذا كان لمكتوبه من التأثير وقوة الجاذبية ، ما تجده في مقدمة كتاب العربية ، على قلة اشتغاله بفنونها ، وتحصيلها ، وما ذاك الا ان كلامه يشبهه في كون روحه أكبر من جسمه ، ومعناه يفيض الجمال على صورته ، حتى كاد يكون فكراً مجرداً ، أو خيالا متوهما ، كان قاسم من الهائمين في رياض الجمال المعنوي فكان ذلك يرفعه أحياناً عن عالم المادة وما فيه النصب واللغوب والمصائب في المال والولد والصديق فيهون عليه

ما أصابه من ذلك وفيض عليه الجلد والصبر ، ويخيل لي ان لوطال عمره ، وقل عمله ، واستراح باله ، لانتهى أمره بفلسفة عالية تظهر على لسانه ، وتفيض من قلمه ، فتروي أرض مصر بالحكم الجليلة ، في غلائل من الشعريات الجميلة ، وناهيك بما في اجتماع الحكمة والشعر ، من تربية الشعور والفكر ،

على ان ماقي هذه الطريقة من الخطإ في الحكم قد يعسر انتزاعه ممن تمكن فيه فإن الفكر يتحد فيه مع الوجدان ، اتحاداً يقل أن يفيد معه البرهان ، لذلك كان لقاسم آراء في فلسفة الأديان ، ومستقبل الانسان ، تعد عند المنطقي من الخياليات ، وهو يراها من الحدسيات أو الوجدانيات ،

كان فقيد مصر اليوم من أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الأولين ولكن خدمته لها كانت بالرأي لا بالعمل ، أما العمل الذي كان يتوق اليه ، ويتمنى لو يتيسر له ، فهو ان يؤسس ولو بماله — ان وجد المال — مدرسة لتربية البنات المصريات على ما يحب ويرى انه يرقي هذه البلاد ،

كان قاسم كنزا مخفيا لا يعرفه الا اصدقاؤه وكان اول شيء عرف به في عالم الادب رده على الدوق دركور فيما كتبه من الانتقاد على البيوت بمصر لا سيما مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات . كتب الدوق في ذلك كتابا باللغة الفرنسية فرد عليه قاسم باللغة الفرنسية وقد ذكر لنا غير واحد ان عبارته في رده كانت كعبارة كتاب فرنسا البلغاء . وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرة وحماسة وقد بين فيه ما للحجاب من الفائدة وشنع على ما في اوروبا من التبذل والتهتك وتجارة الاعراض

واخبرني قاسم انه كان يوم اطلع على ما كتبه الدوق دركور غافلا عن حال النساء بمصر فالمه ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد بوجدان الغيرة و بعد أن شفى غيظه وارضى غيرته بذلك عاد الى نفسه وفكر في الامر فرأى ان كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك الى درس هذه المسألة قائلا في نفسه انه لاينفعنا اذا كان العيب فينا ان نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وانما يجب علينا ان نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى في ازالته . وطفق يبحث ويسأل ويفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الافرنج في شأن النساء

واتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف (كتاب تحرير المرأة) الذي هز مصر هزة شديدة وشغل جرائدها في تقريظه وتفنيده زمنا طويلا وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعا الى التصنيف في الرد عليه وبذلك طار صيت قاسم بك أمين في الآفاق وعرف اسمه في الشرق والغرب وعد من المصلحين الاجتماعيين

ثم ألف كتابه (المرأة الجديدة) لتعزيز رأيه وتفنيد آراء خصومه فكان دون كتاب تحرير المرأة مادة وفائدة وتحريرا وتأثيرا على انه فوقه صراحة في المقصد وحرية في القول المخالف لرأي الجمهور وميله

وقد تولى في السنتين الأخيرتين من عمره الاشتغال بتأسيس «الجامعة المصرية » فلم يدخر وسعا ، ولم يأل جهدا ، وكان مناط الأمل ، في إنجاح هذا العمل ، وأي مصاب ترزأ به البلاد أشد من فقد رجالها عند ما يتم استعدادهم ، ويكمل رشادهم ، وتعرف الناس قيمتهم ، ويشرعون في الاعمال الكبيرة ، التي يرجى نهوضهم بها ، وينتظر نجاحهم فيها ؟ ؟ فهذا ما ضاعف الحزن على فقيد مصر اليوم

حزن العقلاء على قاسم لذاته وما تحلت به ذاته من المزايا العالية ، وضاعف حزنهم عليه أن كان مصاب البلاد به قريب العهد بمصابها بأصدقائه من رجال الاستقلال ، وما يرقي الامة من الأعمال ، وضاعفه مرة أخرى أن كان في الوقت الذي بدأ فيه بعمل عظيم ، وأنشأت الناشئة تعرف من فضله ما يعرف الكهول والشيوخ من أهل المعرفة والفضل

يموت الرجل فيبكيه الاهل ويندبه النساء ولكن قاسما أبكى عظماء الرجال ، وأقدرهم على التجلد والاحتمال ، وندبه مثل سعد باشا زغلول وفتحي باشا زغلول وإنما ارادا ان يؤبناه فكان تأبينهما ندبا وتعدادا ، وبكاء ونشيجا ، أبكى معهما جميع من بلغ القبر من المشيعين ، وذلك مالم يعهد لسواه من الميتين

وجملة القول فيه انه يصدق عليه ما قاله هو في تأبين الأستاذ الامام من أنه لا يوجد في الأمة من يملأ الفراغ الذي كان يشغله ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن عزاء أهله وأصدقائه ووطنه فيه ،

مصافحة السوريين للمصريين

يوجد في مصر الأوربي من انكليزي وفرنسي الخ والأمريكي والهندي والفارسي والارمني والمغربي من تونسي وجزائري ومراكشي والعثماني من تركي وكردي وعربي ومن العرب الحضرمي واليمني والحجازي والعراقي والسوري . ولم نر صنفاً ممن ذكرنا وممن لم نذكر من الأصناف أقرب إلى المصري من السوري فهو جار له في بلاده وموافق له في لغته وأكثر عاداته مع كونه عثمانياً مثله ولكننا على هذا كله لم نر المصري في مناظرة أو منافسة مع صنف من أصناف البشر الذين تضمهم بلاد مصر إلا مع السوري فما هو سبب ذلك ؟

يرى من دقق النظر ان السبب في هذا هو ذلك القرب نفسه فان السوري لما كان صنوا المصري امتزج به امتزاج الماء بالراح وشاركه في عامة شؤونه من مأكله ومشربه ولهوه وجده وهزله فما من سوري في هذا القطر إلا وله من الأصدقاء المصريين مثل ماله من السوريين أو أكثر ومن طبيعة المنافسة ان تكون بين الخلطاء مالا تكون بين البعداء فالأفراد ينافسون اخوتهم وأقاربهم وجيرانهم ، وأهل البلد ينافسون أقرب البلاد اليهم وكذلك أهل المديريات فأهل الأقطار فأهل الممالك

قد كانت المنافسة الأولى بين المصريين والسوريين في أعمال الحكومة ثم ضعفت أو تلاشت وخلفتها المنافسة في الصحافة أو السياسة . كانت بين المقطم والمؤيد ثم بين المقطم واللواء وحقيقة هذه المنافسة انها منافسة أفراد لا أصناف اذ رأي المقطم في السياسة ليس هو رأي السوريين وإنما هو رأي أصحابه وأول من قارعهم فيه صاحب جريدة الاهرام من السوريين . ولكن اللواء كان يرد عليهم من حيث انهم سوريون ودخلاء فكان ذلك من قبيل تعليق الحكم بالمشتق وهو كما قال علماء الاصول يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق . أعني ان رد اللواء على أصحاب المقطم من حيث هم منسوبون إلى سوريا ودخلاء في مصر يفيد أن علة

ما يرميهم به من خيانة مصر هو كونهم سوريين . فلو كان الامر كما يدعي — وهو ليس كذلك — لكان كل سوري خائنا لمصر او لكان مجموع السوريين كذلك . وهذا باطل لانه مبني على اصل باطل ولكنه سرى في اوهام كثير من الناس لا سيما الاغرار . وهذا ماعناه حافظ بقوله

ولا اناس تغالوا في سياستهم منا ومنهم فلا لمنا ولا عتبوا

ونحمد الله ان كلا من المقطم واللواء اللذين يعنيهما حافظ قد رجع — مع اصراره على أنه كان حسن النية — عن الخطة التي كانت تمد غلوا وكادت تجعل المنافسة بين جريدتين سببا للتعادي بين شعبين كل منهما صنو للآخر وشريك له في كل مقومات الحياة حتى أوشك ان يصدق في ذلك ماقيل من ان سوء التفاهم كثيرا مايكون اضر من سوء التقصد

لقد حسن في هذه الفرصة ماقام به سليم افندي سركيس من تأليف جمعية من خيار السوريين علما وأدبا وجمع طائفة من النقود منهم ومن غيرهم من السوريين بالاكتتاب لاجل دعوة جماعة من خيار المصريين علما وأدبا الى الاحتفال باسم السوريين لاكرام حافظ افندي ابراهيم الشاعر المصري الشهير

ولما كان الغرض من هذه الحفلة موادة السوريين المصريين كانت الخطب والقصائد التي اشرنا اليها في الجزء الماضي ممثلة لذلك احسن تمثيل وقد وقع ذلك موقعه الذي يستحقه فأثنت الصحافة المصرية كلها كالصحف السورية على سليم افندي سركيس وأيدت الغرض من الاحتفال بالكلم الطيب في التأليف بين العنصرين اللذين هما بمنزلة الاخوين

(تصحيح غلط) في السطر ١٦ من ص ١٢٤ « وعن محلهقبل كلمة « غمغمة » بينها وبين الواو فصير « وعن غمغمة » قضاعة الخ وفي السطر الخامس من ص ١٢٥ من الجزء الماضي « عدوه غريبا » وقد سقط من قبلها هذه الجملة « عدوه فصيحا وما كان قليل الدوران على ألسنتهم » . وفي هذا الجزء أغلاط مطبعية أخرى مدركة ككلمة « محمده » في س ١٧ ص ٩٣ وصوابه « محمد عبده » ومنها كلمة « اذا » في س ٣ ص ١٠١ وصوابها « إذ »

الفصل الرابع (*

(مقام النساء في قوم خديجة)

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاما مهينا بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة انهم كانوا يكرهون البنات وانهم كانوا يئدونهن أي يدفنونهن في التراب وهن على الحياة (١٦ : ٥٨ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار ، وفيها الحمق واولو الألباب ، وفيها القساة وأهل المرحمة. فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمق او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لأعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمق وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

(*) من رواية خديجة ام المؤمنين

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعني الوأد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يئدون البنات . ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد ، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واما الذى نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لا يذكرون من فقرائهم او حمقائهم او قساتهم

ولم يكن الذين يئدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظاً من هذه النسمات البريئة او احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لاول وهلة بل كان يسوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان الخيال الفاسد ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرموهن بنفقة تساويهن بأترابهن من ذوي قرباهن او جواراتهن ، فيرون مواراتهن في التراب خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب ،

لا نكران الحق ان هذا خيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمانه الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هي كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب الفؤاد ولوقد من الجلمود، وكرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور السود، فيزين له خياله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي بلاها فقلاها وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام حين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم الكي آلام سقم مزمن

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما وقعت في يدمن لا يرعى لهاولها حرمة. ولو قضي على كل البشر بمثل هذه الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الموجد لم يشأ الا ان تكون الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوساوس سلطانا على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغ تناشيء عنهم من هذا القبيل

ساء مايزين لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع نصيبهم من الفقر والحمق فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكراً في بيوت معينة واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة، وان قيمة كل امرىء مايحسنه، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له مايقوم به شأنه، لما سهل عليه ان يقصف بيديه غصناً منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان وشر أقصى درجات الخسران لرأى انه جدير بالبكاء على حظه من ضعف النفس

وهيهات ان يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ وأنى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الحرب من غير ماطلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنت تظل طول دهرها مكروهة او ان النساء لاقيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم. ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقائهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما إجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى آباؤهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزّون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل مالهنّ من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفسا كنفس ذلك الانسان المذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هندا بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال «اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعك، وان ملت عنه حط اليك، تحكمين عليه في أهله وماله، واما الآخر فموسع عليه،

منظور اليه، في الحسب الحسيب، والرأي الاريب، مدره أرومته، وعز عشيرته، شديد الغيرة، لا ينام على ضيمة، ولا يرفع عصاه عن أهله »(*)

فقالت يا أبت الاول سيد مضياع للحرة فما عست ان تلين بعد إبائها، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت، وخافها أهلها فأمنت، فساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فان جاءت بولد أحمقت، وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بعد، وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة، الحرة العفيفة، واني لاخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه، فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودواهيهم

فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا «خديجة» لا يفتات أهلها عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والركانة منهن

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والامور العمومية، وناهيك أن الحرب التي ظلت مستمرة نحواً من اربعين سنة بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بيهسة بنت أوس ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري وأراد ان يدخل عليها قالت اتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضا تعني بني عبس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقولين قالت «اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع الي» فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديات من أموالهم

(*) كناية عن اليقظة

وحسبك من اشتهر من العربيات في السياسة منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشتر الهمدانية، وبكارة الهلالية، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية، وام سنان بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية، وام الخير بنت الحريش بن سراقة البارق. وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية.

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين. قال لها انت القائلة لاخيك:

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر علياً والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد(*) ... علم الهدى ومنارة الايمان
فقِدِ الجيوش وسر أمام لوائه ... قدما بابيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين «مات الرأس، وبتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نسي» فقال «هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى» قالت «صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وان صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وبالله اسألك يا امير المؤمنين اعفائي مما استعفيته» قال: قد فعلت فقولي حاجتك: فقالت يا امير المؤمنين «انك للناس سيد، ولأمورهم

(*) اخوة الدين

مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة ، هذا ابن ارطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فاما عزلته فشكرناك ، واما لا فعرفناك » فقال معاوية « اياي تهددين بقومك والله لقد هممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الإله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك : قالت : علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوما في رجل ولاّه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » اذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة ام لقومي عامة » فقال « ما

انت وغيرك » قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً والا يسعني ما يسع قومي » قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية ايضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه وكان بحضرته عمرو بن العاص ومروان وسعيد بن العاص فجعلوا يذكرونه بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت « أنا والله قائلة ماقالوا وما خفي عنك مني أكثر » فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك

وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال « مرحبا قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك ؟ » فقالت بخير يا أمير المؤمنين ثم قال لها « ألست الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك ؟ » قالت يا أمير المؤمنين « مات الرأس وبتر الذنب ، ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر » قال لها « تحفظين كلامك يومئذ ؟ » قالت « لا والله لا احفظه » قال لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها والله يا زرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه » قالت « احسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه » قال « أو يسرك ذلك ؟ » قالت « نعم والله » فقال « والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك » فقالت يا امير المؤمنين آليت على نفسي ان لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا . ومثلك من أعطى من غير مسألة . وجاد عن غير طلبة » قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

ووفدت عليه ايضا ام سنان بنت جشمة، وعكرشة بنت الاطرش، ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها « بعثت اليك لاسألك علام أحببت عليا وابغضتني، وواليته وعاديتني ؟ » فاستعفته فلم يفعل فقالت له « احببت عليا على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر، وطلبتك ما ليس لك بالحق، وواليت عليا على حبه المساكين، وإعظامه لاهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى » ثم قال لها: ياهذه هل رأيت عليا؟ قالت « أي والله » قال فكيف رأيته؟ قالت « رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت « نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست » قال صدقت فهل لك من حاجة قالت « نعم تعطيني مئة ناقة حمراء » قال ماذا تصنعين بها قالت « أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر » قال « فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن ابي طالب ؟ قالت « سبحان الله أو دونه » فقال « اما والله لو كان علي حيا ما أعطاك منها شيئاً » قالت « لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين »

وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم

فهكذا كان مقام المرأة العربية من أخوات سيدتنا القرشية، وهكذا كان حظهن من الفصاحة والحصافة، ومبلغهن من المشاركة في الامور العمومية والاخذ بالاسباب، والمشايعة لبعض الاحزاب، وما أتينا الا باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

مجلة المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء الرابع والخامس

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

ومن يؤت الحكمة فقد أوتي
خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر السبت ٢٩ ربيع الآخر ١٣٢٦ — ٣٠ مايو (أيار) سنة ١٩٠٨ ﴾

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لإجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، وإننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

ترجمة القرآن

(س) من الشيخ حسن شاه افندي احمد (بروسيا)

حضرة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا

نرجو ان تميروا جانب الالتفات لهذه المسألة المهمة :

ذكر الفاضل أحمد مدحت افندي من علماء الترك العثمانيين في كتابه « بشائر صدق نبوت » ما ترجمته :

ان ترجمة القرآن مسألة مهمة عند المسلمين وجميع المباحثات التي دارت بشأن ترجمة هذا الكتاب المجيد لم ترس على نتيجة وذلك لوجوه (الاول) ان ترجمته بالتمام غير ممكنة لإعجازه من جهة البلاغة (والوجه الثاني) ان فيه كثيراً من الكلمات لا يوجد لها مقابل في اللغة التي يترجم اليها فيضطر المترجم الى الاتيان بما يدل عليها مع شيء من التغيير ثم اذا نقلت هذه الترجمة الى لغة أخرى يحدث فيها شيء من التغيير أيضاً وهلم جرّا فيخشى من هذا ان يفتح طريق لتحريف القرآن وتغييره (الوجه الثالث) أن كلمات الكتب السماوية يستخرج منها بعض إشارات وأحكام بطريق الحساب فإبدالها بالترجمة يسد هذا الطريق . مثال ذلك أن سعدي جلبي كتب في حاشيته على البيضاوي عند تفسير سورة الفاتحة انه اذا اخرجت الحروف المكررة من سورة الفاتحة التي هي اول القرآن وسورة الناس التي هي آخر سوره تكون الحروف الباقية ثلاثة وعشرين . قال : في ذلك إشارة الى مدة سني النبوة

المحمدية » فاذا ترجم القرآن لايبقى في الترجمة مثل هذه الفوائد التي هي من جملة معجزاته انتهى « من بشائر صدق نبوت »

أما أدباؤنا معشر الترك الروسيين فانهم مصرون على ترجمته ويقولون لامعنى القول بانه لاتجوز ترجمة القرآن الا ايجاب بقائه غير مفهوم فلذا يذهبون الى وجوب ترجمته وهو الآن يترجم في مدينة قزان وتطبع ترجمته تدريجا وكذلك تثبت بترجمته الى اللسان التركي زين العابدين حاجي الباكوي أحد فدائية القفقازفنرجو من حضرة الاستاذ التدبر في هذه المسألة   حرره الامام الحقير أحسن شاه أحمد

الكاتب الديني السماري

(ج) ان من تقصير المسلمين في نشر دينهم ان لايبينوا معاني القرآن لاهل كل لغة بلغتهم ولو بترجمة بعضه لهم لاجل دعوة من ليس من اهله اليه وارشاد من يدخل فيه عند الحاجة بقدر الحاجة . وان من زلزال المسلمين في دينهم أن يتفرقوا الى امم تكون رابطة كل امة منها جنسية نسبية او لغوية او قانونية ويهجروا القرآن المنزل من الله تعالى على خاتم رسله المعجز بأسلوبه وبلاغته وهدايته المتعبد بتلاوته اكتفاء بأفراد من كل جنس يترجمونه لهم بلغتهم بحسب مايفهم المترجم

هذا الزلزال أثر من آثار جهاد أوربا السياسي والمدني للمسلمين . زين لنا ان نتفرق ونتقسم الى اجناس ظانا كل جنس منا ان في ذلك حياته وما ذلك الا موت الجميع . ولا نطيل في هذه المسألة هنا ولكننا نذكر شيئا مما يخطر في البال

أسيهجر المسلمين القرآن المنزل « بلسان عربي مبين » استغناء عنه بترجمة أعجمية يغنيهم عنها تفسيره بلغتهم مع المحافظة على نصه المتواتر المحفوظ من التحريف والتبديل مع مراعاة الاختصار فنقول

(١) إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الاصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن وإنما هي فهم رجل القرآن يخطئ في فهمه ويصيب ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذي ننكره

(٢) إن القرآن هو أساس الدين الاسلامي بل هو الدين كله اذ السنة ليست

دينا الا من حيث انها مبينة له . فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم مافهمه مترجم القرآن لهم لانفس القرآن المنزل من الله على رسوله محمد (ص) . والاجتهاد بالقياس إنما هو فرع عن النص والترجمة ليست نصا من الشارع ، والاجماع عند الجمهور لا بد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستندا . فعلى هذا لا يسلم لمن يجعلون ترجمة القرآن قرآناً شيء من اصول الإسلام

(٣) ان القرآن منع التقليد في الدين وشنع على المقلدين فأخذ الدين من ترجمة القرآن هو تقليد لمترجمه فهو إذاً خروج عن هداية القرآن لا اتباع لها

(٤) ويلزم من هذا حرمان المقتصرين على هذه الترجمة مما وصف الله به المؤمنين في قوله (١٢ : ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني) وامثالها من الآيات التي تجعل من مزايا المسلم استعمال عقله وفهمه فيما انزل الله

(٥) وكما يلزم حرمانهم من هذه الصفات العالية يلزم منع الاجتهاد والاستنباط من عبارة المترجم لأن الاجتهاد فيها مما لا يقول به مسلم

(٦) ان من يعرف لغة القرآن وما يحتاج اليه في فهمه كالسنة النبوية وتاريخ الجيل الاول الذي ظهر فيه الاسلام يكون مأجورا بالعمل بما يفهمه من القرآن وإن أخطأ في فهمه لأنه بذل جهده في الاهتداء بما أنزله الله هداية له . كما يعلم ذلك من معاملة النبي (ص) لاصحابه فيما فهموه من كيفية التيمم اذ عذر المختلفين في فهمها والعمل بها ومثله معاملته لهم فيما فهموه من نهيه عن صلاة العصر الا في قريظة ولذلك شواهد أخرى . ولا إخال مسلماً يجعل لعبارة مترجم القرآن هذه المزية

(٧) ان القرآن ينبوع الهداية والمعارف الإلهية لا تخلق جدته ، ولا تفتأ تتجدد هدايته ، وتفيض للقارئ على حسب استعداده حكمته ، فربما ظهر للمتأخر من حكمه وأسراره مالم يظهر لمن قبله تصديقا لعموم حديث « فرب مبلَّغ أوعى من سامع » وترجمته تبطل هذه المزية اذ تقيد القارئ بالمعنى الذي صوره المترجم بحسب فهمه . مثال ذلك ان المترجم قد يجعل قوله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) من المجاز بالاستعارة أي ان اتصال الريح بالسحاب وحدوث المطر عقب ذلك يشبه تلقيح الذكر للانثى وحدوث الولد بعد ذلك كما فهم بعض المفسرين . فاذا هو

جرى على ذلك بان فرضنا أنه لا يوجد في اللغة التي يترجم بها لفظ يقوم مقام «لواقح» العربي في احتمال حقيقته ومجازه اذا اطلق فان القارئين يتقيدون بهذا الفهم ويتمتنع عليهم ان يفهموا من العبارة ماهي حقيقة فيه وهو كون الرياح لواقح بالفعل اذ هي تحمل مادة اللقاح من ذكور الشجر الى اناثه . فان لم ينطبق هذا المثال على القاعدة لتيسر ترجمة الآية ترجمة حرفية فان هنالك أمثلة أخرى وحسبنا أن يكون هذا موضحاً . والترجمة تقف بنا عند حد من الفهم يعوزنا معه الترقي المطلوب

(٨) ذكر الغزالي في كتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » ان ترجمة آيات الصفات الإلهية غير جائزة واستدل على ذلك بما هو واضح جداً وقد ذكرنا عبارته في تفسير (٣ : ٦ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وبين ان الخطأ في ذلك مدرجة الكفر (١)

(٩) ذكر الغزالي في الاستدلال على ما تقدم ان من الالفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها — أي ومثل الفارسية التركية وغيرها — فما الذي يفعله المترجم في مثل هذه الألفاظ وهو ان شرحها بحسب فهمه ربما يوقع قارئ ترجمته في اعتقاد ما لم يرده القرآن

(١٠) وذكر في ذلك أيضا ان من الالفاظ العربية ما لها فارسية تطابقها « لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها منها » فاذا اطلق المترجم اللفظ الفارسي يكون هنا مؤديا المعنى الحقيقي للفظ العربي وربما كان مراد الله هو المعنى المجازي ومثل الفرس غيرهم من الاعاجم . وهذا المقام من مزلات الاقدام اذا كان الكلام عن الله عز وجل وصفاته وأفعاله

(١١) وذكر أيضا في هذا المقام ان من هذه الالفاظ ما يكون مشتركا في العربية ولا يكون في العجمية كذلك . فقد يختار المترجم غير المراد لله من معني المشترك ولا يخفى ما فيه وقد مرّ نظيره آنفا

(١٢) من المقرر عند العلماء انه اذا ظهر دليل قطعي على امتناع ظاهر آية من آيات القرآن فانه يجب تأويلها حتى تتفق مع ذلك الدليل . والفرق بين تأويل

(١) راجع ص ٧٢٨ م ٩ او ٢١٤ من الجزء الثالث من التفسير

ألفاظ القرآن وتأويل ألفاظ ترجمته لا يخفى على عاقل لا سيما في الآيات المتشابهات والألفاظ المشتركة

(١٣) ان لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة واذا فات يفوت بفوته خير كثير فطالما كان جاذباً إلى الإسلام حتى قال أحد فلاسفة أوربا (وهو فرنسي نسيت اسمه) ان محمداً كان يقرأ القرآن بحال مؤثرة تجذب السامع الى الايمان به فكان تأثيره اشد من تأثير ما ينقل عن غيره من الانبياء من المعجزات. وحضر الدكتور فارس افندي نمر مرة الاحتفال السنوي لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة فافتتح الاحتفال تلميذ بقراءة آيات من القرآن فقال لي الدكتور فارس افندي ان هذه القراءة تأثيرا عميقا في النفس ثم لما كتب خبر الاحتفال في جريدته (المقطم) كتب ذلك. فاذا كان لتلاوة القرآن هذا التأثير حتى في نفس غير المؤمن به فكيف نحرم منها المسلمين بترجمة القرآن لهم

(١٤) اذا ترجم القرآن التركي والفارسي والهندي والصيني الخ فلا بد ان يكون بين هذه التراجم من الخلاف مثل ما بين تراجم كتب العهد العتيق والعهد الجديد عند النصارى وقد رأينا ما استخرجه لهم صاحب إظهار الحق من الخلافات التي كنا نقرأها ونحمد الله تعالى ان حفظ كتابنا من مثلها فكيف نختارها بعد ذلك لأنفسنا

(١٥) ان القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بل هو الآية الباقية من آيات النبيين وانما يظهر كونه آية باقية محفوظة من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف بالنص الذي نقلناه عمن جاء به من عند الله والترجمة ليست كذلك

هذا ما تراءى لنا من الوجوه المانعة من ترجمته للمسلمين ليكون لهم قرآن أعجمي بدل القرآن العربي واذا كان بعض هذه الوجوه مما يمكن ادخاله في البعض وانما ذكر هكذا لزيادة الايضاح فان هنالك وجوها أخرى يمكن استنباطها لمن تأمل وفكر في وقت صفاء الذهن وصحة البدن بل منها ما تركناه مع تذكره كاستعمال المشترك في معنيه واللفظ في حقيقته ومجازه كما حققه بعض أهل الاصول كالشافعية

اما دعوى القائلين بوجوب ترجمته أن عدم جواز الترجمة يستلزم ايجاب تلاوته غير مفهوم فهي ممنوعة فانا نقول ان فهمه سهل ولكن ليس لأحد أن يجعل فهمه

حجة على غيره فكيف يجعله دينا لشعب برمته . وإن لاهتداء المسلم الأعجمي بالقرآن درجتين — درجة دنيا خاصة بالعوام الذين لا يتيسر لهم طلب العلم فيحفظون الفاتحة و بعض السور القصيرة لأجل قراءتها في الصلاة ويترجم لهم تفسيرها، ويقرأ امامهم في مجالس الوعظ بعض الآيات ويذكر لهم تفسيرها بلغتهم كما جرى عليه كثير من الاعاجم حتى ببلاد الصين — ودرجة عليا للمشتغلين بالعلم وهؤلاء يجب ان يتقنوا لغته و يستقلوا بفهمه مستعينين بكلام المفسرين غير مقلدين لأحد منهم

ان الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام على أيدي الصحابة الكرام قد فهموا ان للاسلام لغة خاصة به لا بد ان تكون عامة بين أهله ليفهموا كتابه الذي يدينون به ويهتدون بهديه و يعبدون الله بتلاوته ولتحقق بينهم الوحدة المشار اليها بقوله فيه (٢١: ٩٢ ان هذه امتكم امة واحدة) ويكونوا جديرين بأن يعتصموا به وهو حبل الله فلا يتفرقوا ولتكمل فيهم اخوة الاسلام التي حتمها عليهم بقوله (٤٩: ١٠ انما المؤمنون اخوة) ولذلك انتشرت اللغة العربية في البلاد التي فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا اساتذة للتعليم واستمرت الحال على ذلك في زمن الامويين في الشرق والغرب وفي أول مدة العباسيين حتى صارت العربية لغة الملايين من الاوربيين والبربر والقبط والروم والفرس وغيرهم في ممالك تمتد من القاموس المحيط الغربي (الاتلانتيك) الى بلاد الهند. فهل كان هذا الإخاء الاخير اعظم تآخت فيه شعوب كثيرة وتعاونت على مدنية كانت زينة للأرض وضياء ونورا لاهلها ؟

ثم هفا المأمون في الشرق هفوة سياسية حركت العصبية الجنسية في الفرس فأنشأوا يتراجعون الى لغتهم ويعودون الى جنسيتهم، وجاء الاتراك ففعلوا بالعصبية الجنسية ما فعلوا، فسقط مقام الخلافة وتمزق شمل الاسلام بقوة ملوك الطوائف . ولكن لم تصل الفتنة بالناس الى ايجاد قرآن أعجمي للأعاجم وابقاء القرآن العربي المنزل خاصا بالعرب بل بقي الدين والعلم عربيين ووراء إمامهما الذي هو القرآن

فالواجب على دعاة الاصلاح في الاسلام الآن ان يجتهدوا في اعادة

الوحدة الاسلامية الى ما كانت عليه في الصدر الاول خير قرون الاسلام وان يستعينوا على ذلك بالطرق الصناعية في التعلم فيجعلوا تعلم العربية إجباريا في جميع مدارس المسلمين ويحيوا العلم بالإسلام بطريقة استقلالية لايتقيدون فيها بآراء المؤلفين في القرون الماضية المخالفة لطبيعة هذا العصر في احوالها المدنية والسياسية. ولكننا نرى بعض المفتونين منا بسياسة أوربا وأوربيين يعاونونها على تقطيع بقية ما ترك الزمان من الروابط الاسلامية بتقوية العصبيات الجنسية حتى صار بعضهم يحاول إغناء بعض شعوبهم عن القرآن المنزل!: ألا إنها فتنة في الأرض وفساد كبير وقى الله المسلمين شره. فهذا ما أقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون تفسيره لهم بلغتهم مع بقائه إماما لهم ودون ترجمته لدعوة غيرهم به الى الاسلام مع بيان ان المترجم يبين المعنى الذي يفهمه هو

سد يأجوج ومأجوج

(س ٢) من أمين افندي الشامي بهندسة عطبره (السودان)

فضيلة الاستاذ المرشد صاحب مجلة المنار الغراء

كنا في منزل يتلى فيه القرآن الكريم فلما جاء ذكر ذي القرنين ويأجوج ومأجوج والسد قال احد اخواني ان هذه القصة لم يظهر لها أثر تاريخي الآن مع انه صار اكتشاف ما على الارض من قبل ذلك العهد وبعده. قلت له يا اخي لعل هذا الاثر التاريخي يظهر فيما بعد ليكون معجزة القرآن على ممر الايام كما حصل في قصة فرعون فانه وعد بأن ينجيه ليكون لمن بعده آية وقد تحقق ذلك في هذه الايام. فقال يا أخي ان كلامك هذا هو جواب عليك إذ ان فرعون وخلافه آثار صغيرة جداً مدفونة تحت الارض وظهرت والسد ليس كذلك وهذا وجه استغرابي لأن سياق الآية يدلنا على انه بين جبلين كبيرين ومن حديد ونحاس ومن دونه امة كبيرة لو فتح لها ذلك السد لدوخت العالم بأسره؛ فأين هي تلك الأمة وذلك السد ورسم الكرة الارضية أمام نظري أقلب فيه فلا اجد تلك الأمة ولا ذلك السد. قلت يا أخي اني اظن ان هذه الامة هي أمة التتار والسد هو سد الصين المشهور وقد خرجت واخترقت آسيا والهند ومصر واوربا واخذت الملك من المسلمين وأتذكر

أني رأيت حديثاً في بعض الكتب لا اعرف صحته جاء فيه ما معناه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه ففزع فلما سألوه عن السبب قال ويل لامتي من السيل المنهمل يشير الى قرب خروج يأجوج ومأجوج فلما خرجوا واخذوا الملك من المسلمين في عهد ملك التتر فسر علماء ذلك الوقت هذا الحديث بذلك. وبعد جدال كبير حصل بيننا وعدته بان أفيده عن يد فضيلتكم بالجواب القطعي فرجائي أن تفيدوا الجواب على صفحات المنار الاغر حتى يقتنع المشاغب كما هو المشهور في فضيلتكم من ايضاح الحقائق ولفضيلتكم الشكر اقدام

(ج) سألنا هذا السؤال غير واحد من مصر وروسيا وغيرهما من الاقطار ونقول قبل كل شيء ان دعوى معرفة جميع بقاع الأرض باطلة فان بقعة كل من القطبين لاسيما القطب الجنوبي لا تزال مجهولة. وقد استدل بعض العلماء على ان السد بني في جهة أحد القطبين بذكر بلوغ ذي القرنين الى موضعه بعد بلوغ مغرب الشمس مطلعها وليس ذلك الا جهة الشمال او جهة الجنوب. ولا يعترض على هذا القول بصعوبة الوسائل الموصلة الى أحد القطبين فإن حالة مدنية ذلك العصر وحالة الارض فيها غير معروفة لنا الآن فنبني عليها اعتراضا كهذا فما يدرينا ان الاستطراق الى أحد القطبين او كليهما كان في زمن ذي القرنين سهلا فكم من أرض يابسة فاضت عليها البحار فغمرتها بطول الزمان وكم من أرض انحسر عنها الماء فصارت ارضا عامرة متصلة بغيرها او منفردة (جزيرة) وكم من مدينة طمست حتى لا يعلم عنها شيء ومن المعلوم الآن من شؤون المدنيات القديمة بالمشاهدة او الاستدلال ما يجهل بعض اسبابه كالأنوار والنقوش والالوان وجر الاثقال عند المصريين القدماء فالقرآن يقول في ذي القرنين « فاتبع سببا حتى اذا بلغ » كذا من مطلع الشمس ومغربها وبين السدين فما هي تلك الاسباب هل هي هوائية او كهربائية؟ الله أعلم بذلك

هذا ما يقال بالايجاز في رد دعوى معرفة جميع اجزاء الارض التي بني عليها الاعتراض . ثم ان ما بني على هذه الدعوى باطل وان فرضنا انها هي مسلمة وذلك أنه يوجد في الأرض موضعان معروفان يحتمل ان السد كان فيهما أحدهما الموضع الذي يسمى الآن « دربند » بروسيا ومعناه السدوقية موضع يسمى « دمرقبو » اي باب الحديد

وهو أثر سد قديم بين جبلين يقال انه من صنع بعض ملوك الفرس ويحتمل ان يكون موضع السد . وقد ذكره ملطبرون في جغرافيته بما يدل على ذلك (راجع ص ١٥ و١٦ ج ٣) واخبرني مختار باشا الغازي أنه رأى خريطة جغرافية قديمة لتلك الجهات وفيها رسم ذلك المكان وبيان أن وراءه قبيلتين اسم إحداهما « آقوق » واسم الثانية « ماقوق » . وتعريب هذين اللفظين بيأجوج ومأجوج ظاهر جلي

وأما الموضع الثاني فاننا نترجم ماجاء فيه عن بعض التواريخ الفارسية على غرابته وهو :

« في الشمال الشرقي من مدينة صنعاء التي هي عاصمة اليمن بعشرين مرحلة (مئة و بضعة فراسخ)مدينة قديمة تسمى الطُوَيْلة . وفي شرقي هذه المدينة وادعميق جداً يحيط به من ثلاث جهات جبال شاهقة منتصبة ليس فيها مسالك معبّدة فالتوقّل فيها على خطر السقوط والهويّ وفي الجهة الرابعة منه سهوب فيحاء يستطرق منها الى الوادي ومنه اليها وفجوة الوادي من هذه الجهة تبلغ خمسة آلاف ذراع فارسي (الذراع الفارسي متر واربعة سنتيمات) وفي هذه الفجوة سد صناعي يمتد من أحد صدفي الجبلين الى الآخر وهو من زبر الحديد المتساوية المقدار فطول هذا السد خمسة آلاف ذراع فاما سمكه فخمسة عشر شبراً واما ارتفاعه فيختلف باختلاف انخفاض أساسه وارتفاعه لأن ارضه غير مستوية . في القرن العاشر للهجرة لما فتح سنان باشا القائد العثماني اليمن وصل الى قنعة تسمى تسام واقعة بجوار هذا السد فأمر بعدّ زُبُر الحديد المبني بها السد فقصارى ما تيسر لهم عده منها تسعة آلاف . في طرفي هذا السد قلعتان عظيمتان محكمتا البناء قديمتان تسمى إحداهما قلعة العرصة والثانية قلعة الباحثة اه

فهذا الوصف ينطبق على ماجاء في القرآن من وصف السد و بلاد اليمن هي فيما يظهر بلاد ذي القرنين لأن هذا اللقب من القاب ملوك العرب الحميريين في حضرموت واليمن المعروفين بالاذواء (كذي يزن وذي الكلاع وذي نواس) ولكن ان صح وجود السد فأين يأجوج ومأجوج منه وهم الترك كما ورد في تاريخ السوريين قبل الإسلام أو السكيثيين الذين وصفهم حزقيال النبي بما ينطبق على وصفهم في تواريخ اليونان . ويعدهم النصارى رمزاً لأعداء الكنيسة

ثم ان لم يكن السد المذكور في القرآن هذا ولا ذاك ولم يكن فيما بقي مجهولاً من

الارض فلم لا يجوز ان يكون قد ادرك وذهب أثره من الوجود ؟ ان قيل يمنع من ذلك ان اندكاكه وخروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة اجبنا بجوابين (أحدهما) ان قرب الساعة يمتد ألوفا من السنين بدليل أن نبينا نبي الساعة وقرب الساعة نسبي اي هو قرب بالنسبة الى مامضى من عمر الارض وما يدرينا انه ملايين من السنين (وثانيهما) ان هناك ساعة عامة وساعة خاصة اي ساعة هلاك امة معينة كما ورد في شرح بعض الاحاديث الواردة في الساعة . وربما عدنا الى التفصيل في هذه المسألة

« حكم صور اليد والصور الشمسية »

(س ٣) من الشيخ محمد بسيوني في (سنبس برنيو)

حضرة علامه الزمان فريد العصر والاوان سيدي المرشد السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء نفعني الله بعلومه آمين

وبعد تقديم واجبات التحيات والاحترام فالمرجو من تفضلات سيدي الجواب عن السؤال الآتي صورته وهذا هو : ماقولكم دام فضلكم في صورة مشتغلة باليد وصورة متخذة بالفوتغراف هل الفرق بينهما متحقق ام لا ؟ وما تقولون فيمن قال ان الصورة التي اتخذت بالفوتغراف ليس فيها فعل صورة بل هي حبس صورة كحبس الصورة التي في المرآة فلا يحرم ولكن يحرم وضع هذه الصورة في البيت لمشابهتها الاصنام فهل هذا القول صحيح ام لا أفيدوني سيدي ولكم من الله جزيل الاجر والثواب

(ج) صانع الصور مصور سواء صنعها بيده أو بالآلة الشمسية (الفوتغرافية) . وصورة الشيء هي صورته سواء صورت باليد او بالآلة لا فرق بينهما شرعا ولا عرفا . واما قول من قال انه يحرم وضع الصور في البيت لمشابهتها الاصنام فهو مبني على أصل صحيح وهو أن سبب النهي عن التصوير وعن اتخاذ الصور هو منع تلك الشعائر الوثنية أي تعظيم الصور او عبادتها ولذلك أمر النبي (ص) عائشة بهتك القرام (الستار) الذي كان معلقا في بيتها لمشابهته الصور التي كانت في الكعبة فلما هتك واتخذت منه وسادة كان (ص) يستعملها ولا يرى في ذلك بأسا . وحديث القرام أخرجه البخاري في صحيحه وغيره . واذا كان القائل يعترف بأن علة تحريم التصوير واتخاذ الصور هي ماذكر

فأي فرق يبقى عنده بين ماسماه فعل الصورة وحبس الصورة ؟ القصد من الامرين واحد وفي كل منهما عمل اختياري للمصور فاذا فرضنا أن قوما عبدوا شخصا او حيوانا او غيره كما عبد بعض البابية الرجل الملقب ببهاء الله فهل يجوز عند ذلك القائل للمصور المسلم ان يصور لهم معبودهم بالآلة الشمسية ليعظموها ويعبدوها بناء على ان فعله حبس تلك الصورة لافعل لها ؟ ان هذا قول لاوجه له فيما نرى والله أعلم

﴿ الوقف على المساجد والمدارس ﴾

(س ٤) مستفيد من سنغافوره

ما قول المنار المنير في بناء المدارس للتعليم والوقف عليها وبناء المساجد للصلاة ولا يخفى عليكم ما ورد في فضلها فأي الأمرين من البنائين أفضل أفيدونا

(ج) في المسألة تفصيل فإقامة الجمعة والجماعة في المساجد من شعائر الإسلام اذا تركها أهل بلد وجب إلزامهم بها قال الفقهاء ولو بالقتال والعلوم منها ماهو فريضة ومنها ما هو فضيلة ولا بد لأهل كل بلد منها فاذا وجد في بلد مسجد لإقامة الشعائر أو أكثر عند الحاجة فبناء المدارس والوقف عليها في ذلك البلد أفضل لا محالة بل لا فضل في بناء مسجد لا حاجة اليه لأن من أغراض الشريعة جعل المساجد على قدر الحاجة لما في كثرتها من تفرق المسلمين وإذا أمكن اجتماع أهل البلد في مسجد واحد فهو أفضل من تفرقهم في مسجدين او اكثر بل ذهب الامام الشافعي الى وجوب أداء الجمعة في مسجد واحد ان امكن في تفصيل سبق لنا الكلام فيه في أحد مجلدات المنار . واذا وجد في بلد مدارس للتعليم ولم يوجد فيها مسجد لاقامة الجمعة والجماعة فلاشك ان بناء المسجد يكون حينئذ أفضل لتوقف اقامة الشعائر عليه

وإنما تأتي المفاضلة في بلد لا مسجد فيه ولا مدرسة ويحتاج اهله اليهما معا وحينئذ يظهر انه يجب الابتداء بالمسجد ويمكن ان يصلى فيه ويعلم مالابد منه حتى يتيسر بناء مكان للتعليم خاص به

وقد تبين مما تقدم ان بناء المدارس أفضل في البلاد التي فيها مساجد تقام فيها الشعائر وأ كثر أمصار المسلمين كذلك فبناء المساجد فيها مع عدم الحاجة اليها مضاد لمقصد الشريعة وهو لايكون عن رياء او جهل

السياسة الانكليزية الجديدة في مصر

ننشر هذه المقالة بالامضاء الرمزي لكاتبها لما فيها من البشارة بالمجلس النيابي :

كان عميد الدولة الانكليزية في عهد توفيق باشا يدير الأمر معه وما يتفقان عليه ينفذ بهدوء وسكون ولكن توفيق باشا كان لضعف إرادته يوالي العميد فيما يريد قلما يراجعه في شيء، فلما ولي العباس رأى منه ذلك العميد ما لم يكن يرى من والده من المقاومات فكان ينتهز فرصة كل حركة لتقوية نفوذ دولته في البلاد فأكثر من المستشارين والمفتشين والقضاة وكبار العمال من الإنكليز وفعل ما فعل ، ثم ظهرت المقاومة في الجرائد وعلى ألسنة الناس حتى صارت تشويشاً مزعجاً . وقد كان لورد كرومر يتمنى لو يتفق مع الأمير ولكن كان في طبيعة كل منهما وطبيعة الوقت ما يحول دون ذلك حتى انهما تكلما غير مرة في أمر الوفاق وبعد التواطؤ بزمن قصير أو طويل كان يعود التدابر كما كان أو أشد حتى قيل ان اللورد عزم في آخر مدته على اقناع دولته بوجوب عزل الأمير ولكن جاء هذا الرأي في عهد وزارة الأحرار الحاضرة وهي وزارة تميل الى التساهل في المستعمرات وما في معناها كمصر في عرفهم فلم يتم للورد ما يريد بل خرج هو من مصر وبقي أميرها فيها . ومما كان قد عزم عليه الرجوع الى كبار الامة في معرفة مطالبها الحقيقية لا نالتها ما يمكن منها مع الاعراض عن الأمير

ولا ننسى ما كان في آخر مدته من حملة الجرائد الانكليزية على الخديو لا سيما بعد أن نشر مكاتب الطان عن الأمير ذلك الحديث الشهير فعالج الأمير تلك الحملة عليه بحديث آخر عهد الى مستر ديسي الانكليزي بنشره في جريدة الديلي تلغراف الانكليزية أهم ما فيه الاشارة الى رغبته في الوفاق فكان ذلك مقدمة للسياسة الجديدة التي سنبينها

وهنالك مقدمة ثانية شرع فيها لورد كرومر وتكفل سر ألدن غورست بالمضي فيها وهي اختيار الاكفاء من المصريين للوظائف الكبرى وتحميلهم «مسؤليتها» وأول ما بدأ به الأول من ذلك جعل سعد باشا زغلول وزيرا للمعارف وأخيه أحمد فتحي باشا وكيلاً للحقانية وآخر ما قرره الثاني جعل عبد الخالق ثروت باشا نائبا عموميا

وهناك مقدمة ثالثة جربها العميد الجديد فجاءت كما يراد وهي اعتماد انكلترا على الامير في سياسة البلاد العامة وعدم الالتفات الى مطالب الأمة وجرائدها

فالسياسة الجديدة للانكليز في هذه البلاد هي أن يلقوا تبعة سياستها وادارتها على غاربها فلا يحملوا منها شيئاً في مصر بل يحملوها الامير وحكومته ومجلس نواب الامة وما دونه من مجالس المديريات

ماهو مجلس نواب الامة ؟ هل هو مجلس الشورى ام الجمعية العمومية ؟ وما معنى تحميله تبعة وهو لا يتبع رأيه ؟ لا لست أعني بمجلس النواب ماذكر وانما أعني ان الحكومة البريطانية عزمت على ان تمنح مصر ماتطلبه بلسان جرائدها واحزابها من الدستور والمجلس النيابي وأن تجعل الفضل في هذا للامير فهو يكاشفها بذلك وهي تظهر له الموافقة على رغبته بكيفية مخصوصة. والامير ينفذ لها رغائبها بمصر

اننا نعلم من مصدر رفيع ان الانكليز عزموا على ان يمنحوا مصر المجلس النيابي وأنه ليس للانكليز مقاصد في مصر تنافي السماح للمصريين بذلك بل يفتخر احرار انكلترا بذلك لموافقته لسنتهم في تحرير الشعوب وترقية الحكومات ويكتفون في الأمن على مصالحهم بمصر باستمرار الاحتلال والثقة بمودة أمير البلاد ولا يبالون بالجرائد والاحزاب بل يعتقدون أن ستسكن من نفسها وان خير علاج لها إهمالها

هذا ما أرويه للقراء رواية لا يشوبها رأي ولا تخرص فما كان منه عن شئ مضى فهو مما يعرفه العارفون ، وما كان عن شئ يأتي فسيراه الناظرون ، وقد يقال من باب الرأي ان الانكليز مخطئون في ظنهم ان الحركة الوطنية ستسكن من نفسها فإن وراء مجلس النواب الذي سيكون محدود السلطة كلاما كثيرا في سلطته ووراء ذلك مسألة الاحتلال نفسها . نعم ان معظم حماسة الجرائد يمكن ان تتحول الى نقد الوطنيين الذين يحملون تبعة الادارة وتكون الحجة على المحتلين ضعيفة بل ظهرت بوادر هذا في كلام اللواء في أول مصري عريق حمل تبعة العمل في الحكومة وهو سعد باشا زغلول فان اللواء أشد عليه منه على مستشاره مستر دنلوب . فمن مثل هذا قد استنبط الانكليز ان السياسة الجديدة التي شرعوا فيها ستعقبهم راحة من ضوضاء مصر وتشغل المصريين بانفسهم والله أعلم بما تأتي به حوادث الأيام (المكاشف)

القرآن والعلم

٢

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

المسألة الثالثة

﴿ ذو القرنين ومطلع الشمس ومغربها ﴾

قال الله تعالى في قصة ذي القرنين (١٨ : ٨٦ حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً) إلى قوله (٩٠ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً)

تقول العرب بلغ فلان مغرب الشمس أو وصل إلى المشرق إذا سار إلى أقصى ما عرف لهم من المسكونة في جهتي الشرق والغرب فكان الكلام على تقدير مضاف أي وصل فلان إلى أرض المغرب أو ارض المشرق ومعنى ذلك انه وصل إلى آخر أرض تغيب عنها الشمس أو إلى أول أرض تشرق عليها بحسب علمهم وإلى الآن تقول جميع الأمم الراقية « بلغ فلان الشرق الاقصى أو المغرب الاقصى » إذا سافر إلى بلاد اليابان أو إلى بلاد مراكش ويسمون هذه البلاد بلاد الشرق أو المشرق وبلاد الغرب أو المغرب ولا يعنون بذلك سوى أنها أول بلاد من الدنيا القديمة تشرق عليها الشمس وآخر بلاد تغرب عنها فمعنى قوله تعالى « حتى إذا بلغ مغرب الشمس » أنه وصل إلى آخر أرض معروفة للعرب تغيب عنها الشمس ويسمونها المغرب .. ومهما كان الانسان عالماً فانه لا يتحاشى أمثال هذه التعابير المعهودة للبشر فكذلك القرآن الشريف

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فانه جري عليها وكذلك كل كاتب ولو كان في الفلك أو الجغرافيا الحديثة « وجدها تغرب في عين حمئة » أي خيل له أنها تغرب في العين كما يخيل ذلك لكل من وقف على ساحل البحر وقت الغروب فانه يرى الشمس كأنها تغيب في البحر ولذلك نسب القرآن الامر إلى وجدان ذي القرنين فقال « وجدها » ولم يقل مثلا « حتى إذا بلغ مغرب الشمس رآها وهي تغرب في العين » أو نحوه مما يفيد أنها تغرب فيها حقيقة

والعين كل ماء جار كما في قوله تعالى (٢٦ : ٥٧ فأخرجناهم من جنات وعيون) أي أنهار جارية وكقوله في وصف الجنة (٨٨ : ١٢ فيها عين جارية) وقوله « حمئة » معناه ذات طين أسود وفي قراءة (حامية) أي ساخنة ولعل سخونة الماء ناشئة عن وجود ينبوع حار خارج من جوف الأرض بجوارها وإذا كان المراد مياه المحيط فقد تكون سخونتها ناشئة عن التيارات المائية الآتية من خط الاستواء كما هو معروف للمطلعين على علم الجغرافية فإن المحيط الاطلانطيقي ينطبق عليه هذان الوصفان وهو كونه ذا طين أسود وكون بعض مياهه ساخنة فلعل ذا القرنين وصل إليه بسيره إلى نهاية أفريقية من جهة الغرب. فان تيار الخليج (Gulf Stream) الآتي من ساحل أمريكا عند خط الاستواء ينقسم وهو ذاهب إلى الشمال إلى قسمين قسم يصعد إلى أوروبا وقسم ينزل إلى ساحل افريقيا الغربي ولون مائه أسود وهو ساخن (فان درجة حرارته لا تقل عن ٨٥ بمقياس فرنهيت)

ثم قال « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » والمعنى أنه سار إلى أرض المشرق حتى وصل الى أول أرض تطلع عليها الشمس أي بحسب ما تعرف العرب من المسكونة ولعل ذا القرنين وصل إلى جبل عال من جبال آسيا ظن أنه نهاية الأرض أو وصل الى ساحل الهند الشرقي فظن أنه نهاية العالم فلما وصل الى تلك الجهة التي تسميها العرب مطلع الشمس أو المشرق وجد الشمس أول ما تطلع تطلع على قوم عراة الأبدان ليس لهم من دون الشمس وقاية وهذا هو حال الامم المتوحشة الساذجة

واعلم أن أمثال هذه السياحات أو الفتوحات الكبيرة معهودة في تواريخ القدماء

كالاسكندر المقدوني وغيره وكان يتيسر لهم ذلك لعظم قوتهم وضعف الامم المجاورة لهم و بساطتهم وقلة عددهم بالنسبة لهم فكان يسير الفاتح العظيم منهم بجيشه الجرار ولا يجد في كثير من الجهات أدنى مقاومة أو إذا وجد تكون في الغالب ضعيفة

والغالب أن ذا القرنين هذا المذكور في القرآن هو أحد ملوك اليمن الحميريين فان العرب لا يعرفون ملوك غيرهم من الامم وما كانوا يسألون النبي عليه السلام عنها و (ذو) لفظة عربية محضة وردت كثيراً في ألقاب العرب أهل اليمن كذي يزن وذي كلاع وذي نواس . ونقل عن ابن عباس أنه سئل عن ذي القرنين المذكور في القرآن فقال هو من حمير . وقال أحد شعراء الحميريين

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب ملك من كريم سيد

وكل ذلك يؤيد ان العرب ماسألوا النبي إلاَّ عن ذي القرنين هذا المعروف عندهم ونظرا لاندراس التاريخ القديم عموماً وخصوصاً تاريخ العرب الاقدمين ولعدم الثقة بأكثر ما جاء فيه من القصص ولعدم اهتمام الأمم المتأخرة بشأن أهل اليمن لم يشتهر أمر هذا الفاتح الكبير بين الأمم الأخرى والمظنون أنه كان على زمن الخليل إبراهيم عليه السلام

قيل إن اسمه الصعب بن الرايش وقيل إنه أبو كرب شمس بن عبير بن أفريقش . وكان ملوك اليمن يلبسون تاجاً له قرنان الغالب انهم اقتبسوه من ملوك مصر . وأول من لبسه اشتهر بينهم بلقب ذي القرنين من أجل ذلك

وفي التاريخ القديم آثار كثيرة يدل على أن أهل اليمن كانوا قد بلغوا شأوا كبيراً من القوة والعظمة وأنهم تغلبوا على أقاصي البلاد وغزوا بابل وبلغوا الهند وفتحوا بلاد الفرس ويسمى غزو العرب لبلاد فارس في أحاديث الفرس « غزو ذو حاق » وكان ذلك قبل الميلاد بأكثر من ٢٠٠٠ سنة وقد أغار أهل اليمن أيضاً على بلاد المغرب وفتحوا مصر واستوطنوها ويسمون فيها بالهكسوس .

فلا يبعد ان يكون ذو القرنين المذكور في القرآن هو أكبر ملوكهم الفاتحين وقد بلغ ملكه أو سيره أقصى ما كان معروفاً إذ ذاك من بلاد المشرق والمغرب

وقد بني سداً بين جبلين في جهة الشمال لا يعرف الآن موضعه لمنع يأجوج ومأجوج من التعدي على الأمم المجاورة لهم وهما قبيلتان شهيرتان من القبائل القديمة المتوحشة وقد ورد ذكرهما أيضاً في كتب أهل الكتاب (تك ١٠ : ٢ وحز ٣٨ : ٢ و٣)

وإذا علم الانسان ان أكثر بقاع الأرض لم تطأها أقدام أحد من السائحين الباحثين أو الجغرافيين وإذا تذكر ما عرض لهذا السد عن التغيرات الطارئة عليه من الصدأ ومن هبوب الرياح ونزول الامطار ورسوب التراب وغيره عليه بل ربما تغطى بأشياء كثيرة مما يحملها سيل المياه على الجبال إذا تذكر كل ذلك أدرك شيئاً من أسباب عدم عثور أحد على مثل هذا السد وربما إذا رآه أحد الآن لا يمكنه أن يميزه عن سائر الجبل فقد يكون مغطى بطبقة حجرية مما أذابتها المياه وحملتها إليه فجفت عليه

فاذا جاء يوم القيامة اندك هذا السد كما تدك جميع الجبال كما قال القرآن الشريف (١٨ : ٩٩ فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقّاً)

هذا ومن تذكر إغارة المغول (التتار) وهم نسل يأجوج ومأجوج في القرن السابع الهجري على بلاد المسلمين والنصارى وما أتوه من الافساد في الارض وما أوقعوه بالامم المختلفة من القتل والسبي والنهب أمكنه تصور حصول هذا منهم مرة أخرى قبل مجيء الساعة كما قال القرآن الشريف (٢١ : ٩٦ حتى اذا فتحت يأجوجُ ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ٩٧ واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصارُ الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) ولا مانع من ان يكون ماحصل منهم سابقا هو الذي أراده القرآن في هذه الآية ويكون قوله « واقترب الوعد الحق » كقوله (٥٤ : ١ اقتربت الساعة وانشق القمر) على ان الانشقاق حصل في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وهو تعبير معهود في الكتب المقدسة إذا انبأت عن الحوادث المستقبلة

***

﴿ المسألة الرابعة ﴾

﴿ يحيي بن زكريا ﴾

قال الله تعالى (١٩ : ٧ يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيي لم نجعل له من قبل سميًّا) يقولون ان يحيي هو يوحنا عند أهل الكتاب ويوحنا هذا اسم شهير عند اليهود سمي به كثيرون قبل ابن زكريا فكيف يقول القرآن «لم نجعل له من قبل سميا»؟؟ ونقول لا نسلم بان لفظ يحيي في القرآن هو تعريب لفظ يوحنا عندهم لان يحيي من الحياة ويكتب في العبرية هكذا (יְחִיֶה) وينطق يحييه وأما (يوحنا) فهو الصيغة اليونانية للفظ (يوحنان) العبري ومعناه «يهوه حنون» أي الله حنون. فهو اذا من الحنان لا من الحياة وعليه يكون لفظ يحيي غير يوحنا ووجود شخص مسمى باسمين كثير جدا وقد يكون الاسم الثاني لقبا له وأمثلة ذلك في كتب العهدين كثيرة جدا منها ان اسم بطرس سمعان واسم تداوس لباوس وهما من تلاميذ المسيح (راجع متى ١٠ : ٢ و ٣) وكان النبي عليه السلام يغير كثيرا من أسماء أصحابه فيشتهرون بما سماهم به رسول الله وعند جميع الامم يوجد اشخاص لهم أكثر من اسم. هذا اذا لم نقل ان تسمية ابن زكريا في العهد الجديد بيوحنا هو من خطإ مؤلفي الاناجيل باللغة اليونانيه إذ يجوز انهم لم يحسنوا نقل اسمه الحقيقي «يحييه» الى لغتهم

ويحتمل ان الاسم الذى بشر الله به زكريا هو (يحيي) ولما اشتهر عن يحيي الشفقة والحنان بالناس كما قال القرآن في وصفه (١٩ : ١٣ وحنانا من لدنا) صاروا يلقبونه بيوحنا حتى شاع بينهم ذلك أكثر من اسمه الاصلي الذي سماه الله به

وهنالك وجه آخر في تفسير عبارة القرآن الشريف. وهو ان زكريا طلب من الله وارثا له من نسله خوفا من مواليه فبشره الله بان سيكون له ولد وسيكون اسمه يحيي وقال له ان هذا الاسم لم يسم به أحد قبله أي بينهم في أهله وعشيرته كما قال إنجيل لوقا (١ : ٦١ فقالوا لها - أي لامه - ليس أحد في عشيرتك تسمى بهذا الاسم» فقوله تعالى «لم نجعل له من قبل سميا» أي في أهل زكريا الذين كان الكلام

معه في شأنهم والخطاب له فيمن يرثه منهم . هذا إذا سلم ان لفظ يحيى هو عين يوحنا وأنه تعريب له

على أنه قد يكون المراد بالسمي السمي الحقيقي أي انه لم يسم أحد قبل يوحنا بهذا الاسم وكان مثله في صفاته العالية واخلاقه الطاهرة فكل من سمي قبله به ما كانوا يستحقونه لأنهم لم يصلوا الى درجته في الشفقة والرحمة والحنان وقد ورد لفظ السمي في القرآن بهذا المعنى ايضا في سورة مريم التي منها هذه الآية التي نحن بصدد الكلام عليها فقال تعالى «٦٥ رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا » اي سميا حقيقيا وإلا فقد اتخذ آلهة أخرى من دون الله كثيرون

المسئلة الخامسة

﴿ السامري والعجل ﴾

قال الله تعالى (٢٠ : ٨٨ فأخْرَجَ لهم عِجلاً جَسَداً له خوارٌ فقالوا هذا الهكم وإله موسى — الى قوله — ٩٥ قال فما خَطْبُكَ يا سامري ٩٦ قالَ بصُرتُ بِمَا لم يَبصُرُوا بِهِ فقبضتُ قَبضةً مِن أثرِ الرسولِ فَنَبذتُها وَكَذلكَ سوَّلت لِي نَفسِي »

رجحنا في (مقالات الدين في نظر العقل الصحيح) أن لفظ السامري علم لشخص من بني اسرائيل يسمى بلغتهم شِمري وهو اسم مشهور عند قدمائهم . انظر مثلاً سفر أخبار الأيام الأولى (٤ : ٣٧ و ١١ : ٤٥ و ٢٦ : ١٠) ولما عرب هذا الاسم أبدلت الشين المعجمة بالسين المهملة كما هي العادة في تعريب العبري وأدخلوا عليه أل كما أدخلوها على غيره من الأعلام المعربة كلفظ (الجودي) وهو اسم جبل ولفظ (السموأل) وهو علم لأحد نابغي شعراء اليهود من العرب . وتسمى زيادة أل في مثله زيادة لازمة كما يقول النحاة . وهو معرب من لفظ (شموئيل) والتغيير الذي حدث فيه كالذي حدث في لفظ (شمري) فأبدلت الشين سيناً وزيدت عليه أل مع تغيير طفيف في الكلمة . وهذه التغييرات شائعة في جميع اللغات في أسماء الأعلام المنقولة إليها فانظر الفرق بين لفظ بختنصر وأصله .

(نبوخذناصر) ولفظ عيسي وأصله يشوع ٠ وغير ذلك كثير جداً يعرفه المطلعون على بعض اللغات الأجنبية وما فيها التغيير والتحريف في الأعلام ٠ واعلم أن لفظ السامري الوارد في القرآن كانت تكتبه العرب (السمري) وكذلك كتب في مصاحف عثمان التي أرسلها إلى الآفاق ٠ ولعل في ذلك إشارة إلى أصله العبري الذي ذكرناه هنا وإن كانوا ينطقونه السامري ٠ وليست الياء فيه للنسبة بل هي كالياء في لفظ الجوديّ بالتشديد وأصله جوردي بدون تشديد

قال تعالى (فأخرج لهم) أي صنع لهم السامري (عجلاً جسداً) أي تمثال عجل ولكنه جسد بلا روح فان لفظ الجسد يطلق غالباً على الحي إذا مات أو ما كانت صورته صورة الحي ولكنه جماد كهذا العجل الذي صنعه السامري من الحلي وكتماثيل الحيوانات فانها كأجسادها بعد الممات لا حياة فيها (له خوار) أي صوت يشبه صوت العجل ولعله توصل إلى ذلك بالصناعة مع الحيلة كأن يضع فيه ما يشبه المزمار ويسلط عليه آلة نافخة لا يشعر بها الناظرون

وأمثال هذه الحيل كثيرة يفعلها الدجالون في كل زمان ومكان

ثم قال تعالى (قال فما خطبك يا سامري) أي قال له موسى ما شأنك وما الذي حملك على ما فعلت (قال بصرت بما لم يبصروا به) أي علمت مالم يعلموا وأدركت مالم يدركوا (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي أخذت بشيء من تعاليم هارون الذي استخلفته فينا واقتفيت أثره فيها فلم يرق لي شيء منها. وسمى هارون بالرسول لأنه هو وموسى كانا يسميان كذلك بين بني اسرائيل فان الله قال لهما (٢٠ : ٤٧ فقولا إنا رسولا ربك) وعدم اعتقاد السامري بصحة هذه الرسالة لا ينافي أن يقول ذلك من باب التهكم كما كانت قريش يتهكمون على رسول الله ويقولون له (٢٥ : ٧ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) ثم قال السامري (فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي) أي فرفضت ما أخذته من تعاليم هارون بعد تجربتي له وهذا ما مالت إليه نفسي التي علمت مالم يعلم غيري. هذا هو التفسير الصحيح الذي يتبادر من هذه الآيات ولا يمكن لأي عربي أن يفهم منها سواه لولا ما حشاه بها كثير

المفسرين من الخرافات وهو يقارب ما ذهب إليه محقق المفسرين أبو مسلم الاصفهاني وارتضاه منه فخر الدين الرازي وغيره

(٩٧ قال) له موسى (فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تُخلَفه وانظر إلى إلهك الذي ظلْتَ عليه عاكفاً لنُحرّقنّه) أي لنبردنه ويؤيده قراءة «لنحرقنه» بفتح النون وكسر الراء وضمها خفيفة (ثم لننسفنّه في اليم نسفاً)

فان قال قائل ما بال القرآن في الكلام على هذا العجل يأتي بما يحتمل أنه كان حياً وإن كان ذلك بعيداً من عبارته ؟ قلت جرت عادة القرآن في أمثال هذه المسائل العرضية البسيطة أن يأتي بالتعبير الذي لا يصادم اعتقاد الجمهور مصادمة لا تقبل التأويل حتى لا يكون ذلك صاداً لهم عن النظر فيه أو شاغلاً لهم عن البحث فيما أتى به من جوهر الدين كما هي طريقة الحكماء . فالظاهر أن أهل الكتاب من العرب كانوا يعتقدون أن هذا العجل صار حياً وربما كان عندهم من رواياتهم واحاديثهم ما يحملهم على هذا الاعتقاد فلم يرد القرآن ان يشتغل معهم بأمثال هذه التافهات فأتى لهم بما لو سمعوه قبلوه وما لو سمعه العلماء المحققون لأدركوه وفهموه ولذلك تراه مثلا ينص على دوران الارض بقوله (سنة ٢٧ : ٨٨ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء) في سياق يحتمل أن يكون ذلك مما يحصل يوم القيامة وإن كان ظاهر الآية يبعد عن هذا الاحتمال الذي لا يزال مقبولاً عند الجهلاء على أن معنى الآية الصحيح لا يخفى على العلماء . فان القرآن قد أتى للعامة والخاصة والمنحطين والمرتقين فلذا تنوعت أساليبه وسحر بيانه عقول الجميع وبذلك لم يخطئ الغرض ، ولم يشتغل عن الجوهر بالعرض ،

المسألة السادسة

(تكون الجنين)

قال الله تعالى (٢٣ : ١٢ ولقد خلقنا الانسان من سُلالةٍ من طين ١٣ ثُم جعلناه نُطفةً في قرارٍ مكين ١٤ ثُم خلقنا النطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا

المُضْغَةَ عِظاماً فكسونا العظامَ لحماً ثم أنشأناهُ خلقاً آخرَ فتبارك اللهُ أحسن الخالقينَ ١٥ ثم إنكم بعدَ ذلكَ لميتونَ ١٦ ثم إنكم يومَ القيامةِ تُبعثونَ)

اشتملت هذه الآيات على جميع أطوار الانسان في حياته وما يمر به من التغيرات من أول وجوده الى يوم بعثه

(الطور الاول) « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » أول الاحياء في هذا العالم لاشك في انه خلق من مادة الارض مباشرة ثم ارتقت الحال بعد ذلك فصارت الاحياء تتكاثر بانقسام الخلايا ثم بالتلقيح الذي يعقبه الانقسام (ومعنى التلقيح اختلاط عنصر الذكر بعنصر الانثى) فان الانسان في طوره الاول كان طينا واذا نظرنا الى الانسان من جهة اخرى وجدنا أن الحيوانات المنوية والبويضات التي يخلق منها الانسان مخلوقة من الدم والدم من الغذاء والغذاء من الحيوان والنبات وكلاهما من الأرض أي الطين

(الطور الثاني) « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » النطفة الافراز فتطلق على المني ولا مانع من اطلاقها أيضاً على بويضات المرأة التي يفرزها المبيضان (١) ولم يذكر القرآن بويضات المرأة صريحاً لأن ذلك غير معروف لجماهير الناس وهو لم يأت لتعليمهم أمثال هذه الاشياء وإنما هو يؤيد قضاياه بما يعرفونه ولا ينكرونه وا كتفاؤه بذكر المني دون غيره في أكثر المواضع لا يدل على أن الانسان لا يخلق من شيء آخر معه إذ ليس في عباراته ما يدل على الحصر فالطور الثاني طور النطفة وهي من الرجل ما فيه الحيوانات المنوية ومن الأنثى ما فيه البويضات فاذا حصل التلقيح بدخول رأس الحيوان المنوي في البويضة استقرت في الرحم • والمراد بالقرار المكين أعضاء الانثى الداخلة (البوقان والرحم) وهي التي يحصل فيها التلقيح ثم التكوين • ولا شك أن حيوان الذكر و بويضة الانثى يسبحان قبل التلقيح و بعده في قليل

---

(١) المنار : النطفة في الاصل الماء أو كل سائل فيصح اطلاقه على ماء الرجل الذي فيه الحيوانات المنوية وعلى ماء الانثى الذي فيه البويضات اذ كل منهما سائل

من سائل مخصوص ومجموع ذلك هو النطفة وهي التي تستقر في الرحم

(الطور الثالث) « ثم خلقنا النطفة علقة » وذلك بانقسام البويضة بعد التلقيح بالحيوان المنوي إلى أقسام كثيرة تكون كتلة صغيرة تشبه العلقة وخلاياها كلها متشابهة

(الطور الرابع) « فخلقنا العلقة مضغة » وهي قطعة أكبر من العلقة قدر ما يمضغ في الفم مركبة من عدة خلايا ناشئة من انقسام البويضة الأصلية بعد تغذيتها في جدر الرحم وما أحيطت به من سوائل زلالية

(الطور الخامس) « فخلقنا المضغة عظاماً » أي حولنا بعض خلايا المضغة التي كانت كلها متشابهة إلى خلايا أخرى تصير بالتدريج بعد هذا التنويع عظاماً

(الطور السادس) « فكسونا العظام لحماً » أي حولنا الجزء الباقي من المضغة إلى أنسجة رخوة ذات خلايا مغايرة في شكلها للخلايا الاصلية وهذه الأنسجة تكون كاسية للخلايا الآخذة في التحول إلى عظام فبينما تجد بعض الخلايا يتحول الى عظام تجد البعض الآخر يتحول إلى لحم وشحم وغيره يكسو هذه العظام

(الطور السابع) « ثم أنشأناه خلقاً آخر » اي بعد تمام خلقته وولادته يصير بالتدريج إنساناً عاقلاً مدركاً مفكراً بعد ان كان لا يعلم شيئاً كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) الآية فالشيء الذي كنت تراه لا يدرك وجود نفسه يصبح محيطا بالكون بعقله ويخترق الحجب بفكره « فتبارك الله أحسن الخالقين » . وعبر هنا بثم لتراخي ذلك عن زمن تمام التكوين

(الطور الثامن والتاسع) « ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » فهذه هي الأطوار الانسانية التي تستفاد من هذه الآيات الشريفة

ويجب الاعتراف هنا بأن هذه الآيات لم تصف هذه الأطوار بالتفصيل كما يصفها الفسيولوجيون وإنما وصفها باجمال خال من الوهم والخطأ داع الى التفكر في قدرة الله والتدبر في أعماله وهو ما يريده القرآن الشريف ولا يريد تدريس علم تكون الجنين للناس ولا غيره من العلوم الدنيوية فلذا لا ينتظر من مثل هذا

الكتاب العزيز ان يدخل فيما ليس من غرضه الاطناب فيه لأن الناس يصلون اليه من غير طريق الوحي

المسألة السابعة

﴿ ميراث بني إسرائيل الأرض من بعد فرعون ﴾

قال الله تعالى (٢٦: ٥٧ فأخرجناهم من جنّات وعيون ٥٨ وكنوز ومقام كريم ٥٩ كذلك ، وأورثناها بني إسرائيل) ومن المعلوم أن بني اسرائيل من بعد غرق فرعون وقومه لم يرثوا أرض مصر بل خرجوا منها فما معنى هذه الآية اذاً ؟؟

ذهب محققو المؤرخين إلى أن فرعون موسى هو منفتاح بن رمسيس الثاني وقد خضعت بلاد الشام لمصر في عهد رمسيس الثاني وكان من عادته ان يبقي فرقة من العساكر المصرية في البلاد التي يفتحها ليستوطنوها ولينشروا فيها عاداتهم واخلاقهم فكانت بلاد الشام مستعمرة تابعة لمصر ومحتلة بجزء من جيشها وكان المصريون يجنون من خيراتها ويتمتعون بها و بعضهم يذهب اليها ليقيم فيها تحت رعاية دولته كما يفعل الاوربيون الآن في الممالك التي يستعمرونها ودام الحال كذلك الى عهد منفتاح بن رمسيس هذا وفي عهده كان خروج بني اسرائيل من أرض مصر

إذا علمت ذلك فاسمع تفسير ما قال الله في القرآن الشريف (فأرسلَ فرعونُ في المدائن) التابعة له كبلاد مصر والشام (حاشرين) يجمعون إليه جيشه وقومه المستوطن في هذه البلاد قائلا لهم (ان هؤلاء لَشِرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميعٌ حذرون) ثم قال الله تعالى (فأخرجناهم) أي المصريين (من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) في مصر والشام (كذلك وأورثناها بني اسرائيل) أي أورثناهم ما كان يتمتع به المصريون من جنات الشام وعيونها وكنوزها ومقامها الكريم فان ذلك قد آل إلى بني إسرائيل ولذلك قال تعالى في آية أخرى في هذا الموضوع (٧ : ١٣٧ وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعفونَ مشارقَ

الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل) والأرض التي بارك الله فيها هي أرض الشام كما جاء في آيات أخرى كثيرة في القرآن الشريف كقوله (٢١ : ٧١ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) وقوله (١٧ : ١ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) فأنت ترى من هذا أن آيات القرآن في هذا الموضوع يفسر بعضها بعضاً وان المراد من ميراث بني اسرائيل لما تركه المصريون هو ما كان لهم ببلاد الشام (المسائل بقية)

باب المناظرة والمراسلة

٣

تتمة بحث النسخ

قال حضرة الدكتور : وإذا فتشنا الاحاديث — الى ان قال — فالقرآن لا يجوز ان ينسخ بالسنة ولو كانت متواترة و به قال الامام الشافعي رحمه الله وليس فيه منسوخ مطلقا كما قال أئمة بعض المفسرين كأبي مسلم الاصفهاني وكما دل على ذلك الاستقراء والدليل واتى بكلام ثم قال . « والذي نراه نحن ان العقل لا يستقبح وقوع النسخ في القرآن الشريف اذا كان القرآن يبين لنا نصا جميع ما نسخ وجميع مالم ينسخ او ان الرسول (ص) يبين ذلك بيانا ينقل متواتراً ويتفق عليه عملا بين المسلمين الخ

والناظر يرى بادي، بدء بعد المقارنة بين كلام حضرة الدكتور ان قوله والذي نراه نحن الخ هو رجوع منه ونسخ لقوله فالقرآن «لا يجوز ان ينسخ بالسنة ولو كانت متواترة» لانه اذا كان النسخ هو كما ذكر ابطال حكم الى بدل او لغير بدل وجاز ان يقبل قول الرسول (ص) هذه الآية منسوخة لا الى بدل مثلا في حق من علم صدور ذلك القول منه (ص) فما ذلك الا قول بجواز نسخ القرآن بالسنة وهو

مناقض لقوله لا يجوز نسخ القرآن بالسنة فقوله الثاني لا محالة رجوع عن قوله الاول واعتراف بان القرآن ينسخ بالسنة المعلوم صدورها عن رسول الله (ص) وبذلك نكتفي عن الرد عليه في قوله بعدم جواز نسخ القرآن بالسنة وسيأتي لنا كلام على الاخبار التي يلزم الأخذ بها ويعلم صدورها عن رسول الله (ص)

اما ماذكر حضرة الدكتور من اشتراط احد الامرين للنسخ إما تبيين القرآن لنا نصا جميع ما نسخ وجميع مالم ينسخ او تبيين الرسول (ص) كذلك وينقل متواترا الخ

فنقول فيه ان حضرته ذكر ان النسخ لمقتض لا يستقبح عقلا يعني انه جائز عقلا فهل ما اشترطه للنسخ واجب على الله وعلى رسوله(ص) عقلا فما هو؟ ام شرعاً ـ فاين هو؟ وهل يشترط ذلك فيما نسخ لفظه ومعناه لا الى بدل لان تعريف النسخ الذي ذكره اول الرسالة يشمله وليس هو داخل فيما انكر وقوعه من نسخ لفظ بلفظ او نسخ لفظ وإبقاء حكمه

وما معنى اشتراط التواتر فان النسخ انما كان يقع في زمان الرسول(ص) وقت نزول الوحي وذلك مضى وانقضى والله تعالى ورسوله (ص) لم يلزموا الامة ولم يوجبوا عليهم ان ينقلوا الدين الى من بعدهم بالتواتر ولم نر ذلك ولا في موضع من كلامهما ولم يجعلا ذلك شرطاً لا للتبليغ ولا للقبول وسيأتي مزيد بيان لذلك

ان اشتراط حضرته ذلك مع اشتراطه ان يتفق عليه عملا بين المسلمين مما لا يجوز عقلا لامتناع تأخر ما يلزم في وجود شيء عن وجوده كاسبابه وشروطه وجوده والنسخ قد وقع بدليل قوله تعالى « ما ننسخ من آية » الآية والتواتر واتفاق عمل المسلمين انما هو بعد ذلك والله تعالى لم ينصب ذلك شرطا لقبولنا ذلك او ان الحال لا ينكشف لنا الا باحدهما فظهر ان ذلك لا يصلح لان يكون سببا للنسخ ولا لبلوغه الينا ــ

اما اشتراط حضرته في رسالتيه لبيان النسخ طريقة معينة مخصوصة وهي ان يقول الله تعالى او رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ناسخة وهذه منسوخة فهو التزام لما لا يلزم واكتفاء بما لا يكفي ولا يطرد في جميع المسائل فان النسخ مشترك لفظا يصدق على معاني مختلفة وصدقه عليها مختلف فيه ثم هو في افراد كل واحد

من ماصدقاته قد يكون عاما . ثم معرفة المراد منه قد يكون مجملا فاذا قيل هذه الآية منسوخة او هذه ناسخة فقط ولم يقرن ذلك بما يعين المراد احتمل ذلك نسخ كل هذه الآية او بعضها او زيادة امر في الناسخ مع بقاء المزيد او رفع شرط أو قيد او زيادتهما الى غير ذلك فتبين ان مجرد قوله هذه الآية ناسخة وهذه منسوخة لا يكفي في بيان المراد الا بانضمام مايبين المراد مع ذلك مما يتبين به مورد النسخ المعين واذا كان الله أجاز النسخ في شرعه بجميع معانيه كما دل عليه كلام السلف او بعضها كما هو قول المتأخرين ففي الموارد المخصوصة أي ووقت البيان لا يجوز ان يؤتى بما لا يتبين المراد منه الا مع مبين — والبيان اخراج الشيء من حيز الإشكال الى حيز التجلي فظهر بذلك ان معرفة الناسخ والمنسوخ لا يتوقف على خصوص ماذكره حضرة الدكتور بل معرفته في كل محل بما يبين المراد هو الاولى وان لم يكن بلفظ ناسخ او منسوخ ومن ذلك ماذكره العلماء في معرفة الطريق الذي يكون الناسخ بها ناسخا والمنسوخ منسوخا

وليت شعري ألا يكفي في الدلالة على النسخ تأخر التاريخ مع التعارض والتناقض بين الحكمين ككون الشيء في آية حلالا وفي آية بعدها متأخرة نزولا حراما او العكس؟ وقد ذكر علماء الاصول طرق معرفة النسخ والناسخ والمنسوخ و بينوا ذلك فارجع الى كتبهم ان شئت

ثم لا ندري ما الموجب لطعن الطاعنين واستهزاء الهازئين بعد ثبوت جواز النسخ عقلا وشرعا ووضعا ووقوعه في الشرائع فعلا كما اعترف بذلك حضرة الدكتور فليتأمل حضرته في هذا الموضع وليعلم انه بادر الى التهكم والتعريض بمخالفيه الى استحقاقهم أشد العذاب قبل اوانه اذ لم يقم حجة على ماقال ولم يحط علما بما لديهم من الحجج لا سيما معاصريه اذ لا يمكننا إنكار اطلاعه على ماهو مسطور في زبر الأولين وان كنا نستبعد امكان اطلاعه على الكل نقول ذلك قياسا على انفسنا وكما قال ذلك الكبار . ونقول أيضا اذا كان النسخ هو ماذكرنا سابقا عن السلف (رض) وما ذكره حضرته وأنه يرى ان العقل لا يستقبحه فلا محل للتشنيع على من قال بوقوعه في القرآن وعليه فالقول بوقوع النسخ في القرآن او عدم وقوعه منحصر في الدليل النقلي

وفي الاستقراء اي تتبع آيات القرآن فحضرة الدكتور استدل على عدم وقوع النسخ في القرآن بقوله تعالى « لا مبدل لكلماته » حيث قال فلا يجوز ان يبدله الله بعد وعده بعدم تبديله اذ النكرة (أي لفظ مبدل) في سياق النفي تعم

وأقول قد اختلف في ان المتكلم هل يدخل في عموم خطابه أم لا والحق انه لا يدخل إلا بقرينة وليس هنا قرينة تدل على ذاك بل القرينة تدل على عدم دخوله

فالآية المذكورة ليس هي عندنا مما تدل على منع النسخ بمعناه السابق وانما تدل على صيانة القرآن عن انتحال المبطلين وعبث اعداء الدين وان الله لا يجعل لهم عليه سبيلاً وذلك نظير قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وقوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ونقول أيضاً نفي الشيء فرع عن ثبوته ولا شك هنا ان المراد بنفي المبدل نفي جميع التبديل بجميع معانيه وأكثر معاني التبديل لا يجوز ان ينسب إلى الإله وعليه فلا يدخل في عموم المنفي كما خصص عموم قوله تعالى « ان الله على كلّ شيء قدير » بما سوى الواجب لاستحالة تعلق القدرة به — ويقرب من ذلك قوله تعالى « فلا يظهر على غيبه أحداً » فانه لولا الاستثناء لمن ذكره لوجب ان لا يطلع على غيبه أحد مطلقاً لكنه لا يجوز بحال ان يقال انه تعالى داخل في عموم المنفي

فتبين بما ذكرناه ان التبديل المنفي في قوله تعالى لا مبدل لكلماته انما هو التبديل الذي يكون من البشر كما كان يفعله اليهود والنصارى في كتابيهم

اما التبديل بمعنى النسخ بان يبدل الله آية مكان آية أو ينسخ حكمها هو أو رسوله لا من تلقاء نفسه فهذا لا عيب فيه كما ذكر الدكتور والرسول (ص) معصوم عن التبديل من تلقاء نفسه وإذا كان النسخ هو ما ذكرناه عن السلف فإنكار وقوعه مكابرة ومخالفة لما هو ثابت في الواقع كما دل على ذلك الاستقراء إذ ما من عامٍ إلاّ وقد خص وما من مطلق إلا وقد قيد الا آيات التوحيد وما ضاهاها

وأيضاً قوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية » خاصة في معنى من معاني التبديل ومحله المعين والفاعل معلوم فهي بلا ريب نص في جواز النسخ الذي لا عيب فيه عقلا

اما قول حضرة الدكتور فما ذكرناه هنا وهناك يدل على ان تفسير الآية هكذا: واذا اتينا بحكم في الشريعة الاسلامية بدل حكم في الشرائع السابقة ووضعناه مكانه قالوا انما انت مفتر كذاب تختلق الاحكام وتنسبها الى الله الى آخر الآيات - وزعم ان القول بأنه مفتر في قوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر » انما صدر من أهل الكتاب الموجودين بالمدينة الخ واقول ان قوله انما صدر من أهل الكتاب الموجودين بالمدينة هو اعتراف منه بجواز ان تكون هذه الآية مدنية فاحفظه

ثم ان ما ذكرته حضرته وحمل الآية عليه غير صحيح لما قدمناه ولأن سياق الآية لا يدل عليه وانما يدل على خلافه فانه تعالى انما ذكر المشركين ثم حكى هذا القول عنهم ورد عليهم بان اكثرهم لا يعلمون لأنهم ليس معهم كتاب والمشركون هم الذين زعموا ان الغلام النصراني يعلم النبي (ص) افتراء وكذبا كما كذبهم الله في هذه الآية وغيرها ويدل على ذلك ايضا ان الله لما برأ رسوله (ص) من تهمهم الكاذبة ذكر ان سبب تهجمهم واقدامهم على ماهو واضح البطلان انما هو ضلالهم وعدم ايمانهم بآياته فانه تعالى لا يهديهم وأكد في الرد عليهم بان المفتري في تبديل آيات الله انما يكون من لا يؤمن بها وهذا نص ايضا في ارادة المشركين فظهر ان القائل بانه مفتر انما هم المشركون ولأن الآيات قبلها وبعدها انما هي في ذكر مساوي المشركين وتحذير المؤمنين من التخلق باخلاقهم والاقتداء بعاداتهم وعن الاصغاء والالتفات الى شبهاتهم عند نزول ناسخ او تبديل آية مكان آية لانهم لا يؤمنون بآيات الله فلم يهدهم للصواب في الجدل فهم يستدلون على كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بما يرون في كتابه من النسخ لاعتقادهم ان ذلك تناقض لعدم علمهم بما في ذلك من الحكم والمصالح

أما اهل الكتاب (اليهود) فلم يأت لهم ذكر حتى يعود الضمير اليهم وايضا فان الله تعالى قد عيّن هؤلاء القائلين بأنهم الذين لا يؤمنون بآياته وهذا لا يصح صدقه على اليهود اذا كان المراد بالآيات الاحكام وبالآية الواحدة الحكم لايمانهم بالتوراة وإن أريد بالآيات الجمل من الكلام المحدودة المخصوصة فان أطلقت

على عبارات التوراة فكذلك وان لم تطلق بطل حمل الآية المبدلة على شيء من عبارات التوراة فثبت بذلك ان المراد واذا بدلنا آية من القرآن مكان آية منه قال المشركون انما انت مفتر وهم لا علم لهم بالتوراة ولا باحكامها

ثم نقول لو كان التبديل اي النسخ ممنوعا في القرآن مطلقا وان الله لا يبدل آية مكان آية لما صح تقييده في جواب الكفار حين قالوا لرسول الله (ص) «ائت بقرآن غير هذا او بدله» حيث امر رسول الله (ص) ان يجيبهم بقوله «قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي» فانه لا معنى للتقييد حينئذ وبذلك وهذا تبين عدم دخول المتكلم وهو الله تعالى في عموم لفظ «مبدل» من قوله «لا مبدل لكلماته»

ان من تتبع آيات الكتاب وجد فيه ما يلجئه الى القول بوقوع النسخ فيه فعلا كما اخبر الله بوقوعه فيه مستدلا على جواز ذلك وحسنه بارتباط الشرع بالقدر أي تلازمهما — لا ينكر ذلك إلا من كابر وجدانه وخالف ظاهر القرآن وخرج به عن حدود مرامه الذي فهمه رسوله (ص) وبينه لأصحابه (رض) الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل والتفسير والمراد من الخطاب لمعاينتهم الوقائع والأسباب فلا يجوز لمن لم يحضر الوقائع ولم يعرف الأسباب والموانع ولم يمارس محاورات أهل الشرائع ان يهجم على كلامهم (فضلاً عن كلام الله) ويؤوّله بان يحمله على معاني يفترضها مع ترك ما سيق الكلام فيه وله . انما يختار هذه الطريقة المحرفون الخرّاصون كالقرامطة والملحدين من المتصوفة وسائر الطوائف المبتدعة الذين اذا تكلموا في القرآن يتراءى الناظر في كلامهم انهم كأنما يتكلمون في دين جديد نزل عليهم ابتداءً وكأنه لم يكن نزل على رسول قد بين حدوده وأوضح احكامه وفسر مرامه وكأنه لم تتلقه أمة ولم تعمل به الطوائف حتى جاء هؤلاء بآرائهم السخيفة وأقوالهم الساقطة الضعيفة — كل ذلك لم يقع من هؤلاء الا بتركهم السنن النبوية وهجرهم لطريق السلف وبالاخص آثار الصحابة (رض) ولنعد إلى ما كنا بصدده فنقول

قد تقدم لنا ان قوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية » دليل واضح على جواز النسخ في القرآن كما انه جائز في سائر الأديان وانه لا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى « لا مبدل لكلماته » الآية

ومن الأدلة الناصة على جواز النسخ في القرآن بل على وقوعه قوله تعالى « ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » الآية وقد قدمنا كلام السلف في تفسير هذه الآية نقلاً عن تفسير ابن كثير رحمه الله

ودونك ما ذكر حضرة الدكتور في تفسيرها فانه قال في رسالة له سابقة أدرجت في الجزء الثاني من المجلد التاسع من المنار الأغر بعد ان ذكر قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها » ما نصه « الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الانبياء من الدلائل على نبوتهم والمعنى ما ننسخ من آية تقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فاننا بمالنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقناع واثبات النبوة أو مثلها في ذلك » —

ونحن ندعو القراء الكرام إلى المقارنة بين ما نقل عن السلف في تفسير هذه الآية وما قاله حضرة الدكتور فإذا كان لفظ آية يدل بالاشتراك اللفظي على معاني متعددة فهل يجوز لأحد كائناً من كان ترك المأثور عن العارفين بالمراد واختراع معنى آخر من عند نفسه بعد أكثر من ثلاث عشرة مائة سنة ؟ وهل هذا الا تفسير بالرأي في مقابلة المأثور الذي توافرت الأدلة الشرعية على منعه والتحذير منه كما دل العقل على قبح تفسير كلام أحد على غير مراده —

ونقول أيضاً اذا كانت الآية هنا هي (المعجزة) كما يقول حضرة الدكتور فما معنى ازالتها وترك تأييد نبي آخر بها ؟ فان المعجزات انما هي امور خارقة للعادة يظهرها الله على ايدي انبيائه لتدل على صدق دعواهم وقد انقضت بانقضاء الزمن المشترط لوجودها وليست هي جارية على سنن الكون المعتادة حتى تبقى ككل باق يرى تابعا وخاضعاً لاسبابه ونواميس جريه في بقائه وتطوراته وأكثر المعجزات اعراض لا قيام لها بنفسها وانما هي واقعات تنقلها الامم كسائر الاخبار

انه لا يمكن تأييد نبي بمعجزة هي نفس معجزة نبي آخر والممكن انما هو ان يؤيد بمثلها لأنها ان كانت معجزة النبي الاول موجودة بين ايدي الناس فكونها معجزة للثاني ممتنع ولأفضى ذلك الى تحصيل الحاصل وان كانت قد فقدت فالأخرى انما هي مثلها والنسخ او الازالة او الترك لا يكون الا لما يجوز ان يظهر اولما هو موجود فاذا امتنع عقلا ان تكون نفس معجزة نبي متقدم هي نفس معجزة نبي متأخر لم يبق في تفسير الآية الا ان يقال هكذا : ماننسخ من آية اي من مثل آية اوننسها نأت بخير منها او مثلها. ومؤداه ما نترك مثل معجزة الا نأت بمثلها. أليس هذا تناقضا يجب ان ينزه القرآن عنه ؟ ونقول ايضا انه لو سلم جواز وقوع النسخ في المعجزات فانه لا يتصور وقوعه الا في القرآن حين امكان النسخ أي وقت نزول القرآن وقبل وفاة رسول الله (ص) فثبت الاستدلال بهذه الآية على جواز النسخ ووقوعه في القرآن حتى على تفسير حضرة الدكتور للآية بمعنى المعجزة فان القرآن من اعظم معجزات نبينا (ص)

ونقول ايضاً ما ذكرناه عن السلف هو المتعين ويلزم الاخذ به لان هذا الدين انما جاءنا بتوسطهم فلا يجوز لنا ان نخرج عن جميع اقوالهم الا بحجة واضحة ومن المحال ان لا يوجد لاحد منهم قول موافق لها —

وايضاً لو كان هذا الكتاب نزل علينا ابتداء ولم يبينه مبين لنا لما جاز لنا ان نستبد بعقولنا في مواطن الاشتباه وعدم وجود مرجح ومن هنا قالوا لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة

وفوق ذلك كله أن هذه الآية ذكرت في ذيل خطاب الله لعباده المؤمنين تسكينا لهم ودفعا للشبه التي بثها بينهم اهل الكتاب والمشركون من قولهم ان محمدا يأمر بالشيء ويمنعه غداً الى غير ذلك من تشكيكاتهم الكاذبة فرد الله عليهم وأعلم عباده المؤمنين بالحكمة في ذلك ونبههم على ان هذا انما هو حسد من اعدائهم ودونك الآية وما قبلها يتبين لك ان ما ذكرناه عن السلف هو المطابق لظاهر سياق الآية بعد ما عرفناك فساد تفسير حضرة الدكتور قال الله تعالى (٢ : ١٠٤ يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم

١٠٥ ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزَّل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ١٠٦ ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فالآية دلت على ان الذين كفروا يكرهون نزول الخير على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولما كان النسخ انما هو زيادة خير وفضل من الله كنسخ بعض الاحكام الشاقة التي كلف بها بني اسرائيل وكنسخ مافيه خير مما نزل على محمد (ص) الى ما هو أكثر خيرا منه ذكره تبارك وتعالى كالفرع من قوله «والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» وأتبع الآية بقوله «ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير» استدلالا لصحة النسخ لانه اذا كان من المقرر لديك ومن المسلم لدى اعدائك ان الله تعالى هو خالق الخلق واستعدادهم المختلف باختلاف الزمان والمكان فمن اللازم لذلك اذا وجد المقتضي نسخ بعض الاحكام والتعاليم الأهلية إلى ماهو انسب باحوال المكلفين وأكثر خيراً لهم وهذا ظاهر في تلازم الخلق والأمر — وقوله تعالى عقب ذلك (١٠٧ ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير) هو زيادة لايضاح الحجة معناه انه اذا كان هو الخالق للاشياء فهو يعلم المناسب والاصلح بها واذا كان هو الولي والملك فلا بد لكل ملك من احكام فاذا كان الملك ذا حكمة وعدل مختبرا أحوال الرعية فلا يليق بعدله ترك ما فيه زيادة الخير والأنسب باحوالهم لماهو أحط منه مع علمه بذلك

اما قول حضرة الدكتور في رسالته السابقة بعد قوله تعالى (أو ننسها): ننسها الناس لطول العهد بها (يعني المعجزة) الى آخره — فيقال عليه ان الضمير في ننسها عائد على الآية وقد قدمنا فساد تفسيرها بالمعجزة لأنا نقول ان الله قد وعد في هذه الآية بانه اذا نسخ آية أو انساها فهو لا محالة يأتي بخير منها أو مثلها وعداً لازماً لتلازم الشرط والجزاء — فاذا أبى الدكتور تفسير الآية الا بالمعجزة فهل أتى الله بخير من كل معجزة انسيت أو أتى بمثل كل معجزة انسيت عن كل واحد من انبيائه؟ وما معنى قوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) فهل كان يقرئه عدد معجزات الأنبياء قبله عليه وعليهم الصلاة والسلام

وأيضاً قد قرأ بعض القراء « ما ننسخ من آية أو ننسأها » بفتح النون وهمزة بعد السين ومعناه حينئذ نؤخرها وحضرة الدكتور ذكر ان معنى ما ننسخ ماتترك وعليه يكون المعنى هكذا : ما ننسخ أي ما نترك من آية أي معجزة أو ننسأها أي نؤخرها . وهو على مافيه من الركاكة ومخالفة ما ذكرناه عن السلف لا يعطي ماأراده

ذكر حضرة الدكتور في رسالته السابقة بعض الآيات المنسوخة ورد بزعمه على من قال بنسخها وحيث اني رأيته انما مال الى التأويلات الزائفة ومع ذلك هي لا تنتج مراده فلم أر للتطويل فائدة بالرد عليه لان ماذكره بين البطلان بنفسه —

ويكفي في الجواب عليه عن ذلك كله حتى بعد تسليم تأويلاته ان يقال له بجواب مجمل : ان هذه الآيات التي زعمت انها ليست بمنسوخة كآية تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول (ص) وغير ذلك هل ترى انها محكمة بمعنى ان دلالتها حين نزولها وبعد نزول آيات التخفيف بعدها على السواء من كل وجه ؟ فان قلت نعم فعليك البيان بشرط عدم التأويل والخروج عن الظاهر لانا نرى ان التأويل للمنسوخ على غير ظاهره وإبقاء الناسخ على ظاهره هو القول بالنسخ عندنا لا فرق الا في اللفظ والعبارة وان قلت بتغير الدلالة ولو من بعض الوجوه فقد قلت بالنسخ صراحة ووافقتنا وهو غاية ماتمناه

لم يقع خلاف بين المسلمين في جواز النسخ ووقوعه من غير فرق بين كونه في الكتاب او السنة حتى قيل انه مما اتفق عليه اهل الملل — الا اليهود فقد منعوه للتوراة وقالوا انه لا يجوز ان يرسل الله رسولا بنسخ شيء من التوراة قالوا ذلك وجوزوا لأحبارهم نسخ ماشاءوا من التوراة — والا مايحكى عن ابي مسلم الاصفهاني انه قال لم يقع شيء من ذلك في القرآن وهذا مما يعد من اكبر غلطاته حتى قال الحافظ ابن كثير بعد ان حكى قوله وقوله هذا ضعيف مردود ومرذول وقال السيد صديق حسن خان ولعله نقلا عن الامام الشوكاني : واذا صح هذا عنه فهو دليل على انه جاهل لهذه الشريعة المحمدية جهلاً قطعيا واعجب من جهله بها حكاية من حكى عنه الخلاف في كتب الشريعة فانه انما يعتد بخلاف المجتهدين لا بخلاف من بلغ في الجهل الى هذه الغاية انتهى

ولم أر احداً حكى قول الاصفهاني الا وأنحى عليه باللوم . ونحن لانرى في الطعن فائدة (١) لانا نعلم كغيرنا انه مامن أحد غير انبياء الله ورسله الا و يؤخذ من قوله ويترك ومن تتبع الغلطات ولو من كبار الرجال وجدها في كل شيء من الاشياء وامر من الامور ولا يبقى بيديه شيء من الحق وذلك هو الخسران المبين

آثار علمية أدبية

كتاب التربية

ألف علماء اوربا كتبا كثيرة في فن التربية فلما كتب في ذلك الفيلسوف سبنسر كان ما كتبه ناسخا لطريقة من قبله ولكثير مما جاؤا به وقدوة جديدة لمن عاصره ولمن يجيء بعده فهو الذي بنى قوانين التربية على أسس المنفعة و بين خطأ الناس في تقديم الزينة على المنفعة كما جرى عليه المتوحشون من اقدم زمن يعرفه التاريخ . وكتابه في التربية أشهر من أن يذكر فينوه به وقد ترجمه بالعربية محمد

(١) المنار: قد أحسن الكاتب في عدم اقراره لصديق حسن خان على طعنه هذا بأبي مسلم وأين هو من ابي مسلم بل اين منه شيخه الشوكاني في فهم القرآن ؟ انا نجل الشوكاني ونعرف له فضله في علوم الحديث والآثار والفقه ولا نظن انه نبز أبا مسلم بالجهل ونحمد من صديق حسن اهتداءه بكتب الشوكاني ومحاربته التقليد وان كان في عامة أحواله مقلدا للشوكاني ولكننا لانرى طعنه هذا في أبي مسلم الا هفوة من هفوات الغرور . نعم ان لابي مسلم غلطات ولكن اي عالم كتب او الف أو ابدى علما وفهما فسلم من الغلط والخطأ ؟ ألم ينكر هو والشوكاني على الائمة المجتهدين وعلى من قبلهم من علماء السلف كثيرا من المسائل حتى بعض فروع مسألة النسخ ؟ ألم يحصر الشوكاني المنسوخ في بضع آيات ويخطئ المتقدمين في سائر ماعدوه منسوخا ؟ فكيف يعد أبو مسلم من أجهل الناس بالشريعة ان وجد لهذه البضع الآيات معنى ينافي النسخ بالمعنى الخاص الذي ينفيه ؟

افندي السباعي أحد محرري الجريدة وطبع في مطبعتها طبعا حسنا على ورق جيد فبلغت صفحاته ١٤٣ وجعل ثمنه عشرون قرشا وهو يطلب من ادارة الجريدة

مجموعة الخطب

تمنى كثير من أهل العلم والأدب لو تطبع الخطب التي تلقى في نادي دار العلوم وكاشفوا رئيس النادي (حفني بك ناصف) بأمنيتهم فوافقت رغبته رغبتهم وقرر مجلس ادارة النادي طبع الخطب التي يكتبها اصحابها . وقد طبعت المجموعة الاولى فأوعت ثماني خطب في موضوع اللغة والتعريب والترجمة فبلغت زهاء مئة صفحة وجعل ثمن النسخة منها قرشان ونصف قرش وهي تطلب من النادي بشارع عبد العزيز (نمرة ٥)

بلاغات النساء

كتاب لطيف من تأليف ابي الفضل احمد بن ابي طاهر المحدث المؤرخ (المتوفى سنة ٢٨٠ اودعه ما رواه عن النساء من خطبهن وطرائف كلامهن وملح نوادرهن واخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الاسلام ففيه من الخطب خطب عائشة ام المؤمنين في فضائل ابيها ورثائه وخطبتها السياسية بالبصرة وخطبتها لما بلغها قتل عثمان . وفيه خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لما منعها أبو بكر ميراثها وغير ذلك من خطب وكلام امهات المؤمنين ونساء الصحابة رضي الله عنهن وعن ازواجهن وكلام غيرهن في السياسة والآداب والمدح والرثاء ومن احسنه كلام كثيرات منهن مع معاوية في تخطئته بما كان منه . وفيه كثير من كلام النساء في الازواج مدحاً وذماً ووصاياهن لبناتهن والتعبير عن سائر أغراضهن نثراً ونظماً ، وليته خلا من اخبار مواجنهن ، واحاديث رفثهن ، اذاً لكان الكتاب ، جديراً بعناية الشبان والشواب ، لما فيه من روائع الآداب ،

طبع الكتاب احمد افندي الالفي طبعا حسن على ورق جيد وشرح في هوامشه

ما رآه خفيا من مفرداته حتى بعض كلم الرفث والمجون الذي كان اجدر بالخفاء منه بالظهور ، وقد بلغت صفحاته زهاء ٢٠٠ من قطع المنار وجعل ثمن النسخة منه عشرة قروش صحيحة و يطلب من المكتبات المشهورة

مطالع البدور في محاسن ربات الخدور

هو كتاب خاص بوصف محاسن النساء نظماً ونثراجمع فيه واضعه محمد سليم بك ابو الخير الانسي ما اختاره ذوقه من كلام المتقدمين وما جادت به قريحته في ذلك ومثل هذا الوضع لا يحتاج الى من ينوه به ولا يرغب فيه . لذلك كتبنا عنه هذه الكلمات قبل مطالعة شيء منه وقد جعله جزئين لطيفين طبع أحدهما وشرع في طبع الآخر وثمنهما عشرة قروش وثمن الذي طبع وحده خمسة قروش ويطلب المكتبات المشهورة

تحفة المجالس ونزهة المجالس

كتاب لطيف في المحاضرات يعزى الى جلال الدين السيوطي جله حكايات وأخبار في فضل العقل والعلم واخبار الأولين من الأنبياء والخلفاء والملوك والقضاة والمتلصصين والنساء والعشاق . طبعه الحاج محمد افندي دربال التونسي التاجر بسوق العطارين بالقاهرة وقد جعل ثمن النسخة منه خمسة قروش صاغ وهو مما يرجى رواجه لتوفر الرغبة في امثاله من كتب الفكاهات والمحاضرات عند جميع طبقات الناس ولرخص ثمنه

الحمامات المعدنية

رسالة موضوعها التداوي بالحمامات المعدنية في القطر التونسي وضعها الطبيب ييورف بلغة أجنبية وتلقاه عنه بالعربية الشيخ محمد بن حسين بيرم في عهد محمد بن حسين باي ونقلها الى اللغة العربية ووضع لها مقدمة من عنده . وقد طبعها في هذه

الايام طابع كتاب تحفة المجالس وقد جعل ثمن هذه الرسالة قرشين ونصف قرش فنحث القراء على مطالعتها لما فيها من الفوائد المتعلقة بالاستحمام بالمياه المعدنية ونخص بالذكر اهل تونس لما فيها من الكلام عن حماماتها بالتفصيل

الاسلام — والرد على لورد كرومر

كتب أحد فضلاء المصريين مقالات دينية في الرد على لورد كرومر نشرها في جريدتي المؤيد واللواء بتوقيع « أبقراط » ثم جمعها وطبعها على حدتها فبلغت ٦٤ صفحة . منها مقالة في المقابلة بين الإسلام والنصرانية ومقالة في (المرأة في الإسلام والنصرانية) وسائر المقالات في الرق وتعدد الزوجات والطلاق والعبادات والجنة والنار والجهاد . ولعل هذه المقالات أحسن ما نشر في الجرائد ردا على كتاب لورد كرومر (مصر الحديثة) وثمن النسخة منها ثلاثة قروش

تقرير السير ألدن غورست

كان الناس ينتظرون هذا التقرير انتظار من يتوقع شيئا جديدا في أمر عظيم لما شاع وذاع ونشرته الجرائد في جميع البقاع من ان الانكليز غيروا سياستهم في ادارة هذه البلاد منذ استقالة لورد كرومر ارضاء للمصريين الذين اظهروا السخط من الادارة السابقة . وكان الكثير يظنون وهم لم يروا من السر ألدن غورست المعتمد الجديد عملا جديدا يخالف طريقة سلفه اللورد أنهم سيقرءون في تقريره عن سنة ١٩٠٧ شيئا جديدا يستنبطون منه كنه السياسة الجديدة . وكانوا يظنون أن من فروع التغيير في سياسة الوكالة البريطانية بمصر حرمان اصحاب المقطم من ترجمة التقرير السنوي بالعربية وطبعه واهدائه الى المشتركين في جريدتهم وبيع طائفة منه فلما جاء الموعد وظهر تقرير العميد الجديد بمصر بالانكليزية والعربية في وقت واحد كالعادة قالوا « ما أشبه الليلة بالبارحة » ورأوا صدق قول لورد كرومر « يذهب انكليزي ويجيء انكليزي » فقد نسج غورست على منوال كرومر ورمى عن قوسه قالوا إلا في مسألة الصلة الشخصية بالامير فان هذا يحاسنه بقدر ما كان ذلك يخاشنه

وصرح بعض الاحزاب بان هذه المحاسنة تخشى ولا ترجى ويقول آخرون غير ذلك وستريناً مصداق أحد القولين حوادث الايام ، لاسيما بعد زيارة الامير الملك الانكليز في هذا العام ، ومهما قيل في هذا التقرير وما قبله من حيث السياسة فلا خلاف في ان هذه التقارير تواريخ رسمية ، لادارة البلاد المصرية والسودانية ،

كلمات لقاسم بك امين

كان قاسم بك أمين الذي نعيناه الى القراء في منار الشهر الماضي يكتب بعض ما يسنح له من المعاني التي فيها عظة وحكمة وما يعن له من الآراء والخواطر او يراه من غريب المناظر . وقد ألقي الى ادارة الجريدة ما كتبه من ذلك فطبعته وأطلقت عليه هذا الاسم « كلمات لقاسم بك أمين » فكان زهاء ستين صفحة مثل صفحات كتاب الاسلام والنصرانية وجعلت ثمنه عشرة قروش صحيحة تعظيما لقيمته المعنوية واننا ننقل من فرائد تلك الكلمات أحسن نموذج القراء وهو :

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

ان الذي يمدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك

رب كلمة يتجرعها الحليم مخافة ما هو شر منها

اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم وليس بصحيح ان يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال مادام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء فمها كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره — بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقل الانسان بالعلم أي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذي كان ويكون بعده الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين

المقلد في إيمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة في عروة الملابس ، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم ، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول ان كان الله غير موجود ماخسرت اكثر من غيري وان كان موجودا ربحت مع الرابحين لذلك اومن به . هذا هو المحتال الذى لا يصان أحد حتى الاله من نصبه

أتعس البرية انسان ضاع إيمانه يدس الموت بسمه في حياته فيفسد عليها لذتها وينغص عليها شهوتها

وسننشر بعض آرائه في أهل عصره

شقاء المحبين

قصة في جزئين من وضع اسكندر دوماس الفرنسي الشهير وترجمها بالعربية حنا افندي الصحوري الشاب الدمشقي الذي نبغ في آداب هذه اللغة في سن الصبا نبوغا قلما اقار به في مثله احد من المشهورين بالترجمة والكتابة في هذا العصر ولولا ان فاجأته المنية في نحو الثامنة والعشرين من سنه لرأينا من آثار قلمه ما يعد من آيات حياة العربية

قلما رأيت ترجمة لاحد من الكتاب المعروفين كترجمة هذه القصة تكثر فيها فرائد اللغة التي هجرها الكتاب لقلة اطلاعهم وتزين بالامثال والاقتباس والتضمين وحل المنظوم من كلام الشعراء الاولين المجيدين وتقل فيها الاغلاط الشائعة الآن

طبع القصة ابراهيم افندي فارس صاحب المكتبة الشرقية في جزئين واهدى الينا نسخة منها وعهد الينا ان لا نكتب عنها شيئاً الا بعد قراءتها فقلنا لا بد لهذا من سبب فلما قرأنا صفحات منها علمنا انه عهد الينا بذلك لعلمه بأننا نعرف قيمة هذه الترجمة البليغة . وثمن الجزئين معاً عشرون قرشا وهي تطلب من طابعها

﴿ القطر المصري ﴾ مجلة سياسية أسبوعية تؤيد سياسة الحزب الوطني بمصر انشأها أحمد افندي حلمي اشهر محرري جريدة اللواء في عهد مؤسسها واذا كان من مروجي جريدة اللواء بقلمه كما هو معرف فلا غرو أن تروج مجلته وهي كبيرة الحجم قليلة الثمن اذ قيمة الاشتراك فيها ٥٠ قرشاً في السنة

الفصل الخامس (*)

« مقام خديجة » عند قومها

ما اكرم هذا المقام واني بليغ لا تأخذه الهيبة اذا ادعي لتصور هذه المنزلة ؟ سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجليان ، والجمال والكمال يتألقان ،

ومزايا كالزهر نفحاً وطيباً وكزهر السما بهاءاً ونورا

من شرف حسب ، الى كرم محتد ، الى سؤدد قبيل ، الى عز عشيرة ، الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى فضل حجى ، الى طهارة نفس ، ذلك ما كانت تتزين به سيدتنا « خديجة » ، وذلك ما كانت تحل به بين قومها في المكانة العالية والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ، ولا نبأها بغريب من الانباء ، بل هي معهودة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهن نصيب بغير الخمول ، قد طويت أعلامهن ، ولم ينشر ذكرهن ، ولم يسمُ في أقوامهن مقامهن ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها . ذلك الشيء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم . وليس بكافٍ لتعالي امرىء ان يكون كاملاً بل بد مع ذلك من احاطة قومه علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ومن المشهور ان الحجارة

(*) من سيرة السيدة خديجة

الكريمة عند من لا يعرف مزيتها لا قيمة لها وهي عند عارفيها فوق القيم فالحق ان ارتقاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلاً على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل ايضاً على فضل اولئك القوم وسعادة جدهم ، فقد ربح قوم كان للافاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم الا من استعان بجيش من الحيل والخداع ، وحواش من النقائص المتغلبة على الطباع ،

واذا كنا معجبين بالسيدة « خديجة» لو فرة مزاياها الشريفة فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجابا . وليست «خديجة» وحدها هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم وكان لكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي نقل العرب وغيرهم الى أعلا مما كانوا فيه ولم يستطعن ذلك الا بما لهن من القدر الذي يليق بانسان ذي رأي محمود وعقل مذكور ، وقس مشابهة وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب ابا العدل وابا الفتوح وابا السياسة والادارة لم يكن اسلامه إلاّ بمحاورة سيدة من اولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أنّ أكثر الناس يمرون بالمزية يعهدون أمثالها فلا يلتفتون اليها مالم تكن رائعة وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضارّ لان فيما يعهدونه ايضاً ما يستحق الالتفات اليه ، ويغري بالانتفاع منه ان كان مفيداً ، والتغافل عن الانسان المفيد اذا لم يكن فوق العادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك الرائع المنشود ، والسامي الذي هو فوق المعهود

ولا يشكن القارىء في ان كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الألفة عن إجلال شأنها هي في جلالة الشأن عند الإمعان فوق ما تصوره وفي كثير مما لا نفكر فيه منها ما تخر الافكار صاغرة أمام زاخر فوائده وباهر أسراره فلذلك أحببنا ان نمر بقارئنا مرةً في تفصيل جملة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لانه ربما اختلج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين وقد يكون قارئنا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات ، ولا يطربون بغير الغرائب

نعم ، نحن لم نطرف بما فوق المعهود ، ولم نُهدِ ما وراء المشهود ، ولا عدنا بمبتدعات التصور ، ولا لذنا بغرائب الحوادث وشواذ المصادفة وخوارق العادة ، ولم نمت الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال ، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار ، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا . واذا ثبنا اليها بنظر الإمعان غير وسنانة عين بصيرتنا ألفيناها عند سأم النفس من لذة الحس ، أعظم ما تتوق اليه من لذة التصور وفائدة الإدراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا ان نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ولم يكن حسناً بنا ان ننسى أحاسن ما تلده لنا هذه الام من الصور التي لا تحصى انما نتذكر من سادوا وشادوا ، ونتذكر من صلحوا وأصلحوا

بتذكرنا من أوجدوا وابتدعوا ـ تتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا باستجلاء أحسن صورها ، وتتوارد علينا اللذة باشتياقنا الى نصيب من ثروة تلك الام التى جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزاً ان عجزت أفكارنا ان تحيط بكنه جواهره خبراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل « خديجة » والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنا في « خديجة » المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الأعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا

نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ ، منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمعتا في «خديجة» فرأينا في سيرتها ذلك المثال السني، والكمال السمي

عرفنا حسن استعدادها لان التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر النفس اذا كان غير صالح لفعلها كما لا يصلح الماء، لان تطبع فيه ماتشاء، وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في المجتمع

ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلما رأينا من نوّه به او التفت اليه فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم «خديجة» ارتقاء عظيما فان التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالباً اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكوتا عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر، ويضطر الناس الى تحرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر، ويبقى للناس سبح في المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رأيه فيها فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجبه على نفسه، وذاك يستقبح شيئا حتى يحرمه عليها . وأعقل الناس في هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معيارا لها فكل ماقرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف، وكل ماقرب من المنكر كان مسترذلاً ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر . والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان وعليه قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها

واي باحث لا تأخذه هيبة اذا اطلع على ما كان لقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل؟ أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضاربين في تلك الفيافي، يدهش العالم ما يراه لهم من الباع الطويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذلك. فتراهم مثلا لما كانت السيادة ضرورية ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المقام الاول ولم يألوا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بلغوا بهممهم في الجود الكواكب وازدانت الارض بمناقب هممهم، وايثار اخيهم الانسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي آثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسيروا فيما ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ملقى» وكانوا يتمادحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت على الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير — وهو ابن أخي خديجة — قتل أخيه مصعب خطب فقال « ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه. انا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف، وان يقتل المصعب فان في آل الزبير خلفا منه » ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة ولمثل هذا يقول علي ابن أبي طالب « بقية السيف أنمى

عدداً، وأطيب ولداً، وتقول الخنساء وهي احدى الشهيرات في العرب:

نهين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لها

لا يستنكرنّ احد اذا قيل له ان الشجاعة وهي السجية التي لا ترق الامم اذا خلت منها كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يعتدّون بأحد منهم مالم تكن فيه وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لان أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم في الشدائد حتى فضلوا، والجبناء واحجامهم فيها حتى رذلوا، وهنالك من الشعر في الشجاعة والشجعان ما يفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في سبيله كقول عنترة وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل لابد ان أسقى بكاس المنهل

فاقني حياءك لا اباك واعلمي أني امرؤ سأموت ان لم أقتل

وقد يظن ظانٌّ ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم فنحن لا نريد ان نأتي بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد إسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا ان ندل القارئ على ما كان من باس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى أن يوقع سوءاً ببني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله فجهز عليهم جيشاً كثيفاً ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل أخرى فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبعهم العرب الى داخل البلاد الفارسية وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار

وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار، وحمى الذمار، واتقاء العار،
وفي هذه الواقعة يقول الاعشى اعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم ... منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها ... للموت لا عاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة ... موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم ... مثل الاسنة لا ميلٌ ولا كُشُفُ
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا اننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم ... ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو ان كل معدٍّ كان شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا الى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض لمثل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفة صبرت ... حتى تولت وكاد القوم ينتصفوا
بطارق وبني ملك مرازبة ... من الاعاجم في آذانها الشُنُف
من كل مرجانة في البحر أحرزها ... تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم ... والبيض برق بدا في عارض يكف
ما في الخدود صدود عن سيوفهم ... ولا عن الطعن في اللبات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول المديل بن الفرج العجلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة ... الا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به ... للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا باسلابهم والخيل عابسة ... لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

ان كنت ساقية يوماً ذوي كرم ... فاسقي الفوارس من ذُهل بن شيبانا

واتقي فوارس حاموا عن ذمارهم   واتلى مفارقهم مسكا وريحانا

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكمل مظهر وكان المنذر لهم بغية كسرى وعزمه لقيط الايادي اذ كتب الى بني شيبان يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم وفيه يقول:

قوموا جميعاً على أمشاط أرجلكم   ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا

وقلدوا أمركم لله دركمو   رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفا ان رخاء العيش ساعده   ولا اذا عض مكروه به خشعا

مازال يحلب هذا الدهر أشطره   يكون متبعا طورا ومتبعا

حتى استمر على شزر مريرته   مستحكم الرأي لا قحما ولا ضرعا (*)

وليس يشغله مال يثمره   عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

فعلى مثل ماذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة من الشجاعة التي لا اقوام الامم بدونها وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا يعدونه شيئا مذكورا . ينبئك بذلك قول احد شعرائهم

خرجنا نريد مغارا لنا   وفينا زياد ابو صعصعة

فستة رهط به خمسة   وخمسة رهط به أربعة

ثم لم يكن نصيب قوم خديجة ، في فقه النفس والحكمة والمعارف بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها من غير كتب وكان لهم إلمام قليل بحركات الكواكب والانواء التي

(*) المريرة طاقة الحبل والحبل الشديد الفتل . والشزر الفتل عن اليسار والمعنى استحكم امره وقويت شكيمته . والقحم ارجل الهرم والضرع الضعيف

تبعها . وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان اوطب الحيوان . والطب يقتضي ايضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها البارى في المعدن والنبات والحيوان . اما معرفتهم بالاخبار اي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق ان تسمى علماً وانما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتهار هذه المعرفة باسم علم الانساب أن نادرة الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تقريب القبائل وإلحاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً . وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يلقون منه على من يتحلقون حولهم . قال رؤبه بن العجاج قال لي النسابة البكري : يارؤبة امالك من قوم ان سكت عنهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني ؟ يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبة فقلت له : اني أرجو ان لا اكون كذلك . قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني : قال « آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغا عظيما ويمكنني ان أقول انها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وهل يجد الباحث معنى من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان

أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وابرازه بأبدع حلة ولا ينبئك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الامثال، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال، ولا نستطيع ان نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد بالقارىء عن سياق السيرة ولكننا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب، وصياغتها بابدع البيان، ومقدار ما وسعت منها تلك الأفكار. ذكروا ان عمرو بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلا حتى اسمع ما تقولان. فقال عمرو لحممة أين تحب ان تكون أياديك ؟ قال « عند ذي الرثة المعدم، وعند ذي الخلة الكريم، والمعسر الغريم، والمستضعف الهضيم » قال: من احق الناس بالمقت ؟ قال « الفقير المختال، والضعيف الصوّال، والغني القوّال » قال فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال « الحريص الكاند، والمستميد(١) الحاسد، والملحف الواجد » قال من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال من اذا أعطي شكر، واذا مُنع عذر، واذا مُطل صبر، واذا قدم العهد ذكر » قال من أكرم الناس عشرة ؟ قال « من اذا قرب منح، واذا ظلم صفح، وان ضويق سمح » قال من ألأم الناس ؟ قال من اذا سأل خضع، واذا سئل منع، واذا ملك كنع(٢)، ظاهره جشع، وباطنه طبع »(٣) قال فمن أجل الناس ؟ قال « من عفا اذا قدر، وأجمل اذا انتصر، ولم تطغه عزة الظفر » قال فمن أحزم الناس ؟ قال « من أخذ رقاب الأُسود بيديه، وجعل

---

(١) المستميد هو المستعطي (٢) معنى كنع هنا انكمش (٣) الطبع بفتحتين هو الدنس

العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه » قال فمن أخرق الناس؟ قال من ركب الخطار، واعتسف العثار ، وأسرع في البدار قبل الاقتدار (١) » قال من أجود الناس ؟ قال « من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود » قال فمن أبلغ الناس ؟ قال « من حلى المعنى المزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز » قال من أنعم الناس عيشاً ؟ قال « من تحلى بالعفاف ، ورضي بالكفاف ، وتجاوز مايخاف ، الى مالا يخاف » قال فمن أشقى الناس ؟ قال « من حسد على النعم ، وسخط على القسم ، واستشعر الندم ، على ما انحتم » قال من أغنى الناس ؟ « قال من استشعر اليأس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ، ولم يسخط على القسم » قال فمن أحكم الناس » قال من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر » قال من أجهل الناس ؟ « قال من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما »

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على انه كان من جملة مايعنون به من التربية تثقيف ناشئتهم بما عندهم من المعارف على الطريقه التي ألفوها وتعودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني عليها الآخرون . ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ولا يكلف البليد في شيء ان يكد في تفهمه مدركته، أو يفني في حفظه ذاكرته، أو في توسيمه مخيلته

ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التربية على العدل ولقد اسلفنا شيئا عن ولعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم

(١) يريد بالبدار مناجزة الخصم

وكذلك وأموا بتمداح العفاف، وتشريف الأعفاء والعفائف، وإجلال الطهارة وأهلها وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة وقد حازت السيدة «خديجة» هذا اللقب الشريف باستحقاق اذا كان يقال لها «الطاهرة»

فاذا عرف المطالع الكريم ان لهؤلاء القوم حظاً كبيراً من هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل نعني السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديراً به ان لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني الممنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة المدر في البلدان واحد بل يصل ذلك الفضل بإرسال وباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتزكيتها من النقائص وتحليتها بالفضائل ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكل والملابس والمسكن والرياش. فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم، واستوفت وان بخس الوزن لهم، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم «خديجة» الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، اولئك الذين وافاهم الوحي بنعتهم تمام أهله قائلا «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ»

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الاثنين ٣٠ جمادى الاولى ١٣٢٦ — ٢٩ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٨ ﴾

المسلمون والقبط

سبق لنا قول في هاتين الطائفتين بمصر بينا فيه ان المسلمين من حيث هم افراد أرقى من القبط في كل علم وان القبط من حيث الاجتماع والتعاضد الملي أرقى من المسلمين فلهم مجلس ملي وجمعيات وجرائد دينية تبحث دائما في مصالحهم العامة من حيث هم قبط وهم يتعاونون ويتحدون في المصالح . وهذا ماحمدتهم واحمدهم عليه واتمنى لو يوفق المسلمون لمثله وان كنت أعلم انه لو أنشأ المسلمون جمعية للرابطة الاسلامية كجمعية الرابطة المسيحية لما وجدوا في القبط مثل احمد بك زكي يقوم فيها خطيبا ويجعل عنوان خطابته « مصريون قبل كل شيء » بل يخشى ان يقوموا كما تقوم اوروبا ويقول الجميع ان المسلمين في مصر يحيون التعصب الاسلامي والجامعة الاسلامية ويدعون الى ارتباط بعضهم ببعض لمقاومة النصارى في مصر بل في جميع الارض

لم تكد تقر شقشقة احمد زكي بك من دعوة المسلمين في جمعية الرابطة المسيحية الى توثيق عقد الاخوة بينهم وبين القبط ويقنعهم بالادلة الدينية والتاريخية ان الاسلام في هديه وسيرة سلفه يوجب عليهم المودة للقبط حتى قام بعض الكتاب من القبط يكتبون في بعض الجرائد القبطية وغيرها ان حقوقهم مهضومة بين المسلمين وانهم يطلبون المساواة بتعيين المديرين ومأموري المراكز منهم فوافقتهم جرائد المسلمين الكبرى في مطالبهم فلم يقنعهم ذلك بل تمادوا في الكتابة حتى جعلوا انفسهم اصحاب البلاد وجعلوا المسلمين من قبيل المحتلين بغير حق واغلظوا القول للواء والحزب الوطني فكتب الشيخ عبد العزيز شاويش رئيس تحرير جريدة اللواء قولا ثقيلا في الرد على بعض كتابهم سخر فيه منهم وهزئ بهم

وافتخر عليهم فكان ذلك جل مايبغون من حركتهم الجديدة (١)

قامت قيامتهم ولم يكتفوا بما يكيلون كل يوم للشيخ عبد العزيز من الصيمان الكثيرة في مقابلة صاعه بل انشأوا يكتبون في جرائدهم إن المسلمين يريدون بتعصبهم الديني استئصال القبط وجميع النصارى من مصر وانه يجب عليهم ان يوفدوا الوفود الى أوربا للاستغاثة بدولها وامها المسيحية قبل ان يبيدهم المسلمون المتعصبون او يضطروهم الى الجلاء عن بلادهم والهجرة الى بلاد أخرى يأمنون فيها على انفسهم من المسلمين ثم هم يطلبون ايضا معاقبة الشيخ عبد العزيز شاويش الذي أهانوه أضعاف ما أهانهم وان يرد عليه ويتبرأ منه كبراء المسلمين ، و يعقدون الاندية والسمار للبحث في هذه النازلة و يكتتبون بالاموال لها

من علم ان القبط في القطر نحو نصف مليون في نحو أحد عشر مليونا من المسلمين — وان العمال والمستخدمين منهم في الحكومة أكثر من المسلمين — وان المسلمين قاموا منذ سنين يدعون الى الرابطة الوطنية فكان لهذه الدعوة من التأثير في

---

(١) مما كتبوه من التحرش باللواء والحزب الوطني قبل مقالة الشيخ عبد العزيز التي جعلوها تكأتهم في اثبات ذلك الخطر المزعوم من تعصب المسلمين على النصارى ماجاء في العدد ٣٦٩٨ من جريدة مصر الصادر في ٩ يونيو الماضي وهذا نصه :

اللواء والاقباط

« انا بالنيابة عن جميع الاقباط في كافة أنحاء القطر نقابل ماجاء بصحيفة اللواء امس من الوقاحة والسفاهة بالازدراء والاحتقار ، فانه اذا بلغ المرء مبلغ اللواء من قلة الادب والحياء نحو شعور امة برمتها لم يجد من الناس من يصغي الى قوله او يلتفت الى وقاحته بل ينبذ نبذ النواة و يترك ينبح نبح الكلاب وليس من يسمع له قولا »

ثم استشهدت جريدة مصر على ان القبط كلهم على هذا الرأي بالتلغرافات الكثيرة لما تكتبه وعبرت عنه بقولها « في خدمة الوطنية والحق اللذين خان (أي اللواء) لهما عدوا ليخزى هو واتباعه (أي الحزب الوطني وسائر محبي اللواء) اذا كان من القوم المدركين » ولم يكن اللواء كتب شيئا بلسان الحزب الوطني ولا بلسانه

نفوس القارئين والسامعين، والاساتذة والمتعلمين، أن صار يفضل كثير منهم القبطي على المسلم الشامي والحجازي . . . . بل سمعت غير واحد من المعلمين والمتعلمين يقول لا فرق عندي بين ان يكون أمير البلاد مسلماً أو قبطيا - وان المسلمين جعلوا أحزابهم وأنديتهم شرعا بينهم وبين القبط - وان القبط يتعصب بعضهم لبعض في كل مصلحة وكل عمـل حتى في القضاء - وان المسلمين على شدتهم في انتقاد حكامهم قلما ينتقدون القبط فهم ينتقدون وزير المعارف المسلم على إحسانه في عمله بحجة انه لم يكن فيـه مرغما للانكليز ولا معاندا لهم أو انه يجب عليه ان يعمل أكثر مما عمل ولا ينتقدون وزير الخارجية القبطي الذي هو ألصق بالمحتلين وبالاتفاق معه سلخ لورد كرومر السودان من ملك الدولة العلية وملكه للانكليز وكان رئيس محكمة دنشواي التي ظلت الجرائد الاسلامية تعير وتسب العضو المسلم فيها ولم تذكر رئيسها بسوء - من علم هـذا وأمثاله يتعجب أشد التعجب لهـذه الثورة المعنوية التي أثارتها القبط في الوقت الذي يبالغ فيه المسلمون في موادتهم وتوثيق عرى الاخاء بينهم وبينهم . حقا ان في الامر مثارا للعجب، وقلما رأينا من بحث في حقيقة السبب،

يقول بعض الناس تبعا لبعض الجرائد أن قطبي الرحا لهـذه الحركة اخنوخ افندي فانوس رئيس جمعية الرابطة المسيحية ومجمع الاصلاح القبطي وصاحب جريدة مصر اللذان يسعى كل منهما لجعل ولده مديراً فهما اللذان أيقظا هذه الفتنة لحظ شخصي فكانت فتنة جنسية او طائفية باتباع الجمهور لهما . ومن رأيي أنهما بريئان من هذه التهمة ولو كان ذلك هفوة لهما، لما خفي على جمهور طائفتهما الحازمة اليقظة، بل يغلب على ظني ان هذه الطائفة تجل عن أن تتوسل الى تقرير جعل المديرين منها بهذه الوسيلة لان ربح مدير لا يوازي خسارة مودة المسلمين لهم، ودعوتهم الى مساواتهم ومؤاخاتهم - هذه الخسارة التي تعرضوا لها الآن، بمنتهى ما عندهم من الجرأة والاقدام

والراجح عندي ان القوم شعروا بالتغير الجديد في السياسة وعلم بعض كبرائهم بالنبإ الذي نشرناه في الجزء الماضي قبل ان نعلم به - وهو عزم الانكليز على السماح لأمير البلاد بإنشاء مجلس نيابي - ومن البديهي ان جمهور القبط لا يرغبون في ان يكون في مصر مجلس نيابي ولا أن يقلل المحتلون من سيطرتهم على البلاد . فلما علموا بذلك

رأوا أنه لا سبيل الى تحويل الانكليزعن هذه السياسة الجديدة الا باقناع امتهم بانفجار بركان تعصب المسلمين على القبط وسائر المسيحيين ليقولوا ان هؤلاء اذا جعل لهم رأي نافذ في سلطة بلادهم يهضمون وهم الاكثرون حقوق الاقلين. واني لمعظم لقدرهم بهذا الظن ومعتقد فيهم الحزم والتكاتف وان ترجح عندي انهم ربما أخطأوا في اجتهادهم، وجاء الأمر على خلاف مرادهم، وحينئذ يكون شر هذه الحركة اكثر من خيرها، وإثمها اكبر من نفعها،

سمعنا غير واحد من أهل الفهم والرأي يقولون إن تعصب القبط بعضهم لبعض وتعاونهم على مصالحهم الملية يعد من الأمور الطبيعية في الاجتماع فان الفئة القليلة إذا لم تعتصم بعروة التعصب فانها تذوب وتفنى في الامة الكبيرة التي تعيش معها فالقبط معذورون في سيرتهم التي هم عليها لأنها طبيعية لابد منها

ونقول نعم إن ذلك طبيعي وبديهي ولكن ما كان كذلك يجب الاعتراف به ويستنكر جحوده فما بالك بادعاء ضده. ثم انه ليس من الطبيعي البديهي أن تكون الفئة القليلة في الأمة الكبيرة مهاجمة في جهادها الاجتماعي فتطلب ما تبغي بالطريقة التي جرت عليها القبط في هذه الأيام الإإذا كان لها حدث جديد، أوأوت الى ركن شديد،

يعبرون عن أنفسهم في مقام مطالبة المسلمين بما يطلبون بالأمة القبطية ويبذون بأنهم أصحاب البلاد، لأنهم سلالة فرعون ذي الاوتاد، ويجهرون بأن المسلم فيها أجنبي محتل، وآثاوي معتد، وينكرون على المسلمين أن يكون لهم فيها حق من حيث هم مسلمون فاتحون، ولا ينكرون على أنفسهم أن يدعوا الحقوق فيها من حيث هم قبط مسيحيون، وهم في الحقيقة رعايا ذميون، فما هو الحدث الجديد الذي أنطقهم بهذا اللسان، وما هو الركن الشديد الذي يأوون اليه الآن،

لا يظهر لنا حدث غير ما بيناه من تغير السياسة الانكليزية في البلاد وعزمها على السماح للأمير بتأليف مجلس نيابي فيها يشترك معه فيما يسمونه مسؤلية إدارتها. ولا نعرف لهم ركنا فيما صمدوا اليه الا رغبة السياسة الأوربية عامة والانكليزية خاصة في نبز نهضة المسلمين بالتعصب الديني — فهذا ما رأوه من موقع الضعف في المسلمين والقوة لهم، لهذا جعلوا قول الشيخ عبد العزيز شاويش وهو على رأيهم دخيل في مسلمي

مصر برهاناً على ان في مصر تعصباً إسلامياً لا يلبث ان ينفجر بركانه فيدفن القبط وسائر النصارى معهم تحت مقذوفاته النارية . وقد طلبوا من الحزب الوطني ان يتبرأ من هــذا القول ففعل ومن العجب انهم لم يرضوا، ويقال انه قد تجددت لهم صلة ودية برئيس أساقفة الكنيسة الانكليزية ، وأنه رغب اليهم في الرجوع اليه والتعويل في رغائبهم عليه ،

ولكن فاتهم على حذقهم أن السياسة (لا سيما الانكليزية منها) اذا قررت أمراً أنفذته لا محالة لا يصدها عنه مراعاة فئة صغيرة ولا كبيرة ، ولا مسألة اختراعية كمسألة التعصب الاسلامي ، او حقيقية كإزالة السلطة الشخصية وحماية الحرية القومية ، فنبشرهم بأن السياسة الجديدة التي بينها المنار في الجزء الماضي واقعة مالها من دافع . وأمر مجلس النواب في هذه البلاد صار موكولا الى ارادة أميرها باختيار المحتلين ورضاهم أو كاده فان نجحت الحركة القبطية فقصارى نجاحها ان تكون سبباً في تأخيره عاماً او أكثر وما ذلك بالربح الكثير في جنب ما يخسرون من مودة المسلمين بما اشتملت عليه مقالاتهم من التهكم بمجد الاسلام الاول والشماتة بزواله كالتعبير عنه « بالعظمة البالية » ورمي المسلمين السابقين بظلمهم وظلم غيرهم ، واللاحقين بالتعصب عليهم وعلى أهل دينهم ، وبمطالبة جميع كبراء المسلمين وكتابهم بأن يعتذروا لهم عن مقال الشيخ عبد العزيز وان كانوا هم البادئين بالعدوان وقد أصرّوا عليه بجعل ذنب الشيخ عبد العزيز ذنباً لجمهور المسلمين ، وبالسعي في جمع كلمة نصارى السوريين والروم والأرمن اليهم لمقاومة المسلمين كما روي لنا ويؤيده مايكتبون في الجرائد ، وبترجمة الأقوال السيئة التي يكتبونها ويكتبها الآخرون باللغات الأوربية ، لإيهام أوربا ان في البلاد تعصباً ربما يفضي الى ثورة دينية ،

أول خسارة خسروها بهذه المغاضبة هي اعتقاد المسلمين ان دعوة الوطنية التي قاموا بها في هذه السنين قد كانت خسارا عليهم وربحا للقبط وحدهم . فان دعاة هذه الوطنية من المسلمين كانوا يعنون بها ان يتحدوا بالقبط ويتعاونوا معهم على مقاومة السلطة الاجنبية ولذلك رضوا بأن يساووهم ويؤاخوهم مع العلم بأن الحكومة في صفتها الرسمية إسلامية تابعة لخليفة المسلمين باتفاق الدول ، بل غضوا النظر في الغالب عن

رجحانهم عليهم لهذا الغرض . فتبين لهم ان القبط لا يرضون بهذا الاتحاد من كل وجه بل يستفيدون منه ويحولون دون استفادة المسلمين شيئاً منهم ، حتى نفي التعصب عنهم ، ثم يبنون أعمالهم كلها على أنهم أمة ممتازة لا عضو في جسم الأمة المصرية او الشعب المصري - وانهم لا يرضون بمقاومة الاجنبي ولا يودون استقلال البلاد دونه - وانهم اذا وجدوا فرصة لمواثبة المسلمين واثبوهم من أضعف جانب فيهم كنبزهم بلقب التعصب ومعاداة النصارى في هذه الأيام . فاذا كانت نتيجة دعوة المسلمين الى الوطنية المصرية بلسان جرائدهم وخطبائهم واحزابهم وعد القبطي أخالهم ، والمسلم غير المصري « دخيلا » فيهم ، ان تقوم عليهم جرائد القبط وجمعياتها الدينية ، وأنديتها القومية ، ترميهم بالغلو في التعصب والتواطؤ على إبادة النصارى فأي فائدة لهم في هذه الوطنية ؟ بل أي غائلة شر عليهم منها ؟؟

أقول إن في هذا خسارا للقبط لأنه ربما يغري المسلمين بمناظرتهم والتشبه بهم في جمعياتهم الدينية وترجيحهم لأبناء ملتهم في جميع الأعمال والمصالح ، واذا دب في المسلمين الشعور بوجوب ترجيح المسلم على القبطي كما تفعل القبط فان ذلك يثمر حرمان ألوف من القبط من موارد الرزق السائغة في دوائر المسلمين الخاصة بل ربما يعوزهم - اذا تمادى وعظم - القيام باستغلال أرضهم كما يستغلونها الآن بمساعدة المسلمين . دع عنك مصالح الحكومة التي اكثر عمالها من القبط ولولا تساهل المسلمين وعدم عنايتهم بالمسابقة والمناظرة لكان الامر على غير ما هو عليه الآن

وناهيك بالخسارة المعنوية التي هي عند أهل الآداب العالية شر من خسارة المال وهي ما يخشى ان يكون من التقاطع والتدابر بين العشراء والخلطاء والجيران والأصدقاء

فالرأي عندي للقبط أن لا يغتروا بترجيع بعض الجرائد الأفرنجية لأصواتهم في الشكوى من المسلمين والقول بتعصبهم ولا من سرور بعض الانكليز به - ان كان ما قيل من ذلك حقاً - فانهم مهما أصابوا من تعضيد في مشاقة المسلمين فهو لا يكون خلفاً صالحاً لمودتهم فيما أرى . فأنصح لهم أن يتوبوا مما فعلوا ويعتذروا عنه و يعودوا إلى سابق شأنهم أو إلى خير منه ان استطاعوا والمسلمون تغلب عليهم سلامة القلب فلا يلبثون

ان يغفروا لهم، وينسوا ما كان منهم، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي « المؤمن غرٌّ كريم » أي ليس بذي نكر ولا مكر ولا خداع . ولولا اني أحب الوفاق لما نصحت لهم بهذا فانني أعلم ان هذه المشاقة لا تزيد المسلمين الا قوة في رابطتهم الاسلامية التي أدعو اليها، وحفظا لحقوقهم التي أغار عليها، ولكنني أفضل أن يكون تنبيههم لذلك بغير هذا، أحب ان يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا وان يكونوا مع ذلك على وفاق ووئام مع من يعيش معهم . وأنصح للمسلمين ان لا يكتبوا شيئاً في الرد على القبط — ولو لم يكتبوا في الماضي ما كتبوا لكان خيراً لهم وأحسن إطفاء لتلك الفتنة وخذلانا لموقظيها — ولكن لا بأس ببيان عدد الموظفين منهم في كل مديرية وذكر الوقائع في تعصب بعضهم لبعض، وتعاونهم الملي المحض، من باب بيان الحقيقة والاعتبار بها، بشرط ان يتحرى الصحيح، ولا تمزج الرواية بشيء من التأنيب والتجريح، فضلا عن الهجر والتقبيح،

ومما يحسن البحث فيه ايضاً بيان ان القبط لا يمتازون بحق رسمي على غيرهم من النصارى المتجنسين بالجنسية المصرية من السوريين والأرمن والروم ومن اليهود أيضاً وانما ميزهم المسلمون في مقالاتهم وخطبهم التي يجعلون فيها المصريين عنصرين فقط ويعدون القبط إخوانهم دون غيرهم من الذين جعلوا مصر وطناً لهم ويعدهم القانون المصري مصريين لولادتهم بمصر او لاقامتهم فيها ١٥ سنة او أكثر فالنسب القديم ليس شرطا للوطنية ولا للجنسية عند أحد من الامم ولا في شيء من قوانينها . فاذا كان من الحق مطالبة القبطي بأن يكون مديرا كان من الحق ان يكون السوري الذي تجنس بالجنسية المصرية مديرا ووزيرا، فالحق انه لا فرق بين ابن اخنوخ افندي فانوس، وابن يعقوب افندي صروف، فالوطنية الحقيقية هي المساواة بين جميع العناصر التي تقيم في البلاد وتحكم بقوانينها . الا أن يكون للطائفة الحاكمة بعض المزايا في القوانين العامة «وطبيعة الحكومة»

فما يبحث فيه هنا طبيعة الحكومة المصرية ودينها الرسمي فاذا كانت لاتزال حكومة إسلامية خلافا لما يقول بعض القبط علم ان طلب هذه الطائفة مساواة المسلمين في كل شيء في غير محله . واذا كانت قد خرجت عن كونها إسلامية وعن كون

أميرها وكيلا لخليفة المسلمين فيجب البحث في تعيينه للقضاة الشرعيين ، ولادارته لأوقاف المسلمين ، ولتعيينه للخطباء وأئمة المساجد ونحو ذلك من المسائل الشرعية هل هي مع ذلك حقوق شرعية له ام هو لا يملكها الآن الا بالتغلب والقوة المستمدة من القبط وغيرهم دون ولاية الشرع لان البلاد خرجت عن كونها دار إسلام ؟ ؟ يهم المسلمين جدا ان يعرفوا ذلك لانه يترتب عليه احكام شرعية كثيرة منها ماهو ديني محض وما هو مدني شرعي

تسمي القبط ماتطلبه الآن مساواة بالمسلمين وهو مساواة من وجه وامتياز عليهم من وجه آخر . فاذا كانت حكومة مصر غير اسلامية وكان المسلمون فيها لا يمتازون بشيء قط فلماذا تكون أمورهم الملية الخاصة كالمحاكم الشرعية والاوقاف والمدارس الدينية تحت سلطة الحكومة المشتركة وتكون امور القبط الملية وأوقافها في أيديها ؟ اليس يكون هذا من امتياز القبط على المسلمين ؟

يغلب على ظني ان زعماء الحركة القبطية اذا فكروا في الأمر من جميع وجوهه فانهم يفضلون السكون والسكوت على التمادي في هذا العدو والصياح الا ان يكون الركن الشديد الذي يأوون اليه قد ضمن لهم ان يكونوا هم الراجحين بمشاقتهم للمسلمين وإثارتهم لسخطهم وتعرضهم لمقاومتهم

لولا أنني اظن صدق الخبر الذي اوردته في الجزء الذي قبل هذا عن السياسة الانكليزية الجديدة بمصر لغلب على ظني ان الركن الذي تأوي اليه القبط في هجتهم هذه هي السر الدن غورست نفسه والوزارة الانكليزية من ورائه أما وانا مصدّق لذلك الخبر فلا يبعد عندي ان يكون ركنهم بعض المحافظين من الانكليز ورئيس اساقفة كنيستهم (كنتربري) والا كانت القبط طائفة حمقاء وما عهدتها الا طائفة كياسة وروية ، وحزم وتدبر ، وستزيّل لنا الايام ، بين الحقائق والأوهام ،

فاذا فازت القبط في سعيها فامتنع الانكليز عن السماح للامير بانشاء المجلس النيابي وتقرر بالفعل انه لافرق بينهم و بين المسلمين في الحكومة — وما ذلك بمحال —

فاني اشهد للقبط بأنها أرقى طوائف الشرق الادنى في السياسة والاجتماع وجميع مقومات الحياة الملية لا أقرن بها تركيا ولا عربيا سوريا ولا غير سوري ولا أرمنيا بل ولا يهوديا . ويتبع هذه الشهادة انها تكون احق في الواقع ونفس الامر بالحكم في البلاد ، وتُعذر في التشوّف الى الاستقلال ، وتكون مصيبة في تسمية نفسها « امة » ، وحقيقة بان تكون في المستقبل ذات دولة ، ويقال انها تطمع في ذلك فان صح ماقيل كان برهانا على علو همتها ، وثقتها بنفسها في وحدتها

وخلاصة القول ان طائفة القبط قامت تطلب مطالب لنفسها من حيث هي امة ومن حيث هي صاحبة الحق في حكم البلاد وظهر انها فيه متكافلة متضامنة متحدة فناقشها افراد من المسلمين بصفتهم الشخصية لا باسم حزب من الاحزاب ولا جمعية من الجمعيات ووافقها بعض آخر كما وافقتها الاحزاب وهي مع ذلك تنسب مناقشة الفرد الى الحزب او الى الامة . وقد استعمل بعض الكاتبين من الفريقين الهجر والسباب ، والتنابز بالالقاب ، فكانوا فيه سواء ، الا ماهو من صناعة البلغاء ، ولكن القبط تطلب ان يعتذر لها الجميع عن الافراد ، وهي لا تعتذر للجميع عما تقول بلسان الجميع ، فاذا قلنا ان الفريقين قد تعادلا في الاهانة فتساقطا فليس لاحد حق في ذلك على آخر بقي معنا انه ليس في البلاد وطنية حقيقية ، وأنه لا يزال يغلب على الفريقين نزعة الرابطة الدينية ، (وان تنصل من ذلك كل منهما) وأن هذه الحركة أضعفت ماقام بعض الأحزاب والافراد ، من الدعوة الى المساواة والاتحاد ، وان القبط أعرق في النزعة الملية ، وابعد عن حقيقة الوطنية ، اذ من مقتضى الوطنية ان لا يطلبوا لأنفسهم شيئا من حيث هم قبط وان لا يسموا انفسهم أمة وأن لا يتعصب بعضهم لبعض في المصالح والاعمال ، كما يعرف كل احد منهم الآن ، وأن يرضوا بما تختاره الحكومة من التدريج في نقل البلاد من حال الى حال ، أو يكتفوا ببث رغائبهم الى وزيرهم الناصح لهم ، الغيور عليهم ، المتفاني في ترقيتهم ، وهو لا يدع فرصة يتمكن فيها من اعطائهم حقا جديدا الا و ينتهزها انتهازا ، ويجعلها سيفا في يده لا عكازا

واذا كان الأمر كذلك في الوطنية ، وفي هذه الحركة القبطية ، فما هو تأثيره

في رغبة المسلمين وهي المجلس النيابي وفي رغبة القبط وهي نيل ما بقي من أعمال الحكومة بين الوزارة والقضاء كالمديرية ومأمورية المركز ؟ ؟

اما الأول فمن الجلي الواضح ان ضعف الوطنية ، لا يقتضي ان تبقى حكومة البلاد استبدادية ، لأن حكومة الشورى أبعد من الحكومة الشخصية المطلقة عن الظلم غالباً ، ولذلك فرح مسلمو روسيا بإنشاء مجلس النواب (الدوما) في حكومتهم على قلتهم في جانب الروس المشهورين بالتعصب . على انه إذا فرض ان الحكومة الشخصية المطلقة خير للقبط من جهة التمتع بالوظائف فان ذلك الحظ الذي يصيب افراداً من فئة قليلة في الأمة الكبيرة لا يصلح مرجحاً لعدم ترقية حكومتها لأن ذلك ترجيح للأفراد القلائل على الجمهور الكبير فهو من قبيل ترجيح المصلحة الخاصة على المصلحة العامة

وأما الثاني فإذا فرضنا ان حكومة مصر خرجت عن كونها إسلامية والبلاد عن كونها دار إسلام فمن السياسة والحكمة في الادارة ان لا يكون القبطي الآن مديراً في مديرية فيها مئات الألوف من المسلمين وليس فيها إلا آحاد الألوف أو المئين من القبط وان ينتظر في ذلك تكوّن الوطنية الحقيقية ، التي تمتزج فيها جميع العناصر المصرية ، فلا ينزع احد منها الى الامتياز بجنسه ونسبه ، ولا بدينه ومذهبه ، فان استعجلنا فجعلنا القبط مديرين لامور المسلمين ، والحال على مانعلم منهما ، او مايدعي كل منهما ، فاننا نكون قد أثرنا العدوان ، وأرّثنا الأضغان ، ووضعنا في طريق الوطنية سدًّا لا يُدك ولا يُظهر ، وعقبة لاتزول ولا تقتحم ، او قدمنا النتيجة على المقدمات ، وطلبنا الثمرة ، قبل خروج الشجرة ،

فالمعقول إذاً ان تكون حركة القبط الجديدة مبعدة لهم عن مطلبهم الظاهر ، ولكن ربما لا تكون مبعدة عن غرضهم الباطن ، والله أعلم بالسرائر ، وانما نحن نحكم بالظواهر ، وهذا ماراه الكاتب فيه من الصواب ، فإن تبين له انه مخطئ فيه بادر الى المتاب ، واستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

بحث ما ومن وتفسير سورة الكافرين ١٠٦

(س ٥) من محمد حسيب افندي عامر وكيل تلغراف (بلبيس — شرقية)

حضرة العلامة المفضال صاحب المنار

بعد السلام والتحية نرجوكم ايضاح معنى لفظة « ما » وما تشير اليه في قوله عز وجل ـ لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد ـ فإني إن أعطيتها حكم غير العاقل كقاعدتها النحوية استحال ذلك على المولى سبحانه وتعالى وان اعطيتها حكم العاقل فالأصنام وما كانوا يعبدون ليست بذي عقل أفيدوني مأجورين والسلام

(ج) قالوا ان لفظ « ما » هنا أريد به الصفة اي «المعبود» واذا أريد بها الصفة تطلق على العاقل وغيره . وجوز بعضهم ان يكون اطلاقها على الله عز وجل بعد اطلاقها على الاصنام من قبيل المشاكلة لاجل التناسق في التعبير . ولعل السائل يعلم انه نقل عن سيبويه وغيره ان كون « ما » لما لا يعقل أغلبي لا مطرد والشواهد عليه من التنزيل وكلام العرب معروفة . قال الزمخشري في الكشاف : «وما» عام في كل شيء فاذا علم فرق بما ومن وكفاك قول العلماء « من لما يعقل» اه اي فاطلقوا «ما» على العاقل في نفس القاعدة التي ذكروا فيها ان « من » خاصة بالعاقل . وفي حاشية الامير على المغني بعد ذكر عبارة الكشاف : قال التفتازاني اي يصح إطلاق ما على ذي العقل وغيره عند الابهام لاستفهام او غيره فاذا علم ان الشيء من ذوي العلم والعقل فرق بمن وما فتختص « من » بالعاقل و « ما » بغيره . وبهذا الاعتبار يقال ان ما لغير العقلاء . واستدل على اطلاق « ما » على ذوي العقول باطباق

أهل العربية على قولهم « من لما يعقل » من غير تجوز في ذلك حتى لو قيل « لمن يعقل » كان لغوا بمنزلة ان يقال : الذي عقل عاقل . فان قيل كان الواجب هنا ان يفرق بما ومن لان ما يعقل معلوم انه من ذوي العلم . قلنا نعم لكن بعد اعتبار الصلة أعني « يعقل » . واما الموصول نفسه فيجب ان يعتبر مبهما مرادا به شيء ما ليصح في موقع التفسير بالنسبة الى من لا يعلم مدلول « من » وليقع وصفه بيعقل مفيدا غير لغو . ومحصله انك ان لاحظت العاقل من حيث انه عاقل استعملت فيه « من » وان لاحظته من حيث انه شيء ما استعملت فيه « ما » كما تقول : ما الانسان ؟ اه وانت تعلم ان (ما) في السورة ليست لبيان ان مدلولها عاقل او عالم بل لبيان انه شيء معبود فاستعمل فيه اللفظ العام الذي تفسره الصلة

هذا . واني رأيت بعض الناس لا يفهمون معنى السورة وقد سألني غير واحد بالمشافهة عن معنى ما فيها من صورة التكرار فأحببت ان اورد هنا ما كتبه الاستاذ الامام في تفسيرها تتمة للفائدة وهو :

« الكافر هو المعاند الجاحد الذي إذا رأى ضياء الحق أغمض عينيه ، واذا سمع احرف من كلمته سد أذنيه ، ذلك الذي لا يبحث في دليل بعد عرضه عليه ، ولا يذعن لحجة إذا اخترقت فؤاده ، بل يدفع جميع ذلك حبا فيما وجد نفسه فيه مع الكثير ممن حوله ، واستند في التمسك به إلى تقليد من سلفه ، فهذا الصنف هو الذي قال الله فيه (٨: ٢٢ ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ٢٣ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) . بعض هذا الصنف بل الغالب من أفراده يقول للداعي إلى الحق أو يحدث نفسه ليلهيها عن فهمه : الام يدعونا ؟ أإلى الله فنحن نعتقد به ؟ أإلى توحيده فنحن نوحده ؟ وغاية ما في الأمر نتخذ شفعاء اليه ، نسأله بحقهم عنده أو بمكانتهم لديه ، أإلى عبادته فنحن نركع ونسجد له ؟ وغاية ما عندنا زيادة على ذلك أننا نعظم أولياءه وأهل الشفاعة عنده ونتوسل اليهم ليتوسلوا اليه . هذه وساوسهم وهذه أمانيهم فأراد الله سبحانه أن يقطع العلاقة بينهم وبين ما عليه الداعي الى الحق صلى الله عليه وسلم بأصرح ما يمكن أن يصرح به فقال له (١ قل يا أيها الكافرون ٢ لا أعبد ما تعبدون) أي ان الاله الذي تزعمون

أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده لانكم انما تعبدون ذلك الذي يتخذ الشفعاء أو الولد أو الذي يظهر في شخص أو يتجلى في صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون وانما أعبد إلهاً منزهاً عن جميع ما تصفون به إلهكم (٣ ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي انكم لستم بعابدين إلهي الذي أدعو اليه كما تزعمون فانكم زعمتم أن الذي تعبدونه يتقرب اليه، بتعظيم الوسائط لديه، فتوسلتم بها اليه، وتعتقدون أنه يقبل توسطها عنده، فهذا الذي تعبدونه ليس الذي أعبد فلهذا لاتعبدون ما أعبد بل تعصونه وتخالفون أمره. ثم لما كانوا يظنون أن عبادتهم التي يؤدونها أمام شفعائهم، أو في المعابد التى أقاموها لهم وبأسمائهم، أو يؤدونها لله في المعابد الخاصة به أو في خلواتهم، وهم على اعتقادهم بالشفعاء — عبادة لله خالصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم في شيء نفى أن تكون عبادته مماثلة لعبادتهم وأن تكون عبادتهم مماثلة لعبادته فقال (٤ ولا أنا عابد ما عبدتم) فما هذه مصدرية وليست بالموصولة مثل التى تقدمت أي ولا أنا بعابد عبادتكم (٥ ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي ولا أنتم عابدون عبادتي. فمفاد الجملتين الاولين الاختلاف التام في المعبود ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة لان معبودي ذلك الاله الواحد المنزه عن الند والشفيع، المتعالي عن الظهور في شخص معين، أو المحاباة لشعب أو واحد بعينه، الباسط فضله لكل من أخلص له، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه، والذي تعبدونه على خلاف ذلك. وعبادتي مخلصة لله وحده وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى فلا تسمى على الحقيقة عبادة فأين هي من عبادتي (٦ لكم دينكم) دينكم مختص بكم لا يتعداكم إليَّ فلا تظنوا اني عليه أو على شيء منه (ولي دينِ (*)) أي ديني هو دين خاص بي وهو الذي أدعو اليه، ولا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه، ولا يخفى أن هذا المعنى الذي بيناه هو ما يهدي اليه أسلوب السورة الشريفة خصوصا هذه الآية الاخيرة « لكم دينكم ولي دين » فانها صريحة في ان المراد نفي الخلط المزعوم. وما دلت عليه السورة هو ما دلت عليه آية (٦: ١٥٩ ان الذين فرقوا

(*) لفظ « دين » مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة لاجل الوقف

دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) أي لاعلاقة بينك و بينهم لافي المعبود ولا في العبادة. وأما ماقيل من غير ذلك فان صح شيء مما ورد فيه فاحمله على معناه مستقلاً عن معنى السورة ولا تغتر بكل ما يقال فأفضل ما تفهم هو أقرب ما يُفهم والله أعلم » اه

النقوط

(س ٦) ومنه :

حضرة العلامة المفضال صاحب المنار الغراء . بعد السلام والتحية — أرشدونا أرشدكم الله : « هل ما يسمى (النقوط) المتعارف والمستعمل بين أفراد الأمة المصرية في الأفراح وما شابهها سواء كان ذلك بالنقدية أو ما يقوم مقامها محلل أم محرم وما الدليل أفيدونا مأجورين » :

(ج) كل ما يبذل من المال بالرضا والاختيار تبرعاً فلا حرج على باذله ولا على المبذول له إلا ان يقصد به الاعانة على عمل محرم كالفسق والفساد في الأرض والنقوط لا يقصد به شيء من المحرمات فيما نعلم وانما هو إكرام من قبيل الهدية والاصل في جميع التصرفات المالية الإباحة فالقول بها لا يحتاج الى الدليل وانما يستدل على المحرم لأن التحريم خلاف الاصل

حديث من زار قبر والديه يوم الجمعة

(س ٧) من الشيخ احمد شرف الدين بالازهر

حضرة الاستاذ السيد رشيد رضا المحترم

سلام على حضرتكم و رحمة الله . اما بعد فقد جمعني وجماعة من اكابر علماء الأزهر الشريف مجلس فسمعت منهم حديثاً لم اسمعه من قبل وحيث لم ارعليه بلاغة سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم ولحضرتكم سعة اطلاع على السنة الصحيحة اردت عرضه على مسامع سيادتكم حتى اذا كان صحيحاً أيدتموه ونشرتم ذلك بمناركم المضيء وان كان ضعيفاً او غير حديث اوضحتم سبيله ولكم الفضل والحديث هو (قال صلى

الله عليه وسلم من زار قبر والديه يوم الجمعة فكأنما حج ومن زار احدهما فقد أتى بعمرة) واذا صح هـذا فلا لوم اذا على مزاحمة النساء للرجال في زيارة القبور لان كلا يريد ان يحج

(ج) الحديث ظاهر الوضع ولم أر من خرجه بهذا اللفظ وقد علمت ان من علامات الحديث الموضوع بناء الثواب الكبير على العمل القليل . وقال في الفوائد المجموعة حديث « من زار قبر والديه او احدهما يوم الجمعة غفر له » في اسناده وضاع وله شاهد في اسناده ضعف . وروي « من زار قبر ابيه او أمه او عمته او خالته او احد اقاربه كتب له حجة مبرورة » ولا أصل له اه

ولعله يعني بحديث الشاهد « من زار قبر والديه او احدهما في كل يوم جمعة غفر له وكتب براً » لما فيه من الزيارة عزاه في الجامع الصغير الى الحكيم الترمذي عن ابي هريرة وعلم عليه بالضعف وفي اسناده محمد بن النعمان مجهول وشيخه يحيى بن العلاء الرازي البجلي متروك بل قال الامام احمد انه كان يضع الحديث فهو موضوع لا ضعيف ولا شك عندي في ان كل ماروي في هذا المعنى موضوع اختلقه المختلقون بعد اعتياد الناس زيارة قبور الاقربين في ايام الجمع ولم يكن ذلك من سنة النبي ولا اصحابه في شيء

زيارة الحرم النبوي واستئذان ملك الموت على النبي (ص)

(س ٨ و ٩) من محمد افندي حلمي الكاتب الاول لمركز المسلمية (السودان)

حضرة سيدي الحسيب النسيب الفاضل الافخم العلامة الكامل السيد محمد رشيد رضا حفظه الله . عليكم منا السلام والرحمة والبركة والاكرام وبعد فأرجو من فضلكم وكرم اخلاقكم المشهورة الاجابة على السؤالين الآتيين وارجو ان كان سبق لسيادتكم التكلم عنهما في مجلدات غابرة ان تجيبوني عليهما واكون ممنونا جداً لو تفضلتم وتكرمتم بدرجها في أول عدد لاهمية لزومهما عند الجمهور خصوصاً في هذه الاصقاع ولا خلاف بأن فضيلتكم أصبحتم مشهورين بالعلم والفضل في جو علوم العربية بل صرتم لنا من اركان الاسلام والله على ما أقول وكيل وهو حسبي ونعم الوكيل

س « ١ » هل زيارة الحرم المدني سنة وهل كل احد مكلف بزيارته بعد الحرم المكي

س « ٢ » هل ملك الموت قد استأذن سيدنا محمداً في قبض روحه الشريفة وكيف كان ذلك وهل صح انه لم يسبق له أن استأذن على أحد قبله كما يزعمون او يذيعون ؟ هذه هي اسئلتي ياسيدي وقد اقنعت المجادلين لي في السؤال الاول نقلا عن اغاثة اللهفان للامام الحجة ابن القيم فلم يقنعوا واما السؤال الثاني فلم اتكلم عنه بشيء لعدم معرفتي حقيقته ولم اعثر في الكتاب المذكور على شيء بخصوصه وجميع المجادلين لي ابوا ان يقتنعوا حتى ينظروا جوابكم بالمنار لاعتقادهم فيه وهم من الاهالي والمستخدمين . ومن المستخدمين مشتركون في مجلتكم الزاهرة ولكن كلفوني أن اكتب انا وعلى اي حال فانا ممنونين وتجدنا منتظرين بفارغ الصبر افندم

زيارة مسجد الرسول (ص)

أما الجواب عن الاول فهو ان زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم مندوب اليه لا مفروض على المسلمين كالحج كما يتوهم العوام . وحسبك في الترغيب فيه قوله (ص) « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام » رواه احمد البخاري ومسلم وغيرهم من حديث ابي هريرة . واحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر وغيره . وقوله « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الاقصى » ر اه احمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن من حديث ابي هريرة وابي سعيد الخدري . ورواه غيرهم عنهما وعن غيرهما

استئذان ملك الموت على النبي (ص)

وأما الجواب عن الثاني فهو أن الحديث في ذلك لا يصح ولا عبرة بسكوت بعض أهل السير عليه ولا بذكره في بعض الخطب التي قلما تحرى أصحابها الصحاح من السنن والآثار بل أولع أكثرهم بالواهيات والموضوعات

روى حديث استئذان ملك الموت على النبي صلى الله عليه وسلم وتخييره بقبض روحه الشريفة الطبراني في المعجم الكبير عن جابر وابن عباس في حديث طويل قال المحدثون انه منكر في إسناده عبد المنعم بن ادريس اليماني القصاص عن أبيه عن وهب بن منبه . قال الامام أحمد كان يكذب على وهب بن منبه . وأبوه إدريس متروك أيضاً قاله الدار قطني . ورواه أيضاً من حديث الحسين بن علي وهو منكر أيضاً في سنده عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث . وقال أبو حاتم متروك

الرد على كتاب اللورد كرومر

صاحب الحق لا يسكت عنه وان طال عليه الامد وانا سننشر في المنار بعض ما نكتبه في دفع هجمات اللورد فيما كتبه عن الاسلام ونودع جميع ما نكتبه في مصنف خاص . ونعتمد في أقواله على ترجمة المؤيد (مع تنقيح ما في العبارة) فنبدأ بعبارته ثم نقسم القول ونرد على كل قسم منه بالتفصيل

﴿ القسم الثاني ﴾

« كلامه في الاسلام والمسلمين »

قال اللورد في سياق الكلام في المقابلة بين الانكليزي والمصري ما ترجمته :

«قلت فيما تقدم ان التقاليد الدينية هي من جملة الموانع الكائنة بين الانكليزي والمصري فان الانكليزي على كونه أحد أفراد العائلة الاوربية من جهة التمدن العمومي يحاول أكثر من كل أوربي آخر أن يصل الى اسمى درجات الرقي من التمدن المسيحي أي انه يحاول أن يدخل نظام آداب مسيحي صريح (في المعاملة) ويجعله قاعدة للملاقات بين الرجل والآخر . يحمله على ذلك تلك المبادئ القديمة التي جاءته من أسلافه والدم البيوريتاني الذي لا يزال يجري في عروقه .

«ومن الجهة الاخرى نرى المصري متمسكا كثيراً بدين الاسلام وهو التوحيد الشريف الذي ينوب فيه الايمان الى درجة قصوى عن الوطنية في البلدان الشرقية

وهو وسيلة للاتحاد العام بين جميع المسلمين من دلهي الى فاس ومن الاستانة الى زنجبار اذ يتحولون للصلاة نحو منبع دينهم وهو قبلتهم .

«فما هي القواعد الاساسية لهذا الدين الذي أثر تأثيراً عظيماً في الجنس البشري؟ انها مبينه في القرآن الشريف وقد شرحها العلماء من جميع الامم بلغات كثيرة ولكن عظمتها الاصلية وسهولتها لم يبينا بأكثر بلاغة مما بينها به اتباع النبي الاولين الذين انطرحوا عند قدمي ملك الحبشة المسيحي يطلبون حمايته لهم من اعتداء عرب قريش إذ قالوا « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث الرسل الى من قبلنا وذلك الرسول منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله تعالى لنعبده ونوحده ونخلع (أي نترك)ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الاحجار والاوثان وأمرنا ان نعبد الله وحده أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الارحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به »

« هذه هي قواعد الدين الاسلامي . ان العمل بهذه القواعد قد أفاد مئات الملايين من الذين اعتنقوا الاسلام — وخصوصاً الفقراء بينهم — عزاء روحيا فضلا عن النعم المادية من خيرات هذا العالم وأمل الخلود في العالم الآتي . ولا ريب أن الهيئة الاجتماعية الاصلية تستفيد كثيرا من اعتناق الدين الاسلامي . وقد قال السير جون سيلي عما عرفه بقوله « قوة الدين التي تنشئ الممالك » ما يأتي

« أينما وجدت قبيلة بربرية قد رفعت نفسها يوما ما حتى ارتقت عن حالها الهمجية ونالت بعض التقدم تجد أنها فعلت ذلك عادة بواسطة اعتناقها الدين الاسلامي » اه

« ولسوء الحظ نرى ان المصلح العربي العظيم الذي قام في القرن السابع (يريد به محمداً صلى الله عليه وسلم) قد اضطرته دواعي مركزه يومئذ الى القيام بأكثر من تأسيس دين . انه حاول ان يوجد نظاماً اجتماعياً . فكانت النتائج لهذا النظام هي التي وصفها المستر ستانلي لاين بول — وهو الرجل الذي راقب مراقبة دقيقة ما في الاسلام من

وجوه القوة والضعف – إذ قال « ان الاسلام عظيم من حيث كونه ديناً وقد علم الناس أن يعبدوا الها واحداً عبادة طاهرة وقد كانوا من قبل يعبدون آلهة كثيرة عبادة غير طاهرة ولكن الاسلام اخفق اخفاقاً كاملاً بصفته نظاماً اجتماعياً »

قال لورد كرومر : ان الاسباب التي اوجبت فشل الاسلام من حيث هو نظام اجتماعي متعددة (أولها) وأعظمها مكانة ان الاسلام يجعل المرأة في مركز منحط جداً . (ثانيها) ان الاسلام بمراعاته التقاليد المحيطة بالقرآن اكثر من القرآن نفسه جمع بين الدين والشرع فجعلهما جزءاً واحداً غير قابل للتفريق او التغيير فنتج عن ذلك ان تلاشي من النظام الاجتماعي مافيه من المرونة . فان المصري حتى الآن اذا لجأ الى الشرع في امور الوصاية فان قضيته يحكم بها بمقتضى المبادئ الضيقة التي وضعت لما يوافق احوال الهيئة الاجتماعية الاولى في شبه جزيرة العرب في القرن السابع

« ومنذ سنوات قليلة أي سنة ١٨٩٠ أوضح مفتي الديار المصرية الاكبر كيف تعاقب عصابات اللصوص التي يثبت ارتكابها لجريمة الاعتداء بالسلاح ليلا على احدى القرى فقال انه يمكن ان يعاقب المجرم على ستة وجوه مختلفة فإما ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ثم يقطع رأسه او يشوه جسمه كما تقدم ثم يصلب بعد ذلك او ان يقطع رأسه فقط او ان يصلب فقط أو أن يقطع رأسه اولا ثم يصلب بعدئذ . وأفاض المفتي في تقريره عن كيفية صلب المجرم وهو ان يربط الرجل الى صليب في شكل معين ثم يوخز بحربة في الجانب الايسر وتبقى الحربة وهي تحز في محل الجرح الى أن يموت

« ثم ان بعض المسلمين قد عمدوا بنية حسنة الى تشويه الشرع المقدس . اذ اقلقوا خواطرهم في اختراع وسائل يريدون فيها ان يبينوا ان مبادئ القرن السابع الشرعية ونظامه الاجتماعي يمكن تطبيقهما على مجربات القرن العشرين المدنية ولكن العادة المبنية على القانون الديني مؤيدة بالمغالاة في اكرام الشارع الاصلي قد قيدت جميع المتعلقين بالاسلام بقيد من حديد لاسبيل الى النجاة منه . ولقد قيل « ان الانسان عاش في القرون الوسطى ملفوفا بقلنسوة الكاهن » فالمسلم الصحيح في الايام الحاضرة ملتف بالشرع اكثر من التفاف الناس بالقلنسوة في القرون الوسطى .

(ثالثها) ان الاسلام لا يشجع على الرق ولكنه يتساهل في الاسترقاق . فقد قال السيد (امير علي) « إن محمداً وجد تلك العادة سارية بين الوثنيين من العرب فخفض من هذا الشر » ولكنه عجز من إلغائه تماما أما أتباعه فقد تناسوا عدم تشجيعه وأجمعوا على اباحة الرق وجعله عنوانا لسلوكهم . ويليق بنا ان نقول في هذا المقام ان من الامور التي توجب الخجل على المسيحي انه لم يكتف قبل الآن بان يستعبد العبيد بل ارتكب اقبح من ذلك فكان يتخطفهم . على ان الديانة المسيحية لم توافق مطلقا على الرق .

« وقد اشتهر أخيرا ان الاسلام دين خال من التسامح وهي شهرة صحيحة من بعض الوجوه ولكن لا بد من تحديد وايضاح لهذه التهمة العامة . نعم ان اتباع النبي شهروا الحرب على الذين اعتبروهم من الكافرين وقد علمهم دينهم انه يجوز استرقاق غير المؤمن متى اخذوه اسيرا في الحرب وزد على ذلك أن الخصام الطائفي كان كثيرا فقام السنيون في وجه الشيعيين واضطهد السنيون الوهابيين بدون شفقة — على أن الخروج عن الاسلام يعاقب عليه بالموت وقد كان هذا العقاب ينفذ فعلا منذ سنوات غير كثيرة . ونرى من الجهة الاخرى أن تاريخ الاسلام لم يشوهه شيء من مثل تاريخ ديوان التفتيش وزد على ذلك ايضا أن المسلم اذا لم تؤثر في نفسه طوارئ خاصة مثيرة لعواطفه فهو لا يتأخر عن أن يعامل اليهودي والمسيحي بتساهل يشوبه شيء من الاحتقار . ففي قرى الصعيد لبث الهلال والصليب والجامع والكنيسة جنبا إلى جنب سنوات كثيرة

ومع ذلك نرى الاسلام يميل الى بث روح عدم التساهل وانماء الحقد والاحتقار لا للمشركين فقط بل يشرك معهم جميع المؤمنين الذين لا يقولون إن محمداً هو رسول الله

(ثم أخذ يصف الاسلام فقال) : « ان المسلم مندفعون كثيرة ما برح يؤمر ان ينتقم لنفسه من أعدائه وأن يضرب من يضربه عينا بعين وسنا بسن وعليه يجد ان الاسلام يختلف عن النصرانية في انه يغرس في العقول ان الانتقام والكره يجب أن يكونا أساساً للعلاقات بين الرجل والآخر بدلا من المحبة والاحسان . ثم ان الاسلام يحدث بغضاً خاصا للذين لا يقبلون الدين الإسلامي . يقول القرآن (٤٧ : ٤ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ... ٧ يا أيها الذين

آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم ٨ والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم . . . ١٢ ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأ كلون كما تأ كل الانعام والنار مثوى لهم)

وقد علق اللورد على الآيات في ذيل الصحيفة قوله — « ومن الجهة الاخرى نجد في سورة البقرة قوله (٢ : ٢٥٦ لا إ كراه في الدين) فالأقوال المتناقضة الكثيرة وغير المتلائمة الموجودة في القرآن لا يمكن التوفيق بينهما ولعل السبب في ذلك هو ان تعاليم محمد كانت مبنية في الا كثر على الحوادث الجارية وعلى أحوال شخصية في حياته

« نعم ان محمدا انما أشار في طعنه على الكافرين بوجه خاص الى الوثنيين الذين أقاموا في زمنه في شبه جزيرة العرب ولكن الذين فسروا القرآن بعد ذلك جعلوا تلك المطاعن موجهة الى المسيحيين واليهود وهذا الذي يفهمه الآن جم غفير من المسلمين . أليست كلمة الغازي وهي اسمى لقب يطمع باحرازه أي ضابط في جيش السلطان معناها : من يحارب في سبيل الاسلام والبطل الشجاع الذي يذبح كافراً ؟ ألا نجد ان كل عالم ألقى الخطبة في الجامع يستنزل غضب الله على رءوس غير المومنين بصراحة واضحة في كل زمان و بصراحة تزداد كثيراً عند وجود ظروف تضرم شعلة التعصب ؟ . ألا يجب أن تعتبر كل بلاد غير اسلامية ,, دار حرب ,, فمتى علمنا ان مثل هذه المبادئ ما برحت تغرس في أذهان المسلمين كل القرون الماضية لا نجد باعثاً على الدهشة من نمو روح عدم التساهل فيهم »

ثم قال بعد الامتنان على المصريين باعطاء الانكليزي لهم ما لاطيانهم وترقيته لعقولهم وآدابهم :

« ومع ذلك فان المسلم المصري — مع انه يكره الباشا التركي ويخافه الى حد أنه يدرك الفوائد التي أجزلها له الانكليزي و يعترف بسمو مداركه وكفاءته — فهو على كل ذلك لا يقدر أن ينسى ان الانكليزي يلبس على رأسه برنيطة وهو يلبس طربوشا أو عمامة . ومع انه يقبل المنافع بمزيد الارتياح فهو يذكر دائماً ان اليد التي منحتها ليست يد مسلم وهذا الامر يؤثر في نفسه أ كثر من كون الانكليزي

أجنبياً عنه . مهما بذل الانكليزي من وسائط التودد والعقل فهو عاجز عن هدم هذا الحاجز الحصين — (وهنا نقل اللورد قول المستر باتري) « الاسلام هو كل شيء للفلاح وهو يعتبر غير المؤمنين فئة قليلة حقيرة ولا يمنعه عن الفتك بهم وإعلان مبزة الاسلام الا حقيقة مكدرة له هي أنه ليس في الامكان الفتك بهم الآن »

« وليس هذا وحده الحائل بين الفريقين . فانظر إلى البدع الرئيسية وحوادث العبادة الإلهية المقارنة للاسلام وما يعارضها في النصرانية . وابحث في التائج التي تلي تحقير المرأة وقابل بين الشرقي الاسمر والغربي الابيض في القوى العقلية والادبية والعادات والفنون وعلم البناء واللغة والملبس والاذواق تجد أن الفرق بين الفريقين أبعد مما بين الخافقين . حتى انك لتجد في أقل الامور شأنا في اعمال الحياة باعثا غير محسوس ولا يعرف سببه من شأنه ان يدفع الشرقي إلى جهة مشاقة الغربي مع اتفاق أحوال الفريقين . فالمسيحي يتعلق باهداب أمل ان يلقى في السماء أولئك الذين وافقهم في الارض وهذا الامل من جمل مظاهر دينه وأكثرها عزاء له وأما اعتقاد المسلم بالخلود فيختلف اختلافا تاما عن اعتقاد المسيحي لان الحوريات اللواتي يرجو المسلم نيلهن في الجنة لم يسبق لهن وجود في هذا العالم . والمسيحي يصلي طالبا الحصول على بعض أمور أو ان يتمكن من اتمام أغراض معينة واما المسلم فهو على العموم يلفظ صلاة مرتبة معينة ويندر أن يطلب في صلواته طلبا معينا

« المسيحي يصلي صلاته اليومية في الخفاء وأما المسلم فانه يصلي جهارا بين الناس وليس لديه شيء من الخجل الكاذب دون اعترافه جهارا انه معتمد على الله في جميع أعماله وأموره . قال المطران ستانلي بعد ان درس الاديان الشرقية « ان الله موجود عند المسلمين وجودا يندر مثله عندنا في وسط العجلة الغربية وما يشوبها من الارتباك »

« ومتى صام المسيحي فهو يعمل باعتدال نهارا وينام ليلا واما المسلم فهو في صيامه ينقطع عن الاكل والشرب والتدخين ولكنه اذا جاء الليل تمتع بكل ذلك بدون ضابط

ثم ان الديانة المسيحية تنشط الفنون وتستفيد منها وأما الديانة الاسلامية فانها تكسر الصور والتماثيل وهي تحرم الصور وصناعة النقش والنحت اذا كانت تمثل شخصا حياً واما الموسيقى فلا يسمع لها صوت في جامع

«قد يكون المسيحي نظيفا بعض الاحيان اعتقادا منه ان النظافة نافعة لصحته وراحته وعنده ان النظافة تلي التقوى ولكنه لا يوجد جامعة بين الامرين وأما المسلم فهو نظيف على شكل معين لان دينه يأمره بذلك

«ثم انظر الآن الى صفات الفريقين العقلية والادبية تجد الفرق بينهما ظاهراً»

ثم بين فروقا أخرى بين المصري والأوربي والغربي والشرقي تحتمل المناقشة ولكنه لم يستنبطها من الدين فتركنا له الا قوله في انصاف الاسلام :

« وعلى ذكر الشرقي وصفاته ورقة قلبه أقول ان ما يزعج السائح في مصر من معاملة الحيوانات بقساوة لا يزيد على مايرونه في جنوبي أوربا ولعلها كما قال «لاين» في سنة ١٨٣٥ ليست غرسا منتظم النمو ولكنها ناشئة عن معاشرة الطبقات السافلة من الأوربيين فان الدين الاسلامي يوصي بالحيوان خيرا فقد قال بوسورت سميث : لا يوجد دين اهتم بحياة الحيوان أعظم من اهتمام الدين الاسلامي به فقد ورد في القرآن (٦: ٣٨ وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون)

وكما انصف في هذه جار وظلم في أخرى بعدها لكن عن سوء فهم لا سوء قصد فقد ذكر قدرة الاوربي على التنظيم واخضاع الحوادث ومناقشة الرؤساء ثم قال :
« قابل هذه المزايا بما في الشرق من الضعف في التنظيم واعتقاده بالقضاء والقدر الذي يجعله قابلا لما لا بد منه . وكذلك خضوعه لكل سلطة تتولى اموره »

ثم استشهد على ذلك بمثل حادثة « مفتحجي » سكة الحديد التي ذكرناها في اول القسم الاول من الرد عليه . وذكر ايضا انه سأل شيخ الازهر هل يعلمون الطلبة فيه ان الشمس تدور حول الارض ام العكس فاجاب بانه لايدري . قال اللورد « وقد منعه أدبه الطبيعي عن التصريح لي برأيه في الكافرين كبلر وكوبرنكوس وتعاليمهما » الخ

(الكلام بقية)

القرآن والعلم

٣

تفسير من اللغة والتاريخ والجغرافيا والطب

في رد الشبهات التي يوردها الافرنج على بعض آيات الكتاب العزيز (١)

المسألة الثامنة

﴿ موت سليمان ﴾

قال الله تعالى « ٣٤ : ٤ فلما قضينا عليه الموتَ (أي على سليمان) ما دلهم على موته إلا دابةُ الارض تأكل منسأته فلما خرَّ تبيَّنتِ الجنُّ أن لو كانوا يعلمونَ الغيبَ ما لبثوا في العذابِ المهينِ » إعلم انه كثيرا ما يحدث ان الانسان إذا لحقه الموت فجأة عقب انفعال عصبي ومجهود جسماني يحصل له تيبس في الحال في جميع اجزاء جسمه بحيث يحفظ بعد وفاته هيئته وشكل جسمه قبل الممات ويبقى على هذه الحالة من بضع ساعات الى يومين فأكثر وخصوصا اذا كان الجو باردا وتسمى هذه الحالة في كتب الطب باللغة الانكليزية Cadaveric Spasm اي تيبس الموت

ولذا يشاهد في بعض الحروب ان بعض العساكر يموت ويبقى واقفا مستندا على بندقيته كأنه حي الى ان يبتدأ التعفن في الجثة فتزول يبوستها وتسقط

فالظاهر ان سليمان عليه السلام كان واقفا بعد مجهود جسماني عقلي مستندا على عصاه (منسأته) ففاجأه الموت فحصل له ما يحصل لغيره وبقي قائما كأنه لم يمت

(١) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فشاهدت الجن انه لا يبدي حراكا ولا يظهر عليه أنه يتنفس لعدم تحرك صدره فداخلهم شك في حالته وربما اجتمع على وجهه الذباب فلم يطرده عنه فازداد شكهم ثم دخلت فأرة (وهي من دواب الأرض) وأخذت تلعب حوله وأخيرا بدأت تقرض عصاه والجن الى ذلك ينظرون فيتعجبون ولكنهم خافوا أن يتركوا أعمالهم المكلفين بها أو أن يظهروا شكهم في حياته ولبثوا على هذه الحالة مترددين بضع ساعات او يوما او يومين

فلما حركت الفأرة العصا التي أخذت تقرضها عن موضعها قليلا اختل التوازن فسقط على الارض وبذا أيقنت الجن أنه كان ميتا وان اشتباههم كان في محله . ولو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا لحظة بعد وفاته قائمين باشغالهم الشاقة ولعرفوا الوفاة حين حدوثها بلا تردد . ولفظ لبث يستعمل في الزمن القليل والكثير كقوله تعالى (٢ : ٢٥٩ قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام)

فهذا هو التفسير الصحيح لهذه الآية الذي ينطبق على العلم ولا يوجد في تاريخ سليمان ماينافيه

﴿ المسألة التاسعة ﴾

(الجسد الذي القي على كرسي سليمان)

قال الله تعالى (٣٨ : ٣٤ ولقد فتنا سليمانَ وألقينا على كرسيِّه جَسَداً ثم اناب ٣٥ قال رب اغفر لي وهب لي مُلكا لا ينبغي لاحد من بعدِي إنك أنت الوهابُ » معنى هذه الآية ان سليمان لما ورث أباه داود في ملكه سأل الله ان يرزقه ولدا ليرثه من بعد موته وليبقى الملك في نسله فاختبره الله تعالى ولم يجب دعاءه في اول الامر الا باعطائه ولدا ناقص الخلقة (كأن يكون لارأس له ولا مخ أو نحو ذلك مما يحصل أحيانا لبعض المولودين) ولما كان هذا المولود أقرب الى الميت منه الى الحي المدرك سماه الله جسدا كأنه لاروح له فلما وجد سليمان أن من رزقه الله ليخلفه في كرسيه عدمه خير من وجوده ضجر وتألم ولم يشكر الله على كل حال

ولكنه لم يلبث الا قليلا ورجع الى الله يستغفره على مافرط منه ويرجوه العفو عن عدم رضائه بما قضاه تعالى وقال « رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي » اي حيث إنك لم ترزقني بمن يرثني في هذا الملك فوسعه علي وزدني سلطانا ومتعني بما لا يصل اليه أحد من الملوك بعدي حتى تعوضني بذلك ماحرمتني من النسل الصالح فاستجاب الله دعاءه وسخر له الريح وسلطه على الجن والانس والطير وبعد ذلك رزقه الله تعالى أيضا بمن يرثه (وهو ابنه رحبعام) ولكنه كان ضعيف العقل سيء التدبير رديء السياسة حتى خرجت عليه عشرة من اسباط بني اسرائيل ووقع الانقسام بينهم في عهده

فمما تقدم تعلم أن قوله تعالى « وألقينا على كرسيه جسدا » معناه ذلك المولود الناقص وهو أول من رُزقه وقال ألقيناه على كرسيه لأنه بمنزلة ولي عهده كما يقولون الآن وتقول العرب « ألقي الليلة على كرسي الفرس مولود » مثلاً اذا رزق كسرى بالولد الذي يرثه في ملكه ويجلس على كرسيه من بعده

وهذا التفسير هو الذي كان يفهمه العرب من هذه الآية ولذلك ورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيها ما يقرب منه ولولا حشو مفسرينا الاسرائيليات في تفسير الكتاب العزيز ما فهم أحد منها خلافه فاحذر مما قالوه ولا تعبأ به فانه مثار لشبهات كثيرة

﴿ المسألة العاشرة ﴾

(اللؤلؤ والمرجان)

قال الله تعالى (٥٥ : ١٩ مرجَ البحرين يلتقيان ٢٠ بينهما برزخ لا يبغيان ٢١ فبأي آلاء ربكما تكذبان ٢٢ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) فقال كثير من الناس إن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر المالح ولا يوجد منهما شيء في البحر الحلو

واعلم أن اللؤلؤ يخرج من كثير من الانهار ويوجد في بلاد أوستراليا أنهار مشهورة باستخراج الصدف واللؤلؤ منها وهاك اسماء بعضها :

نهر هنتر Hunter وكلارنس Clarence وكوك Cook's وكليد Clyde

وغيرها وهي موجودة في ولاية ويلز الجنوبية الجديدة New South Wales من أوستراليا

﴿المسألة الحادية عشرة﴾

(السماء في القرآن)

السماء من سما أي ارتفع فالسماء في اللغة كل مرتفع فسقف البيت سماء والسحاب سماء والكواكب سماوات والفراغ اللانهائي الذي فوقنا هو سماء أيضاً وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الشريف بعدة معاني تعرف من السياق وتفسر في كل مقام بحسبه وإن اشتركت كلها في معنى الارتفاع والسمو . وكذلك يوجد في اللغة العربية ألفاظ كثيرة تستعمل في معاني مختلفة لا يعينها إلا السياق . مثلا لفظ نجم يستعمل في الكوكب وفي النبات فمثال الأول (٥٣: ١ والنجم إذا هوى) ومثال الثاني (٥٥: ٦ والنجم والشجر يسجدان) والمقام هو الذي عين كلا من المعنيين ويسمى هذا النوع من الالفاظ بالمشترك

إذا عرفت ذلك فاعلم أن لفظ السماء إذا ورد فى القرآن يجب أن يعرف معناه من المقام ويجب أن لا يحمل في جميع المقامات على معنى واحد مثلا في قوله تعالى (١٦: ١٠ أنزل من السماء ماء) معناه السحاب . ولذلك قال في آية أخرى (٢٤: ٤٣ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق (أي المطر) يخرج من خلاله) الاية وفي قوله (٢٢: ١٥ فليمدد بسبب الى السماء) يعني سقف البيت وفي قوله (٥٥: ٧ والسماء رفعها ووضع الميزان) معناه الكواكب والألف واللام هنا للجنس وكذلك في قوله تعالى (٥٠: ٦ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) أي جعلنا أجزاءكل منها متماسكة ثم هي في مجموعها متجاذبة بعضها إلى بعض كالبنيان يشد بعضه بعضا (وزيناها) بأن جعلنا أشكالها جميلة مستديرة وان بعضها مع بعض لها منظر بهيج ثم أضأناها بالانوار الذاتية أو المنعكسة عليها من غيرها (ومالها من فروج) أي شقوق فلا ترى كوكباً منها به كسور أو منشقة أجزاؤه أو متفرقة فهو كتأكيد لقوله بنيناها وفي قوله تعالى (٦٧: ٥ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) السماء الدنيا معناها الجو

أو الفراغ المحيط بنا القريب منا وهو المزين بالكواكب وأما ما وراءه من الفراغ اللانهائي فليس به زينة ولا شيء وجعلناها رجوماً للشياطين بانقضاض الشهب منها لاهلاكهم كما في قوله (٣٧: ١٠ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وهذه المسألة لا يوجد في العلم الطبيعي الآن ما يصدقها ولا ما ينفيها وغاية الأمر أنها غير معروفة له فنحن نصدقها لإتيان النبي الصادق بها وقد ثبتت نبوته عندنا بالبراهين القاطعة كما أوضحناه في مقالات الدين في نظر العقل الصحيح

وقوله (٦٧ : ٢ خلق سبع سماوات طباقاً) المراد به الأجرام السبعة العلوية المشهورة التي كانت تعرفها العرب وتراها بأعينها وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل . وإنما خص هذه السبعة بالذكر لأنها أكبر ما تعرفه العرب وأكبر ما تشاهده وإلا فالاجرام السماوية العظيمة أكثر من سبعة

وليس في القرآن الشريف ما يدل على الحصر . على أن بعض علماء اللغة قالوا إن العرب إذا أرادت المبالغة في العدد تأتي بلفظ سبعة وما ركب منها كالسبعين والسبعمائة واستشهدوا على ذلك بنحو قوله تعالى في وصف جهنم (١٥ : ٤٤ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) فان المقام مقام تهويل لا يناسبه إلا ذكر العدد الكبير . وإن لم يكن لجهنم سوى هذه الأبواب السبعة اقتضى المقام عدم ذكر العدد هنا بالمرة لقلته فلو لم يكن لفظ السبعة يستعمل عندهم في مطلق الكثرة لما ذكره هنا ولذلك قال أئمة المفسرين في مثل هذه المواضع ان العدد لا مفهوم له ومثل ذلك قوله تعالى (٣١: ٢٧ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)

قد يقول قائل ما بالك تذكر هنا في تفسير السموات السبع القمر والشمس مع أن القمر تابع للارض والشمس هي مركز العالم والسيارات تدور حولها ومنها أرضنا هذه . ونقول إن هذه المسائل الفلكية لم يتعرض لها القرآن هنا في مثل هذه الآية وغاية ما ذكره أن الله خلق سبع سموات طباقاً وقلنا إن الاجرام التي خلقها الله هي عالية بالنسبة لنا فهي سموات وهي سبع طباق بعضها فوق بعض بالنسبة لنا أيضاً فلا دخل

لذلك في كون بعضها تابع لغيره (١) فان هذه المسائل لا علاقة لها بتفسير الآية كما لا يخفى على ذي عقل

ويستعمل لفظ السماء في اللغات الافرنجية أيضاً في عدة معاني مختلفة فغي الانكليزية لفظ Heaven قد يراد به السحاب أو الجو أو الذات العلية أو الجنة أو غير ذلك والمقام هو الذي يعين هذه المعاني المختلفة كما هو المعهود في اللغة العربية

(المسألة الثانية عشرة)

(الارض والجبال)

قال الله تعالى (٦٥: ١٢ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) وقال (١٦: ١٥ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) وقال (٧٨: ٧ والجبال أوتادا)

لم يذكر في القرآن أن الأرض سبع الا في الآية المذكورة هنا ولم يذكر فيه مطلقا لفظ الأرض بالجمع ولا في الآية السابقة. بخلاف السماء فانها ذكرت بالجمع في أكثر المواضع فالظاهر أن الأرض شيء واحد ولكنها ذات طبقات سبع فلذا قال هنا « ومن الارض (بالافراد) مثلهن » أي في العدد وهي كونها سبعا وفي كونها طباقا ويجوز أن تكون طبقاتها أكثر من سبع وانما خص هذه بالذكر لكونها الطبقات الاصلية أو الاساسية فان الآية لا تدل على الحصر فلا مانع من أن يكون بعض هذه الطبقات الاصلية مركبا من طبقات أخرى وقد يكون لفظ سبع لا مفهوم له ومستعمل هنا للدلالة على الكثرة فقط كما بيناه سابقا في مسألة السموات

وقوله « وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم » تميد من مادت السفينة أي

---

(١) حاشية — من تذكر أن لكثير من السيارات توابع كالقمر بالنسبة للأرض وهذه التوابع أو الاقمار تضيئها فيهم معنى قوله تعالى (وجعل القمر فيهن نورا) فان الألف واللام هنا تصح أن تكون للجنس لا للعهد والمعنى أن الله جعل الاقمار أنوارا تضيء بها السموات

مالت واضطربت فمعنى الآية أن الله أثقل الارض بالجبال لمنعها من الميدان والزلزال الدائم وذلك أن الجبال بوجودها في بعض الجهات جعلت ثقل الارض في جميع الجهات متساويا بالنسبة الى المركز فاذا دارت الارض حول مركزها لا يحصل أدنى اضطراب فيها ولو كان بعض جهاتها أخف من البعض الآخر لشعرنا بالاهتزاز يوميا من حركة الارض حول محورها . وأيضاً فان الجبال بثقلها العظيم على الارض وبما امتد من قواعدها من الشعب الصخرية كونت طبقة حجرية عظيمة تقي ما بين الجبال من الوديان من انفجار باطن الارض الملتهب ونسف قشرتها أو زلزالها الدائم ولا يخفى أن أغلب الاراضي المسكونة انما هي في الحقيقة وديان بين جبال . فلولا الجبال لتوالت الزلازل ، ولما هدأ للبشر جميعا بال ، ولما كان حدوث الزلازل نادرا كما هو الآن وحاصلا لبعض البشر دون بعض

وقوله « والجبال أوتادا » هو كقوله بعده « وجعلنا الليل لباسا » أي كاللباس في الستر . فالمعنى أن الجبال كالاوتاد المغروسة في الارض واذا لاحظنا أن الارض تجذبها من جميع نقطها الى مركزها كما تشد الاوتاد بالحبال المربوطة بها أدركنا ما بينهما من الشبه العظيم وفهمنا نكتة هذا التشبيه . وكما شبه الله تعالى الجبال هنا بالاوتاد كذلك شبه الاهرام المصرية بها في قوله « ٨٩ : ١٠ وفرعون ذي الاوتاد »

﴿ المسألة الثالثة عشرة ﴾

(تفسير آيات عدم صلب المسيح)

قال الله تعالى (٤ : ١٥٧ وقولهم – أي اليهود – انا قتلنا المسيح) قالوا ذلك تهكما والمسيح معناه عندهم الملك لانهم كانوا يمسحون ملوكهم بالزيت عند توليتهم وسمي عيسى مسيحا لانه كان ملكا روحانيا استولى على قلوب الناس ونفوسهم وخلصهم من عاداتهم الرديئة ومن أسر التقاليد والاوهام والعقائد السخيفة ورقى نفوسهم وأصلح أمورهم فهو كالملوك العظام الذين كانوا يأتون اليهود فيخلصونهم من الأسر والبلايا ويرقون شؤونهم ككورش ملك فارس الذي تقدم ذكره وكانوا يسمونه هو وغيره من الملوك النافعين لهم بالمسيح وكانوا يتوهمون ان المسيح سيأتي ويرد

لهم ما فقدوه من المجد والسلطان (عيسى) تعريب لفظ يشوع ومعناه المخلص وهو علم مشهور عند اليهود وسمي به كثيرون قبل المسيح بينهم كيشوع خليفة موسى عليهما السلام وكانوا يتفاءلون بهذا الاسم ويرجون ان يكون لهم بشرى خير بالخلاص مما كانوا فيه من الرزايا والمصائب (بن مريم . وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم) أي اشتبه عليهم الامر فأخذوا واحدا يشبهه ظانين أنه هو المسيح وصلبوه وقتلوه . واعلم ان وجود اشخاص متشابهين في الخلقة أمر مشاهد معروف وقد يكون الشبه تاماً بحيث يخدع به اهله وذووه فما بالك اذا كان القابضون على المسيح ما كانوا يعرفونه ولا الذين حاكموه ولا الذين حضروا تنفيذ الحكم فقد فرّ تلاميذه من حوله وهربوا وكل ذلك صريح في نصوص العهد الجديد .

ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على انه كثيرا ما يحدث للناس الخطأ في معرفة بعض الاشخاص ويشتبهون عليهم بغيرهم وقد ذكر «جاي» و«فرير» مؤلفا (كتاب اصول الطب الشرعي) في اللغة الانكليزية حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهدا لمعرفة شخص يدعى «مارتين جير» فجزم أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون انه غيره والباقون ترددوا جداً ولم يمكنهم ان يبدوا رأيا ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجة مارتين محاطا باقاربه وأصحابه ومعارفه لمدة ثلاث سنوات وكلهم مصدقون أنه مارتين ولما حكمت المحكمة عليه لظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثون شاهدا آخرون فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة انه غيره وتردد الباقون وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩ في فرنسا وأمثالها كثير

وقد بلغ شبه بعض الاشخاص لغيرهم أن وجد فيهم بعض ما يوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور او الجروح او آثارها وغير ذلك حتى تعسر تمييز بعضهم عن بعض ولذلك جدّ الاطباء في وضع مميزات لاشخاص البشر المختلفين

فاذا كان الأمر كذلك فهل في حادثة المسيح ادنى غرابة ؟

ثم قال تعالى (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم الا اتباع

الظن كما في الحادثة التي سبقت ولذلك اختلفت طوائف النصارى قديماً وحديثاً في هذه المسألة واختلف فيها ما وجد عندهم من الكتب كما بيناه في موضع آخر . ولو كانت حادثة الصلب يقينية لما وقع فيها ما وقع من الاختلاف بينهم

(وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) أي إنه لم يقتل ولكن توفاه الله ورفع روحه إليه وأسكنها عنده في جنات النعيم كما قال في آية أخرى (٣ : ٥٥ إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا) وكقوله تعالى حكاية لقول المسيح عن نفسه في الآخرة (٥ : ١١٧ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) فالرفع هنا روحاني معنوي وكذلك ورد الرفع في القرآن في مواضع كثيرة في الامور المعنوية . قال تعالى (٢ : ٢٥٣ ورفع بعضهم درجات) وقال (٧ : ١٧٦ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض) فمعنى الآية انهم لم يقتلوه ولكن الله هو الذي قبضه إليه بدون أن تصل إليه أيدي الاعداء بالسوء ورفع روحه إلى جنته واسكنه بجواره وذلك كله على حد قوله في مواضع أخرى (٣ : ١٦٩ ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) أي تتمتع أرواحهم في الجنة . وقوله (٥٤ : ٥٤ إن المتقين في جنات ونهر ٥٥ في مقعد صدق عند مليك مقتدر) فكل هذه العبارات « كعند الله » و « رفعه الله اليه » ونحوها مستعملة في معانيها المجازية لا الحقيقية

فالظاهر أن المسيح عليه السلام ذهب الى جهة من الجهات أو جبل من الجبال فتوفاه الله هناك ولما ذهبوا ليقبضوا عليه وجدوا شخصا يشبهه فاغتروا به فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ولعل هذا الشخص هو يهوذا الاسخريوطي وكان يقصد خيانة المسيح وان يقبض عليه ويسلمه فوقع فيما كان يدبره لسيده فاشتبهوا فيه وأخذوه أخذا وبيلا وأما المسيح فكان قد توفاه الله وأنجاه من مثل هذا العذاب

وذهاب بعض الانبياء الى بعض الجبال ووفاتهم بها امر معهود كما وقع لموسى عليه السلام (راجع سفر التثنية ٣٤ : ١ — ٦)

ثم قال الله تعالى (٤ : ١٥٨ وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) اي ان كل شخص من اهل الكتاب لا بد عند

وفاته ان تتضح له الحقيقة فيؤمن بالمسيح كما جاء به القرآن وليس معناه انهم يؤمنون به عند نزوله يوم القيامة كما هي عقيدة النصارى فان الآية صريحة في أن كل شخص منهم سيؤمن به وأما عند نزوله فلا يؤمن به الا الذين يحضرونه وهو خلاف نص الآية

واعلم أن المسلم لا يجب عليه الايمان بانه سيجيء يوم القيامة والظاهر أن هذه عقيدة سرت من النصارى إلى المسلمين ، ولم يأت بها القرآن . والأحاديث لا يؤخذ بها في العقائد الا اذا تواترت وليس في هذه المسألة حديث متواتر

واما قوله تعالى (٤٣ : ٦١ وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمترُنَّ بها) فمعناه إنه لدليل على قدرة الله على البعث فان الذي خلقه بلا أب والذي أحيا الموتى على يديه قادر على احياء الموتى يوم القيامة . وهذه الآية كقوله (٢١ : ٩١ وجعلناها وابنها آية للعالمين

ولقائل ان يقول إذا كان المسيح مات وتفرق تلاميذه من حوله بسبب أعمال اليهود وكانوا قليلي العدد فما معنى قوله تعالى (٦١ : ١٤ يا ايها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . ونقول اما في عصر المسيح عليه السلام فقد كانوا مؤيدين بقوة اليقين والايمان ظاهرين على أعدائهم بالحجة والبرهان وبما يظهره الله تعالى على يده من المعجزات والآيات البينات وأما بعد وفاته فقد سلط الله الرومانيين على اليهود فشتتوهم في اقطار العالم وخربوا مسجدهم المقدس ولم يصب المسيحيين في أثناء ذلك أدنى أذى ثم صاروا ينتشرون في الارض ويزداد عددهم شيئاً فشيئاً حتى دخل قسطنطين في المسيحية وصارت ديانتهم هي الديانة الرسمية للدولة الرومانية وبذلك تم لهم الظهور على اعدائهم اليهود ولا يزالون كذلك الى الآن كما قال تعالى (٣ : ٥٥ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) وانما عبر تعالى بالفاء في قوله (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) مع ان ظهورهم الماضي لم يظهر الا بعد مضي سنين طويلة لان سنيننا هنا هي عند الله كلحظات (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) (انهم يرونه بعيدا ونراه

قريبا) وغلو المسيحيين في بعض معتقداتهم وتأليههم لنبيهم لا ينافي أنهم مؤمنين به فلذا وصفهم الله تعالى بالايمان في هذه الآية كما وصفهم به في آيات أخرى كقوله تعالى (٥٧ : ٢٨ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) الآية . فلا منافاة بين الغلو في العقيدة و بين اصل الايمان » (للمسائل بقية)

باب المناظرة والمراسلة

﴿ بحث العمل بالحديث وبحث التواتر ﴾

يقول حضرة الدكتور : أنا لا أنكر ما للأحاديث من الفوائد ثم قال ولكن ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين ولا يلحقها بالقرآن الشريف ـ الدين الذي يكفر منكره شيئان القرآن وما تواتر عن النبي (ص)

ونقول ان الله جل شأنه ارسل رسلا اوجب على عباده تصديقهم واتباعهم في كل ما أرسلوا به وليس من شرط الرسول ان يأتي بكتاب من عند الله ـ و بعبارة اخرى لم يقل احد من العقلاء بعد ثبوت رسالته انه يجب على الله ينزل عليه كتابا يقرأه او كلاما يتلوه بلفظه ـ بل عرفوا الرسول بأنه بشر أوحي اليه بشرع وأمر بتبليغه سواء كان التبليغ والبيان بالقول أم بالفعل على ان القول مقدم على الفعل ومعرفة الشرع بالقول اكثر منه بالفعل والله جل شأنه لم يخصص طريقا ولا طرقا معينة لحملة الشرائع في تبليغها الى من نأى و بعد مكانا او زمانا ولم يذكر في موضع ما من اي كتاب من كتبه ان من رد ما بلغه من الدين بغير تواتر معذور ولم يقل ذلك احد من رسله او ممن يعول عليه من أتباعهم بل لم يشترط ذلك احد من البشر في شؤون دنياهم الاجتماعية

وانما مدار ذلك والله اعلم هو حصول التصديق بالنسبة الى خصوص من بلغه خبر ولم يقصر في البحث عن صحته وصدقه فحين تصديقه لا يجوز له رده وهذا هو

الذي دل الشرع والعقل عليه وعليه اتفق اهل الملل قاطبة وهذا مما نجل حضرة الدكتور عن مخالفته

بعث الله رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس عليه حجة وهو لا يأمر بالمحال ولا يكلف نفسا الا وسعها فلو أوجب على الامم تبليغ كل مسئلة من شرعه بالتواتر وعلى المبلَّغين رد غير التواتر لكان ذلك تكليف ما لا يطاق مستلزماً للاشاة الاديان، ومعطلا لسائر المواصلات ومعاملات بني الانسان، والله منزه عن ارادة ذلك فبطل اشتراط التواتر لنقل مسائل الدين

دل القرآن على ان من جاءته الحجة عن الله بتوسط رسله وردها جحدا أو مكابرة أو بماشا كل ذلك وداناه فقد كفر بالله وبرسله واستحق العقاب وشديد العذاب

ومن بلغته الحجة عن رسول من رسله حين وجوب طاعته في خصوص تلك المسئلة من طريق لا يردها في جميع شؤونه ولا ينكر صحتها بعد البحث والتنقيب ثم ردما جاء عن الرسول بتلك الطريق تشهياً فلا شك انه معاند ومكابر ومنابذ لطاعة ذلك الرسول وسواء كانت هذه الطريق متواترة او آحادية

فقول حضرة الدكتور ولكن ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين — يعني الاحاديث الصحاح الآحادي ولو كانت مشهورة ومستفيضة — ثم قوله « الدين الذي يكفر منكره شيئان القرآن وما تواتر عن النبي (ص) » يدل بل هو ظاهر في ان من انكر واجباً من الشرع فهو كافر ولذلك احتاط في انه لا يكون الشيء واجبا الا اذا نقل بالتواتر. والحق ان التواتر ليس شرطاً في وجوب الخبر كما ان من أنكر ما دل عليه التواتر قد لا يكفر في بعض الصور بل قد لا يكفر من انكر بعض الواجبات عند غيره كما قد عرفت ان الحصر الذي ذكره غير مسلم وذلك لأن الشيء قد يكون متواتراً عند شخص دون شخص وقد يختلف معنى التواتر وشرائطه عند أناس دون أناس بل التواتر عند بعض الناس لا يفيد العلم وعند بعضهم في بعض صوره وعلى قول الجمهور يمكن ان يوجد تواتر في أمر مّا ويعسر على بعض الناس معرفته وتحقق وقوعه في ذلك الامر بل يمكن ان يوافيه حمامه قبل ان يبلغ من ذلك مرامه، والحق ان من انكر ما عرف وجوبه من دين الاسلام وصار ذلك معلوماً له ولو بخبر

الآحاد كفر وكذلك من انكر ماهو معلوم من الدين بالضرورة ولم يكن قريب عهد الاسلام اونشأ بعيداً عن العلماء كفر وان لم يكن منقولا بالتواتر المعروف عند التواترية نحن لا ننكر ان بعض أنواع التواتر يفيد العلم ولكن ننكر انحصار العلم الخبري فيه أو فيما باشر الشخص سماعه كما انا لا نسلم ان ماهو متواتر عند ناس يلزم ان يسلم تواتره الآخرون.

ان من رمى التقليد جانبا وتبرأ من التعصب المشوم وجعل الحق مطلبه والانصاف رائده ونظر في أقوال العقلاء من هذا النوع البشري نظر الناقد البصير علم علماً لا يعتريه شك ان كل ما وجد عندهم من الحق فهو مطابق أو مأخوذ مما جاء به المعصومون عليهم الصلاة والسلام، عن الخلاق فاطر الأنام، وحيث كان غرضنا في هذا المقام تحقيق الخبر المسند الى رسول الله (ص) ومايجب قبوله ومالا يجب نقول

العلم والطرق المؤدية إليه

الناس تكلموا على العلم وعلى الطرق المؤدية اليه فنهم من شدد وضيق فلم يجعل إلى العلم سبيلاً غير ما أدركه بأحد حواسه وهذا مع كونه اهمالاً لأفضل ما امتاز به الانسان في اعلا مدارج انسانيته هو تعطيل لجميع الارتفاقات والتعاون على تحصيل أنواع العلوم المختلفة المواضيع اذ من المحال ان يقوم الفرد بتحصيل جميع العلوم التي قد حققها وعرفها جميع البشر — فهؤلاء المضيقون غاية معتقدهم تعرية الانسان عن أكثر العلوم والقضاء عليه بالوقوف دون مصاف كثير من الحيوان والبهائم لما عرف من ان إحساس بعضها أقوى من احساس الانسان. ومن نتائج مذهبهم المشئوم ضياع وانحلال عرى التضامن الاجتماعي وارتفاع الوثوق من بين افراد الناس في أشد ضروراتهم — ولذلك ترى هؤلاء المضيقين من أكثر الناس تناقضاً في علومهم وأقوالهم وأفعالهم لأنه من المستحيل عليهم التزام مذهبهم الفاسد ومن تتبع علومهم وأقوالهم وأفعالهم في جميع شؤونهم وجدهم على جانب بعيد وفي غاية المناقضة لما أصلوه مما ذكرناه عنهم

ومن الناس من وسع بعض التوسعة لكنه أنكر حصول العلم من طريق الوحي

وهؤلاء هم الزنادقة المنكرون لوجود واجب الوجود أو المنكرون النبوات وهؤلاء يؤول انكارهم الى تنقيصه تعالى شأنه المؤدي الى نفيه المؤدي الى المحال في الضروريات والقدح في المشاهدات وكون الشيء فاعلا لنفسه أومفعولاً لغيرفاعل

ومن الناس من طلب الحق وتبين له فساد قول هؤلاء وهؤلاء واجتهد في طلب الصواب فسلم بأكثر الطرق المؤدية الى العلوم لكنه أهمل بعضها لاشتراطه لها شروطاً يعسر أو يتعذر وجودها وهذه عدوى سرت اليه من مخالطة من تقدم ذكرهم من الملحدين السابق ذكرهم

فمن اشترط في وجوب قبول الوحي أي الشرع أو اعتبار الاخبار مطلقاً المشافهة والسماع أو بلوغه بالاجماع عملاً أو التواتر فقد نصب في طريقه العقبات ، وأقام دونه سد المحالات ، وشرع في الدين مالم يأذن به الله » ونحن نسأل حضرة الدكتور هل تشترط ذلك في جميع العلوم التي يشتغل بها الناس وفي جميع مايتعلق بشؤونهم الاجتماعية أم لا تشترط ذلك إلا بخصوص بلاغ الاحكام والمسائل الدينية ؟ انا لا أظن انه يلتزم ذلك في الأول ولئن التزمه فالواقع والمشاهدة ترده وهي أعدل حكم بل يلزمه من التناقض مالزم المضيقين السابق ذكرهم

إذا بطل في الاول اشتراط ذلك ففي الاديان كذلك ! ! قدمنا من تلازم القدر بالشرع فلا فرق يعتد به

وعليه فالذي دلت عليه الكتب والشرائع السماوية ـ وهوما عليه عامة البشر « فطرة الله التى فطر الناس عليها » ـ هو أن من ثبت لديه بخصوصه صحة خبر وصدقه وجب عليه قبوله وهو في حقه علم حين تصديقه (١) اللهم الا ان يكون الخبر ينتج ضررا على احد ، والمخبر معلوم فسقه فيجب التبين والتروي حتى يظهر وينكشف حال ذلك الخبر وكذلك من بلغه الخبر عمن لا يعلم حاله والامر ماذكرناه وجب عليه التنقيب فان صح لديه ذلك الخبر من الطرق التي يصحح بها مثله وجب عليه قبوله كما انه

(١) هذا ماقررناه في الرد على الدكتور صدقي (ص ٩٢٦ م ٩) وقد ذاكرناه منذ ايام في ذلك فرأيناه مال الى ترك اشتراط التواتر لان النبي كان يرسل الآحاد دعاة وعمالا فيقبل الناس منهم

يقبله في بقية شؤونه الدنيوية ولا يجوز له اتباع هواه والتشهي والترجيح بلا مرجح لم يوجب الله علينا معشر المسلمين التقيد بما اسس بعض الناس بل نهانا عن التقليد واتباع الآباء وأوجب علينا النظر فما وافق ديننا الذي هو الدين المستحيل مخالفته العقل الصحيح قبلناه وليس من العدل ان نترك ما لدينا من الحق ونقتصر على ما الذي المخالفين وان دل عليه ديننا اما ما خالف ديننا فلا شك انه مخالف العدل والعقل وليس في الدين ولا في القرآن ولا في الحديث الصحيح ما يناقض ما دل العقل الصحيح عليه (١) ومن زعم ذلك فعليه البيان نعم في الدين اشياء لم تستعد بعض العقول لإدراكها وسببه ما قدمناه من تضييق بعض الناس وسد اكثر ابواب الطرق المؤدية الى العلم فاذا كمل لبعض الناس استعداده العقلي وصار انسانا بالمعنى الذي خلق لاجله فلا شك انه يدرك معلومات لا يكمل العقل الا بادراكها فعلى من لم يأت هذه البيوت من أبوابها ان يسأل اهل العلم (للكلام بقية)

شكر المنار على تأبين ذكاء الملك

رسالة جاءتنا من العالم الاديب بدائع نكار ميرزا فضل الله البيهقي مدرس العلوم الادبية في مدرسة طهران السياسية . ورغب الينا ميرزا محمد علي خان نجل صديقنا (رحمه الله) ذكاء الملك ان ننشرها في المنار فنشرناها شاكرين للاديبين فضلهما وهي

هو

جدير ان يؤذن في المنار | معارف عنونت في المنار (٢)
وكنا في محاق الجهل دهرا | بغرته سلخنا من سرار
سأجعل شكر منشئها دثاري | واجعل مدحه ابدا شعاري

---

(١) المنار : صرح بهذا شيخا الاسلام ابن تيمية وابن القيم وتصديا لبيانه بما كتبه الثاني في أعلام الموقعين من التفصيل البديع (٢) لعل الأصل « معارف عنونت باسم المنار » او « عنونت في ذا المنار » فسقط لفظ « ذا » سهوا

وما أنا في رفع خبري الى حضرة مولاي أدام الله بقاءه ابتداءا ، ونصب وجوه أملي لشمول عواطفه رجاءا ، قبل التعرف اليه ببعض المعارف ، والتقرب اليه بطرائف اللطائف ، الا كطالب الإيناس قبل الابساس ، والملح بلا اسباب وامراس ، ولكني اجل سيدي من ان يحتاج العبد الى تقربه بالوسائل ، ويمت اليه بذرائع القبائل ، لان داعي فضله على المنار جهارا ، يدعونا الى نار قراه ليلا ونهارا ، فلا ألام على ذلك الاقدام ان لبيت دعوته ، وصليت قبلته ، وأتيت ناره ، ويممت داره ،

قَبِيلٌ بمبيج مأواه ونائله في الشرق يسأل عمن نيله سيلا

على اني من آل داود ، ومن عاملي الشكر معدود ، وكيف لا أشكر من مولاي نعمه التي أحيت القلوب ، وامانت العيوب ، وحسّن منا الاخلاق ، وعلق علينا الاعلاق ، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء ، ورداه عنهم برد الثناء ،

* ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب *

قد وقفت على خاتمة الجزء الثاني عشر من المنار في مدرسة السياسة من طهران ، بعد ما وقفت على فاتحة المجلة في خراسان ،

تنورتها من أرض طوس واهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

وقفت على تأبين الفقيد الفريد ذكاء الملك اطاب الله ثراه فأخذني من الأسف ماجرني إلى التلف

فقدنا ذكاء الملك لا بل سماءه وما حال ملك زال عنه ذكاؤه

فقدناه لو ان يفتدي لفديته ولكن قضاء الله حتم مضاؤه

مضى رحمه الله وأصمى على قلوبنا سهام الهموم ، وأحمى على اكبادنا مكاوي الغموم ، فلولا خلفاه الصالحان ، وفرعاه الباسقان ، وثمراه اليانعان ، وقمراه الطالعان ، لما صبرنا على هذه الرزية ، بل هلكنا من سطوات تلك البلية ، ولكن بحمد الله ومنه

وفى الحي بالميت الذي غيب الثرى فلا الملك مغبون ولا الموت غابن

فها انا مع عقدة لساني ، وعجمة بياني ، وضيق باعي ، وقلة متاعي ، ونقصان بضاعتي ، وكلالة يراعتي ، أشكر من مولاي أدام الله بقاءه تأبينه على فقيدنا ذكاء الملك طاب ثراه ، واسأل الله ان يديم ظلال عواطف مولاي على رءوس أهل الأدب ،

ويقيمه على تثقيف الاود من العجم والعرب ، وأن يجعل كتابي هذا عنده مقبولاً ، لا مردود علي مبذولاً ، وأنهي الى تلك الحضرة العالية من أدبنا ذكاء الملك بن الذكاء ، أزكى واوفى الثناء ، اختم كتابي معتذرا بذلك الخطاب

لا تنكرن وان اهديت نحوك من علومك الغر وأدابك التقا
فقيم الباغ قد يهدي لمالكه برسم خدمته من باغه التحفا

العبد فضل الله بن داود البيهقي المدعو ببدائع نكار
للسدة السنية العلية والعتبة البهية الرضوية على راقدها آلاف الثناء والتحية

البرهان الصريح ، في بشائر النبي والمسيح

(عليهما السلام)

جمعه تعالى سننشر كتاباً فيه بشائر النبي والمسيح عليهما السلام منها للنبي عليه السلام وأمته من نبوة اشعيا ص ٤٠ عدد ٣ وص ٤ عدد ٣ و ٢٥ وص ٤٣ عدد ١٦ ونبوة دانيال ص ٢ و ٧ و ٩ الوارد فيها ختام النبوة والحساب من حرب ادريانوس ملك الرومان لليهود سنة ١٣٢ وانتهاء المدة سنة ٦٢٢ وهي سنة الهجرة والاذن بالفتح والجهاد . ونبين فيه صحة الترجمة في مواضع منها في التكوين بشأن سيدنا اسماعيل ص ١٦ عدد ١٢ «انساناً وحشياً» قال العالم الاسرائيلي الترجمة انسان بري (يسكن البرية) يده في الكل ويد الكل فيه ولفظه العبراني يرى آدام أي آدم بري ويده في الكل المراد به سيدنا محمد عليه السلام لانه من اسماعيل . وفي مزمور ٨٠ عدد ١٧ وابن آدم الذي اخترته أي نبينا ابن اسماعيل عليهما السلام لانه سمي اسماعيل آدم ، وفي التكوين من قول الرب للخليل ص ٢١ عدد ١٣ وابن الجارية أيضاً اجعله أمة لانه نسلك والاصل العبراني ان نسلك هو ولفظه «كي زرعخاهو» اي انه هو زرعك وفي المسيح عليه السلام «وخلق الرب له من غير اب» من نبوة ارمياص ٣١ عدد ٢٢ خلق الرب شيئاً حديثاً في الارض انثى تحيط برجل وفي الشروح ان هذا في المسيح وتأييد نبوة ارمياهذه في القرآن الشريف من سورة آل عمران وفي نبوة اشعياص ٤٩ المختصة بالمسيح يحكي بالوحي مايكون للمسيح وفيها ان له مجيئين والاصل العبراني لها عدد ٥ قال الرب جابلي من

البطن عبداً له لارجاع يعقوب فيضم اليه اسرائيل ولم ترجع بني اسرائيل كما في عدد ٤ اما انا فقلت عبثاً وبمجيئه الثاني عدد ٦ قال سهل ان تكون لي عبداً لتقيم اسباط يعقوب ورد محصوري اسرائيل واجعلك نوراً للامم لتكون خلاصي الى أقصى الارض . ثم أكد ذلك في عدد ٨–١٣ ؛ وفي عدد ٦ «واجعلك» قالوا بدلها فقد جعلتك . وما ذكر في اعمال الرسل ص ١٣ عدد ٤٧ خلاف الاصل العبراني أيضاً لان رسالته كانت لبني اسرائيل ونبوة ميخاص ٥ عدد ٣ و ٤ تؤيد ان له مجيئين كنبوة اشعيا هذه ص ٤٩ وتؤيدها أيضاً نبوة اشعيا ص ١١ التي هي لمجيئه الثاني لان فيها يرفع راية الامم ويجمع بني اسرائيل من أربعة أطراف الارض وهذا معنى ماورد في نبوة اشعيا ص ٤٩ عدد ٦ لتكون خلاصي الى أقصى الارض اي خلاص بني اسرائيل كما في ص ١٢ من نبوة اشعيا أيضاً المتممة لص ١١ وهذا في آخر الايام كما في نبوة هوشع ص ٣ عدد ٥ ونبوة اشعياص ٤٩ تؤيد مجيء المسيح مجيئه الاول قبل انتهاء تسلط اليهود على الشعب في ارض فلسطين كما في عدد ٧ والرب يحميه منهم كما في عدد ٣ «في كنانته اخفاني» وعدد ٨ «وحفظتك» وقد قلعت اليهود من أرض فلسطين سنة ١٣٢ ثم لما دخل الاسلام صاروا في حماه .

ومنها في نبوة اشعيا ص ٥٣ عدد ٨ «انه ضرب من أجل ذنب شعبي» والاصل «ضربة لهم» ولفظهم بالعبراني «لامو» لان الكلام في الشعب الذين اخذوا البابل وحضروا منها والتي ارميا بين كثيراً منه في مراثيه وفي عدد ١٠ «فسر» والاصل فاراد وفي عدد ١٠ أيضاً «ان جعل نفسه ذبيحة اثم يرى نسلا» ولم يكن في الاصل العبراني لفظ ذبيحة والكلام في الشعب لانه ذكر يرى نسلا وفي مزمور ٢٢ عدد ١٦ «ثقبوا يدي» والاصل «كأسد يدي» مع انهم اعترفوا في كتبهم باعتماد الاصل العبراني والمسيح ايد نبوات الانبياء كما في انجيل لوقا ص ٥ عدد ١٧ ولم يؤيد التواريخ . ونبين في الكتاب بعض الآثار المصرية والاشورية التي تؤيد التواريخ الاسلامية الصحيحة ونذكر نبذة في فضائل الاسلام ونطلب منه تعالى العون في البدء والختام

(تنبيه) في نبوة اشعيا ص ٤١ عدد ٢٥ «أنهضته من الشمال» وقبل وضع الحركات التي وضعت بعد قرون كان ينطق بها «أنهضته من مخبأه» وهو الغار وعلى وضع الحركة تام نبينا «ع م» من الشمال وهي المدينة شمال مكة ودخل مكة شرقاً والكلام في مساكن قيدار كما يأتي وفي ص ٤٢ عدد ١١ ذكر مساكن قيدار وفي عدد ١٣ «خروج الرب كرجل حروب» اشارة للجهاد وقيدار ابن اسماعيل كما في التكوين ص ٢٥ عدد ١٣ «يااخت هارون» وردا نهم كانوا يسمون بالانبياء والصالحين قبلهم حديث صحيح

وفي نبوة حزقيال ص ٣٧ عد ٢٤ سمي المسيح داود ونبوة زكريا ص ١٢ و ١٣
ممت في يهوذا المكابي واخيه يوناثان

وموجود بلد اسمها سامره «شمرون بالعبراني» قبل دخول بني اسرائيل الارض كما في سفر يشوع ١٢ : ٢٠ وفي آثار توتمس الثالث وجود يهود بفلسطين قبل دخول بني اسرائيل

احمد ترجمان

باب الأخبار والآراء

نادي دار العلوم

لا يجهل أحد من المتعلمين في مصر ، ان أهل نادي دار العلوم هم عماد النهضة العلمية العربية في هــذا العصر ، وسيكونون بعد اجتماع شملهم بهــذا النادي أنفع البلاد ، واقدر على القيام بأعباء التعليم والارشاد ،

فتحوا باب البحث في التعريب والترجمة فأفادوا ما افادوا . ثم فتحوا باب البحث في مسألة الربا عند ما اشتدت العسرة المالية وزعم كثير من الناس أن المسلمين لا يمكن ان يحفظوا ثروتهم ويجاروا غيرهم في الارتقاء الا اذا تعاملوا بالربا وانشأوا المصارف (البنوك) المالية . وان الدين اذا كان يمنعهم من كل ما يعرف عندهم بالربا فهو لا يوافق مصالحهم الاقتصادية والسياسية في هذا العصر

خطب غير واحد من اعضاء النادي ومن غيرهم في الربا فكانت خطبهم ينابيع للفوائد النقلية والاجتماعية والاقتصادية . وقد سلك كل واحد منهم مسلكا أثارفيه المسألة من بعض جهاتها كما فعلوا في مسألة التعريب والترجمة ولم يتصد منهم أحد للكلام فيها من جميع الوجوه الا الرئيس في خطبة الختام . وقد ألقى صاحب هذه المجلة (المنار) كلمات وجيزة في ذلك أدمجناها في التفسير من هذا الجزء ولم يكن بحث كل خطيب في الموضوع من بعض الوجوه عجزا عن سائرها وإنما كان ذلك هو المجلي للمسألة والمقرب للصواب من الافهام

ثم بحثوا في مسألة الزواج والعادات في الخطبة والاحتفال في العرس فأجادوا وافادوا

البدع والخرافات
والتقاليد والعادات

اقتراح بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر

نشر في « الجريدة » اقتراح بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر تنقل اليه عظام من مات منهم ويدفن فيه من سيموت من بعد

نشر هذا الاقتراح بتوقيع « باحثة بالبادية » وماهو الا خيال باحث في الحاضرة او تمني متفرنج في العاصمة قد استعجل جداً بهدم تقاليد قومه الدينية وتقلهم من مبادي التقاليد الأوربية الى غاياتها

لا أنكر ان بعض المثال التي بني عليها الاقتراح له وجه نظري معروف لمثله وضعت الامم الوثنية من قبل التماثيل والنصب وبنت القبور وشرفتها ، وعظمت هذه الآثار الماثلة حتى عبدتها ، ولكن كان إثمها اكبر من نفعها ، وشرها اكثر من خيرها ، ولذلك هدمها الاسلام وحرم نصب التماثيل وتشييد القبور وتشريفها كما في حديث علي كرم الله وجهه في صحيح مسلم وغيره « لاتدع تمثالا الا طمسته ولا قبراً مشرفا الا سويته »

ربما قالت باحثة البادية او باحث الحاضرة ان الاسلام ما فعل ذلك الا ليطمس رسوم الوثنية حتى لا تنازع التوحيد في سلطانه على النفوس وهذه العلة مأمونة في هذا العصر « عصر المدنية والنور عصر المادية والعلوم » واذا انتفت العلة انتفى المعلول

وقد قال مثل هذا القول أحد طلاب علم الحقوق من أولاد علماء الدين ونشره في المؤيد رداً على من انكر نصب تمثال لمصطفى باشا كامل وسكت له الجمهور على ذلك ولكنهم لم يكونوا بسكوتهم مذعنين

ومن سبيل تفنيد هذه الشبهة على الاعتراف بصحة ما قيل من سبب تحريم الاسلام التماثيل والنصب والقبور المشرفة : لا اكتفي بأن أقول ان هذه شعائر وثنية منع الاسلام صورتها لأنه لا نأمن عودتها ولو بعد حين ، ونخشى ان تعيد روح الوثنية الى نفوس

المستعدين ، فلا نعيد هـذه الصورة وان أمنت العلة الآن ، سداً الذريعة ولو في مستقبل الزمان ، بل أقول أيضا ان العلة غير مأمونة في هذه الأيام ، لا سيما عند جماهير العوام ، فلو نصبت التماثيل و بنيت الهياكل الخاصة لبعض القبور ، فانها لا تلبث ان تصبغ بالصبغة الدينية بمصر و يتبرك بها او يعبدها الجمهور ، وأستدل على ذلك بأقوال دعاتها وافعالهم

جاء في مقال « باحثة البادية » ما نصه

« والعامة من أهل مصر بل بعض الخاصة لهم ولع فائق بزيارة الاضرحة واعتقاد راسخ بنفع اصحابها حتى انك لو دفنت حماراً و بنيت له ضريحا وقبة لزاره عدد من الناس يتبركون به وهم يعلمون انه حمار فاذا كان الامر كذلك في الحمار فكيف به في الرجال وكيف به في عظمائهم » اهـ

ونحن نقول مع الباحثة ان عظماء الرجال يكونون أجدر بهذا التعظيم والتبرك وهذا ما يحرمه الاسلام و يعده معارضاً للتوحيد

ذكر باحثة البادية من الرجال الذين تقترح نقل عظامهم للمدفن الجديد محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين فنقول كيف نأمن ان تعظم اضرحتهم تعظيما دينياً بعد ان يتخذ لها مكان خاص يقصد بالزيارة والاول منهم إمام من أئمة الدين وداع من دعاة القرآن ومحام عنه وعن السنة ، واقوى خاذل في عصره للبدعة ؟ كيف نأمن ذلك والثاني منهم على كونه ليس من رجال الدين في العلم ولا في الارشاد ، وليس له مقالة تؤثر في الكتاب ولا في السنة ، ولا في الدفاع عن أصول الاسلام وعقائده ، ـ قد نحله أشياعه جميع الالفاظ التي يعظمون بها أئمة الدين وأولياءه كقولهم : فقيد الاسلام ، رضي الله عنه ، قدس الله سره ، قدس الله روحه . بل قرن بعضهم ذكره بذكر الانبياء وكاد بعضهم يفضله عليهم . وذكر أخوه الصغير في مناجاة ناجاه بها ان روحه مشرفة على العرش يعني انها فوق عرش الرحمن ! ! وذكر اخوه الكبير من أنباء ولادته نحو ماروي في ولادة النبي صلى الله عليه وسلم من أنه ولد طاهراً مختوناً ، وجعله بعضهم ثاني النبي (ص) في عظمته وكلامه كالانجيل والقرآن . وقال فيه شوقي شاعر الامير

او كان الذكر الحكيم بقية لم تأت بعد رثيت في القرآن

هذا وهو يعلم ان القرآن الحكيم لم ينزل منه شي في رثاء الانبياء والصديقين ،

بل كل ما قال في شأن موت من أنزل عليه وهو خاتم النبيين ؟ (٣٩ : ٣٠ انك ميت وانهم ميتون ٣١ ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أي انك يا محمد تموت وهؤلاء المشركون الذين قالوا (٥٢ : ٣٠ نتربص به ريب المنون) يموتون أيضاً وتختصمون جميعاً عند الله تعالى . وقال (٣ : ١٤٤ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ؟) الآية وقد نزلت عندما فتن بعض المسلمين فانهزموا في وقعة أحد اذ صاح صائح « قتل محمد »

أفرأيت من يغلو فيه الناس ذلك الغلوّ الذي أشرنا الى قليل مما قرأناه فيه ونحن لم نقرأ الا أقل ما كتب — وسكتنا عما سمعنا من بعض غلاة المارقين وما روي لنا عن بعضهم من مثل قولهم انه كان افضل من الانبياء وانه نفعنا اكثر مما نفعنا الاسلام ؟ — أيستغرب ان يعظم تمثاله وقبره تعظيماً دينيا ؟ ؟

فيا أيها المتفرنجون اربعوا على ظلعكم وخففوا السير واتئدوا بهذه الأمة المسكينة فان مصابها عظيم والخطر الذي يحيط بها أعظم فلا تستعجلوا بهدم ما بقي لها من العقائد والآداب والاحكام الدينية وأنتم لم تبنوا لها ديناً ولا شريعة أخرى أحسن مما جاء به الإسلام ، ولا تستطيعون ان تحفظوا بقية الممالك التي فتحها لكم الاسلام ،

إذا فرضنا ان ما ترمون اليه بالتماثيل ونقل عظام الموتى الى أضرحة عظيمة يزيد في تعظيم أصحابها والتبرك بهم والاقتداء بسيرتهم هو مما يفيد في ترقيتها وفرضنا انه لا يقوي نزعة الوثنية فيها فدعوه الآن لمجرد نصوص أئمة المذاهب التي تنتمي اليها الأمة في تحريم نبش الموتى وتحريم نصب التماثيل مطلقاً وخذوا بالأمة إلى أسباب العزة والقوة التي لا خلاف فيها شرعاً ولا عقلاً وهي كثيرة لا يكاد يدعو اليها داع ، وقلما يجمع لها مال أو يؤلف لها اجتماع ،

أليست المدارس العلمية والدينية ، والكتب التاريخية والفنية ، والجمعيات الخيرية والدينية والادبية ، هي انفع من القبور والتماثيل الوثنية ، فلماذا لا تبذلون لها المال ، وتدعون الى تعميمها في البلاد ، أليست مدرسة مصطفى كامل افضل ما يعزى اليه من الاعمال ، فلماذا لا تبذلون لترقيتها ما جمعتم للتمثال ، أليست آثار الاستاذ الامام ، في اصلاح حال المسلمين والاسلام ، هي افضل ما يحيا به ذكره ، ويرغب في التأسي به ، فلماذا لا تبذلون المال لنشرها ، وتعميم النفع بها ؟ ؟

الفصل السابع (*)

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع ، ومحبوب لفائدته عند العقل ، ومع كثرة ما ألفت العيون رؤيته ، والآذان سماع أحاديثه ، لا تزال أسراره موضوع التفكر ، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب ، كيف لا وهو السر الأعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع ، والسبب الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقي الوجدان والادراك . فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم . وايما قوم حرموه فقد باؤوا بحرمان عظيم . ولذلك لم نجد بداً من ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جديرة بالذكر لا سيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا الاحظ لهم من الجمال ، ولا ذوق لهم في الحسن ، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن .

كَبُرت سُبّة أن يكون قوم «خديجة» على ما يظن هؤلاء الذين لا يتألف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقاليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكَبُر منا تقصيراً أن لا نبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم يعيروا اسرار الخليقة نظرة تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ، ويجدون فيهم أهله الكرام

(*) من سيرة السيدة خديجة

ان العرب قد تناسبت أجزاؤهم، وتناسقت أوضاعهم ، واعتدلت أشكالهم ، بياضهم جميل ، ليس فيه بهق بعض الاجيال ، وأدمتهم لطيفة، ليس فيه حلكة بعض الاقوام ، ولعل من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين ، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين ،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله الكل من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياساً واحداً تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وانما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه ، وحلاوة المبسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين ، ولعل هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريهم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ماذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال ، قد يبلغ به منتهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلاً في العرب عامة وقوم خديجة خاصةً

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما أكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً : البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة . قال ذو الرمة احد شعرائهم :

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أنَّ هـذا اللون هو الذي تكون صاحبته أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيـه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرته ألطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا عبّر عدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرةٌ خلِطَ صفرة في بياض مثلما حاك حائـك ديباجا

ولكثرة البياض اللطيف في العرب شبّهوه بالصبح واشـتقوا من الصبح لونا فقالوا للابيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر ، وتشبيهم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هـذه الحمرة لا تنطبع الا على أديم أبيض ورأيناهم يشبهون الاعناق كثيراً بأباريق الفضة كما قالت قريبة بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجـدنا حب الجمال قد لطَّف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقلهم من حال الى حال ، الى أن تهيأوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هـذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ماهو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، ورقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شغفهم الجمال المحسوس ، ان يفهموا الجمال المعقول ، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ولم يعز عليهم ان ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دعوا اليه لانه تبدى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة ، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش ، والتنقل في المعتدل من الاقاليم ، وحبب اليهم المعتدل من المهن والاعمال ، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللانتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .

وان بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعاً تجده لا يقصر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهن ، وجودة امتحانهن والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرىء القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لا حر بوادي عوف لافراط عزه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لتنظر اليها وتمتحن ما بطنه عنها فلما رجعت قال لها الملك « ما وراءك يا عصام » قالت : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك ، ان أرسلته خلته السلاسل ، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان

كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بفحم ، قد تقوسا على مثل عين المهرة ، التى لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصر ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان ، في بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غرر ، ذوات أشر ، تقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزينه عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كابريق الفضة ، ركب في صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، تعقد ان شئت منها الانامل ، نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها — الى أن قالت حين انتهت الى وصف ساقيها — وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، — فتبارك الله مع صغرهما ، كيف يطيقان حمل ما فوقهما ، »

ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

وبزين فوديها اذا حسرت — ضافي الغدائر فاحم جعد

فالوجه مثل الصبح مبيض — والفرع مثل الليل مسود

وجبينها صلت وحاجبها — شخت المخط أزج ممتد

وكانها وسنى اذا نظرت — أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لرهط خديجة حظ منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلاً

الفصل الثامن

ثراؤها والثراء عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما آتاها الله من الجمال وفضائل النفس حظّ من الثراء ايضا وثراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة ولعلّ اباها نحلها رأس المال باديء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئا يعجب منه في قومها فانهم كادوا يكونون كلهم تجارا ، تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد ، وشريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤود ، ومنافسة الاقرب والأبعد ، ولولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همتهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « بخ بخ عيشنا عيش تعلل جاذبه ، (١) وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه ، القت (٢) والهبيد (٣) والصليب (٤) والعلهز (٥) والذآنين (٦) والعراجين (٧) والضباب (٨) واليرابيع (٩) والقنافذ (١٠) وربما أكلنا والله القد (١١) واشتوينا الجلد ،

(١) تعلل من العلل وهو الشرب بعد الشرب «٢» القت الفصفصة وهي الرطبة من علف الدواب «٣» الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة «٤» الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها «٥» العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الوبر والدم (٦) الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيف له رأس مدور (٧) العراجين جمع عرجون العود من النخل (٨ — ٩ — ١٠) الضباب اليرابيع والقنافذ حيوانات معروفة «١١» القد جلد السخلة

فما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً، ولا أرخى بالاً ، ولا أعمر حالاً ، أوما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مُذَيقةً (١) وخمس تميرات صغار كوانز
فنحن ملوك الناس خِصباً ونعمة ونحن أسود الناس عند الهزاهز
وكم متمنٍ عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز

فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السعة ، وإياه نسأل تمام النعمة »

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد . وما الاعراب الا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيبون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون الى ما به الغبطة من المقتنيات والذخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطةً من المعارف ، وقوةً في المدارك

وقريش كما عرف القارىء كانوا ممن أعدهم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه مالم يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أمامهم الا المغامرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لائقاً بمن هم عتيدون لمثل ذلك ان يجمعوا في ابدهم ولا يعرفوا العالم ، ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع ، بل اللائق

(١) المذيقة تصغير مذقة وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

هؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق حاله بقول ذاك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرء القيس)

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل امثالي

وحقا كانت حال القرشيين ناطقةً بمثل هذا الكلام ، وكل منهم له في المجد أرب ، فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بالغنى قومهم عند الشدائد منهم عبدالله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها وسلح مئة كمي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل أحد اخوة السيدة « خديجة » العوام ابو الزبير (١) ومنهم أمية بن خلف ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) انه قال فيه « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » أي بلغ ماله القناطير (٢) وكثيرون غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قريشا الضاربين في أغوار رمال العرب وأنجادها لنقل المتاع من هذه البرية وإليها على مراكبهم سفن البر ، بالفينيقيين الضاربين

«١» تحاربت في هذه الحرب قريش وهوازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة عشر عاماً وحضرها مع اعمامه يهيئ لهم النبل . وعبدالله بن جدعان سري شهير ومثر كبير وهو من تخذ بني جمح

«٢» أمية من تخذ بني جمح أيضاً وقد قتل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبي «ص» اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها لنقل البضائع من هذا الثغر الى ذاك على مراكبهم قلائص البحر . فلئن كان لأبناء تلك السواحل رحلتا شتاء وصيف بين زئير الامواج ، ومعاركة الامواه، فلأبناء هذه البراري أيضا رحلتا شتاء وصيف بين عُواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لانفسهم ولجيرانهم انما هو في أن يحققوا التجارة لانها في الامم أقوى الاسباب المقربة من البدائة ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المرغوب غير كسالى فكان لذلك ربحهم عظيماً من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في ذلك العصر السحيق والمكان البعيد. وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت تحجه العرب الى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج اليها العرب ذلك الحج ان تكون للامن داراً ، وانما تبسق شجرة التجارة في رياض الامن.

وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقتةً في العام قبيل أيام الحج ويفدون اليها ليبيعوا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه « ذو المجاز » وهو عند عرفات و « مَجَنّة » وهي موضع باسفل مكة و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشان ان النعمان بن المنذر ملك الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام الى سوق عكاظ جمالاً محملة بزّا وطيوباً لتباع في هذه السوق ويشرى له

بعثها من أدم الطائف (١) مايحتاج اليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب

وهذا يدلنا على ان تلك البلاد لم تكن تأتي بالحاصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع ان الشام مشهورة بأعنابها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بيادره فقال: لله در قيس في أي عش أودع فراخه: يريد بقيس ثقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة «أم القرى»

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح ان يخرج منها وله العذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا اكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

«١» الادم بضمتين وبفتحتين الجلود المدبوغة والواحد أديم

للطيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت الى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرهما تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها الى أطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجنده حافظون، وزرّاع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجنده فعسى ان لا يقيس على استغنائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلاً فان هذه الثلاث لا قوام لقوم بدونها . ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عدّ مفاخر لهم الا من جهة انهم تغلبوا بمداركهم وهممهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المناصرة في إدراك شأو الأمم والابتعاد عن البداوة من بعد ان أوشك جوار البادية ان يجذبهم اليها كما جذب إخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويترفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا اليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

منها البتة فهناك اودية يجود فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ماكانوا يأنفون منها . فمنهم من كان يبيع اللباس، ومنهم من كان يبيع الادهان، ومنهم من يبيع اللحم، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح، ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الإنسان المتحضر من صنوف الاكسية المتادة، وضروب الاطعمه والاشربة المعهودة، وصنوف الماعون والاداة اللازمة، والعقاقير المعروفة، والحيوانات المتداولة والأسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال انه كان سمساراً كما ان أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التي تحتاج الى عمل التجار لم تكن قليله ونرى أنها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة المثرين منهم لاننا لم نهتد الى ذلك العهد وجها من وجوه المرابح ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة، والابل، والرقيق، والاراضي للزرع والغراس، والاراضي المعدن، .

أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منهما شيء كثير . من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أميـة قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدو له في وطنه (مكة) أدّت تصاريف المداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً افتدوا أنفسهم ووزن وافي فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصريا من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ماعليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم. ومنها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أُحُد ربح العير التي جاء بها ابو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلّت النقود الأجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغِنَى والغَنَاء والنعمة والهناء ، من درّها الغذاء ، ومن أوبارها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء ، ومن بعرها الوقود

للطبخ وكشف الظلماء، وظهورها مراكب للظعن والحمل والنجاء، (١) وبطونها أعظم بها واسطة للنماء، فبيشك أيها المطالع! في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحدنا مثل هذه البركة، التي لا تحتاج الى شيء عظيم من الحركة؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعد مالا في جميع جهات الارض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرفنا النظر عن استهجان هذه المادة نرى ان لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها، النامية بطبيعتها، المدركة بخلقتها،

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من نخذ بني عبد شمس) وغيرهما

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال «حجران يصطكان إن أقبلت عليهما نفدا، وان تركتهما لم يزيدا، ان أفضل المال برة سمراء، في تربة غبراء، اوعين خرارة، في أرض خوارة»، أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط. وهذا هو الأس الصحيح في علم ثروة الامم

واما أراضي المدن فالظاهر أن بعضها كان مشاعا وبعضها كان مملوكا اما كون بعضها مشاعا فنأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

---

(١) النجاء الهرب

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمي وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التي هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . واما كون بعضها كان مملوكاً فنستفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي (١) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكأنهم اشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح ان يقطعه شيئاً منها فقد طلب بلال بن الحارث ان يقطعه معادن القَبَلِيَّة (منسوبة الى قبَل بفتحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه اياها وأقطعه جبل قُدس للزرع

هذه هي أصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف اليها العروض والامتعة التي كانت تتداول في التجارة والى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فان ملك الارض والمعادن لا يزال ايضا ينبوعاً ثورا للثروة ، واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني ان فائدته المادية كفائدته ، والنقود لا تزال كثرتها وقلتها ايضا معيارا

---

(١) الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجا من قريش « من بني عبد الدار رهط خديجة » وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان مكثراً من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي « ص » فقال له أن لي ذهباً عند امرأتي « في مكة » وان تعلم هي وأهلها باسلامي فلا مال لي فائذن لي لأسرع السير واخبر أخباراً اذا قدمت أدرأ بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي « ص » وقدم مكة وأخذ أمواله بحيلة

(٢) جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظيما لثروة الامم، وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش .

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه او السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهوداً فيهم او يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة او المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة «خديجة» التي كان لها ما للنساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي إيثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها، وعلو همتها، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها فان الأوطان تسمو باقدام أرباب اموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واظهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النبّاش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي ان الرجل يخطب الى الرجل بنته او من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . واما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم، وانما يفعل ذلك اغلب الإماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من ابي هالة وسمته «هنداً» على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور احيانا اسماء الاناث فهند هذا هو ربيب النبي (ص) أخو فاطمة لامها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ص) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لا نكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لا ندع شيئا مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولا سيما بعد اذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا الذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى الا على المنقبين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

في ذلك انهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها بزواج النبي (ص)

وان لنا — والحق يقال — حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخبارهم ثم يقطعونه ويجذبونها الى شيء آخر

على اني لا أنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان. فمن ذا الذي يعلم ان هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى «محمد» صلى الله عليه وسلم وولدت منه «فاطمة» الزهراء ام الحسنين ثم يرجع باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الاول ابي هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بسيرتها الى هذا المقام تضاءلت امام نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك الى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل، وليفض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالاً وبهاء

مجلة

المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء السادس والسابع

طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

إهداء من



تابعوا ...



الخاتمة

﴿ في ذكر آيات علمية من القرآن ﴾

قلنا إن القرآن الشريف لم يأت لتعليم الناس شيئاً من العلوم الطبيعية ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة العلمية ولا من الاشارة إلى حقائق كثيرة من المسائل الطبيعية مما يدل على أنه تنزيل العليم الحكيم فان هذه المسائل ما كانت معروفة لأحد في زمنه ولا يمكن لعربي أمي في ذلك الوقت أن يقف عليها لولا وحي الله . ولنذكر هنا شيئاً من هذه الآيات المشتملة على التعبيرات الدقيقة والمسائل العلمية الطبيعية

(١) قال الله تعالى (٥٧:٧ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وقال أيضاً (٢٤: ٤٣ ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ٤٤ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لاولي الابصار) وفيه إشارة إلى أن البرق يتولد من السحاب وقوله (من جبال فيها) هو تشبيه لقطع السحاب العظيمة بالجبال لما بينهما من التشابه في الشكل وعدم الانتظام وعظم الحجم كما شبه أمواج الماء بالجبال في قوله (وهي تجري بهم في موج كالجبال)

(٢) قال تعالى (٢٨:٨٨ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) وهو صريح في حركة الارض . وليس ذلك في شأن القيامة فان قوله (تحسبها جامدة) لا يناسب مقام التهويل والتخويف وقوله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) لا يناسب مقام الاهلاك والابادة . وقال أيضاً (٩١: ١ والشمس وضحاها ٢ والقمر إذا تلاها ٣ والنهار إذا جلاها ٤ والليل إذا يغشاها) وهو أيضاً يشير إلى حركة الأرض

(٢) راجع ص ٢٦٠ م ٦ وص ١٠٤ وما بعدها م ٨ وص ٩٢٠ م ٩

(٣) قال تعالى (٣٠:٢٠ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) وهو صريح في أن الأرض والكواكب كانت شيئاً واحداً ثم انفصل بعضها عن بعض وهو كقول العلماء الطبيعيين إنها كلها أجزاء انفصلت عن الشمس وكانت ملتهبة فصارت تبرد شيئاً فشيئاً وإلى ذلك يشير القرآن بقوله أيضاً (١١:٤١ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) أي وهي ذات دخان لالتهاب أجزائها ولكون أكثرها في الحالة الغازية

(٤) قال الله تعالى (١٣ : ٣ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهو صريح في أن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأنثى وهو أمر لم يعرف إلا من عهد قريب. والقرآن نفسه هو الذي فسر الزوجين بذلك في آية أخرى بقوله (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى)

(٥) قال الله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح) أي ملقحات للأشجار

(٦) قال الله تعالى (١٧ : ١٢ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وهو يشير إلى أن القمر (وهو آية الليل) مظلم لذاته

(٧) قال الله تعالى (٣٦ : ٣٧ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ٣٨ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ٣٩ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ٤٠ لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

(٨) قال الله تعالى (٣٩ : ٢١ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض) الآية

فقل لي بأبيك أي عربي أمي يعرف هذه المسائل أو تخطر له على بال وخصوصاً في تلك الازمان التي كان فيها أعلم العلماء في أرقى البلاد يجهل بعض هذه الحقائق المذكورة في القرآن كدوران الأرض وكون جميع السيارات منفصلة عن أصل

(٣) راجع ص ٣٣٣ م ٦ و ٢٨٩ م ٧ (٨) راجع ص ٢٩٠ م ٧

واحد وأنها كانت دخانا . وأن الثمرات جميعاً فيها الذكر والأنثى وأن الرياح هي التي تلقحها إلى غير ذلك من دقائق المسائل العلمية الطبيعية . وكلها دلائل على أن هذا الكتاب ليس من صنع البشر بل هو تنزيل من الله العليم الحكيم

الدكتور محمد توفيق صدقي

باب المناظرة والمراسلة

٤

« بحث العمل بأحاديث الآحاد والحديث المتواتر »

ولنعد فنقول التواتر هو وان كان من الطرق المفيدة للعلم اذا وجد الا انا لا نحصر افادة العلم بالأخبار فيه كما انا لا نلزم به كل أحد قبل ان يعرف انه متواتر اذا لم يقصر في الطلب او كان معذورا لبعده عن أهله

قال حضرة الدكتور لم يتواتر من اقواله (ص) الا القليل الذي لا شيء فيه من احكام الدين

اقول ما ذكره غير مسلم والتواتر هو ما نقله جمع عن جمع يبعد تواطؤهم على الكذب أي عن محسوس وقد اختلفوا اختلافاً كثيراً في تعيين هذا الجمع . وبناء على تعيين الجمع فيما نظن قال بعضهم بندرة وعزة المتواتر في الاحاديث النبوية . وهذا اولى ما يقال في الاعتذار عن ابن الصلاح في قوله بذلك

قال السيوطي نقلا عن شيخ الاسلام ان قول ابن الصلاح نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق واحوال الرجال وصفاتهم المقتضية لابعاد العادة ان يتواطؤا على الكذب او يحصل منهم اتفاقاً — قال ومن احسن مايقرر به كون المتواتر موجوداً وجود كثرة في الاحاديث ان الكتب المشهورة (أي المتواترة عن مؤلفيها) بايدي الناس شرقاً وغرباً المقطوع عندهم بصحة نسبتها الى مؤلفيها اذا اجتمعت (اي او اجتمع بعضها كما قال ذلك جمهور اهل الحديث) على حديث وتعددت طرقه تعدداً

تحيل العادة تواطؤهم على الكذب افاد العلم اليقيني بصحته الى قائله. قال ومثل ذلك في الكتب المشهورة كثير. اه

واقول أيضاً ان من تجرد عن التعصب والتقليد لا تخفى عليه الحقيقة المنشودة في هذا الباب. وبما قدمناه وما يأتي يظهر للمنصف مكانة الخبر الذي ينقله آحاد ثقات قد عرفوا بقوة الحفظ والذكاء والعدالة والورع والتقوى وعرفوا ان الكذب على رسول الله (ص) ليس ككذب على احد وان من كذب عليه متعمداً يتبوأ مقعده من النار اعتقدوا ذلك وهم بالصفات التي عرفت وتحملوا من الرواية ما اعتقدوا وجوب العمل به ثم وجوب تأديته لغيرهم كالأمانة وقد علموا ما في الخيانة من الوعيد والترهيب عن كتم العلم

فاذا إتصل سند الخبر بمثل من ذكرناه فهو فيما نعتقد مفيد للعلم اي يبعد ! يمنع العقل عن مثل من نعتناه الكذب عادة ورب رجل يعدل رجالا — فان قيل سلمنا ان من كان مثل هذا يبعد منه الكذب عادة الا انه لا يؤمن عليه النسيان قلت قد علم من عادة المحدثين كتابة ماسمعوه وعلى الاقل للمراجعة الى وقت التأدية وهم لا يعتمدون على المكتوبات الا ما كان موثوقا به ومحفوظاً بغاية الاحتياط ولا يقبلون المكتوبات التي لا يدرى حالها وان كان كاتبها ثقة — وهذا اكبر دليل على ان ما عندهم من الاخبار اصح ماوجد من الاخبار في العالم بعد كتاب الله — وانما كان تواتر القرآن مقدماً على كل خبر لأنه نقل بمثل هذه الاسانيد اليقينية متواترة —

على انا نستبعد عادة ان الراوي الذي ذكرنا صفاته يحدث بما نسيه إذ لو فعل ذلك لم يكن بالمرتبة التي ذكرناها لا سيما في احاديث الاحكام والاعمال لشدة حاجته وحاجة معاصريه الى العمل بها . على أنه اذا نسي ذلك لا يحدث به وان حدث فانه يذكر اللفظ بالشك . ويبعد كل البعد ان ينسى نسيانه لذلك وابعد من ذلك ان لا يوجد هذا الحديث عند غيره

على انه لو فرض وقوع ذلك وهو غاية الندور فلا نسلم ان ذلك يضر في الدين اذ قد اغتفر ذلك أي النسيان والخطاء فيما حاجة الناس اليه اكثر وفيما وجب فيه زيادة الاحتياط وهما فيه اشد ضرراً وفيما هو سبب للضرر بلا واسطة وذلك

في القضاء لان أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته من الآخر فلم يضر الحاكم ان يحكم بخلاف الواقع في هذه الحالة اذا لم يقصر فلأن يغتفر ذلك في الرواية اولى لكون الضرر منها ان وجد لا يكون هو السبب المباشر للضرر غالبا . فتبين بذلك ان ماعسى ان يطعن به في الرواية التي وصفناها مع كونه لا يضر في الدين هو بناء شاذ على شاذ كل منها يبعد وقوعه عادة — بل هو اولى بالوثوق من خبر الجمع الفسقة غير الموثقين الذين يقال في خبرهم يمنع او يبعد العقل تواطؤهم على الكذب عادة . فبعد الكذب عمن ذكرناه اكثر من بعده عن جمع التواتر الذي ذكروه

وحيث كان الاصل في جميع العلوم سواء كانت تصورية او تصديقية هو ما ادركه الشخص بأحد مشاعره الظاهرة أو الباطنة أو ما دل العقل عليه أو الوحي السماوي وهذا الاخير لا يكون الا علماً حقاً دائماً وما تقدمه يتفاوت الناس فيه تفاوتاً لا يحصره حد فقد صح لدينا عن المتقدمين وشهدنا ورأينا مالا يحصى في زماننا انه قد تصحح الجماعات ما يعدونه علماً لديهم بتطبيقه على معلومات فرد واحد بل قد يتبين فساد معتقدهم في جانب معلومات الفرد الواحد — وذلك دليل واضح على ان الفرد الواحد الممتاز بالكمال في صفاته وعاداته يعادل بل يرجح بالافراد الكثيرين من بني نوعه

ونحن ايضاً نرى الشخص المنصف قد يتهم نفسه فيما سمعه بأذنه اذا خالفه فيه من يعتقد انه احفظ منه فمثل هذا المنصف اذا اتهم نفسه فيما سمعه بأذن نفسه وقدم على ذلك خبر الممتاز الذي ذكرناه قد يبعد كل البعد ان يقدم على خبر سمعه بنفسه خبر الكثيرين غير العدول — وهل يمكن ان يقال ما علمه الانسان وسمعه لا يسمى علماً لجواز زواله بالنسيان ؛ فتبين بطلان الخبر أو العلم بعد اعتقاد ثبوته هو عندنا يضارع زوال العلم بالنسيان

وايضا احتمال النسيان في الخبر مع الذهول عنه كما انه لا يضر الخبر وهو علم في حقه مالم يتذكر انه نسيه فكذلك لا يضر المخبر بالفتح اذا كان المخبر بالكسر بالصفات التي ذكرناها

ان خبر الآحاد قد اتفق على اعتباره جميع البشر كما هو مشاهد واعتبرته

الكتب السماوية في شرائعها وانبياء الله ورسله في التبليغ عنه والله ورسوله امر الأمة أن يبلغوا عنهما جمعاً وفرادى وبعبارة أخرى كل فرد فرد من الأمة مأمور بالتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكليم الله موسى بن عمران عليه السلام ترك بلد من امره الله بانذارهم وخرج من بين اظهرهم الى مدين معتمدا على خبر الواحد . واثنى الله على من احتج بخبر الواحد كمؤمن آل فرعون الى غير ذلك مما لا يكفي لبسطه المجلدات .

كل ذلك معلوم بالضرورة ولا ينكره الا مكابر فكيف يصح قول حضرة الدكتور لا يجب العمل بخبر الآحاد مطلقا ومن ثم قال الامام احمد رحمه الله إن خبر الآحاد الصحيح يفيد العلم وبه قال داود الظاهري والكرابيسي والمحاسبي وحكي هذا عن مالك بن أنس .

فان قيل ان الجمهور قائلون بأن خبر الآحاد يفيد الظن . قلنا أولاً اذا كان غرض الباحث مقصوراً على طلب الحق وهو ضالته فلا محل لهذا الاعتراض من أصله على انه يحتمل ان يكون قولهم « خبر الآحاد يفيد الظن » قضية مهملة أي وهي في قوة الجزئية (١) وبهذا الاعتبار يكون بعض أخبار الآحاد قد يفيد العلم

وأيضاً المعروف من مذهب الجمهور ان المشهور والمستفيض لا يجري فيه الخلاف وذهبوا أيضاً الى ان خبر الآحاد يفيد العلم اذا تلقته الأمة بالقبول بحيث يكونون بين عامل به ومتأول له لأن التأويل فرع القبول وجعلوا من هذا القسم احاديث الصحيحين — بل أكثر احاديث ما صنف فيما يحتج به من الكتب التي صنفت في الصحاح والحسان لانجبار الحسان بتعدد الطرق — ولا يهولنك ما قد تسمع به من التفرقة بين رجال الصحيح ورجال الحسن فان شرائطهم في رجال الحديث الحسن ربما لا يبلغها من وسم بأعلا سمات الفضل والعدالة في زماننا هذا — يدلك على ذلك ما عرف عنهم من أقوالهم في الجرح حتى انهم قد يعدّون احاديث من

---

(١) المنار : أي هي بمعنى بعض خبر الآحاد يفيد الظن . وفيه ان المتبادر من الاضافة العموم الذي هو بمعنى الكلية وكلامهم صريح في هذا

سمع في بيته الغناء موضوعة — فان قيل ان هذا افراط قد يؤدي الى ضياع كثير من السنن. قلنا لكنه يدل على أن ما في أيديهم مما وسموه بالصحة والحسن منقى ومبرأ من كل احتمال يؤدي الى عدم قبوله — على أنا لا نسلم انحصار وجود ذلك عند من تركوه بل يجوز وجود ذلك عند غيره من الثقات ان كان هو من السنة في نفس الأمر وان كان مكذوباً فلا حاجة لهم ولا لنا به

ان أحاديث الكتب المشهورة عن مؤلفيها فيما يحتج به من السنن النبوية قد عرفت الامة باسرها صحتها أو حسنها لتعدد الطرق وصارت مقبولة عند الكل وأكثرها قد جمعت ودونت في عهد التابعين أو تابعيهم أما مجرد الكتابة بلا ترتيب للعمل أو للحفظ فقد كان في زمن الصحابة (رض) كما ثبت ذلك من طرق عديدة

وعليه فما قرروا صحته فقد اتفقت الامة على قبوله اذ كانوا بين عامل به ومتأول وهو يفيد العلم لان سكوتهم عن الطعن فيما هو كهذا بل قبولهم له يدل على معرفة كل واحد من العاملين به أو المتأولين له بصحته وهم في كل طريق وطبقة عدد كثير لا يجوز العقل تواطأهم على الكذب عادة.

وأيضاً يدل ذلك على ان هناك طرقا معضدة كثيرة ألجأتهم الى عدم الرد ولهذا نرى من لم يلتزم ذلك بالعمل عدل الى التأويل — وان ما هذه حاله لا يبعد ان نقول انه اعلا من بعض أنواع المتواتر — وما ذكرناه معلوم إن عرف حال المحدثين واحتياطهم في رواية السنة —

الا تراهم قد عمدوا حتى الى جميع ما شاع على ألسنة العوام مما نسب إلى النبي (ص) ثم صرحوا بتزييف الزائف وما له أصل ردوه الى أصله فما بالك وما رأيك فيهم اذا وجدوا مالا يصح مكتوبا في كتب الهداية؟ اتراهم يسكتون عليه وقد عرف من عادتهم ان مافي اسناده ولو مجهول واحد لا يحتج به عندهم؟ ان أهل الحديث لا يعتبرون رواية من انحطت درجته عن مرتبة رجال الحسن لا عتقادهم ان كثرة الكذابين ونحوهم لا يزيدون الخبر الا وهنا —

لو كانوا يأخذون برواية كل من روى حتى الكذابين والفسقة والكفار كما هي عادة التواترية ليلغ رواة كل حديث من أحاديث الاحكام في كل طبقة إلى

حد الكثرة التي يعتبرها التواترية — فان كان أحد يشك في قولنا فليتتبع كتب الصحاح والحسان وكتب الأحاديث الضعيفة وكتب موضوعات الحديث وغيرها من كتب السير والمغازي والتواريخ المسندة والتفاسير وغيرها — انا لا أشك انه يجد أسانيد متعددة لكل حديث فاذا لم يتقيد بطريقة أهل الحديث في شرائط الرواية وجرى على طريقة التواترية فهو يجزم بان رجال هذه الأسانيد يبعد تواطؤهم على الكذب — لا سيما اذا لاحظ من عمل بكل حديث من العلماء من عهد النبي (ص) الى حين كتابتها في كتب الحديث —

يقول التواترية ان خبر الآحاد يفيد الظن وقد قدمنا فساده ويرتبون على ذلك كبرى قياس من الشكل الأول وهي فكل ظن أو كل عمل بالظن فهو مذموم بنص القرآن وقد عرفت فساد الصغرى (١) والحق ان بعض الآحاد يفيد العلم

وأيضاً نحن لا نسلم الكبرى كلية لأن القرآن انما ذم الخرص و بعض الظن لقوله تعالى «ان بعض الظن إثم» وأيضاً ما ذكره الله من الظن المذموم انما هو الظن في تأسيس الشرائع بلا اعتماد على بينة من الله في ذلك ومن تتبع آيات القرآن في ذلك وجده انما يذم هذا النوع من الظن أو ما هو في معناه كما قال تعالى قبل ذلك «هل عندكم من سلطان بهذا» وقوله «ما أنزل بها من سلطان» وقد يذمهم الله بمعارضتهم ما أنزل من الحق بهذا الظن الفاسد الذي لا يستند الى أصل صحيح كما يرد عليهم تعالى شأنه في قوله «ان الظن لا يغني من الحق شيئاً» وهذا لا يصدق على الاحاديث الصحاح ولو كانت آحادا ولا على من يعمل بها ولو كان يعتقد ان ذلك من الظن اذ لا يصدق ولا نسلم انها من الظن المذموم إذ هؤلاء لم يعارضوا بها المقطوع اليقيني غاية ما في الباب ان بعض أهل الحديث أو أكثرهم قد جوزوا نسخ القرآن بأحاديث الاحاد الصحاح وقد قدمنا ان جمهورهم يقول ان بعض الآحاد تفيد العلم ومن كان هذا قوله فلا إيراد عليه واما من يقول بان ذلك يفيد

(١) المنار : اي قولهم ان خبر الآحاد يفيد الظن ٠ وهي المقدمة الاولى من مقدمتي القياس اي الدليل

الظن فكذلك لا ايراد عليه لانه يقول ان بقاء الحكم ظنياً والحكم المتأخر عنه في الحديث الصحيح أقوى وأرجح فهو انما أجاز نسخ الظن الضعيف بالظن القوي ·

ان من قال بأن جميع أخبار الآحاد تفيد الظن وان كل الظن مذموم عند الله وفي كتابه القرآن الكريم — لزمه ان القرآن متناقض متخالف وانه من عند غير الله لان الله أمر وأوجب الحكم بخبر الآحاد وسماه عدلا في قوله واذا « حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل — وكون الشيء هناك مذموما وهنا عدلا تناقض وخلف وهو في القرآن محال وما انتج المحال فهو مثله فلزم ان الذم لا يتناول خبر الآحاد حتى على التسليم بانه ظن فعلى كل تقدير خبر الآحاد الصحيح عدل واجب العمل به على كل من عرف انه صحيح والله أعلم

وايضا اطلاق الظن مقابلا للعلم انما هو اصطلاح حادث مخالف لاصطلاح القرآن وعادته في محاوراته لان الله جل وعلا قد اطلق على العلم اسم الظن في مواضع كثيرة من القرآن كما قال تعالى حكاية عن الجن — وانا ظننا ان لن نعجز الله · وقوله اني ظننت اني ملاق حسابية — وظنوا انهم احيط بهم — وظنوا انهم قد كذبوا — فظنوا انهم مواقعوها — الى غير ذلك مما اطلق فيه لفظ الظن والمراد به العلم فكذلك حملة القرآن من العلماء لا يبعد ان يطلقوا على العلم لفظ الظن كلهم او بعضهم

فمن يقول منهم ان بعض الاحاديث الصحاح تفيد الظن يمكن ان يحمل قوله على ما ذكرنا على انا قد قدمنا انه لا تصدق على ذلك تلك الآيات الواردة في بعض الظن لعدم العلة الجامعة — وفوق ذلك نقول ان عملهم بالاحاديث الصحاح انما هو من باب الاختيار والعمل باحسن الامرين او الامور التي انحصر الحق فيها وما ذلك الا لمرجح علموه لا ظنوه كما قال تعالى « اتبعوا أحسن ما انزل اليكم — نتقبل منهم احسن ماعملوا — فيتبعون احسنه » الى غير ذلك فاذا تعارضت ادلة ولا سبيل للخروج عنها كلها لانحصار الحق فيها — والحالة ان الاتباع فرض لازم كما قال تعالى « قل ان كنتم تحبون الله ورسوله فاتبعوني يحببكم الله » فيجب على العالم ان يجتهد واذا رجح احدها فهو انما يرجح بمرجح علمه لاظنه فلا يصح ان يقال ان هذا عمل بالظن حتى يقال انه مذموم

ثم نقول للتواترية ان كل ما الزمتم به متبعي حديث الآحاد الصحيح هو لازم لكم في تواتركم بمعناه عندكم وزيادة على ذلك تلزمكم شناعات وفظائع لا يلتزمها الا من نفض يديه من دين الاسلام بل من سائر الاديان ونحن نبرئ حضرة الدكتور عن التزام مايؤدي الى ذلك لما عرفنا من كتابته السابقة التي اعلن الرجوع عنها نعتقد انه انما يحب الحق واظهاره وانه عند تجليه له لا يتوانى عن قبوله بغاية السرور والبشاشة بل يظهر للملأ رجوعه وان ذلك لمما يزيده عند كل منصف اجلالا

﴿ بحث التواتر ﴾

ماهو التواتر؟ — هو غير معروف عند السلف من المسلمين وانما يعبرون عما كثرت رواته او ماروته الجموع بالمشهور وهو عندهم كغيره لا بد من رواية الثقات له والا لم يكن مقبولا

اما من عرف عنه التواتر فقد اختلفت عباراتهم في تفسيره اي حده فمنهم من قال هو مانقله جمع يحصل العلم بروايتهم ضرورة — ومنهم من قال خبر جمع عن محسوس يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة من حيث كثرتهم — ثم اختلفوا هل يمكن تعيين جمع يكون اقل نصاب جمع التواتر فقال بعضهم اقله اربعة وقيل خمسة وقيل عشرة وقيل اثنا عشر وقيل عشرون وقيل اربعون وقيل سبعون وقيل ثلاثمائة و بضعة عشر وقيل أربع عشرة مائة وقيل جميع الامة وقيل بحيث لايحويهم بلد ولا يحصرهم عدد والمرجح عند التواتريين عدم تعيين عدد مخصوص وانما مداره عندهم على حصول العلم من حيث كثرة العدد تارة ومن حيث القرائن اخرى

اقول من احاط علما بما ذكرناه من اختلافهم في هذا التواتر وفي شرائطه تحقق ان هذا شيء ليس من عند الله اذ لايمكن القطع به ولا يمكن طرده ولا تطبيقه على كل مافي الاعيان من الوقائع طردا على وتيرة واحدة بحيث يتفق عليه كافة الناس ويكون قاعدة يصح المرجع اليه لفصل النزاع —

يوضح ذلك انه يمكن على معتمد التوترية وقول جمهورهم ان يكون خبر اهل البلدة العظيمة متواترا كباريس مثلا واذا كان خبر الثلاثة والاربعة او الخمسة يصح

ان يكون متواترا بمعنى انه يمتنع تواطؤهم على الكذب عادة والامتناع هذا يكون تارة لمجرد الكثرة اي بلا اعتبار قيد من القيود المعتبرة في الرواة عند اهل الرواية كالبلوغ وكمال العقل والاسلام والعدالة الى غير ذلك . واذا كان الامر كذلك فاذا اخبر خمسة من الفجرة بخبر مثلا فنحن نناشد الله كل ذي عقل و بصيرة هل يحصل له العلم الضروري بخبرهم وهل يمتنع عنده تواطؤهم على الكذب لكونهم جمعا حتى لو كانوا كفارا فجرة اخبروا مرة دفعة واحدة ؟ فان كابر وقال نعم قلنا له وهل يجب ان يحصل لكل احد مثل علمك من خبر هؤلاء ؟ وهل تعد من خالفك مكابرا بدلا عن تكون انت المكابر ؟ نحن نستبعدادعاء عاقل مثل هذه الدعاوي الباطلة

وكذلك نقول ان كل جمع يفرضه التواتر مفيدا للعلم من جهة انه جمع فقط لا بد ان يردعليه ايراد صحيح ينقضه الا إنه في بعضها ابين واظهر من بعض الا ترى ان اعلى ما مثلوا به لذلك هو قولهم كأن يخبر اهل باريس بقتل او موت كبيرهم مثلا قالوا ان هذا يفيد العلم بسبب كثرتهم . ونحن نقول في الجواب عن ذلك هذا مثال واحد ولا يمكن وجود مثله دائما حتى يصح طرده في كل موضع مما يتنازع الناس فيه . ويقال فيه ايضا يمكن ان يكون افادة الخبر العلم في مثل هذا المثال انما كان لقرائن ككونهم اي اهل باريس ونحوهم لا فائدة ولا نقصان ولا مضرة عليهم من اظهار مثل هذه الواقعة فصدقهم هنا انما هو للقرائن لا الكثرة لانا نجد الفرق بين مثل هذا المثال و بين خبر اهل باريس أنفسهم فيما اذا كانوا محصورين بعساكر الانكليز مثلا فاخبروا بقدوم عساكر الروس الى بلدهم لامدادهم فهل خبرهم والحالة ما ذكرنا يفيد العساكر المحاصرة العلم الضروري بحيث لا يتشوفون الى صحته ؟ وهل يمكن كذبهم والحالة هذه ام لا ؟ نحن لا نستبعد الكذب فضلا عن عدم امكانه حينئذ

فان قيل نحن نرى انفسنا مطمئنة لا ينازعها شك في وجود البلدان النائية التي لم نرها ولا نرى سببا لذلك الا ما تواتر الينا من الاخبار بوجودها

قلنا نعم والامر كذلك لكن لا يستلزم ان يكون سبب هذا العلم مجرد الكثرة

وان كانوا كفارا او فسقة فجارا بل لعل ذلك من الكثرة مع انضمام القرائن

فان القرائن انواع واصناف لايكاد يحصرها حد أو عد بل القرائن قد تقارن خبر الواحد الكاذب المعروف بكذبه وفسقه فيفيد خبره العلم اذا قارنته وايدته وهي تختلف باختلاف اماكن المخبرين وزمانهم ككونهم اخبروا دفعة او متفرقين و باختلاف حالهم من خوف وأمان وعسر ويسر وحب الاوطان والاقدام والفخر وارهاب ورجاء الى غير ذلك مما يعود على الافراد بفائدة او نقص ولو بتوسط فائدة اونقص طوائفهم وامهم واقوامهم واوطانهم

ولما ذكرناه واضعاف اضعافه مما لم نذكره ولتعسر ذلك لو سلم صحته ولان تكليف العباد به تكليف لما لا يستطاع بل التزامه وحصر العلم الخبري فيه تعطيل لاكثر معارف البشر وإلغاء لاكثر الاحكام الديانات ان لم نقل لكلها واحراج للناس في جميع معاملاتهم ومعاشاتهم وموجب لتقاطعهم فردافردا كالبهائم لم يجعل الله ذلك اصلا ولا قاعدة ولا مناطا لتحقيق شيء من الامور الدينية ولا الدنيوية ولا نبه عليه احد من انبيائه عليهم الصلاة والسلام ولم نعرفه عن احد من السلف الصالح لا الصحابة ولا تابعيهم باحسان

فالحق عندنا ان اخبار الجموع لاتفيد العلم الا اذا ايدتها القرائن او شاركهم الثقات — وخبر الثقات المتواتر هو اعلاها كتواتر القرآن الكريم — ثم خبر الآحاد الأثبات الضابطين بشروطهم يفيد من عرف حالهم او حال من وثقهم العلم ويجب على من بلغه خبر عن المعصوم (ص) ان يبحث عن حاله وحال رواته فاذا وجدهم بالشروط المعتبرة فلا يجوز له اهمال ذلك الخبر لاجل كونه لم يتواتر الا عرفت مما قدمناه كما هو اجماع المسلمين والله المستعان (الرسالة بقية)

اهم الاخبار والآراء

(اعادة القانون الاساسي ومجلس المبعوثان في الدولة العلية)

في صبيحة يوم الجمعة المبارك ٢٥ جمادى الآخرة صدرت الإرادة السلطانية بإعادة « مجلس المبعوثان » والأوامر من مقام الصدارة الى الولايات بالانتخاب. فشمل الفرح والسرور جميع العثمانيين في دار السلطنة وجميع الولايات وفي جميع أقطار الأرض وعدوا هذا اليوم العظيم عيداً عاماً للأمة العثمانية على اختلاف مللها ونحلها

أما سبب نيل هذه الامنية التي تشوف اليها العثمانيون من نحو ثلث قرن بعد ما سلبت منهم فهو التدبير العظيم الذي قامت به جمعيات الاحرار العثمانيين في أوربا ومصر بعد اتحادها ودخول كبار ضباط الجيش المستنيرين فيها ورب: نبين ذلك في وقت آخر

وما كاد نبأ البرق يوافي مصر بهذه البشرى حتى انبث فيها بين العثمانيين من الترك والسوريين والأرمن وغيرهم فأنشأ يهنيء بعضهم بعضاً والبشر يتدفق من وجوههم . ثم طاف جمهور منهم في الشوارع الكبيرة بالقرب من الازبكية وهم يهتفون بالأناشيد العثمانية

ثم اجتمع مئات منهم في رحبة قهوة « اسبلندد بار » وطفق يترنم بعضهم بالاناشيد والآخرون يصفقون لهم . وقام غير واحد منهم فخطبوا بالتركية وقام صاحب هذه المجلة فخطب بالعربية خطبة وجيزة صفق لها الجمهور من حملة الطرابيش والبرانيط بهجة واستحساناً

كان موضوع الخطاب ان هذا اليوم عيد لجميع العثمانيين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم واجناسهم وان الفضل في نيلنا الدستور عائد لمساعي أحرارنا وجمعياتنا السياسية ، وضباطنا ذوي البسالة والحمية ، وانه يجدر بنا معشر العثمانيين ان نفاخر جميع الأمم بنيل الدستور من غير ثورات داخلية تراق فيها دماء الالوف ويهلك فيها الحرث والنسل : وأنه ينبغي لنا ان ننسى الماضي وان نعمل للمستقبل فنظهر للامم كلها اننا أهل لهذا النوع الراقي من الحكومة فيجب ان يتحد التركي والعربي والرومي والارمني وسائر الاجناس العثمانية ويقوموا بالاعمال التي ترفع شأن البلاد على قواعد المحبة والمساواة ...

ومما قلته ايضاً انا نشكر للحضرة السلطانية المبادرة الى اجابة طلب الضباط الناطقين بلسان أحرار الامة . فبطل التصفيق او قل عند ذكر السلطان وأشار كثير من الترك والأرمن اشارات الانكار

وفي يوم السبت التالي اجتمع في دار رفيق بك العظم جمهور عظيم من فضلاء العثمانيين المختلفين في الجنس المتحدين في العثمانية لأجل المذاكرة في تنظيم مظاهرة باعلان السرور وإرسال برقيات الشكر الى جمعيات الاحرار في أوربا والى الاستانة وقد كانت جمعية الشورى العثمانية قررت في يوم الاربعاء الماضي جمع اكثر هؤلاء الاحرار للمذاكرة في شؤون الثورة ومطالبة الصدر الاعظم سعيد باشا بأن يختم تاريخه بمساعدة الامة على اعادة الدستور وجمع «مجلس المبعوثان» فلما بشرنا البرق في مساء يوم الجمعة بصدور الارادة السلطانية بذلك تحول مقصد الاجتماع الى ماذكرنا

اقترح الجمهور ان ترسل تهنئة برقية الى الامير صباح الدين داماد (ابن اخت السلطان) رئيس جمعيات الاحرار باريس يشكر له فيها سعيه وسعي الاحرار ويكلفه فيها ان يبلغ نيازي بك رئيس الضباط الذين اظهروا الثورة العسكرية في مكدونية وإخوانه كنوري بك وانور بك شكرهم وسرورهم . ورسالة اخرى الى الصدر الأعظم

فاقترح صاحب هذه المجلة إرسال رسالة خاصة الى السلطان . قلت : ان ضباطنا واحرارنا طلبوا والسلطان أعطى فنشكر له أنه قدر الحال حق قدرها وبادر الى الاجابة ولم يضطر الجند الى سفك الدماء . فوافقني على هذا الاقتراح من حضر من السوريين اكثرهم بالقول وبعضهم بالسكوت . وعارضني اكثر الترك والأرمن وقال واحد من اشهر احرار الترك : انه لم يجب الطلب فضلا واحسانا ولكنه اجابه بعد ان أشرعت في وجهه مئة وخمسون ألف حربة (سنكه) وقال بعض المعتدلين منهم لا بأس بأن يذكر في تلغراف الصدر الاعظم تبليغ السلطان سرور العثمانيين وبعد طول البحث انتخب الجمهور لجنة منهم لتقرير ما يجب وجعلوا رئيسها اسماعيل حقي بك القائمقام العسكري (لان الدستور رجع بقوة الجند) فقررت ان تحتفل في احد دور التمثيل احتفالا يخطب فيه العثمانيون بالتركية والعربية والفرنسية

والارمنية والرومية . وان يعرض على الجمهور المحتفل صورة رسالتين برقيتين إحداهما للامير صباح الدين افندي والثانية للصدر الاعظم وترسلان بعد اقراره عليهما . وقد بذل الحاضرون ما يلزم من النقود لاجل ذلك بغير اكتتاب بل بمجرد الاريحية .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع جمهور من المصريين في حديقة الازبكية لاظهار السرور بنيل العثمانيين للدستور ومجلس النواب (المبعوثان) حضرنا هذا الاجتماع في اثنائه واقترح علينا حسين بك تيمور الذي دعا الى الاحتفال وبعض العثمانيين ان نخطب بالحاضرين خطبة تناسب المقام وكان جل اقوالهم إطراء للسلطان بأنه تفضل وتكرم بالدستور اي بغير علة ولا سبب، ولا ثورة ولا طلب ، وان جيوشه منتشرة من منابع النيل الى سيلان ! ! ! ثم رأينا الجرائد كتبت عن هذا الاحتفال فوصفته الجريدة والمقطم كما حصل وذكر اللواء عنه نبذة صغيرة معظمها كذب . وهذا ما جاء في الجريدة

مظاهرة في حديقة الازبكية

اعلن حضرة حسين بك تيمور — انه سيخطب في حديقة الأزبكية نحو الساعة السادسة بعد ظهر أمس لاظهار السرور بمنحة الدستور لاخواننا العثمانيين . فبناء على هذا الاعلان توافد الناس من خاصة وعامة الى حديقة الازبكية ولما وافت الساعة السادسة التفوا حول كوشك الموسيقى فافتتح الخطابة حضرة ربيع افندي المدرس بالمدرسة التحضيرية فبسط كلمة عن فوائد الدستور ثم قال اننا نؤمل البلوغ الى غايتنا من نيل المجلس النيابي وان طال علينا الامد . ثم اختتم خطبته بالدعاء لجلالة السلطان والامة العثمانية والجناب العالي . وتلاه شاب يدعى الشيخ حسين الغزي من طلبة العلم في الازهر الشريف فحذا حذو الخطيب الاول في الموضوع ثم تلاه حضرة الشيخ صادق عمران فتلا قصيدة يمدح بها جلالة السلطان والامة العثمانية ثم طلب جماعة من رجال الصحافة والادب إلى حضرة الاستاذ العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار أن يتكلم في الموضوع كلمات تروي الغليل فأجاب دعوتهم وارتقى مكان الخطابة فقال ما خلاصته

« هذا اليوم هو عيد للعثمانيين عامة وعيد المسلمين خاصة فانه عيد بحكومة

الشورى التي يتمتع بخيرها العثمانيون كافة من جميع الملل والاجناس . وحكومة الشورى التي قررها الاسلام بقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »

مسائل الأمن والخوف من الامور العامة المتعلقة بسياسة الامة وإدارتها ولم يفوّض القرآن الامر فيه الى الرسول (ص) وحده وهو الامام المعصوم وصاحب الشريعة ومبلغها بل جعل الامر فيها اليه والى أولي الامر من الامة يديرونها بالشورى بينهم

من هم أولوا الامر ؟ زعم بعض المحرفين أو المخرفين ان أولي الامر هم الملوك والسلاطين وهو زعم ظاهر البطلان فان الرسول لم يكن معه حين نزلت الآية ملوك وسلاطين وانما كان يستشير أولي الرأي والمكانة من الامة فهم أولو الامر بغير نزاع

أفرأيتم هذه الهداية إلى حكومة الشورى وسلطة الامة . هل يوجد عناية وتأكيد في شريعة ودين أبلغ منها ؟ اذا كان رب العالمين لم يرض ان يكون خاتم رسله مستقلاً بادارة الامور العامة دون أهل الرأي من أمته فكيف يرضى أو يشرع لغيره ممن هو دونه بذلك ؟

مع هذا كله لم تلبث حكومة الاسلام بعد الخلفاء الراشدين ان صارت شخصية استبدادية ولا نخوض في الكلام عن الماضي فانما غرضنا الكلام عن الحاضر

تقلب الزمان ودالت الدول ودخل العالم الانساني في طور جديد فسبق غير المسلمين الى حكومة الشورى وكانت حكومة دولتنا العلية وهي شخصية على خطر بين الحكومات النيابية الشورية المجاورة لها ففكر بعض أصحاب العقول الكبيرة فيها من نحو نصف قرن في جعل الحكم بيد الامة وانفذوا ذلك من نحو ثلث قرن فوضعوا القانون الاساسي وأنشأوا « مجلس المبعوثان » الذي تعبرون عنه بمجلس النواب ولكن لم تلبث السلطة المطلقة ان استردت هذه المنحة أو هذا الحق منهم

لو كانت الامة العثمانية في ذلك الوقت مستعدة للدستور استعدادها اليوم لما أمكن أخذه منها ولكنها لم تنله باستعداد الجمهور بل باستعداد أفراد من نابغي وزرائها أصحاب الادمغة الكبيرة والافكار البعيدة والغيرة الشديدة كمدحت باشا واخوانه

لم يكن العقلاء في الامة العثمانية يعدون على الاصابع فيموت الدستور بموتهم بل كان في الامة كثير من أهل التربية العالية والمعارف السامية ولكنهم لم يكونوا منبثين في الامة كلها ولا مشتغلين باشراب روحها معنى الحكم الذاتي

فلما رأوا أنفسهم قد سلبوا ما فيه سعادة الامة وعزة الدولة وانه لا سبيل الى استرجاعه من الاعلى كما جاء أولاً بتدبير مدحت باشا وحسين عوني باشا وإخوانهما رأوا ان يطلبوه من جانب الامة بتوجيه نفوس المتعلمين اليه فانشأوا الجمعيات السرية التي ظلت تسعى وتدأب وتصارع الصعوبات حتى اتيح لها الظفر الآن ونالت ما تمناه »

ولما بلغ هذا المقام من البيان التاريخي المفيـد كبر على أناس لم يفقهوا قوله فحدث شيء من الشغب وانقطع الخطيب عن الخطابة اه كلام الجريدة

وأزيد على ماذكرته الجريدة ماجاء في بعض الصحف وهو ان بعض المصريين صاح ليحي السلطان . لتسقط تركيا الفتاة . او حزب تركيا الفتاة . فصاح بصياحه جمهور من الحاضرين فاستاء من كان هناك من فضلاء الترك وغيرهم من العثمانيين وقال قائل منهم : ياشيخ رشيد لا تتكلم على هؤلاء الذين لا يفهمون . فما زادهم ذلك الا صياحا بسقوط تركيا الفتاة اي الامة العثمانية في حياتها الدستورية الجديدة!!! وظنوا لجهلهم ان من لوازم حب السلطان ان يعيش على شيخوخته وضعفه عمراً طويلا بغير امة او بامة ميتة وجودها كالعدم فهكذا يكون الاحتفال بالدستور!!

اما العثمانيون الاخيار فقد جعلوا موعد احتفالهم مساء يوم الثلاثاء غرة رجب وأن لا يذكر الخطباء فيه اسم السلطان بذم ولا مدح ولا تهنئة ولا شكر عملا برأي السواد الاعظم وخلافا لرأي اكثر السوريين وهم العدد الاقل في جمهور المؤتمرين بالاحتفال وسنذكر شيئاً عن الاحتفال في الجزء الآتي

أرسل الينا كثير من المحبين رسائل التهاني بنيل أمتنا الدستور لعلمهم بما أصابنا من الاستبداد منها ماطار به البرق ومنها ماعدا به البريد منها ماهو بعنواننا الخاص ومنها ماهو بوصف جمعية الشورى العثمانية . فنشكر لجميع المهنئين عاطفتهم الشريفة ونخص بالذكر لجنة الشورى العثمانية في البرازيل وربما ننشر شيئاً مما فيه العبرة والفائدة من تلك الرسائل

الفصل العاشر (*)

محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل تزوج خديجة

وإذا العناية صاحبت مرءاً فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولِمْ وما
ودع التردد إن أتاك حديثه مهما حوى مهما نما مهما سما

لا تسأل كيف أبدع الإنسان من فتق الكواكب من رتق موادها، وقدر مدارات لحركاتها، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهن المقسمات ليلنا ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظمات في أحشائهن شملنا، الملذات بنسائمهن نسماتنا، وبأرواحهن كياننا، ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعا نشرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أفلاذها، قد حصرناها على عظمها في يدنا، وحشرنا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا، ان شئنا نرفع من شأنها بما نركب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش ألبابنا، ويسحر أبصارنا، وان شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا الى غيرها، فاطلعنا الى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارق الأسرار ومغاربها، وارتفعنا الى ينابيع الاكوان ومظاهرها، وتلمسنا ثمة حياة لا نحتاج فيها الى ماء الارض وهوائها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الإنس وتباعدت حقائقنا، ولم طالت آمالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشمت نفوسنا بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالفنا في تمييزها وترجيح

(*) من سيرة السيدة خديجة

بعضها على بعض، وتدابرنا في مناهج طلابها، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها، ولم هذا البون في أنصبائنا، والفرق في مرامينا، والبعد في مدارجنا، والغبن في معارجنا،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم سابحة في أفلاك الحقائق، وبروج الرقائق والدقائق، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها، وبادي الشعوب وحاضرها، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين أوراق الآجام وأحطابها، أو تحت دخان القفار وقفها، ومع المصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل، ومندرجة في الاواخر مع اخوانهم الاوائل

لا تسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الاول الآخر، الظاهر الباطن، ذي الحياة الازلية الساري سرها في الاكوان والوجودات، البادي خط جلالها وجمالها على لوح الآيات البينات، من الاشكال والتنوعات، ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون﴾

اذا وقفت نفسك عند هذا المطمان من المعرفة فلعلها تصل بك الى معرفة ان ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استعدادنا ان نحيط باسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مداركنا ، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا ، فأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المسابح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا الى مادون هذا السر الاعظم، ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا ، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترق بك هذه المعرفة الى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على مايختص بها من يشاء فله الامر كله فيما يبدي، ويصور ، وله الحكمة فيما ينوّع ويميز ، منه كل شيء واليه المآب

وان كنت في ريب من الحكمة الازلية، والعناية السرمدية، فدع نفسك واقفة ماشاءت في عتمة النفي ، أو دائرة في سجن الشك ، أو طائرة في جو الوهم لاقرار لها . وانما نحكي هنا للذين هم بربهم يؤمنون



سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة الى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي أعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب [1] من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد

(١) اسم عبد المطلب شيبة ولتسميته بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشما

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بني زهرة تدعى آمنة فحملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن

فما أسعدك ياعبد المطلب أكنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الإبل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعة لذكره

أكنت تفكر اذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنقطعين في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم الى الابد

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية

أجاء في خلدك ان كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم ويقيم لهم مجداً مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

= كان قد تزوج أمه من بني النجار في « يثرب » (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجرا فخرج بتجارة الى الشام فمات في « غزة » فذهب أخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بابن أخيه فأبت والدته أن تعطيه اياه حتى أقنعها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على بعير فظنت قريش انه عبد ابتاعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كانها علم له

هل كنت ملهما اذ سميته محمدا ؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له العالمون تحميداً لا ينقطع ، وتمجيداً لا يزول ؟

أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك اياه وعنايتك به إنما كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي آتاه الله من كرمه ، والوديعة القدوسية التي اختص الله بيتك لظهورها ، وقومك لانتشار مبدإ نورها

فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير ايها المخصوص بعناية الحي الأزلي ، فليدم ذكرك جمالا للمحافل واسمك ساميا مع اسم حفيدك نبي الشعوب وبركة العالم

***

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة والسلام اي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة والأربعين من ملك كسرى انوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سني الامم وتواريخها ولا سني انفسهم وانما كانوا يحفظون الاعمار ويوقتون آجال الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الاميين الى عهدنا

ولد عام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور صفوة حكايتها على حرن فيل القائد النجاشي وابائه المسير تلقاء مكة فلذلك سميت بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح ان نقول انها من التاريخ المقدس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على اسلوبه في القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونقلة الاخبار

وقد أعطي لمرضعة على عادة قريش في اعطائهم الأولاد للمراضع من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء ان تتربى أجسامهم في البادية حيث الارض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبدع النمارق الطبيعية ، والنسائم

متحملة من ذلك العبير تهديه الى النفوس رائحة وغادية

* * *

اذا بزغ رأس النهار أرسل الى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب عقبى العمل، وسوء منقلب الكسل، وكأن بينه و بين سكان البراري وساسة الأنعام عهداً أن لا يقبل بطلعته الباسمة الا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم هممهم، وثغور اجتهادهم، ورافعون اليه آيات الشكر على ماله من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم، وابيضاض وجوه آمالهم

بزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر، ونفذت الغبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم، ولا أونقت رياضهم، ولولم يصن الوادي لهم القليل مما أغيثوا به مرة لقتلهم الظمأ - ولا لما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم لانهما لم يكونا يملكان الا غنيمات قد جارت عليها السنة، وقتلها الجهد والجدب، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصاباها فملأتهما فرحاً، وأشبعتهما ابتهاجا، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء، ويجددان به شكراً على هذه النعماء، وهذا ما كانا يتحدثان به:

— حقا يا حليمة انك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

— أي والله يا حارث وانظر ما أجمله، انظر الى هذه الاشفار الهدب، انظر الى هذه العيون الدعج، انظر الى هذا الجبين الازهر، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبد المطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت

خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أتان لي قمراء [1] معنا شارف [2] لنا والله ماتبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع مافي ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا مايغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت [3] بالركب ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه يتيم وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه » قال لا عليك ان تفعلي عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة، قالت فذهبت اليه فأخذته وما حملني على اخذه الا اني لم أجد غيره. قالت فلما أخذته رجعت به الى رحلي فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل [4] فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة قالت. يقول صاحبي حين أصبحنا تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة قالت فقلت والله اني لارجو ذلك. قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي فوالله

(١) القمرة بالضم لون الى الخضرة أو بياض فيه كدرة. حمار أقمر وأتان قمراء

(٢) الشارف الناقة المسنة (٣) أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها من عجفها أي هزالها وضعفها (٤) حافل كثيرة اللبن

لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتى ان صواحبي ليقلن لي «يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا [1] أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله انها لهي. فيقلن «والله ان لها لشأناً»

قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمي شباعاً لبناً فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان»

فيالك من سعيدة يا حليمة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيه العناية الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت بيتك ويا لكن أيتها المراضع الغبيات المعرضات عن اليتيم التماساً لارضاع الذين لهم آباء. لقد فاتكن الحظ وما الحظوظ بالاختيار، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيما

* * *

بعد ان ربي «محمد» (ص) في بني سعد عند السيدة حليمة جيء به الى أمه فذهبت به وهو يمتلئ قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان يسمى الابواء. وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده و[illegible] فيه عظم الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودعه مفارقاً هذه الدار وأوصى به [illegible] الجناب الآلهي الذي من لدنه [illegible]

(1) اربعي: أي ارفقي واقصري

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتعهد تربيته وتثقيفه

وكان أبو طالب امرءاً نبيهاً شهماً صادق المروءة ماضي العزيمة، نصاراً للعدل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة ومن مواقفه أمام قريش في نصره والذود عنه . وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التربية (أبو طالب)

نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنياً عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان إعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به

أما تربيته اياه التربية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لا نظير لها وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله . ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التربية الجسدية

واما تربيته اياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشئ الارتقاء العقلي، ومناجم الإشراق الفكري، لا كتب يدرسونها، ولا قوانين للمعارف يرتبونها، ولا شيء الاغرائز طبيعية يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقلونها، وحصافة أوتوها

في نفس أصح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر،
وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية ينشئون الذرية على دروس
المشاهدة في مدارج العمل، ودروس القصد والاعتدال في معارج الأمل،
فيأتي من تلك السلائل التي لم تعدها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول
والاخلاق، أفذاذ في الهمة والاعمال، بطبع من المربين، ونفس من المثقفين،
وذلك كان شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز، وربيبه النجيب،
نشأ «محمد» (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على
يد ذلك الفاضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً، أذكاهم
عقلاً، وأزكاهم نفساً، وأصدقهم لساناً، أنداهم في العرف يداً، وأثبتهم في
الأزم قلباً، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي، أبرهم للقريب، وأعدلهم
للبعيد، أقربهم الى المعروف سمعاً، وأبعدهم في الامور نظراً، أسدهم رأياً،
وأشدهم اقداما، ألينهم للصاحب جانبا، وأكرمهم للخير صاحبا، وحسبك
انه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك
المنصب العظيم فزاده جمالا وجلالا وكمالا والله أعلم حيث يجعل رسالته
نشأه ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثنتي
عشرة سنة سار به الى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا السفر
على ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة، وأحوال العالم
المتحولة، ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت فبانت. كانوا
على وجه الارض جمالاً لها فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت
نعامتهم طرا، وطارت نعمتهم جميعاً، وأصبحوا كأن لم يكونوا «فتلك
مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا» وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من الفوائد. ولقد كان فيما أوحي الى هذا المنعم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه «أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها، ومزارعها ومصانعها، ومتاجرها وحكومتها، وأراه كيف يكدح الناس جميعا ليأكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه، وليتمتع نفر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة، ونفائس ماتعمله تلك الايدي الثقفة، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليتم قوامه، ويحفظ نظامه

ومرَّ به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاحمة في هذا الحطام الزائل، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسماني، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما يقي البدن من جوع وعري وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الأديار في «بُصرى» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مرَّنه على أساليب التجارة، وأطلعه على ضروب البضاعة، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية ماليس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية ماليس في ألف درس من التربية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى في هذه الواقعة كيف تعبأ الصفوف ، وتتقابل الابطال ، وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم ، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب ، وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبناً ، وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وانما كان ينبل على أعمامه أي يناولهم النبل أو يرد عنهم النبل . وكان ذلك كافيا لتمرنه على مواطن النزال ، ومواقف النضال ، وليس بخاف ان الاخذ بيد الناشيء الى معارك أبطال المبايعات ، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات ، هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال ، حتى اذا أتاحه الله للاخذ بقوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والفلاح ، كان نعم الدليل الهادي ، ونعم السائق والحادي

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا « خديجة » ان يخرج في تجارة لها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضعافاً فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة » ، فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة « خديجة » معه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر — الخميس ٣٠ رجب ١٣٢٦ — ٢٧ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٨

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، وانا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الرابطة عند النقشبندية وطاعة المريد لشيخه ﴾

(س ١٠) من ع . س . ط . في سنغافورة

حضرة العالم الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » المنير بمصر

قد كثرت الضوضاء والأخذ والرد في هذه الايام بين مجلة « الامام » بسنغافورة ومن يثق بها وبين من يسمون أنفسهم أهل الطريقة وأرباب السلوك وذلك بسبب السؤال الآتي والجواب عنه والمجادلات فيه ولأن المنار هنا له اعتبار عند أولي الابصار أحببنا ان يكون الحكم في هذه القضية لكي تقطع جهيزة صوت كل خطيب حيث قد امتلأت الاسماع نقيقا وأعمدة الجرائد سوادا والقلوب شبها فنؤمل بسط الجواب وبيان الحق بأدلته ودحض الشبه الباطلة ولا بد ان تكونوا قد كتبتم سابقاً في هذا الصدد فنرجوكم ان لا تحيلونا على ما ليس بأيدينا أثابكم الله .

أما السؤال المثير للجدال فهو : ما قولكم في الرابطة التي يلزم بها مشايخ الطريقة النقشبندية المريدين ومعناها انه لا يصح منهم ذكر الله إلا بعد احضار صورة الشيخ في قلب المريد ثم يشرع في الذكر مع حضورها ويتركه اذا غفل عنها لانه حينئذ باطل لتمكن الشيطان من المريد لخلو قلبه من صورة الشيخ وان قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) دليل لهم وقوله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) أمر بها أي مع التفسير المذكور الى نحو ذلك وجاء في سؤال آخر الى مجلة الامام ان من حق الشيخ ان يمنع المريد عن اجابة أبيه وأمه المسلمين إذ

ناداه ولو كان في النزع وكذا منع الزوجة عن زوجها والعكس وقد وقع ذلك هنا ومات المريض حزينا . ويقولون ان الشيخ يربي التلميذ بذلك

ومن السؤال أيضاً قولهم يجب على التلميذ متابعة شيخه بدون سؤال أو تردد ولا يجوز له ان يعترض على شيخه ولو رآه على فاحشة لانه كالنبي المرسل بالنسبة اليه ولا ينكر عليه ولا بقلبه وان عقوبة الانكار حينئذ الحرمان واوجبوا على المريد ان يعتقد انه لا يمكن ان يصل اليه مدد ولا خير من ربه الا بواسطة الشيخ لانه الوسيلة له . وللشيخ محلات السلوك والتلقين يحشر اليها جملة من الرجال الشبان والنساء الشواب يجتمعون بها من غير محرمية بل جلهم جهال بالواجبات العينية وان الذكر وحده كاف للوصول والقرب من الله ولو ترك اكثر الفروض العينية . وقد اجابتهم مجلة الامام بالمنع في الجميع وان تلك المبادي مما تبع ضلال الامة فيها من قبلهم من الامم وان بعضها فيه ميل الى جانب الشرك وقد نقل الامام ما قاله المفسرون في الرباط الشرعي والوسيلة الشرعية وجزم بان عبادة الله لا تجوز بغير ما شرعه الله وان من زاد فيها كمن نقص منها مبتدع مردود عليه قوله وان الرابطة بالمعنى المذكور في السؤال لم يعلمها النبي احدا من اصحابه ولا علمها الصحابة احداً من التابعين وان تطهير القلوب من الصور والتماثيل ليس باولى من تطهير محلات العبادة منها . وانه يحرم متابعة الشيخ فيما نهى الله عنه ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ومن شرع للعباد مالم يأذن به الله فهو ضال مضل وان اعظم مرشد واعلم طبيب ديني هو نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وقد اكمل الله به الدين فلا دواء ديني نافع الا وقد بينه لنا ومن لم تشف أمراض قلبه ادوية القرآن لا شفى الله مرضه ، وان النبي ارشدنا الى دواء الوسواس وهو ذكر الله ليخنس الشيطان فمن لم يخنس شيطان وساوسه بذكر الله فهو الكاذب ومستحيل ان يخنس لحضور صورة شيطان مثله في قلب موسوس متهوس وما في السؤال من الآداب هو ضد الادب في الاسلام ولم يؤدبنا به النبي ولم يعمل به الصحابة فعلى طالب الحق أن يلزم هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويجتنب البدع الى نحو ذلك .

واعترض اهل الطريقة بزعمهم ان الجنيد والجيلاني واضرابهما اوجدوا الرابطة بمعناها المشروح اعلاه والزام المريد بما ذكر من الشروط وان لا يمنع المريد الشيخ اي شيء اراده من نفسه او ماله سواء كان ذكرا ام انثى وان الامام واصحابه خرجوا عن الدين ومرقوا منه بإنكارهم الى نحو ذلك

وانا نسأل من المنار المنير ابداء مايراه الصواب في هذا الموضوع مع البيان الشافي فانا الى ذلك محتاجون نعد الايام والساعات والله المسؤل ان يديمكم نفعا للعباد وشجى في حلوق اهل البدع والإلحاد آمين ع · س · ط

(س ١١) من س · س · في (كوالا لمفور) في جنوب ميلاي ·

سيدي · تصدر في سنغافوره مجلة علمية ملية بلغة الملايو اسمها (الامام) يكتب فيها بعض رجال الاصلاح ومحررها رجل وطني اسمه عباس بن محمد طه وهو من خيرة شبان هذه البلاد علما وعملا اشتهر اخيرا بمحاربة البدع والخرافات التي ألصقت بالدين·

وفي المجلة باب للفتوي وقد سئل منذ اشهر عن الرابطة المعروفة عند اهل الطريقة النقشبندية وهي احضار المريد صورة الشيخ في القلب عند الذكر وربطه من جملة الارادة التامة واستفادة علم الواقعات حتى يفني تصرفه في تصرف الشيخ أخذا من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » · وقوله « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » · وقوله « يا أيها الذين اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » · فأفتى الامام بان الآمرين بفعل هذه الرابطة والعاملين بها ليس لهم مستند من الكتاب او السنة · وان الآيات التي جعلوها سندا لهم لا تدل على مرادهم البتة · ثم اورد اقوال المفسرين كالخازن والجلالين في الآيات المذكورة · الخ ما جاء في الجواب ـ ثم قال ـ اذا فاحضار المريد صورة الشيخ في قلبه عند الذكر هو إشراك بالله · وهذا ماجاء الاسلام لمحوه · اوما معناه· ثم انحى على اهل الطرق الآن ونسب كثيرا منهم للدجل والتضليل · واورد لنفي الرابطة آيتين آية · «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» · وآية «وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » · اه بالمعنى

فلما نشرت هذه الفتوى وهاته التصريحات التي لم يعهد لأحد من قبل هذا الشاب التصريح بها قامت قيامة شيوخ الطرق في هذه المستعمرة ونسبوا للإمام ومحرره تضليل عباد الله الصالحين واوهموا العامّة ان الأمام يسعى في هدم المعتقدات وهم الى الآن يحرضون العامة بهجر الامام وعدم الاطلاع فيه . اما الحقير وكثير من متخرجي المدارس الأميرية فبقينا متوقفين حتى يأتينا من عند الاستاذ بيان شاف في هذه المسئلة التي نعلم ويعلم الكثير ان لكم القدح المعلى في حلها والله يبقيكم لنا .

***

(ج) لو قلت إني من أجدر الناس وأحقهم ببيان الحق في هذه المسألة لرجوت ان اكون صادقاً ، واذا بينت السبب في ذلك رجوت أن يذعن له كل عاقل منصف ذلك بأني قد سلكت الطريقة النقشبندية وعرفت الخفي والاخفى من لطائفها وأسرارها ، وخضت بحر التصوف ورأيت ما استقر في باطنه من الدرر ، وما تقذف أمواجه من الجيف ، ثم انتهيت في الدين ، الى مذهب السلف الصالحين ، وعلمت ان كل ما خالفه فهو ضلال مبين ، وأمهد للفصل في المسألة تمهيدا يقرب المراد من طالب الحق فأقول

قد عرفنا من طباع البشر واخلاقهم ان يألفوا ما أخذوه بالرضا والتسليم ويأنسوا به فاذا وجدوا لهم مخالفا فيه تعصبوا له ووجهوا قواهم الى استنباط ما يؤيده ويثبته ويدفع عنه هجمات المخالفين لهم فيه لا يلتفتون في ذلك الى تحري الحق واستبانة الصواب فيما تنازعوا فيه . ولولا فشوّ هذا الخلق في الناس لما بقيت الاديان والمذاهب والأحزاب والشيع والحق في كل منها واحد لا تعدد فيه

ثم إن من اخلاق البشر أيضا ان لا يجتمعوا على شيء الا اذا اعتقدوا ان فيه خيرالهم وقد يكون هذا الاعتقاد لبعضهم عن نظر واستدلال او تجربة واختبار وللبعض الآخر عن اتباع وتقليد لمن اعتقدوا فيهم الفضل والكمال

على هاتين القاعدتين بني التعصب للمذاهب والطرق في جميع الملل وعليه يتخرج أخذ كثير من اهل الصلاح والتقوى والعلم والعمل بالرابطة في الطريقة النقشبندية وبغيرها من البدع التي لم تكن على عهد السلف في غيرها من الطرق وبكثير من القواعد والمسائل في مذاهب الفقهاء والمتكلمين الذين جاؤا بما لم يكن عليه السلف الصالح

يذهب الرجل المشهور بالصلاح او العلم الى شيء يظهر له بحسب اجتهاده انه حق او خير فيتبعه آخرون عن استحسان لما استحسنه ومعرفة بدليله او عن محض التقليد فاذا خالفهم غيرهم فيه عدوهم منتقصين لهم تعصبا لما هم عليه فيقوى الخلاف ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك وهم الذين يحكمون الدليل ويتحرون به استبانة الحق فاذا ظهر لهم ولو على يد الخصم ولسانه أتوا اليه مذعنين، وقبلوه راضين مطمئنين

اذا تدبرت هذا فاعلم أن أئمة الصوفية وكبراءهم ماوضعوا هذه القواعد من الرابطة وطاعة الشيخ المسلك طاعة عمياء مطلقة حتى من قيود العقل والشرع عند الغالين وغير ذلك من الاصول والقواعد الا عن علم وتجربة واختبار وصلوا بها الى مرتبة اليقين بان ذلك مفيد لهم وموصل الى الغاية التي يقصدونها بطريقتهم . واعني بالعلم هنا علم النفس من حيث ادراكها وشعورها ووجدانها وصفاتها واخلاقها . وقد كان مثلهم في ذلك كمثل علماء الكلام الذين بحثوا في الموجودات وبنوا علمهم الالهي عليها وكل منهما اذا وجد في علمه مايخالف ظواهر الشرع لجأ الى التطبيق بالتأويل والتماس مايؤيده من القرآن العزيز والحديث الشريف وقد يتمحل لذلك ويتكلف اذا اعترض عليه . كذلك فعل المتكلمون الذين زعموا ان الافلاك التسعة في الهيئة اليونانية هي السموات والكرسي والعرش وكذلك فعل بعض اهل الطريق فيما ذكر في السؤال وما لم يذكر فيه من تأويل الآيات التي زعموا أنها تدل على مشروعية مايسمونه الرابطة والتوجه ولا دليل في شيء منها على ذلك .

لو كان في الشرع دليل على ان ذلك مطلوب في الدين لما خفي عن الصحابة والتابعين بل لأمر به النبي صلى الله عليه وسلم وعمل به وتواتر عنه لانه مما يتعلق بجوهر الدين وهو عبادة الله ومعرفته فلا يقاس على مايمكن ان يستنبط من القرآن من اسرار الكون التي لم تؤثر عن الصدر الأول

قال السيد الآلوسي النقشبندي في باب الاشارة من تفسير سورة الجمعة :

« وذكر بعضهم ان قوله تعالى « ويزكيهم » بعد قوله سبحانه « يتلو عليهم آياته » اشارة الى الافاضة القلبية بعد الاشارة الى الافاضة القلبية اللسانية ، ويقال بحصولها للاولياء المرشدين فيمكن مريدهم بافاضة الانوار على قلوبهم حتى تخلص قلوبهم

وتزكو نفوسهم ، وهو سر ما يقال له التوحيد عند السادة النقشبندية ، وقالوا بالرابطة ليتهيأ ببركتها القلب لما يفاض عليه ، ولا اعلم لثبوت ذلك دليلا يعوّل عليه عن الشارع الاعظم ، صلى الله عليه وسلم ، ولا عن خلفائه رضي الله عنهم ، وكل ما يذكرونه في هذه المسألة ويعدونه دليلا لا يخلو من قادح بل أكثر تمسكاتهم فيها تشبه التمسك بحبال القمر ، ولولا خوف الإطناب لذكرتها مع ما فيها . ومع هذا لا أنكر بركة كل من الأمرين — التوجه والرابطة — وقد شاهدت ذلك من فضل الله عز وجل . وأيضا لا أدعي الجزم بعدم دليل في نفس الامر وفوق كل ذي علم عليم ، ولعل أول من أرشد اليها من السادة وجد فيها ما يعوّل عليه ، أو يقال يكفي للعمل بمثل ذلك نحو ما تمسك به بعض أجلة متأخريهم ، وان كان للبحث فيه مجال ، ولأرباب القال في أمره مقال ، » اه

فأنت ترى هذا العالم الجليل الواسع الاطلاع الواقف على ما قال أنصار هذه الطريقة في الاستدلال على الرابطة والتوجه لم يعثر لها على دليل ، ولم يرضه شيء مما قيل ، ولكنه قد راعته مكانة من جرى على ذلك من الصالحين ، وأرضاه ما وجد لهما من الاثر في قلبه وكذلك كان هذا العاجز عدة سنين ، فانني قد وجدت أثر الرابطة والتوجه في نفسي : رأيت ما لم يراه معي الناظرون ، وسمعت مالم يسمعه مثلي المصغون ، وشممت مالم يكن يشم الحاضرون ، ولا أحب شرح ذلك في المنار ولا الخوض في عاله وأسبابه ، بما ذكرت هذه الاشارة الا ليعلم السالكون لهذه الطريقة بالفعل انني لست منها كما يقال في المثل « من جهل شيئا عاداه » وانما اتكلم فيها عن عرفان ، وأحكم فيها بسلطان ،

أقول إن التوجه والرابطة ليسا من الدين في شيء ، ولا يجوز ان يعدا من العبادة المشروعة في الاسلام ، ولكن لا أقول بكفر كل من عمل أو يعمل بهما ، وانما أخشى ان يكون بعض المتقلدين لهذه الطريقة تقليداً من غير علم بالشرع ، وعرفان بحقيقة النفس ، أقرب الى الوثنية منهم الى التوحيد ، فيما يكون بين الشيخ والمريد ، بل أجزم بأن من ذلك ما هو شرك جلي أو خفي ، وان كنت لا أجيز رمي شخص معين به ، يمكن للمريد العارف بعقيدة الاسلام ان يجمع بين التوحيد وبين تخيل شيخه

عند ذكر الله عز وجل بأن يتخيل أنه جالس في حضرته يراقب أدبه وحضورقلبه في ذكره، كما يذكر الله أو يقرأ القرآن أو العلم بحضرته، وهو يعتقد انه لا ينفع ولا يضر، ولا يقصد بقبول العمل، وانما يُصمد في ذلك الى الله تعالى وحده . فمثل هذا لا يعد مشركا لشيخه مع ربه، وهو لا يشغله تخيله لشيخه عن ذكره، إذ لا يستصحب الصورة المتخيلة عند تصور معنى كلمة التوحيد، وذلك سهل على مريده كما يقرأ القرآن أو غيره من كتب الفنون أمام شيخه ولا يشغله وجوده عن فهم ما يقرأ . ومع هذا لايجوز له ان يحكم بأن هذا الامر مطلوب في الشرع. بل يكتفي بأن ينتفع بما جربه من غير مخالفة لنص من نصوص الشرع

واما استمداد الهمة من أرواح الشيوخ فقد ضل فيه كثيرون كضلال الذين يعتقدون ان لشيوخهم سلطة غيبية يتصرفون بها في النفوس والآفاق وانهم بذلك وسطاء بين الله وخلقه يقربونهم اليه زلفى اذا أرادوا كما كانت تقول الجاهلية في آلهتها . على أن للمسألة أصلا يعد من مباحث علم النفس لا من الدين هو منشأ ضلال المفتونين عن تجربة ووجدان يظن الجاهل منهم أنه من الحقيقة المخالفة للشريعة، ويعلم العارف المحقق انه لاخلاف في الفعل، ولا منشأ للضلال الا الجهل

قد جرب أهل الطريقة ان يتوجهوا بهمتهم وارادتهم الى بعض شيوخهم الصالحين أو الى بعض الصحابة أو النبيين قاصدين ان تتصل أرواحهم بأرواحهم وتستمد منها قوة ما فيجدوا لذلك في نفوسهم أثرا حقيقيا لا يمكن لاحد ان يكابرهم فيه كما لا يكابَر أحد ولا يشكك في شعوره بالفرح والسرور أو الغم والحزن . فاذا قيل لمن جرب ذلك من الجاهلين بالشريعة انه مخالف لها فانه يشك في حقية الشريعة ولا يشك فيما هو فيه الا أن يجمع له بينهما . ولمثل ذلك قالوا! ان سالك الطريق عرضة للزيغ والكفر اذا لم يكن له شيخ من العارفين الجامعين بين علم النفس وعلم الشرع فيبين له في مثل هذه المسألة ان هذا الاثر الذي يراه في نفسه من التوجه هو أثر طبيعي له ليس من الخوارق ولا من السلطة الغيبية التي لا تكون الا لله وحده واذا رآه مرتقيا في سلوكه يبين له ان براهمة الهند يعرفون التوجه والرابطة ويؤثر عنهم كثير من الخوارق الصورية والمادية، التي لا تخرج عن السنن النفسية والخواص

الروحانية ، ولكنهم في توجههم ورابطتهم دون السادة الصوفية ، لأن الرابطة والتوجه عندهم من المقاصد التي يقفون عندها ، ويرضون من رياضتهم بثمرتها وأثرها ، وهما عند الصوفية من الوسائل التي يعرفون بها نفوسهم ، ويعرجون منها الى ان يصلوا الى معرفة ربهم ، فالاشتغال بهما كاشتغال العالم الطبيعي بمعرفة خواص الماء والبخار والكهرباء والضوء فان كان يقصد بذلك معرفة هذه الاشياء لذاتها مما ينتفع به في هذه الحياة المادية كان مثله كمثل البرهمي في التوجه والرابطة لا يزيد عن كونه عالما ماديا ، وان كان يقصد بها مع ذلك معرفة الله بمعرفة حكمه واسراره في خلقه كان مثله كمثل الصوفي في التوجه والرابطة وصار عالما ربانيا ، فالامور بالمقاصد والارادات ، كما بينا ذلك في تفسير ما في صدر هذا الجزء من الآيات ،

اذا عرفت هذا وهو ما عليه محققو العارفين من الصوفية تبين لك ان مسألة التوجه والرابطة من المسائل التي تعد من وسائل علم النفس وليست بحد ذاتها من الدين فيستدل عليها بالآيات والاحاديث ، وان علم النفس كعلم الآفاق قد يكون بالارادة طريقا لمعرفة الله تعالى وبالقصد والنية عبادة له كما تكون جميع العلوم الدنيوية كذلك . والاصل في ذلك عند الصوفية قوله عز وجل (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ٥٤ الا انهم في مرية من لقاء ربهم الا إنه بكل شيء محيط) ولما كان محيطا بكل شيء كانت معرفة غاية كل شيء موصلة اليه اذا قصد بها ذلك . ولذلك قالوا ان لله طرائق ، بعد انفاس الخلائق ،

وههنا ثلاث مسائل لا بد من التصريح بها وايضاحها ايضاحا لا لبس فيه . (احداها) أن كل علم حقيقي يمكن ان يكون عبادة محمودة في الاسلام اذا حسنت فيه النية وأريد به معرفة الله ومعرفة سننه وحكمه في خلقه وكذلك كل عمل نافع يراد به دفع الاذى عن عباد الله وايصال الخير اليهم . ولكن العبادة في ذلك قلبية لا صورية فلا يقال إن علم الضوء والكهرباء وعمل الادوية وصنع الآلات مما يكون مع حسن النية من العبادات المشروعة في ذاتها التي تلتمس لها الدلائل من الكتاب والسنة . ومثلها في ذلك التوجه والرابطة في الطريقة

(المسألة الثانية) إن العبادة المشروعة لذاتها التي يطالب المسلمون بها هي ما نطق به القرآن الكريم أو مضت به السنة النبوية وجرى عليه جمهور السلف وما عدا ذلك فهو بدعة والبدعة في الدين لا تكون الا ضلالة كما ورد في الحديث واما البدعة التي تعتريها الاحكام . ويقال ان منها ما هو حلال وما هو حرام، فهي البدعة في أمور الدنيا عمومها وأعمالها كما يدل عليه حديث مسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها » الخ

(المسألة الثالثة) ان جميع ما يبتدعه الناس من وسائل النفع والخير في العلم والتربية والاعمال يشترط في جوازه ان لا يكون مخالفا لما هو مقطوع به من أمور الدين. فاذا فرضنا ان التوجه والرابطة ينافيان ما هو مقطوع به في الاسلام فانه لا يحل للمسلم العمل بهما . وقد علمت انهما يختلفان باختلاف العالم العارف والجاهل المقلد

ومن هذه المسألة أنتقل بك الى القسم الثاني من الاستفتاء وهو ما يفرضون من طاعة المريد لشيخه ولو في المعصية، وعدم انكاره عليه وان فعل المنكر، واعتقاد انه لا يقبل له عمل ولا يصل اليه خير الا بواسطته، ومثل هذا مما لا يحتاج فيه الى سؤال ولا جواب فان وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صريح في القرآن والأحاديث ومضت به السنة فهو معلوم من الدين بالضرورة يحكم الفقهاء بردة منكره ولم يستثن الله ولا رسوله مشايخ الطريق من هذا الحكم بل كان الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور ينكرونها في أعمال الدين كالسهو في الصلاة أو أعمال الدنيا كالحرب وتدبيرها حتى يفسرها لهم ويفرق بين ما هو عن وحي وما هو عن سهو أو اجتهاد غيره أفضل منه . والصوفية المحققون لا يشترطون على المريد الا حسن الظن بشيخه والادب في سؤاله وما عدا ذلك فهو من غلو [illegible] أو من [illegible] الشاذين ، ولا يقولون ان عبادته لا تقبل ولا يصل اليه خير [illegible] الا بواسطة شيخه [illegible] يقولون انه لا يصل الى المقصد من سلوكه الا [illegible] وهذا صحيح في الغالب

و [illegible] على مخالفة « الامام » من « ان الجنيد والجيلاني وأضرابهما [illegible] الجيلاني عند كل أحد يعرف ما هو الاسلام اذ من [illegible] من خلق الله ان يوجب على عباد الله أمراً دينياً الا رسل

الله بإذن الله وهذا الغلو في إجلال المشهورين هو سبب التقليد منشأ فساد كل دين

واذا كانت المسألة بديهية عند كل من يعرف الاسلام ، فهي من أعظم المشكلات عند جهلة العوام ، لأن الكثيرين منهم لا يعرفون من الاسلام شيئا له سلطان على نفوسهم الا ما يسمعون عن الرجال الصالحين ولا علاج لهؤلاء الا تعليمهم ماهو الاسلام مع الحكمة التي يجمع فيها بين بيان الحق وبين الادب عند ذكر أهل العلم والتقوى وبيان انهم غير معصومين من الخطا وأن كثيرا مما ينقل عنهم لا تصح نسبته اليهم ، وأن افضل ما يكرمون به هو عدم الثقة بما ينقل عنهم اذا كان مخالفا للشرع ، لا مخالفة الشرع اذا ادعى بعض الناس انهم خالفوه ، فان ذلك تقديم لهم على الله ورسوله ، ثم تحسين الظن بنيتهم وقصدهم فيما اخطأ اجتهادهم فيه وان المجتهد المخطئ منهم يؤجر على اجتهاده ولكن لا يتابع عليه ،

وانني اذكر شاهدا واحدا من خطإ أئمة الصوفية والعلماء في اجتهادهم المتعلق بالتصوف وهو خطأ الإمام الغزالي — الذي صرحت غير مرة بأن كتابه الاحياء كان استاذي الاول الذي حبب الي العلم والتصوف — ليقاس عليه خطأ من لا يشق له غبارا من الشيوخ الصالحين المشهورين ومنه يعلم ان كل اجتهاد خالف الكتاب والسنة فليس من الدين

كان الغزالي في سياحاته ايام تصوفه يزور المشاهد وقال ان قبور الانبياء والصالحين تزار للاعتبار بتذكر الموت والآخرة والتبرك ، فزاد على ما ورد في حديث الإذن بزيارة القبور ما سماه التبرك . ويعني به ما يجده الزائر السالك لطريق الآخرة عند زيارة المشاهد من الخشوع والحال التي تزيده رغبة في الآخرة واعراضا عن الدنيا . واستدل على مشروعية هذا ونحوه مما لم يرد في الشرع كالرابطة التي نحن بصدد البحث فيها بحديث « من بورك له في شيء فليلزمه» كأنه يقول انا وجدنا لذلك فائدة في نفوسنا زادت في خشوعنا ووجد ان الدين في قلوبنا وذلك هو البركة لان معناها الزيادة وقد امرنا الشارع بلزوم كل شيء نرى فيه بركة انا فنحن عاملون بأمره في ذلك

الخطأ في هذا من وجهين (أحدهما) ان الكلية ممنوعة فاننا لو جعلنا للانبياء والصالحين صورا وتماثيل تمثل لناظرها هيآتهم في الخشوع والوقار لكان لها في نفوس الناظرين اليها من التأثير ما ليس لرؤية قبورهم المشيدة المشرقة كما نرى ذلك عند غيرنا من الملل وهذا التأثير هو السبب في اتخاذ النصارى للصور والتماثيل في كنائسهم والغزالي لا يجيز هذا في الاسلام ومثله بناء المشاهد للصالحين وتشريف قبورهم واتخاذ المساجد عليها نهي عنه كما نهي عن الصور والتماثيل فثبت انه لا يجوز لنا ان نحدث في الدين ما ليس منه وان كان إحداثه لغرض صحيح وقصد حسن بل نتبع فيه ما جاء به الكتاب والسنة وجرى عليه سلف الامة ونجعل اجتهادنا في اختيار النافع لنا محصورا فيما فوض الينا من الاستقلال بأمور دنيانا .

(والوجه الثاني) ان الحديث الذي أورده يدل على ما ذكرناه من التخصيص بأمر الدنيا دون ما استدل به عليه من جعله في أمر الدين. إنه أورد الحديث باللفظ الذي اشتهر به على الالسنة ولم يروه به أحد . وما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة من عزوه الى ابن ماجه بعد ايراده بهذا اللفظ غير مراد ظاهره وانما مراده ان ابن ماجه رواه بالمعنى وقد ذكر نص رواية ابن ماجه في الجامع الصغير وهو « من أصاب من شيء فليلزمه » وقال انه رواه عن أنس وعائشة. أقول وقد أخرجه ابن ماجه في أبواب التجارة والكسب من حديث أنس بهذا اللفظ الذي ذكره في الجامع الصغير ومن حديث عائشة بلفظ آخر وهو « عن نافع قال كنت أجهز الى الشام والى مصر فجهزت الى العراق فأتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها يا أم المؤمنين كنت أجهز الى الشام فجهزت الى العراق فقالت لا تفعل مالك ولمتجرك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا سبب الله لاحدكم رزقاً من وجه فلا يدعه حتى يتغير له أو يتنكر له» تقول له مالك ولمتجرك القديم الذي تعودت الربح منه حتى تتركه وتقدم على ما تجهله ؟ الزم ما رأيت الربح فيه. ومعلوم ان الاوامر والنواهي المتعلقة بأمر الدنيا كهذا الامر لا يعد من التكليف الديني الذي يجب امتثاله شرعا وانما يسميه علماء الاصول أمر إرشاد يعتبر به و يعرض على المصلحة

ولا يقال إن حديث أنس عام لان عمومه في بابه على انه روي بلفظ من

أصاب مالا من شيء » كما هو ظاهر حاشية ابن ماجه ، ولان هناك دليلا يمنع جريانه في أمر الدين وهو ماذكرناه في الوجه الاول . على ان في سنده فروة أبا يونس عن هلال . قال الذهبي في الميزان مختلف فيه ليس بقوي وقد ضعفه الازدي . ولم يكن الغزالي في أيام تصوفه وزمن تأليفه الإحياء يبحث عن علل الحديث وإنما كان يستدل ويستنبط ما يتعلق بالفضائل من كل ما يراه في الكتب حتى كتب الصوفية ولذلك وقع في الاحياء كثير من الاحاديث المنكرة والضعيفة والموضوعة . وقد عكف على الحديث واعتصم بمذهب السلف في آخر عمره وان اهتدى الى حقية مذهب السلف قبل الانقطاع الى الحديث

واذا كنا معشر المسلمين نعتقد ان الأولياء والصوفية غير معصومين من الخطإ وكنا نشاهد الخطأ الصريح في كتبهم ونراهم يخالف بعضهم بعضا ويرد بعضهم على بعض فهل يصح ان نجعل أقوالهم واعمالهم اصلا من اصول الدين

وخلاصة القول ان التوجه والرابطة ليسا من عبادات الاسلام ولا دليل فيه على كونهما مشروعين ومن جعلهما عبادة مشروعة في ذاتها فقد دخل في عداد الذين قال الله فيهم (٤٢ : ٢١ ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقوله في بيان أصول المحرمات(٧ : ٣٣وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) وان ائمة الصوفية المحققين لا يجعلونهما من الدين وانما يجعلهما بعضهم من وسائل معرفة النفس فهما عندهم من قبيل الوسائل التي تتخذ الآن لما يسمونه استحضار الارواح وفي كل منهما لابد من الواسطة ،وان المقلدين في الطريقة النقشبندية وغيرها عرضة للضلال والشرك الجلي أو الخفي اذا تمسكوا بهذه الظواهر التي لا يعرفون مراد العارفين بها فيجب عليهم اتقاء ذلك وإحكام عقيدة التوحيد التي منها ان الشيوخ الاولياء بل والانبياء لا يملكون لانفسهم ولا للناس ضرا ولا نفعا ولا هداية ولا غيرها كما صرح به الكتاب العزيز في آيات كثيرة وأن يحسنوا الظن بمن قال بالرابطة من الصالحين وقد بينا مرادهم عن علم وعرفان وهو سر من اسرار التصوف أفشيناه للضرورة والارشاد وان يعتقد مع تحسين الظن بهم انهم ليسوا حجة في الدين وانهم لا يطاعون في معصية الله . ومن أراد ان يزداد نورا في هذه المباحث فلينتظر جزء الترجمة من تاريخ الاستاذ الامام فان فيه بيانا لا يجده في كتاب

﴿ وجه المرأة الحرة ﴾

(س ١٢) من محمد رحيم افندي الشفي في « زويله باشي» بسمبر (روسيا)

الفاضل الجليل والعالم النبيل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الأغر دمت بالعز والكرامة. اما بعد فقد كثر المباحثة والمناظرة في حق وجه الحرة في طرفنا فبعض العلماء قالوا ليس بفرض ستر وجه الحرة لحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو داود وابن مردوية والبيهقي ان اسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال « يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وهذا » وأشار الى وجهه وكفه وبعضهم قالوا ان ستر وجه الحرة فرض وان لم تستره تكون آثمة عند الله لقول عائشة رضي الله عنها احدى عينيها فحسبت لاندفاع الضرورة (كذا) أخذه القهستاني والزاهدي فالمأمول من سيادتكم ان يبين الحق من الاقوال لرفع النزاع من بين الناس

(ج) حديث عائشة لا تنهض به الحجة فانه مرسل وفي اسناده من تكلم فيه والاصل في المسألة قوله تعالى (٢٤ : ٣١ ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها) فقد روي عن ابن عباس انه قال : الظاهر منها الكحل والخدان وفي رواية عنه : الزينة الظاهرة والوجه وكحل العين وخضاب الكف والخاتم . وعن سعيد ابن جبير والضحاك : الوجه والكف . وعن عطاء : الكفان والوجه. وسئل الأوزاعي عن قوله تعالى « الا ما ظهر منها » فقال : الكفين والوجه ذكر ذلك كله ابن جرير في تفسيره وذكر أقوال من قالوا انها الثياب والحلي أو الوجه والثياب ثم قال : وأولى الاقوال في ذلك بالصواب قول من قال عني بذلك الوجه والكفان يدخل في ذلك اذا كان كذلك الكحل والخاتم والسوار والخضاب . وانما قلنا ذلك أولى الاقوال في ذلك بالتأويل لاجماع الجميع على ان على كل مصلّ ان يستر عورته في صلاته وان للمرأة ان تكشف وجهها وكفيها في صلاتها وأن عليها ان تستر ما عدا ذلك من بدنها الا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه اباح لها ان تبديه من

ذراعها الى قدر النصف . فاذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً كان معلوما بذلك ان لها ان تبدي من بدنها مالم يكن عورة كما ذلك للرجال لان مالم يكن عورة فغير حرام إظهاره ، واذا كان لها إظهار ذلك كان معلوما انه مما استثناه الله تعالى ذكره بقوله « الا ما ظهر منها » لان كل ذلك ظاهر منها . وقوله « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » يقول تعالى ذكره وليلقين خمرهن وهو جمع خمار على جيوبهن ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وقرطهن . اه كلام ابن جرير

والجيوب جمع جيب وهو فتحة القميص على الصدر وكانت المرأة تضع الخمار على رأسها وتسدله الى الوراء فيظهر عنقها وصدرها فأمرن بأن يجعلن طرفه على الجيب ليستر العنق والصدر . ولم يؤمرن بوضعه على الوجه فلو لم يقل الا ما ظهر منها لكان يصح ان يقال ان كشف الوجه باق على أصل الاباحة فكيف وقد امر بستر الجيب ولم يأمر بستر الوجه ! . وناهيك بحكاية ابن جرير الإجماع على ذلك وهو ما كان عليه النساء في عهد السلف فقد كن يأتين المساجد ويغشين الاسواق ويسعفن الجرحى في مواقع القتال ويخطبن على الرجال ويناقشن الامراء والحكام . يفعلن ذلك وأمثاله مكشوفات الوجوه . ومن جال في أرض المسلمين في الاقطار المختلفة يرى ان أكثرهن يخرجن مكشوفات الوجوه ولا يستره منهن الا بعض نساء المدن وهي عادة حكمت بها غيرة الرجال عند ما دخل المسلمون في الحضارة وانغمسوا في الترف الذي يستلزم الفسق والفجور ولذلك ترى أكثر الفقهاء عللوا وجوب ستر المرأة وجهها عن الرجال بخوف الفتنة وابتدأ هذا البحث والخلاف في القرن الثاني

هل يمكن لمكابر ان يقول ان النساء كن يصلين مكشوفات الوجوه في مسجد الرسول (ص) في حياته ولا يراهن أحد ؟ اذا كابر أحد نفسه وقال يحتمل ان الرجال لم يكونوا يرون النساء في المسجد لانهن يصلين وراءهم ولم يخش ان يقال له انهم كانوا يرونهم قبل الصلاة اذ كن ينتظرن الجماعة معهم وبعدها عند الانصراف كما هو مأثور مشهور — فهل يسفه نفسه ويقول ان الرجال لم يكونوا يرون وجوه النساء وأيديهن في أثناء أعمال الحج من طواف وسعي ووقوف بعرفة وجولان في أرض الحرم ومعلوم لكل من يعرف احكام الحج في الاسلام ان كشف المرأة

وجهها في الإحرام واجب ومن النساء من تحرم بالحج من أول أشهره فتكون أكثر من شهرين محرمة مكشوفة الوجه واليدين أينما كانت وحيثما حلت وهي مع الرجال في جميع الاعمال

ومن نظر الى كلام فقهاء القرون الوسطى الذين رجحوا تحريم النظر الى الوجه والكفين يجد انهم لم يأتوا عليه بدليل من الكتاب ولا من السنة ولا من عمل أهل الصدر الاول وانما عللوه بخوف الفتنة وسد الذريعة وقد قالوا بحرمة النظر الى وجه الأمرد وعللوه بتلك العلة ومن العجب ان امام الحرمين من الشافعية اغتر بمنع الحكام النساء من الخروج في زمنه وظن ان عليه جميع المسلمين

قال الرملي في شرح المنهاج عند تصحيح المتن لحرمة النظر الى وجه المرأة وكفيها حتى عند الامن من الفتنة : « والثاني لا يحرم ونسبه الامام للجمهور والشيخان للاكثرين وقال في المهمات انه الصواب . وقال البلقيني الترجيح بقوة المدرك والفتوى على ما في المنهاج وما نقله الامام من الاتفاق على منع النساء أي منع الولاة لهن معارض لما حكاه القاضي عياض عن العلماء انه لا يجب على المرأة ستر وجهها في طريقها وانما ذلك سنة وعلى الرجال غض البصر عنهن للآية وحكاه المصنف عنه في شرح مسلم وأقره عليه » الخ ما ذكره ومنه انه يحرم النظر الى المرأة المتنقبة التي لا يرى منها غير عينيها ومحاجرها والى العجوز والمشوهة

وفي حاشية المقنع من كتب الحنابلة « لا يجوز له النظر الى الاجنبية قصداً وهو المذهب . وقال القاضي يحرم النظر الى ما عدا الوجه والكفين لأنه عورة ويباح له النظر اليهما مع الكراهة اذا أمن الفتنة ونظر بغير شهوة وهذا مذهب الشافعي . قال في الانصاف : وهذا الذي لا يسع الناس غيره خصوصاً للجيران والأقارب غير المحارم الذين نشأ بينهم » ثم نظر في هذا بأن فيه تجرئياً للفساق وهو مخالف لمقاصد الشرع في إصلاح أمر الدنيا والآخرة . وبمثل هذا صرح الحنفية مع أن الجميع يروون عن أئمتهم ان الوجه والكفين غير عورة وعن ابن عباس تفسير الآية بذلك

أقول مسألة الخوف من الفتنة العارضة أو سد ذريعتها لا يصح ان تجعل دليلا لتغيير حكم من احكام الدين التي كان عليها السلف بحظر أو إباحة تغييرا مطلقا كأن

يقال مثلا ان صلاة النساء مع الرجال في المساجد حرام في الاسلام، بناء على ما يقولون به من فساد الزمان، ومثله كشف المرأة وجهها . وانما يصرح بان حكم الاسلام هو كان الذي عليه السلف اتباعا للكتاب والسنة ولكن اذا عرض ما يمنع من العمل به بناء على قاعدة درء المفاسد فاننا نمتنع عنه ما دامت المفسدة متوقعة

فحاصل الجواب ان كشف المرأة لوجهها هو الاصل الذي كان عليه الناس واقره الاسلام بل أوجبه في الإحرام وادعاء حرمته في أصل الدين جناية على الدين وتحكم فيه بالرأي أو الهوى وإثبات للحرج والعسر فيه وقد نفاهما الله عنه لأن أكثر المسلمات يشق عليهن ذلك مع الحاجة الى العمل والسفر وان تحمله من نساء الامصار من تعودنه أو من كفتهن الثروة مزاولة الاعمال . ودعوى خوف الفتنة من كشفهن لوجوههن لا تسلم على اطلاقها فاننا نعرف من نساء الفلاحين والبدو السافرات من نقطع بأنهن أبعد عن الريبة من نساء المدن المتنقبات ، ولكن المرأة التي تعلم ان في كشف وجهها مفسدة يحرم عليها كشفه بلا شك

﴿ احترام المسلم لشعائر غيره الوطنية والدينية ﴾

(س ١٣ و ١٤) من ج ٠ ١ ٠ بمصر

جناب الاستاذ العالم الشيخ رشيد رضا المحترم

حبذا لو تكرمتم بابداء معلوماتكم السديدة وآرائكم المفيـدة عن السؤالين الآتين وما ذلك الا حباً في الافادة والاستفادة .

— ١ — هل يجوز لأحد المسلمين ان يراعي شعائر الدولة التابع لها أم لا ؟

مثلا اذا فرض وجود بعض المسلمين التابعين لدولة مسيحية كالروسيا وغيرها هل يتحتم على الرعايا المسلمين في مثل هذه الاحوال ان يجاروا الشعب في شعائرهم مع وجود المغايرة في الاحتفالات الدينية بمعنى هل يليق بهم أن يقودوا بالاحترام اللازم لقيصر أو للحاكم اذا مر في الشوارع أو قابلوه في محله كما تفعل الرعية التي على دين ملكها أو حاكمها . وهل يتشارك المسلمون في اقامة الاحتفالات التي تقوم

بها الدولة التابعين لها كاحتفالها بعيد ملكها أو بعيد وطني أو يجب تجنب مثل هذا الاحترام وهذه الاحتفالات بغير الملوك المسلمين .

— ٢ — هل يجوز للمسلم احترام شعائر غيرة الدينية أم لا ؟

مثلا إذا أراد أحد المسلمين دخول كنيسة مسيحية أو ما شاكلها وطلب منه رفع عمامة أو مجاراة الشعب في عوائده الدينية هل له ان يفعل هذا أم يمتنع .

هذا ما أردنا الاستفهام عنه من عالم خبير مثلكم فنرجو الإجابة اما عموميا في مجلتكم الزاهرة او خصوصيا باسمي والسلام

(ج) اما الاحتفالات والشعائر الوطنية فيباح للمسلم أن يشترك فيها مع أهل وطنه ما لم تشتمل على محرم في الاسلام كشرب الخمر على اسم الملك الذي يسمونه النخب

وأما الشعائر الدينية فلا يجوز للمسلم أن يشارك غير المسلمين فيها كأن يصلي معهم كصلاتهم الخاصة بهم كالتي تكون منهم في الكنيسة وهم مكشوفو الرءوس متوجهون الى قبلتهم وان لم يقل قولا يحظره الاسلام . فالمحظور في هذا المقام يرجع الى أمرين - أحدهما الاتيان بما هو ممنوع في الاسلام كتعظيم صور الانبياء والصالحين أو طلب الخير او دفع الشر منهم . وثانيهما العمل الديني الخاص بغير المسلمين بحيث لو عمله المسلم لعده رائيه منهم هذا ما اتفق عليه الفقهاء فيما نعلم ولعلنا نفصل القول في ذلك بعد

« حديث علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل »

(س ١٥) من احمد افندي محمد عطيوه بالقناطر الخيرية

المرجو من حضرة الاستاذ الحكيم السيد رشيد رضا افادتي عن هذا الحديث « علماء أمتي كأنبياء بني أسرائيل » في أي كتاب من الكتب الحديثية المعتبرة هو — وفي أي باب هو صحيح هو أم ضعيف . ولكم من الله الاجر ومني عاطر الثناء والشكر

(ج) هو حديث موضوع تجدونه في كتب الموضوعات وذكره الحافظ السيوطي في الدرر المنتثرة وقال لا أصل له والشيخ عبد الرحمن الديبع في تمييز الطيب من الخبيث وقال « قال الدميري والزركشي وابن حجر إنه لا أصل له »

باب المناظرة والمراسلة

٥

« بحث العمل بالاحاديث القولية والاحاديث الفعلية »

يقول حضرة الدكتور اما السنة القولية (الاحاديث) فبعضها نسخ بالقرآن و بعضها الآخر نسخ بالاحاديث الأخرى . ونحن نقول ما الدليل الذي قام لدى حضرة الدكتور فى التفرقة بين السنة القولية والسنة الفعليـة ؟ولم لايكون النسخ فى الفعلية ؟ وما الدليل على ذلك ؟ اليس من المقرر والمسلم ان اصل كل تشريع انما هو القول؟ وهل يعرف الواجب والحرام والسنة والمكروه الى غير ذلك الا بالقول؟ الم يكن من المعلوم ان الافعال تتطرقها احتمالات كثيرة اذا لم يقارنها البيان بالقول وقد تبقى مجملة لا يتعين المراد منها الا به ؟

يقول حضرة الدكتور « فبعضها نسخ بالقرآن » ويقال عليه ان نسخ السنة بالقرآن » قد قال الامام الشافعي انه لايكون حتي حكى بعض الشافعية عنه انه قال حيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له

وحضرة الدكتور لم يذكر ذلك عنه بل نقل بعض قوله وترك البعض ودونك قول الامام في الرسالة «لاينسخ كتاب الله الا كتابه ـــ ثم قال ـــ وهكذا سنة رسول الله (ص) لا ينسخها الا سنته » فان جاز الاستدلال بقول الامام هناك جاز هنا والا فلا في الموضعين

وقوله « و بعضها الآخر نسخ بالاحاديث الاخرى » يقال عليه فهذه الاخرى الناسخة هل هي معلومة ام لا وهل هـــذه هي المدونة عند اهل الحديث ام هي احاديث غيرها ؟ واين هي ؟ ومن ادراك بها فانك قد قررت انك لا تقبل النسخ الا ان تجد الله او رسوله قال هذا ناسخ وهذا منسوخ وينقل الينا ذلك بالتواتر فهلا انصفت مناظريك ؟ —

وقوله « وعندنا انه لم يبق منها شيء يجب العمل به غير موجود في القرآن » الجواب عليه هنا ان يقال ان هذه مجرد دعوى لا يستطيع حضرته ان يقيم البينة عليها هو ولا غيره فان في السنن من الاحكام والآداب أضعاف ما في القرآن وهي بفضل الله تعالى لا تخالف مقاصد القرآن وهي مطابقة للعقل ولا يمكن ان يستغني عنها البشر ولولا خوف الاطالة لاتينا بجمل منها و بينا ما لها وما عليها ومقدار الحاجة اليها فليتتبع ذلك حضرته

بل نقول ولا يبعد ان القرآن محتاج الى السنه اكثر من احتياج السنة اليه . يوضحه ان القرآن الكريم ذو اوجه والسنة مبينة للمراد منه تارة وشارحة ومفسرة أخرى . او تأتي بأحكام زائدة على ما فيه يشرعها الله على لسان رسوله (ص) لشدة حاجة البشر اليها اظهارا لكرامة رسوله (ص) عليه وليتعودوا طاعته واتباعه كما أمر بذلك في كتابه ولئلا تجرهم الشبهات الى رد بيانه للكتاب الكريم. ولبسط ذلك محل آخر

يقول حضرته « لانها لم تكن الا شريعة وقتية تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية » واقول هذه دعوى وتعليل لما شاء بما شاء وكل احد يمكنه ان يدعي فاين الدليل ؟ اما قوله تعليلا لذلك نهيت الصحابة عن كتابتها فيقال عليه ان مسئلة النهي عن الكتابة والترخيص فيها هي مسئلة لاتدل على نسخ السنن النبوية باحد الدلالات مطلقاً والقاريء يرى ان حضرة الدكتور قد ملأ الكون صياحاً بالانكار على العمل بالظن فمالنا نراه قد انسل هنا الى هدم ما كان اسسه ثم يعمد الى هدم القصور اليقينية فيرد جميع السنن ويلغي طاعة الرسول (ص) التي أمر الله بهما في غير موضع من كتابه والاحاديث المتواترة لفظا ومعنى في وجوب اتباعه واتباع سنته . ويرد اجماع الصحابة بل جميع الامة ؟ ماله يرد ذلك كله بالخرص والتخمين الذي لا يبلغ الى اضعف مراتب الظن بل لا يصح ان يعتبره معتبر ؟ فليعتبر حضرته بمناقضته لنفسه بنفسه

إن أمر النهي عن الكتابة لم ينقل الينا متواترا بل قد اختلف في رفعه الى المعصوم (ص) وفي نسخه وقد عارضه ما هو اقوى منه ولم ينص فيه على أن المراد منه ان السنن موقت

شرعها او انها منسوخة بعد مدة كذا من الزمن ولا انه نهى عنها لأجل ان تندثر السنن بطول الزمن . ان احدهذه الامور التي ذكرناها تمنع الاستدلال على ما قصده حضرة الدكتور فكيف يصح ان يكون ما هذا حاله معارضا لجميع الآيات القرآنية والاحاديث النبوية واجماع الصحابة بل وسائر المسلمين ! فطاعة الرسول ووجوب اتباع سننه معلوم بالضرورة من دين الاسلام — لا سيما اذا كان حديث النهي عن الكتابة معللا بعلة منصوصة عن روايه وهو خوف الالتباس بالمصحف . وكل من روي عنه من الصحابة النهي او الامتناع عن كتابة الحديث فهو دائر على هذه العلة كما صرحوا بذلك. ومنهم من خاف ان يقع في الوعيد على الكذابين ومنهم من نهى عن كتابة رأيه فاشتبه ذلك على الناظرين فظنوا انه نهى عن كتابة السنة النبوية وليس الأمر كذلك — فالقول بان نهيهم عن كتابة العلم او الحديث نص في النهي عن كتابة السنن النبوية هو قول بالخرص

ثم هل يجوز لمن لا يجوز العمل بالظن ان يأخذ اقوالهم في امر قد صرحوا بسببه ان يتركه ويهمله ثم يحمل قولهم على غير ما ارادوه بل على ما نهوا عنه وهو ترك اتباع السنة واعتقاد وجوب اتباعها. ثم نقول الحق ان الامور المعللة يدور حكمها مع عللها وحيث زالت العلة زال الحكم وهو هنا خوف الالتباس بالمصحف فقد وقع الاجماع على جواز بل استحباب كتابة الحديث وقال بعضهم بالوجوب وهو الحق. هذا كله اذا سلمنا ان حديث النهي مرفوع وانه غير منسوخ . ومن اطلع على القاعدة الاصولية من انه اذا وقع التعارض بين دليلين احدهما مانع والآخر مرخص مثلا عرف ان الاجماع على كتابة السنن غير معارض لنص — لأنه بعد تساقط الدليلين المتعارضين اعني حديث النهي عن الكتابة واحاديث الامر والترخيص فيها تبقى البراءة الاصلية والاجماع ان لم نقل هو حجة فهو مؤيد لها

ونحن نسأل حضرة الدكتور هل حكم حديث النهي عام وباق ام لا ؟ فان قلت بالاخير فقد وافقتنا وحينئذ لا يصح لك الإلزام به . وان قلت بالاول لزمك ان تمنع عن كتابة جميع العلوم المستنبطة من القرآن بل اولى من ذلك كله ان تمنع عن كتابة سائر العلوم

ان كان الاختلاف في كتابة السنة قادحا في العمل بها مسوغا لاقتراح ان علة ذلك وسببه كونها شريعة موقتة — فان الاختلاف قد وقع في جميع القرآن وكتابته واول من خالف في ذلك الخليفة الاول ثم رجع الى قول عمر (رض) فهل يسوغ ان يقال ان الصديق رضي الله عنه لم يخالف في ذلك الا لان شريعة القرآن موقتة ؟ لا — لا — في الامرين فان قيل ان الصديق قد رجع ووقع الاجماع على ذلك . قلنا وكذلك جمع السنة وكتابتها قد وقع الاجماع عليه . والفاروق لما سأل الصحابة رأيهم في جمع السنن اشاروا عليه بجمعها ولكنه خالفهم للسبب الذي ذكرناه كما صرح بذلك هو اذ لم يحن له الوقت المناسب الذي يزول فيه خوف الالتباس ولما كان هو اذ ذاك صاحب الامر لم يستطع من أشار عليه منهم ان يفعل غير ما امضاه الخليفة

ومن تفكر في اهل زماننا بل منذ ازمان قديمة رأى صحة هذا التعليل المنصوص دراية كما هو صحيح رواية فانك تجد مصداق ذلك فيما نراه من اكباب الناس وانهما كهم على كتب شحنت بآراء مشايخهم واسلافهم حتى جعلوها كالمصاحف بل قدموها على المصحف وعلى السنة النبوية على صاحبها الف صلاة وتحية

أما قوله « ولم يعاملها النبي (ص) ولا أصحابه بالعناية التي عومل بها القرآن لتزول من بين المسلمين وتندثر » فأقول أي المعاملات يريد حضرة الدكتور، فان كان يريد ان القرآن يمتاز بانه كلام الله لفظاً ومعنى وانه معجز متحدى به وانه متعبد بتلاوته وانه كلام الخالق غير مخلوق ونحو ذلك فهذا صحيح وسنن الرسول (ص) لا يمكن ان تعامل بهذه المعاملة كلها — فكما ان الله جلا وعلا هو الرب والاله المعبود ومحمد (ص) عبده ورسوله وداع اليه بإذنه فلا يعامل بما يعامل به الإله مما يخص الالوهية والربوبية فكذلك كلامه (ص) لا يعامل بما يعامل به القرآن من كل الوجوه كما تقدم وان اراد ان النبي (ص) لم يعامل سنته بما يعامل به القرآن من حيثية التشريع كأن يأمر الامة بما لا يجب الائتمار به وينهاهم عما لا يجب ان ينتهوا عنه أو أنه يعتقد ذلك او ان اصحابه يرون عدم وجوب اتباعه في جميع اقواله وافعاله وفيما شرع الله من الدين على لسانه فإرادة هذا منه (ص) أو منهم هو أمحل

المحال وحضرة الدكتور نجله ان يعني ذلك فمن زعم ان محمد (ص) اوجب ما ليس بواجب وحرم ما ليس بحرام على الامة وانه يعلم ذلك ويعتقده او ان اصحابه يعتقدون ذلك او انهم لم يأتمروا به الخ فخطؤه فوق كل خطأ وافتراؤه فوق كل افتراء ومع ذلك كله هو غير مستند الى شيء يصح الاعتماد عليه حتى ولا شبهة

فقول القائل ان ما اوجبه او حرمه النبي (ص) انما هو مقيد بوقت حياته — هل يصح ويثبت بدعوى عدم الكتابة او دعوى النهي عنها أو انها لم تكتب مدونة مرتبة ؟ قد قدمنا ان عدم الكتابة مطلقا لم يرد فيها الا حديث واحد قد اختلف في رفعه وسبب النهي منصوص كما قدمناه مع معارضته لما هو اصح منه

فهل يصح ان يكون ذلك الحديث المذكور ناسخا للآيات الكثيرة القرآنية المصرحة بوجوب ولزوم طاعة الرسول (ص) واتباعه — ان طاعة الله لا ينازع احد في وجوبها في وقته (ص) وبعد وفاته وانها أي طاعة الله واجبة علينا كما هي واجبة على اول الامة

لكنا نرى القرآن مصرحا بان طاعة الله مشروطة بطاعة الرسول (ص) وهل طاعة الرسول (ص) الا الائتمار بامره والانتهاء لنهيه والا لم تكن له طاعة وقد عرفت ثبوتها ودل القرآن عليها نصا كما يأتي وهي لا تكون الا في سنته القولية كما قال تعالى « وارسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴿ من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » اما الاتباع والتأسي فيكون في الفعلية العملية والقولية

مهما يمكن لاحد ان يعبر عن وجوب اتباع احد وطاعته لا يمكنه ان يعبر عن ذلك باكثر واوضح مما عبر الله به في وجوب اتباع رسوله محمد (ص) فان كان ذلك قابلا للتشكيك لزم ان لا يوجد في اللغة خبر يوثق به وبدلالته

ان الله جل شأنه لم يأمر بطاعته في القرآن الا وأمر بطاعة رسوله (ص) معه بل قد يفرد الامر بطاعة الرسول (ص) ويجعلها شرطا لطاعته ولم يفرد طاعته عن طاعة الرسول (ص) ثم هو تارة يأمر باتباعه وتارة يأمر بالتحاكم اليه ويجعل ذلك من شرائط الايمان وكذلك تسليم ذلك له وعدم وجدان الحرج — وتارة يأمر بالتأسي به وتارة يقول « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وتارة

يعلمنا بانه المبلغ عنه المؤتمن وتارة ينسب التحليل والتحريم اليه (ص) ثم نراه ينبه في محل آخر بانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى — وتارة يأمره أن يحكم وان لا يحكم الا بما اراه الله — وتارة يقول له « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » فجعل اتباع الرسول (ص) مقدما على طالبهم محبة الله وبابا لمحبة الله لهم وهذا لا يمكن ان يخص بقوم دون قوم وزمان دون زمان — وتارة ينهى عن التقدم بين يديه بقول أو فعل وتارة ينهى عن التولي عنه وعن امره — وتارة ينهى عن مخالفة امره وتارة ينهي عن التسوية بين دعائه ودعاء غيره وقد قرانه الداعي الى الله حتى انهم كانوا يرون اجابة غير مبطلة للصلاة وتارة وتارة يحذر عن مخالفتهم أمره «فليحذر الذين يخالفون عن أمره» الآية — وتارة ينهى ان يجعلوا لانفسهم الخيرة من أمرهم مع أمره — وتارة ينهي عن مشاقته وإن من شاقه فقد شاق الله وتارة يجعل من صفات الايمان بالله المبادرة الى طاعة الرسول (ص) الى غير ذلك من اساليب التعبير والتفنن فيه لايضاح وجوب اتباع الرسول (ص) فان القرآن ملآن من أوله الى آخره بذلك حتى القصص فانها انما سيقت للاعتبار وليطاع الله ويطاع رسوله (ص) ويتبع وليؤمن الناس بالله ورسوله (ص)

فهل يصح ان يهدم هذا كله بشبهة حديث ابي سعيد (رض) على ما فيه مما قدمناه؟ ام هل يسوغ ان يقال ان الصحابة (رض) خالفوا ذلك كله وانهم لم يعتنوا بسنته اذا رأينا احدهم احتاط في الرواية او حكم بخلاف السنة بعذر انها لم تبلغه ولو بلغته لرجع اليها كما قد شوهد عنهم الرجوع اليها في جميع أحوالهم وهل يصح اعتبار قول من خالف ما ذكرناه كائنا من كان مالم يكن عن الله أو عن رسوله وقد عرفت حكمها في ذلك .

فكيف يصح قول الدكتور ان النبي (ص) وأصحابه لم يعاملوا السنن النبوية بغير ما عاملوا به القرآن الا لتندثر وتزول من بين المسلمين مع ما عرفت مما قدمناه عن القرآن . ولم لم يصرح الله ولا رسوله (ص) ولا أصحابه (رض) بما صرح به حضرة الدكتور ؟

ان من تتبع أقوال النبي (ص) ووصاياه ومواعظه وخطبه يجدها موافقة لما

دل القرآن عليه ومناقضة لما زعمه حضرة الدكتور « اني تارك ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي » والأحاديث متواترة في أمره (ص) ان يبلغ عنه وفي وجوب اتباع سنته أيضاً تواترا معنويا . أما أقوال الصحابة (رض) في اتباع الكتاب والسنة فأكثر من ان تستقصى بل ذلك اجماع عنهم وعن سائر المسلمين - وكل ما خالف الكتاب والسنة فانما هو عند الصحابة (رض) من الرأي المذموم وهو الظن المشئوم الذي حذر الله عنه في كتابه فحمله حضرة الدكتور على الرواية والمروي بلا بينة بل بناء على اصطلاح المصطلحين . على ان كل من سوى الرسول (ص) غير معصوم من الخطأ والسهو

هذا ولا يحيط بسنته (ص) الا مجموع الأمة وما عند الأمة من ذلك قد دون وها هو بين أيدينا فهلموا بنا الى اقتفائه واتباعه (ص) الذي لا حياة ولا نجاة لنا الا به « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » فليحذر الذين يخالفون عن أمره » الآية « ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » نسأل الله لنا ولاخينا الدكتور الهداية والتوفيق لصراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين وان يوفق من أراد له الهداية انه سميع مجيب وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسوله الامين وآله وأصحابه الطيبين ومتبعيهم بإحسان الى يوم الدين آمين

كتبه بيده وقاله بفمه

الحقير صالح بن علي اليافعي عفا الله عنه

(المنار) اذا اراد الدكتور محمد توفيق افندي صدقي ان يرد على هذه الرسالة فالمرجو منه ان يبين مايراه منتقدا منها بالاختصار ولا يطيل في اصل الموضوع وان يسلم بغيره المنتقد عنده تسليما صريحا

آثار علمية وأدبية

﴿ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ﴾

المعروف بمعجم الادباء – أو – طبقات الادباء

مؤلف هذا الكتاب هو أبو عبد الله ياقوت الحموي المولد البغدادي الدار الرومي الجنس صاحب كتاب معجم البلدان المشهور. كان غلاماً لتاجر حموي علمه ليكون عوناً له في تجارته ثم أعتقه وتركه مدة ثم استعمله في تجارة سفره بها فلما عاد كان مولاه قد توفي فاعطى أولاده وزوجته شيئاً مما كان بيده فأرضاهم واتجر بالباقي وجعل بعض تجارته كتباً فكانت عوناً له على ما تصبو اليه نفسه من العلم لا سيما التاريخ والادب. فألف مؤلفات كثيرة في ذلك أشهرها معجم البلدان ومعجم الادباء الذي ذكر ابن خلكان ان اسمه (إرشاد الالباء، الى معرفة الادباء) ولكننا أهدينا منذ أشهر المجلد الاول منه مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد واذا باسمه الذي كتب عليه (إرشاد الاريب. الى معرفة الاديب) وكان بعض النسخ كتب عليها هذا الاسم وبعضها كتب عليها ذلك

موضوع هذا المعجم تراجم من كانوا يعرفون بالادباء في تلك العصور قال المؤلف في فاتحته (ص ٥) « وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين ، والمؤرخين والوراقين المعروفين ، والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف في الادب تصنيفا ، أو جمع في فنه تأليفا ، مع إيثار الاختصار والإعجاز ، في نهاية الإيجاز ، ولم آل جهدا في اثبات الوفيات ، وتبين المواليد والاوقات ، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم والاخبار بأنسابهم وشيء من اشعارهم ، » الخ فالكتاب من احسن دواوين التاريخ والادب وقد كان كنزا مخفيا فاظهرته همة اوربية . ذلك ان رجلا من الناشئين

في البلاد الانكليزية اسمه الياس جب كان مغرما بدرس العلوم والتواريخ العربية والتركية والفارسية ثم مات في الخامسة والاربعين من سنه فوقفت أمه مالا عظيما على احياء الكتب الشرقية التي كان مشتغلا بها يصرف ريعه في ذلك وعهدت بالعمل الى لجنة من الرجال القادرين عليه وقد شرعت اللجنة بطبع هذا الكتاب بمساعي الدكتور مرجليوث العالم المستشرق الشهير بتصحيحه وقد هدتنا الجزء الاول منه فاذا فيه بعد الفاتحة فصلان في علم الادب وعلم الاخبار يتلوهما باب الهمزة وهو يبتدئ باسم آدم بن احمد الهروي وينتهي باسم احمد بن علي بن المعمر وصفحاته تزيد على أربع مئة منها ترجمة ابي العلاء المعري في ٤٣ صفحة فنشكر لجميع العاملين في احياء هذا الكتاب وأمثاله فضلهم ونخص بالذكر المصحح ونرجو ان يعنى طابعو الكتب في مصر ولو ببعض هذه العناية في التصحيح والاتقان

﴿ الرد على من اخلد الى الارض ، وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض ﴾

بنيت قواعد الاسلام وأقيمت أركانه على أساس العلم حتى كان من المجمع عليه عند علمائه ان جهل المكلف بما يجب عليه من أصوله وفروعه ليس بعذر في الدنيا ولا في الآخرة فالقاضي الشرعي لا يترك عقوبته اذا ارتكب موجبها جاهلا كما أن الله تعالى لا يعذره في الآخرة اذا اقترف الفواحش والمنكرات جاهلا بتحريمها . قالوا الا اذا نشأ في شاهق جبل أو كان قريب عهد بالاسلام . والعلم ما كان بالدليل فالعالم لا يكون الا مجتهدا ولذلك اجمعوا على ان المقلد لا يسمى عالما كما صرح به ابن القيم في أعلام الموقعين وقد بقي الفقهاء الى القرون الوسطى يطلقون لفظ العالم ويريدون به المجتهد كما ترى في كلامهم عن القاضي والمفتي ولكن وجد في هذه القرون من المؤلفين الجاهلين من ادعى ان الاجتهاد طوي زمنه وأن العلم بالاسلام أي بالكتاب والسنة صار متعذرا وان الواجب على جميع المسلمين هو الأخذ بما كتب في المصنفات الفقهية التي ألفها المنتسبون الى أحد المذاهب المشهورة فقام المدافعون عن العلم يردون هذه الدعوى ويبينون وجوه بطلانها حتى افردوا ذلك بالتأليف

من هؤلاء الحافظ الشهير جلال الدين عبد الرحمن السيوطي فقد وضع فيها كتابا سماه « الرد على من أخلد الى الارض ، وجهل ان الاجتهاد في كل عصر فرض » وقد اورد فيه النقول الكثيرة عن اكابر علماء المذاهب الاربعة لأن كلامهم يقنع المقلدين المنكرين مالا يقنعهم الدليل المؤيد بنصوص الكتاب العزيز وما جرت به السنة السنية . وقد طبع هذا الكتاب طبعا حسنا في المطبعة الثعالبية بالجزائر وهو يطلب من صاحبها احمدافندي بن مراد التركي وأخيه فنشكرلهما احياء هذا الكتاب النافع ونحث القراء على الاقبال عليه

﴿ ليالي سطيح ﴾

طبع الجزء الاول من هذا الكتاب الذى شرع في تأليفه حافظ افندي ابراهيم وجعله في انتقاد الاخلاق والعادات ، ووصف حال الاجتماع في مصر ، وجعله حوارا مع سطيح الكاهن الجاهلي ، ذلك الكتاب الصغير الكبير ، الذي تبارى في تقريظه عالم الكتابة والتحرير ، فسالت انهار الجرائد بمدادآياته ، وجرت اقلام الكتاب في فلك حسناته ، ولهجت ألسنة الفصحاء بوصف مافي مبانيه من المتانة والإحكام ، وما أودعه اسلوبه من الرقة والانسجام ، وتغلغلت افكار الحكماء في التأمل بما انطوى عليه من الحكم والعظات ، وما بينه من الامثال والمثلات ، وتلطف الناقدون في الايماء الى مافيه مما لم يخل من مثله كلام الناس ، كالتفاوت بين بعض الجمل او عصيان قوانين القياس ، فلو جمع ما كتب في تقريظ كتاب ليالي سطيح ، من الثناء والمديح ، لكان معه كليالي هجر الملال ، مع ليالي الوصال ، على ان ليالي التقريض ، هي من ليالي الوصال البيض ، جمع فيها الأدب بين جمهور من الادباء المنشئين ، وبين محبوبهم حافظ افندي ابراهيم ،

اخذ اولئك الكاتبون مسالك تقول على من يحاول بعدهم وصف الكتاب او نقده فما على المنار الا ان يجمل الوفاء بذمة حافظ عرض شيء من حكم كتابه على قارئيه ، لعلهم يهتدون الى فضله بكواكب لياليه ، فمن ذلك قول سطيح في الحث

على العناية باللغة العربية ونصر دولتها وذكر إمامي المصلحين : حكيم الاسلام ، والاستاذ الامام (ص ٦٢)

«فما ضركم لو تساندتم جميعا وانتم لا تتجاوزون زمن القمر عدا ، فرفعتم من شأن هذه الدولة ، وحركتم من الخامدين ، وهززتم من الجامدين ، فاني أراكم بين متفصح على اخيه ، ومتنبل على قرينه ، وليس هذا صنع من يريد ما تريدون ، تحاولون رد هذه الدولة الى شبابها ، بعد ان خلا من سنها ، ولو لم يتداركها الله بذلك الافغاني لقضت نحبها ولقيت ربها ، قبل ان يمتعها بكم ويمتعكم بها ، أدركها الأفغاني ولم يبق فيها الا الذماء ، فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها ، وشدت من عزمها ، ادركها وهي شمطاء قد نهض منها بياض المشيب في سواد الشباب ، فشاب قرناها قبل ان تشيب ناصية القرن الخامس ، فسودت يده البيضاء ما بيضت من شعرها سود الليالي ، وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها ، وبدا صلاحها ، وقد كان الناس في ذلك العهد يدينون باللفظ ويكفرون بالمعنى ، فما زال بهم حتى ابصروا نور الهدى ، وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى ، وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال وجال كل جولته ، وتنبه الوجدان وتيقظ الشعور وتحرك الفكر حتى أفضى الى حركة النفس ، وظهر أثر جمال الدين في النفوس العالية ، وأصبحت تبتدر كلامه الاسماع الواعية ، فكان من ذلك ان انطوى أجل التقليد ، وأن بعث الله على يديه ميت اللغة واحيا رفات الانشاء ، وغادر رحمة الله عليه مصر ولم يضع لنا كتابا نأخذ عنه ، أو مؤلفاً نغترف منه ، ولكنه ترك لنا رءوسا تؤلف ، وأفكارا تصنف ، وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت فكان يقول وهو يجود بنفسه: خرجنا منها ولم ندع لنا أثرا ظاهرا بين السطور ، ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الأثر على صفحات الصدور ، فان لم ترثوا عنا في بطون الكتب فقد ورثتم عنا في صدور الرجال ، فاذا حثوتم التراب على رجل الافغان فعليكم برجل مصر

خرج من الدنيا كما خرج سقراط لم يغادر كلاهما مؤلفا ، ولم يدع مصنفا ، فلولا محمد عبده ما عرف رجل الافغان ، ولولا أفلاطون ما ذكر رأس فلاسفة اليونان

ولما سكنت أنفاس الافغاني بعد أن تجددت بذكره الانفاس ، خلفه حكيم الشرق

في دولته، ووطن نفسه على المضي في طريقه، فأسمع الناس في الحق واسمعوه، واخافوه في ذات الاله وخافوه، ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ثم مضى لسبيله رحمه الله

فتفتقت الاذهان، وتطلعت العقول الى البحث، وبرزت اللغة من خبائها، تجر مطارف آدابها، وأطل علم الادب Littérature من مناره مشرقا على النفوس فأرسل نوره الى الضمائر، ونفذت أشعته الى السرائر، فنمى تحت نظره الشعور كما ينمي النبات حاذبته الشمس بالنظر، أو كسته أشعة القمر، فلطف من كثافة النفوس، وهذب من مرارة الارواح، حتى شفت الاولى وعذبت الثانية وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعلمه » اه المراد منه هنا

ثم ذكر سطيح ومحاوره الاستاذ الامام وتلاميذه في مقام ما يرجى من الاصلاح قال (ص ١٤٤)

« قال (اي سطيح) واين مكانك من العلم، واين منك منزلة الحلم، ؟ قال حسبي اني من تلاميذ حكيم الاسلام، الاستاذ الامام، طيب الله ثراه، وجعل النعيم مثواه. قال اني لأرى رأيا حصيفا، واسمع قولا شريفا، فمن أي تلاميذه تكون ؟ فقد سمعنا انهم فريقان فريق قد اختصه بسياسته، وفريق قد اختصه بعلمه، وقد أثنى عليهما العميد، وتنبأ لهما بالطالع السعيد، قال — لا علم لي بما تقول، ولقد كنت ألصق الناس بالامام أغشى داره، وأرد أنهاره، والتقط ثماره، فما سمعته يخوض في ذكر السياسة قبحها الله ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته وينتقل بنا بين مناطق الافهام، ومنازل الاحلام، ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق، وحكمة الخالق، وكان ربما ساقه الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأفاض في شؤون الاجتماع وحاج العمران، ووقف بنا على أسرار الحياة ولم يزل ذلك همه رحمه الله يلقي في الازهر دروس التفسير وفي داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله، فان كانوا يسمون تلاميذه أحزابا ويقسمون تعاليمه أبوابا، فتلاميذه حزب العلم والعرفان، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران، على انه كان من اشد الناس تبرما بالسياسة واهلها، حتى اعلن براءته من الالتصاق بها، فقال عنها في كتاب الاسلام والنصرانية ما قال

لكنه كان يحتك بها مادعت الى ذلك الحاجة ويرصد حركاتها رصدا ، ويصد غاراتها صدا ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو ان تقف عثرة في طريق الفضيلة ، ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه، وحالت بينه وبين ما كان يتمنيه ،فكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جنده طريق أذاها ، حتى اذا ظفر بطلبته ، وفاز برغبته ، واستمد منها ما شاء ، تحت حماية الاقناء ، عطف على العلم بذلك الامداد ، ورد عليه ماسلبت يد الاستبداد ، ولعله اوهم العميد، بيقظة حزب جديد، ليرد عاديته، ويفسد عليه سياسته ،في مصادرة العلم ، ومصارعة الحلم ، أما ترى بربك أثر ذلك في المدارس وما عبثت به يد ذلك السائس ، ولولا ان الامام مادّهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والارشاد ، لاصابه ما أصاب حكيم الافغان ، وقضي على هذه الامة بالحرمان ، فلقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرة القوم ، ويصلح ماتفسده اهل الدسائس ، فكم زحزح عنا حادثا ، ودفع كارثا ، ولو كان حيا يوم دار الفلك لنا بالنحوس في دنشواي، لرأيت غير الذي رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد ، بذلك التهديد والوعيد ، ولما نزع الى كتابة ذلك التقرير ، الذي جاء ابلغ ماتملي الضغينة على الموتور ، فكان فيه كثير جموح اليراع ، ضعيف ضعيف جانب الاقناع ، كأنه يكتب مقالة خيالية ، الى مجلة سياسية ، وقف فيها وقفة المدافع عن نفسه

لحق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الاعلى فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزمة الفاروق فما غضت الردة من شرف النبوة ، ولا نالت من عصمة الرسالة ، ولبث الاسلام اسلاما — ومات الاستاذ الامام فصبأ بعض حزبه كما يدعون ، واستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام ، ولامس من سيرة ذلك الامام ،

أراد بعض مريديه أن يتبي غناءه وان يفعل شرواه في التوفيق بين صوالح القوم وصوالحنا ، فرمى بنفسه في احضانهم ، وليست له مكانة الامام من نفوسهم ، ولا منزلته في قلوبهم ، فقصر ولابدع ، وأخفق ولا عجب ، فان الفراغ الذي تركه الامام لا يشغله الالوف من اولئك الذين يرفعون القبرة بالصباح ، وينعون عليه منهجه

في الاصلاح ، ولما ظهر ذلك المريد بمظهر الاتصال بالقوم أنكر الناس منه ذلك فطارت حوله الشبهات ، وانبسطت فيه الالسن وأخذته سهام الاقلام، على انه وان اخطأه التوفيق في عمله فما اخطأه حسن القصد ولا جازته سلامة الطوية، فوجد بعض لمرائين السبيل الى تشويه سمعة الامام بعد موته ، و بالغوا في ذم حزبه ، وزادهم ضغثا ان قرأوا في تقرير العميد ماقرأوا وظنوا ان هنالك حزبا يعمل، ولو اراد الله خيرا لهذه الامة لسخر لها من تلاميذ الامام من يقوم بالدعوة الى التآم ذلك الحزب الذي أودع فيه الامام من أسرار حكمته ما كشف لهم عن حقيقة المصير الذي أصبحنا نساق اليه سوقاً أعجلنا عن النظر في أمورنا فأمسينا أتباعا لكل ناعق

قال صاحبي وقد هاله ماسمعه أكان يكون بين ظهرانيكم أمثال أولئك الامناء على تعاليم ذلك الحكيم ولا تعلقون باذيالهم ، على اني لا أرى فيكم الا ناعيا عليهم مشهرا بهم ، فان كنت لم تكذبني القول، فتلاميذ الامام حقيقون باللوم ، لانهم يعلمون الحق ولا يدعون اليه . علموا ان لا حياة لهذه الامة بغير الجامعة فما لهم لا يواصلون قرع انوف الاغنياء بالمواعظ ويوالون الصياح بطلب تأسيسها فتلتقي اصواتهم بالنداء في أنحاء القطر ؟ ولكنهم سكتوا اللهم الا شاعرا منهم قد قرض قصيدة وقاضيا قد حبر مقالة في سبيل الجامعة درج كلاهما في اثناء النسيان فجمد الاغنياء عن البذل لجمود اولئك الوعاظ عن الكلام وتدفقوا في انشاء الكتاتيب حين ساقتهم الحكومة الى ذلك ولو علموا ان انتشار التعليم الناقص شر على الناس من بقاء الجهل لما بذلوا في سبيله ما بذلوا فكان مثلهم في ذلك كمن يحاول النجاة من أنياب النمر ليقع تحت براثن الليث لانهم انما يستبدلون بانتشار الكتاتيب داء الجهل ولكن بداء الغرور فسبيل الاصلاح ان تنشأ الكتاب وتبنى الجامعة في وقت معا حتى اذا أخرج الاول نصف انسان أطلعت الثانية انسانا كاملا فتكفل هذا الكامل بصلاح ذلك الناقص فتتماسك الامة ويكثر فيها الدعاة الى الخير فليس بينها و بين الحياة الا ان يخرج لها العلم الصحيح رجالا يقودون الافكار و يسلكون بها سبيل الرقي . ومن رأى ان هذه الامة لا تنهض الا بتعليم مجموعها وتهذيب افرادها فقد أخطأ مواقع الرأي فكم نهضت امة بفرد واستمت دعائم دولة على عزائم آحاد وقوا

قسطهم من العلم الصحيح واخذوا نصيبهم من الاقدام

وقد انصرف الناس الى الصياح بطلب انتشار العلم ونسوا ان ذلك لا يغني عنهم شيئا اذا أعوزتهم تربية القادة وعزهم بناء الزعماء فاعلم ان بناءة الرجال لا تكون الا في بناء الجامعة

قال الاديب وهل يكفي العلم وحده لصلاحنا ونحن على ما ترى من الخلق والدين : فسوق عن امر الكتاب ، وطاعة للهوى ، فلا وازع من الدين ، ولا زاجر من الخلق ، فاذا تزعزعت العقيدة ولم يطمئن الطبع قل ان ينجع في الناس علاج العلماء ، او تأخذهم صيحة الخطباء

قال صاحبي صدقت ولكن ما تراه انت خطبا كبيرا ، لم يكن في نظر الحكمة الا أمرا يسيرا ، واني اذكر لك دواء هذا الداء وهو أيسر مما في نفسك ، فلا تنزل أمري معك على المزاح ، ولا يصغرن في عينيك ما أتى ما ألقي عليك ، فرب مؤرّب من العقد ضلت حله الحكماء واهتدت اليه خطرة من الفكر يرمي بها أحد العامة ، وتغفل عنها عقول الخاصة ، ولعلك اذا سمعت ان الدواء الناجع ، والعلاج النافع ، لا يحتاج الى مقدمات طويلة ، او فلسفة جليلة ، أصغرت ما كنت تكبر ، واستنزرت ما كنت تستغزر ، فاعلم انه اذا اقفلت أبواب المنتديات ، واطفئت أنوار الحانات ، قبل منصف من الليل ، انحرف عنكم جارف هذا السيل

هذه لندرة لا تكاد ترى في حوانيتها ساهرا ، ولا تجد في طرقاتها عابرا ، اذا انقضى الثلث الاول من دولة الظلام ، وتلك (فينا) يجمع فيها الليل بين الجفون والكرى ، ويحول الظلام بين الارجل والسرى ، فاذا شب الليل أو كاد ، سكنت حركة العباد ، فما لكم لا تأخذون نفسكم بتقليد تلك الخلائق ، وقد أتمروا باوامر الخالق وما لكم لا ترجعون الى الفطرة البشرية ، او تخضعون لنواميس السنة الكونية ، فتجمعوا في ذلك بين الدنيا والدين ، ولا تعقوا اوامر الكتاب المبين ، ياويلكم أحييتم ليالي العمر بالآثام ، وأمتم أيامه بالمنام ، فعكستم الفطرة ولا بدع اذا عكست آمالكم ، وخابت أعمالكم ، خذوا مضاجعكم اذا طر شارب الظلام ، واهجروها اذا تنفس الصباح ، ففي ذلك صحة لابدانكم ، وسلامة لاديانكم

اذا شئت ان تعرف ماوراء ذلك من المنافع فاني أعد لك منها ولا أعددها منها الرجوع الى المعيشة المنزلية التي انحلت بزوالها روابط الاهل والاقارب ، ويبس ماين البيوتات ، فتناكر الاخوان ، وتدابر الجاران ، واقفرت المنازل من انس السمر وألف الناس الجلوس في المنتديات حتى انهم ليوحشون في ديارهم ، لقلة زوارهم ، واصبح المرء في داره حاضرا كالغائب ، مقيما كالنازح ، يعلم من حال البعيد عنه مالا يعلم من حال القريب منه

ومنها اجتياز العقبات ، التي أقامتها المنتديات والحانات ، في سبيل الاجتماعات — كان المصريون في العهد القديم الذي نسميه اليوم عهد الظلام يجتمعون في الدور والقصور وكانت سراتهم وذووا اليسار منهم يجلسون في بيوتهم للسمر فيغشاها العالم ويؤمها الكاتب ويقصدها التاجر وينتجعها الاديب فتجري بينهم الاحاديث وتقوم سوق المناقشات — يحدث الحادث فيخوضون في ذكره ، وتنزل النازلة فيجمعهم الألم على العمل على ازالتها ، وتطل رؤوس المشروعات فلا ينشون يتبينون معارفها ، حتى يقتلوا شؤونها بحثا ، ويقفوا على دقائقها جدالا ، وينزل بأحدهم المكروه فلا يزالون يتلطفون بالسعي له حتى يأخذوا بيده ، وينهضوا به من عثرته — عقدت بينهم الزيارات ، عرى المودات ، فتراهم وهم كأنهم أهل بيت واحد : يألم الجار لجاره ، ويأخذ الناهض بيد ذي العثار ، بربك هل نهضت أمة بغير ادمان المجتمعات ، وهل اخصبت مودة اذا هي لم يتعهدها أهلها بالزيارات ، لقد جار في حكمه من قضى على المصريين باستحالة الاتفاق ، وجعل تلك الكلمة التي رمى بها حكيم الافغان أساسا لحكمه ، فصرفه التقليد عن النظر اليها بعين عقله ، فمن اين للمصريين ان يتفقوا اذا هم لم يجتمعوا

ومنها اقتصاد المال وأنت ترى ان هذه الستة الافدنة (اي بقعة الازبكية) تكاد تبلع ما تخرجه ارض وادي النيل من الخيرات ولا يغرنك ماترى في عاصمة الفرنسيس فان اهلها من الاكياس الذين يصلون سهر الليل بالنهار لاصطياد الذهب ولكن من جيب الغريب ونحن انما نفعل ذلك لينهب الغريب باموالنا ويسخر من جهالتنا » اه . وهو خاتمة الجزء الاول من الكتاب

﴿ رسائل البلغاء ﴾

من مزايا مجلة المقتبس التي يطابق بها اسمها مسماها نشر رسائل بلغاء الكتاب المتقدمين وقد استحسن صاحبها ان يجمع أحاسن هذه الرسائل من مجلته ويطبعها مجموعة على حدتها ليسهل تناولها على غير قراء المجلة ففعل وقد احسن فيما فعل

صدرت المجموعة الاولى من هذه الرسائل في مئة صفحة كلها من كلام عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وهما ممن تضرب ببلاغتهما الامثال وتشد الى كلامهما الرحال ومن اطرف هذه الرسائل رسالة ابن المقفع في سياسة الدولة وصحابة السلطان ورجاله ورسالة عبد الحميد في نصيحة ولي العهد وتعبئة الجيش . وقد عني الناشر بتصحيح هذه الرسائل معارضة على أصلها ولم يتبع سنة اكثر طابعي الكتب بمصر من اهمال التصحيح فما يوجد فيها من الغلط فالذنب فيه ذنب النساخ المحرفين مع فقر بلادنا من النسخ التي يعارض عليها الاصل . وثمن هذه المجموعة اربعة قروش واجرة البريد قرش واحد فنحث محبي الآداب والحكم وطلاب الانشاء العربي البليغ على قراءتها

﴿ سر تقدم الإنكليز السكسونيين ﴾

قد اصبح هذا الكتاب اشهر من نار على علم ، وترجم باشهر لغات الامم ، ولا غرو فان تقدم الانكليز السكسونيين وسبقهم لغيرهم من الامم العزيزة التي تساويهم او تفوقهم في العلم والمدنية مما لا يماري فيه احد الا من يجهل ان الشمس لا تغيب عن سلطنتهم ، وان مئات من الملايين خاضعة لسيادتهم ، فمن جهل هذا التقدم لأميته ، او تجاهله لغروره وغباوته ، فان الامم الحية التي تسابق الانكليز في ميدان الاستعمار ، وتجاريها في تلك الجواري المنشآت في البحار ، هي الجديرة بأن تعرف سر تقدمهم ، وسبب فوزهم وسبقهم ، فانه لا يعرف قيمة الشيء من كان بعيدا عنه ، كما يعرفه من هو على مقربة منه ، لذلك كان علماء فرنسا اسبق الناس الى معرفة قيمة ما امتاز به الانكليز على غيرهم من الامم في تربيتهم وتعليمهم ، وأخلاقهم وآدابهم ، وقد ألفوا

في ذلك الاسفار الكثيرة التي يعد كتاب سر تقدم الانكليز من أشهرها . وكان من حسنات أحمد فتحي باشا زغلول في قومه وخدمته للغة امته ان ترجم هذا الكتاب بالعربية . ويسرنا ان طبعته الأولى قد نفدت وان خليل بك صادق صاحب مطبعة الشعب عني بإعادة طبعه بإذن المترجم ويزيدنا سروراً أن طبعته هذه أبهج من الأولى وأشد اتقانا . وقد أبقى ثمنه كما كان وهو عشرون قرشا بل هو يهديه الى الذين يؤدون قيمة الاشتراك في مجلته (مسامرات الشعب) . ولا ينسين القارئ في هذا المقام رفيق هذا الكتاب في غايته ومقصده واعني به كتاب (التربية الاستقلالية — أو — اميل القرن التاسع عشر) فان مؤلفه العالم الفرنسي قد اختار فيه ان تكون تربية الأخلاق واستقلال النفس تربية انكليزية ، وتعليم العلوم العالية على الطريقة الألمانية ، وانني أرى ان المصريين وجميع العثمانيين أحوج الناس الآن الى مثل هذين الكتابين لأنهم في طور انتقال من حال اجتماعية الى حال ، وهو طور محفوف بالأخطار ، التي يستعان على تلافيها بالتأسي والاعتبار ، ولا ينفعنا التأسي بأمة كما ينفعنا التأسي بالأمة الانكليزية التي هي أقوم أمم المدنية اخلاقا وأشدها محافظة على ما كان عليه سلفها من الخير والدين وتثبتاً في التشبث بالجديد

﴿ مجلة مسامرات الشعب ﴾

قد اتقنت هذه المجلة وصارت أحسن اختيارا للقصص مما كانت عليه من قبل . ومن آخر ما نشرته قصة لصوص باريس وهي قصة تفيد المتفرنجين من أهل هذه البلاد ان اعتبروا بها مالا تفيدهم كتب الأخلاق والوعظ بما تمثل لهم من حيل الأوربيين المقامرين على سلب أموال الاغنياء الأغبياء ، لا سيما الغرباء ، وفيها حرب عوان بين الفضيلة والرذيلة ينتهي بانتصار الفضيلة . ومثلها في هذا قصة سلطان الغرام وهي آخر قصة نشرت في هذه المجلة

﴿ مجلات جديدة ﴾

﴿ مجلة التذكرة ﴾ يصدرها بمصر السيد احمد خليل في كل اسبوعين مرة وهي مجلة دينية اجتماعية ونزعتها صوفية اجتهادية ممزوجة بشيء من الاصطلاحات العلمية

عند الحاجة وسننقل منها نموذجا للقراء في جزء آخر ليكون خير معرف لها . وقيمة الاشتراك فيها أربعون قرشا في السنة لاهل مصر ونصف ليرة انكليزية لغيرهم فتمنى لها التوفيق والنجاح

﴿ شورا ﴾ مجلة علمية اصلاحية تصدر في اورنبورغ من بلاد روسيا محررها صديقنا في الغيب الشيخ رضا الدين افندي بن فخر الدين وهو من علماء الاسلام المصلحين . وقد عرف قراء المنار شيئاً من افكاره العالية وفقهه في الاصلاح مما نشرناه من ترجمة رسالة له في مطالب مسلمي روسيا من حكومتهم ولنا الرجاء في ان تكون هذه المجلة هدى ونوراً للمسلمين في تلك البلاد

﴿ النصيحة ﴾ مجلة علمية أدبية تصويرية تصدر بتونس في نصف كل شهر عربي مرة لمنشئها « الصادق بن ابراهيم » صاحب جريدة النصيحة . وقيمة الاشتراك فيها لاهل القطر التونسي خمسة فرنكات ولغيرهم ستة فرنكات فتمنى لها التوفيق والثبات

باب الاخبار والآراء

﴿ الامة العثمانية والدستور ﴾

إذا كان المنار لا يسع عشر معشار ما نعلم من أسباب هذا الانقلاب الذي حدث في بلادنا ومقدماته ونتائجه وما نراه في أمر استفادة الشعوب العثمانيه من الحرية والدستور — فذلك لا يصدف بنا عن نشر بعض الآراء والاخبار التي تذكر الكاتبين في الصحف اليومية والأسبوعية ببعض ما ربما يذهلون عنه، وتنبه القارئين الى ما ينفع التنبه له، وانني أشير الآن الى ثلاث مسائل هي أركان العبرة في هذا الباب

(١) أول شيء يجب على المنار التنبيه اليه والتنويه به هو ما يؤيد خطته في قناع المسلمين بوجوب حسن المعاملة بينهم و بين من يعيش معهم من غير أهل دينهم وتعاون الجميع على ما يرقي البلاد و يرفع شأن الدولة — وفي رد طعن الطاعنين في الاسلام ، بأنه دين تعصب وعدوان، وفي المسلمين بأنهم لا يلتئمون مع أحد ممن لا يدين بدينهم، لا سيما الذين يزعمون ان العلماء المعممين، هم الذين يبثون الشقاق بين العالمين ،

أؤيد هذه الخطة من الجهة الايجابية والجهة السلبية بما ظهر للعالم أجمع من أن عقلاء المسلمين هم الذين قاموا بهـذا العمل الجليل للاتحاد والمساواة بينهم وبين غيرهم وان شيخ الاسلام قد كان وما زال ركنهم الذين يلجؤن اليـه ، وقطبهم الذي يدورون حواليه ،

ان احرار المسلمين هم الذين بدءوا بدعوة الاحرار العثمانيين من النصارى واليهود في مصر وأوربا وفي الولايات العثمانية الى مشاركتهم في جهادهم ، وهم الذين اعلنوا هذا الجهاد ووطنوا أنفسهم على قتال اخوانهم من الجند اذا هم حاولوا تأييد السلطة المستبدة ثم انهم بعد الظفر بالدستور قد كانوا هم السابقين الى مصافحة الأرمن والروم وغيرهم من الشعوب الموافقين لهم في العثمانيـة المخالفين في الاعتقاد وهم الذين رفعوا أصواتهم في كل مكان بأننا لا نجعل الدين مفرقا بيننا وبين اخواننا العثمانيين بل نكون معهم كما أمرنا الاسلام بالقول المشهور فيه « لهم مالنا وعليهم ما علينا » بل منهم من بالغ في قوله وغـلا في رأيه فاستحسنوا التنازل عن بعض حقوقنا ، إرضاء لطائفة بعض شعوبنا ، كالذين يرون أن يجعل جامع أياصوفيا مجلسا للمبعوثين ، ويخرج عن كونه مسجدا للمسلمين ، وهم من الترك الذين يذكرهم هذا الجامع بذلك الفتح المبين ،

هذا ما فعله مسلمو العثمانيين من البدء في الدعوة الى الاتفاق والعمل بها في كثير من البلاد وهذا ما ينبغي ان يفعله الباقون فان المسلمين هم العنصر الأكبر والأقوى فاذا هو علم أن الخير في الوفاق وعمل بذلك تبعه غيره بالضرورة ولو قام أحـد الشعوب القليلة الضعيفة يدعو الشعب الـكثير القوي الى المساواة وهو غير مقتنع بها لما كانت دعوته مجابة ولا مقبولة

فادعو المسلمين في جميع البلاد العثمانية الى ان يكونوا هم البادئين بين غيرهم والاتفاق معهم واشتراك الجميع في الأعمال التي توثق الرابطة العثمانية وتعمر بهـا البلاد التي يتمتع بعمرانها الجميع ، بهذا تتكون الامـة العثمانية ، وتعتز الدولة العلية وبهذا يقطع المسلمون ألسنة القادحين فيهـم من الاوربيين ، ويكونون مهتدين في ذلك بهدي الدين المبين ،

أدعو إلى هذا مذكرا بالاعتدال فيه ، لئلا يفضي الغلو فيه الى ضد ما يراد به ، بأن يعتقد الجمهور أن كرتهم بالدستور خاسرة ، أو انهم يعمرون الدنيا بخراب الآخرة ، فيحملهم ذلك على الشنآن ، أو يدفعهم الى العدوان ، فعلى المرشد ان يكون حكيما في نصحه ، مراعيا لاستعداد الاكثرين في هديه ،

وأذكر الجميع بأن الطفرة محال ، وان ما يحصل بالتدريج يكون أولى بالبقاء والثبات ، فإذا ترك أحد الفريقين للآخر ما كان يراه حقا له ، فلا يستعجل عليه بطلب سائر ما يراه من الحقوق لنفسه ، حتى التقاليد القديمة ، والعادات الراسخة ، فان المصلح في القوم ليدعو أبناء جنسه ودينه ووطنه الى ترك بدعة من البدع أو ضلالة من الضلالات ، ويقيم على دعوته الحجج القيمة والآيات البينات ، ثم لا يستجيب له قومه الا بالتدريج ، وأرى ان من الحكمة في تلافي الشذوذ والتقصير ، ان يبادر العقلاء والصحافيون من كل أهل دين الى انتقاد أهل دينهم ولو بالعنف ، والسكوت عن غيرهم أو الاعتذار عنهم ولو بالتأويل ، هذا اذا كان الشذوذ صريحا في مناوأة أحد الفريقين الآخر ، والا اتفق الجميع على انتقاد المسيء من حيث انه مسيء ، من غير ذكر لدينه ومذهبه ، ولا اتهام قومه بمشايعتهم له ،

(٢) انتقل بالقارئ من المسألة الدينية ، الى المسألة الجنسية ، فقد كان التعصب للجنس اشد خطرا على الدولة من التعصب الدين ، فان الشقاق الديني اذا كان يقد جسم الأمة فيجعله نصفين ، فان الشقاق الجنسي يمزقه فيجعله أجزاء كثيرة ويصيب شره الجميع ، فالمسلم التركي ، يعادي المسلم العربي ، والنصراني اليوناني ، يعادي النصراني البلغاري ، وعلى ذلك قس

لو بدأ بالدعوة الى ترك العصبية الجنسية العربي او الكردي او الألباني او الأرمني أو الرومي او البلغاري لما سمعت للبادئ من هؤلاء دعوة ولما كان لها من الوقع والتأثير عشر معشار ما كان لمجاهرة التركي بها ، لان الترك هم اصحاب السلطة في الدولة فهم من هذه الجهة كالمسلمين من سائر الملل فلما قال أحرارهم هلموا ايها ايها العثمانيون نترك التعصب للجنس ونشترك بلقب واحد لا يقصد به امتياز جنس على آخر لباهم الجميع حامدين شاكرين . فوجب ان نخص الجنس التركي

بالثناء الحسن قبل ان نتناسى او ننسى اننا أجناس مختلفة . ولا بدع في جهر الترك بذلك فانهم كما صرحنا منذ بضع سنين أرقى العثمانيين تربية وتعليما، واعلاهم أدبا وتهذيبا

(٣) بعدذكر مسألتي الدين والجنس اذ كرشيئا من عمل الجمعية التي تلافت ضررهما وسعت مع غيرها لخير العثمانيين كافة . ينضم العثمانيون الاحرار الى هذه الجمعية - جمعية الاتحاد والترقي - ويعمل الجميع لحفظ الدستور الذي نالوه بعد السعي الحثيث اليه حتى اندمجت الجمعيات فيها او كادت ، وتدامجت معها كما أرادت ، وان هؤلاء الاحرار المتحدين في هذه الجمعية هم الذين يديرون نظام المملكه الآن ، وقد ظهر من كفاءتهم واعتدالهم ماجعلهم موضع إعجاب الامم والدول الاوربية كما تنطق جرائدها بلغاتها المختلفة . وقد مرّ على اعلان الدستور شهر أوا كثر ولم يبلغنا ان احدا انتقد على الجمعية عملا من الاعمال أوأدبا من الآداب على ان اوربا تراقبها مراقبة الناقد البصير الذي لا يحابي ولا يداهن حتى قلنا ان « مجلس المبعوثين » لايرجى ان يكون خيرا منها في الادارة والاصلاح ، ولا أقرب الى العدل والانصاف ،

ينحصر عمل الجمعية الآن في ثلاثة مقاصد (١) تطهير الدولة ملكيتها وعسكريتها من المفسدين الذين ناط بهم الاستبداد السابق أمورها (٢) تقوية استمداد الامة للحكم الدستوري (٣) تحسين الصلات بين الدولة العلية ، و بين جميع الدول الاوربية ، لا سيما ذوات السبق الى الحرية كانكلترا وفرنسا

اما تطهير الحكومة من رجس اعمال الاستبداد السابق فالمبادرة اليه من اهم الضروريات قبل ان يجتمع مجلس المبعوثين وتلقي اليه الجمعية مقاليد السيطرة والمراقبة فانه ليعجز ان يعمل في عدة سنين ماتعمله هي في هذه الاشهر التي تتقدم اجتماعه كما يظهر لنا من الطريق السويّ الذي سارت عليه في ذلك . فقد بدأت بتطهير المابين والباب العالي ونظارة الحربية واكثر الولايات في وقت واحد . فأخرجت من المابين رؤساء الفتنة والفساد وعزلت السرعسكر رضا باشا وناظر الداخلية ممدوح باشا وسجنتهما مع تحسين باشا رئيس كتاب السلطان والشيخ أبي الهدى احد مستشاريه وفر من رؤساء المابين عزت باشا ونجيب باشا ملحمه وسليم باشا ملحمه الى اوربا . واخرجت من المابين اكثر الحجاب والكتاب والخدم

وممثلي الروايات وأجواق الموسيقات من النساء وحددت نفقات السلطان وراتبه الشهري ونفقات قصره وجعلت جميع بطانتـه من الأحرار أعضاء جمعيـة الاتحاد والترقي فآل الامر الى أن وضع هو على صدره شارة الجمعية وقال انه رئيسها

وكثر العزل والنقل في المعسكرات وهـذا ضروري جدا لتكون الجمعية واثقة من القوة التي هي سياج الدستور وعماد الأمن . وكذا في الدوائر الملكية . ولما رأى كثير من الخائنين ان إخوانهم في الفساد والتخريب يعزلون بادروا الى الاستقالة فكثرت بذلك الاعمال التي ليس لها الآن عمال ، واختيار الابدال عسر جدا مع تحري الاكفاء أصحاب النزاهة ، فلذلك نرى انه يجب على الجمعية ان تقبـل من عمال الاستبداد من لم يعرف بالتجسس ولا بالرشوة ، وان كان ممن جروا على مصانعة القوة ، وان تجري في ذلك على سنة التدريج فان في العجلة مفاسد كثيرة ،

واما تقوية استعداد الامة للحكم الدستوري ومقت الاستبداد فقد سارت الجمعية فيها على الطريقة المثلى بتأسيس شعب لها في كل مدينة يرتبطون باللجان العليا في الاستانة وسلانيك وأوربا ، وبحمل الشعب على المظاهرات وتجريئه على الخطب الحماسية في تقبيح الحكومة السابقة حتى افرط بعض الناس في ذلك افراطا لا تحمد عاقبته

ثم اننا نرى بعين البصيرة ونسمع من اخبار البلاد ان كثيرا من المنافقين اعوان الاستبداد السابق ومحبيه يتهافتون على الدخول في شعب الجمعية تعززا بالقوة وا كتسابا من السلطة ، لا حبا في الدستور وحرصا على الحرية ، ولـكن قلما يرقى هؤلاء بانفسهم الى ان يكونوا اعضاء عاملين في الجمعية ، كما صار يدعي كل من كان يطعن في الدولة انه من الاحرار طلاب الدستور . ونرجو ان يوفق الاعضاء الصادقون الى تمحيص شوائب هؤلاء الاوشاب أو الى محقهم وتزكية الجمعية من نفاقهم

هذا — وان في البلاد نوعا من جراثيم الفساد لم يبلغنا ان الجمعية قررت إزالته على شدة خطره على الحرية . الا وهو عصابات الفساد من أشقياء الاهالي الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ويأوون الى بعض الوجهاء فينقذونهم من الحكام بالرشوة حتى بلغ من استهانتهم بالحكومة في بعض البلاد ان زالت هيبتها من قلوبهم وصاروا يأتون المنكرات على مرأى من شرطتها وهم آمنون مطمئنون

فيجب على الجمعية ان ترشد الحكام الاحرار الذين قيهم الآن الى تعقب هؤلاء الاشقياء وتربيتهم بالشدة التي لا يطمعون معها في عودتهم الى مثل ما كانوا عليه في أيام الحكومة السابقة والا كانت فائدة الحرية للاشرار وغائلتها على الابرار

وأما المقصد الثالث من مقاصد الجمعية وهو موادة الدول الاوربية ، فقد كانت فيه احزم واحكم منها في سائر أعمالها الحسنة ، ولا نرى فيه شائبة نذكر بها الا الاحتراس من جفوة المانيا وانما والله الموفق فنسأله حسن الختام

﴿ المجلس النيابي لمصر ﴾

ذكرنا في الجزء الرابع من منار هذه السنة أن انكلترا عازمة على انشاء مجلس نيابي في مصر وقد تلقى جمهور المصريين هذا الخبر بالدهشة والاستغراب وعدوه مناقضا لما يستنتج من سيرة المحتلين في مصر وتصريحات لورد كرومر في تقاريره و ناظر خارجيتهم في مجلس النواب بلندره . وكنا نظن ان حركة القبط التي شرحناها في الجزء الخامس مما يحتمل ان يحمل الانكليز على إرجاء السماح بانشاء هذا المجلس الى أجل حتى جاءنا نبأ جديد من أنباء أوربا السرية المالية بأن القوم لا يزالون على عزمهم وان مجلس النواب المصري يوشك ان ينعقد في السنة القابلة

لا أقول ان كتابات القبط التي تتابعت على لندره لم يكن لها أثر فيها وانما أقول انه قد عارضها اعلان الدستور في الدولة العلية واضطرار حكومة بريطانيا لإظهار الرضا والابتهاج به وما اضطرها الى ذلك الا اخلاق شعبها وتقاليدها القديمة الراسخة في حب الحرية ونصر الاحرار أينما كانوا وحيثما وجدوا . فرأت وزارة الاحرار الانكليزية انه لا يليق بها ان تظهر الميل الى الدستور في مكان والميل عنه في مكان آخر على ان الانكليز قوم يجارون الطبيعة ولا يقاومونها و يعملون في كل حال ما يرونه يليق بها

ويوشك ان يكون للوفد المصري الذي سافر الى لندره بزعامة اسماعيل باشا أباظه تأثير حسن في المسألة فان انكلترا يصعب عليها أن تؤدي هذه الخدمة لمصر بطريقة يسهل فيها غمط حقها وانكار فضلها وإسناد عملها الى غيرها مع انه لا يمكن ان يتم في مصر أمر عظيم بدون رضاها ما دامت جيوشها محتلة فيها

كيف نستعمل الحرية (*)

ايها السادة الاحرار

وقفت غير مرة مثل هذا الموقف بعد اعلان الحرية ، وكنت في مواقفي الأول أرسل القول إرسالا ، لأن المواضيع متوفرة ، والشعور بالحال اطلق اللسان من عقاله ، وفك الافكار من أصفادها ، بعد أن لبثت مدة ترسف فيها ، حتى كدنا نيأس من انتهائها ، مع علمنا بأن لكل بداية نهاية .

ولكنني الآن اتلو عليكم خطبتي تلاوة ، لأنني سئلت ان اتكلم في موضوع لا اتعداه ، ومرتجل الكلام لا يستطيع حصره في موضوع واحد ، لأن الخطب الارتجالية حرة ، مثلكم ايها السادة فهي تأبي التقييد ، وقد جعلت موضوع خطابي هذا « كيف نستعمل الحرية » لأننا احوج الى هذا الموضوع الآن من سائر المواضيع

خاض الخطباء في تعريف الحرية وحدودها ، حتى كادوا يضعون لها قيودا ، ويخرجونها عما وجدت له ، ولو كانت ذات شعور لعجبت كيف يحاول تقييدها طلابها

وكاد قوم بهذه النواحي يشوهون وجهها الجميل ، ويشوشون مفهومها المستبين ، فظنوا ان الحرية تبيح للناس امتهان حكامهم ، والنعي على صالحهم وطالحهم

سادتي : ان من يدفع عن مركزه بقوة ، انما يرجع اليه مثل القوة التي دفع بها ، فإذا كانت المظالم زحزحتنا بقوتها الوحشية عن مكاننا ، فنحن لا نرتكز في نقطة الا اذا دفعنا تلك المظالم في صدرها ، وانحينا باللائمة على القائمين بها

الشعب الذي يغلو الحكام في ظلمه ، يجب ان يتطرف في الحرية متى نالها

الحاكم المسترسل بالظلم ، الملوث بالرشوة ، لا يفيقه من سكرة الاستبداد الا التقريع الفظيع ، والتنديد الشديد ، فهو كالعضو المخدر ، لا يحس الا بالوخز المؤلم وربما لا يحس به

(*) خطبة من الخطب التي القاها في احدى احتفالات الحرية ببيروت السيد حسين وصفي رضا شقيق صاحب هذه المجلة (المنار)

كل هذا أيها الأخوان لازم بل واجب ، ولكن لا يسوغ أن نجعله ديناً لنا حتى كأنه هو المقصود بكلمة الحرية ؛ إذاً نكون صرفنا الحرية عن معناها، ولم نعرف كيف نستعملها ، وحاشا ثم حاشا ؛ وكلا ثم كلا

أيها الشعب السوري العظيم ؛ يا سلالة الفينيقيين الذين ادهشوا العالم ؛ الذين لم تهب سفنهم هجمات امواج المحيط الاعظم ، الذين ملأ ذكرهم بطون التواريخ ؛ انني أحييك واهش لك ؛ احييك باسم الحرية ؛ واناديك بمل‌ء فمي : انت أسمى من أن تضع الحرية في غير موضعها ، وانت احق بها واهلها ؛ بل إنما وجدت لتكون لك قبل كل البشر

الحرية هي تمتع الشخص بما لا يضير به سواه ؛ وصيانة الافراد من عبث الحاكمين ، وسهولة سلوك السبل التي من شأنها إعلاء شأن الأمة ؛ وتبسط ابنائها في الحضارة والعمران ؛ وعدم استكانتهم للظلم والهوان

ابيح لنا القول ايها الاخوان ؛ فاسترسلنا في القول ، والقول مقدمة للعمل فيجب ان نعمل أيضا

وضح لنا نهج المعين الذي ارتوى منه الافرنج قبلنا ، فلا يحسن بنا ان نرتشف منه ارتشافا ؛ بل يجب ان نبتلعه ابتلاعا اذا قدرنا

أتيح لنا ان نعمل ما نشاء ، فلا يليق بنا ان نعمل ما من شأنه إضعاف قوانا وإنهاك جسومنا ، بل يجب ان نعمل على ما يرفع شأننا ؛ ويجعلنا في مصاف الأمم الحية الراقية ، وبذلك نحسن استعمال الحرية

الجمعيات هي اساس النجاح ؛ ودعائم الرقي ؛ فيجب ان نؤسس جمعيات ؛ لا يسوغ ان تكون جمعياتنا لطائفة من الناس ، لا يجوز ان تكون اسلامية أو مسيحية أو يهودية مهما كانت وجهتها ، وأنى كان قصدها ؛ بل يجب أن تكون عثمانية بحتة ، انتم عثمانيون ايها الاخوان ، فيجب ان تكون جمعياتكم عثمانية ؛ الجامعة التي تنضمون تحت لوائها هي العثمانية ، فاجعلوها جمعياتكم كذلك تحسنوا استعمال الحرية

عاشرت اثنين ايها الناس منذ بضع سنين اسمها مشترك بين المسلمين والنصارى وانا للآن لا اعرف ان كانا مسلمين او نصرانيين ويجب ان تكونوا انتم كذلك

ايضا ، يجب أن تتعارفوا بثمانيتكم لا بمذهبكم ونحلتكم ، أليس كذلك ؟ بلى بلى

المدارس الوطنية هي كل مانحتاجه الآن ، لننهض من كبوتنا ، ونقال من عثرتنا ، وليس عندنا الآن مدارس وطنية بالمعنى الذي أريده ، أريد بالوطنية التي تضم الفرق والنحل ، وتنشئ طلابها تنشئة واحدة ، غايتها اعلاء شأن الوطن ، ووقاية الحرية بالمهج والأرواح ، والمدارس هي نبت الجمعيات وبنتها فمتى انشئت الجمعيات فقد أسست المدارس ، فانشئوا الجمعيات انشئوا الجمعيات تحسنوا استعمال الحرية

الجرائد هي القوة الكبرى والمدرسة التهذيبية ، وهي ميزان اعمال الامة ، وعنوان حالها ، وهي المسيطر الرقيب على الحكومة بل ان رقابتها تتناول كل شيء ، وهي قائد الامة الى مواطن السعادة والهناء ، والصادفة بها عن معاطن البوار والشقاء ، فيجب ان ان تكثر الجرائد بيننا ويعم انتشارها وبذلك نحسن استعمال الحرية

الخطابة هي مدرسة الشعوب الثانية بعد الجرائد ، ولها من العوامل في التأثير الكبير ، ومن البواعث على العمل المفيد ، مايرفع ويعلي ، وينتاش الأمم من الحضيض الاسفل ، وينيف بها على يفاع المجد والسؤدد ، واذا كانت الجرائد للقراء فقط فان الخطب يتناولها سمع القارئ والأمي ، ويستفيد منها العامل والجاهل ، والنشيط والخامل ، والصانع ، والزارع ، بل هي لكل احد ، والخطابة الحرة كانت ولا تزال من الدعائم التي يشاد عليها بناء التمدن الباهر ، ويرتفع بها صرح المجد الحقيقي ، فالمنابر المنابر ! ! لا تهملوا شأنها ، ارفعوا اعوادها ، ليرن صوت خطبائها ، ليهتفوا فلتدم الحرية ، فبذلك نحسن استعمال الحرية

التآلف بين الفرق والنحل هو الضامن الوحيد لبقاء وحدتنا ، واجتماع قوانا ، والمحافظة على حريتنا ، وبه نرد عادية المظالم ، وندفع غائلة الظالم ، وهو الذي يجعل مجموع أفراد الأمة كالجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، كما ورد في الحديث الشريف ، فيجب ان نتآلف ، يجب ان نتآلف ، يجب ان نتآلف ، لنحسن استعمال الحرية ، فليدم التآلف

ان استعمال الحرية يكون بالسير على النهج الذي أشرعته لكم أيها السادة ،

وثمة شؤون أخر ، يضيق مثل هذا الموقف عن استيعابها ، ولنا من حزم رجال التأخير كفيل للسير على النهج السوي ، والطريق المعبّد ، والأمل معقود على ان يبنوها بالعمل لا بالقول

بقيت لي كلمة أراني ملجأ الى الجهر بها ، قبل نزولي عن هذا المنبر ، تلك الكلمة هي إعلان استيائي واستياء العقلاء ، ممن يذهبون إلى أن الحرية منحة أو هبة من شخص معلوم ، ان هذا القول لا يليق صدوره من الأحرار ، إنه كذب وخيانة ونفاق ، وليست هذه الخصال من الحرية في شيء ، ان الحرية هي حق الشعب يسلبه منه بعض الظالمين سلباً ، فنيل الشعب له انما هو استرداد لحقه المغتصب منه ، وليس من الهبات والمنح ، الحرية ليست ملكاً للحاكم ولا للسلطان فكيف يهب الانسان ما ليس يملك له

هذا واني أشكر لجيشنا الباسل سعيه الكبير ، وعمله العظيم الذي خالف به كل جيوش العالم ، منذ وجد الجيش وأسست الجندية ، فان الجيوش في كل الأدوار والأجيال ، كانت يد الظالم القوية ، يستعين بها على قتل روح الحرية ، ولا أذهب بالاستشهاد بكم بعيداً أيها السادة ، بل ألفت انظاركم الى فظائع جيش العجم ، ومنكرات جيش روسيا ، وكيف يمثلون بطلاب الحرية أقبح تمثيل عملاً بإرادة المستبدين ، وتنفيذاً لمقاصد الظالمين ، فليمت المستبدون ، وليسحق الظالمون

واشكر أيضاً لرجال جمعية الاتحاد والترقي العثماني ، ولكل رجال الاصلاح الذين وقفوا حياتهم ، وخاطروا بأرواحهم ، في سبيل استرجاع الحرية ، وأصرح بأن جمعيتهم قامت بما لم تقم به جمعية في العالم منذ أسست الجمعيات ، فانها كانت سبباً في إحياء شعب بأسره ، لأن الشعب المستعبد هو والميت شرع ، هذا مع اعترافي بما للجمعيات من الأثر المحمود في خدمة النوع الانساني

واسأل الله أن يوفقنا للسير على ما يعلي شأن أمتنا ، ويرفع مقام دولتنا ، ويحفظ علينا نعمة الحرية ما دامت السموات والأرض ، اه

(المنار) جاءنا من بيروت ان الجمع المحتفل قد صفق للخطيب صفقاً شديداً ، وهتف بالدعاء له وللمنار هتافاً كثيراً ،

الفصل الحادى عشر (*

(الحب الشريف)

إن أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة الا من خصائص النفوس فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تفتر نظرات بصيرته الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب

النفس مجلى الآيات الكبر ، ومهبط الفيوضات العلى ، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والابد ، والمطبعة العظمى التي ترتسم بها الاشياء وتتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبائع ، ومقيم الشرائع ، وبين الجواهر المتألقة الصامتة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها ، واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهي مجذوبة من طرف اليها بجاذبية الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبانجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبانجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس حظها من الشهود والاشراف ، فيحق لها في الحالتين أن تمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الاكوان الموجودات كلها ، لكن اختلفت

(*) من سيرة السيدة خديجة

المحبات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذي تدور فيه، ولاتصالها بعالم الحس وعالم الغيب، وترددها بالانجذاب بينهما فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتقت الى المبدع دهشت فولهت فتدلهت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والرذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرهبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتقاء والهبوط ، كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هذه الاشياء فانما هي على مقاييسهما ، هما بالاختصار ركنا السعادة والشقاء، فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظا من الخير عظيما



كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف فماذا أحبت سيدتنا هذه؟ كان قلبها تواقاً الى معالي الامور، عظيم الشغف بمحاسن الاخلاق ، وقد أمد الله فطرتها امداداً عظيما فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالي الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها،

وانفتقت أنوارها، فكان لها تشوف الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية، وحصل لها من هذه الحالة العلية قوة فراسة والفراسة نور فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح عليه من الفضائل، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه مايعشق من المزايا العلية، انتثرت حبة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنبت شوقاً الى هذا الرجل الصالح الذي ألفت المكارم كلها لديه، وأيقنت ان معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة هو أعظم الآثار التي كانت تتشوف اليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها؟ بل كيف لايميل اليه فؤادها ؟ فالامانة هو ذلك الشهير فيها وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافاً ، والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب، والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالعها ، والحكمة هو الذي تقرأ في سيماه آياتها، والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها، ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها، فأي الفضل تنشد بعد هذا محبة الفضل، وأي المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟ كمال خَلق وكمال خُلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار، وهمة لاتقف أمامها الصعاب، وعزيمة لا تني أمام الثقال ، قوي شديد، حليم رشيد، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل   اذا قاسه الحكام عند التفاضل ؟

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلها عنه ليس بغافل

لقد علموا ان ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الاباطل

فأصبح فينا أحمد في أرومة ... تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة «خديجة» اذ عرفت هذا السيد الجليل، وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به، وما أقوى نور فراستها اذ علمت انه لا نظير له، وان سعادتها لا تتم الا به، وما أحصفها ان تغتنم الفرصة وتسبق الى تزوج هذا الشريف الذي جمع الى شرف النسب شرف الخلال

الفصل الثاني عشر

تفاؤل هنا وقته

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة الى زماننا هذا وكان علماء التوراة ينبئون دائما بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول انه سيظهر من العرب . والراهب بحيرا تفرس بابن أخي أبي طالب اذ كان معه صغيراً وقال له: سيكون لابن أخيك هذا شأن : ولم يكن بعيداً عن المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا أن يروا شيئا من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الامور العظيمة

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيد لهن في الجاهلية اذ تمثل لهن رجل فلما قرب نادى باعلا صوته : يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاع منكن أن تكون زوجا له فلتفعل . فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت فيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه

لم يكن هذا النبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يأبهن في الغالب الا باهل الشهرة . ولكن كان قومهن يعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولا من هذا القبيل ثم يغيب فكأن السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه تراثبها ولعلها صدقت اذ ذاك وقامت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذا الحظ

وان صح ظننا هنا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجناب القدسي فان الرغبة في زوج المنعم عليهم بالنبوة لا تنظم الا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذي يتفضل بخلعة النبوة على من يشاء

كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني اسرائيل ومعروف ان النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على مالم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب ، وليست النبوة ملكا أو حظوظا زائدة من نعيم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس اياهم وتعذيبهم . والنساء انما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي وكل هذا لا يرجى لدى الانبياء الذين تنصرف

أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى مافيه غبطة الروح فلاتتصور السعادة من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة «خديجة»

ولما رجع عبدها «ميسرة» من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي «محمد» أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها الا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رنّ في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بأذنها، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللآتي كانت معهن في العيد. وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات:

«تفاؤل هذا وقته»

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب «خديجة»

كانت «خديجة» تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ماحكاه لها عبدها «ميسرة» ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف ؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مرّ بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام — التي كانت تراها في اليقظة — ترجع الى الشيء المحقق الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجي وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال، فتمثل في فكرها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العينين الدعجاوين، وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق، ويقوى ايمانها بالملائكة اذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة، فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كمله الله ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

ثم تتراجع اليها الخواطر ويقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبته في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى: من لي بهذا المكمل الذي مال اليه قلبي، وحامت حوله خواطري، وعكفت في دائرة محاسنه نفسي، أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها، وما أظلم قضاءها، وما أشد عتمة مسالكها، وما أسوأ عواقب الجمود عليها، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزحون عنها،

ثم ثم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضارّ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر، فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين، وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أف ثم أفٍ للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم، أو تذرها في سجن أقفر ممنوعاً عنها كل ما يربها، ويا عجبا

لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم أليس لهم ما يذكرهم بأن العادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم أليس لهم ما يبصرهم بأن العادة يجب ان تكون تابعة لا متبوعة، ومنقادة لا قائدة، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخر لما هو خير ودعوا عاداتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت، ومذمومة على مبلغ ما اضرت، واستقبلوا أخرى مصاحبيها على مقدار ما يدوم من أسبابها وينفع من أبوابها

تبرمت «خديجة» بالعادة كثيراً، وتأففت من تقلبها طويلاً، وسردت كل سيئات الجمود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج، لما خصها الله من سلامة الفطرة، وفضل الفطنة، وقوة آلة المعرفة، ومزيد حرارة الهمة،

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الاكثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت، وأحوال مضت، ورأت ان الناس يرثون من السالفين كل شيء، ولا يميلون الى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلة شديدة على بعاصف من الحوادث، أو هبة شديدة من إرادة بعض الاشخاص، وكم دكت الارادات القوية أطواداً من العادات

وربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأساً بأن تخطبه بنفسها لانها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر، وهو في الخامسة والعشرين ينشف محياه عن ماء الفتوة، وينشر شذى الشباب، والمرأة مهما قويت ارادتها تذكر

الخيبة فيغلب احجامها اقدامها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة

ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها! هي صعبة على الرجل أيضا ولكنها على المرأة أصعب لانها أضعف على كل حال. بيد ان ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمت نعمتها وعلت كرامتها لديه. فقوة الخفر والحياء من ضعفها، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بهاء ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال. وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجمل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمقت المرأة. والجبن من ضعفها ولولا ما لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد ان كان حبة صغيرة ألقيت فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد، ولم تقد من صخر، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها رائحة اليأس، ويرأب ان أتاها برائحة الرجاء، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائبة، بيد ان رجاءها كان أغلب، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المخبأة عنها اذ ذاك لانقلب رجاؤها يقينا. ولكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان ان يغيب عنه آتيه من السعادة والشقاء فترى منحوسا يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب بأخذه بياتا أو يصبحه وسلم

صباحاً . وترى مسعودا يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجماً ساداماً والسعادة من حوله مرفرفة بأجنحتها ستقف عما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك الى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها , ما أشد حاجتها الى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أعتدت لذلك الذي ميزته العناية الازلية أكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيد فضلها في الميل الى رب الفضائل والمكارم التي لا تبارى حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشرى حتى أخذت الخواطر حظها من قلبها الكريم وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف لذاك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لا بدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها الى بعض وكان جديرا أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض بني الانسان . كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظا في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من «خديجة» الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة ان تتناول هدية سعادتها ، وتكشف لها الحجب عن الرحمة التي

ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة

خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولاً تسبر به رغبته وتستنبيء به سعدها مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بأن هذا المكمَّل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها

كانت لها صديقة اسمها «نفيسة» (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها وائتمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الامانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتى اذا وجدت مجالا كانت وكيلة بابداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ولم يكنّ ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول «خديجة» محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل ماشئت في تيسير مايرجوه

جاءت «نفيسة» هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له ما يمنعك أن تتزوج فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال لها «ومن؟» قالت له «خديجة»

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ماسيبدو منه وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة

اذهبي يانفيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيبة في هذه الرسالة فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبدالعزي « هو الفحل لايقدع أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفؤ الذي لا يرد ان خطب

ما كان هذا الخاطب الكفؤ غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العامرة بيوتهم بقرى الضيفان واغاثة اللهفان في هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المرابح بما أوتوا من الهمم والشمم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المعدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً الى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء صلوات، بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل، فبخطبةٍ من الرجل وتقديمه الصداق واجابةٍ من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت « خديجة » الطاهرة زوجة « محمد » الامين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !

مجلة

المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء الثامن

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿مصر — الجمعة ٢٩ شعبان ١٣٢٦ — ٢٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٨﴾

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

« أسئلة من روسيا »

(س ١٢ — ١٦) من الشيخ محمد نجيب التونتاري المدرس

سيدي الفاضل اعرض على حضرتكم ما يأتي بيانه لمحض الاستفسار والاستنباء وان كان في صورة الانتقاد وهو : اني قرأت في الجزء الثالث من المجلد العاشر من مجلة المنار الغراء في قسم التفسير عند قوله تعالى « ويطعمون الطعام » الآية حديثا طويلا مرويا عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد رأيت في (نوادر الاصول في معرفة أخبار الرسول) للحكيم أبي عبدالله محمد بن علي الترمذي رحمه الله انه عد هذا الحديث من المنكرات حيث قال في الاصل الرابع والاربعين فيما يعدونه صدق الحديث بعد ما ساق الحديث الى آخره : هذا حديث مزوق قد تطرف فيه صاحبه حتى يشبه على المستمعين والجاهل يعض على شفتيه تلهفا الايكون بهذه الصفة ولا يدري ان صاحب هذا الفعل مذموم قال الله عز وجل في تنزيله الكريم « ويسألونك

ماذا ينفقون قل العفو» وهو الذي يفضل عن نفسك وعيالك قال صلى الله عليه وسلم «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » وافترض الله على الأزواج النفقة لاهاليهم وأولادهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كفى بالمرء إثما ان يضيع بما يقوت» أفيحسب عاقل أن عليا رضي الله عنه جهل هذا الامر حتى اجهد صبيانا صغارا من ابناء خمس او ست على جوع ثلاثة أيام ولياليها حتى تضوروا من الجوع وغارت العيون بخلاء أجوافهم حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما به من الجهد ؟ هب انه أثر في نفسه هذا السائل فهل كان يجوز له ان يحمل على اطفاله جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ هذا ماذكره الحكيم الترمذي في وجه التنكير الا ان المتدبر لو تدبر في احوال هؤلاء الكرام لا يستبعد وقوع هذا الحال منهم ولذا لم يتبين لي وجهه والمأمول من الاستاذ ايضاح ذلك حتى ترتفع الشبهة .

٢ الفونغراف — وقد رأيت أيضا في هذا الجزء في قسم الفتاوي سؤالا يتعلق بالفونوغراف فخطرت لي عند ذلك مسائل اخرى تتعلق به وهي هل يجب السجدة على من سمع آية السجدة منه ؟ وان شخصا لو شهد بواسطة الفونغراف أو أودع الوصية فيه هل تقبل شهادته وتنفذ وصيته ام لا ؟ واني أظن ان السجدة تجب على السامع اذ هو كالاستماع عن انسان وانما الفونغراف آلة للاستماع فقط وكذا الشهادة والوصية ينبغي ان تكون صحيحة نافذة مهما ميز صوتها فان الاصوات متمايزة في التليفون والفونغراف حتى اننا لو سمعنا صوتا معروفا لنا من قبل نقول انه صوت فلان ولا نشتبه فيه فيكون ذلك في حكم الاستماع عن نفس القائل والله اعلم .

٣ التجارة بالجلود — ان اخواننا المسلمين في سبريا الروسية غالبهم يتجرون بالجلود وفيها جلود ميتة غير مدبوغة وجلود غير مذكاة وانهم يسألون عنها و يستفتون ما حكمها الشرعي وربما تكون المعاملة بين المسلمين بالطائفة القرغزية فما حكم ذلك شرعا؟ هل تكون فيها توسعة ان قلنا ان دارنا دار حرب ومذهبنا يوسع فيها في عدة مسائل كمسئلة الربا مثلا؟ هذه المعاملة مما تعم به البلوى في تلك الاقطار والمرجو من الاستاذ حل هذه المسئلة بحيث يخرجها عن الشبهة ولا يوقع حرجا ان شاء الله تعالى

٤ الامامة — ان رجلا قطعت احدى رجليه من فوق الكعب وله قدم صناعية

وكان اماما في بلدة منذ سنين والآن وقع خلاف بين علمائنا في صحة امامته فمن قائل انها لاتجوز والاكثر على الجواز ونحن لم نر في الكتب التي بأيدينا أن صحة القدم من شرط الامامة ولذا لا أرى بأسا في إمامته متى وجد سائر الشروط المهمة وأرجو من الاستاذ بيان ذلك أيضا حتى يندفع الاختلاف بيننا

٥ النسخ — هل هو من اصول الدين بحيث لا يجوز الخلاف فيه ام هو مسئلة خلافية بين المسلمين كما ذكره الفاضل محمد توفيق في مقالة الناسخ والمنسوخ وهو يقول ان أبي بن كعب رضي الله عنه قال بعدمه اي بعدم نسخ القرآن بالقرآن واستشهدوا عليه بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما معزوا الى البخاري الا اننا لم نر نقلا آخر سوى ماذكره عن أبيّ مايؤيد هذا القول وليس في هذا القول أيضا تصريح بعدم النسخ وانما يحتمله كما يحتمل غيره ولا يقطع بالاحتمال مراد القائل ولم يذكر خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في هذه المسئلة ثم ان أبا مسلم رحمه الله الذي نسب صاحب المقالة هذا القول اليه هل يعتبر قوله بحيث نعده خلافا في المذهب فبعضنا يقول ان النسخ لاخلاف فيه بين اهل السنة وانما هو خلاف نشأ من الاعتزال ولكن لم يظهر لي وجه هذا القول أيضا فان النسخ ليس من مواد الخلاف بين السني والمعتزلي فيما اعلم والله اعلم. وذكر ابن امير الحاج في شرح التحرير خلافا في نسبة هذا القول الى ابي مسلم حيث قال حكى الرازي والآمدي وابن الحاجب انكاره وقوع النسخ مطلقا وقيل لم ينكر وقوعه وانما سماه تخصيصا فعلى هذا يصير النزاع لفظيا والله أعلم. والمأمول من الاستاذ تفصيل هذه المسألة وتحقيقها كما وعد في ذيل تلك المقالة وكما تفضل بالاجوبة الشافية في المسائل السابقة

العبد المستفيد من علمكم الوافي

محمد نجيب ابن الاستاذ شمس الدين محمد الحاج المرصع التونتاري

الجواب عن أثر علي وآله عليهم السلام

إننا قد ذكرنا ذلك الاثر في الإيثار لاحل العبرة به وقد أشرنا الى ضعف الرواية بقولنا « ويروى » ولم نثبته في تفسير الآية بل وعدنا بذكره في تفسير

سورة الانسان ان أنسأ الله لنا في العمر وعند ذلك نذكر مكان الرواية والمسألة . وما قاله الحكيم الترمذي بعضه وجيه مقبول، و بعضه منتقد مردود، والإيثار مرتبة وراء مرتبة تقديم الانسان نفسه على من يجب نفقتهم عليه من أهل و ولد، وتقديم هؤلاء على غيرهم وقد ورد في الصحاح ان كبار الصحابة آثروا على أنفسهم وأولادهم مع الفقر وشدة الحاجة فكان ذلك سبب ثناء الله عليهم بقوله (٥٩ : ٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)وقد حررنا هذا المبحث في المجلد الثاني من المنار (راجع ص ١١ و ١٧ منه) ولا يبعد ان يقصد علي وفاطمة تربية ولدهما على الإيثار ان صح الأثر من طريق الرواية بنصها او مبالغة فيها ولا حاجة الى التطويل في ذلك فالخطب فيه سهل

الجواب عن مسائل الفونغراف

انما شرع السجود عند تلاوة أو سماع الآيات المخصوصة الآمرة بالسجود او المرغبة فيه لإظهار الخضوع والامتثال ومن سمع القرآن من الفونغراف صدق عليه انه سمع القرآن فالظاهر انه يشرع له السجود عند سماع آية السجدة منه . وإنما عبرنا بيشرع دون يجب لاننا نرى أن السجود مستحب لا واجب كما تدل على ذلك الاحاديث الصحيحة وعليه الشافعية

واما الشهادة والإقرار والوصية وسائر المعاملات الدنيوية فالعبرة في ثبوتها أن تكون بحيث يوثق بصدورها ممن صدرت عنه ويؤمن من التزوير فيها لأنها ليست من المسائل التعبدية التي يوقف فيها عند نص الكتاب وما مضت به السنة بلا زيادة ولا نقصان فاذا وثق القاضي بشهادة الفونغراف مثلا كانت بينة شرعية صحيحة لان البينة كل ما تبين به الحق كما حققه ابن القيم وذكرناه في المنار من قبل

الجواب عن مسألة جلود الميتة

روى أحمد والشيخان واصحاب السنن الثلاثة من حديث ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في الشاة الميتة « هلا انتفعتم بجلدها » وهذا اللفظ للبخاري وفي رواية أخرى له «هلا استمتعتم باهابها » والاهاب ككتاب الجلد او مالم يدبغ منه كما في القاموس . ولفظ احمد ومسلم وغيرهما « هلا أخذتم اهابها فدبغتموه فانتفعتم

به » فقالوا انها ميتة فقال « انما حرم اكلها » وذكر الدباغ بيان لطريق الانتفاع وليس فيه حصر وفي لفظ لاحمد : ان داجنا لميمونة ماتت فقال رسول الله (ص) « ألا انتفعتم باهابها ألا دبغتموه فانه ذكاته » اي ان الدباغ مطهر كالذكاة . ولا ينافي هذا جواز الانتفاع بالإهاب غير المدبوغ كما تدل عليه الرواية المطلقة . وروى مالك وابو داود والنسائي وابن حبان من حديث ميمونة ان رسول الله (ص) مر به رجال يجرون شاة لهم مثل الحمار فقال « لو أخذتم اهابها » فقالوا انها ميتة فقال « يطهرها الماء والقرظ » صححه ابن السكن والحافظ . ولعل هؤلاء لو اكتفوا بأمره اياهم باخذ اهاب الميتة والانتفاع به لكفاهم ولم يذكر لهم غيره وحسبك بعبارة الحصر في قوله « انما حرم اكلها » اي لا الانتفاع بها . وحديث « لا تنتفعوا من الميتة باهاب ولا عصب » قد أعل بالاضطراب والارسال فلا يعارض هذه الاحاديث الصحيحة ولا ينسخها . ولا يعارضها ما ورد في النهي عن شحوم الميتة فانها مما يؤكل فسدت الذريعة اليه . وامثل ماقيل في النهي عن استعمال جلود السباع انها مدعاة القسوة والكبر

هذا وان المراد بالتنزه عن النجاسة هو ان يكون المؤمن طاهرا نظيفا بعيدا عن الاقذار وما فيها من المهانة والمضار ولذلك كان الدباغ مطهرا لانه يزيل العفونة والرطوبة التي ينتن بها الجلد فكل مايزيل ذلك فهو دباغ مطهر والذين يشترون جلود الميتة لا يتركونها بغير دباغ ولا معالجة حتى تفسد عليهم بل يعالجونها حتى ينتفعوا بها فالذي أراه وأعتقده ان التجارة بهذه الجلود جائز شرعا لا إثم فيه ولا حرج . واذا باعها المسلم من غير المسلمين كان لجواز البيع وجه آخر عند الذين يقولون ان المخالفين لا يكلفون العمل بفروع الشريعة وعليه الحنفية . ووراء هذا كله ما أشار اليه السائل من ان التزام العقود الصحيحة في المعاملات انما يجب في دار الاسلام الا ان يقال ان في النهي عن بيع النجس معنى غير كونه عقدا فاسدا . والعمدة في المسألة ماذكرناه أولا والله أعلم بالصواب

الجواب عن مسئلة الامامة

الظاهر من السؤال ان الامام المسئول عن امامته يأتي باعمال الصلاة كلها تامة

وحينئذ يكون موضع الوقفة في صحة إمامته كون احدى رجليه من الخشب وهذا لا يصلح مانعا من صحة الامامة وقد ثبت في صحاح الاخبار والآثار اقتداء الناس بالامام يصلي جالسا للمرض واختلف العلماء فيمن يقتدون به فقال بعضهم يصلون قاعدين مثله وادعى ابن حزم إجماع الصحابة والتابعين على هذا . وقال بعضهم يصلون قائمين وفصل بعضهم في ذلك . والاصل ان كل من صحت صلاته صحت امامته . ومن استثنى من هذه القاعدة بعض من تصح صلاته للضرورة ولا تصح إمامته كالذي لا يحسن الفاتحة لم يستثن من ذهب احد اعضائه فاتخذ له بدلا من معدن او خشب لهذا لا أرى وجها للخلاف في صحة إمامة الامام المسئول عنه

الجواب عن مسألة النسخ بالاجمال

لا أتذكر انني رأيت في الحديث ذكر النسخ والاصل عندهم في هذه المسألة قوله تعالى (٢ : ١٠٠ ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها أو مثلها) والآية في اللغة العلامة والعبرة . وقالوا قد سميت الطائفة المخصوصة من القرآن آية لانها علامة يفضى منها الى غيرها : او لانها علامة دالة على الحق ، والنسخ في اصل اللغة نقل كتاب عن كتاب وجعل الزمخشري في الاساس قولهم : نسخت الشمس الظل من المجاز والمعنى في كل منهما التحويل الا ان الاول تحويل لمثل الشيء والثاني تحويل لعينه . وورد اللفظ بمعنى الازالة والتغيير كقولهم نسخ الشيب الشباب ونسخت الريح آثار الديار

وقد ورد ذكر النسخ في كلام السلف وائمة الفقه واصطلح علماء الاصول على تعريفه المشهور وهذا في كلام السلف اعم من ذلك فالنسخ في الجملة متفق عليه ولكن وقع الخلاف في تفسيره وفي جزئياته والآية ليست نصا في قول أحد من المختلفين ولا حديث يحتج به في تفسيرها ولا في نسخ شيء من القرآن وانما مدار البحث والاجتهاد فيها على تعارض النصوص والمروي من الآثار وفيه جرت المناظرة بين الدكتور محمد توفيق افندي صدقي والشيخ صالح اليافعي فعند ماتنتهي المناظرة يكون لنا كلمة أخيرة في المسألة وقد كنا بدأنا بكتابة مفصلة ثم جاءنا الرد الآتي من الدكتور صدقي فأمسكنا عن اتمام ما شرعنا فيه

« التعبير عن الملائكة والجن بالقوى ومعرفة حقيقتهم »

(س ١٧) ورد هذا السؤال على الاستاذ الامام من صاحب الامضاء في ٦ يونيه سنة ١٩٠٥ فبعث به الاستاذ الى صاحب هذه المجلة ليجيب عنه في المنار كما كان يفعل أحيانا في امثال هـذه المسائل ، قد كان ضاع بين الاوراق ثم عثرت عليه في هذه الأيام وهذا نصه :

فضيلتلو سيدي الاستاذ الحكيم

بكل أدب واحترام لائقين لهذا المقام أتقدم لابلغكم أوفر التحيات وأزكى السلامات والشكر على خدماتكم الدينية وقيامكم بتأدية الحقوق العلمية وتقوية السلطة الدينية الاسلامية أدامكم الله ركنا منيعا للوراثة المحمدية . وبعد فياحضرة الاستاذ لما بيني وبينكم من المودة الايمانية أحب مطالعة أقوالكم لأستعين بها على نزع ما اعتراني من البدع والخرافات الباطلة ولله الحمد فقد رأيت الفائدة فلله الشكر ولكم والله أسأل ان يطيل حياتكم ويكثر من أمثالكم

استاذي بينما كنت انظر في نفيس تفسيركم لسورة قل اعوذ برب الناس اذ وجدت ما يأتي . حضرتكم قلتم « قد وصف الله الوسواس الخناس بقوله : الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » وقلتم « من الجنة والناس بيان للذي يوسوس او بيان للوسواس الخناس فالموسوسون قسمان قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ولكن نجد في أنفسنا أثرا ينسب اليهم ولكل واحد من الناس شيطان وهي قوة نازعة الى الشر » الخ

فبينتم حضرتكم بان الجن خلق مستترون لا نعرفهم فهل المراد لا نعرف كافة احوالهم من ابتداء نشأتهم مع كون القرآن مصرحا بانهم خلقوا من مارج من نار في آيات كثيرة والحديث مصرحا بان الشيطان يسري في جسم الانسان مسرى الدم كما كان يسري في الآلهة لمعبوديهم ونعرف ايضا ان النبي بعث لهم وكلفهم بالرسالة فمنهم من آمن ومنهم من كفر فهذا كله يثبت لنا ان الجن موجودون بحقائق غير

حقائقنا وانهم يقدرون على التشكل بشكل ما . ثم حضرتكم قلتم « وانما نجد في أنفسنا أثرا ينسب اليهم » فهل ينسب اليهم حقيقة او مجازا مع كونكم جعلتم هذا الاثر للشيطان الذي قلتم عنه بانه « قوة من جملة القوى الانسانية » فكأنه لا شيطان ولا ابليس وكأن هذه القوة هي التي أمرها الله بالسجود فتكبرت فلعنها الله وقالت « انظرني الى يوم يبعثون * فلأغوينهم اجمعين » وكأنها هي التي قال لها الله « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان — اي القوة — الا غرورا » وكأنها هي التي بعث لها المصطفى يبلغها الرسالة وكأنها هي المذكورة في قوله (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) الخ قل (أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن) أي القوى وكأنها كانت تتلقى السمع لتبلغه لرئيسها فلما بعث النبي أرادت ان تتلقى السمع فأصيبت بشهاب قبس . وبكل احترام لمقامكم وعدم الاعتراض لاقوالكم اطلب الايضاح عن ذلك لان فكرتي متشتتة الآن مع بيان كيف حقيقة الجان وكيف كان خطاب المصطفى لهم لتأدية الرسالة و بيان ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه اشفى المصروع وأخرج من جسده الجان مع أن الحكماء تنكر ذلك والظاهر للعقل هذا مع بيان التوسل بالنبي والصالحين في الدعاء ولكم الشكر

كاتبه ولدكم
محمود فهمي
باشمهندس ري مديرية الدقهلية

(ج) قول الاستاذ الامام رحمه الله في الجن « هم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم » هو الاصل عند المسلمين وكذا اهل الكتاب في هذا الباب . والمراد لا نعرف حقيقتهم لانهم من الخلق المغيب عنا . وما جاء في القرآن من خبر خلقهم وغير ذلك لا ينافي كوننا لا نعرف حقيقتهم وكذلك أخباره عن جميع عالم الغيب لا يقتضي اننا نعرف حقيقة ذلك العالم . والعلم بأن الجان خلق من المارج لا يفيدنا معرفة حقيقته بل ولا ظواهر صفاته ومميزاته كما ان خلق الانسان من طين لا يبين حقيقته ولا مميزاته . ومثل ذلك يقال في تكليفهم . وظاهر قوله تعالى في سورة الجن (٧٢ : ١ قل أوحي الي انه استمع نفر من الجن) الخ ان النبي صلى الله عليه وسلم لم

يرهم حين سمعوا منه القرآن فآمن بعضهم وكفر بعض . وقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس التصريح بذلك قال في تفسير الآية « ما قرأ رسول الله (ص) على الجن ولا رآهم » الخ ولكن روي عن ابن مسعود انه رآهم وقرأ عليهم وقال ابن تيمية ان ابن عباس علم ما دل عليه القرآن ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وابو هريرة من إتيان الجن له الخ فحسبك من أمر تكليفهم ان حبر الامة ابن عباس كان يعتقد بحسب فهمه للقرآن ان النبي (ص) لم ير الجن وانما اوحى الله اليه انهم سمعوا منه القرآن ونزل عليه فيهم (٤٦ : ٢٩ واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) واذا صح حديث ابن مسعود وابي هريرة في رؤيته إياهم ومكالمتهم فذلك لا يدل على انهم صاروا من عالم الشهادة واننا صرنا نعرف حقيقتهم فان الله قد يطلع رسله على بعض غيبه وذلك خصوصية لهم كما قال في سورة الجن (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا ٢٧ الا من ارتضى من رسول) الخ

وكذلك حديث صفية عند الشيخين وغيرهما « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » لا يدل على حقيقة الشيطان ولا يجعلها معروفة لنا والحديث تمثيل لا حقيقة كقول الشاعر * جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي * وليس فيه « كما كان يسري في أعضاء الآلهة » كما قال السائل . وقد قال تعالى في الشيطان (٧ : ٢٧ انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) . وقوله انه صح ان النبي شفا المصروع واخرج من جسده الجان لا أدري من أين جاء به السائل على انه لا يدل على اننا نعرف حقيقة الجان

واما تعبيره عنهم بالقوى فقد كنا نقلناه عن الاستاذ الامام في تفسير سورة البقرة فانكره بعض الناس وان ورد مورد التأويل لمحاجة المنكرين لعالم الغيب فطلبنا منه ان يوضحه فأوضحه بكتابة بليغة زادها على تفسير آيات خلق آدم الذي نشرناه في المنار واننا نورد هنا ما كنا كتبناه هناك وما زاده عليه رحمه الله واحسن مثواه ونميز ما كتبه بوضعه بين أقواس هكذا { } وهاك ما هنالك

تقدم ان الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته وانما نؤمن به باخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه وتقدم ان القرآن ناطق بأن الملائكة أصناف

لكل صنف وظيفة وعمل ونقول الآن ان الهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي (ص) وقد أسندا الى هذه العوالم الغيبية وخواطر الخير التي تسمى إلهاماً وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محله الروح فالملائكة والشياطين اذن أرواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح ان نمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا « لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فانما تتصل بها من طرق اجسامنا ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس فاذن هي من عالم غير عالم الابدان قطعا » والواجب على المسلم في مثل الآية الايمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على انها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سيقت لها القصة

وأقول : إسناد الوسوسة إلى الشياطين معروف في الكتاب والسنة واما إسناد إلهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام ومن حديث الشيخين في المحدَّثين وكون عمر منهم . والمحدثون الملهمون وحديث الترمذي والنسائي وابن حبان وهو « للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشياطين فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) قال الترمذي حسن غريب لا نعلمه مرفوعا الا من حديث أبي الاحوص . والرواية ايعاد في الموضعين كما ان الآية من الثلاثي في الموضعين فما قالوه في التفرقة بين الوعد والايعاد اغلبي فيما يظهر والافهو غير صحيح واللمة بالفتح الالمام والاصابة

(قال الاستاذ) وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة وهو ان مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالاعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ انسان وغير ذلك فيه ايماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة وهو ان هذا النمو في النبات لم يكن الاّ بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والانسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في ايجاده فانما قوامه

بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكا ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية (اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة) والامر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره وان أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا وزعم انه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا لان هذه الاسماء لم ترد في الشرع فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات (وان كان المؤمن بالغيب يرى للارواح وجودا لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، ولا يعلم الا الله علام يختلف الناس وكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ولا يصل بعقله الى إدراك كنهه وماذا على هذا الذي يزعم انه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه لو قال أصدق بغيب أعرف أثره ، وان كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ويحظى بما يحظى به المؤمنون)

يشعر كل من فكر في نفسه ، ووازن بين خواطره عند ما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا كأن الامر قد عرض فيها على مجلس شورى فهذا يورد وذاك يدفع ، وواحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكرا وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه وروح لا تكتنه حقيقتها — لا يبعد ان يسميه الله تعالى ملكا ويسمي أسبابه ملائكة أو ما شاء من الاسماء فان التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الارادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع ! ؟

وأقول ان الامام الغزالي سبق الى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمي ملكا فانه بعد ما قسم الخواطر الى محمود ومذموم قال « ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم ان كل حادث فلا بد له من محدث ومهما اختلفت

الحوادث دل ذلك على اختلاف الاسباب · هذا ماعرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الاسباب فمها استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه بالدخان علمت ان سبب السواد غير سبب الاستنارة · وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي الى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى اغواء وخذلانا فإن المعاني المختلفة تحتاج الى اسامي مختلفة » اه المراد منه فليراجع في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء

ثم قال الاستاذ الامام مامعناه: فاذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد ان تكون الاشارة في الآية الى ان الله تعالى لما خلق الارض دبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه «ولا يتعدى ماحدد له من الاثر الذي خص به» خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير وجعله بهذا الاستعداد الذي لاحدّ له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه لانه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي «لزَّها الله بهذا العالم لزًّا وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو الكامل الى النقص وتعارض مدّ الوجود لترده الى العدم أو تقطع سبيل البقاء وتعود بالموجود الى الفناء، أو التي» تعارض في اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الانسان في صرف قواه الى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيصل الى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعدا للوصول اليها «تلك القوة التي ضالت آثارها قوما فزعموا ان في العالم إلها يسمى إله الشر وما هي بإله ولكنها محنة إله لا يعلم اسرار حكمته الآ هو»

(قال الاستاذ الامام) ولو ان نفسا مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ماأبصرت من الحق «ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من

يظنون انهم من المتشددين في الدين اذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى أو المخدجون من جيد الاطعمة التي لا تضرهم وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى أو المخدجون بأضر طعام يفسد الاجسام ويزيد السقام . لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ! أليس الروح في الآدمي مثلا هو الذي تظهر آثاره في أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل واذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة ؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له : فاذا سمي الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا فهل يضر ذلك الدين ، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين ؟

ألا لا يسمى الايمان ايمانا ، حتى يكون اذعانا ، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان ، وتخشع الاركان ، لذلك السلطان الذي تعلق به الايمان ، ولا يكون كذلك حتى يلقي الوهم سلاحه ، ويبلغ العقل فلاحه ، وهل يستكمل ذلك لمن لا يفهم ما يمكن فهمه ، ولا يعلم ما يتيسر علمه ؟ كلا انما يعرف الحق أهله ، ولا يضل سبله ، ولا يعرف أهل الغفلة . لو ان مسكينا من عبدة الالفاظ من أشدهم ذكاء وأذربهم لسانا أخذ بما قيل له ان الملائكة اجسام نورانية قابلة للتشكل . ثم تطلع عقله الى أن يفهم معنى نورانية الاجسام وهل النور وحده له قوام يكون به شخصا ممتازا بدون ان يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد ان يتقلب في اشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ألا يقع في حيرة ؟ ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكا ؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون ابواب الغيب يطرف لما يستطيع النظر اليه لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه ، وكلف نفسه علم ما لا يعلمه ، فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة ايمانا صحيحا واطمأنت بايمانه نفسه ، وأذعن له قلبه ، ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به نفسه كما هو شأن صاحب الايمان الصحيح . فليرجع هؤلاء الى انفسهم ليعلموا ان الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف ، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة . هؤلاء لم يشرق في نفوسهم ذلك

السر الذي يعبر عنه بالنور الالٓهي والضياء الملكوتي واللألاء القدسي أو ما يماثل ذلك من العبارات . لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانب الحق ، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة الى مطلع الوجود على الخلق ، ولو علموا ان العالم بأسره فان في نفسه ، وان ليس في الكون باق كان أو يكون الا وجهه الكريم ، وان ما كثف من الكون وما لطف ، وما ظهر منه وما بطن ، إنما هو فيض من جوده ، ونسبة الى وجوده ، وليس الشريف منه الا ما أعلى بذكره منزلته ، ولا الخسيس الا ما بيّن لنا بالنظر الى الاول نسبته ، فان كل مظهر من مظاهر الوجود في نفسه واقع موقعه ، ليس شيء أعلى ولا أحط منه ، فانه كان كذلك ولا بد ان يكون كما قدره ، لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لانفسهم ان تجول في تلك الشؤون حتى تصل الى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شيء من وساوس الوهم ، ولا تجد طائفا من الخوف ، ثم لا يتحرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ

﴿ هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا ، وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها الا الى آثار تجل اذا كشفت وتقل بل تضمحل اذا حجبت ، وهي التي يدور عليها كمال الوجود ، بها ينشأ الناشئ ، وبها ينتهي الى غاية الكمال ، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل ، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب ، وان كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ الا يجوز ان يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها ، لا يدرك كنهه لاحتجابه بما تصوره من حياتنا واختيارنا ، ألا ترى ما توافي بأسرارها ، من ينظر في آثارها ، ويوفيها حق النظر في نظامها ، ليستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها ، ومعرفة الطريق الى استدرار منافعها ، أليس الوجود الإلهي الأعلى من عالم الغيب وآثاره في خلقه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذي وهب تلك القوى خواصها ، وقدر لها آثارها ؟ لم لا تقول أيها الغافل انه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ؟ ولم قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفي حيوان مثلك ؟ مع انك لو سئلت عن هذا الذي تزعم انك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تصريفا ، الا قول كما قال الله وبه نقول

(١٧ : ٤٤ تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم)

﴿ أفلا تزعم ان لله ملائكة في الارض وملائكة في السماء ! هل عرفت أين تسكن ملائكة الارض ؟ وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى اجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام ، أو تؤنسك اذا هجمت عليك الاوهام ؟ فلو ركنت الى انها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك وان الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك ، وبالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن اليه نفسك من وجوه تعرفها ، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك ، وأدعى الى طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب ، ووقفت على سر من أسرار الكتاب ، فان لم تجد في نفسك استعداداً لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في ادراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلم ترمي طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذي آمنت به ، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته ، وهم في ايمانهم أعلى منك كعبا ، وارضى منك بربهم نفسا ، !

ألا ان مؤمنا لومالت نفسه الى فهم ما أنزل اليه من ربه على النحو الذي يطمئن اليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة ، ومن فضل ربه في سعة ، ﴾

ثم نقول في الآية ان ترتيب النظم يلتئم مع هذا التأويل الذي أورده الاستاذ الامام فان هذه المعاني التي وردت بصيغة الحكاية وبرزت في صورة التمثيل جاءت عقيب قوله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا » وبقي شيء واحد لم يصرح به فيما مضى ولكنه يفهم منه وهو ان كل قوة من قوى هذه الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعا للانسان وخلق الانسان مستعدا لتسخيره لمنفعته الا قوة الإغراء بالشر وناموس الوسوسة بالإغواء الذي يجذب الانسان دائما الى شر طباع الحيوان ويعوقه عن بلوغ كماله الانساني فالظاهر من الآيات ان الانسان لا يغلب هذه القوة ويخضعها مهما ارتقى وكمل وقصارى

ما يصل اليه الكاملون هو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل تجعله مسخرا لها وتستعمله بالشرور كما قال تعالى (١٥ : ٤٢ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال عز وجل (٧ : ٢٠١ ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ﴿ اما سلطان تلك القوة في الفناء وقطع حركة الوجود الى الصعود فلا يستطيع اخضاعه لقدرته من البشر كامل ، ولا يقاوم نفوذه عامل ، وانما ذلك لله وحده . وهذا حكمها في الكائنات ، الى ان تبدل الارض غير الارض والسموات ﴾ فنسأل الله ان يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وان يعيذنا من الشيطان الرجيم . اه ما كتبناه في تفسير سورة البقرة مع ما زاده عليه الاستاذ الامام بعد ذلك

باب المناظرة والمراسلة

﴿ كلمات في النسخ والتواتر وأخبار الآحاد والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*)

أنا لا أريد أن أناقش أخانا الفاضل والعالم العامل الاستاذ الشيخ صالحا اليافعي في جميع ما كتبه رداً عليَّ فان ذلك يؤدي إلى التطويل والتشويش وملل القارئين وسآمتهم وضياع أوقاتهم وربما خرجنا بالتطويل عن الغرض، وتركنا الجوهر وأكثرنا الكلام في العرض ، فلذا آثرت أن أذكره بكلمات قليلة في الموضوع هي تبصرة للمفكرين . وعبرة للناقدين (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقبل البدء في هذه الكلمات أقدم له جزيل الشكر على غيرته على دينه وعلى ما أبداه من الادب العالي في جميع ما خطه قلمه وأسأل الله تعالى أن يكثر بين المسلمين من أمثاله . وهذه هي الكلمات — :

(الكلمة الاولى) — في تقرير بعض شبهات غير المسلمين على مسألة

(*) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

النسخ في القرآن — قالوا إن محمداً قد بلغ من الدهاء مبلغا بحيث صار يلعب بعقول أصحابه ويجعلهم يقبلون منه ما لا يقبل من غيره فكان يأتيهم بالآية من قرآنه فاذا اتضح له فيها عيب أو سمع عليها انتقادا في مغزاها أو معناها أمر أصحابه بإسقاطها من القرآن بدعوى أنها نسخت . وبلغ به الامر انه إذا كان ما في الآية من الاحكام متفقا مع هوى الامة أو مصلحتها ولكن كان في انشائها شيء لم يرق له بعد إذاعتها أسرع بنسخ لفظها دون معناها خوفا من أن يوجد في العرب من يمكنه أن يعارضها في بلاغتها . وإذا أتاهم بحكم واتضح له بعد تجربته أنه لم يرض الناس أو انه لا ينفعهم أو قد يضر بمصلحتهم التجأ إلى حيلته المشهورة وهي دعوى النسخ في الاحكام وبذلك كثرت بين المسلمين الآيات المنسوخة لفظا وحكما أو لفظا فقط أو حكما فقط

(قالوا) ولا يدري أحد ما الحكمة في كل هذا التقلب والتلون سوى التخلص مما كان يقع فيه من الورطات والغلطات ولولا ذلك لما أمكنه التخلص منها . وقد ضاع بسبب ذلك مما أتى به من القرآن آيات كثيرة جاء ذكرها في أحاديث المسلمين وهي وان كان أكثرها مما فقد بسبب إهماله في المحافظة على قرآنه إلا أن المسلمين اعتذروا عن ذلك بدعوى النسخ وقالوا تحكما إنها جميعا مما نسخ لفظه وإن كان لا يمكنهم التعليل عن ذلك بعلة معقولة ، ولا يمكنهم الاتيان بحكمة لذلك مقبولة ، على أن أكثر الروايات التي ذكرت فيها هذه الآيات صريحة في أنها ضاعت من القرآن ولم يرد فيها ذكر للنسخ لا تصريحا ولا تلميحا . وما بقي من القرآن الآن بعد كل هذا التصحيح والتنقيح تجد شططا في كثير من أحكامه فضلا عما في عباراته من المتناقضات والاختلافات والمسائل الخاصة بمحمد وأهل بيته ولا فائدة منها لاحد سواه كالآيات الكثيرة من سورة الاحزاب والتحريم وبعض آيات سورة الحجرات والمجادلة فاذا صح عند المسلمين نسخ ألفاظ الآيات التي أدت وظيفتها وانقضى زمنها فلماذا لم تنسخ ألفاظ أمثال هذه الآيات الواردة في حالات خاصة وفي وقائع خاصة وقد أدت وظيفتها وانقضى زمنها ؟ وما حكمة نسخ ألفاظ آية الرجم مثلا مع بقاء حكمها في شريعة المسلمين ؟

هذا شيء من شبهات القوم على مسألة النسخ في القرآن ، وقد قررناه هنا كما يقررونه في كتبهم الطاعنة في الاسلام، ومنه ترى أن اعتمادهم فيها إنما هو على روايات الآحاد التي يتمسك بها المسلمون وعلى ما اتفق عليه جمهورهم من تسليم مسألة النسخ والقول بها، وكان الاولى بعلمائهم الذين يقولون بالنسخ أن ينظروا في أمثال هذه الشبهات نظرة تحقيق وتدقيق، ويردوها بالبرهان إن كانوا قادرين، بدل أن يقوموا في وجهنا ويردوا مذهبنا في هذه المسائل بما هو في الحقيقة طعن في أصول الدين، وبمثابة تسليم سكاكين للخصم ليقطع بها منهم الوتين، فحسبنا الله ونعم الوكيل

أنا لا أقول ذلك ليأخذ المسلمون برأيي بلا برهان بل قدقدمت من البراهين مايقنع المنصفين، ويهدي المستهدين، وسأزيد الامر قوة في الكلمات الآتية بما سيكون إن شاء الله نافعا للمومنين، هادما لجميع شبهات أعدائهم المخالفين

(الكلمة الثانية) — في بيان أسباب نشوء مذهب النسخ بين جمهور المسلمين وتواتره في جميع الازمنة — اعلم أن من أسباب ذكره في عصر الصحابة امور منها (١) كلامهم في نسخ الاحاديث والسنة فقد كانت الاحاديث والسنن تنسخ بأحاديث وسنن مثلها وتنسخ أيضاً بالقرآن الشريف فالكلام في النسخ قديم بين المسلمين ونشأ منذ نشوء الشريعة الاسلامية (٢) ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يستعملون لفظ النسخ في القرآن بمعنى أوسع مما جرى عليه المتأخرون فكانوا يريدون به تخصيص العام وتقييد المطلق وتبيين المجمل لان من معاني النسخ الرفع وفي كل ما تقدم رفع لدلالة العام والمطلق والمجمل فلذا تواتر بين المسلمين الكلام في نسخ القرآن كما تواتر بينهم الكلام في نسخ السنة والاحاديث. أما رفع حكم الآية مطلقا فقد دل الاستقراء على عدم وجود شيء منه في القرآن كما بيناه في المقالات السابقة ولم يرد نص قاطع عن الرسول بشيء من ذلك ولم يصرح به الكتاب العزيز وإن سلم أن بعض الصحابة قال به في بعض الآيات فهو مذهب له في فهمها ولسنا ملزمين بتقليد أي صحابي فيما فهم ولذلك خالف جميع المفسرين ابن عباس وهو أعلم الصحابة بالتفسير في كثير مما ذهب إليه فيه على أن أكثر الروايات المأثورة عن الصحابة في التفسير

موضوعة كما قال الامام احمد بن حنبل ونقله عنه السيوطي في الاتقان فلا يمكننا أن نعلم باليقين رأي الصحابة في أكثر الآيات التي يحصل فيها هذا الخلاف . على أنه قد نقل فيما صح عندهم من الروايات أن بعض الصحابة كان ينكر النسخ في الآيات بمعنى أن يبطل حكمها مطلقا أو أن تلغى فلا تتلى ولا يعمل بها كأُبيّ بن كعب فانه رضي الله عنه كان يقول : إني لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد بذلك أنه لا يترك آية ما بدعوى أنها منسوخة كما رواه البخاري في صحيحه فالنسخ وإن انكرناه بمعناه عند الخلف فنحن لا ننكره ببعض معانيه كما عند السلف ولا نرى عيبا في تسميتهم التخصيص والتقييد والتبيين نسخا . فان كان هناك اختلاف مّا بين مثل أبي مسلم الاصفهاني أحد منكري النسخ وبين الصحابة فهو خلاف لفظي لا حقيقي كما لا يخفى

فمسألة النسخ هذه اختلف فيها المسلمون من عدة وجوه (١) في معانيها (٢) في الآيات المنسوخة وقد أنكر الامام الشوكاني وغيره النسخ إلا في بضع آيات وانكره غيرهم في جميعها بمعناه عند المتأخرين كما هو مذهبنا (٣) في جواز نسخ القرآن بالسنة وأنكره الامام الشافعي رضي الله عنه . فأنا بما قلته في هذه المسألة لم أكن بدعا من المسلمين في شيء فان المسألة فيها خلاف من عدة وجوه من العصر الاول الى اليوم وأكثر مافيها من الخلاف هو في الحقيقة لفظي وان كان لتقريرها على الوجه الذي ذهبنا اليه فيما كتبناه سابقا تندك دعائم شبهات المخالفين لنا في الدين وتسقط حججهم

أما الروايات التي تفيد نسخ لفظ القرآن أو ضياع شيء منه فقد أنكرها كثير من محققي أئمة المسلمين سلفا وخلفا وأظهر بعضهم ان أكثرها من وضع الملاحدة لتشكيك المؤمنين . وهي تنافي النصوص المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون — واتل ماأوحي اليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) وهي لاتتفق مع ما علم بالتواتر من عناية المسلمين بكتابهم حفظا وكتابة من عهد الرسول الى اليوم فهي ان لم تكن موضوعة من أعداء الاسلام المنافقين لغش المسلمين وتشكيكهم في دينهم فلا يبعد أن يكون الواضع لها من بعض الفرق الاسلامية لتأييد مذهب لهم في مسألة

ما أو إثبات دعوى باطلة لايجدون لها سندا من الكتاب المتواتر فيختلقون الروايات ويدعون أنها كانت قرآنا ونسخ وقد انطلت حيلتهم هذه على بسطاء المحدثين كما انطلت عليهم في مسائل أخرى كثيرة يقف عليها من مارس علم الحديث فاخترعوا من الاحاديث مايؤيد مذاهبهم ومزاعمهم. وقد يكون منشأ بعضها خطأ الراوي وعدم فهمه حقيقة بعض المسائل فيظن ان كل ماأوحي إلى النبي ولا يجده الآن في القرآن كان قرآنا ونسخ كحديث (بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضيناعنه) فوقع بسبب ذلك في الغلط رواية ودراية ولو علم ان من الوحي ماليس بقرآن مطلقا لماسماه قرآنا

واني لاعجب من قبول بعض المسلمين ذلك منهم واستشهادهم على نسخ اللفظ بآية (سنقرئك فلا تنسى الا ماشاء الله)مع ان مثل هذا الاستثناء قد ورد — كما قرره الاستاذ الامام — في القرآن لتأييد النفي ولبيان أن لاشيء في هذا الوجود يستعصي على مشيئة الله فكأنه يقول انك لاتنسى أبدا الا ان قضى الله بذلك فلا راد لقضائه ولكنه تعالى لايقضي به كما وعد بذلك في مثل الآيتين السابقتين . وقد ورد مثل هذا المعنى في آيات كثيرة في القرآن الشريف كقوله تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك)مع قوله(خالدين فيها أبدا)(وما هم منها بمخرجين) وغيره كثير

(لها بقية)

كلمات للمنار

جاءتنا هذه الرسالة من صاحب التوقيع ، وهو أحد الاشراف المخلصين في جاوى ، وقد سألنا نشرها ، فأجبنا سؤاله مع الشكر له ، لانها بمثابة رد على الصادفين عن الحق بلا برهان ولا دليل ، بل بمحض التمحل والتأويل ، قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المنار حياك الله وبياك ، لقد أوضحت السبيل ، و بينت الدليل ، وشفيت الغليل ، ونحن اليك بالأشواق ، السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، من قوم نظروا إليك بعين الانصاف ، فشاهدوا بها ما حزت من محامد الأوصاف ، فأبصارهم الى

طلعتك مشتاقة ، وبصائرهم لما عودتها من لذائذ الحكمة مقتاقة (كذا) ، ثبت الله دعائمك أيها المنهج القويم ، والقسطاس المستقيم ، لقد كشفت قناع الحقائق ، وبينت تباين الطرائق ، وشددت ازر الحق ، وشيدت مباني السنة ، وخربت مصانع البدع ، وجددت لهذه الامة دينها ، ودعوتها لتدرك يقينها ، فمنها من اتبعك ، ومنها من ضالك و بدّعك ، هكذا سنة الله في المصلحين ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

أيها المنار أنت والله الحق الثابت في الكتاب وروده ، والواضحة في سني السنة حدوده ، والمرفوعة عليها قواعده ، والموطدة على طوديهما شواهده ، فلا يحزنك (وحاشاك) ما هذى به بعض حاسديك ، وما فاه به الاغبياء من راديك ، فقد وردت الينا ردودهم التي هي أوهن من بيت العنكبوت ، واطلع عليها المستبصرون عندنا من طلاب الحق فأنشدوا بلسان واحد

ان العرانين تلقاها محسدة　　ولا ترى للئام الناس حسادا

وانقلبوا يتضاحكون من تلك الردود التي هي ليست بشيء ، ولا بعض شيء ، فلا تهدم حقا ، ولا تبني باطلا ، فما عليك ولا على الحق بأس من تلك الكلمات المزورة ، وهاتيك السطور المصورة ، فهي غاية ما قصر رأيهم عليه ، ومنتهى ما بلغوا من العلم اليه ، وانا لا ننكره اطلاع الناس عليها إذ ليست هي بمعقول ولا منقول ، والحمد لله الذي لم يجعل بيان الحق بزخارف اللسان ، ولكن بالدليل والبرهان ، والاخذ بما في القرآن ، وأحاديث سيد ولد عدنان ،

أيها المنار لا تروعنك (وحاشاك) ثرثرة الجهلة والحسدة ، ولا تهمنك وانت الليث هماهم السفلة والقردة ، فتالله ما أوضح منار الحق لرائديه ، وما أرفع اعلامه لوارديه ، وما أحلى الرجوع اليه لدى طالبيه ، وما أدحضه لحجة محاربيه ، هو الحق والله أجل من ان تخفض اعلامه ، أو تخفى احكامه ، أو تحاول أيامه ، ما فتئت والله مناهجه مسلوكة ، وما انفكت نواقضه متروكة ، لدى حماة ذمار الشريعة ، وحراس حصونها المنيعة ، معاذ الله أن يستر شمس الحق ضباب الهذيان ، أو يخفي سنا مناره عنا حجاب البهتان ، بنفسي أفديك أيها المنار من ان يدنس طاهر ساحتك المدنسون ، أو يدلس في واضح أحكامك المدلسون ،

أيها المنار لك أسوة بالانبياء والمرسلين ، وفي جميع المصلحين ، فادأب فالحق طلاّب ، ولا تعبأ بفرقتين احداهما عمشت بصائرها عن رؤية الحق ، مذ عميت عليها انباء العلم ، فصارت اذا حدثتها بما صح سنده عن النبي صلى الله عليه وسلم شاغبت ، واذا حدثتك هي بما لا سند له عن بعض من تعظمهم طلبت منك الايمان بالمحالات ، فهذه جاهلة ملبّس عليها ، ثبت التقليد في قلبها

والثانية ثقلت عليها وطأة الحق اذ جاءها ، وطفقت تضلل من رام اهداءها ، وتذمرت من ورود حق المقال ، خوفا من انثلام اعتقاد أولئك الانذال ، وهذه غير ملومة لانك جذذت عليها أصول الكذبة ، وسددت دونها سبل الفرية ، وكسدت بضاعتها الرائجة التي طالما استنزفت بها الأموال ، وأضلت بها عقول الجهال ، وأنت بالرغم منها حولت الهزل جدا ، ومددت لها من الضيم بظهور الحق مدا ،

أيها المنار انني أعتقد كما يعتقد كل منصف ، وأدين الله تعالى بأنك أنت الحق الصراح الذي لا يتردد فيه عاقل ، ولا يرده الا متهور جاهل ، أو أحمق متجاهل ، فويلك آمن أيها الحائد عن السنن القويم ، والناظر الى المنار بعين السخط الذميم ، ولا تبار قوماً لا يشق لهم في المعارف غبار ، ولا يدرك لعباب علومهم قرار ، طالما ازاحوا دياجير الجهل بشموس المعارف ، وازالوا بقواطع الادلة هام المجادل المجازف ، فارجع البصر ، وانعم النظر ، في أجزاء المنار الماضية والقادمة ، تدرك هناك وصفك ووصفهم ، وجراءتك وخوفهم ، وانا ابتهل الى الله ان يمتني على ماضمه وشمله منار الحق ويمتني عليه انه بالاجابة جدير والسلام

السيد محمد بن هاشم بن طاهر

بجاوا — المالاغ

ابو حامد الغزالي (*)

٥

رأيه في حكمة التكليف ورد شبهات الباطنية عليه (١)

﴿ جواب المسائل الاربع التي سألها الباطنية بهمدان ﴾

(من الشيخ الاجل أبي حامد محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سئل ما قول سيدنا الشيخ الامام الاجل ، حجة الاسلام ، شرف الشريعة ، مقتدى الفرق ، امام الائمة ، في هذه المسائل الاربع التي لبّس (بها) هؤلاء القوم الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وموهوا بها استجلابا لقلوب الخلق ، وهي هذه

﴿ المسئلة الاولى ﴾ أليس أهل الاسلام متفقين على ان الباري جلّ ذكره غني عن كل شيء غير محتاج الى شيء مّا . ثم مع ذلك كلهم معترفون بانه كلف العباد العبادة وأقربها فكيف تراك نسيت بحجة العقل ان غنياً عن كل شيء يكلف من لا يحتاج اليه ان يعمل عملاً هو غني عنه ؟ بين لي كيف ذلك لعلي ان أكون من العالمين

﴿ المسئلة الثانية ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة ونهاهم عن المعصية ليثيب من أطاع ويعاقب من عصى وهذا مستحيل جدا في العقول فأيّ حاجة به الى معاقبة خلقه حتى يدعوه ذلك الى ان يكلفهم أمرا اذا لم يأتوه عاقبهم عليه وان

---

*) تابع لما في الجزء ١٢ م ١٠ (١) عثر على هذه الرسالة في بعض المجموعات القديمة ببغداد عالم العراق السيد محمود شكري افندي الآلوسي فأرسلها الينا لننشرها في المنار فحمدنا سعيه ، وشكرنا فضله ، ونشرناها بنصها ، الا كلمات قليلة علمنا باليقين انها محرفة فرددناها الى أصلها ، وبقيت فيها وقفات تركناها على حالها

كان لا حاجة به الى ذلك فالقول مستحيل جدا لا توجبه حكمة وإن كان تعالى به الى ذلك حاجة فما يصنع بالتكليف وهو قادر على ان يثيب من يريد ويعاقب من يريد ؟ فالتكليف أيضا حشو لا توجبه حكمة والحاجة نقص وانه سبحانه وتعالى لا ينسب الى نقص وهو غني غير محتاج ،

﴿المسئلة الثالثة﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة لينفعهم بها أتراه جل ذكره عجز عن ان ينفعهم بغير التكليف حتى احتاج ان يكلفهم ثم ينفعهم ؟ ان كان غرضه نفعهم فالتكليف ساقط وهو حشو وان كان يعجز عن ذلك الا بالتكليف فالقدرة ساقطة والعجز ثابت وهو محال

﴿المسئلة الرابعة﴾ ان الله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، وهذا باب تحير فيه العقول،هل يجوز ان يأمر حكيم بأمر يخرج عن الحكمة وينبو عنه العقل ثم يحظر على العاقل البحث عنه؟ أليس ذلك ضربا من الجور والظلم لانه جعل الحجة على هذا الخلق العقل وأمر أهله ونهاهم وخصّ غيرهم من البهائم على ما خلقوا عليه بالآلات التي خلقت لها وألهم العقل استعمالها بمثل اللجام الذي تروض الدابة به وغير ذلك من حبالات الصيد والحيل المعروفة التي يطول شرحها ؟ واذا كانت حجة العقل على المكلفين والمأمورين والمنهيين بأمره ثم يكلفون أمرا ويمنعون من الفحص عنه والتماس سبب يتصور به ما يكلفونه عندهم ويصح في معقولهم ومعلومهم الذي هو حجة عليهم أليس يكون ذلك ظلما صريحا ؟ ووجدنا المتحلين بالعلم من جميع الاصناف يقولون ان الله جلّ جلاله لا يقبل عملا الا على بصيرة فاذا منع العاقل من البحث والنظر أين يكون بصيرا وهل يرجى ان يوحى اليه ؟ هذا منكر من القول لا يعقل وما لا يعقل فليس بشيء . ووجدنا هذا الكتاب الناطق بين الخلق من الحق يخبر في موضع بآية « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » ويخبر في موضع آخر بانه يسئل ويقتضي الجواب في قوله تعالى « ونحشره يوم القيمة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى » فأي سؤال أتم من هذا السؤال الذي اقتضى هذا الجواب ؟ وفي القول مثل هذا كثير والتناقض في مثل هذه الآيات ظاهر موجود اذا لم يعبر عنه

بيان يقبله العقل . فهذه اعزك الله المسائل الاربع قد شرحت لك بعضها فلا بد من قول خامس تصح به التكليفات لان سقوطها أيضا لا يصح . أبن لي ذلك فاني أراك من المحسنين . الى هنا كلامهم فان رأى سيدنا ان يجيب عن هذا ويوضح هذه الاشكالات ويكشف عن هذه التلبيسات حاز به الاجر الجزيل والثواب الكثير ان شاء الله تعالى

* * *

أجاب وقال أما السؤال الاول وهو استبعاد التكليف مع الاستغناء وتوهم التناقض بينهما فمصدره الجهل بحقيقة التكليف فكأن السائل لم يسمع قوله تعالى « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » وقوله « فلأنفسهم يمهدون » وقوله « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » كأنه ظن ان تكليف الله تعالى عباده يضاهي تكليف الانسان عبده فان السيد يكلف عبده الاعمال التي يرتبط بها غرضه وما لاحظ له فيه ولا يحتاج اليه فلا يكلفه به فكأن هذا السائل ثبت في وهمه قياس فاسد وهو تشبيه تكليف الله تعالى بتكليف عباده فجعل نفسه مثالا لله، تعالى الله وتقدس عن خياله ومثاله، والكشف عن حقيقة التكليف مما يطول ومن اقتبس حقائق العلوم عن رأيه السخيف، وعقله الضعيف، وقياسه الفاسد، كثر تعثره بالضلالات، بل ينبغي أن يطلب حقائق العلوم من أهله وهم العلماء الاقوياء القائمون بحقيقة المعقولات المطلعون على اسرار الشرع العارفون بشروط الادلة والبراهين المستبصرون بمداخل الغرور والتلبيس فيها . واذا كان شرح ذلك مما لا يسمح به عداوة؟ على مثل هذه الاسئلة الضعيفة الصادرة عن ضعف البصيرة فلا علاج للافهام الضعيفة انفع من ضرب الامثلة فلنقتصر على ضرب مثلين .

﴿ المثل الاول ﴾ تكليف الله عباده يجري مجرى (معالجة) الطبيب المريض فانه اذا غلبت عليه الحرارة مرة يشرب المبردات والطبيب غني عن شربه لا يستضر بمخالفته ولا ينتفع بموافقته ولكن الضرر والنفع يرجع الى المريض وانما الطبيب هاد ومرشد فقط فان وفق المريض حتى وافق الطبيب شفي وتخلص وان لم يوفق تمادى به المرض وهلك و بقاؤه وهلاكه عند الطبيب سيان فانه مستغن عن بقائه فكذلك خلق للعبادة الاخروية أسبابا تفضي اليها إفضاء الدواء الى الشفاء وهي الطاعات ونهى

النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الاخلاق مشقيات في الآخرة ومهلكات كما ان رذائل الاخلاط ممرضات في الدنيا ومهلكات . والمعاصي بالاضافة الى حياة الآخرة كالسموم بالاضافة الى حياة الدنيا وللنفوس طب كما أن للاجساد طبا فالانبياء أطباء النفوس يرشدون الخلق الى طريق الفلاح لتمهيد طرق التزكية للقلوب كما قال تعالى « قد افلح من زكاها • وقد خاب من دساها » ثم كما يقال ان الطبيب أمر المريض بكذا ونهاه عن كذا وانه زاد مرضه لانه خالف الطبيب وانه صح لانه راعى قانون الطبيب ولم يقصر في الاحتماء وبالحقيقة لم يتماد مرض المريض بمخالفة الطبيب لعين المخالفة بل لانه سلك غير طريق الصحة التي أمره الطبيب بها فكذلك (مداواة) النفوس هي الاحتماء الذي ينفي عن القلوب أمراضها . وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرة كما تفوت أمراض الاجساد حياة الدنيا

﴿المثال الثاني﴾ ان الملك من الآدميين قد يخص بعض خدمه وعبيده الغائب عن مجلسه بمال ومركوب ليتوجه الى مجلسه تارة لحظ الملك في استخدامه والاستعانة على نظام مملكته ومصالحها به وهذا القسم ونظيره في حق الله تعالى محال وتارة ليتوجه العبد الى مجلسه وينال رتبة القرب منه ويسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به وتصميمه العزم على ان لا يستخدمه أصلا ولكن ليقربه من نفسه لمجرد حظ العبد والزيادة في قربه . ثم العبد ان ضيع المركوب وانفق المال لا في الطريق الى السيد عد كافراً للنعمة وان ركب المركوب وانفق المال في الطريق متزودا به عد شاكرا للنعمة لا بمعنى أنه نال الملك حظا لنفسه ولكن اراد سعادة العبد فاذا وافق مراد السيد فيه كان شاكرا وان خالف عدت مخالفته كفرانا والله يستوي عنده كفر العباد وايمانهم بالاضافة الى جلاله واستغنائه ولكن لا يرضى لعباده الكفر فانه لا يصلح لعباده فانه يشقيهم كما لا يرضى الملك المستغني لعبده الغائب الشقاوة بالذل والفقر ويريد له السعادة بالقرب منه وهو غني عنه قرب منه أو بعد . فهكذا ينبغي أن يفهم أمر التكليف فان الطاعات أدوية والمعاصي سموم وتأثيرها في القلوب ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم كما لا يسعد بالصحة إلا من أتى بمزاج معتدل وكما يصح قول الطبيب للمريض قد عرفتك ما يضرك وما ينفعك فان وافقني فلنفسك

وإن خالفت فعليها فكذلك قول الله تعالى «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها»

(وأما السؤال الثاني) فهو فرع من هذا السؤال فان قوله ان الله مستغن في اثابة عبده عن الطاعة وهو لم يتضرر بها يضاهي قول القائل ان الله مستغن في انشاء الانسان عن الامر بالوقاع وفي انماء الطفل عن الرضاع وفي اشباعه عن الطعام وفي ارواثه عن الشراب وفي تصحيحه عن الادوية فما بانه عاقب بعقوبة الجوع من ترك الاكل وعاقب بالمرض من ترك الادوية وعاقب بموت الطفل من ترك رضاع والده وهذا خيال من يظن ان الله تعالى يفعل ذلك غضبا وانتقاما وليس يدري ان لفظ الغضب والانتقام مستعار ومأوّل وانما غضب الله عبارة عن إرادته الايلام فكما ان الاسباب والمسببات يتأدى بعضها الى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الاسباب فبعضها يفضي الى الايلام و بعضها الى اللذات ولا يعرف عواقبها الا الاطباء فكذلك نسبة الطاعات والمعاصي الى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق

وكذلك (السؤال الثالث) ينحل به فان الله تعالى لا يوصف بالعجز عن الاشباع من غير أكل والإرواء من غير شرب والانشاء من غير وقاع والإنماء من غير رضاع ولكنه قد رتب الاسباب والمسببات كذلك لسر وحكمة لا يعلمها الا الله عز وجل والراسخون في العلم وليس ذلك بعجب انما العجب في التعجب من هذا التدبير المحكم والنظام المتقن ولعمري من لا يهتدي الى سر الحكمة فيه يتعجب منه لقصور هدايته ومثاله في التعجب مثال الاعمى الذي دخل دارا فتعثر بالاواني الموضوعة في صحن الدار فقال لأهل الدار ما ارك عقولكم لماذا لا تردون هذه الاواني الى مواضعها ولم تركتموها على الطريق ؟ فقيل انها موضوعة في مواضعها وانما الخلل في فقد البصيرة (١) و بالجملة فمن لم يدرك الفرق بين التعجب و بين البرهان كثر خبطه وضلاله وليس في هذا الا تعجب محض وان الله تعالى لم رتب الاسباب ؟ ولو رتبها على وجه آخر لتصور أن يتعجب منه جاهل و يقول لم لم يفعل ضده وهذه التعجبات

---

(١) كذا في الاصل و يظهر ان ههنا سقطا وتصحيحه بحسب المعنى ان يقال وانما الخلل في فقد البصر وكذلك الخلل فيما ضرب له المثل في فقد البصيرة . والمثل مذكور في الاحياء ولا أحد سمة في الوقت [illegible]

منبعها اوهام العوام ولا يلتفت المحصل اليها بل الى مقتضى البراهين

﴿ واما السؤال الرابع ﴾ ففي ايراده خبط وكأن السائل لم يقدر على ان يفصح عما في ضميره والذي يتحصل منه تعجبات اربع

(التعجب الاول) قوله كيف أمر بالشيء ومنع عن البحث عنه والبصيرة لا تحصل الا بالبحث ؟ وهذا تعجب فاسد فإن العمل يستدعي اعتقاداً جازماً أو معرفة حقيقية والاعتقاد الجازم يحصل بالتقليد المجرد عن سبيل التصديق والايمان والمعرفة تحصل بالبرهان والوصول اليها بالبحث ولم يمنع عن البحث كل الخلق بل الضعفاء القاصرون عن الاطلاع على عويصات البراهين ومعاصات البحث وانما مثال ذلك امر الطبيب المريض (بالدواء) وامتناعه عن ذكر العلة في كون الدواء نافعاً ومنعه المريض عن الاشتغال بالبحث عنه لعلمه بانه يقصر عنه فهمه ولو اشتغل بالبحث عن علل الطب لشق عليه وعجز عنه وزاد المرض واستضر به فان وجد على الندرة مريضاً ذكياً آنساً بمنهاج الطب وعلل الامراض لم يمنعه من البحث ولم يمتنع عن ذكر المناسبة بين الدواء و بين علته بل اذا علم انه ليس يكتفي بمجرد قوله وليس يصدق بمحض التقليد وتفرس فيه من الذكاء مايفهم به العلة وعلم انه اذا فهم العلة والمناسبة اشتغل بالعلاج وان لم يفهم اعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ان كان يريد صلاحه ولم يمنعه عن البحث اذا علم اشتغاله به الا ان ذلك نادر في المرضى جداً والاكثرون يضعفون عن ذلك وكذلك معرفة العلل والاسرار والبحث عنها في الشرعيات من هذا القبيل ،

﴿ التعجب الثاني ﴾ وهو تسخير البهائم للانسان يضاهي تعجب الانسان ممن يمشي خطوات لينظر الى منتزهات ووجوه حسان فيقال كيف أتعب رجله وسخرها لاجل عينه والعين آلته كما أن الرجل آلته فما بال إحداهما جعلها خادمة وأتعبها وجعل الاخرى مخدومة وطلب راحتها وهذا جهل بالاقدار والمراتب بل البصير يعلم ان الكامل يفدى بالناقص وان الناقص يتسخر لاجل الكامل وهو عين الحكمة

واما قوله ان ذلك ظلم فهو جهل بحد الظلم فان الظلم هو التصرف في ملك الغير والله تعالى لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فلا يتصور منه الظلم بل له

ان يفعل ما يشاء في ملكه ويكون عادلا (١)

﴿ التعجب الثالث ﴾ أن الشرع كيف يرد بما ينبو عنه العقل ؟ وهو فاسد لان قوله «ينبو عنه العقل» لفظ مشترك فان اراد به أن برهان العقل يدل على استحالته كخلق الله مثل نفسه والجمع بين المتضادين فهذا مما لا يرد به الشرع ولم يرد. وان اراد به ما يقصر العقل عن دركه ولا يستقل بالاحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال بل مقصود بعثة الانبياء ارشاد الخلق الى ماتقصر عقولهم عنه فليس بمحال أن يكون في علم الاطباء مثلا جذب المغناطيس للحديد والمرأة الحامل لو مشت فوق حبة مخصوصة ألقت الجنين وغير ذلك من الخواص وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى انه لا يقف على حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه ولا ينبو عنه بمعنى الحكم باستحالته وليس كل ما لا يدركه العقل محالا في نفسه بل لو لم نشاهد النار قط واحراقها فاخبرنا مخبر وقال اني احك حبة بحبة واستخرج من بينهما سناً احمر بمقدار عدسة تأكل هذه البلد وغيرها حتى لا يبقى فيها شيء من غير أن ينتقل ذلك الى جوفها ومن غير أن يزيد في حجمها بل تأكل البلد ثم تأكل نفسها فلا تبقى لا هي ولا البلد لكنا نقول هذا شيء ينبو عنه العقل ولا يقبله، وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك، فكذلك يشتمل الشرع على مثل هذه العجائب التي ليست مستحيلة وانما هي مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فان البعيد هو الذي ليس بمألوف والمحال مالا يتصور كونه ،

واما ﴿التعجب الرابع﴾ وهو انه لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون ثم سئل وقيل «لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا» «قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » فمصدر هذا السؤال الجهل بكون « لفظ» السؤال مشتركا فان السؤل قد يطلق ويراد به الإلزام كما يقال ناظر فلان فلانا فتوجه عليه سؤاله (٢) وقد يطلق

(١) المنار: فسر الظلم هنا بما جرى عليه الاشعرية وفيه نظر ظاهر وقد بينا حقيقة الظلم وكونه محالا على الله تعالى في مواضع من التفسير والمنار (٢) هذا مايعبر عنه الآن بالمسؤلية وهي بمعنى التبعة والمؤاخذة فمعنى كونه تعالى لا يسئل عما يفعل انه ليس لاحد سلطة فوق سلطته فيسأله عن فعله سؤال من يلقي عليه التبعة ويؤاخذه على ماعمل

ويراد به الاستخبار كما يقال سئل التلميذ والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام وهو المعنى بقوله « لا يسئل عما يفعل » إذ لا يقال له: لم؟ قول إلزام فأما انه لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله « لم حشرتني أعمى » وهذا القدر كاف في جواب هذه الاسئلة اه والذي أوصي به هذا السائل ان ينظر لنفسه ودينه ويتقي ربه ويطلب عالما مليا بعلم العقل والشرع ليهديه الى الطريق فان من ترقى عن مجرد التقليد بأدنى كياسة ولم ينته الى رتبة الاستعلاء كان من الهالكين فنعوذ بالله من فطانة نزالة وكياسة ضعيفة فان البلاء منه أولى إلى النجاة منها آمين

استحالة المادة

١

« للدكتور خليل سعادة »

كتبها عند إذاعة خبر هذا الاكتشاف

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

او مض من كعبة العلم نبأ خطير ، دوت له أرجاء العالم المتمدن اي دوي ، وعندي أنه اعظم اكتشافات البشر ، وأسمى ما بلغت اليه مداركهم ، فلا يحسب بجانبه كشف العالم الجديد شيئا مذكورا ، وما بلوغ القطب الشمالي اليه سوى ألعوبة من ألاعيب الصبيان ، كيف لا وهو الامنية الكبرى التي طمحت اليها أبصار فلاسفة العصور ، والغاية القصوى التي اشرأبت اليها أعناق الحكماء في جميع الدهور : حلم رآه أسلافنا في ليل مدلهم بظلمات الاوهام ، فتجلى لنا نورا باهرا يبدد دياجي الجهل وينير بصائر الافهام ، بل قل هو الحق انزل على عيون مبصرة ، وآذان مصغية ، وقلوب واعية ، فزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

نريد بهذه التوطئة الاكتشاف الحديث الخطير وهو استحالة المادة الواحدة البسيطة من عضو الى آخر كما تبين الآن في استحالة بخار الراديوم الى عنصر

المليوم : اجل أماطت الطبيعة اخيرا نقاب الخفاء عن وجهها الوضاح ، ورفعت الحجاب بعد دلال ونفار ، طال اجله الوفا من السنين ، غادة وضاءة لا كالغادات تعشقها العالم فهام لاجلها في البيد والقفار ، وجرى وراءها الى قنن الجبال ولجج الابحار ، تقفى أثرها في الرمضاء اللاذعة تحرقه أشعة شمسها ، وفي الثلوج المتراكمة يلذعه قارس بردها ، سهدته قرونا طوالا وهو يرقبها طول ليله في السيارات والدراري وليل العاشقين طويل ، وتطلبها في قطرات الماء ورشاشه يحدق فيها بمجهره وهي غزال نفور كالزئبق الفرار ، اذا دنت نأت ، وان قربت بعدت ، هي اشبه برهرهات الآل وسراب الظمآن ، لم تكشف القناع عن ثغرها البسام لحظة من الزمن ، تطلبها في الحرارة والنور ، وامتطى في أثرها الكهربائية والبخار ، وكالمها بين الزهور والرياحين ، وشرح لها وجده بين الرياض والبساتين ، فكانت اذا أدنته منها ابتسامة ، اوقفته عن الدنو منها مهابة ، جمال تكلل بالجلال ، وانفة الا أنها دلال ، منها نحل العاشق سقما وضاق ذرعا ، فلما أيقنت منه التفاني في سبيل غرامها ، والاستقتال في هيامها ، أماطت الآن اللثام ، بعد آلاف سنين في التحجب والدلال ، والتلاعب والمطال ،

طمحت أبحاث اسلافنا منذ الاعصر المترامية في القدم الى اكتشاف امرين خطيرين اولهما اكسير الحياة الذي يتذرع به المرء الى درك كأس الحمام ونيل الخلود على وجه البسيطة ، وثانيهما حجر الفلاسفة الذي يتاح له به تحويل المعادن الى ذهب ، فيصبح المرء بهذين الاكتشافين خالدا مثريا ، ولبث القدماء يخطون في دياجير الاوهام ، ويتلمسون الحقيقة في ظلمات بعضها فوق بعض ، حتى نبغ نحو أواخر القرن الثامن رجل هو لغز من ألغاز التاريخ غريب الاطوار كثير المطامح بعيد المرامي يسمى جابرا تفرغ الى البحث في المعادن وانقطع الى إجراء الامتحانات المتعددة بشأنها تذرعا لتحويلها ذهبا وكان مذهبه ان المعادن خليط من عناصر متعددة يمكن ترقية الدنيا منها الى الاشكال العليا وما فتئ يكثر من التجارب ويعيد في الامتحانات وهو في كل ذلك يتراوح بين الحقيقة والضلال حتى أصبح له في عصره شأن خطير ومنزلة راقية في عيون اهله وهو احق رجل بان يسمى شيخ الكيميين ولكنه منطق

الحقيقة بالجهالة واكتنف الحق بالباطل ولم يدر خطورة قوله ولم يحلم حينئذ ان سيقوم في فجر القرن العشرين رجل من اشهر الكيماويين ويكتشف أعظم اكتشاف قدر المرء حتى الآن ويجيء به مصداقا لاقواله

بيد ان العلوم الراقية لبثت قروناطوالا خليط فن واحد فكان الباحث متكهناً في الطب وعالما في التنجيم وطوالع السعد وصهارا للمعادن وطال أمره دهورا يتلمس الحق على غير صراط الهدى حتى بزغت عليه بعض اشعة العرفان فانبثق الطب من الكهانة والفلك من التنجيم وكيمياء الحق من كيمياء الباطل

ولما انتظمت الكيمياء فنا قائما بنفسه نبذ طلابها آراء الاقدمين نبذ النواة فتبين لهم ان العناصر الأربعة التي قال بها السلف وهي النار والهواء والماء والتراب ليست بعناصر بل هي مواد مركبة تنحل الى موادّ أخرى بسيطة اطلقوا عليها لفظ العناصر الصحيحةوكان من أوائل اكتشافاتهم بهذا الصدد الاكسوجين . ولما تم لهم هذا الفتح المبين نشطت الهمم من عقالها واستولى على المنقطعين الى هذه الابحاث هوس شديد . نضرب لك مثلا واحدا لتفقه الى أي حد بلغ بهم ذلك الهوس وهو الكيماوي الطائر الصيت «لافوازيه» فانه كان في صدر جلة الكيماويين الذين نحوا البحث والامتحان بشأن الاكسوجين فبعث الى الاكاديمي في أواخر القرن الثامن عشر رسالة ضافية الذيول بخصوص تأكسد المعادن (١) وكانت له أثرا خالدا وما زال يوالي التجارب حتى انفجر بركان الثورة الفرنساوية واندلع لهيبها في باريس وسائر ارجاء فرنسا وكان «لافوازيه» لنكد الطالع رجلا عريقا في نسبه ، كبيرا في حسبه ، وافرا في ثروته ، فأصبح هدفا للثائرين، وغرضا لسهام الحاسدين ، فصوّب اعداؤه نحوه شكايات باطلة أصابت منه مقتلا فحكم عليه بالاعدام وكان اذ ذاك منهمكا في تجارب كيماوية خطيرة فطلب من لجنة الثورة ان تمهله بضعة أيام ريثما يتم ابحاثه واكتشافاته فعاملته بغلظة يندى منها جبين التمدن واجابته بفظاظة يحمر لها وجه الحرية قائلة ان لا حاجة بالجمهورية للعلماء !

(١) المنار: التأكسد عندهم عبارة عن اتحاد المعدن بالاكسجين بحيث يتولد عنهما جسم ثالث غيرهما كالصدأ في الحديد وهو أكسيد الحديد

فقيد من كعبة العلم الى باحة « الغليوتين » (١) وهو الذي قال بشأنه ساعتئذ « لاغرانج » أحد مشاهير مواطنيه: بعد دقيقة يسقط رأس تمر بكم أجيال وقرون قبل الحصول على مثله

فانقشعت اذ ذاك غياهب الجهل عن بصائر أولي النهى ففقهوا ان جل المواد المعروفة انما هو مركبات وخليط مواد بسيطة متعددة فحسروا عن ساعد الجد وقذفوا بالاوهام القديمة من حالق وتواردت عندئذ اكتشافات العناصر تترى على نوادي العلم ومجامع العرفان فبنيت صروح المعارف على اطلال الخرافات ووطد بنيان الكيمياء على عمد راسخة الاركان واكتشف الباحثون في العناصر نواميس كيماوية عجيبة لم تكن لتخطر في بال اسلافنا ولا في الاحلام

العروة الوثقى التي وقفت عندها الالباب حيرى هي الذريرات الاصلية لهذه العناصر فقالوا انها جواهر مادية تتألف من جواهر فردة اذا تجزأت بطل العنصر أن يكون عنصرا بالخصائص والمقومات التي يتميز بها عن سواه غير انه لما كان الجوهر الفرد لا يقبل التجزؤ فملا اذ لم يكشف البشر ذريعة أو وسيلة تؤدي الى ذلك لبث العنصر ثابتا على ممر الأدهار

بيد ان القول بوجود هذه العناصر المتعددة الاشكال المتباينة الخواص ثابتة على هذا المنوال منذ الازل مناف لمطمح الفلسفة السامية القائلة بوحدة المادة وخصوصا اذا اعتبرت أرضنا نفسها ذريرة من مجاميع ونظامات هذا الكون العجيب الذي يملأ القلب مهابة ورهبا متى تجلى لك خلال استار الدجى كواكب ودراري سابحة أو معلقة في فضاء يتطاول الطرف الى الاحاطة بعظمته وفقه رموز اسراره فيرتد عنه وهو كليل

ذلك ما حدا جاة المتضلعين من العلوم الطبيعية الى القول بان سائر العناصر المعروفة مشتقة من عنصر واحد متناه في بساطة التركيب ولطافة القوام وخفة المادة غازي الشكل ولما لم يكن معروفا عندهم حينئذ من العناصر التي يمكن الحصول عليها ما يصح ان يكون أصلا لجميع المواد سوى الهدروجين حسبوه ذلك الاصل

(١) المنار: هي الآلة التي اخترعوها لقطع الرقاب بسرعة

حتى انبأ بعضهم من هذه الاستدلالات بوجود عناصر أخرى كانت لم تزل مجهولة لكي تملأ فراغا في حلقات العناصر المعروفة فجاءت الاكتشافات التالية مصداقا لنبوتهم

ثم انه تبين من الابحاث الحديثة ان الجوهر الفرد الهدروجين على ما فيه من التناهي في الصغر هو كبير جدا في حجمه بالنسبة الى ما كشف مؤخرا من الذريات الكهربائية التي اطلقوا عليها اسم الألكترون بحيث ان جرم الجوهر الفرد الواحد من الهدروجين يوازي ألف جرم من الألكترون وثبت لهم ان هذه الذريات الكهربائية تستقل عن الجواهر الفردة وتقوم بنفسها ويكون لها جميع الخواص المقومة للجوهر الفرد حتى ترجح عند كبار الطبيعيين الآن ان الجواهر الفردة لجميع العناصر تتألف من هذه الذريات الكهربائية فقط التي بعضها إيجابي وبعضها سلبي بمقادير متساوية وان اختلاف العناصر متوقف على اختلاف مقادير هذه الذريات في تأليف جواهرها الفردة فما العناصر اذاً سوى مجاميع هذه الذريات التي يثبت قوامها بقوتي الجذب والدفع

فمتى فهمت ذلك علمت كيف تتأتى استحالة المادة من عنصر الى عنصر على ما صدرنا به هذه المقالة بيد انه لم تتح لبشر مشاهدة هذه الاستحالة عيانا الا منذ نحو أسبوعين من الزمن وتفصيل ذلك انه قدم الى مدينة باريس منذ بضع سنوات في أواخر القرن المنصرم فتاة بولونية المحتد في غضاضة الشباب وريعان الصبا لمتابعة بعض دروس فلسفية ولو علم أهل تلك المدينة ما سيكون لهذه الفتاة في العالم من خطورة الشأن والصيت الذائع لاحتفوا بها احتفاءهم بالاميرات والملكات من زوارهم فينقضي ذكر الملوك والملكات الذين زاروا باريس اما اسم مدام كري فيبقى خالدا وهي الفتاة التي نعنيها فانها ما لبثت حينا من الدهر حتى تزوجت الاستاذ كري فأقاما في بيت بعيد عن ضوضاء المدينة وجلبة القوم يواليان الامتحانات الكيماوية حتى ظفرا أخيرا بأمنية ما وراءها أمنية الا وهي اكتشاف الراديوم

اما وجه أهمية هذا الاكتشاف فهو ان العلماء وجدوا ان معدن الراديوم يختلف عن جميع المواد والعناصر المعروفة على وجه البسيطة في أمر هو إشعاع الحرارة والنور على الدوام دون ان يخسر شيئا منهما فسواء وضعته في الماء والثلج أو

الهواء بقيت حرارته مرتفعة عما يحيط به وهو أمر لوسمعه العلماء في حلم لما صدقوه.
ولما وجد الباحثون عنصرا يختلف في خصائصه عن سائر العناصر ذعروا منه بيدأنهم توسموا به أخيرا خيرا اذ علموا انه سيلقي بين أيديهم مقاليد الكون وينشر امام أبصارهم رموز الطبيعة واسرارها فتهافتوا عليه تهافت العطاش على الماء حتى بلغت اثمانه في الاشهر الاخيرة مبلغا فاحشا لم يسمع بمثله من قبل فان المقدار الذي لا يتعدى جزءا من خمسة عشر جزءا من القمحة منه يساوي خمسين ألف جنيه

وكان في عداد الذين اشتغلوا بالبحث في الراديوم واسراره الكيماوي الشهير السير وليم رمزي فوجد نظير غيره من المشتغلين به ان في جملة ماينبعث من هذا المعدن مادة غازية كثيفة بقيت لديهم حينا من الدهر لغزا من الالغاز لانها كانت تلبث ردحا من الزمان ثم تختفي دون ان يتمكن أحد من الوصول الى كنهها فوضع السير رمزي اخيرا هذا الغاز في زجاجة دقيقة جدا سدها سدا محكما وما فتئ يراقبها حتى تبدت له معجزة من المعجزات وهو ان تبدى من هذا الغاز بعد يومين من الزمن بواسطة السبكترسكوب خط ضارب الى الاصفرار وهو الخط الذي يشير الى وجود عنصر الهليوم وهو مادة توجد في الشمس ولم يعثر عليها في أرضنا الا حديثا ثم بعد نحو اسبوع من الزمن زاد الخط اشراقا دلالة على ان مادة الراديوم الغازية استحالت الى عنصر الهليوم ولم يبق لها من اثر

وهذا الاكتشاف الذي نحن بصدده هو باكورة الاكتشافات العظيمة في فجر القرن العشرين وسيكون له من الخطورة ماهو اهل له وسيقيض لنا على يده كشف كثير مما غمض على أفهامنا من أسرار الطبيعة وغرائب الكون فان الباحثين جارين الى هذه الغاية سباقا يبذلون النفس والنفيس ويجودون بالمال والارواح لغرض ترقية شأن العقل البشري والنهوض به من حضيض الجهل الى قنن العلم ولعله لاتغيب شمس هذا القرن حتى تبزغ شموس من سماء الحقيقة والعرفان تتجلى نورا باهرا على الافهام وتميط الطبيعة عن محياها الصبوح حجاب الابهام ومن يعش يره

الدكتور سعاده

﴿ رسالة التوحيد ﴾

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * (سورة الروم ٣٠ : ٣٠ — ٣٢)

إن الله جلت قدرته ، وبلغت حكمته ، قد برأ هذا الانسان ، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، أودع فيه شعوراً بلذات وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية ، انشأه مستعداً لإدراك معلومات غير محصورة ، اذ خلقه ليحيا حياة غير محدودة ، جعل مدار حياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على استجلاء ما في الكون من النظام والابداع ، أنشأ افراده متفاوتين في الاستعداد للعلوم والأعمال ، ليتيسر لمجموع النوع القيام بجميع العلوم والاعمال ، فأدناهم الخدم والبناؤن والزارعون ، وأعلاهم الساسة والحكماء فالانبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالعقول والقلوب والارواح ، وأولئك كالأرجل والايدي والمعد والامعاء ، فمنهم من يقوم للنوع بأدنى ما يحتاج اليه ، ومنهم من يهديه الى أعلى ما يتشوف استعداده إليه ، مع احسانه التصرف فيما هو قائم عليه ، وهذه الهداية هي هداية الدين الذي هو قوام الفطرة للانسان ، الناهض بها الى طلب الكمال في العلوم والاعمال ،

سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدريج في الارتقاء ، كما هي السنة العامة في جميع شؤون الاحياء ، حتى جاء خاتم النبيين والمرسلين بالاسلام ، الذي بلغ بالانسان مرتبة الاستقلال التام ، وبين كتابه انه دين الفطرة للناس ، من جميع الشعوب والاجناس ، الموافق لهم في كل مكان، المنطبق على مصالحهم في كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربي الرحيم ، وللشعوب الراقية كالامام الحكيم ، كلما ساروا في العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلي في ميدان السبق ، ٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ،

لكن المسلمين قد خذلوا هذا الدين ، وصاروا حجة عليه عند اكثر العالمين، اذ زينت لهم التقاليد والعادات ، ان يجعلوه حجابا دون العلوم والفنون والصناعات، وان يتفرقوا فيه مذاهب وشيعا ، وينقصوا منه سننا ويزيدوا عليه بدعا ، وان يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين اهل المذاهب من الاموات والاحياء ، وقد مرت القرون وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة الى الاسلام ، على الوجه الذي اشترطه علماء الكلام ، وهو ان يكون على وجه يحرك الى النظر ، ويدعو الى البحث والتفكر ، حتى قام الاستاذ الامام ، الذي كان في هذا العصر حجة الاسلام ، الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في دار السلام ، فكتب (رسالة التوحيد) في بيان حقيقة هذا الدين ، فجاء مع التزام الشرط بما لم يأت بمثله أحد من أئمة المسلمين ،

لا اذكر في بيان فضل هذه الرسالة ان مجلس ادارة الازهر قرر تدريسها في الجامع الازهر رسميا، ولا ان علماء الهند ترجموها بلغة الأوردو ليدرسوها في مدرسة عليكده الكلية وغيرها ، ولا ان علماء الاقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من منثور الثناء ومنظومه ما يزيد على حجمها اضعافا مضاعفة ، ولا ان بعض علماء النصارى قالوا عند ماقرءوها: لو كان مافي هذه الرسالة هو الاسلام لكنا اول من يدخل فيه ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذي نؤمن بفضله ، وعلو كعبه ، لا أشرح هنا شيئا من مثل هذا وانما أقول انه لا يقدر هذه الرسالة حق قدرها الا من كان عالما بمنتهى ما وصل اليه علم الكلام من الارتقاء في الاسلام، وواقفا على

ما كتبه فلاسفة أوربا في الانتقاد على الاديان، مع ما كتبوه في بيان مزاياها وفي علم النفس وعلم الاخلاق وعلم الاجتماع البشري

لم تدع الرسالة شبهة على الدين الا وكشفتها، ولا عقدة من عقد المشكلات الا وحلتها، ولكن الشبه تذكر فيها غالبا بطريق الايماء والتلويح، دون الابانة والتصريح، وذلك أدنى ان لا يشك الضعيف، ولا يشتغل القوي عن المقصد الشريف، وقد أشار الى ذلك المصنف في قوله «راميا الى الخلاف من مكان بعيد، حتى ربما لا يدركه الا الرجل الرشيد»

كتب الاستاذ الامام هذه الرسالة في مدة قليلة و بادر إلى طبعها فلما قرأها في الجامع الازهر على الالوف من العلماء ونجباء الطلاب ظهر له فيها أغلاط لغوية ومسائل تحتاج الى إيضاح وكلم جدير بالحذف فكان يكتب ما يراه من التنقيح في النسخة التي يقرأ بها الدرس ويزيد ما يزيد في هامشها، وقد انتقد عليه الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمهما الله) ذكره لمسألة خلق القرآن لانها مخالفة لشرطه في التزام مذهب السلف فأمر بحذف ذلك منها (راجع ص ٣٧ منها) وانتقد عليه حروفا أخرى فأقنعه في بعضها واقتنع منه في بعض. وقد جمع جميع ما صححه في جدول فكان ذلك في سبعين موضعا أو أكثر. وبقي فيها كلمات نادرة قد سها المؤلف عنها مع تصحيحه لمثلها، فأبقيتها على أصلها (*) الا كلمة واحدة في ص ١٣١ ولم أزد فيها من عندي الا الرقم الدال على عدد السور والآيات عند ذكرها

ولما كتب اليّ صديقي حموده بك عبده يأذن لي بإعادة طبع الرسالة اعطاني الجدول فصححت هذه الطبعة معارضة عليه وعلى نسخة المؤلف. وعلقت عليها هوامش قليلة سمعت بعضها منه في الدرس، ولولا انه نهى عن شرحها، ووضع الحواشي لها، لجاز لي أن اكثر من هذه الهوامش، ولكن ما رآه رحمه الله هو الصواب، وما جاء به هو الحكمة وفصل الخطاب، فهذه الطبعة هي المعتمدة وعليها المعول ولا يستغني عنها من طالع الطبعة الأولى فرحم الله الاستاذ الامام، ونفع برسالته الأنام، آمين

محمد رشيد رضا الحسيني

منشئ المنار

(*) مثل تعدية التكليف بالباء واتباعها الاصوليين وغيرهم ومثل لفظ الصدفة

آثار علمية أدبية

مبادئ الاقتصاد السياسي

قد اشتهر بيننا ان الغنى والفقر إنما يكونان بالحظوظ والاقدار ، لامدخل فيهما لعلم المرء وعقله ، ولا لذكائه وسعيه ، بل اشتهر بين الأدباء ان العلم والحجى ، ضدان للثروة والغنى ، وقد نظم أدباؤنا في القديم والحديث كثيرا من الشعر في هذا المعنى تداوله الناس وحفظوه فصارت به المسألة عندهم من القضايا المسلمات ، التي يتوهمون انها من البديهيات ، وكيف لا تكون كذلك عند الجمهور وهي مدعمة بظواهر ما جاء في الدين من اسناد كل شيء الى مشيئة الله عز وجل ، وللعلماء والصوفية فيها من الكلام ما هو أشد تأثيرا في النفوس من كلام الشعراء والادباء . ومما يؤثر فيها عن الامام الشافعي رضي الله عنه من أبيات

لكن من رزق الحجى حرم الغنى   ضدان مفترقان أيّ تفرق

ثم انهم يرون ظواهر الحوادث الجزئية تؤيد هذا الرأي وتثبته اذ يرون مثل فلان باشا وفلان بك يعيشون بالالوف من الدنانير وهم على ما يعرفون منهم من الجهل والغباوة

فاذا قيل لمن يعتقدون هذا الاعتقاد ان لتدبير الثروة علما يبحث فيه عن ينابيعها ومواردها ومصادرها فيعلم الواقف عليه طرق تحصيل الثروة وحفظها وتوزيعها ولماذا كانت تلك الامة غنية وهذه الامة فقيرة ولماذا يتزاحم في البلد الواحد شعبان أو شعوب متعددة فيسبق قوم ويتخلف آخرون — إذا قيل لهم هذا قالوا إن العلم لا شأن له في هذا وإنما هي الحظوظ والاقدار ، ويسردون ما يحفظون من الآثار والاشعار ،

الاقدار هي المقادير والموازين التي أقام البارى بها نظام الكون فهي تقتضي

الاسباب لا تنافيها ، وان اشتهر استعمالها بيننا فيما جهل سببه غالبا ، والحظ في الاصل هو النصيب الذي تناله من الشيء بسعي أو بغير سعي وان غلب استعماله فيما يناله المرء بغير سعي منه اليه ، ولا ننكر ان بعض الافراد ينالون الغنى والثروة بأسباب لا يعرفونها ، ولا يسعون اليها سعيها ، ولا ننازع في تسمية ذلك حظا جاد به القدر ، على ما بيننا و بين أولئك الناس من الخلاف في فهم معنى القدر . وانما نقول في إقناع المنكرين لفائدة علم تدبير الثروة الذي وضع له اسم « الاقتصاد السياسي » : إن الواضعين لهذا العلم والمصنفين فيه والدارسين له والعاملين به يعرفون من أحوال أهل الحظوظ ما تعرفون ، ومنهم من يؤمن بالقدر كما تؤمنون ، ولكنهم مع ذلك يعلمون من أحوال العالم مالا تعلمون ، فضموا علمهم إلى علمكم ، ثم لكم بعد ذلك حكمكم

إذا كنتم تعذرون فيما تحكمون به على ثروة الافراد في كل أمة فلا عذر لكم إذا قستم عليها ثروة الشعوب والامم ، فسيروا في الارض فانظروا كيف صارت الامم التي عنيت بهذا العلم اغنى الامم وأعزها ، وكيف يدخل أفراد منها في بلاد أمة أخرى فلا يلبثون ان يكونوا هم المستقر والمستودع لثروتها ، بل القابضين على روح الحياة المالية والاجتماعية فيها ،

ألا إن أمتنا أحوج الى هذا العلم منها الى جميع العلوم الدنيوية لانه روح جميع العلوم والاعمال ولكننا لانزال مقصرين فيه ، بقدر حاجتنا اليه ، حتى انني لم أرفي لغتنا غير كتابين وجيزين فيه طال العهد على وضعهما ، وارتقى العلم بعدهما ، فصرنا محتاجين الى خير منهما ، وقد أحس بهذه الحاجة محمد فهمي افندي حسين المحامي (المتخرج من عهد قريب في مدرسة الحقوق الخديوية) فحملته الغيرة على أمته وبلاده على وضع كتاب جديد في هذا العلم يستمد مسائله من الكتب الافرنجية الحديثة وقد فعل وسماه (مبادي علم الاقتصاد السياسي) وقد طبع الجزء الاول من عهد قريب فبلغت صفحاته ١٨٤ صفحة وجعل ثمنه عشرة قروش صحيحة فعسى ان يرى من الإقبال عليه ما ينهض بهمته إلى إتمام الكتاب تأليفا وطبعا . وهو يطلب من مؤلفه ومن المكاتب المشهورة . وسننقل شيئا منه تنويها به وإفادة لقراء المنار

الاسلام روح المدنية

﴿ رد على لورد كرومر ﴾

لم يكد ينتشر كتاب لورد كرومر الذي سماه « مصر الحديثة » حتى كان أول ما ترجمته الجرائد المصرية منه كلامه في الاسلام والمسلمين . ووعد بعض الافراد و بعض الاحزاب بتأليف كتب في الرد عليه ولكن قد سبق الجميع الى ذلك صديقنا الشيخ مصطفى الغلاييني البيروتي فبادر الى وضع كتاب في ذلك وطبعه في بيروت في أيام الاستبداد الشديد إذ كان يخشى المرء ان يحاسب و يعاقب على مثل هذا التأليف وعلى طبعه بدون رخصة من نظارة المعارف في الاستانة ولو طلبت الرخصة فيه لما أجيب الطالب الا الى العقاب . وقد بلغ من شجاعة مؤلف هذا الكتاب ان ذكر فيه الاستاذ الإمام (رحمه الله تعالى) ونقل بعض كلامه وشيئا مما يؤثر عنه ونقل عن المنار أيضا وكان يومئ الى ذلك بقوله : قال السيد في المجلة . وقد كان ذكر الاستاذ الامام أو المنار قبل إعلان الدستور في المملكة العثمانية جريمة من أكبر الجرائم وخطرا على من يذكر هذا اللقب « الاستاذ الامام » أو اسم صاحبه « الشيخ محمد عبده » أو المنار او صاحبه ولو تلويحا من أشد الاخطار فشكرا للشيخ مصطفى على شجاعته وعمله . هذا ولم تتسن لنا مطالعة الكتاب ولكننا نرجو أن يكون خيرا مما كتب أكثر أصحاب الجرائد في الرد على لورد كرومر وناهيك بمن يستمد من كلام الاستاذ الامام في الدفاع عن الاسلام ، ومن يصدف عن ذلك ظاهرا ، وان لم يستغن عن الاقتباس منه باطنا ، وثمن الكتاب في مصر خمسة قروش صحيحة عدا أجرة البريد و يطلب من مكتبة المنار فنحث القراء على مطالعته

﴿ تاريخ العرب قبل الاسلام ﴾

كتاب جديد يؤلفه جرجي افندي زيدان المؤرخ العربي الشهير وقد أنجز الجزء الاول منه فاذا هو قد استمد مسائله من الكتب العربية والكتب الافرنجية في اللغات المختلفة . ولبعض الكتب الافرنجية مزية على العربية في هذا الموضوع

بما اكتشفوه من الآثار القديمة في بلاد العرب . وقد اقتبس المؤلف شيئاً منها لا يستغني عن الاطلاع عليه قراء العربية وهو على قلته يصح ان يتمثل فيه بقول الشاعر

قليل ما أمرت به ولكن قليلك لا يقال له قليل

وقد نظرنا في الكتاب نظرة إجمالية فألفيناه حسن الترتيب جامعا لكثير من المباحث النافعة ولكن لم يتح لنا مطالعته لنحكم فيه على علم بما نرجو ان يكون قد جاء به من التحقيق فعسى ان ينتدب بعض من قرأه من أهل العلم والرأي الى موافاتنا بمقال حافل في تقريظه ونقده إظهاراً لقيمته ، وشكرا لفضل مؤلفه ، أما ثمن هذا الجزء الذي صدر من الكتاب فعشرون قرشا مصريا و يطلب من مكتبة الهلال بالفجالة

﴿ عروس فرغانة ﴾

هي إحدى القصص التي جعلها جرجي افندي زيدان منشئ الهلال ملحقة لسني مجلته « تتضمن وصف الدولة العباسية في عهد المعتصم بالله (سنة ٢١٨ — ٢٢٧ هـ) وقيام الفرس لإرجاع دولتهم بالسيف ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية ويتخلل ذلك وصف آداب الاتراك وعاداتهم في أقصى بلادهم ووصف سامرا عاصمة المعتصم وواقعة البذ في حرب بابك وواقعة عمورية في حرب الروم وغير ذلك » وهي تقع في ٢٠٤ صفحات حسنة الطبع وان شهرة هذه القصص في إيداع الفكاهة القصصية المسلية شيئا من الفوائد التاريخية ورغبة القراء فيها مما يجعلها غنية عن التقريظ والثناء وثمن النسخة منها عشرة قروش وأجرة البريد قرشان وتطلب من مكتبة الهلال

﴿ مجلة صراط مستقيم ﴾

صدرت في الاستانة مجلة إسلامية يحررها باللغة التركية طائفة من العلماء وقد كتب الينا مديرها ما يأتي

إلى إدارة المنار

« تعاونوا على البر والتقوى »

شرعنا في نشر مجلة باسم الصراط المستقيم والله الموفق

غرضنا خدمة الدين المبين ولكن حال بلادنا من حيث الكتب والجرائد

حال محزنة . ولم نكن نرى من قبل تلك الآثار المصرية الثمينة وهل كانت رؤيتها من الممكنات ؟ والآثار التي كنا نملكها جعلتها الحكومة السابقة طعاما لمواقد الحمامات . وقد دخلنا منذ الآن في حياة جديدة . أما مجلتكم العلية فهي مشهورة في جميع الكون فنرغب ان يكون لإخواننا مسلمي الترك نصيب من مائدتكم العلمية ونحن مفتقرون في هذا الموضوع لمعاونتكم العلية فنرجوكم ان ترسلوا لنا مجموعة من مجلتكم وان ترسلوا كل مايصدر منها بعد في وقته . وان أنبأتمونا عن الآثار الجديدة المطبوعة بمصر نكن لكم من الشاكرين . واقبلوا فائق احترامنا

(المنار) قد سررنا سرورا عظيما بهذه المجلة ونشكر لمديرها الفاضل حسن ظنه بنا وسنبدي رأينا في منهجها ومقالاتها بعد ان يتيسر لنا ترجمة بعض مقالاتها ثم نكتب لمديرها ان شاء الله تعالى

القسطاس المستقيم

جريدة عربية جديدة أنشئت في دار السلطنة العثمانية (الاستانة) بعد إعلان الدستور . أنشأها الحاج محي الدين افندي كريمة والحاج حسن افندي المجذوب من خيار أبناء بلدتنا (طرابلس الشام) المقيمين في الاستانة وقيمة الاشتراك فيها نصف ليرة عثمانية في بلاد الدولة العلية و ٦٠ قرشا في مصر و ١٥ فرنكا في البلاد الأجنبية

فنتمنى لها من الرواج والانتشار في هذه الديار وغيرها ما يبعث أصحابها الى تكبير حجمها وتكثير فوائدها

البدع والخرافات
والتقاليد والعادات

« كتاب أبي معشر »

كتب الينا من سنغافوره وجاوه أن هذا الكتاب منتشر في تلك البلاد يجلبونه اليها من مصر وان بضاعة المتحلين التنجيم والعرافة رائجة به وسألنا الكاتبون عن رأينا فيه وأرسلوا الينا نسخة منه لننظر فيها ان لم يكن سبق لنا الاطلاع عليه فنقول بعد الاطلاع على عدة ابراج منه

اننا لم نر في لغتنا كتابا أجمع للمفاسد والمضار منه، فهو مفسد للعقل والدين والآداب، محرض على الفسق والفجور، مقطع للروابط بين الازواج والاهل والجيران، وهو على ذلك كله خال من الفائدة واللذة

أما كونه مفسدا للعقل فنعني به انه يمد الضعيف في غيه فيزيده فسادا بقبوله لما وضع له من بيان ما يعرض للمرء في مستقبل حياته الدنيا .

لو فكر من له مسكة من العقل أقل التفكير في الطريقة التي يبين بها هذا الكتاب حوادث المستقبل لجميع البشر في ٢٤ فصلا منها ١٢ برجا للرجال و١٢ برجا للنساء — لرأى ان ذلك باطل بالبداهة فان من مقتضى ذلك ان كل من اتفقت اسماؤهم وأسماء أمهاتهم وكل من اتفق العدد الحاصل من جمع اسمائهم وأمهاتهم بعد طرح عدد الاثني عشر منها حتى تبقى اثني عشر او أقل يكونون متفقين فيما يعرض لهم من الامور والاحوال في اجسامهم من مرض وصحة وحياة وموت وفي ازواجهم وأولادهم وكسبهم وغناهم وفقرهم واخلاقهم وآدابهم ومكانتهم في الناس وفي غير ذلك لافرق بين أحد منهم الا من ثلاثة وجوه فان لكل برج عنده ثلاثة وجوه يعبر عنها بقوله الوجه الاول من نظر اليه كوكب كذا يكون كيت وكيت

فللعاقل أن يجمع أسماء كثير من الملوك والامراء والعلماء والاغنياء والفقراء والصناع والزراع والعمال والخدام – أسماءهم وأسماء أمهاتهم بحساب الجمل على طريقة ابي معشر ويعرضها بعد الاسقاط على ابراجه وينظر بعد ذلك فيما يشرحه من شؤونهم فبهذه الطريقة يظهر له بطلان ما في ذلك الكتاب ان كان ممن يشتبه في بطلانه . ولا حاجة الى شرح ذلك وتفصيله فانه يكاد يكون من البديهيات الأولية وإنما يروج ما فيه على ضعفاء العقول من العوام والنساء لأنهم لا ينظرون في طريقته نظرة عامة للبحث فيها هل هي معقولة أم لا وإنما يفكرون فيما يلقى اليهم من كلامه المجمل العام الذي ينطبق على بعض أحوالهم مع الايمان والاذعان التقليدي بأن في أمثال هذه الكتب أنباء عن الغيب يتوارثها الخلف عن السلف ويسلمون بها تسليما

أمثال هؤلاء الاغرار تسهل مخادعتهم فلو قرأت لاحدهم البرج الذي يؤخذ من اسمه واسم أمه بطريقة ابي معشر أو غيره من البروج لأخذ من كل ما يقرأ له شيئا ينطبق على بعض أحواله ووجد فيه شيئا لا ينطبق عليها ولكنه لانتظاره ما يمكن ان يصدق عليه يتشبث ويفطن له ويغبى عن غيره ويظن انه غير مقصود به

واما إفساده للدين فهو مشترك بين إفساده للعقل باعتقاد الباطل الذي ورد النهي عنه في الاحاديث الصحيحة التي تسمي تصديق المنجمين والعرافين كفرا وبين إفساد الآداب التي يأمر الشرع بالمحافظة عليها والتحريض على الفسق وتقطيع الروابط بين الازواج وغيرهم

المعروف من أمر النساء أنهن أحرص على البحث عن مستقبل حياتهن من الدجالين والعرافين والمنجمين وانك لتجد في بروجهن من هذه المفسدات اكثر مما تجده في بروج الرجال

مثال ذلك انه يقول للمرأة انها تتصل بكثير من الرجال بالحرام وانها تتزوج عدة أزواج وانها تكون سعيدة مع الاخير منهم وانها تكون شديدة الحظوة والقبول عند الكتاب أو الحكام . . . فقل لي بعيشك كيف تكون حال المرأة التي تعتقد صدق هذا الكتاب اذا سمعت من قارئه عليها أمثال هذه الانباء ؟ ألا يكون ذلك مجرئا لها على العشق وعلى بغض زوجها . . . ؟

يظهر لي ان واضع هذا الكتاب كان حريصا على هذه المفاسد متعمدا لها وانه كان من كتاب الدواوين أو صديقا لهم لانه يرغب النساء فيهن . ومن خبثه الدال على تعمده انه يقول عن بعض النساء اللواتي يحرضهن على الفسق انهن يتبن بعد ذلك ويوفقن للحج الى بيت الله الحرام فانه بذلك ينال من افساد العفيفة المتدينة ما كان يعز عليه أن يناله لو لم يخبرها بأنها ستوفق بعد ذلك الى ما يكون كفارة لذنوبها

وقس على هذه المفسدة ما يصفه الكتاب من أحوال أعداء المرأة ومن يكيد لها ويتربص بها الدوائر فان ذلك يذهب بخيالها مذاهب في التطبيق على من تعرف من أهلها وجيرانها ومتى اعتقد الانسان ان احد الناس عدو له فانه يحمل اكثر ما يراه منه على ما يقوي اعتقاده فيه حتى انه اذا سمعه يثني عليه اعتقد انه يتهكم او يعرض بذمه

وجملة القول أن هذا الكتاب من أقبح الكتب وأشدها ضررا ولا شك في حرمة طبعه وبيعه فما قولك بالاكتساب به ألا يكون من كبائر الاثم والفواحش ؟ بلى وان من قدر على منع طبع هذا الكتاب أو بيعه أو انتحال التنجيم به ولم يفعل فهو آثم ويغلب على ظني ان اهل سنغافوره واهل جاوه لو بينوا لحكومتيهم ما في هذا الكتاب من الدجل والإفساد للآداب العامة ومخالفة الدين وطلبوا منع الدجالين من التنجيم به لأجابتهم الحكومة الى ذلك

ولو نبهت الحكومة المصرية مثل هذا التنبيه لرجي أن تحاكم الذين يطبعون هذا الكتاب وتمنعهم من بيعه فعسى أن ينتدب لذلك بعض أهل الغيرة وأن تحمل الجرائد اليومية على المتجرين بهذا الكتاب وأمثاله وتطالب الحكومة بمجازاتهم على ما يمنعهم منه القانون المانع لكل ما يخالف الآداب العامة

باب الأخبار والآراء

﴿ سفر صاحب المجلة ﴾

سافر صاحب هذه المجلة من القاهرة قاصدا سوريا لزيارة الاهل والاقربين، والاصدقاء والمحبين، الذين حال بيننا و بينهم الاستبداد إحدى عشرة سنة، كان ذكر اسمه فيها خطرا عليهم، يهددهم به من يشاء من أحد منهم، قائلا: إما أن تفعلوا كذا أو تتركوا كذا وإما أن أبلغ الحكومة بأنكم تكتبون إلى صاحب المنار أو يكتب هو اليكم أو انكم على رأيه واعتقاده في حاجة الدولة والامة الى الاصلاح ونحو ذلك

سافرنا قبل صدور هذا الجزء واننا نكتب هذا في القطار بين القاهرة و بورسعيد. وسنقيم في تلك الديار الى ما بعد عيد الفطر ثم نعود منها وندخل مصر إن شاء الله آمنين

وقد جعلنا أخا لنا وكيلا عنا في إدارة المجلة ومطبعتها وعهدنا الى إدارة البريد المصري أن تعده وكيلا عنا وتدفع له كل ما يرد بإسمنا من الرسائل والدراهم. فعسى ان تكون غيرة قراء المنار الاخيار على إدارة المجلة في غيبتنا أعظم مما كانت عليه أيام كنا فيها وأن يرسلوا اليها ما وجب عليهم من قيمة الاشتراك فان العمل فيها وفي المطبعة لايزال مستمرا وإنا لنعدّ من يرسل قيمة الاشتراك الى المجلة في غيبتنا، من أفضل أهل الذوق والوفاء لنا، بل نعده ذلك جميلا يذكر، وفضلا يشكر.

﴿ مكاشفة في أول ولاية السلطان عبد الحميد ومدتها ﴾

كان كثير من أهل الاستانة وغيرهم من خواص العثمانيين يتحدثون بأن بعض المنجمين أو الصالحين بشر السلطان عبد الحميد بانه يكون ملكا مدة ثلاث

وثلاثين سنة . وقد حدثني بعض كبار رجال الدولة في سياق الكلام على اعتقاد السلطان بالمشايخ الذين يدعون الكشف أو الجفر والزايرجه كأبي الهدى وعنايته بالشيخ ظافر - حديثا غريبا يرويه عن السلطان نفسه وملخصه انه كان في المدينة المنورة رجل يعرف بأمين افندي الطرابزوني يشتغل بالجفر ويخبر بأمور المستقبل فأرسل اليه السلطان يتعرف منه هل يكون سلطانا فقال انه يكون سلطانا في سنة ١٢٩٣ قال هذا الشيخ ظافر وكان هو الواسطة بينهما فلما انبأ الشيخ ظافر عبد الحميد (افندي) بذلك كبر عليه ان يصدقه لأن عمه السلطان عبد العزيز كان في صحته وعافيته وكذلك أخوه مراد افندي الذي هو ولي العهد وكان ذلك في أول تلك السنة ولكن لم يلبث ان صدق كلامه كما هو معلوم . قال الراوي هذا معنى ما سمعته بأذني من السلطان عبد الحميد وسمعت بعض الكبراء في الاستانة يزيدون في الرواية قائلين ان أمين افندي حدد مدة ملكه بثلاث وثلاثين سنة فقال يملك أو يحكم ٣٣ سنة

ومن يتذكر أن السلطان ولي في شعبان سنة ١٢٩٣ يعلم ان المدة قد تمت بحسب السنين الهجرية ويحتمل ان يقال في تأويل الشق الثاني من الخبر ان السنة الثالثة والثلاثين قد كانت خاتمة لحكم السلطان بنفسه وقبضه على زمام السلطة بيده فان إعلان الدستور قد حول الحكم الى الوزارة ومجلس الامة . ولعل السلطان نفسه يفكر في هذا التأويل فينشرح له صدره إذ كان ممن يصدق أمثال هؤلاء القائلين لا سيما بعد ان صدق الخبر فيما يتعلق بأول الولاية . وأما من لا يبالي بهم صدقوا أم كذبوا فلا يحتاج الى تأويل . وقد ذكرت هذا الخبر قبل إعلان الدستور لكثيرين وبعده لكثيرين منهم أصحاب المقطم .

﴿ الاحتفالات بالدستور العثماني ﴾

احتفل العثمانيون عامة بالدستور في بلادهم وفي كل بلد يضم طائفة منهم في مشارق الارض ومغاربها وقد كان السرور بالدستور مدرسة للتربية والتعليم تعلم فيها ألوف من العثمانيين الخطابة وتربوا على الوفاق والمحبة ولكنها كانت مدرسة لا كالمدارس :

كان تعليمها يشبه الوحي وتربيتها تشبه الآيات والمعجزات فانها قد علمت الخلق الكثير في يوم واحد وربت الشعوب المختلفة في الاجناس واللغات والاديان والمذاهب والتقاليد والعادات في ساعة واحدة

لو صافح المسلمون النصارى في سلانيك والاستانة ومصر فقط لكان لقائل أن يقول ان ذلك أمر طبيعي حصل بالسعي في الزمن الطويل فان إحرار العثمانيين الذين على هذا الرأي كثيرون جدا في هذه البلاد وهم يسمون له من قبل . ولو وافقهم مثل أهل بيروت والشام لقال ذلك القائل ان أهل هذين البلدين على مقربة من أهل هاتيك البلاد فيما ذكر من وجود الاحرار العقلاء المحبين للاصلاح فيهم ومن وقوفهم في أقرب وقت على ما كان من اخوانهم في هاتيك الامصار التي سبقتهم عملا وسعيا الى ذلك فلم يلبثوا ان جاوروهم او اتبعوهم

ولكن ماذا يقول ذلك القائل في موافقة عمل أهل جدة (ثغر الحجاز) وأهل البرازيل وأهل الارجنتين لعمل أهل الاستانة وسلانيك ومصر والشام والعراق في وقت واحد وهم لا يعلمون من أمرهم في ذلك شيئا ؟

كتب اليَّ وجيه من مسلمي جدة كتابا يشرح فيه ما كان من أمر أهلها في الاحتفال بالدستور على الرغم من والي الحجاز راتب باشا الظالم الملحد في الحرم الذي كان يومئذ فيها كاتما لنبأ الدستور ثم مثبطا لهم عن الاحتفال به بعد ان أعلنته للناس جمعية الاتحاد والترقي . فقد قال الكاتب ان المسلمين والنصارى قد تزاوروا وتهانوا في ذلك الاحتفال وطفق كل فريق يهنئ الآخر . وذكر أمورا أخرى منها حسن تأثيره في نفوس الاعراب ومنها بعض مفاسد الوالي واتفاقه مع الامير الشريف . وقد أوقفنا على هذا الكتاب بعض محرري الاهرام والمقطم فلخصوه في الجريدتين

وكتب الينا جورج افندي حداد مؤسس شعبة جمعية الشورى العثمانية في البرازيل كتابا في الاحتفال الذي قام به العثمانيون في سان باولو قال فيه : إن الأرمن الذين هنا لم يكونوا يكلمون السوريين ولا يعاشرونهم فلما جاء نبأ الدستور أقبل بعضهم على بعض متعارفين متوادين وانتظم موكب الاحتفال من المسلمين والدروز والنصارى من الارمن والسوريين وغيرهم . فهل يمكن ان يكون هذا

وذاك بتواطؤ أو تقليد ؟ وذكر انه اجتمع للقيام بالاحتفال نحو ألفي سوري ومئة أرمني في أعظم مرسح في سان باولو وكانت الموسيقى العسكرية تشب من نار حماسهم وتضاعف سرورهم وجذلهم ثم انبرى للخطابة فريق منهم وخطب هو أيضا بالاصالة عن نفسه و بالنيابة عن إخوانه الاحرار مؤسسي جمعية الشورى العثمانية في مصر قال : « ثم سار الموكب تتقدمه الموسيقى وهو رافع راية عثمانية كبيرة جدا صنعت لهذا الاحتفال خاصة الى دار القنصلية العثمانية ومذ ابصرهم القنصل رفع الراية العثمانية وجعل يحييهم بها وقد صعد اعضاء لجنة الاحتفال الى مكان القنصل وهنأه بعضهم وقدم اليه عريضة طولها ٨٠ سنتمترا وعرضها ٥٠ فحواها الشكر للسلطان على رضاه باعادة نشر القانون الأساسي ونيل شعبه للحرية و بينا كان القنصل يخاطب الاعضاء طلب الجماهير منه ان يشرف عليهم من إحدى النوافذ و يظهر ان الرجل من أرباب الحزب المحافظ وممن تأصلت في نفوسهم الكبرياء لانه لم يحفل بالطلب ولم يلب النداء فهاج الناس واضطربوا وصاحوا ان مولانا السلطان خاطب الشعب من النافذة مظهراً الرضى والسرور فكيف تأبى ذلك وانت من صغار مستخدمي دولتنا العلية ؟ فاضطر القنصل لمخاطبتهم والاعتذار اليهم ثم تركوا دار القنصلية وطفقوا يطوفون بالشوارع العظيمة والحاصل ان هذا الموكب المؤلف من هذه الفرق التي كانت تحتدم في نفوسها نار العداوة والبغضاء وكره الواحدة منهن للاخرى كان من أجمل المناظر التي تسر بها النفوس وتغتبط لها القلوب »

وجاء في جريدة أبو الهول البرازيلية في ختام كلامها عن هذا الاحتفال ما نصه:

« اهتمت الصحافة البرازيلية والطليانية بالمظاهرة وذكرتها بالثناء والتكريم وجرائدنا العربية لم يهتم منها بالحفلة الا الميزان . فالافكار ذكرتها بأقل مما تذكر عن حفلة اكليل وطلبت من الله في الختام ان يجعل الحرية طويلة المكث في ديارنا ! والدستور ثابت القرار في وطننا ! ؟ وصاحب الافكار لم يحضر الحفلة وهكذا محرر المنارة الذي اهتم بالمظاهرة الخارجية أكثر من المظاهرة الداخلية اعتقاداً منه ان الاخيرة غير لازمة !

وقد اهتم جناب الاديب الياس افندي مسرة بالامر وطير الخبر تلغرافيا الى

جريدته في باريس فاستحق الشكر . وتكرم جناب الشيخ سابا الخوري نزيل الريو فأفاد اللجنة ان شركة هافاس نقلت الخبر إلى لندن ثم الى بقية العواصم الكبيرة

وقد شارك إخواننا الارمن نزلاء سان باولو بهذا الاحتفال الذي كان فريدا في عظمته ويتيما في محاسنه

وفي الختام نثني بلسان الحرية على اللجنة التي رتبت هذه المظاهرة ونشكر الخطباء الذين حركوا في صدور الجمهور الحماس ونهنئ الشعب السوري في هذا العيد الكبير عيد الحرية والمساواة »

ولا تزال جرائد أمريكا الشمالية والجنوبية تأتينا وهي ملأى بذكر الاحتفال بالدستور في معظم الولايات والارجاء الامريكية واشتراك جميع الطوائف والملل في ذلك وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه في صدر هذا المقال

وكتب الينا من المفازة في بلاد السودان محمد افندي كمال الدين عدره سر تجار البندر يقول انه طاف بالناس بعد علمه بنبأ الدستور ودعاهم إلى منزله للاحتفال ببعثة الدستور من قبره فلبي دعوته خلق كثير من السودانيين وأشخاص من السوريين الموظفين في الحكومة فتلا عليهم خطابا ألمّ فيه بماضي الدولة المظلم وما يرجى لها من النجاح والفلاح في المستقبل وشكر لرجال الاحرار الذين كانوا مبثوثين في البلاد الحرة ومشتتين في اصقاع المعمور يسعون فيما اختطوه لانفسهم وجعلوه نصب أعينهم حتى رجعوا إلى بلادهم والوية النصر تخفق فوق رؤوسهم وجنود الظفر تحيط بهم

ثم قام بعده طاهر أفندي الخانجي باشكاتب المركز وشكر الحاضرين تلبيتهم الدعوة للاحتفال بالدستور وطلب من صاحب الدعوة بلسانه ولسان الحاضرين ان يكتب لرئيس الاحرار مهنئا بهذا الفوز العظيم فأجاب الجمهور بأنه يعرف من رجال الاحرار صاحب المنار وانه سيكتب اليه بما رغبوا فهتفوا جميعهم للمنار وبعد ذلك انفرط عقدهم وهم مسرورون بهذه الحال شاكرون للداعي إلى الاحتفال

احتفال الارمن بذكرى شهداء الحرية العثمانيين

في اليوم الثالث من هذا الشهر احتفلت طائفة الارمن في كنيستها بالقاهرة باحياء ذكر شهداء الحرية من جميع العثمانيين . فحضر الاحتفال خلق كثير من العثمانيين المقيمين بمصر ومن المصريين حتى اكتظت بهم الكنيسة على سعتها وبقي جمهور عظيم في رحبتها . وقد أقيم أمام محراب الكنيسة (المذبح) دكة كبيرة على جانبيها رايتان سوداوان بينهما راية بيضاء كتب عليها « اكرام شهداء الحرية العثمانيين » ووضع عليها مقاعد القسيسين والخطباء ، ووقف من دونها جوقة من بنات المدرسة الارمنية كنَّ يلقين بين كل خطبة وأخرى نشيدا مؤثرا وضع لهذا الغرض

افتتح الحفلة عظيم القوم وأسقفهم وتلته فتاة أرمنية بخطبة أحسنت القاءها فحسن وقعها وخطب بعض فضلاء الارمن بالارمنية وبعضهم بالتركية فأحسنوا وأجادوا وصفق لهم القوم تصفيقا . وخطب الدكتور شرف الدين بك أحد مسلمي الترك الاحرار وهو من أفضل من عرفنا أخلاقا وآدابا فذكر ما كان بين المسلمين والارمن من المودة قبل حوادث الارمن المشؤمة المعروفة حتى كان مما قاله ان المسلم كان يدعى الى الخدمة العسكرية فيذهب اليها تاركا امرأته وأولاده وأملاكه الى جاره الارمني يتعهدها في غيبته بما يجب كما كان الارمني يفعل مثل ذلك اذا احتاج الى مغادرة مكانه لامر ما . ثم ألمَّ بذكر ما جرَّ اليه الاستبداد من تلك الحوادث المشؤمة واستطرد منها الى ذكر الاصلاح الذي نشده الاحرار فأصابوه وقال ان المسلمين من الترك وسائر العثمانيين ليسوا متعصبين كما يصورهم بعض الناس فان أول حركة أتوا بها بعد أن نالوا الحرية في عاصمتهم هي زيارتهم لاضرحة الذين قضوا ضحية للظالمين .

وبعد أن أتم خطابه التفت الى أسقف الارمن ومن بجانبه من القسيسين فعانقهم واحدا بعد واحد فصفقت الجماهير لهذا المنظر أضعاف تصفيقهم الكثير للخطيب ثم خطب الدكتور برتوكاليس بك الرومي العثماني باللغة الفرنسية فالدكتور

فارس افندي نمر بالعربية فأحسنا واجادا وكان كل اولئك الخطباء قد عهد اليهم بالخطابة وكتبت اسماؤهم في البرنامج المطبوع في بيان ترتيب الاحتفال

كادوا يختمون الاحتفال بعد خطاب فارس افندي نمر لولا ان اقترح بعض المصريين الحاضرين على صاحب هذه المجلة الصعود الى الدكة والقاء شيء مما يفتح عليه به . وقد تمنعت معتذرا بان الاحتفالات المنتظمة التي يعين فيها عدد الخطباء وموعد الالقاء لا يحسن ان يتطفل عليها ففطن لذلك بعض العثمانيين من الأرمن وغيرهم فاختطفوني من مجلسي وأصعدوني الى دكة الخطابة فتلقاني الاسقف والقسوس بالحفاوة وبعد العناق التفت الى الجمهور إجابة لما اقترحه المقترحون وقلت والتصفيق والهتاف يكاد يبلغ عنان السماء ماخلاصته :

قد رأيتم أيها السادة اني اختطفت من مكاني الى هذا الموقف الذي أثر في وجداني تأثيرالم يدع لتصور الكلام وتدبيره مجالا فمهما سمعتم مني فأنا معذور بالتقصير فيه

قد رأيتم اني عانقت هؤلاء الاحبار والقسيسين وأنا رجل من رجال الدين الاسلامي ولا بدع في ذلك فان شيخنا الاكبر شيخ الاسلام قد سبقني الى ذلك فعانق البطرك في دار السلطنة وان القانون الاساسي الذي نلنا به هذه المساواة التي نحتفل بها لم ننله الا بمساعدة شيخ الاسلام الحال فقد روي لنا ان السلطان كان يريد قمع الحركة العسكرية الطالبة للدستور بالقوة فاستفتى شيخ الاسلام في ذلك فلم يفته بل قال ان قتالهم غير جائز شرعا لانهم يطلبون طلبا شرعيا . وقد كان أحد مشايخ الاسلام من واضعي هذا القانون مع مدحت باشا واخوانه فهذا القانون قد وضع بفتوى من أحد شيوخ الاسلام وأعيد الآن بمساعدة شيخ الاسلام فهو موافق للاسلام

لا أقول هذا تقليدا للشيخين فاني أقول ماأقول في الاسلام عن علم وبصيرة ويعلم كثير من الارمن الحاضرين اني من مؤسسي إحدى جمعيات الاحرار التي سبقت غيرها الى التأليف بين جميع العثمانيين بالفعل قبل أن تفكر في ذلك جمعياتنا في أوروبا بل ان هذا الفقير هو رئيس اللجنة المؤسسة لهذه الجمعية التي من بعض أعضاء ادارتها أحد خطباء الارمن النجباء في هذا الاحتفال

وانما احتججت بشيخ الاسلام السابق وشيخ الاسلام الحال تنويها بفضلهما

وإقامة الحجة على من يزعمون ان المسلمين متعصبون أو ان دينهم ينافي الحرية والمساواة – وعلى بعض الجاهلين من المسلمين الذين يظنون انهم بالتعصب الذميم يخدمون الدين وإنما هم يجنون عليه بذلك

ثم انتقلت الى الكلام عن المساواة التي ابتهج بها العثمانيون كافة وبينت انها مما جاء به الاسلام ثم قلت :

يقولون ان فرنسا هي أم الحرية والمساواة . نعم ولا ينكر فضل فرنسا أحد ولكن العثمانيين أجدر من الفرنسيين بالفخر بالمساواة . ان فرنسا أمة واحدة ، جنسها واحد ، دينها واحد ، مذهبها واحد ، لغتها واحدة ، تربيتها واحدة ، فأي غرابة في طلب عقلائها وفضلائها المساواة بين أفرادها بعد ان عرفوا ما لهم على حكومتهم وما عليهم لها بل ما ينبغي ان تكون عليه وهم متفقون في هذه الوحدات كلها ؟ لا غرابة ولا عجب

اما نحن العثمانيين فاننا قد جمعنا من اشتات الاجناس المتفرقين في كل شيء مالم يجتمع في مملكة اخرى . نحن متفرقون في الاجناس والانساب ، متفرقون في اللغات ، متفرقون في الدين ، متفرقون في المذاهب ، متفرقون في طرق التربية والتعليم – أو نقول في الجملة انا متفرقون في كل شيء يتفرق فيه الناس . فان كنا على هذا كله نطلب المساواة ونحتفل بنيلها في المعاهد العامة والمعابد الدينية فلا شك ان في هذا مجالا للفخر وموضعا للعجب

وقد يتساءل عن سبب ذلك ويظن انه مخالف لقوانين الاجتماع الانساني لاسيما بعد أن برّح الاستبداد بنا تبريحا زاد في مسافات الخلف بين الطوائف والملل اتساعا وملأ القلوب إحنة وبغضاء .

ولكن المتأمل في ذلك، يرى له سببا طبيعيا ظاهرا وهو ذلك الاستبداد الذي زاد في التفريق والتمزيق ، ذلك الاستبداد نفسه هو الذي مزقنا أولا ثم جمعنا ثانيا ،

كيف كان هذا ؟ إنما كان بالمساواة في الظلم وتعميم الاستبداد فلولا ان الاستبداد كان عاما واقعا على جميع العثمانيين بالمساواة في الجملة لما كان الاندفاع إلى طلب المساواة بالدستور عاما

كان ظلم الاستبداد واقعا على رأس المسلم والنصراني وغيرهما ، كان عاما شاملا للتركي والعربي ، والارمني والكردي ، والالباني والرومي ، فهذه المساواة هي التي جمعت كلمة الاحرار العقلاء من جميع هذه الطوائف على تمني المساواة في العدل الذي قرره الدستور ، وهو الذي نهض بهمة العاملين من هؤلاء الاحرار الى طلب ذلك بكل وسيلة ممكنة ، وهو الذي هز أريحية جميع العثمانيين للاحتفال بالدستور بعد الظفر به بسعي جمعياتهم وقوة ضباطهم وجيشهم — فاذا كانت المساواة في الشر قد أدت الى هذا الخير فما أعظم فائدة المساواة وما أعم بركتها : فحيا الله المساواة

فنحن العثمانيين جديرون بالفخر بالدستور اذ غلبنا الاهواء والموانع الناشئة من اختلافنا حتى نلناه ، جديرون بالاتفاق على الاحتفال به واقامة الاعياد العامة له ، جديرون بالمحافظة عليه ، جديرون بالتنويه بالاحرار الذين نجحوا في نيله ، وبالدعاء والذكر الحسن لمن مات منهم شهيدا في سبيله

ثم اعتذرت عن الاطالة بذهاب الوقت المعين وبما ألمّ بالحاضرين من الجوع والسآمة . وقد كان لكلام هذا العاجز من حسن الوقع والتأثير فوق ما يستحقه . دل على ذلك ما ظهر على وجوه الحاضرين ولما كان من شدة التصفيق وتكرره ، ثم التهاني التي سمعتها في الكنيسة وبعد الخروج منها ، في ذلك اليوم وبعده بأيام ، وكان اكثر المهنئين تلطفا في التهنئة واطراء في الثناء أولئك الخطباء البلغاء الذين سبقوني بخطبهم المفيدة كالدكاترة شرف الدين بك وبرتوكاليس بك وفارس افندي نمر حتى قال هذا الاخير ان تأثير هذه الوقفة أعظم من تأثير المنار في عشر سنين أي فيما يتعلق بمشرب المنار في التساهل والدعوة الى الوفاق والوداد بين المسلمين وغيرهم . وممن كرر لنا التهنئة بذلك الدكتور نجم الدين بك عارف من فضلاء الترك المقيمين بمصر والعارفين بالعربية وجمهور أحرار الارمن بل كان ابتهاج هؤلاء عاما فنسأل الله تعالى أن يديم علينا معشر العثمانيين نعمة الوفاق والتوفيق لحفظ الدستور والاستفادة التامة منه .

الصحف في البلاد العثمانية

لم تكد الاحتفالات تنتهي في عاصمة السلطنة وسائر بلادها، حتى طفق أهل العلم والفضل يمدون الجرائد بآرائهم وأفكارهم، وانبرى الادبيات في الاستانة خاصة للكتابة، بعدان وقفن ذلك الموقف المشهود في الخطابة، فأكد لنا الخبر الخبر وهو ما كنا نسمعه عن الارتقاء الأدبي العظيم في الاستانة وغيرها من ولايات الدولة ولا مراء في ان هذا الانقلاب الاخير، نتيجة ذلك الارتقاء الكبير.

تسابق الناس الى طلب إنشاء الجرائد والمجلات ولا سيما في الاستانة حتى بلغ عدد ما أنشئ فيها وحدها حتى الآن مئتين وعشرين ما بين جريدة ومجلة وقدصدر في بقية البلاد مايقارب ذلك ومن ذلك ثماني جرائد هزلية مصورة رأيناها معتصمة بحبوة النزاهة والادب بعيدة عن المجون وسخيف الهزل ولاريب في ان اعمال المرء هي مرآة لاخلاقه ينطبع فيها مايحمد وما يذم وعسى ان تكون هذه الجرائد الهزلية في مسلكها الادبي قدوة لكثير من جرائدنا الكبرى التي أصبحت مجموعة للشتائم والتفنن في أساليبها حتى صار كثير من الادباء يصدفون عن قراءة الجرائد العربية

رأيت في جريدة « قلم » إحدى الجرائد التي نوهت بها في صدر هذا المقال رسماً أثر فيَّ تأثيراً لم أعرفه منذ وجدت، أحدث في فؤادي اضطرابا، وفي جسمي رعدة عظيمة، وقشعريرة قوية الشكيمة، حتى كدت لا أملك نفسي على دفع البكاء ثم تلا ذلك انكماش وسكون، وفتور وذهول

ذلك الرسم يمثل هيكلا منتصبا من العظام يحكي رسوم علماء التشريح (Physiologie) التي توضع للدلالة على اعضاء الانسان، لا لما وضعه صاحب الجريدة وهو تلاوة العفو على هذا الهيكل من السلطان ! ! ! يرى الرائي ذلك الهيكل والأداهم والقيود مطوقة يديه ورجليه كأنه من بقايا المغضوب عليهم من نيرون العاتي الروماني وأمامه رجل يتلو عليه نبأ العفو عن السياسيين ! فكأن الرسم يقول له : اعزب عني فقد جئت بعد وقتك بزمان طويل وما أكثر الذين ذاقوا من وبال حكومة الظلم السابقة ما يجعل هذا الرسم ينطبق عليهم تمام الانطباق

ورأيت رسما آخر يمثل سجينا اخذت عليه السنون ، واذاقه الظلاّم عذاب الهون، فتبدلت خلقته، وتغيرت سحنته، وانسدل شعره على كتفيه، وملأت لحيته صدره، وطالت اظفاره ، حتى صدق عليه قول عنترة في الاسد : « له لبد اظفاره لم تقلّم » وما كانت حياة أبي الاحرار مدحت باشا في منفاه (قبر الاحياء) الا كحياة هذا السجين

ظهرت الجرائد في حياتها الجديدة فرأينا فيها المباحث المستفيضة في السياسة والعمران والاجتماع وكانها تدل على اختبار منشئيها، وسعة علم كاتبيها، و بعد غورهم في السياسة، وحسن أسلوبهم في استمالة الدول، ولاسيما صديقي دولتنا القديمتين انكلترا وفرنسا، حتى مالتا الينا وقرظتا احرارنا أحسن تقريظ، وحتى أصبح أحد وزراء فرنسا من قبل يقول في خطبة له : « ان احرار تركيا أعظم من رجال الثورة في فرنسا » وناهيك صدور هذا القول من فرنسي دع انه من مشهوري رجال السياسة لان الفرنسي يملأ ما ضغيه فخرا برجال الثورة، ويعترف بأنهم فوق كل البشر، بل أصبح ساسة الانكليز يكتبون عنا مثل الفقرة الآتية من مقالة لجريدة الدايلي تلغراف الكبرى : « وأكبر واجب على انكلترا في الحال الحاضرة ان تساعد بكل قواها رجال الاصلاح في السلطنة العثمانية وتراقب مراقبة حبية عمل أية دولة تحاول بذر بذور الشقاق في البلقان أو أي عمل يراد به مناوأة رجال تركيا الفتاة في شؤونهم » واذا لم نجن من صداقتنا لهاتين الدولتين الكبريين فائدة الا صدها لباقي الدول عن عرقلة مساعينا وايقاف سير أعمالنا لكانت خير فائدة

كانت الجرائد قبل هذا الانقلاب تكتب بغير اقلام أصحابها ، وأريد بذلك انها كانت تكتب ما يراد منها من اطراء أعمال الحاكمين، وتقديس البغاة الظالمين، لا ما تريد من المباحث التي تعود بالنفع والخير على البلاد والعباد ، على ان كثيراً من أصحاب الجرائد كانوا مغبوطين بتلك الحال التي جعلتهم في مصاف الاغنياء والعظماء — عظماء ذلك العصر المظلم الذي كانت العظمة فيه عبارة عن الخيانة والجاسوسية والوساطة بين الحاكمين والمحكومين لهم بالرشى وأكل أموال الناس بالباطل

ولكن جرائد الاستانة كانت على شدة المراقبة والسيطرة عليها تكتب في شؤون الزراعة والصناعة والادب وما في معنى ذلك مما لا علاقة له بالسياسة كل

مفيد ، اما جرائد سوريا و باقي الولايات فكانت دون اخواتها في الاستانة في المباحث ، وأوغل منهن في تقديس السلطة الجائرة ، والفئة الباغية الخاسرة ، ثم لا تزال بعد التمتع بالحرية متخلفة عنها بمراحل ، فعسى ان تغذ في سيرها ، وتجتهد في إدراك شأوها ، فلا تضع نفسها منها موضع الظالع من الضليع ، ورجاؤنا كبير في الذين عقدوا النية على إنشاء جرائد جديدة في تحقيق الأمل كصديقنا الشيخ أحمد حسن طبارة الذي أصدر جريدته (الاتحاد العثماني) وصديقنا عبد الغني افندي العريسي فانه عزم هو وحسن افندي بيهم الشهير على إصدار جريدة يومية سماها (المفيد) واذاع صديقانا جرجي افندي يني وأخوه صموئيل افندي نشرة ذكرا فيها انهما سينشآن مجلة علمية أدبية سياسية دعواها المباحث فسرنا هذا النبأ لأن الكاتبين ضليعان بما انتدبا له



استغرقت المباحث السياسية اقلام الكتاب حتى يكاد من ينظر في جرائد الاستانة في هذه الآونة لا يرى فيها مقالة أدبية أو بحثا اجتماعيا أو اخلاقيا الا فيما ندر وهم لم يتناولوا المرأة في بحثهم البتة لذلك انبرت عاطفة جلال احدى فضليات بنات الاستانة وكتبت مقالة تستنكر فيها ذلك وقد بحثت في شأن المرأة بحثا مفيدا ودعت الكتاب الى مشاركتها في موضوعها ، نشرت المقالة في جريدة « ثروت فنون » بعنوان « اليس لنا نصيب في الرقي » وترجمتها « الجريدة » بالعربية واننا ننقلها عنها بنصها مع تصحيح قليل قالت :

« نقرأ الجرائد فلا نراها تكتب في المرأة الا شذرات قليلة وبعض مقالات يكتبها بعض السيدات ، فنستغرب من كتابنا تركهم للمباحث الجليلة في رقي المرأة على أنهم يكثرون من كتابة المقالات الضافية الذيول الكبيرة الحواشي في اصلاح الحيوانات الاهلية ونراهم حلقوا باقلامهم في جو الصين واليابان وما فكروا قط في اصلاح أحوال المرأة ، كأن المرأة في نظرهم لا تعد من الانسان ، أو هي في درجة أقل من درجة الحيوان ، أوكأن المرأة لا تزال في اعتبارهم معدودة من الزينة غير المفيدة ، أو من متاع البيت

نرى حضرة المحرر الشهير والكاتب البارع مشتاق بك يملأ أعمدة الجرائد بالكتابة عن شركة البواخر ولم نره يكتب عن اصلاح المرأة كأن اصلاح المرأة في نظره ليس له من الاهمية في الهيئة الاجتماعية ما للشركة السفن

ينصح لي بعض الاعيان بأن أقرأ ثلاثا وأكتب واحدة ! حبا وكرامة فاني أقرأ خمسا وأكتب واحدة واذا أرادوا الزيادة فلا أكتب شيئا واقرأ عشراً ولكن هل لهم ان يتفضلوا هم ويكتبوا فيغنوني عن الكتابة

نحن نعد أنفسنا من بني الانسان ونطلب أن يكون لنا نصيب في الهيئة الاجتماعية ولقد سكت الكتّاب العثمانيون عن البحث عن حقوقنا مع ان الانسانية تقضي عليهم أن لا يسكتوا وان يطلبوا اصلاحنا قبل أن نطلبه نحن

نحن نرى مباحث الصحف منحصرة الى الآن في كيف تكون زينة المرأة كأن المرأة اذا ذكرت لا يتبادر من ذكرها الا انها (ألعوبة مزينة) ولا يخطر على بال الباحث في هاته الصحف ان المرأة كالرجل لها ماله وعليها ما عليه. فيجب أن لا يقتصر الباحثون على زينة المرأة كلما أرادوا البحث في شأنها ومن يقتصر على ذلك يهين المرأة ويجرح عواطفها . ونحن نريد أن نزين عقولنا قبل أن نزين أجسادنا وهذا لا يكون الا بالتربية والتعليم وفتح أبواب المدارس في وجوه الفتيات

اقترحت حضرة فاطمة هانم افندي في مقالتها التي نشرتها «ثروت فنون» أن تؤخذ سراي رضوان باشا وتجعل مدرسة للبنات، واما انا فأرى أن تفتح مدرسة للبنات حيثما كانت وكيفما وجدت . وقد استحسنت الكاتبة أن يتضمن بروجرام المدرسة تعليم التطريز والامور المنزلية باللغتين التركية والانكليزية ورأيي انه متى كان التدريس جيدا مفيدا فليكن بأية لغة كانت . واذا وفقت فاطمة هانم افندي الى انشاء هذه المدرسة فلتعدني خادمة فيها فان لم استطع ان أقوم بوظيفة التعليم والتدريس فاني أكون من جملة المتعلمات لأن في التعلم والتعليم خدمة للوطن، وأؤكد أن بيننا من النساء من هي واسعة الاطلاع عارفة بحاجات الامة

المرأة تمثل في الهيئة الاجتماعية نصف أدوار قصة الحياة فلو عرف الكتاب الكرام هذه الحقيقة واعطوها حقها من البحث لقاموا بخدمة وطنية عظيمة، واظن انهم اذا فعلوا

ذلك بقيت عظمتهم الكتابية في المنزلة التي لا تمس بسوء فهل يرضى أولئك الكتاب ان يشتغلوا في كثير مما لا فائدة منه وانا وامثالي من الفتيات نادي بانشاء المدارس ونحن لا نزال في دور التحصيل؟» اه

فعسى ان نرى في فتياتنا من ينهجن نهج الكتابة القويم ويذهبن مذهبها في وجوب التربية والتعليم

وقد ورد في الانباء الاخيرة ان مشيخة الاسلام اعلنت بأنها ستصدر جريدة شبيهة بالرسمية، تنشر فيها مزايا الدين الاسلامي، ودحض التأويلات و بيان فسادها، ورد الشبهات التي يرمى بها، هديا للناس، ودفعا للخرافات والاوهام، فسرنا هذا النبأ كثيرا لان مثل هذه الجريدة ستقطع السنة كثير من المشوبين والمتخرقين، وتقضي على التقليد والمقلدين، فتكون عونا للمنار على تأييد مبادئه التي جاهر بها منذ سنين

حسين وصفي رضا

البرنامج السياسي

«لجمعية الاتحاد والترقي»

نشرت جرائد الاستانة هذا البرنامج ليكون محورا تدور عليه سياسة الدولة فأحببنا نقله عنها لقراء المنار وهذه ترجمته بالحرف:

١ — جعل الوزارة مسئولة بصورة مطلقة أمام مجلس المبعوثان وعلى ذلك تعد الوزارة مستقيلة اذا لم تحز اكثر الاصوات في المجلس

٢ — لا يكون مجلس الاعيان (الشيوخ) مقيداً بالمادة ٦٢ ولا يزيد عدد اعضائه عن ثلث اعضاء مجلس المبعوثان ويعين السلطان ثلث اعضائه وتنتخب الامة ثلثيه لمدة معينة

٣ — سيطلب ان يكون لكل من بلغ سن العشرين من الذكور حق الانتخاب درجة الاولى سواء أكان من أصحاب الاملاك أو لم يكن بشرط ان يكون من رعايا الدولة ماعدا الذين سقطوا من الحقوق المدنية فليس لهم هذا الحق

٤ — سيطلب اضافة مادة صريحة صراحة تامة للقانون الاساسي تبيح الحرية في انشاء جمعيات سياسية بشرط ان تراعي في ذلك المادة الاولى من القانون الاساسي

٥ — سيطلب وضع قوانين خاصة لوجوب تنفيذ قانون توسيع السلطة الادارية في الولايات الوارد ذكرها في المادة ١٠٨ من القانون الاساسي بشرط ان لاتحل الرابطة الموجودة الآن في ادارة الولايات

٦ — يتوقف تعديل وتبديل التقسيمات الادارية في الولايات الآن على رأي مجلس المبعوثان وإنما يجب الاسراع في بعض التعديلات من حيث قرب القرى والنواحي أو بعدها باعتبار مواقعها مما يسهل ادارة الامور

٧ — ان لغة الدولة هي التركية وستكون جميع مخابرات الحكومة بهذه اللغة

٨ — أن يكون لمجلس المبعوثان حق وضع القوانين من غير قيد بشرط أن يطلب ذلك عشرة من اعضاء المجلس على الاقل

٩ — كل شخص له أن يتمتع بالحرية التامة والمساواة مع كل الرعايا بصرف النظر عن جنسه ومذهبه وهو مكلف بما يكلف به كل عثماني بصرف النظر عن جنسه ومذهبه . وبما ان كل الرعايا العثمانيين متساوون أمام القانون ولهم الحق في وظائف الحكومة فكل فرد تتوفر فيه شروط الكفاءة يوظف في الحكومة بحسب مقدرته وكفاءته كما ان الرعايا غير المسلمين ينتظمون في سلك الجندية

١٠ — الاديان حرة وستبقى الامتيازات الدينية المعطاة للطوائف المختلفة على ما كانت عليه

١١ — سيطلب تنظيم القوى الحربية والبحرية حسب ما يقتضيه الزمان والمكان ومركز الدولة السياسي بين الدول وسيطلب تقليل مدة الخدمة العسكرية بشرط ان لا تضر بتمرين الجيش واستكماله لاسباب القوة

١٢ — إلغاء الفقرة الاخيرة من المادة ١١٣ الواردة في القانون الأساسي المنافية للحرية الشخصية

١٣ — اقتراح وضع قوانين تعين حقوق العمال وأصحاب الاعمال المتقابلة

١٤ — سيطلب التذرع بالوسائل الموصلة الى توزيع الاراضي على الفلاحين

بشرط ان لا يخل ذلك بحقوق تصرف ملاك الأراضي المعترف بها قانونا وان تسهل السبيل لاقراض الفلاحين النقود بأرباح قليلة

١٥ — سيطلب قبول أصول (التخميس) في أمور الاعشار بصفة موقتة بشرط ان تبنى على أساس صحيح وتجرب في الحال وفي الجهات القابلة لمثل هذه التجربة وتطبق فيما بعد أصول (قاداسزو) بالتدريج

١٦ — التعليم حر البتة فكل عثماني له ان ينشيء المدارس حسب القانون الخاص بذلك كما ورد في القانون الاساسي

١٧ — كل المدارس تكون تحت اشراف الدولة والامل صيرورة تربية الرعايا العثمانيين كلهم على نسق واحد ونظام تام فتنشأ مدارس مختلطة حرة عمومية تفتح ابوابها لكل العناصر ويكون فيها التدريس حرا وتعليم اللغة التركية في القسم الابتدائي اجباريا والتعليم الابتدائي مجانا في المدارس الرسمية وأما التدريس الثانوي (الاعدادي) والعالي فانه سيكون في المدارس العمومية الرسمية المار ذكرها بشرط ان يكون التعليم باللغة التركية ويتسرع بالوسائل الجدية لوضع بروغرامات تتكفل بالمصلحة وإيجاد معامات ومعلمين اكفاء . وتنشأ مدارس للتجارة والصناعة والزراعة لترقية أحوال الدولة الاقتصادية. أما المدارس المنوط بها تعليم الدين بصورة خاصة فانها مستثناة مما ذكر

١٨ — توجه العناية الى ترقية احوال الامة والمملكة الزراعية والاقتصادية والعمرانية ويتوسل الى ذلك بالاسباب المؤدية الى المطلوب

١٩ — سيقترح تعديل انتخاب المبعوثان وجعله موافقا لهذا البرنامج بحيث لا يبقى أقل ملاحظة من قبل الحكومة تعرقل سير الانتخابات عن السير بكل حرية

٢٠ — سيقترح أن يكون لكل عثماني حائز الاوصاف المطلوبة الحق في ترشيح نفسه لعضوية مجلس المبعوثان في أي بلد من البلاد العثمانية

٢١ — يمكن تعديل مواد هذا البرنامج حسب ما تقتضيه احوال الزمان وبقرار اجتماع عمومي ويمكن أيضا إلغاء بعض المواد أو اضافة مواد أخرى عليه

مجلة

المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء التاسع

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الأحد ٣٠ رمضان ١٣٢٦ — ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٠٨ ﴾

الخطبة الأولى

﴿ من خطبنا الاسلامية في الديار السورية ﴾

ألقيناها على منبر جامع المجيدية في بيروت بعد صلاة العصر وصلاة جنازة الغائب على المصلحين الكرام السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده المصري وعبد الرحمن افندي الكواكبي السوري وذلك في يوم الخميس ٢٨ من شهر شعبان . وقد لخص هذه الخطبة بعض من حضرها من الادباء بما يأتي مع تصحيح وتوضيح :

السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله ، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه ، و بعد فان الاسلام دين سهل سائغ موافق للفطرة البشرية ، قام به أهله عند ظهوره خير قيام ، وليس لهم كتاب غير القرآن ، ولم يكن القرآن في أول الامر مصحفا مجموعا كما هو الآن ، وانما كتبت

آياته على الجلود والعظام وسعف النخل، ثم جمعت في مصحف واحد باجماع الصحابة، فالاسلام هو هذا الكتاب الحكيم، وما بيّنه من سنة النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّلَ اليهم)

إني سائلكم: أهذا هو الاسلام الذي غير وجه الارض، ونقل البشر من طور إلى طور، ؟ نعم إنه لهو، ولو أخذته اليوم طائفة من المسلمين بقوة كما أخذه الأولون لغيرت وجه البسيطة مرة ثانية كما غيره سلفها من قبل، ولست أعلم لماذا رغب المسلمون عن القرآن وذهبوا يؤلفون الكتب الكثيرة في الدين وقد رأينا ان الاشتغال بهذه الكتب مع الاعراض عن القرآن ما زاد الاسلام إلا ضعفا، والمسلمين إلا خسفا ·

أنزل الله دينه على نبيه (ص) فعمل به أولئك الأميون من عرب الجاهلية وهم على ما تعلمون من التفرق والتعادي والفساد، فعلمهم الاسلام وهذبهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

من المعلوم في طبائع البشر انه لا يتربى ويتزكى بعد الكبر الا أفراد قلائل من أصحاب الاستعداد العالي، لان الاخلاق متى رسخت في النفس قلما تتغير ولكن أولئك الصحابة الذين غيروا وجه الارض قد تربوا بعد الكبر تلك التربية التي كانوا بها أئمة وكانوا هم الوارثين ·

نشأوا يعبدون الاصنام، ويئدون البنات، ويستحلون السلب والنهب، الا انه كان فيهم استعداد لهذا الاصلاح الذي ساقه الله اليهم: كان فيهم ذكاء عقل واستقلال فكر وقوة إرادة، فلما فهموا الاسلام قبلوه وأيدوه ونصروه، وحملوه الى غيرهم ونشروه ·

إن الاسلام دين عام لجميع البشر، ليس خاصا بمن ظهر فيهم أولا من العرب، ولكن لماذا ظهر هذا الدين الحكيم في تلك الامة الجاهلية، ولم يكن بدء ظهوره في أمة من أمم المدنية كالمصريين والروم، واليونانيين والفرس! ؟ السبب في ذلك

عظيم جدا يتعلق بالاستعداد وهو ما كانت عليه العرب من سذاجة الفطرة واستقلال الفكر والإرادة

كانت الاديان والحكومات بما طرأ عليها من الفساد قبل الاسلام قد أضعفت استعداد تلك الامم بما طبعتهم على التقليد والخضوع والخنوع لرؤسائهم ، والجمود على تقاليدهم وعاداتهم ، فاذا دعي أحدهم الى إصلاح جديد قال من فوره : ان هذا يخالف ما وجدنا عليه آباءنا فان لم يمنعه من الاستجابة التقليد لسلفه في الدين ، منعه ماطبع عليه من العبودية لحكامه الظالمين ، واما العرب فلم يكن لهم من العلوم والمعارف الدينية وغير الدينية ما يحقر في أنفسهم ما يلقى اليهم من دين أو علم جديد ، ولم يكن لهم من الحكام المستبدين من يفسد عليهم بأسهم ، ويذهب بعزيمتهم ، بل أعدهم لذلك بطبيعة البداوة وسذاجة الفطرة ، فجعلهم من أهل الشجاعة التي هي مظهر استقلال الإرادة ، والحرية التي هي مظهر استقلال الفكر ، فكان فيهم كثيرون إذا دعوا إلى الحق والخير فقهوا الدعوة ، واذا اعتقدوا الشيء قاموا ودافعوا عنه بالقوة ، لذلك أنزل الله عليهم كتابه ، وبعث فيهم رسوله ، فاستجاب له من سمع ووعى وقالوا إنا نمنعك (أي نحميك) مما نمنع منه أنفسنا وأهلنا ، وقام الاسلام بهم خير قيام ، حتى كان من أمره وأمرهم ما كان ،

هذه مقدمة يمكنني أن أبين بعدها ماهي حقيقة الاسلام ليعلم غير العالم من الحاضرين ويتذكر أولو العلم منهم أن المسلمين يسهل عليهم اليوم ان يعرفوا دينهم ويهتدوا به من غير حاجة إلى مدارس تدرس فيها الكتب الكثيرة

الاسلام أمر سهل جدا وهو عبارة عن الرجوع إلى الفطرة البشرية ، وماهي الفطرة البشرية ؟ هو ما انطوت عليه نفسك من الإذعان للسلطة الغيبية واختيار ما تعتقد انه الخير والمصلحة قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إلا ان الفطرة يعرض لها الفساد بالجهل وسوء القدوة فاذا ذكر صاحبها بآيات الله فاهتدى بها رجعت الى أصلها (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) فحصل مقصد الاسلام وحينئذ يجد المسلمون سعة في الوقت لتحصيل

ما يحتاجون إليه من العلوم والفنون وما يترتب عليها من الاعمال والصناعات التي تقوى بها أممهم وتعتز دولهم

قلنا ان الاهتداء بالاسلام لايتوقف على درس الكتب الكثيرة ، والاعمال التي تستغرق الاوقات، وذلك ان الاسلام مبني على ثلاثة أسس: (الاول) إصلاح العقل بالعقيدة المطهرة للجنان، المبنية على البرهان (الثاني) إصلاح النفس بتزكيتها وتطهيرها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل (الثالث) إصلاح الاعمال من العبادات والحقوق التي يستقيم بها أمر الافراد وترتقي الهيئة الاجتماعية

الاساس الاول يبنى عليه الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته ومعناها انه سبحانه وتعالى هو المتفرد بالسلطة الغيبية العليا التي تلجأ اليها النفوس عند العجز عن الاسباب والسنن ، فلا ينفع غيره ولا يضر سواه الا بما يتعامل به الناس بالاسباب التي سخرها الله لهم بحكمته ، وأقدرهم عليها بمشيئته ، وانه منزه عما لا يليق به من صفات الحوادث وما يلمّ بالبشر وغيرهم من النقص ، وانه هو المتفرد بشرع الدين والتحليل والتحريم. ويتلو ذلك تصديق الانبياء فيما جاؤا به من الوحي والايمان بعالم الغيب من الملائكة والجزاء على الاعمال التي تزكي النفس فترفعها الى عليين ، أو تدسيها فتلقيها في أسفل سافلين ، فهذه العقيدة تصلح العقل باطلاقه من العبودية لبعض البشر او المظاهر الطبيعية وهي الوثنية التي أفسدت عقول الاولين ، والخضوع الاعمى للرؤساء المسيطرين ، وكل ذلك مبين في القرآن أكمل تبيين ، مؤيد بالدلائل والبراهين

الاساس الثاني يبنى عليه تزكية النفس من الاخلاق الذميمة، وتحليتها بالاخلاق الحسنة ، واذا تهذبت اخلاق الناس صلح أمرهم ، واستقام نظامهم ، وقد فصل لنا القرآن ما نحتاج اليه من ذلك تفصيلا

الاساس الثالث تبنى عليه العبادت والآداب العملية ، وقد بين القرآن ذلك بالاجمال ووكل بيانه بالتفصيل الى النبي (ص) فكان يعلمه الناس بالعمل وعبر عن ذلك بقوله « صلوا كما رأيتموني أصلي » وكذلك كان الصحابة يعلمون من دخلوا في الاسلام على أيديهم فلم ينقل احد انه كان لهم في الشام ومصر وفارس كتب يعلمون بها الناس دينهم عند ما كانوا يدخلون في الاسلام . ولكن المسلمين دوّنوا عباداتهم

في الكتب وا كثروا فيها من الاقسام والفروع والاصطلاحات حتى وصلنا الى أزمنة صارت فيه هذه الكتب صعبة لا يتيسر للا كثرين درسها وتعلمها، فتركها السواد الاعظم وصارت دراستها محصورة في فئة تستفيد منها في دنياها كمريدي القضاء والفتيا والتدريس. على انهم على طول مزاولتها لا يستغنون عن اخذها بالعمل فقد حدثني أحد كبار العلماء انه قرأ كتاب الحج مرارا كثيرة ولما أراد ان يحج لم يستغن عن المطوفين الذين يعلمون العوام مناسكهم بالعمل. وتعلم العبادات بالعمل سهل جدا وما لا بد فيه من القول يمكن ان يقال في مجلس واحد، وقد كان النبي (ص) يعلم الاعرابي دينه في مجلس واحد، فاذا عاهده على العمل به رضي منه وقال «افلح الاعرابي ان صدق»

التاريخ يخبرنا بان الاسلام انتشر في مدة قليلة في ممالك كثيرة لسهولته، وأية سهولة على المرء اسهل عليه من مجاراة فطرته وتقويم ما يعرض لها من العوج. فالاسلام يدعوكم الى ما في فطرتكم من الميل الى اختيار ما فيه الخير والمصلحة، ولذلك يرشدنا الى التذكر في مواطن كثيرة من مواطن هدايته فيقول (لعلكم تذكرون — لقوم يتذكرون — وما يتذكر الا من ينيب) وانما يتذكر الانسان ما كان يعلمه ثم نسيه او غفل عنه، فكأنه يرشدنا بذلك الى ان ما يدعونا اليه من الخير هو مما أودع في فطرتنا ثم غفلنا عنه بسوء القدوة وفساد التربية — فدين الاسلام اسهل الاديان لا حرج فيه ولا مشقة (ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون * يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) فاذا كان على سهولته و يسره كافلا لسعادة الدنيا والآخرة فأي عذر لنا اذا أهملناه وتركنا هدايته !؟ (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) يرضى بأن يكون كالدواب لا يهمها الا علفها أو كالكلاب العاقرة ينهش بعضها بعضا

ربما يعترض بعض الناس على ما أقول من أن تلقين الدين لا يشغلنا عن تعلم العلوم والفنون الدنيوية التي هي مبادئ الصناعات التي تعتز بها الامة وتقوى الدولة حتى تكون في مصاف الدول الكبرى، لانهم يزعمون ان الدين ينهانا عن ذلك ولولم يوجد فينا أمثال هؤلاء لما وصلنا الى ما نحن عليه الآن من الضعف والانحطاط في الثروة والقوة

نحن اليوم في حالة لا تخفى على أمثالكم . صرنا وراء جميع الامم والذنب في ذلك علينا لا على الاسلام . فالاسلام لم يجن علينا وانما نحن جنينا عليه وعلى أنفسنا اذ جعلنا بيننا وبين القرآن حجبا كثيفة فأعرضنا عنه وعن العلوم التي تحفظ بها بيضتنا

كانت العلوم الرياضية والطبيعية عند ظهور الاسلام مندرسة ليس لها سوق نافقة عند أمة من الامم فأحياها المسلمون عند ماظهر الاسلام ونفذت شوكته . ومن العجب أن الجامدين الذين يحرمونها اليوم يعترفون بأن أولئك الاساطين الذين درسوها من شاثنا هم خيرة علمائنا !

الانقلاب العثماني (*

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

الفرق بين الانقلاب والثورة

الانقلاب في اصطلاح المؤرخين تغيير مهم في حكومة الدولة وقلب في قوانينها، وهو غير الثورة التي بمعنى العصيان والخروج عن الطاعة والقيام على الحكومة المشروعة، والفرق بين الانقلاب والثورة كبير ، فان الثورة كثيرا ما تضر بمنافع الامة ومصالحها وتصدها عن السير في طريق النجاح ، بخلاف الانقلاب فانه مهما آلم الامة ورضرضها فهو يخطو بها خطوة في التقدم ، ويصعد بها درجة في سلم

---

*) رسالة حفيلة جليلة ألفها صديقنا محمد روحي افندي الخالدي المقدسي من أرباب الاقلام المشهورين باستقلال الفكر واصالة الرأي وهو مؤلف كتاب « تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب » وكان وقت كتابتها في « بردو » إحدى الموانى الفرنسية وقد رأينا ان أحسن تقريظ لها نشرها في المنار لانها أصدق تاريخ لاعظم انقلاب

النجاح ، وأكثر كتاب العربية لا يفرقون بين الكلمتين ، ويطلقون اسم الثورة على الانقلاب ، فيقولون الثورة الفرنساوية مثلا ، بدل الانقلاب الفرنساوي ، ولم يلتفتوا الى ما روي عن لويس السادس عشر ملك فرنسا لما أخبر بهدم قلعة الباستيل (la Bastille) واطلاق المسجونين فيها فقال: إذاً هذه ثورة (Révolte) فأجابه المخبر: عفوا يامولاي بل هذا انقلاب (Révolution)

فراد ملك فرنسا ان فعل الثائرين غير مشروع ، ولا حق لخروجهم عن الطاعة ، وجواب المخبر ينافيه ، ويبين ان الانقلاب غير الثورة والعصيان ، فنحن اليوم أحوج الى تعيين معاني الكلمات والى سكب قوالب الالفاظ على قدر المعاني، لان الانقلاب السياسي من شأنه ان يحدث انقلابا في اللغة والادب ، فضلا عن انقلاب الاخلاق والعادات والافكار ، الا ترى الجرائد العثمانية على اختلاف لغاتها من تركية وعربية وورومية وأرمنية ويهودية (أسبانية وعبرانية) و بلغارية وفرنساوية والجرائد الالبانية والكردية على وشك الظهور — كيف بدلت لهجاتها بعد حدوث الانقلاب ، وهجرت تلك الالفاظ الفخمة والتعبيرات السقيمة ، التي تغطي المعاني بستار المهابة حتى تستبهم على القارئ ، وتقيد فكره بسلاسل التذليل والاستعباد

الاستبداد يولد الانقلاب

فالذي يولد الانقلاب هو الاستبداد ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، لا من قواعد الدين الاسلامي كما يتوهم البعض منا، وأكثر الاورببين الذين يصفون الحكومات الاسلامية بكونها ثيوقراطية أي انها جامعة بين الديانة والسياسة، واحكام المستبد أو المستبدين في الغالب جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يدهم من الخلق ، لحملهم اياهم على ماليس في طوقهم من أغراض المستبد والمستبدين وشهواتهم ، ولذا ورد في الخط الشريف السلطاني الذي منح به القانون الاساسي « ان قوة الحكومة محافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة ، وعلى منع الحركات غير

المشروعة اعني بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم

الاستبدادي الفردي أو الأفراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيئتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء ،وذلك حق ومنفعة جريان بالهيئة الاجتماعية المدنية ... الخ »

الاستبداد والاسلام

فالاستبداد هو منبع الشرور ، وسبب التأخر والانحطاط وقد ورث ملوك الاسلام هذا الاستبداد عن ا كاسرة الفرس وقياصرة الرومان،عن نماردة بابل وفراعنة مصر ، عن جنكيز خان وتيمور لنك .والاسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة ، وساوت بين أفراد الامة ، وحافظت عن الحقوق والحرية الشخصية، وامنت الاجانب المعاهدين فضلا عن افراد الامة - على أموالهم ودمائهم واعراضهم ،ومهدت السبيل للحكومة الديموقراطية ،ووضعت حق الحاكمية في الامة، ولم تكتف باعطائها الحرية في القول والعمل والكتابة والاجتماع ، بل فرضت على كل فرد من افرادها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر،فجعلت الامة مسيطرة على الحقوق العامة، ولم تفرق في الحقوق الخاصة بين المسلمين وخليفتهم والا اولي الامر منهم . ورد في الدرر وهو من أهم الكتب الشرعية « ان الخليفة يقتص منه ويؤخذ بالمال لانهما من حقوق العبد ،ويستوفيه ولي الحق أما بتمكينه أو بالاستعانة بمنعة المسلمين» ولذا حكمت القضاة على اكثر من واحد من الخلفاء وسلاطين الاسلام برد المال وضمانه ، وانزالهم عن المنصة ، وأقعدتهم مع الخصم في مجلس الحكم

الاستبداد آسيوي لا اسلامي

كان الحال على ماذكر مدة الخلفاء الراشدين ،ومن اقتفى أثرهم كعمر بن عبد العزيز من بني أمية،ثم تغلب الاستبداد الآسيوي على احكام الدين الاسلامي ،وانقلبت الخلافة الى سلطنة واصبح خليفة الاسلام (مقدسا وغير مسؤل) كملوك الافرنج ليومنا هذا، لايقتص منهم ولا يؤخذون بالاموال ولا تستطيع المحاكم إحضارهم ولا إصدار الحكم عليهم، ويرثون ...لك كما يرث أحدنا مال أبيه. فاستبدوا بالامر استبداد لويس الرابع عشر الذي كان يقول « الدولة هي انا » و« أموال الرعية انما هي ملك لملكها فاذا

أخذ شيئاً منها فقد أخذ حقه!! » واستباحوا التصرف في نفوس الرعية وأموالهم واعراضهم وفي خزائن الدولة و بيت المال وأوقاف المساجد والمؤسسات الخيرية: وصار الوزراء والمصاحبون يقولون «خسرو بكند شيرينست» أي ما أعجب كسرى فهو حسن ، فالحسن هو ما استحسنه السلطان والقبيح ما استقبحه السلطان ، ولا دخل في ذلك للعقل والذوق ، ولا للحكمة والشرع ، لأنهم أولوا الشرع على حسب غاياتهم واغراضهم

فاذا تصفحت تواريخ الامم الاسلامية في الشرق والغرب تراها مؤسسة على هذا الاستبداد الآسيوي ، وعلى جانب من الاستعباد الافريقي ، وليس فيها شيء من الحرية الاسلامية ولا المشورة المأمور بها في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، كما قال الله لنبيه :(٣:١٥٣ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين)وقوله تعالى(٤٢:٢٦ وأمرهم شورى بينهم)وحديث «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وأمثاله كثيرة كحديث حلف الفضول المشهورة في التواريخ: وذلك أن قبائل من قريش تداعت الى حلف الفضول الذي عقدته قديما قبائل العرب واشتهر باسم رؤسائهم الفضيل والمفضل ، فاجتمعت وجوه قريش في دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه ، فتحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وكان ذلك قبل الاسلام ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ، ما احب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لاجبت » فأي شيء اشبه بهذا الاجتماع والتعاقد من البرلمان والمبعوثان ؟ لا بل من جمعية الاتحاد والترقي ؟ ولقد احسن جدا العلامة المقري في جوابه المذكور في نفح الطيب حيث قال :

« سألني بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم ، اذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادة ، و يحملهم على الواضحة ، بل من يفتر في مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، ولا يراعي عهداً ولا حرمة!

« فأجبته: بأن ذلك لان الملك ليس في شريعتنا ، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعاً

قال الله تعالى ممتنا على بني اسرائيل (وجعلكم ملوكا) ولم يكن ذلك في هذه الامة ، بل جعل لهم خلافة ، قال الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الآية وقال تعالى (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وقال سليمان (رب اغفرلي وهب لي ملكا) فجعلهم الله تعالى ملوكا ولم يجعل في شرعنا الا الخلفاء . فكان أبو بكر خليفة رسول الله (ص) وان لم يستخلفه نصا لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر ع ر فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد الى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار ، ونص في عهده على ذلك ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان . فاخراج عمر لها عن بنيه الى الشورى دليل على انها ليست ملكا ، ثم تعين علي بعد ذلك اذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حوّل الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثا ، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها . ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكا ، لان سليمان رحمه الله رغب عن بني أبيه ايثارا لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجماع الناس عليه ، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط الا خليفة ، وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قلّ ، وغالب أفعاله غير مرضية » اه

فيظهر لنا من هذا الكلام الفرق بين الخلافة والملك ، والسبب الذي جعل ملوك الافرنج مقدسين وغير مسؤلين

منبع الاستبداد قصر الملك والخلافة

ومنبع استبداد الدول الاسلامية في قديم الزمان وحديثه هو قصر الخلافة ، ودار الملك والامارة ، حيث تكثر دسائس المقربين ويشتد حرصهم على الجاه وطمعهم في جمع الاموال وادخارها وفي انفاذ الكلمة ، ولذا ابتعد عنهم أهل التقوى والورع في جميع البلدان والازمان . فالمقرب منهم لايكاد يتم له الامر الا ويظهر له رقباء يشون به ، وينصبون له اشراك المكيدة ، ويتهمونه بانواع التهم ، وينسبون اليه كل خلل في الدولة ، حتى يبعدوه عن مركز الدولة ، وربما تسببوا في مصادرته وقتله مع

أولاده وعياله كما جرى للبرامكة مع هارون الرشيد. فتاريخ الدول والامارات الاسلامية كلها وقائع برمكية. وقد ينصر الوزير على الخليفة اوالامير ويحجر عليه ويصير هو المستبد بالامر، ونتيجة القضيتين واحدة وهي الاستبداد، وتغلب القوة على الحق. والامة في جميع هذه الاحوال شاخصة ببصرها لا تطلع على خفايا السياسية وتدبير الملك، ولا على دسائس المقربين وحيلهم لإخفائهم جميع ذلك عنها، واستبدادهم بالامر عليها. ولقد أجاد لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر في الرسالة التي خاطب بها الوزير ابن مرزوق ووصف بها أحوال خدمة الدولة ومصايرهم، وعبر فيها عن ذوق ووجدان وهي أبلغ ماحرر في هذا الصدد، وقد ذكرها المقري في الجزء الثالث من نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب. فالمصلحون لم يتخلصوا من هذه الغوائل ولا وجدوا وقتا لاصلاح داخل الممالك وتحكيم سياستها الخارجية، ولذا انصرفت هممهم لجمع الاموال وادخارها، واغتنام فرصة التقرب ونيل التوجه واكتساب السعادة، لان الواحد منهم لايدري الى متى يدوم له التوجه والاقبال، فيسارع الى الاستفادة من الحال التي اسعدها الحظ بنيلها

قصر السلطنة العثمانية وتربية ولي العهد والكامريلا

كان قصر السلطنة في الممالك العثمانية مرتبا على الاصول والتقاليد الموروثة عن المغول، حيث كانت الدولة عبارة عن خيمة كبيرة حكومتها بابها العالي. وأول وظيفة على هذه الحكومة انزال الخان المعظم على الرحب والسعة، واسكان من معه من الحريم والاسرة والاقارب والحاشية، واستكمال أسباب راحتهم وسعادتهم، واستحضار النفقات اللازمة لهم ولرؤساء (العرضي). فالعمود الأوسط القائمة عليه هذه الخيمة هو «الصدر الاعظم» القائم مقام الخان المعظم أي السلطان والحامل لختمه الذاتي والوكيل المطلق عنه في جميع مسائل الدولة الداخلية والخارجية، وبجانبه «قاضي عسكر» لفصل الدعاوي وتقسيم مواريث الجند والمحافظة على حقوق السلطنة، وشيخ الاسلام انما هو «قاضي عسكر» وظيفته أحدث عهدا. فقضاء العسكر قديم في الدولة ومتقدم فيها على قضاء المدن مما يدل على حياتها العسكرية المتنقلة، ثم «الدفتردار» الذي يقيد الاموال ويحرر الحساب، وهو اليوم ناظر

المالية ، ثم « النيشانجي » الذي يكتب الإرادات والفرمانات وغيرها ، فهؤلاء أعمدة ثانوية حوالي العمود الاعظم الذي في وسط الخيمة ، واما حبال الخيمة فهي الاغوات ،

ويقسم الاغوات بحسب خدمتهم في الداخل أو في الخارج إلى قسمين : فالقسم الاول هم خدمة الداخل المسمى « اندرون » من مماليك البيضان وطواشية السودان المحافظين على الحريم ، وكبيرهم آغة دار السعادة ويسمى أيضا آغة البنات « قيزلر آغاسي » ، ثم آغة البستانيين « بستانجي باشي » المكلفين بزرع البساتين والجنان وآغة الرسل الموصلين للاخبار وآغة المحافظين على الاثواب والالبسة « اثوابجي باشي » و « القهوه جي باشي » و « الابريقدار » و « السجاده جي باشي » . . . الخ والقسم الثاني هم خدمة الخارج واغوات (العرضي) مثل آغة الانكشارية « يكيجري آغاسي » وآغة الصباهية « سباهي » وآغة الطوبجية وهو « الطوبجي باشي » . . . الخ فهؤلاء الاغوات من خدمة الداخل وخدمة الخارج كلهم في درجة واحدة بمثابة حبال الخيمة ، ولا فرق بينهم في التشريفات الرسمية والمعاشات والتعيينات ، ولا في الاعتبار والمكانة عند الدولة ، فالجاهل والعالم ، والعبد المملوك والحر ، ووضيع النسب وشريفه ، ومجهول الاصل ومعروفه ، والابتر الخصي وكامل الاعضاء — كلهم متساوون لا تمييز بين « القهوه جي باشي » الذي لا تحتاج صناعته الا لمعرفة طبخ القهوة وتقديمها ، وبين « الطوبجي باشي » المتوقفة صناعته على معرفة الفنون العسكرية والمعارف الكثيرة ، وهذا الذي حمل الشاعر المفلق الامير شكيب على ان يقول أبياته المشهورة ومنها :

وألفيت فيها أمة عربية يرى الترك منهم أمة الزنج اكرما

ولذا امتزجت الحياة البيتية بالحياة الدولية ، والمسائل النسائية بالمسائل السياسية ، واشغال السراي السلطانية بأشغال الباب العالي ، وبين السراي والباب العالي وسط يقال له المابين لانه بين « الاندرون » أي الداخل وبين « البيرون » أي الخارج . ويشتمل المابين على الكتاب والقرناء والمصاحبين وهم « المابينجية » ويعدون كلهم من أهل السراي وخدمتها

فامتلأت السراي السلطانية بالاسرى من السراري الجركسيات والمماليك والطواشية ، مع أن الشرع الاسلامي لا يبيح هذه العادة المستكرهة ، قال شارح الدر : « وفي قطع الذكر من الاصل عمدا قصاص » ويندر فيهم وفي جميع خدمة الداخل من يتعلم القراءة فضلا عن الكتابة ، لان فضيلة الواحد منهم ان يكون على الفطرة الاصلية فارغا من العلوم والمعارف ، لئلا يسول له الشيطان أمرا أو دسيسة سياسية توجب انقلاب الملك ، ولذا اختاروا الخدمة من قرى الاناضول البعيدة ومن ذوي السذاجة والغرارة ، فاذا ولد لاحد السلاطين العظام مولود تربى في حجر والدته الجركسية على دلال السراري والاغوات إلى تمام السنة الثانية عشرة من عمره ثم تبدل تلك السراري بالحظايا فيتخذ منهن حرما ينزوي بهن في أحد القصور ، وتبقى الاغوات والمماليك على ما كانت عليه أيام صباه ، وربما جاؤه بمحافظ يحفظه القرآن ، ومعلم يعلمه مبادي العلوم ، ولكن أكبر معلم للانسان هو البيئة التي يكون فيها ، وكيف يتعلم المرء بدون ان يخرج من بيته ويحتك بالعلماء ورجال الدولة . فيبقى ولي العهد على هذه الحال ينتظر دوره في الملك ، وهو محبوس في قصره ، وعليه العيون والجواسيس لا يمكنون أحدا من الدنو اليه ولا المرور بجانب قصره ، فضلا عن محادثته في المسائل العلمية والسياسية ،

ومتى جاء دوره وجلس على سرير الملك سعى طواشية السودان ومماليك البيضان في وضعه تحت نفوذهم ، وحرصوا على ان لا يفلت من أيديهم ، وفتشوا على أضعف نقطة في قلبه وأخلاقه ، فلا يمضي عليهم كثير حتى يكتشفوها ، فيستميلون قلبه اليهم من تلك النقطة ، ويستفيدون منها لانفاذ كلمتهم وجر المنافع اليهم وإلى أصحابهم ومن كان من حزبهم وشيعتهم . فيتألف من خدمة القصر الملوكي حزب قوي يسمى كامريلا « Camarilla » وهي كلمة أسبانية معناها جماعة المنفذين في قصر الملك ، فيتداخلون في المسائل ويعارضون في السياسة ويستولون على الامور ، واذا رأوا السلطان مال لصدر أعظم أو وزير انقضوا عليه وسلقوه بألسنتهم وافتروا عليه بإفكهم ، ونسبوه للعجز والتقصير ، وسعوا في تنزيل قدره وتزذيله ، لاجل وضعه تحت سيطرتهم ، ولذا كان في الغالب للقهوة جي باشي

والاثواجي باشي والابريقدار والسجاده جي باشي والبستانجي باشي حتى البلطه جي باشي وهو الحطاب — نفوذ كلمة ومكانة أكثر من الصدر وبقية الوزراء ورجال الدولة ، ولا سيما في المسائل المالية وجر المنافع وتوظيف المنتسبين اليهم ، ولم تزل رتبة آغا دار السعادة معادلة لرتبة الصدر الاعظم والخديوي المعظم ، ولهم بالفرنساوية لقب سون التس « Son Altesse » كأمراء الافرنج وابناء ملوكها العظام ، ولم يزل أكثرنا متذكرا نفوذ بهرام آغا وأمثاله

شروع الدولة العلية بالاصلاح

لو استمرت أوربا نائمة في ظلام القرون الوسطى لبقيت الدولة العلية سائرة في هذه الطريق العوجاء سير مملكة الصين ، أوسلطنة المغرب الاقصى التي انحطت إلى درجة البداوة ، بعد ان كان لها في العمران قدم راسخة ، بسبب مهاجرة الاندلسيين اليها ومتاجرتهم في أفريقيا الغربية ، ولكن أوربا استيقظت من غفلتها في القرون الجديدة ، وأوجدت هذه المدنية العجيبة التي بهرت العالم ، وغيرت وجه الارض باكتشافاتها واختراعاتها وعلومها وفنونها وآدابها ، وتجاوزت دول أوستريا (النمسا) وروسيا والبندقية إلى ممتلكات الدولة العلية ، فأحست بالضعف والانحطاط والتقهقر ، وبدأت في الاصلاحات الجديدة من عهد السلطان مصطفى خان الثالث ، فأحدثت الطوبخانة ، وأنشأت معملاً لسكب المدافع ، واقبل السلطان سليم الثالث بهمة عالية واقدام على القيام بالاصلاح ، ورتب إدارة الطوبجية والبحرية ، وجلب المعلمين والمهندسين من أوربا ، وأحدث النظام الجديد ، فاغتالته أيدي المنون بسبب هيجان الانكشارية الذين فسدت أخلاقهم ، وأصبحوا بلاء مبرما على الامة والدولة ، بعد ان كان لهم في الفتوحات العثمانية شأن عظيم ، ومفاخر كثيرة مسطورة في تاريخ أوربا العسكري .

ثم جلس السلطان محمود الثاني وازال غائلة الانكشارية ، ونظم العساكر الجديدة ، واجرى من الاصلاحات ماهو مفصل في التاريخ العثماني . واصاب الدولة العلية من الحوادث المهمة ماحملها على الاحتكاك بالدول الاوربية والدخول في ميدان سياستها مثل حروبها مع روسيا ، واحتلال نابليون بونابارت لمصر وسوريا ، وخروج محمد علي

باشا ، وتبه دلنلي علي باشا ، وحرب الموره ، واستقلال اليونان ، وحوادث جبل لبنان . وتداخلت أوربا في شؤون الدولة العلية بداعي المحاماة عن المسيحيين : فروسيا تحامي عن الامم السلافية وجميع المتدينين بالمذهب الارثوذكسي ، وفرنسا على الكاثوليك ، وانكلترا عن مبشري البروتستانت ، وجميعهن يحرضن المسيحيين من رعية الدولة على مقاومة الاستبداد ، ويطالبن الباب العالي بإجراء الاصلاحات ، ووضع القوانين والنظامات لمنع التعدي على النصارى ، ولمساواتهم في الحقوق مع المسلمين . والباب العالي يجد الاستفادة من العداوة القديمة التي غرستها الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى اهون عليه من سوق العساكر وتكبد المصاريف الحربية لتسكين الفتن واخماد الثوارث . وهكذا جرت المذابح وارتكبت الفظائع التي تقشعر الجلود من سماع وصفها ، وعادت على الوطن بالويل والخراب كذابح الروم في حرب المورة ، ومذابح لبنان في حادثة الشام ، ومذابح البلغار في حرب روسيا الاخيرة ، وهي التي قام لها غلادستون وقعد ، وارغى وازبد ، على منبر الخطابة في مجلس العموم الانكليزي ، وآخرها الفظائع الارمنية المعروفة ، وهي نقطة سوداء في صحيفة التاريخ .

صدارة مصطفى رشيد باشا

فالحوادث التي جرت قبل معاهدة باريس ساقت بعض رجال الدولة الى تعلم اللغات الاوربية ولاسيما الفرنساوية للوقوف على سياسة أوربا ولتنظيم العساكر البرية والبحرية ، وكان لاكثر المتعلمين نسبة وتردد على مصر التي شرعت بالاصلاحات على عهد محمد علي باشا . ونبغ من رجال الدولة مصطفى رشيد باشا السياسي الشهير ابن مصطفى افندي متولي وقف السلطان بايزيد ، وكان مولده في الاستانة (١٢١٤ هـ) فقرأ القرآن ومبادئ العلوم الاسلامية وأجاد الخط وتعلم شيئا من مبادئ اللغة الفرنساوية ، ودخل في معية نسيبه الصدر الاسبق اسبارطه لي علي باشا ، وذهب الى مصر مرارا وخالط رجالها وتقلب في مناصب الدولة العلية وفي سفارة باريس ولوندره ، فاكمل تحصيل اللغة الفرنساوية واطلع على دقائق السياسة وخوافيها ، وكانت المسألة الشرقية شاغلة وزارات اوربا بسبب اجتهاد روسيا في جمع كلمة الامم السلافية وطمعها في الاستيلاء على القسطنطينية . وروسيا اكبر الدول الاوربية واكثرها

نفوسا وأشدها خطرا على الموازنة السياسية . فكانت الدول الاوربية وفي مقدمتهن انكلترا التي هي أحرص الدول على مقاومة السياسة الروسية ، تشوق الدولة العلية الى القيام بالاصلاحات الجديدة لتستعيد قوتها السابقة فتحمي نفسها وتكون لبقية الدول سدا منيعا امام هجوم روسيا

فلما جلس السلطان عبدالمجيد خان (تموز « يوليو » سنة ١٨٣٩) كان مصطفى رشيد باشا سفيرا في لوندره فعين ناظرا الخارجية وحضر للاستانة وكان له رأي ودخل كبير في التنظيمات ، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة المذكورة قرأ بحضور رجال الدولة وأعيانها والسفراء الاجنبية الخط الشريف السلطاني المعروف بالتنظيمات وكانت قراءته في كلخانة (أي دار الورد) وهي من دوائر السراي القديمة (طوب قبو) التي بجانب جامع ايا صوفيا . ولذا اشتهر بخط شريف كلخانه واشتمل على تأمين الرعية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، وعلى قاعدة مطردة في استيفاء الاموال الاميرية ، وعلى أخذ العسكر بالقرعة وتعيين مدة الخدمة ، والغاء الامتيازات ، وطرح التكاليف بنسبة ما لكل واحد من الثروة ، ومساواة الرعية أمام القانون ، والغاء المصادرة والانغارية وهي الاجبار على العمل بلا أجرة وتعرف بالسخرة ، ونحو ذلك مما هو مدرج في هذا الفرمان المعروف بالتنظيمات جمع كلمة تنظيم العربية

فالدولة العلية انما أصدرت هذه التنظيمات إرضاء لاوربا ولا سيما انكلترا . والامة الاسلامية لم تفهم معنى هذه التنظيمات ولا معنى تأمين الناس على الارواح والاموال والاعراض ، كأن الشريعة التي كانت دستور العمل تبيح التجاوز والتعدي على الارواح والاموال والاعراض ، وحاشاها من ذلك . فالبلاء لم يكن سببه فقدان القانون والشريعة حتى يزول باصدار هذه التنظيمات وانما سببه الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة . فالحرية التي منحتها التنظيمات لم تكن شيئا مذكورا بجانب الحرية التي منحها القرآن لو زال عنه الاستبداد والجهل المستوليان على المسلمين ، فيجتهدون في فهمه وتأويله على مقتضى نواميس المدنية الحاضرة كما فعل احرار العلماء كالشيخ محمد عبده وغيره

فشرعت الدولة العلية في اجراء الاحكام المشار اليها في التنظيمات وسنت

قانونا لاخذ العسكر جرى تطبيقه في بعض الأيالات وأحدث في بعضها ثورة وعصيانا كعصيان الارناؤط (١٨٤٤) الذي سكنه رشيد باشا نفسه ثم باشرت في تنظيم المعارف وفتح المكاتب في الاستانة ونظمت محاكم التجارة المختلطة (١٨٤٦) كما نظمت بعض دوائر الدولة واقلامها . فكان مصطفى رشيد باشا الذي تولى مسند الصدارة العظمى ست مرات وتوفي سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٨م — مصدر هذه الاصلاحات، بسبب وقوفه على الافكار الجديدة ومعرفته اللغة الفرنساوية والادبيات العثمانية . فسعى في افراغ الكتابة التركية في قالب سهل سلس ، بعد ان كادت تكون غير مفهومة عند العموم، لكثرة ما فيها من التعقيد والتشابيه الغامضة والالفاظ والتراكيب اللغوية من فارسية وعربية . ونشأ في عهده وتحت ظله الشاعر الشهير ابراهيم شناسي افندي موجد الادب الجديد العثماني. حصل العلوم العربية واللغة الفرنساوية ، وذهب لباريس فاطلع فيها على آداب الطريقة المدرسية ونسج على منوال راسين ولا فونتين وأدخل في الادب التركي التعقل المشروط في الطريقة المدرسية كما فصلنا ذلك في كتابنا «تاريخ علم الأدب»

وكان الادب التركي كله خيالات ومبالغات أعجمية قلما يجد الانسان فيه حكمة وتعقلا، وديوان شناسي صغير الحجم، لكنه نموذج للادب الجديد، وأكثر قصائده في مدح مصطفى رشيد باشا . وأنشأ شناسي جريدة تركية سماها (تصوير افكار) وحرر فيها المقالات السياسية والتاريخية والادبية بقلم سهل سلس مفهوم. وطبع ديوانه مع منتخبات (تصوير افكار) ثانية في مطبعة ابو الضيا توفيق بك ، وكانت وفاة شناسي في سنة ١٢٨٨هـ قبل بلوغه سن الشيخوخة والوظائف العالية

عالي باشا وفؤاد باشا

ظهرت فئة قليلة من المتعلمين على النسق الجديد واقتفوا اثر مصطفى رشيد باشا ونبغ منهم اثنان شهيران خلد التاريخ ذكرهما وهما السيد امين عالي باشا وفؤاد باشا ومولدهما في سنة ١٢٣٠هـ الاول ابن مصر جارشيلي علي رضا افندي اي المنسوب

لسوق مصر وهو سوق العطارين . والثاني ابن الشاعر الشهير كجه جي زاده عزت ملا الذي نفي للاناطول في زمن السلطان محمود خان ومات في منفاه . فتعلم امين مبادىء العلم واجادة الخط وقرأ الفرنساوية على معلم مخصوص ودخل قلم الديوان الهمايوني في الخامسة عشرة من عمره

ومن عادة رؤساء القلم تسمية كل داخل باسم يتميز به عن سميه، ولم يصطلحوا كالعرب والافرنج بتسمية الولد باسم ابيه أو أسرته . وكان امين قصير القامة فسمي (عالي) تسمية بالضد تفاؤلا بعلو همته . فذهب الى أوربا في كتابة السفارات واتقن الفرنساوية وانتسب لرشيد باشا وامتاز في فنون السياسة والمعارف العصرية وعين عضوا في (انجمن دانش) اي مجلس المعارف المؤسس على نسق اكادميات اوربا . وكان عالي باشا يحسن الفرنساوية والتركية كتابة وانشاء ، وتقلب في وظائف كثيرة مهمة مثل السفارات والوزارات ومسند الصدارة العظمى . وأما فؤاد فدخل المكتب الطبي العسكري وخرج جراحا في العسكرية ، ثم دخل قلم الترجمة في الباب العالي وتقلب في الوظائف السياسية والخارجية ، وترأس مجلس التنظيمات ومجلس الاحكام العدلية وحضر الى سوريا أيام الحادثة وكان اذ ذاك ناظراً الخارجية ، ثم ذهب بمعية السلطان عبد العزيز الى معرض باريس سنة ١٨٦٧ ومرض فيها وتوفي في نيس من فرنسا وله من العمر ٥٥ سنة فقط ، وكان في اللغة التركية أديبا شاعرا وضع مع جودت باشا القواعد العثمانية التي لم يؤلف للآن احسن منها ، وخلف الفريق كجه جي زاده عزت فؤاد باشا الكاتب الشهير

فرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا هم نوابغ السياسة العثمانية وواضعو الاصلاحات الجديدة بدلالة السفراء الاجانب ارضاء لدول اوربا ولا سيما انكلترة ، ومماشاة لها لحرصها على تقوية الممالك العثمانية لتتقي بها شر روسيا فأمر هؤلاء النوابغ بترجمة القوانين والنظامات والتعليمات والاوامر المدرجة في الدستور ترجمة حرفية ، ولم يجدوا لهم وقتا لدرس احتياجات البلاد الداخلية والمدنية الاسلامية حق درسها ، ولا لنشر الافكار الجديدة بين المسلمين المفاخرين بسابق مجدهم ومتانة شرعهم ، ولذا لاموا هؤلاء المصلحين ولم يرضوا عن اعمالهم زاعمين انها تؤل إلى قلب البلاد وجعلها

افرنجية محضة . ولذا كانت الاكثرية لحزب تركيا القديمة ، ولم يكن من حزب تركيا الفتاة الا فئة قليلة ، درسوا العلوم الجديدة درسا سطحيا و بعضهم زار اوربا مرة أو مرتين. ومع هذا وفق حزب تركيا الفتاة لاستمالة اوربا اليه ، وافلح في الحصول على اتفاق انكلتره وفرنسا وساردينيا اي ايطاليا ، فحاربن روسيا وانتصرن عليها في حرب القرم وعقدن معاهدة باريس (٣٠ مارس سنة ١٨٥٦) واعترفت اوربا بمقتضاها بتمام ملكية الدولة العثمانية واستقلالها ، ومنع اية دولة من المداخلة في أمورها الداخلية ، وصدر خط شريف ثان في ذلك التاريخ أيضا مؤيد لخط كلخانه ، ويشتمل على حرية الاهالي ومساواتهم في الحقوق والمعاملات . ثم جلس السلطان عبد العزيز خان سنة ١٨٦١ واصدر فرمان الاصلاحات ولكن هذه الفرمانات والخطوط الشريفة السلطانية لم تمنع تماما سوء الاستعمال والاستبداد الذي في ادارة الدولة ، وبقي الارتكاب والظلم والاستبداد على ما كان عليه سابقا ، لعدم اصلاحهم السراي السلطانية كما أصلحوا وجاق الانكشارية والصباهية وقلبوهما الى النظام الجديد

حزب تركيا الفتاة

أول مؤسس لحزب تركيا الفتاة هو مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم باشا المصري ثم صهره خليل شريف باشا . ولد مصطفى فاضل في القاهرة سنة ١٨٣٠ م وحصل العلوم الجديدة حتى صار على جانب من العرفان والاضطلاع والوقوف على دقائق الامور ، فخدم في مصر وبعد جلوس السلطان عبد العزيز بسنة تعين ناظرا للمعارف في الاستانة ، ثم ناظرا للمالية وأجرى فيها عدة اصلاحات ، وكان ميكروب الاقتراض قد تفشى في هذه النظارة ، وأحدث بلاء القوائم النقدية ، حتى بلغت الديون ما بلغته فأثقلت كاهل الامة ، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك يوسف كامل باشا صهر والي مصر محمد علي باشا ، ومترجم تليماك التركية الترجمة الاولى العويصة ، وكان عالي باشا في نظارة الخارجية ، وفؤاد باشا في رياسة مجلس الاحكام العدلية ، ثم في نظارة الحربية ، وأدخل فيها حسين عوني باشا العدو الالد لعمر باشا المجري . وكان فؤاد باشا تعين حكما لفصل الخلاف الحادث بين مصطفى فاضل باشا واخوته على تقسيم ميراث أبيهم ففصل بينهما رقابة وعداوة ، فلما تولى

فؤاد باشا الصدارة تسبب في عزل مصطفى فاضل من نظارة المالية مع ماله من الخدم والاصلاحات المفيدة ، فشق ذلك على مصطفى فاضل وقدم للسلطان عبد العزيز خان لائحته الشهيرة التي شدد فيها النكير على الاستبداد ، وكشف الغطاء عن عورات الدولة ، و بين اسباب الضعف والانحطاط وسوء الاستعمال بجرية لم يتعدها رجال المابين ولا سمعوا بمثلها قبل ذلك ، ثم هاجر الى باريس سنة ١٨٦٥ ولحقت به فئة من الشبان فأكرم مثواهم وأنفق على تعليمهم ، ونبغ منهم كثيرون في الادب والكتابة والسياسة . حدثني أحدهم قال كنا في باريس في عيشة راضية لايهتم الواحد منا بأمر معايشه ، فاذا فرغ من الدرس والتحقيق والمشاهدة عاد الى منزله فوجد ما يحتاج اليه من الطعام والمنام ، بخلاف أحرار هذا الزمان الذين قاسوا أشد العذاب في أمر معايشهم

فاشتغلت النابتة الجديدة بفنون الادب وعلوم التاريخ والسياسة والصناعات النفيسة ، فنظموا الشعر وألفوا القصص ونشروا المقالات في الجرائد ، ونبغ منهم نامق كمال بك شاعر النشأة الجديدة وأديبها وموجد الادب الجديد العثماني ، ولد في الاستانة سنة ١٢٥٠ هـ وقرأ في المكاتب وتعلم الفرنساوية وصارت له مهارة زائدة في الانشاء الذي نشر به مقالاته السياسية في الجرائد بأسلوب مستحدث طريف هو من السهل الممتنع ، واشعاره على نسق اشعار فيكتور هوجو في طلب الحرية وتدبير المملكة واصلاح شؤون الحكومة ، وله مؤلفات كثيرة منها التاريخ العثماني الذي لم يطبع ، وقصة وطن أو سليستره التي تمثل اليوم في الاستانه وسلانيك بعد حدوث الانقلاب ، وتوفي نامق كمال بك وهو متصرف في جزيرة ساقز سنة ١٣٠٥ هـ . ومنهم ضيا باشا الاديب الشاعر ، وسعد الله باشا سفير فينا الأسبق مترجم قصيدة لامارتين التي عنوانها (البحيرة) ، وله اشعار عصرية رائقة . ومنهم بو الضيا توفيق بك الذي أصلح حروف الطبع وكتب الخط الكوفي ، وطبع الكتب والرسائل والمجموعات بصنعة بديعة عجيبة لم تبلغها إلى الآن مطابع الشرق ولا مطابع أوربا الشرقية . وعبد الحق حامد بك سفير بروكسل وصاحب قصة طارق بن زياد ، وكثير غيرهم من الكتاب والأدباء انصار حزب تركيا الفتاة

الذي أسسه مصطفى فاضل باشا ، ثم صهره خليـــل شريف باشا الذي جاء من مصر إلى الاستانة وتوظف في نظارة الخارجية بسبب معرفته الفرنساوية وصار سفيرا لباريس وغيرها وناظرا للخارجية ، وتزوج بأكبر بنات مصطفى فاضل باشا وهي الاميرة الشهيرة نازلي خانم التي اقتفت أثر والدها وزوجها الاول في تعضيد حزب تركيا الفتاة ، وساعدته بالمال والجاه هي وشقيقها الامير محمد علي باشا

لائحة فاضل باشا السلطان عبد العزيز

لخص مصطفى فاضل باشا سياسة تركيا الفتاة في اللائحة المذكورة التي قدمها إلى السلطان عبد العزيز خان وقال فيها :

« تتصور أوربا ان المسيحيين وحدهم في تركيا خاضعون للمعاملات الاستبدادية ، ولاحتمال أنواع الاذى والتحقير المتولد من الظلم ، وليس الامر كذلك ، فان المسلمين ربما كان الظلم والعسف أشد وطأة عليهم ، وهم أكثر انحناء تحت نير العبودية من المسيحيين ، لان المسلمين ليس وراءهم دولة أجنبية تتحيز لهم وتحامي عنهم ، فرعايا جلالتكم من جميع المذاهب مقسومون إلى صنفين : الظالمين ظلما لاحد له ، والمظلومين بلا شفقة ولا رحمة ، والاولون يجدون في الحكومة المطلقة غير المقيدة التي تستعملها جلالتكم والتي اغتصبوها ـ إغراء وتشويقا إلى جميع الرذائل . وأما الآخرون فتفسد اخلاقهم أيضا بعلاقاتهم الضارة مع سادتهم ، وبما انهم مجبرون على الخضوع دائما للشهوات الرذيلة ، ولا يستطيعون إيصال شكاياتهم الصحيحة إلى أعتاب سدتكم الملوكية ، لان ظلامهم يرون هذه الاستغاثة ـ مع الاحترام ـ بحكومة جلالتكم من أكبر المفاسد ، فاعتادوا على دناءة الاخلاق التي لا يمكن تصورها » .

وانما الامم الاخـلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فهذه الاصول الاستبدادية التي كان اعداء الاصلاح من حزب تركيا القديمة يريدون المحافظة عليها ، ويعدون التمسك بها من الغيرة الدينية والحمية الوطنية ، والاسلام والوطنية بريئان منها للأسباب المشروحة فيما مر . فحزب تركيا الفتاة يمكننا ان نعتبر وجوده منذ تولى مصطفى فاضل باشا نظارة المعارف (١٨٦٢ م) ، وهاجر الى باريس (١٨٦٥ — ١٨٦٧ م) وانصار هـذا الحزب هم جميع المطالبين على

الكتب الفرنساوية" وأدب الطريقة المدرسية" أوعلى ما ترجم منها بالتركية" والذي طلق عليه هذا الاسم هم الفرنساويون الذين قالوا (جون تركي) كما يقولون (جون فرانس — جون ألمانيا — جون ايتالي) فترجم بتركيا الفتاة وقيل بالتركية" (كنتج توركلر) ، ولذا قال هانوتو: إن تركيا الفتاة من اللغة الفرنساوية . وقد جوزي مصطفى فاضل باشا على جرأته بمصادرة أمواله " ثم أعيدت اليه بوساطة بعض الاجانب ، ثم حرم من ميراث الخديوية هو وحليم باشا بسبب صدور الفرمان السلطاني بانتقالها إلى أكبر أولاد المالك وهو إذ ذاك اسماعيل باشا ، وصار مسند الخديوية ينتقل من الوالد إلى ولده " بعد ان كان ينتقل إلى الاكبر فالاكبر من الاسرة " كما هي القاعدة في جميع الممالك الاسلامية، لما علمت من ان الاسلام ليس فيه ملك موروث"

وفي سنة" ١٢٧٨ ه و١٨٧١ م أصيبت المملكة" العثمانية" بوفاة اشهر قوادها عمر باشا " وأشهر سواسها الصدر الاعظم عالي باشا صاحب الاعمال الكثيرة في تنظيم ادارة الحكومة "ووضع ميزانية" للمالية" "وتأسيس نظارة الداخلية" والاوقاف، ومجالس الدعاوي والتمييز وتنظيم أصول المحاكمات واستعمال الاصول الاعشارية" وغير ذلك من الاصلاحات الداخلية" والسياسية" الخارجية، وترجمت القوانين والنظامات عن الفرنساوية" بلا نظر ولا معرفة" بمصالح البلاد واحتياجاتها فترجموا مثلا قانون التجارة الفرنساوي القديم وأبقوا فيه مسائل النكاح و (الدوتة") واشتراك الزوجين بالاموال وعدمه " كما هو مختص بالاوربيين ولا وجود له في الشرق، لا عند المسلمين ولا عند المسيحيين . و بعد وفاة عالي باشا تولى مسند الصدارة محمود نديم باشا ومال إلى روسيا حتى سمي « نديموف» و بذر اموال الخزينة" وأصبح آلة في يد الجنرال اغناتيف سفير روسيا في الاستانة"

صدارة نديم باشا الاولى

محمود نديم باشا كان أبوه واليا ، فتربى في داره على الاستبداد والارتكاب ، وتعين واليا كأبيه ثم ناظرا للبحرية " وكان شديد التعصب للإدارة القديمة المستبدة" كثير البغض للاصلاحات الجديدة والحرية . تقرب الى السلطان عبد العزيز خان بالتملق " واستولى عليه من أضعف نقطة فيه وهي العظمة ، فدس له بانه تحت وصاية

فؤاد باشا وعالي باشا، مع انه خليفة الله في الارض ، والقابض على رقاب خمسين مليونا من الرعية الذين هم عبيد جلالته !!! ، وان بيت المال هو حق من حقوقه له ان يتصرف فيه حسبما شاء وأراد !! ، وكانت الميزانية المالية وضعت في أيام عالي باشا وفؤاد باشا، وحدد فيها مصارف المابين، فانقلبت أحوال السلطان عبد العزيز خان في صدارة محمود نديم، واستبد بالامر، وأبعد عن الوظائف الملكية والعسكرية الرجال الذين تخيرهم عالي باشا ودربهم وعلمهم حتى كانوا من خيرة الموظفين، فاستبدل بهم المرتكبون وكثر تحويل الوظائف والعزل والنصب والترقي في جميع الوظائف الملكية والعسكرية، حتى كان الضابط يرتقي إلى المراتب العلى في أقرب وقت، ويصبح مشيرا بعد ان كان من قبل أشهر ضابطا صغيرا . وزاد الاسراف والتبذير ببناء السرايات التي لا لزوم لها وإنشاء الاسطول الذي صار أثرا بعد عين كما زاد الانهماك في الملذات والشهوات، وكانت أوربا وصيارفة الاستانة تقرض الاموال بالربا الفاحش والديون تترا كم على خزينة الدولة ، والمكلفون بها هم فقراء الرعية من أصحاب الاعشار والاغنام يؤدونها من كد اليمين وعرق الجبين .

ومن الغلطات السياسية في صدارة محمود نديم باشا اصدار الفرمان بفصل الكنيسة البلغارية عن الكنيسة الرومية ، وتعيين اكسارخوس للبلغار مستقل عن بطريرك الروم في القسطنطينية ، وكان ذلك بمساعي الجنرال اغناتيف حبيب محمود نديموف باشا للتوصل إلى احداث دولة للبلغار، مع ان الباب العالي كان يعتبر جميع هؤلاء الامم الصغيرة كالبلغار والصرب والافلاخ والبغدان والجبل الاسود والهرسك روما تابعين لبطريركية القسطنطينية لاشتراكهم جميعا في الدين الارثوذكسي . ومن الغلطات المالية أيضا إعطاء المثري النمساوي اليهودي الشهير وهو البارون هرش امتياز سكة حديد الروم ايلي المعروفة بسكك الحديد الشرقية ، واضرار الخزينة والامة من وراء ذلك ضررا كبيرا ، وفي اثناء ذلك ظهر مدحت باشا في مسند الصدارة :

صدارة مدحت باشا الاولى

ولد مدحت باشا في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ م ، ووالده حاج علي افندي أصله من روسجق التي كانت مركز ولاية الطونه (بلغارستان) على ضفة نهر الطونه (الدانوب)

اليمني، ولما كان من صغار الموظفين لم يستطع تعليم ابنه غير مبادي العلوم وحسن الخط المعدود في ذاك الدور من أكبر العلوم وأهمها للدخول في الوظائف والترقي فيها، وأدخله على حداثة سنه قلم الصدارة فتخرج في اقلام الباب العالي، وتعلم بالمشاهدة والتجربة والاختبار، وتعين مأمورا في الولايات ومكث سنتين في دمشق الشام، وترقى الى أن صار باشكاتب في مجلس (والا) وهو شورى الدولة، وذهب مرة ثانية الى دمشق وحلب للتحقيق عن القبرصلي محمد باشا، والفت باستعداده واجتهاده نظر رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ورفعت باشا ناظر الخارجية اليه، فاجلسه معه رفعت باشا ليسمع المحاورة التي دارت بينه وبين البرنس منجيكوف مندوب دولة روسيا وذلك قبل حرب القرم، فاطلع مدحت باشا حينئذ على السياسة الخارجية، وبعد وفاة رشيد باشا سنة ١٨٥٨ م تولى الصدارة عالي باشا فأذن لمدحت بالذهاب الى اوربا مدة ستة اشهر، فذهب الى باريس ولوندره وبروكسل وفينا، وشاهد انتظام الادارة ومحاسن المدنية والترقيات العصرية. ومازال يرتقي في الوظائف حتى صار والي ولاية الطونة (بلغارستان الحالية) فأجرى فيها اصلاحات كثيرة، وفتح مجلس الايالة وهو المجلس العمومي الذي فتحه راشد باشا في سوريا، ثم عين واليا لولاية بغداد ومشيرا لعساكرها فسكن عصيان نجد، واهداه السلطان عبد العزيز خان سيفا مكافأة له على خدمه، واذ كان الصدر الاعظم محمود نديم باشا كثير العزل والنصب والتبديل نقل مدحت باشا من ولاية بغداد الى ولاية ادرنه، فمر بكرسي السلطنة وطلب مقابلة الحضرة السلطانية واراها طرق الخلل وسوء الادارة وعاقبة الامر، فعزل محمود نديم من الصدارة وتولاها مدحت باشا لكنه لم يبق فيها الا ثلاثة أشهر، وكان سبب عزله على ماروي: ان احدى سراري القصر بعثت اليه مع الطواشي طالبة تعيين احد خدامها قائمقام في أحد الاقضية فأجابه مدحت «سلم على الخانم وقل لها ان تلتمس هي بنفسها من أفندينا ذلك» واشتد غضبه من مداخلة السراري وتتابع رجائهم

صدارة نديم باشا الثانية

كثر تبديل الصدور بعد عزل مدحت حتى بلغوا نحو العشرة في خلال سنة أو خمسة عشر شهرا، ثم عاد الى الصدارة محمود نديم باشا وكان العود غير احمد،

فزاد الارتكاب ، وبيعت الرتب والنياشين ، كما بيعت الوظائف بالمزاودة ، بحيث أصبح يحتجنها الذي يزيد في الثمن ، واختلت الموازنة المالية حتى قضت بإعلان الافلاس في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٧٥ ، وطمع العدو في البلاد ، فأوجب ذلك هيجان تركيا الفتاة وعقلاء الامة ، وكان التجسس غير معروف في ذلك الوقت ، وكان للجرائد حرية في الكتابة والانتقاد ، فشرعت جريدة « وقت » التركية في نشر الحكايات والاساطير عن ملوك الصين ، واستنتاج الامثال والمواعظ من انقراض ملكهم ، والتعريض بذلك لوزارة محمود نديم باشا ، واخذ فريق من الناس يطوفون على المجالس والدواوين والاندية العامة ، ويقصون أنواع المظالم والارتكاب وسوء الادارة ، فهاجت الافكار العمومية ولا سيما الصوفتاوات وهم طلاب العلوم الدينية البالغ عددهم في جوامع الاستانة نحو خمسة عشر الى عشرين الف طالب .

هياج الصوفتاوات وصدارة رشدي باشا

اجتمع من هؤلاء الطلاب زهاء خمسة أو ستة آلاف طالب ، وهجموا على الباب العالي في ٢٢ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ وذهب آلاف منهم إلى سراي طولمه باغجه مقر السلطان عبد العزيز فشكوا اليه طالبين عزل محمود نديم وتولية محمد رشدي باشا ، فأجيبوا إلى ذلك ، وصدرت الارادة السنية بتشكيل الوزارة وتولية محمد رشدي باشا الصدارة ، وحسين عوني السرعسكرية ، وقيصرلي أحمد باشا نظارة البحرية ، وراشد باشا الذي كان واليا على سوريا نظارة الخارجية ، وخير الله افندي مشيخة الاسلام

خلع السلطان عبد العزيز

كان حزب مدحت باشا من الاحرار مؤلفا من نامق كمال بك وضيا بك ورؤف بك واسماعيل بك ، وهؤلاء لم يرتقوا إلى رتبة الباشاوية ، وأما الذين ارتقوا منهم إلى هذه الرتبة بعد ذلك فهم حسن فهمي باشا وشاكر باشا وسعد الله باشا ورائف باشا ورفعت باشا وكانوا من الوزراء ، فلما تولى حزب تركيا الفتاة زمام الامر ،

واستولى على المالية ، والقوة البرية والبحرية والشرعية ، خلعوا السلطان عبدالعزيز في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ و ٣٠ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ بفتوى من شيخ الاسلام ، واجلسوا ابن أخيه السلطان مراد خان ، ففرح به الناس واستبشروا وكان السير هنري اليوت سفير انكلتره أشد السفراء سرورا ، والجنرال اغناتيف سفير روسيا أكثرهم غما ، وهو حبيب محمود نديم باشا والمشير عليه بتلك السياسة العوجاء ، ونقل السلطان عبد العزيز من سراي طولمه باغجه إلى سراي طوب قبو المقابلة لها على ساحل البحر . ثم نقل بناء على طلبه إلى سراي جراغان المجاورة لطولمه باغجه على ساحل المضيق (البوغاز) وبعد خمسة أيام وقع الاغتيال واختلف فيه هل كان بطريق الانتحار أو القتل عمدا ، فان الذين كشفوا على الجثة وجدوها في الطبقة السفلى من السراي على سجادة بقرب الباب ، ففي انزالها من الطبقة العليا المعدة للسكنى الى الطبقة السفلى شبهة ، وعلى فرض ثبوت الجناية فمن عساه يكون المتهم بها ! هل حريم السراي وطواشيتها الذين تكثر بينهم الدسائس ويصعب التحقيق ؟ أو مدحت باشا وحزبه الذين لا مأرب لهم بذلك ؟ وقد توصلوا الى مأربهم بدون إراقة دم ، واستحقوا إجلال العالم لهم من عثمانيين وأوربيين ، وهم أعقل وأدهى من ان يلوثوا عملهم العظيم بدم جناية ودسيسة مثل هذه

حادثة الجركس حسن بك وخلع السلطان مراد

ثم حدثت مسألة الجركس حسن بك ياور السلطان عبد العزيز ، فانه دخل دار مدحت باشا والوزراء مجتمعون فيها ، وقتل السر عسكر وراشد باشا ناظر الخارجية ووالي سوريا قبلا وأحمد آغا الخادم وجرح ناظر البحرية وبعض الياورية الحاضرين ، فأثرت هذه الحوادث في السلطان مراد وادت الى اختلال شعوره فخلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام من جلوسه

جلوس السلطان عبدالحميد

جلس على سرير الملك جلالة مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني بعد ان اشترط مدحت باشا وحزبه ثلاثة شروط : (١) إعلان القانون الاساسي (٢) استشارة الوزراء وجعلهم مسؤلين وحدهم في أمور الدولة (٣) تعيين ضيا بك وكمال بك

كاتبين خاصين للمابين وسعد الله بك باشكاتب لانهم من الاحرار الحريصين على تنفيذ احكام القانون الاساسي ، والاولون ممن قاموا بتسويده وتنميقه . فلم يعمل بهذه الشروط وتعين الداماد محمود جلال الدين باشا مشيرا للمابين ، وانكليز سعيد باشا رئيسا للياورية ، وكجوك سعيد باشا الصدر الاسبق في هذه الآونة وكان سعيد بك باشكاتب للمابين

مؤتمر الاستانة واعلان القانون الاساسي وصدارة مدحت باشا الثانية

كانت بلاد البلقان في اختلال وهيجان بسبب قيام الهرسك والصرب والجبل الاسود والبلغار وتأففهم من الظلم والاستعباد، ومطالبتهم بالاستقلال ، وتمسك كل منهم بقوميته وأدب لغته ، بعد ان كان الدين المسيحي الارثوذكسي يجمعهم تحت سلطة بطريرك القسطنطينية . وكانت أوربا تطالب الدولة العلية باجراء الاصلاحات ، والعناية بالمسيحيين التابعين لها ووقايتهم من الظلم والاعتساف ، فتقرر عقد مؤتمر (قونفرانس) في الاستانة العلية لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين البلاد واصلاحها ، وكان المؤتمر مؤلفا من احد عشر مندوبا ، اثنين من انكلتره وهما سفيرها السير هنري اليوت واللورد سالسبوري ، واثنين من فرنسا ، واثنين من اوستريا (النمسا) ، وواحد من روسيا وهو الجنرال اغناتيف ، وواحد من ايطاليا ، وواحد من المانيا ، واثنين من قبل الدولة العلية وهما صفوت باشا وأدهم باشا ، فعقدوا جلستهم الاولى في ٢٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٦ في دائرة الترسانة التي على خليج دار السعادة من جهة غلطه . ولم يكد يتم افتتاح المؤتمر الا وقد سمعوا اصوات المدافع ، فوقف صفوت باشا قائلا: أيها السادة ان اصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الاساسي من قبل جلالة سلطاننا الاعظم ، وهذا القانون متكفل الحقوق والحرية لجميع رعايا المملكة العثمانية بلا استثناء ؛ وقد حصل بذلك المقصود من عقد المؤتمر ، فأصبح انعقاده وعمله من قبيل العبثيات

فبهت القوم وانفضت الجلسة . وقد اعلن القانون الاساسي حقيقة في ذلك اليوم ، واطلق لدى اعلانه مئة مدفع ومدفع في جميع المدن والممالك العثمانية ذات القلاع . وكان مدحت باشا هو روح هذا الانقلاب العظيم وهو القابض على زمام الامر في الحقيقة منذ

خلع السلطان عبد العزيز وان لم يكن (صدر اعظم)، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك محمد رشدي باشا شيخا مسنا منقاداً له ولحزب تركيا الفتاة ، و بعد جلوس السلطان عبد الحميد خان الثاني استعفى محمد رشدي باشا للشيخوخته، وتولى الصدارة العظمى مدحت باشا وهي صدارته الثانية ،

لم يرض الجنرال اغناتيف بهذه الاصلاحات بل أصر على بقاء انعقاد المؤتمر، فداوم اعماله وقدم لائحة الى الباب العالي في ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وطلب الجواب عنها في خلال ثمانية أيام، فكانت من قبيل (الأولتيماتوم)

عقد المجلس العالي ورفضه لائحة مؤتمر الاستانة

عقد الصدر الاعظم مدحت باشا مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء والمشيرين ورجال الدولة والرؤساء الروحيين واعيان المسلمين والمسيحيين واليهود ، وعرض عليهم لائحة المؤتمر ، وافهمهم مطالب الدول الأوربية ، وانَّ ردَّها يؤدي إلى الحرب ، فتشاوروا بكمال الحرية وابدى كل منهم رأيه ، فقال رؤف بك ابن رفعت باشا ناظر الخارجية الاسبق إذ ذاك : الحرب كداء الحمى يمكن ان ننجو منه ، ولكن لائحة المؤتمر كداء السل الرئوي عاقبته القبر لا محالة . وقال صاوا باشا من خطبة طويلة : اننا نختار الموت على إهانة شرفنا ، وألقى وكيل بطريرك الارمن الكاثوليك مقالة طويلة في رد اقتراحات المؤتمر ، فرفض المجلس قبولها بالاتفاق وظهر من هذا الاجتماع ائتلاف المسلمين والمسيحيين واليهود، واتفاقهم واتحادهم على محبة الوطن وترقيه والغيرة على منافعه، وكان الروم والارمن الكاثوليك أشدهم حماسة ، حتى ان الروم عزموا على تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مع العساكر العثمانية ، لان استقلال الامم البلقانية من الصرب والجبل الاسود والبلغار مضر بصالح الروم لانفصالهم عن الكنيسة الارثوذكسية ، التي هي تحت رياسة بطريرك الروم في القسطنطينية ، ورفضهم استعمال اللغة والادبيات اليونانية ، فبناء على جميع ذلك أجاب الباب العالي في ٢٠ كانون الثاني (يناير) برفض مطالب الدول المذكورة في لائحتهن ، فانفض مؤتمر الاستانة وغادرها المندوبون والسفراء دلالة على قطع العلاقات بين أوربا والباب العالي

تغلب حزب التقهقر وكتاب مدحت للسلطان

كان الحزب المخالف للقانون الاساسي يسعى في التخلص من هذا القانون ، فبعد تعيين مدحت باشا في الصدارة انعقد مجلس الوكلاء برياسته في دار الداماد محمود جلال الدين باشا ، وتذاكروا في القانون الاساسي ، فارتأى أحمد جودت باشا ناظر العدلية (الحقانية) تأجيل هذا القانون لعدم الحاجة اليه (؟) بسبب جلوس السلطان الحالي!!، وكان أحمد جودت باشا من المنتسبين الى الداماد محمود جلال الدين ، ومن كبار العلماء والمؤرخين ، ولكن ارتشاءه مشهور في الاستانة والولايات، واعلان القانون الاساسي يسد على المرتكبين أمثاله باب الارتكاب ، فبإصرار مدحت باشا وحزبه مثل ضيا بك وكمال بك وغيرهم من الاحرار الذين مر ذكرهم وبجريدتي (وقت) و (استقبال) والمقالات الشائقة المحررة فيهما — صدر الخط الشريف السلطاني إلى مدحت باشا باعلان القانون الاساسي ، وحمله الباشكاتب سعيد بك الى الباب العالي ، وتلي في الميدان الواسع الذي امام الباب بحضور جماهير الناس ، وبعد تلاوته خطب مدحت باشا في الموضوع ، وتلا الدعاء فوزي افندي مفتي أورفه وأمن الناس ، وما زال مدحت باشا يلح في طلب اجتماع المبعوثان ، ويجتهد في تأليفه من الاحرار ، والمابين يؤخر ذلك ويفرق جميع الاحرار ، حتى انه أراد تعيين ضيا بك مسود القانون الاساسي سفيرا في برلين لئلا ينتخب مبعوثا عن أهل الاستانة . فضاق صدر مدحت باشا من التأخير والمحاولة وكتب إلى الذات الشاهانية مباشرة : « لم يكن غرضنا من اعلان القانون الاساسي الا محو الاستبداد ، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات ، وتعيين وظائف الوكلاء ومسئوليتهم ، وتأمين جميع الناس على حريتهم ، حتى ترتقي البلاد في معارج الارتقاء — الى أن قال — واني لكثير الاحترام لشخص جلالتكم ، ولكن الشرع الشريف يوجب علي أن لا أطيع اموركم (أوامركم) اذا لم تكن موافقة لمنافع الامة »

ونحو ذلك مما لم يسمع بمثله الا من مصطفى فاضل باشا كما تقدم . و بالحقيقة ان احكام الشريعة الاسلامية وفتاوى الفقهاء في هذا الصدد لا تترك ادنى شك ولا ريب ، لان السلطان بحكم الشرع ليس مطلق الحرية ، ولا مطلق التصرف في أموال الناس ومنافعهم ، وانما هو في جميع ذلك مقيد بالاحكام الشرعية ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فالحكومة المطلقة التي درجت عليها الدول والامارات الاسلامية وتوارثتها من عهد معاوية لا وجود لها على التحقيق في الدين الاسلامي .

عزل مدحت باشا ونفيه وصدارة ادهم باشا

فعزل مدحت باشا ونفي على الباخرة (عز الدين) الى ايطاليا ، ووجهت الصدارة العظمى الى أدهم باشا والد محمود بك وخليل بك مديري دار العاديات (الموزه خانه) ، وعين جودت باشا للداخلية ، واحمد وفيق افندي لرياسة مجلس المبعوثان موقتا ، لان انتخاب الرئيس مبين في المادة السابعة والسبعين من القانون الاساسي .

بعد خروج السفراء ومندوبي الدول من الاستانة العلية بعث البرنس غورجقوف ناظر خارجية روسيا الى الدول بمنشور مؤرخ في ٣١ كانون الثاني (يناير) يطلب فيه مداخلتهم بالاشتراك لاجراء الاصلاح في الممالك العثمانية (!) ، والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ التدابير اللازمة في هذه المسألة وأرسل الجنرال اغناتيف الى اوربا يقول: ما ان الباب العالي بدأ يخل بمعاهدة باريس ، فتمام استقلال تركيا المشروط في تلك المعاهدة اصبح واهيا لاغيا ، فترددت دول اوربا ولا سيما انكلتره في قبول هذا الكلام

انتخاب اعضاء مجلس المبعوثان

رأت الدولة العلية اصرار اوربا على اصلاح الروم ايلي فسارعت الى انتخاب المبعوثين وتطبيق احكام القانون الاساسي الذي نالت به الامة العثمانية الحرية وحق الحكم ، فلم يفقه الناس اذ ذاك معنى هذه الحرية ولا قدروها حق قدرها ، فظنوا أن المبعوثين كبقية الموظفين يشتغلون بمصالح الامة تحت سيطرة الوزراء والنظار ، ليستفيدوا من الرواتب التي ينقدونها ، فلم يهتموا بأمر الانتخاب كما يجب . حدثني بعض احرار الاستانة قال كنا نحرض الناس على الانتخاب ونسوقهم اليه سوقا ، وهم يقولون: ألم يكفنا ما لدينا من المجالس والدوائر المشحونة بالموظفين حتى نزيد عليها مجلسا جديدا

وتتكبد القيام برواتب موظفيه ؟ فان لم يصلح حالنا وتنتظم ادارتنا بجميع مانراه امام أعيننا من النظارات والدوائر العظيمة المشتملة على الالوف من الموظفين اتراه يصلح بمجلس المبعوثان ؟؟

هذا ما كان يقال في قاعدة السلطنة ومقر الخلافة ؛ فما بالك في مراكز الولايات والالوية ، اذ كان المنتخبون لا يوصون مبعوثيهم الا بطلب الرتب والاوسمة والالقاب والمناصب والمخصصات والرواتب لهم ولاقاربهم وذويهم ! ! ولمن لاذبهم وحام حول حماهم ، أو بإعفائهم من التكاليف الاميرية والخدمة العسكرية وتخفيف الضرائب والمكوس عنهم ونحو ذلك ! ، مما يعود على الوطن بالخراب لا بالعمران ، كأن خزينة الدولة كنز لا يفنى ، تمطر عليه الاموال من رحمة الله بغير عد ولا حساب

افتتاح مجلس المبعوثان وخطاب السلطان

افتتح المجلس العمومي المؤلف من الاعيان والمبعوثان في ٤ ربيع الاول سنة ١٢٩٤ و١٩ مارت (مارس) سنة ١٨٧٧ في بهو الاستقبال الكبير في سراي طولمه باغجه بمحلة بشكطاش ، وتلي النطق السلطاني امام الحضرة السلطانية وهو :

« أيها الاعيان والمبعوثان

« انني أبدي الامتنان بافتتاح المجلس العمومي الذي اجتمع للمرة الاولى في دولتنا العلية ، وجميعكم تعلمون ان ترقي عظمة واقتدار الدول والملل انما هو قائم بالعدل ، حتى ان ما انتشر في العالم من قوة دولتنا العلية وقدرتها في أوائل ظهورها كان من مراعاة العدل في سير الحكومة ، ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف الرعية . وقد عرف العالم أجمع تلك المساعدات التي قام بها أحد اجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرية الدين والمذهب ، وجميع اسلافنا العظام ايضا قد سلكوا على هذا الأثر ، فلم يقع في هذا المطلب خلل في وقت من الاوقات ، ولا ينكر ان المحافظة على السنة صنوف رعيتنا وملتهم ومذاهبهم منذ ست مئة عام كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة . والحاصل بينما كانت ثروة الدولة والملة (الامة) وسعادتها صاعدتين في مدارج الترقي في تلك الاعصار والازمان بفضل حماية العدالة ووقاية القوانين — أخذنا بالانحطاط تدريجا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف

وللقوانين الموضوعة ، وتبدلت تلك القوة بالضعف . . . . . » الخ

ثم ذكر إزالة السلطان محمود غائلة الانكشارية ، وسبقه لفتح باب إدخال مدنية أوربا الحاضرة الى الممالك العثمانية ، واقتفاء السلطان عبد المجيد خان أثره ، واعلانه أساس التنظيمات الخيرية . . . الخ النطق السلطاني المعروف

قابل الجميع هذا النطق بالخضوع والركوع (!!!) وخصص لاجتماع المبعوثين بهو كبير في سراي العدلية بالقرب من اياصوفيا تحت رياسة أحمد وفيق افندي الذي صار بعد ذلك باشا ، وعين الرياسة بإرادة سنية لا بالانتخاب! ولذا كان رقيبا على مدحت باشا ، وقد اتهمه حزب تركيا الفتاة بالاستبداد لأن رياسة مجلس المبعوثان شبيهة بوظيفة رئيس الموسيقى المركبة من آلات كثيرة مختلفة ، لكل آلة توقيع خاص ، فعلى الرئيس أن يلاحظ موازنة الانغام وائتلاف بعضها ببعض ، لتخرج جميعها بصورة مفيدة مطربة ، وليس له ان يأخذ آلة من الآلات الموسيقية ويضرب عليها ليوازن ما بينها

مذاكرات مجلس المبعوثان

كانت الجلسة الاولى مخصصة للمذاكرة في العريضة التي ينبغي تقديمها من مجلس المبعوثان جوابا عن النطق السلطاني ، فحررت مسودة الجواب واسقط الكاتب منه كلمة « السنة » في الجواب عن فقرة « المحافظة منذ ستمئة عام على السنة . . . » المذكورة في النطق السلطاني ، فقام أحد مبعوثي الروم من الاستانة وقال ما محصله : « لا يمكننا ان نقبل إسقاط كلمة تدل على أثمن امتياز نلناه ، لان لساننا — نحن معشر الروم — هو ثروتنا ، فمن سوء الفهم وقلة الادب نحو جلالة سلطاننا الاعظم ان نمحو كلمة أثبتها جلالته بنفسها وكررت منحنا ذلك من جديد » فقال الرئيس : ليس بحثنا في ذلك لانا لا نعرف في هذا المجلس لسانا غير اللسان العثماني الرسمي . فقال جمهور العثمانيين : « بك أعلى ! بك أعلى ! ! » أي حسن كثيرا حسن كثيرا ، فقام مبعوث أرمني وايد كلام المبعوث الرومي ، فقال الرئيس ثانية : ليس بحثنا في ذلك ، ومع هذا فاني أسأل اعضاء المجلس عما اذا كانت آراؤهم موافقة لرأيي ؟ فقال جمهور المبعوثين : « أوت أفندم ! اوت افندم ! » أي نعم ياسيدي ! نعم ياسيدي !

(لها بقية)

العمل (*)

لئن كان للطبيعة حق الأولية في احداث الثروة سواء في أرضها الخصبة، أو في احراشها الكثيفة، أو في مناجمها الكثيرة المعادن، أو في مراعيها الغزيرة الكلأ، أو في أنهارها المتدفقة بالخيرات، فان المدار في استثمار كل ذلك على العمل ولو قليلا . فلا بد من فلح الارض وبذر الحبوب قبل أن تجود الطبيعة بنمائها، وتبذل الارض غلتها، ولا بد من احتفار المناجم قبل استخراج كنوزها، ولا بد من جني الثمار قبل التمتع بلذيذ طعمها . فالعمل ضروري للعمران، ولازم لكل موجود، وهو للموارد الطبيعية التي هي ينابيع الثروة بمثابة الدلو من البئر، إذ لولاه ما قدر أحد على الاغتراف منها .

وقد وفى الدين العمل قسطه من المدح حيث حث على التمسك به، فقال عز وجل في سورة مريم (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، فكلي واشربي وقري عينا) وهو أمر به، لانه إذا كان جل شأنه يأمر السيدة مريم وهي في وقت المخاض بهز جذع النخلة قبل أن يتساقط عليها الثمر، مع انه قادر على أن يكفيها مؤونة ذلك التعب، فمن البديهي انه يأمر كل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية بالسعي في تحصيل رزقه، ولاسيما إذا كان صحيح الجسم . وقال تعالى في آية أخرى (وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا) أي وقتا يلزم فيه السعي لتحصيل العيش وترقب الرزق بالعمل، وقال (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وهو أمر بوجوب جوب البلاد والضرب في طولها وعرضها، رغبة في العمل والانتفاع بما خلق جلت عظمته من الخيرات، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) أي

(*) وعدنا قراء المنار في الجزء الماضي بأنا ننقل لهم طائفة من كتاب الاقتصاد السياسي المفيد، وهذا ما اخترنا نشره وفاء بالوعد، وتحريا للنفع

اعملوا حتى تحصلوا على ما يقوم بضروراتكم ، وقال (فامشوا في منا كبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وقال (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال النبي « لا تقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفيها المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » وقال « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا » وقال « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب ، خير من أن يأتي رجلا اعطاه الله من فضله فيسأله اعطاه أو منعه » وقال « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » رواه البخاري وهكذا فضل النبي العمل في اية حرفة على الاستنامة الى الكسل، واراقة ماء الوجه في الطلب . وجاء في الأنجيل ما معناه « تأكل خبزك بعرق جبينك » وهو حث على العمل طلبا للارتزاق . وروي إن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام رأى رجلا فقال ما تصنع؟ قال أتعبّد، قال ومن يعولك؟ قال أخي، قال: أخوك أعبد منك . وقال عمر بن الخطاب « ما من موطن يأتيني الموت فيه أحب إليّ من موطن اتسوق فيه لاهلي أبيع وأشتري » وقال « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » وقيل للامام أحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ، فقال أحمد « هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي . وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: تغدو خماصا وتروح بطانا، فذكر انها تغدو في طلب الرزق »

هكذا يحث الدين على العمل ويرغب فيه مراعاة لتقدم العمران ، ومحافظة على النوع الانساني من الفناء ، ومن ذلك تظهر حطة أولئك الذين يرون التوسل وسيلة للارتزاق، والتسول حرفة للتعيش ، أولئك الذين لم يعرفوا مزية العمل وعلاقته بالسعادة ، ففضلوا مد أيديهم للسؤال على مدها للعمل ، واستسهلوا أن يكونوا كالكلاب تأكل كل ما يلقى اليها ، أولئك هم الذين يحل الشقاء بالبلد الذي يحلون

فيه، فهم يستنفدون ثروته، ويستنزفون خيراته، بدون أن يسعوا في احداثها.

العمل هو أساس الثروة فكيف ينتظر النجاح بدونه، وهو دعامة كل ما نراه في العالم من التقدم في المدنية. ما رأينا بلدا تمسك أهله باهداب العمل إلا وتحولت فيه الصحارى القفراء الى حدائق غناء، وجادت الارض بكنوزها، وانساب الذهب إلى جيوب أهلها. لولاه لم يصر الترب تبرا، وتتبدل المفاوز بمعاهد للعلوم، ومعابد للنسك، ومعامل للصناعة. لولاه ما ضحكت الارض من بكاء السماء، ولا ابتسمت الازهار في الاكمام، ولا حملت الاشجار لذيذ الثمار من كل زوجين اثنين، إذ أنه لا بد من غرسها قبل أن تصير دانية ظلالها، مذللة قطوفها، ولا غنى عن تعهدها قبل ان تترعرع أغصانها، وتصير دوحة تناطح السحاب. لولاه ما استنبط الانسان الوسائل التي يسخر بها القوى الطبيعية، ويتغلب على الصعاب، ويقرب المسافات بالبخار والكهرباء، ويجعل كليهما رهين إشارته. لولاه ما أخذت الارض زخرفها، وبلغت من المدنية غايتها، وبدت آثار العمران في انحائها، وصارت معمورة يتزايد سكانها في كل عام، وتتضاعف ثروتها آناً فآناً.

من ينكر فضل العمل في إحداث الثروة، فليرجع ببصره الكرة الى «استراليا» في الماضي يجدها في آخر درجة من الانحطاط، لخمول سكانها الاصليين، وكثرة اتكالهم على الموارد الطبيعية، ويشاهدها الآن وقد نالت من العمران حظا وافرا، وجرت في المدنية شوطا بعيدا. ذلك لان قوما عرفوا مزية العمل استوطنوها، فنهلوا من تلك الموارد، وعملوا في برها وبحرها، واحتفروا المناجم واستخرجوا كنوزا دفنتها الارض في بطنها اجيالا، وحافظت عليها لمن يقدر العمل حق قدره. فطبيعة تلك البلاد لم تتغير وانما تغير سكانها. بل مالنا وللتمثيل باستراليا، وأمامنا شبه جزيرة العرب التي كانت محط رحال المدنية، ومهبط العلوم والعرفان، ومصدر العمران، مالها قد عفت آثار مدنيتها، ودالت دولة ملوكها، واندرست معالم علومها، واندثرت معارفها، وصار ذلك المجد القديم، والسؤدد الماضي، أشبه بحلم حالم؟!! أليس السبب هو ان ذلك السلف الصالح خلف من بعدهم خلف

أضاعوا الجد الموروث، وأهملوا العمل، وتمسكوا باذيال الكسل، حتى صاروا قديما في عالم جديد (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود)

كان « كنساي » وأضرابه يعتبرون الأرض الوسيلة الوحيدة لاحداث الثروة، ويبخسون العمل حقه في الاحداث، وذلك زعم صحيح من جهة ان الارض ينبوع المواد التي تقوم بها الصناعة، فلا يقدر الصانع على نسج ثوب بدون قطن، ويستحيل عليه صناعة آلة حديدية بدون حديد، ولكن « كنساي » بخس العامل حقه، وأنكر عليه تحويله الحديد من شكله الطبيعي حيث لا ينتفع به، الى شكل يصير بواسطته آلة بخارية يتهافت الناس على ابتياعها . أنكر على العالم الكيماوي تركيبه لدواء فيه شفاء للناس من مواد طبيعية لا تفيد كثيرا، وهذا ما لا ترضاه العدالة، على انه بعد « كنساي » كما قدمنا أتيح للعمل ان يأخذ « آدم سميث » بناصره، ويظهر فضله، ويطنب في مدحه، ومن ثم أخذ مقامه في الصعود، ونجمه في السعود، حتى لقد قال فيه العلامة « جيد » انه هو الجدير دون غيره أن يكون الوسيلة في إحداث الثروة حقيقة، إذ الانسان هو المنتج الحقيقي لها، وما الطبيعة إلا طوع ارادته، يحركها كيف شاءت تلك الارادة

﴿ ١ – أدوار العمل ﴾

عصر الصيد

في ذلك العصر كان الانسان قليل العمل، كثير الاعتماد على الطبيعة، يعيش من صيد البر أو البحر، وكان رحالا كالانعام السائمة، يسكن البقاع الكثيرة القنص، كما تأوي هذه الى المروج الغزيرة الكلأ، ويلقي عصا الترحال اذا قل الصيد، كما تفعل هي اذا غيض الماء أوجفت المراعي . وقد كان في ذلك الدور مهددا بخطرين : الوحوش الكاسرة، والمجاعات المهلكة، لقلة ادخاره لما يقتات به في اعساره، فالويل له اذا أصابه مرض أقعده عن الصيد، أو انتابه حر أو برد منعه عن مطاردة فريسته، والويل له اذا كان ضعيف النكاية أعداءه (كذا في الاصل) الذين يداهمونه لسلب ما اقتنصه . وكان عدم ادخاره راجعا الى أسباب كثيرة، منها عدم احترام الحقوق، فكان حقه مزعزعا لا يقدر هو على حمايته، وليس هناك حكومة تدافع عنه، ومنها عدم وجود مسكن له او ذرية في

أغلب الاحيان، ولذا لم يوجد عنده مايدعوه الى الاحتفاظ بالقوت تحرزا للمستقبل .

عصر الرعاية

ولما رأى نفسه معرضا للمجاعات القتالة التي كانت تجتاحه من وقت الى آخر، ورأى أنه ملزم بالنفقة على زوجته وأولاده، توجهت همته الى تدجين الحيوانات النافرة كالابل والخيل والغنم وغيرها، مما كان لاينتفع به كثيرا . ووجد من أهله وذويه من يساعده على رعي تلك الابل والغنم في الوديان والمروج الفسيحة التي تحيط به، والانتقال بها من مكان الى آخر . وفي ذلك العصر ازداد عدد الناس عما كانوا عليه، وتألفت منهم قبائل كثيرة كانت ثروة كل واحدة منهن تقدر بعدد رؤوس الابل أو الغنم التي تملكها، كما كانت الحال عند العرب والتركمان، وكما هي الآن عند العرب الرحالة والزط . ويمكننا ان نعزو كثرة عدد الناس الى سببين (الاول) كثرة نتاج الحيوانات التي كانوا يربونها حتى صاروا في سعة من العيش، فكانوا ينتفعون بألبانها وأوبارها ولحومها وجلودها حتى قلت المجاعات بينهم (الثاني) ازدياد العصبية في كل واحدة من تلك القبائل، مما جعل حق الملكية مضمونا نوع ضمان، وحبب الى كل فرد اقتناء الحيوانات فزادت الثروة وزاد العدد .

عصر الزراعة

وكانت النتيجة الطبيعية لزيادة عدد السكان هي الازدحام على المراعي بالحيوانات مما جعل حشائشها التي غرستها يد الطبيعة غير كافية لسد الحاجة، فعمد الناس الى معالجة الزراعة من اثارة الارض، وبذر الحبوب فيها وتعهدها بالسقي، حتى نبت مايكفي لمؤونتهم ولا نعامهم . واستخدموا في الزراعة كثيرا من تلك الحيوانات، ومن ذلك العصر ظهر العمل بمظهر أجلى، إذ لم يعد الانسان مفوضا كل أموره للطبيعة، يأوي حيث نبتت حشائشها، ويرحل اذا جفت خيراتها، بل أخذ يعول على معوله، فيحول به الارض المجدبة الى مزارع كثيرة الخيرات، وانبنى على رغد عيشه تقدم عظيم في أحواله الادبية، فنظم معيشته وظهرت الحكومات لاول مرة بالمعنى الذي نراها به الآن، ولا حاجة بنا الى القول ان معظم الامم المتمدينة في الزمن الماضي كانت تعالج الزراعة في أول أمرها قبل ان ترسخ قدمها في المدنية . والسبب في ذلك بساطة الزراعة، وعدم

احتياجها الى كثير تفكير أو كبير عناء ، على ان تلك الامم نفسها وجهت همتها بعد ان تم لها الامر الى استجادة الصنائع على اختلاف انواعها .

عصر الصناعة

الصناعة أثر من آثار المدنية تتوجه الهم اليها عند بزوغ شمسها ، وتستجاد اذا زخر بحر العمران ، والسبب في ذلك راجع الى أمرين (الاول) ان الانسان لا تتوق نفسه الى الكماليات كالصناعات المختلفة الا بعد تحصيل الضروري من مأكل وملبس ، (الثاني) هو ان معظم الصناعات تحتاج الى الممارسة والتعليم ، وهما لا يوجدان في وسط الامم المتوحشة ، ومن الصنائع ما هو مقدم كصناعة النجارة والحدادة والبناء والخياطة ، لان منفعتها ظاهرة لبناء المسكن وعمل الملبس ، ولذا توجد احيانا بحالة ساذجة ، ومنها ما لا يوجد في الامة إلا اذا تفننت وتنوعت أساليب مدنيتها ، كصناعة الرسم وصناعة الطباعة وتجليد الكتب (١) وكلما علا كعب الامة في العمران ابتدعت الصنائع المختلفة ، واستنبطت الاختراعات المفيدة ، وارتقت فيها الاعمال العقلية الضرورية للصنائع كالتعليم والتأليف .

عصر استخدام البخار

على انه مهما يكن من تقدم الصناعة عند بعض الامم في الاحقاب الغابرة فان اختراع البخار في القرن الماضي جعل صناعة الزمن الحاضر متقنة ، وصار العامل بدل ان يستغرق وقتا طويلا في الصناعة ، يدير الآلة البخارية فتكفيه مؤونة التعب .

﴿ ب — الاعمال العقلية ﴾

ولا مشاحة في ان عمل الانسان في الادوار التي تقدمت لم يكن يدويا محضا ، بل لا بد له من أعمال عقلية ولو قليلة ، لانه لا ينتظر أن يصنع الانسان عدة للصيد أو آلة لفلح الارض أو يبذر الحبوب إلا بعد التفكير الذي هو المميز للانسان من الحيوان ، ولا يتصور أن يستوعب الصنائع إلا بعد أن يعرف دقائقها من المعلم ، ويتعلم العلوم المرتبطة بها ، ثم هو لا يقدر على تمهد الارض ما لم يوجد هناك حاكم يمنع عنه تعدي الغير ، ومهندس يسهل له الري ، ولم ينتفع بالآلات البخارية في

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون

الزراعة والصناعة إلا بعد ان أجهد المخترعون « كجيمس وات » وغيره قرائحهم حتى وصلوا الى استخدام البخار . فالاعمال العقلية ضرورية للاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة ، وهي مقدمة عليها حتى في أحقر الصنائع .

﴿ ج - الاعمال المنتجة للثروة ﴾

اختلفت الآراء من عصر الى آخر في تحديد الاعمال البشرية التي تكون نتيجتها زيادة ثروة الامم ، أما العرب فكانوا يرون - كما يؤخذ من كلام الحريري وغيره من الحكماء - ان المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة ، وقد قال الخليفة المأمون « الناس أربعة : ذو سيادة أو صناعة ، أو تجارة أو زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم » ويفهم من ذلك ان تلك الاعمال الاربعة هي التي كانت معتبرة محدثة للثروة ، بمعنى ان عمل الحاكم الذي يقي البلاد شر العدو ، ويرد المظالم ، وينظم الري ، هو عمل يزيد في الثروة ، وكذلك عمل الصانع الذي يوجد منافع للمواد الاولية ، والتاجر الذي يتوسط في جلب تلك المصنوعات وتسليمها لطالبيها ، والزارع الذي يقوم باثارة الارض وبذر الحب فيها حتى تنبت ما يسد الحاجة ، وأما اعمال غيرهم فلم تكن محدثة للثروة ،

وأما الطبيعيون وهم (كسناي) ومن كان على مذهبه فقد تقدم انهم كانوا يعتبرون ان المحدث للثروة من الاعمال ما كانت متعلقة بالارض من إثارتها وحرثها وبذر الحبوب فيها ، وبناء على ذلك قسموا الناس الى ثلاث طبقات : طبقة ملاك الاراضي وهم المحدثون للثروة حقيقة ، وطبقة الفلاحين وهم الذين يساعدون على هذا الاحداث ، وغيرهم من السكان كذوي الامارة وذوي التجارة وذوي الصناعة ، وكانوا يرون هؤلاء عيالا على الطبقتين الاوليين . ولكن « آدم سميث » لم ينح نحو أولئك الاقتصاديين ، فقد اعتبر الصناعة والتجارة والإمارة من الاعمال المنتجة للثروة ، وتبعه من أتى بعده من الاقتصاديين .

ويمكننا أن نقسم الاعمال (أولا) الى ماهي مباشرة لإعداد سلعة من السلع للقيام بسد حاجة من حاجات الانسان ، وهذه محدثة للثروة بلا خلاف ، مثال ذلك العمل الذي يتكبده كلٌّ من حارث الارض و باذر القمح وحاصده ودارسه وطاحنه

وعاجنه وخابزه ، لان كلامنها موجه إلى إعداد الخبز مباشرة ، وان تنوعت حالات القمح المراد جعله خبزا (ثانيا) الى غير مباشرة لإعداد الصنف ، وهذه إما يدوية أو عقلية ، أما الاولى فلا يخلو حالها من أحد أمور خمسة (ا) الاعمال التي يتكبدها الناس في استخراج المواد الاولية اللازمة للصناعة كاحتفار المناجم وتشذيب الاشجار وغير ذلك ، وهذه بالطبع منتجة مادامت نتيجتها تستخدم في الصناعة (ب) الاعمال التي تصرف في إعداد الآلات اللازمة لصناعة الصنف ؛ مثال ذلك شغل الحداد في تجهيز المحراث أو آلة الغزل (ج) الاعمال التي يكون من شأنها بناء المحلات المعدة للصناعة كالمعامل والاحواض ، وهكذا لانه لولا تلك المحال لما توفر إعداد البضائع القطنية مثلا أو المراكب (د) ما يوجه من الاعمال الى الحصول على طعام وكساء ولوازم للصناع مادامت تلك الحاجات غير خارجة عن حد الكفاية ، أو للحصول على الفحم اللازم لتسيير الآلات البخارية في حالة ما اذا كان الصانع لا يشتغل بيده (هـ) الاعمال التي بواسطتها يمكن نقل الصنف الى حيث يطلبه الناس ، ويدخل فيها عمل الحمالين في البر وصناعة المراكب والآلات البخارية وبناء الاحواض والارصفة وأعمال أمناء النقل والمراكبية وجميع التجار والمتسببين والسماسرة والاعمال التي تحسنت بواسطتها الطرقات وغير ذلك . أما العقلية فمنها ما هو متعلق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة ، كالاختراع والتأليف وتعليم الصناعات والتفنن في ابتداعها وترويجها ، ولاشك في ان هذه منتجة ، ولافرق بين أن تكون هذه موجهة الى الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، ويدخل تحت هذه أعمال الري على اختلاف أنواعها ، وجميع ما تعمله الحكومة أو الاهالي لترقية الصناعة أو التجارة أو الزراعة ، ولا جناح علينا اذا نحن عددنا ضمن تلك الاعمال ما يبذله الفلاسفة والحكماء من الافكار لتحسين الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تبذله الحكومة من بث العدل في الربوع ، والمحافظة على الامن ، سواء بسن القوانين أو الاعمال الحربية برية كانت أو بحرية

(المنار) : ان بعض ما أورده المؤلف من الاحاديث لا صحة لاصله أو سنده وان كان صحيحا في معناه ووضعه

باب المناظرة والمراسلة

المامة

بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام (*)

«لحضرة الفاضل جرجي افندي زيدان»

عرف الناس في مصر من حضرة الفاضل جرجي افندي زيدان معلما فمترجما فصحافيا ففيلسوفا لغويا فنسابة فروائيا مبتدعا فمتفرسا فمؤرخا خياليا قصاصا . ثم هم يستقبلون منه الآن مؤرخا اسلاميا محققا . ولا ندري ما يعرف منه اهل سورية قبل هجرته الى مصر . كل هذه صفات فاضلة ومواهب جليلة قلما يخلص بعضها لافذاذ العلماء ونوابغ الرجال . وهي بخاوصها لحضرته أفادت من لا يحصى عددهم من قراء العربية ولا سيما المسيحيين منهم وعلماء الشرقيات من الاوربيين وغيرهم ممن لا يحبون مطالعة الكتب العربية أو لا يستفيدون منها لو لم تشكل بالاشكال التي رسمها جرجي افندي زيدان لمؤلفاته العديدة

كان هذا الفاضل يؤلف الكتب الروائية ويأتي فيها بالممكن والمستحيل والمستملح والمستنكر فكنا لا نتعرض لها بمسخ أو نسخ لعلمنا ان الذي قاده الى هذه المواقف هو استرسال الخيال وهو قد يفضي بصاحبه في النثر الى مثل ما يفضي به في الشعر فيكون أعذبه أكذبه ، ولاعتقادنا ان نفعها اكبر من اثمها ، وان الكتب العربية الصحيحة لا تزال بعد منتشرة في جميع أرجاء العالم ناطقة ببيان الغث من السمين والصحيح من الباطل ، على انه ما من كتاب وضعه بشر الاوكان فيه لهوى النفس والسخائم الدينية والعصبية الجنسية بله الخطأ والغفلة أثر أي أثر ، الا ماشذ

(*) بقلم الشيخ احمد الاسكندري

وندر، فلما قرأت تقريظ حضرة الفاضل (المغربي) أحد محرري المؤيد لكتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) وهو آخر ما أخرج للناس بعد من كتب مولفنا المذكور وجدته قد ملأ ما يقرب من صفحة من صفحات المؤيد بعبارات الاطراء والتهويل والاعجاب والاغراب مما لو قبله القارئ، لم يشك ان العرب خلقت خلقا جديدا أو ان تاريخ جاهليتها الاولى المقبور في بطون القدم قد نبشه المؤلف من ناووسه، فرابني قوله - والمبالغة تريب - ولم أر الامر يخرج عن إحدى خصال ثلاث، إما أن يكون قرظه ولم يقرأه كعادة أكثر محرري الصحف لضيق وقتهم، وإما أن يكون قرأه وصانع المؤلف لصداقة بينهما - وللصداقة حقوق - وإما أن يكون المؤلف قد وفق حقيقة للعثور على الضالة المنشودة والحلقة المفقودة من تاريخ جاهلية العرب، وما ذلك بعزيز على نشاط الرجل واجتهاده

ولما كنت ممن عني بهذا الموضوع عناية شديدة قرأت الكتاب بالهاف أخذ تناقص بتناقص أوراق الكتاب فاذا به والحق أقول خير مؤلفات الرجل ولا انكر انه أفادني بعض فوائد ثمينة هاجت في نفسي ميلا الى نقده ولا ينقد الا كل ذي قيمة

يقع كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) في ٢٥٠ صفحة كتب في ٣٠ صفحة منها مقدمة طويلة ليست من موضوع الكتاب في شيء، وانما ذكر فيها كعادته في كتبه غموض تاريخ العرب وصعوبة التأليف فيه أو تعذره الا على من كان من أهل الجسارة أو الاطلاع الواسع والمعرفة بكثير من اللغات الحية والميتة والبحث والتنقيب في آثار الامم الخالية ثم ذكر شبه فهرس مطول ثم تمهيدا في مصادر تاريخ العرب وهي الكتب العربية وغير العربية من اليونانية والرومانية والنقوش الاثرية وقد تحامل على العرب فيها ما شاء ان يتحامل مما يظن معه قارئه ابتداء ان أكثر مصادر الكتاب أثرية أو يونانية قديمة أو أوربية حديثة لكثرة أسماء الكتب والرحلات التي ذكرها وهي نحو السبعين كتابا غير الموسوعات والمعاجم الكبرى التاريخية والاثرية وغيرها (كما يقول) فاذا هو قرأ الكتاب وجد ان نحو أربعة اخماسه عربي المصدر وان لا ذكر لهذه الكتب والمعاجم إلا نزرا يسيرا في ذيل

الكتاب يعرف ذلك من اطلع على الكتاب بامعان ومن رأيي ان هذه المقدمة تجارية أكثر منها علمية

فائدة المؤرخ من الكتاب

إن الذي لا يعرف اللغات الاوربية يستفيد من الكتاب

أولا — ما ترجمه المؤلف من آراء بعض قدماء اليونان في الجغرافية العربية غثة كانت أو سمينة

ثانيا — ما ترجمه من آراء بعض سياح الاوربيين في شمال جزيرة العرب وجنوبها على قلة في ذلك

ثالثا — بعض الصور والرسوم والخطوط والنقود التي نقلها من رحلات هؤلاء السياح مثل رسم سد مأرب و بعض قصور اليمن وهيكل تدمر و بطرا

رابعا — معرفة كيف كان يختلف اللسان النبطي والتدمري عن العربي الفصيح وهي فوائد تشكر للمؤلف اذاعتها في كتاب مستقل

الامور التي تؤخذ على المؤلف

الامر الاول — تردده أو إنكاره بعض الحقائق التاريخية البديهية في موضع وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتمادا على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط

فمثال الاول — انه عند ما أراد التكلم على تقسيم عرب أواسط الجزيرة وشماليها الى قحطانيين (يمانيين) وعدنانيين مال الى انكار هذا التقسيم ورأى رأيا عجيبا لايخطر على بال مؤرخ ولا قارئ وهو ان هؤلاء العرب كلهم عدنانيون فعنده ان مثل طي وكندة ولخم وجذام ومذحج وهمدان ومازن والأوس والخزرج عدنانيون . ونورد هنا ماقاله في ذلك (صفحة ١٨٢و١٨٣) قال :

«وكل هذه البطون أو القبائل قد رأيت انها ترجع بانسابها الى كهلان بن سبا أي انهم قحطانية — ذلك ما أجمع عليه العرب ولكن لنا رأيا في هذا الاجماع لايخلو ذكره من فائدة

« قد رأيت في ما ذكرناه عن الفروق بين القحطانية والعدنانية ان لكل منهما خصائص في اللغة والاجتماع والعادات والدين واسماء الاعلام . واذا تدبرت أحوال هذه الدول من غسان ولخم وكندة رأيتها تنطبق على العدنانية أكثر مما (كذا) على القحطانية من حيث اللغة فاننا لم نر في كلامهم وأقوالهم ما يدل على انهم كانوا يتكلمون لغة حمير بل لغة العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني . وقد يقال انهم اقتبسوا لغة الوسط الذي انتقلوا اليه ولكننا نستبعد ذلك لان الغالب في اقتباس لغة الآخرين ان يقع من الضعيف نحو القوي — فلو كان أولئك القوم قادمين من بلاد اليمن لحافظوا على لسانهم وسائر عاداتهم لانهم كانوا يومئذ ارفع منزلة من بدو الشمال وكان هؤلاء ينظرون الى اليمنية نظرهم الى أهل الدولة ويعدونهم الملوك كما ينظر البدوي الامي الى المتمدنين أصحاب الصولة والعلم . وزد على ذلك ان اليمنية كانوا يكتبون بالحرف المسند ولا نرى لهذا الحرف ذكرا في اخبارهم ولا أثرا في اطلالهم

« وقد علمت ان الكهلانيين أهل حضارة كما رأيت في ما ذكرناه من حديث سيل العرم وكيف ان الكهلانيين كانوا أهل حدائق وقصور باعوها وانتقلوا . فلو صح ذلك لاختاروا الاقامة في بلد آخر من اليمن غير مأرب وما جاورها لان السيل لم يخرب الا جزءا صغيرا من اليمن . فلم يكونوا يعدمون مكانا يقيمون فيه كما كان يقيم سواهم من قبائل الحضر واخوانهم الحميريون ما زالوا أهل دولة وعمران وظلوا في رغد ورخاء وسعة من العيش الى ظهور الاسلام

« فما كان أغنى الكهلانيين عن الرحلة الى بادية الشام أو العراق والرجوع الى البداوة وهي شاقة على من تعود الحضارة والرخاء

« واعتبر ذلك في معبوداتهم فانها من معبودات عرب الشمال أو العدنانية ولم نجد عندهم ما يميزهم عن هؤلاء من هذا القبيل . ولو كانوا من عرب اليمن لوجدنا بين معبوداتهم اسم عشتار أو ايل أو نحوها

« وهكذا يقال في اسمائهم وليس فيها رائحة الاعلام السبأية أو المعينية بل هي مثل اسماء سائر عرب الشمال ولا سيما الذين سكنوا مشارف الشام قبلهم كالانباط

ونحوهم ومنها الحارث وثعلبة وجبلة والنعمان وغيرها . ولا يعترض بما ذكره العرب بين اسماء ملوك حمير من أمثال هذه فان أكثرها مبدل بأسماء شمالية وانما عمدتنا في ما ذكرناه على الاسماء التي وقفوا عليها في الآثار المنقوشة

«فلا دليل على قحطانية هذه الامم إلا أقوال النسابين وهي أضعف من ان يعول عليها في هذا الشأن لاحتمال ان تكون تلك الامم قد انتحلت الانتساب الى عرب اليمن التماسا للفخر بين قوم لا يعرفونهم ولا سيما بعد ان تقربوا من الروم أو الفرس وصاروا من عمالهم » اه

ونقول في دحض هذه الاقوال :

(١) أما عدم الاختلاف في اللغة فان الاختلاف فيها إما أن يكون في الاصول وإما في الفروع أما الاصول فلم يكن بينها خلاف جوهري لأن لغات العرب كلها من اصل واحد كما اعترفت به حضرته وأما الفروع فلم ينكر احد سواه وقوع الاختلاف فيها حتى في لغات القبائل التي لم تخرج من اليمن فالاختلاف في الاعراب والتصريف والقلب والاعلال والابدال مملوء به كتب النحو والصرف والاختلافات في معاني الكلمات المفردة لم تهملها كتب اللغة والادب ولذلك وقائع وحكايات جر الخطأ في التفاهم بسببها الى ازهاق الارواح كما في حكاية قتل مالك بن نويرة وقومه وكلنا يعرف ماهي العجعجة والشنشنة والاستنطاء في لغات اليمانية

ولو كان بعض الاتفاق في اللغات بين القبائل المختلفة يجعلها من اصل واحد لقد كان المحتم على حضرة المؤرخ أن تقول ان قبائل حمير التي لم تخرج من اليمن عدنانية أيضا لاتحادها مع العدنانيين في الاصول واختلافها عنها في بعض الفروع إبان ظهور الاسلام وقد حفظ لنا التاريخ الصحيح وكتب السنة الصحيحة كثيرا من مقالات وفود الحميريين على النبي صلى الله عليه وسلم وهي لا تختلف عن العدنانية الافي معاني بعض المفردات . وانما حدث هذا التقارب في اللهجة واللغة لتقاربهم في البيئة (الوسط) والمجامع والاسواق التي كانوا يقيمونها وأما أن الضعيف يقتبس لغة القوي وزعمه ان اليمانيين كانوا هم الاقوياء الغالبين فذلك على فرض تسليمه

لا ينهض حجة على اثبات دعواه لما كانت عليه العرب في القرون القريبة من ظهور الاسلام من التقارب في جميع الاحوال حتى قبائل حمير نفسها بعد غلبة الحبشة والفرس عليها

(٢) واما انه لم يوجد أثر للحرف المسند من جهات الشمال فذلك قد كذبه بنفسه في موضع آخر عند تكلمه على عرب الصفا حيث أتى بهذا العنوان لأمم سبئية في الشمال وذكر تحت هذا العنوان كلاما كثيراً عن ان أمم حمير انتقلت إلى الشمال ووجد لها أنواع من الخط المسند كالقلم الصفوي والثمودي واللحياني وقال ان الباحثين لا يزالون في أول البحث

(٣) أما أنه لا حامل للقحطانيين على الهجرة من بلادهم وجناتهم وقصورهم الى الصحارى المجدبة بلا سبب عظيم وإن سيل العرم لا يكفي لتفرقهم أيادي سبا فان الاسباب الحقيقية لهذه الهجرة لا تزال مجهولة كأسباب هجرة أكثر الامم القديمة وانما كان من أهمها حادثة سيل العرم مضافة الى منازعات وحروب أهلية أو مجاعات أو ان الارض قد ضاقت عليهم فالتمسوا غيرها من بلاد الله ولم تكن وجهتهم في رحلتهم هذه القفار بل كانت ريف العراق ومشارف الشام ولا تنكر حضرة المؤرخ عظم دولتهم في الحيرة والانبار وفي سورية وفلسطين فلقد احتلوا في الاولى جميع الاراضي التي بين دجلة والفرات حتى سميت العراق العربي وفي الثانية أكثر بلاد فلسطين وسورية وحلب ولا شك ان هذه كانت اخصب من بلادهم وبقية اليمانيين الذين سكنوا البدو منهم فانما تراجعوا اليه بعد منافسات مع بني عمهم في الشمال مع بعد عهدهم باليمن وخصبه واما اكتفاء المؤرخين بذكر حادثة سيل العرم فذلك وهم سرى اليهم من تعقيب ذكر قصة السيل في القرآن الكريم بقوله تعالى (وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) فان الظاهر من الآية ان التمزيق سببه ظلم أنفسهم والظلم يأتي بأسباب كثيرة اعتدائية لا بسبب خارجي فجائي لا دخل لهم فيه مثل انفجار السد

(٤) واما دعوى اتحادهم في المعبودات فلا نسلم انها كلها كانت عدنانية بل كانت خليطا من كل الاديان فقد عبد كثير من العدنانيين الشمس والقمر والكواكب

وهي من معبودات أهل الجنوب كما تهوّد وتنصر أهل الجنوب واليهودية والنصرانية من أديان أهل الشمال

(٥) واما توافق اسمائهم فذلك إرث من طبيعة الجوار والبيئة وتمازجهم في كل شيء كما يسمي الاقباط الآن انفسهم باسماء عربية وتركية بعد ما زالت سيطرة العرب والترك وكما يسمي الترك أنفسهم باسماء عربية مع انهم هم الغالبون للعرب وكما يسمي السوريون أنفسهم بأسماء انجليزية وفرنسية على ان هذا المؤرخ الذي أنكر في غير موضع من كتابه وجود اسماء عدنانية بين اسماء الحميريين نقض كلامه في صفحة (١٥٩) حيث نقل عن غلازر الالماني احد الاثريين الذين وجدها في اطلال السد وهذا كتبه ابرهة قبيل ظهور الاسلام وفيه يذكر الاقيال الذين قهرهم أو ولاهم عنه مثل يزيد بن كبش ومرة وثمامة وحنش ومرثد وكل هذه اسماء عدنانية كما ان معديكرب الزبيدي إسمه حميري وهو من القبائل التي ينكر المؤرخ حميريتها

وأما الادلة الوجودية على ان القبائل المذكورة قحطانية فأ كثر من ان نأتي بها جميعها في هذه المقالة وهي بالغة بصراحتها الى أفق البديهيات

فمنها اعتراف جميع هذه القبائل بأنها يمانية حتى بعد ان ظهرت مضر عليهم في وقائع عديدة وبعد ان خضعوا للمضريين بعد الاسلام وتعصب المضرية واليمانية في الفتن التي وقعت في الصدر الاول غصت به كتب التاريخ والادب

ومنها اجماع النسابين والمؤرخين باعتراف حضرته على ان القبائل المذكورة قحطانية

ومنها ما ثبت في الاحاديث الصحيحة مما يشير الى هذه التفرقة. ولو أردنا ذكر الشواهد التاريخية من الوقائع والمفاخرات وقصائد الشعر من الحماسة والمدح والهجاء وجميع الاحاديث النبوية لاثبات ان هذه القبائل قحطانية لوضعنا في ذلك كتابا يزيد عن كتاب جرجي افندي زيدان اضعافا (لها بقية)

﴿ كلمات في النسخ والتواتر وأخبار الآحاد والسنة ﴾

رد على الاستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*)

(الكلمة الثالثة) — في بيان مااستشكله الاستاذ الشيخ اليافعي في تفسيرنا للآيات التي يستدلون بها على النسخ في القرآن — ان استدلالهم على النسخ بقوله تعالى (مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قد فنده الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في تفسيره كما نقلنا ملخصه عنه في مقالة الناسخ والمنسوخ وقلنا ان المراد بالآية هنا هي العلامة والدليل على النبوة كالمعجزة ونحوها ومعنى نسخها ترك العمل بها في التأييد وعدم إظهارها مرة أخرى لتصديق النبي وذلك على حد قوله تعالى في آية أخرى في هذا المعنى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب) أي لكل زمن حال مكتوب عليهم ومقدر لهم لايناسبهم غيره (يمحو الله مايشاء) من الآيات السابقة وغيرها فلا يعيدها مرة أخرى للامم اللاحقة لعدم مناسبتها لحالهم فهو كقوله هناك (مانسخ) فالمجرد النسخ في الآيتين بمعنى واحد (ويثبت) مايشاء مما يرى الحكمة في إبقائه أو إعادته (وعنده أم الكتاب) أي العلم التام بكل حال ومايناسبه : فالسياق في هاتين الآيتين يدل على ماقلناه فيهما وهما مفسرتان بعضهما لبعض

يقول الاستاذ الفاضل : لوكان تفسيرنا لهذه الآية صحيحا لكان التقدير فيها : ما ننسخ من مثل آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . ونقول نعم فليكن كذلك فهو كقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون) فان تقديره : وما منعنا أن نرسل بالآيات التي تقترحونها إلا أن كذب بمثلها الاولون وقوله تعالى (نأت بخير منها أومثلها) فانما المثلية في قوة الحجة والاقناع لا في كنهها وماهيتها فأي عيب يراه الاستاذ في هذا المعنى وكيف يفسر هذه الآيات وآية (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الخ الآية التي سبق ذكرها ؟؟

(*) للدكتور محمد توفيق افندي صدقي

فكل آية من آيات الانبياء السابقين التي نسيها الناس أو لم يظهرها الله تعالى مرة ثانية على يد النبي صلى الله عليه وسلم قد أتى بمثلها في الاقناع والهداية أو بخير منها في ذلك فأظهر تعالى على يده معجزات كثيرة وأنزل عليه آيات الكتاب العزيز فهو المعجزة العظمى الباقية وآية الآيات الكبرى الخالدة التي رآها الناس في كل زمان ومكان ويقدرها العقلاء قدرها فانها لا تشتبه بسحر ولا بشعوذة أو غش أو تدليس فهي خير من جميع المعجزات التي سبقتها وأعم فائدة وأتم دليلا وأكثر مناسبة لحال البشر وقد ظهر ذلك الآن أتم الظهور فنرى العلماء اليوم في أوربا وكثير من البلاد المتمدنة صاروا ينفرون من ذكر المعجزات الحسية ويودون لو أوتي أنبياؤهم معجزات غيرها علمية عقلية أدبية أي كمعجزة القرآن الشريف . فلو لم يؤت صلى الله عليه وسلم سواه لكفى ولذلك قال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فما بالك وقد أعطي معجزات كثيرات غيره كما تواترت به الاخبار

واعلم أن نظم الآية التي نحن بصدد تفسيرها لا يقبل أي معنى آخر سوى ما اخترناه فيها ولذلك ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) فلو كان المراد آيات الاحكام كما يقولون لقال : ألم تعلم أن الله عليم حكيم ، فانه أتم مناسبة وأشد ملاءمة لما يقولون ولما قال بعدها (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) فقد سأل بنو اسرائيل موسى من قبل مقترحين آيات غير ما اراهم عنادا وكفرا (فقالوا أرنا الله جهرة) . فاذا كان تفسيرهم صحيحا فما مناسبة هذا الكلام هنا وما معناه ؟ ! وإذا كان المراد آيات الاحكام لا المعجزات فهل الله تعالى أتى بدل الآيات المنسوخة بآيات خير منها ؟ إن كان ذلك صحيحا فكيف نسخ كثير من أحكام القرآن بالسنة على قول بعضهم ؟ مثلا قالوا إن آية الوصية للوالدين والاقربين قد نسخت بحديث « ألا لا وصية لوارث » فلم يأت بدلها في القرآن ؟ وأين البدل

للآيات التي نسخ لفظها وحكمها معا كقوله : عشر رضعات معلومات يحرمن ، الذي نسخ على زعمهم بقوله (خمس رضعات معلومات) ثم نسخ لفظ هذا الاخير ولم يأت بدله ولا يزال حكمه باقيا كما في مذهب الشافعي وكذلك لم يأت بدل للفظ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة" وغير ذلك كثير ! !

أما آية مناجاة الرسول التي فسرناها في مقالاتنا السابقة فنزيد على تفسيرنا لها أن قوله تعالى فيها (فان لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة) الخ معناه إن لم تفعلوا ماندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم فلم يعاملكم كما كان يعامل الامم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما اوجبه عليكم فلذا ندبكم إلى هذا الامر ولم يجعله عليكم فرضا كما هي سنته في معاملتكم بالرأفة والرحمة فأقيموا الصلاة إلخ فقوله (وتاب الله عليكم) قد ورد هنا بمعنى الرجوع الى التخفيف والتسهيل على هذه الامة والعدول عن معاملتها كسابقيها لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب .وقد ورد بذلك المعنى أيضا في آية أخرى في سورة المزمل وهي قوله تعالى (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) أي رجع إليكم بالتخفيف ورفع عنكم مايشق عليكم وليس معناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب إذ لاذنب هنا صدر منهم

قال الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي منتقدا على تفسيرنا لآية (واذا بدلنا آية مكان آية) أن السياق لايدل على أن هذا القول صدر من أهل الكتاب كما قلنا فانه لم يتقدم لهم ذكر في السورة . ونقول ان صدور هذا الكلام من أهل الكتاب لاينافي أن غيرهم من العرب شاركهم في ترديده والموافقة عليه عنادا للنبي صلى الله عليه وسلم وتكذيبا له فلذلك وردت هذه الآية في سياق الكلام عن مشركي العرب فانهم وافقوا أهل الكتاب منهم في دعاويهم الباطلة وتعاونوا بهم على تكذيب النبي عليه السلام ولذلك كانوا يقولون تقليدا لهم في تكذيب القرآن (أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون) فانهم لايؤمنون برسل الاولين ولا يعرفونهم ولايصدقون بآياتهم ولكنهم يرددون ما يلقيه لهم أهل الكتاب وإن خالف معتقداتهم مادام فيه تكذيب للنبي وإغاظة له ولذلك ترى في القرآن آيات

كثيرة أمثال هذه التكذيبات اليهودية أو النصرانية واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب فانهم جميعا كانوا متضامنين ومتحدين بعضهم مع بعض على النبي وتكذيبه وعرقلة مساعيه فهم - وان اختلفت أديانهم - أمة واحدة ويد واحدة على رسول الله . فمن أمثلة هذا التضامن والاتحاد في التكذيب قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) ولما كان اليهود هم الموعزين الى المشركين بذلك عنادا لرسول الله وحقدا عليه ومكابرة له قال تعالى له (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس) الآية وهي واردة في سياق الكلام مع مشركي العرب السبب الذي ذكرناه وهو أنهم أمة واحدة ومتحدون على بغض الرسول وتكذيبه وتلقين بعضهم بعضا صنوفا من الشبهات والتشكيكات غير مبالين بمخالفتها لمعتقداتهم فلذا صح أن ينسب ما يقوله بعضهم لهم جميعا لاتباعهم له وتعويلهم عليه في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك في جميع اللغات المعروفة ينسب عمل بعض أفراد الأمة إلى الامة جميعها خصوصا إذا رضيت به وأقرته وان اختلفوا عقيدة فما بالك إذا كانوا جميعا يأتون الشيء و يعملونه

ومن أمثلة ذلك أيضا قول المشركين (لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) مع أنهم لا يؤمنون بموسى ولا بما جاء به وهو يدل على أنهم كانوا يقلدون اليهود تقليدا أعمى و يطيعونهم في جميع ما يوعزون به إليهم وإن نافى معتقداتهم كما قلنا إرضاءلهم واستجلابا لودهم ومعاونتهم لهم على الرسول . فكثير من مثل هذه الاقوال كان صادرا عن اليهود ثم تبعهم فيه المشركون وصاروا يرددونه عنهم فلذا اتبعوا اليهود في تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم في قوله إن القرآن نسخ بعض شرائع التوراة كالسبت وتحريم بعض اللحوم . ولذلك جاءت آية (وإذا بدلنا آية مكان آية) في سياق الكلام مع المشركين مع أن القول صدر أولا من أهل الكتاب وقلدهم فيه المشركون تقليدا أعمى كما قلدوهم في غيره مما سبق بيانه وجاءت به الآيات في سياق الكلام معهم

هذا وإن الاستاذ الفاضل قد استشكل جعل قوله تعالى (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) وصفا لليهود وفاته أن الله تعالى قد وصفهم

بمثله في آيات أخرى كثيرة كقوله (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة — إلى قوله — وما أولئك بالمؤمنين) وقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين)

(الكلمة الرابعة) — بيان أسباب أن أحاديث الآحاد لا تفيد اليقين

أولا — قد يكون الراوي كذوبا لكنه منافق ومتظاهر بالصلاح والتقوى لسبب ما من الاسباب التي تحمل الناس على الكذب وهي كثيرة معروفة فيغتر به بعض الناس لعدم معرفتهم عنه شيئا يجرحه لشدة احتراسه وتستره . وقد يكون بعض المحدثين مؤمنا صادقا مخلصا صالحا لكنه ينخدع لظاهر هؤلاء المنافقين فيأخذ الحديث عنهم ويصدقهم وهم كاذبون اذ كلما اشتد صلاح المرء وخوفه من الله ظن أن أمثاله كثيرون وكثر انخداعه بأعمال المنافقين وظواهرهم وتجنب إساءة الظن والتجسس لشدة ورعه وتقواه أو بساطته وسذاجته في بعض الاحوال . وكثرة الكذابين وكثرة ما يضعونه من الاحاديث يشوش على الناقدين الباحثين عملهم ويوقعهم في الارتباك والخطأ كثيرا فيقبلون أحيانا ماليس صحيحا ويرفضون ما هو صحيح . ولا يلزم من كون المرء غير صالح أو عرف عنه بعض الكذب أن جميع ما يقوله كذب وقد يكون منفردا بحديث فلا يقبل منه لذلك مع أنه قد يكون صادقا فيه . وقد يكون المرء صالحا صادقا ولكنه يضطر في بعض الاحيان الى أن يكذب ولو واحدة فلا يسلم ما يؤخذ عنه من ان يكون فيه بعض الكذب او المبالغة

ثانيا - قد يكون بعض الرواة من الصالحين الصادقين المخلصين ولكنه يخطىء المراد ولا يفهم الحقيقة فيحدث كما فهم معتقدا انه صحيح . والتحديث بالمعنى كان عندهم جائزا . وقد ينسى شيئا مما سمعه ويقع في الغلط بسبب ذلك بدون أن يشعر به . ولذلك قال عمران بن حصين رضي الله عنه « والله إن كنت لأرى أني لو شئت لحدثت عن رسول الله يومين متتابعين ولكن بطأني عن ذلك أن رجالا من اصحاب رسول الله سمعوا كما سمعت وشهدوا كما شهدت ويحدثون أحاديث ما هي كما يقولون وأخاف أن يشبه لي كما شبه لهم » كما رواه ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث

ثالثا — إثبات عدالة رجال الاسانيد كثيرا ما تكون مبنية على شهادة شاهد أو رواية واحد فكأنهم يثبتون صحة الروايات بعدالة الرجال ثم يثبتون عدالة الرجال بالروايات ولا يخفى على أحد فساد ذلك فان ما يقال في رجال الأسانيد يقال مثله جرحا وتعديلا فيمن يشهد لهم ويوثقهم وربما أدانا ذلك إلى التسلسل أو الدور في البرهان

رابعا — أكثر الاحاديث والروايات مقتضبة فلا يعرف المقام الذي قيلت فيه ولا مناسباتها ومن المعلوم أن الاقوال إذا لم تعرف الظروف التي قيلت فيها قد تخرج عن المراد منها خروجا كليا أو جزئيا

خامسا — من المشاهد في جميع الاجيال وفي جميع الامم أن حفظ الاحاديث إذا كانت طويلة أو كثيرة بدون تحريف في ألفاظها أو معانيها ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصا عسير جدا على الناس إلا من شذ وقليل هو وخصوصا إذا ألقيت مرة واحدة . ولذلك جزم بعضهم بأن من ادعى نقل الشيء كما هو بحروفه في مثل هذه الاحوال فهو مفتر كذاب فالنقل في أغلب هذه الاحوال هو تقريبي ولا يخفى ما ينشأ من مثل هذا النقل من الافتراآت والاختلافات والاكاذيب فاذا امتاز بعض الناس بهذه المقدرة فليس جميع الرواة ممن امتازوا بهذه المزية الشاذة

سادسا — قبل زمن تدوين الاحاديث كان جل رواتها إن لم نقل كلهم لا يكتبون الحديث ولا يعتمدون فيها الا على ذاكرتهم وقد سبق لنا كتابات طويلة في هذا الموضوع في المنار ومجلة الحياة وجريدة الدستور وقد أيدنا فيها الاستاذ الكبير والعلامة المحقق صاحب المنار الاغر . ومن اعتمد على ذاكرته فقط لا نبرئه من الخطأ والنسيان في جميع الاحوال مهما كان

هذا شيء مما يقال في روايات الآحاد فهي عندنا لا تفيد اليقين لطروء مثل هذه الاحتمالات عليها وبذلك قال أيضا الجمهور وان أراد أن ينكر ذلك الاستاذ اليافعي زاعما أنها تفيد اليقين

واذا كانت هذه الاحتمالات مما يرد على أحاديث المسلمين ورواياتهم فما يرد

على أحاديث غيرهم أشد وأقوى وأكثر فانه لم يعرف عن أي أمة مثل ما عرف عن الامة الاسلامية من العناية والتمحيص في الروايات والنقد والبحث في رجال الحديث ولم يكن يخطر على بال غيرهم شيء من مثل ذلك

ولا خوف على الدين الاسلامي المتين من هذه المطاعن التي أوردناها على روايات الآحاد فان حجته ناهضة بالمتواتر فيه والمجمع عليه فليهدأ المسلمون بالا

(الكلمة الخامسة) — في ذكر شيء مما خالفوا فيه القرآن لاجل الحديث

قال الله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) . في هذه الآية — وأمثالها في القرآن كثير — يذم الله تعالى اتباع الظن والقول في دين الله بغير علم أي بغير ما يفيد اليقين وهي واردة في سياق الكلام مع من حرموا أشياء ليس عندهم دليل على أن الله حرمها عليهم . وقال أيضا قبل ذلك بقليل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون — الى قوله — وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) ومنه نرى أن العمل بالظن في شريعة الله غير جائز اللهم إلا اذا اضطررنا إليه كما في بعض الاحكام القضائية بناء على قاعدة : الضرورات تبيح المحظورات المؤيدة بالكتاب والسنة وإلاَّ فانه يحرم على الانسان أن يحل شيئا أو يحرمه لدليل ظني فما بالك بمن يعارض القطعي بالظني ؟ لا شك أنه يكون مرتكبا لاثم كبير . وقد أقر الاستاذ الفضل الشيخ اليافعي بأن الظن إنما يذم إذا عارضنا به الامر القطعي . يقول ذلك وقد غاب عنه أنه هو ومن على مذهبه كثيرا ما عارضوا نصوص القرآن الشريف الصريحة وخالفوها لأجل أحاديث الآحاد وهي لا شك ظنية كما عليه الجمهور . وإليك بعض الامثلة على ذلك : —

(١) خالفوا قوله تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين) الآيات لحديث « ألا لا وصية لوارث »

(٢) حرموا أكل الحمر الاهلية التي كانت تأكلها العرب كثيرا لما رووه من أن النبي صلى الله عليه وسلم حرمها مع أن القرآن الشريف يقول (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) الآية . ويقول (إنما حرم عليكم الميتة والدم) الآية ونحوها كثير

(٣) قالوا بحرمة استعمال الذهب والفضة والحرير للاحاديث التي رووها والقرآن يقول (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) فهي للمؤمنين يتمتعون بها في الدنيا وستخلص لهم وحدهم يوم القيامة فيحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير .

(٤) حرموا أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها للحديث وخالفوا قوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) بعد أن ذكر سائر المحرمات وليس من بينهن المرأة على عمتها أو خالتها

(٥) أوجبوا القتل مطلقا على من ارتد عن الاسلام للحديث ، والقرآن يقول (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ـ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

فهذه بعض أمثلة مما عارضوا فيه القطعي بالظني وهو مما نكرهه ونذمه وقد ذمه الله تعالى في كتابه العزيز كما أقر به الاستاذ المناظر وإذا تتبعنا مذاهبهم وجدنا أمثلة غير ذلك كثيرة فهل يعقل أن الله يبيح للمسلمين ما كان يذم لاجله غيرهم في كتابه ؟!!

أنا لا أقول إن جميع هذه الاحاديث يجب ان تكون موضوعة ولكن لا يبعد أن بعضها كان كذلك والبعض الآخر يغلب الظن أن له أصلا صحيحا وأنه كان شريعة خاصة بأحوال خاصة وظروف مخصوصة في مبدأ الاسلام ولا تخفى حكمة ذلك على الناقد البصير إذا تأملها . وما جاء به القرآن هو الشرع العام لكل زمان ومكان ولذلك لم تأت أمثال هذه المسائل الخاصة فيه ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن تدوينها كي لا تكون خالدة بينهم كالقرآن الشريف ولتزول من بينهم بزوال عللها وأسبابها كما سنبينه ان شاء الله تعالى في رسالة لنا في هذه المسائل سنطبعها على

حدة لطولها . فالمسلمون اتبعوا كثيرا من مثل هذه الاحاديث مع اعترافهم بأنها ظنية وخالفوا لاجلها القرآن الشريف مع أن ذلك مذموم فيه . وقد نسوا علل ما كان صحيحا منها ولم يراعوا أسبابها ولا الظروف التي قيلت فيها مع أن معرفة أسباب الاحاديث النبوية يحتاج إليها أكثر من الاحتياج إلى معرفة أسباب نزول القرآن الشريف ولذا لم يحسن المسلمون الجمع بين هذه الاحاديث و بين نصوص الكتاب العزيز . وهذه الاشياء هي مما ننكره عليهم وخصوصا لأن من الاحاديث التي يسلمونها ما يوجب الطعن في الكتاب المتواتر نفسه كما أشرنا إليه في الكلمة الاولى . فلولا تغاليهم في اعتبار الاحاديث لما وقعوا في كثير مما وقعوا فيه من الاختلافات والاشكالات والشبهات وغيرها حتى جعلوا اليسر عسرا والسهل لغزا

وإني لاعجب من أهل الحديث هل إذا سمعوا أي قول منسوب إلى رسول الله يلزمون أنفسهم بالبحث في رجال سنده وتواريخهم أم عليهم العمل به لمجرد نسبته إلى الرسول بدون بحث ولا تنقيب . أما الامر الثاني فهم لا يجوزونه لظهور فساده وأما الامر الاول فكأنه يجب على كل مسلم بمجرد ما سمع أقوالا منسوبة إلى رسول الله أن يفني حياته في معرفة أحوال رجالها والوقوف على أمورهم وإذا لاحظنا ان التقليد في الاسلام منهي عنه وجب على كل فرد أن يبحث في أحوال الرجال و ينقدهم ويمحص كل ما وصله في الاحاديث وما يصله بنفسه والا بقي دينه ناقصا . فأي حرج في الدين أكبر من هذا وخصوصا كلما طال العهد على رجال الاسانيد و بعد مكانهم وزمنهم عنا . والله يقول (ما جعل عليكم في الدين من حرج) (لها بقية)

مناظرة عالمين (*)

« في مجلس المأمون »

إذا أردنا من القرآن كلام الله كان قديما لانه يكون اذ ذاك عبارة عن صفة من صفاته تعالى وهي قديمة ، وان أريد بالقرآن ما عدا الصفة القديمة من صوت مسموع أو مصحف مصنوع كان حادثا

هذه المسئلة على بساطتها ووضوحها كان لها في تاريخ الاسلام الديني اسوأ الاثر وآل الامر فيها الى أن يسجن مثل الامام أحمد بن حنبل ويقيد ويعذب . وكان سواد الامة ومعظم علمائها من الفريق القائل بان القرآن قديم . اما الفريق القائل بالحدوث — ويسمى (المعتزلة) — فاتفق له من بعض خلفاء بني العباس من يأخذ بقوله ويحمل الناس عليه ، ومن ثمه كانت صولته أشد ، وعامل جبروته انفذ ، وكان من هؤلاء الخلفاء الذين أيدوا القول بالحدوث المأمون بن الرشيد ، فكان هذا الخليفة على ما فيه من علم صحيح وعقل رجيح يشدد على الناس وينكل بهم إن قالوا بما يخالف رأيه ، فكان الناس لعهده يستترون في بيوتهم ، وينقطعون عن شهود الجمعة والجماعة ، ويتسللون من بلد الى بلاد خشية الفتنة والارهاق ، وقد منع الفقهاء والمحدثون من القعود للناس في المسجد الجامع الواقع في الجانب الشرقي من الرصافة وفي غيره من المواضع ، الا بشرا المريسي ومحمد بن الجهم ومن رأى رأيهما من علماء المعتزلة القائلين بحدوث القرآن ، وكل من اظهر مخالفتهم قيد اليهم ، وعرض قوله عليهم ، فان أصر قتل سرا أو جهرا أو نفي من الارض . وكان كثيرون من العلماء يوافقونهم في الظاهر خوفا على أنفسهم وفي الباطن يبرأون الى الله مما أعلنوه .

شاع أمر هذه المحنة في بغداد وجعل أهل الامصار الاسلامية يتداولون خبرها

(*) لصديقنا عبد القادر افندي المغربي الطرابلسي نزيل مصر

ويتعوذون بالله من شرها : قال عبد العزيز بن يحيي الكناني (الذي نلخص هذه المقالة من رسالة له ألفها فيما حدث له) اتصل بي وأنا بمكة ما ابتلي به الناس في بغداد وكيف استطال عليهم بشر المريسي ولبّس على أمير المؤمنين وعامة أوليائه، فأطال همي هذا الخبر، وأطار نومي، فخرجت من بلدي متوجها إلى ربي واسأله سلامتي حتى قدمت بغداد فشاهدت من غلظ الامر وامتداده أضعاف ما كان يصل إليّ .

ثم إن عبد العزيز جعل بعد وصوله الى بغداد يبتهل الى الله أن يسدده ، ويثبت عزيمته ، ويرشده الى طريقة يتوصل بها الى قهر تلك الفئة الجائرة وكف عاديتها، فبدا له ان يخفي أمره عن الناس جميعا خشية أن يقتل قبل ان يسمع كلامه ، ثم ارتأى أخيرا أن يقف بعد صلاة الجمعة في جامع الرصافة ويرفع صوته بمخالفة أهل البدعة وتسفيه آرائهم وطلب محاجتهم ، فإن إشهاره نفسه على هذه الصورة يحول دون اغتياله قبل مناظرته ، واستماع قوله ، ولم يكد ينتهي الامام من صلاة الجمعة في ذلك الجامع حتى سمع الناس من الصف الاول حيال القبلة والمنبر صوت رجل مكيّ الزي واقف على قدميه ينادي بأعلى صوته ابنه الصغير الذي اقامه قبالته عند الاسطوانة الأخرى :

الاب — ماتقول في القرآن يابني ؟

الابن — كلام الله منزل غير مخلوق ياأبي

فارتاع الناس لهذه المحاورة وهربوا على وجوههم خارجين من المسجد، وأسرعت الشرطة فاحتملوا عبد العزيز وابنه الى رئيسهم « رئيس البوليس اذ ذاك عمرو بن مسعدة » وكان جاء ليصلي الجمعة في جامع الرصافة

الرئيس — أمجنون أنت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس — موسوس ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس — معتوه ؟

عبد العزيز — لا والحمد لله ، وإني لصحيح العقل جيد الفهم ثابت المعرفة

الرئيس — فمظلوم انت ؟

عبد العزيز — لا

الرئيس لاصحابه — مروا بهما سحبا الى منزلي .

فاحتملهما الشرطة، وجعلوا يعدون بهما سحبا شديدا، وايديهما في أيديهم يمنة ويسرة، حتى صاروا بهما الى منزل الرئيس على هذه الحالة الفليظة، فادخلا عليه وهو جالس في صحن داره على كرسي من حديد وشواره عليه (١)

الرئيس — من أين أنت ؟

عبد العزيز — من أهل مكة

الرئيس — ماحملك على ماصنعت بنفسك ؟

عبد العزيز — طلبت القربة الى الله ورجاء الزلفى لديه

الرئيس — هلا فعلت ذلك سرا من غير نداء ولا اظهار المخالفة لامير المؤمنين؟! ولكن أردت الشهرة والرياء والسؤدد لتأخذ أموال الناس

عبد العزيز — ماأردت الا الوصول الى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه لاغير ذلك .

الرئيس — أو تفعل ذلك ؟

عبد العزيز — نعم ولذلك قصدت، وبلغت بنفسي ماترى، وتغريري بنفسي وسلوكي البراري أنا وولدي رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من العلم والفهم في كتابه، وما أخذه علي وعلى العلماء من البيان (٢)

الرئيس — إن كنت انما جعلت هذا سببا لغيره من المطالب اذا وصلت الى امير المؤمنين فقد حل دمك .

عبد العزيز — إن تكلمت في شيء غير هذا، وجعلت هذا ذريعة اليه، فدمي حلال

فوثب الرئيس وقال لاعوانه أخرجوه بين يدي، فاخرجوني أنا وابني بين يديه وهو راكب على فرسه، وجعلوا يعدون بنا على وجوهنا، وأيدينا في أيديهم، حتى وصلنا

(١) الشوار: اللباس والزينة وكأنه يريد به هنا الملابس ذات الطراز الخاصة برؤساء الشرطة والجند في ذلك العصر (٢) فليعتبر علماء هذا الزمان

الى دار الخلافة في الجانب الشرقي من بغداد . فدخل الرئيس على المأمون ، وبقيت أنا وابني في الدهليز واقفين على أرجلنا ، فأطال ثم خرج الى حجرة له وأمر بي:

الرئيس — اخبرت أمير المؤمنين بخبرك وما فعلت وما سألته من الجمع بينك وبين مخالفيك للمناظرة بين يديه ، وقد أمر أطال الله بقاءه وأعلى أمره باجابتك الى ما سألت ، وأمر بجمع المناظرين على هذه المقالة الى مجلسه أعلاه الله في يوم الاثنين الادنى ، ويحضر هو بنفسه معهم ليناظروا بين يديه ، ويكون هو الحكم بينكم

عبد العزيز — أطال الله بقاء مولانا أمير المؤمنين وأيد دولته

الرئيس — أعطنا كفيلا بنفسك حتى تحضر معهم يوم الاثنين وليس بنا حاجة الى حبسك

عبد العزيز — أدام الله عزك ، انا رجل غريب ، ولست أعرف في هذا البلد أحدا ، ولا يعرفني من أهلها أحد ، فمن أين لي من يكفل بي ، خاصة مع اظهاري مقالتي ، لو كان الخلق يعرفونني حق معرفتي لتبرأوا مني وهربوا من قربي وأنكروني.

الرئيس — نوكل بك من يكون معك حتى يحضرك في ذلك اليوم ، وتنصرف فتصلح من شأنك ، وتتفكر في أمرك ، فلعلك ترجع عن غيك ، وتتوب من فعلك ، فيصفح أمير المؤمنين عنك

عبد العزيز — ذلك اليك أعزك الله فافعل ما رأيت . ولما جاءت غداة يوم الاثنين حمل عبد العزيز مكرما الى دار الخلافة ، وأدخل الى حجرة رئيس الشرطة فسأله هذا عما اذا كان لم يزل مقيما على رأيه ثم نصحه وحذره وخامة عاقبة مخالفة أمير المؤمنين فيما اذا ظهر عليه مناظروه ، وانه ليس حينئذ إلا السيف ، وانه إن ندم ورجع عن مقالته سأل أمير المؤمنين الصفح عنه ، وضمن له جائزة وقضاء ماله من حاجة ، فأجابه عبد العزيز بأنه ما خرج من بلده الا رجاء إقامة الحق .

الرئيس — وقد وقف على رجليه — قد حرصت على خلاصك جهدي وانت حريص على سفك دمك جهدك

عبد العزيز — معونة الله أعظم وألطاف من أن يذلني ، وعدل أمير المؤمنين ... من أن ... ...

وكان قد صدر الامر إلى بني هاشم أن يركبوا ، والى القضاة والفقهاء الموافقين لهم على مذهبهم وسائر المتكلمين والمناظرين أن يحضروا ، والقواد والاولياء (١) فركب القوم بالسلاح لإحداث الهيبة في نفس عبد العزيز وسائر الناس الذين يوشك ان يفسدهم ، قال عبد العزيز ثم أذن لي فلم أزل أنقل من دهليز الى دهليز حتى صرت الى الحاجب صاحب الستر الذي على باب الصحن (٢)

الحاجب — إن كنت تحتاج إلى تجديد الوضوء ؟

عبد العزيز — مالي إلى ذلك حاجة

الحاجب — إركع ركعتين

عبد العزيز — ركع أربع ركعات ودعا الله

الحاجب — استخر الله وقم فادخل

فأزاح الستر وأخذ الرجال (التشريفاتية) بيدي وعضدي وجعل اقوام أيديهم في ظهري وعلى رقبتي وطفقوا يعدون بي . ونظرني المأمون وأنا أسمع صوتا « خلوا عنه » وكثر الضجيج من الحجاب والقواد بمثل ذلك ، فخلوا عني ، وقد كاد يتغير عقلي من شدة الجزع ، وعظيم ما رأيت في ذلك الصحن من السلاح ، وهو ملء الصحن وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين ، ما رأيتها قبل ذلك ولا دخلتها

قال عبد العزيز : فلما أوصلني الحاجب الى باب الديوان وقفت فسمعت المأمون يقول ادخلوه قربوه ، فلما دخلت من باب الديوان وقعت عيني عليه ، وقبل ذلك لم أنتبه اليه لما كان على باب الديوان من الحجاب والقواد ، فقلت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن مني ، فدنوت منه ، ثم جعل يقول أدن ، وأدنو ، ويكرر ذلك وأنا أدنو خطوة خطوة ، حتى صرت إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون ويسمع كلامهم ، والحاجب معي يقدمني ، فلما انتهيت إلى الموضع قال لي المأمون اجلس فجلست

---

(١) يريدهم أعوان الخلافة لا أهل الباطن كما هو اصطلاح أهل العصور المتأخرة (٢) أي صحن دار الخلافة وهذا الحاجب بمثابة سر تشريفاتي اليوم

وسمعت رجلا من جلسائه يقول ـ وقد دخلت الديوان ـ يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه، فوالله ما رأيت خلقا لله أقبح وجهامنه، فسمعت قوله هذا وفهمته، وما رأيت شخصه، على ما كنت فيه من الجزع والرعدة .

قال عبد العزيز : وتبين لامير المؤمنين ماأنا فيه من الجزع، وما قد نزل بي من الخوف، فجعل ينظرني وانا ارتعد خوفا وانتفض، واحب ان يؤنسني، ويسكن روعتي فطفق يكثر كلام جلسائه، ويكلم عمرو بن مسعدة (رئيس الشرطة) ويتكلم باشياء كثيرة ممالا يحتاج اليها، يريد بذلك كله إيناسي، وجعل يطيل النظر الى الايوان ويدير نظره فيه، فوقعت عيناه على موضع من نقش الجص قد انتفخ . فقال ياعمرو ماترى هذا النقش في الجص قد انتفخ وسيقع فبادر في قلعه وعمله . فقال عمرو قطع الله يد صانعه فانه قد استحق العقوبة على عمله هذا .

ثم أقبل المأمون على عبد العزيز يسائله :

المأمون ـ ما الاسم ؟

عبد العزيز ـ عبدالعزيز

المأمون ـ ابن من ؟

عبد العزيز ـ ابن يحيى بن مسلم

المأمون ـ ابن من ؟ (يسأله عن جده)

عبد العزيز ـ ابن ميمون الكناني

المأمون ـ أوأنت من كنانة ؟

عبد العزيز ـ نعم ياأمير المؤمنين

ثم سكت المأمون هنيهة لايتكلم

المأمون ـ من أين الرجل ؟

عبد العزيز ـ من الحجاز

المأمون ـ ومن أي الحجاز ؟

عبد العزيز ـ من مكة

المأمون ـ ومن تعرف من أهل مكة ؟

عبد العزيز — ياأمير المؤمنين قلّ من بها من أهلها الا وأنا أعرفه . الا رجل ضوى (لجأ) ، اليها أو من جاور بها ؛ فاني لا أعرفه .

المأمون — اتعرف فلانا وفلانا (وجعل يعدد جماعة من بني هاشم)

عبد العزيز — نعم ياأمير المؤمنين أعرفهم

المأمون — وأولادهم وانسابهم . (وذكر شيئا من ذلك)

عبد العزيز — نعم . (وأجابه عما سأل)

قال عبد العزيز : وانما يريد أمير المؤمنين ايناسي ، وبسطي للكلام وتسكين روعي وجزعي، فذهب عني ما كنت فيه، وما لحقني من الجزع ، وجاءت المعونة من الله عز وجل ، فقوي بهاظهري ، واشتد قلبي ، واجتمع فهمي ، ثم اقبل المأمون عليّ وقال ياعبدالعزيز انه قد اتصل بي ما كان منك ، وقيامك في المسجد الجامع ، وقولك ان القرآن كلام الله الخ . بحضرة الخلق وعلى رؤوس الخلائق ، وما كان من مسئلتك بذلك من الجمع بينك وبين مخالفيك على القول لتناظرهم في مجلسي ، والاستماع منك ومنهم ، وقد جمعت المخالفين لك لتناظرهم بين يدي ، وأكون أنا الحاكم بينكم فان تبين الحجة لك عليهم والحق معك اتبعناك ، وان تكن الحجة لهم عليك والحق معهم عاقبناك ، وان استقلت اقلناك .

ثم اقبل على بشر المريسي وقال : يابشر قم الى عبد العزيز فناظره وانصفه ، فوثب بشر من موضعه كالاسد يثب الى الفريسة فرحا ، فانحط عليّ فوضع ركبتيه وفخذه الايسر على فخذي الايمن فكاد أن يحطمه ، وغمز عليّ بقوته كلها ، فقلت مهلا فان أمير المؤمنين لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي ، وانما أمرك بمناظرتي وانصافي ، فصاح به المأمون وقال تنح عنه ، وكرر ذلك عليه حتى أبعده مني .

ثم اقبل عليّ المأمون وقال : ياعبد العزيز ناظره على ما تريد ، واحتج عليه ويحتج عليك ، وتسأله ويسألك ، وتناصفا في كلامكما ، تحفظا الفاظكما ، فاني مستمع عنكما فحفظ الفاظكما . فقلت السمع والطاعة لامير المؤمنين ، ولكن عبد العزيز لم يرد ان يشرع في مناظرة خصمه مالم ينتقم من ذلك البغيض الذي عابه لامير المؤمنين بقبح وجهه ، وتشويه خلقه ، وملخص ماقال في هذا الصدد : ان يوسف صلوات الله عليه الذي هو احسن البشر وجها ، كان حسنه وبالا عليه ، فظلم وسجن رجاء تغير حلية وجهه

وان يذهب السجن بحسنه ، ولما وقف الملك على سعة علمه ، وحسن عبارته في تعبير الرؤيا ، صيره على خزائن الارض ، واعتزل الامور وصار كأنه من تحت يده ، وليست هذه المنزلة إلا بعلمه وكلامه ، لا بجماله وحسن وجهه ، وقال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم ، ولم يقل إني حسن جميل ، فوالله ما أبالي يا أمير المؤمنين لو كان وجهي أقبح مما هو معي ، فقد أعطاني الله وله الحمد من فهم كتابه ، والعلم بتنزيله . فقال المأمون وأي شيء أردت بهذا القول ؟ وما الذي دعاك اليه ؟ فقلت اني سمعت بعض من هنا يقول يا أمير المؤمنين « يكفيك من كلام هذا قبح وجهه » فأي عيب يلحقني في صنعة ربي عز وجل ؟ فتبسم المأمون حتى وضع يده على فيه ، فقلت يا أمير المؤمنين : قد رأيتك تنظر هذا النقش في الحائط ، وتنكر انتفاخ الجص ، وسمعت عمرا (رئيس الشرطة) يعيب الصانع ، ولا يعيب الجص ، فقال المأمون العيب لا على الشيء المصنوع ، انما العيب على صانعه . فقلت صدقت يا أمير المؤمنين وقلت الحق . فهذا (يعني جليس السوء) يعيب ربي لم خلقني قبيحا . فازداد المأمون تبسما حتى ظهر ذلك عليه ، ثم قال يا عبد العزيز : ناظر صاحبك فقد طال المجلس بغير مناظرة . ثم أخذنا في المناظرة . ولا يمكن ان نتقصى مسائل المناظرة او نلخصها لما ان المقام لا يحتمل ذلك ، وانما نشير الى بعض ما كان يجري بين المتناظرين مما فيه دلالة على أخلاق العلماء إذ ذاك ، وعلى كرم أخلاق المأمون : من ذلك ان بشرا سأل عبد العزيز سؤالا ، وكلفه جوابه ، ووافقه المأمون قائلا هذا يلزمك يا عبد العزيز فعند ذلك جعل ابن الجهم وغيره من شيعة بشر يضجون ويقولون ظهر أمر الله وهم كارهون ، جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وطمعوا في قتل عبد العزيز ، وجثا بشر على ركبتيه ، وجعل يقول اقر والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن وأمسك عبد العزيز فلم يتكلم ، فقال له المأمون مالك لا تتكلم يا عبد العزيز ؟ فقال سألني بشر وهو المناظر لي ، فضجيج هؤلاء ايش هو ؟ وأنا لم أنقطع ، ولم أعجز عن الجواب ، ولست أتكلم ما لم يسكتوا ، فصاح المأمون لمحمد بن الجهم وغيره امسكوا ، فأمسكوا ، واقبل علي وقال تكلم يا عبد العزيز واحتج لنفسك ، فتكلم وأخذنا في المناظرة

قال عبد العزيز : وجعل بشر يصيح ويقول لو تركته يا أمير المؤمنين يتكلم لجاء بألف شيء فقلت يا أمير المؤمنين قد ذهبت بالحجج ورضي بشر وأصحابه بالضجيج والترويج بالباطل وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاص من الله حتى يظهر دينه ويقمع الباطل بالحق فيزهقه، فصاح المأمون ببشر أقبل على صاحبك ودع هذا الضجيج وكان المأمون قد قعد منا مقعد الحاكم من الخصوم .

قال عبد العزيز : وكثر تبسم المأمون من قولي حتى غطى بيده على فيه واطرق يكتب في الارض بيده على السرير .

ومما استدل به بشر على مذهبه قوله تعالى خالق كل شيء والقرآن شيء من تلك الاشياء المخلوقة .

فأجاب عبد العزيز بما خلاصته : قال تعالى « ويحذركم الله نفسه » فلله نفس وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت » فتقول يا بشر ان نفس الله داخلة في هذه النفوس؟ فصاح المأمون باعلا صوته وكان جهوري الصوت معاذ الله معاذ الله .

هذا مثال مما كان يجري بين المتناظرين في حضرة المأمون ولم يزل عبد العزيز يدحض حجج خصمه ويكسر أقواله بالكتاب والسنة والقياس حتى قال المأمون له أحسنت يا عبد العزيز ثم أمر بعشرة آلاف درهم فحملت بين يديه وانصرف من مجلسه على أحسن حال وأجملها

قال عبد العزيز فسر المسلمون جميعا بما وهبه الله لهم من اظهار الحق وقمع الباطل وانكشف عن قلوبهم ما كان اكتنفها من الغم والحزن وجعل الناس يجيئون الي أفواجا حتى أغلقت بابي واحتجبت عنهم خوفا على نفسي وعليهم من مكروه يلحقنا ، قالوا لا بد أن تملي علينا ما جرى لنعرفه وتعلمه فهبت ذلك وتخوفت سوء عاقبته ، فلما ألحوا علي قلت أنا أذكر لكم بعض ماجرى مما لا يجوز علي فيه شيء ولا حجر في ذكره فرضوا فأمليت عليهم أوراقا مختصرة لاقطعهم بها عن نفسي وعن ملازمة بابي

باب الأخبار والآراء

سياحة صاحب المجلة

« في سوريا »

بيروت

وافيت بيروت في السادس والعشرين من شهر شعبان وقد صحا الجمهور من نشوة الفرح بالدستور ، وثابوا الى التفكر والتأمل بعد تلك الرياضة في روض الوجدان والشعور ، وكان مما يحمد عليه أهل بيروت ويذكرون به أنهم قد انتقلوا من خمول الاستبداد الى نشوة السرور بالحرية ومن هذه النشوة الى السكون والروية ، ولم يكن منهم غلوّ مذموم كما يحصل عادة في مثل هذا الانتقال بمقتضى قاعدة « ردّ الفعل » وقد اشتهر ما كان من تحوّل الضغائن والاحقاد بين المسلمين والنصارى منهم الى المسالمة والوداد وكان المسلمون هم البادئين بهذا الخير ، كما كانوا في الغالب يبدءون وكما يقال بالشر ،

وقد رأيت فضلاء المسلمين في هذه الايام مهتمين بأمرين عظيمين أحدهما مشترك بين جميع العثمانيين وهو ماتفكر فيه جمعية « الجامعة العثمانية » من انشاء مدارس لتعليم جميع الطوائف وتربيتهم على الوحدة الوطنية أونحو ذلك من الاعمال . ولا بد ان يكون فضلاء النصارى متفقين معهم على ذلك وانما اسندت الاهتمام به الى المسلمين عن علم وجعلت مشاركة النصارى لهم من قبيل الاستنباط العقلي لانني لم أجتمع بأحد من علماء هؤلاء وفضلائهم فأعرف بالاختبار مايهتمون به من الاعمال في عصر الدستور. ذ كان أهل العلم والفضل من المسلمين هم الذين استقبلوني في البحر و أكرمو

مثواي في البر . وما كانت إقامتي بينهم الا ثلاثة ايام ضاقت عن ردّ الزيارة لجميع الزائرين منهم ، ولو طالت لتصديت للقاء أهل الرأي من غيرهم ،

والامر الثاني مما يهتم به المسلمون خاص بهم وهو ماتوجهت اليه همة « الجمعية العلمية » من إحياء المدارس التي اسستها من قبل جمعية المقاصد الخيرية وكانت تدير نظامها شعبة المعارف التي قضى عليها الاستبداد فجعل هذه المدارس أثراً بعد عين . ولا أذكر ماسمعته من الآراء في إيجاد المال لهذه المدارس واختيار كتب التعليم لها بعد النظر فيما بين الأيدي منها وجلب مثله من مصر وانما أرجو أن أكتب بعد قليل من الزمن من أخبار اعمال هذه الجمعية ما يحقق أفضل الآراء وأنفعها

رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل إصلاح ديني ومدني ورأيت فيهم نفرا من أهل الغيرة الملية والميل للاعمال التي تنهض بالامة وترقي شأن البلاد وقد أحببت ان يكون لي حظ من معرفتهم وسعي في جمع صفوة أهل الاخلاص منهم ومكاشفتهم بما أراه من أصول الاصلاح وقد سرني من حديث من اجتمعت به منهم أنني رأيت التفاوت بينهم غير بعيد ، والخلاف بين طبقاتهم غير شديد ، والتنافس بين أهل الظهور لم يهبط الى دركة الحسد ، ومقاومة الجامدين للاصلاح لم ترتق الى درجة المقاومة ،

والسبب في ذلك على ماظهر لي أن أذكياء النابتة الذين يحبون الاصلاح لم يتربوا تربية أوربية تبعدهم من الدين وتشوه مدنية سلفهم في أعينهم وتحبب اليهم الانسلاخ من كل قديم ، وتزين لهم الافتتان بكل جديد ، كما فتن كثير من المتفرنجين في الاستانة ومصر وتونس ، ولم يتوسعوا في علم الكلام والفقه فيجعلوهما مع فنون العربية كل المطلوب لارتقاء المسلمين ، ولم يحرموا منهما حرمان من يعادي الشيء لجهله به ، — وان المشتغلين بالعلوم الدينية والفنون العربية لايوجد كثير من المتقنين لها والبارعين فيها الذين يخشى ان يكونوا زعماء قادرين على تأليف العصبيات لمقاومة الاصلاح كما هو شأن رجال الدين الجامدين في كثير من بلاد المسلمين

ونتيجة هذا ان قلة اشتغال مسلمي بيروت بالكتب الاسلامية المتداولة وعدم افتتانهم بالتفرنج قد جعل نفوسهم مستعدة للاصلاح الذي لايرتقي المسلمون بدونه وهو الجمع بين هداية الكتاب والسنة وبين العلوم والمعارف العصرية بغير معارضة قوية

رأيت من النابتة المصرية من يقول يجب علينا ان نعمل بمعزل عن الشيوخ الجامدين ولا نبالي بهم رضوا أم سخطوا ، ومن يقول لا بد من مقاومتهم والقضاء على نفوذهم ، ومن يتوسط فيقول بوجوب مسالمتهم ومداراتهم والاستعانة بمن لان جانبه منهم ، والمرجح عندي ان العاملين في بيروت لا يجدون مقاومة يعتد بها ، وأحوج ما يحتاجون اليه المال والزعيم الذي تجتمع عليه القلوب ومتى وجد أصحاب الهمم من الرجال ، سهل عليهم إيجاد المال ، والزعيم انما يشترط لإتقان العمل وكماله فلا يتعذر على أهل الغيرة الابتداء بالعمل مع فقده . ومتى تكونت الاعضاء تكونا طبيعيا ثبت لها رأس طبيعي ،

أما حكومة بيروت فهي سائرة في طريق النظام بهمة واليها ناظم باشا وحزمه ودرايته ولكن هذا الوالي لم يأت بعمل ما في ملحقات الولاية كما يعلم من الكلام الآتي عن طرابلس ولولا قرب عهده بالمجيء الى الولاية لقلنا ان حسن حال الاهالي هو الذي حسّن حال الحكومة في مدينة بيروت فهو لا يدل على فضله ولا يقوي الرجاء في إصلاح حال الولاية بحسن إدارته ولكنه لقرب عهده لما يتمكن من تنظيم إدارة داره فلا مجال للوهم

طرابلس الشام

وافيت هذه البلدة وقد أهوت شمس يوم الجمعة (وهو التاسع والعشرون من شعبان) الى الغروب والناس يرقبون غروبها ورؤية هلال رمضان بعده فأقبلوا يستهلون فبدا الهلال لعين واحد منهم فحكم القاضي بشهادته وأصبح الناس من ليلتهم صائمين

مكثت في دار صديقي الصدّيق الشيخ محمد كامل الرافعي أسبوعا كاملا استقبل وفود الزائرين المهنئين من العلماء وعمال الحكومة والوجهاء ورجال الجمعيات الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي وجمعية الجامعة العثمانية والجمعية العلمية . وقد ظهر لي مما دار بيني وبين صفوة الناس من الطبقات العليا والوسطى أن استعداد مسلمي طرابلس للاصلاح الديني والمدني دون استعداد مسلمي بيروت

ذلك بأن مسلمي طرابلس أكثر من أهل بيروت اشتغالا بدرس كتب

الفنون العربية والعلوم الاسلامية التي وضعت منذ القرون الوسطى بعد انحطاط مدنية المسلمين بضعفهم في العلوم وهي مما يضعف الاستعداد لانه يشغل الذاكرة ولا يكملها فيكون عائقا لها عما سواه كما أشرنا اليه في الكلام عن استعداد أهل بيروت وربما نوضحه في فرصة أخرى ؛ على أن أهل طرابلس قد قل اشتغالهم في السنين الأخيرة لحكم الاستبداد ، التي اضطهد بها العلم وكتبه أشد الاضطهاد ،

هذا سبب معنوي من أسباب ضعف استعداد أهل طرابلس وسيعده أكثرهم غريبا أو باطلا بالبداهة محتجين بأن من كان أوسع علما في فن أو علم ما كان أقوى استعدادا لغيره ؛ ولا محل هنا لدحض هذه الحجة أو إبطال هذه الشبهة .
وثم سبب آخر وهو الفراغ والبطالة في طائفة كبيرة منهم وعدم المنافسة والارتقاء في العمل عند أكثر العاملين

ومن الاسباب في ذلك قلة احتكاك أهل طرابلس بمن هم أرقى منهم في العلوم والاعمال من الأجانب والعثمانيين فان طرابلس أصبحت كأنها بمعزل عن العالم المدني ؛ لايهاجر اليها المرتقون في العلوم إذ لا مدارس ولا تعليم فيها ولا المرتقون في الاعمال التجارية أو الصناعية أو الزراعية إذ لا رجاء لأحد في الكسب منها

ومنها ماهو أثر طبيعي لما قبله من عدم وجود الجرائد اليومية فيها وعدم وصولها الجرائد اليها من بيروت لانها غير متصلة بها بسكة حديدية فالمقيم فيها لا يعرف شيئا يعتد به من أحوال العالم

من أجل هذا وذاك كانت حكومة طرابلس شرا من حكومة بيروت في وقت الاستبداد ، ولم تنل نصيبا من الاصلاح في زمن الدستور وقد كان فسادها الماضي وضعفها الحاضر علة لكثرة الاشقياء فيها المستعينين بها على السلب والنهب والنيل من اعراض الناس ودمائهم ، فان لهؤلاء الاشقياء زعماء يشترون ذمة كبراء الحكام ويشاركونهم بما يتمتعون به من أموال الناس وأعراضهم ويرضخون لافراد الشرطة والزبانية بدريهمات يستعبدونهم بها فاذا رفعت على أحدهم قضية كفاه أمرها رجال المحاكم فاذا جاء البلد حاكم جديد وحاول ان يقرر فيها الامن ويقيم ميزان العدل وانفذ الشرطة الى بعض هؤلاء الاشقياء المتهمين بالقتل والضرب أو

السلب والنهب عادت اليه الشرطة قائلة انهم قد فروا هاربين فلا يعلم مكانهم وانما يكونون هم الذين لقنوها ما تقول

حادثة الاعتداء علي وسببها

ما كنت لاذكر هذه الحادثة في المنار ، لو لم تشتهر في الاقطار ، ويظلم بها أهل طرابلس على الاطلاق ، حتى وجب علي ان أبرئ المظلومين ، وأبين سبب تقصير المقصرين ،

حقيقة الحادثة اني دخلت طرابلس باحتفال عظيم لم يسبق له نظير فيها فقد استقبلني عند الباخرة في البحر جمهور من أهل العلم والوجاهة ووفود من الجمعيات الثلاث : جمعية الاتحاد والترقي والجمعية العلمية وجمعية الجامعة العثمانية ، وكان في الانتظار على رصيف الجرك في الميناء جماهير من جميع الطبقات وجوقة موسيقي أرسلتها جمعية الاتحاد والترقي فلما اقبل عليهم الزورق الذي يحملنا مرفوعا عليه العلم العثماني (أعزه الله تعالى) صدحت الموسيقى وبعد السلام على كثير من المستقبلين ذهبنا إلى موقف الترام الذي بين الميناء والبلد فاذا بمركبة كبيرة من مركبات الترام معدة لنا من قبل جمعية الاتحاد فتبوأناها مع خواص اعضاء الجمعيات وجوقة الموسيقى في مقدمتها والناس من حولها يطلقون البارود . فوقفت في نافذة من نوافذ المركبة وشكرت للقوم أريحيتهم وسارت المركبة حتى إذا ما بلغت الموقف من البلد استقبلنا فيه جمهور آخر وسرنا حتى إذا كنا بالقرب من الدار التي نؤمها في أشهر شوارع البلد وأسواقها فاجأنا شقي من أولئك الاشقياء الذين أشرنا اليهم إسمه كامل المقدم فقال أين هذا الذي تسلمون عليه ؟ فعرفني بالقرينة فضربني بعصا في يده وقعت على جانب رأسي ثم رفعها ثانية وأهوى بها فتلقاها الشيخ محمد كامل الرافعي وكان عن يساري في مقدمة الناس . فأخرج الشقي مسدسا وأطلق منه رصاصة واحدة اعتقدت انه يريد بها قتلي واعتقد الجمهور ذلك فيما يظهر فانهم ارجعوني واحدقوا بي وأرادوا إدخالي لاحد البيوت المجاورة لذلك المكان . وتقدم اليه اكثر من واحد منهم فطردوه ثم استأنفنا السير إلى دار الرافعي وكانت قريبة منا وهنالك اخبرني القوم المعتدي وانه ابن عبد الرحمن افندي المقدم الذي كان يحلني وأنا طالب علم أشد

الاجلال على ما كان عليه رحمه الله من كبرياء حتى انه كان يستقبلني ويشيعني عند الباب

ذلك انه كان قد اعتدى على اخوتي من قبل بإيعاز عصبة من تلك العصب التي أشرنا اليها «والشر داعية الشر» فالظاهر ان تلك العصبة ثقل عليها ان يعتز من اعتدت عليهم بأخ لهم لانها تحب ان يكون شرها دائما لا ينقطع . وقد رأيت جميع الناس من جميع الطبقات يعتقدون ذلك ولولا هذا الاعتقاد لاظهروا استياءهم ولقامت قيامتهم على هذا الشبح البالي من حكومتهم على عدم ثقتهم بها بل لاستنهضوا همة حكومة الولاية الى معاقبة ذلك المعتدي الذي عدوا جريمته إهانة لهم كلهم أي إهانة لاهل البلد لانه أساء الى المئات من فضلائهم بالتعدي على الضيف الذي يحدقون به تعظيما له وتكريما ، وقد سمعت من الناس وعنهم ماجزمت به وأيقنت بأن الاستياء العام كان شديدا وأن بعض أهل الجرأة جهروا لزعماء عصبة ذلك الشقي وله بسوء هذا العمل وبمقت الناس لهم لاجله وحدثني بعض الكبراء والمتوسطين ان أولئك الزعماء أقسموا جهد أيمانهم بأن هذا الامر لم يكن بايعاز منهم وانهم وبخوا الشقي الفاعل وكادوا يطلقون عليه الرصاص !! ولكنهم مع هذا يهددون من دعتهم الحكومة الشهادة ليكتموها او يحرفوها ويخفون الشقي عن عين الحكومة ويطلبون المصالحة قبل القبض عليه ! ! !

هذا هو السبب في سكوت جمهور اهل طرابلس وإغضائهم على القذى ولو وثقوا بحكومتهم وأمنوا بقوتها شر تلك العصبة لاظهروا سخطهم لها وللناس قولا وكتابة فهم معذورون في سكوتهم . على أن فيهم من تحمس ليذهب بوفد الى الولاية ليخاطبوا الوالي في الامر فلم أرض بذلك ، ومن شجعانهم من تمنى لو كان حاضرا لينتقم من المعتدي عند الاعتداء

أقول هذا جوابا لأولئك الفضلاء الاخيار الذين كتبوا الينا من بيروت ولبنان والشام ومصر يقولون اترك « فيحاء الاشقياء » تنعي من بنى اول حجر فيها وارحل الينا حيث تلقى من الكرامة كيت وكيت ، ويقولون لو كنا معك لعلمنا أهل طرابلس كيف يوجد من عارفي قدرك من يفديك بدمه ،

وكتب اليّ صديقي رفيق بك العظم ينصح لي بأن أقضي بقية إجازتي في بيروت ودمشق وحمص وحماه . وقد تحمس أهل النجدة من بيروت وائتمروا بينهم ليرسلوا وفدا منهم يحضرني من طرابلس وعصبة من الشجعان لينتقموا لي من المعتدين بالقوة اذا كانت الحكومة عاجزة عن ذلك أو متهاونة فيه وكتب اليّ أكثر من واحد يستشيرني أو يستأمرني بذلك وقد تطوع نحو خمسين رجلا من فدائية بيروت (الابضايات) بذلك فكتبت الى بعضهم إنه لا حاجة الى ذلك واني في طرابلس عزيز كريم

أراد ذلك الشقي أن يحط من قدري غلوا في الانتقام من إخوتي ، فكان عدوانه مزيدا في كرامتي ، وإهانة له ولعصبة الاشرار ، في القرى والامصار والاقطار ، بل إهانة لاهل بلده الاخيار منهم والفجار ، فقد طار البرق بالحادثة منذ تلك الليلة إلى بيروت ونشر الخبر في جرائدها فعلم به الناس في سوريا ولبنان ومصر فطفقوا يذمون طرابلس وأهلها قولا وكتابة وقد نقل ذلك اليها كثير ممن كان من أهلها في بيروت . وتلك سنة الله : رجل يهين أمة ورجل يشرف أمة ، كما اطروني برسائل البرق والبريد وتحدثوا بخدمتي الصغيرة للاسلام وللدولة والملة فكبروها تكبيرا بمثل البرقية التي وردت الي من شيخين من أشهر أهل العلم والادب في مصر ونصها «نهنيء العلم والدين بنجاة ركنهما الركين» ومثل البرقية التي وردت من فاضلين من أشهر أهل بيروت علما وأدبا ونصها «الهناء لكم ولنا وللمسلمين بسلامتكم التي تهمنا جميعا» وهنالك برقيات كثيرة بهذا المعنى من بلاد كثيرة منها برقية بامضاء بضعة عشر رجلا وهم خيرة أهل بيروت ولا تسل عن رسائل البريد ، وما فيها من الاطراء والتنديد

وليست الرسائل الواردة بما ذكر كلها من المسلمين بل منها ما جاء من فضلاء النصارى فكانت الحماسة فيها أشد ولسان الاطراء والقدح أحد ، كرسالة صديقنا نقولا افندي شحاده من زحله التي يتمثل فيها بقول السيد المسيح عليه السلام الذي معناه انه لا يهان نبي الا في قومه وبلده ، ورسالة صديقنا رئيف افندي شدودي من جونيه الذي تمنى فيها كما تمنى كثير من اهل بيروت لو كان معي وقت الحادثة فيري أهل طرابلس

كيف يفديني بدمه (حماه الله) فأشكر لجميع أولئك المهنئين أريحيتهم وفضلهم وأكرر لهم الاعتذار عن أهل طرابلس في المنار كما اعتذرت عنهم فيما كتبته الى الكثير من المهنئين ، وأصرح لهم بأنهم لم يقصروا في الحفاوة بي بل بالغوا وأغرقوا حتى كنت أخجل مما أسمعه من شيوخ العلم وكبار الوجهاء ، من جمل الثناء والاطراء ، مثل : بيضت وجوهنا بيض الله وجهك ، شرفت بعملك سوريا والعرب ، أحييت بخدمتك العلم والدين ، عملت للدولة كيت وكيت . حتى قال لي أحد العلماء ان هذا المجد الذي نلته لم ينله أحد من أهل طرابلس فيها . وقال لي أحد أدباء النصارى إن الناس يستقبلونكم أيها الاحرار كما يستقبلون الفاتحين ، لا كما يستقبلون الاعزاء الغائبين . وانني أشهد قراء المنار على نفسي بأنني لا أستحق هذا الثناء والاطراء ولا بعضه ، وانني ذكرت منه ما ذكرت وأنا في خجل شديد ولولا قصد تبرئة أهل وطني الذي ربيت فيه مما جناه عليهم ذلك الشقي المسكين لما ذكرت ما ذكرت من الاشارة اليه . وسأذكر في رسالة أخرى ما كان من اهتمام دولة الوالي بالحادثة وما كان من أثر ذلك

ومن آيات رضي أهل طرابلس عن هذا العاجز دعوة الكثيرين من أهل الرأي والمكانة منهم إياه لترشيح نفسه لمجلس المبعوثين وتصريحهم في الملأ بأنه أجدرهم بذلك . ولكنني لم اترك ما عندي من اليقين بعجزي لحسن ظنهم بي ولذلك كنت اعتذر لكل داع بما أرى أنه يقبله مني

طلاب العلم الاستقلالي بطرابلس

وقد سرني في طرابلس سرورا عظيما أن رأيت فيها فئة من طلاب العلوم الدينية يرغبون عن التقليد ويذمونه ، ويميلون الى الاستقلال في العلم وينتحلونه ، ويعترفون بأن حياة الدين انما تكون بالرجوع الى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، وترك ما عداهما من الآراء الكثيرة ، رأيت هؤلاء وذاكرتهم بعد أن كتبت ما تقدم من المقابلة بين أهل طرابلس وأهل بيروت ولم أر مثلهم من الطلاب في

بيروت ولكنني أظن أنه يوجد فيهم من هم على هذه الشاكلة وربما كان عددهم أقل لأن الطلاب في طرابلس أكثر ،

وقد رغبت من لقيت من هؤلاء الطلاب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة العصرية ، فألفيت آذانا واعية وقلوبا راغبة وأذهانا مستعدة ، ولكن وسائل العلم غير متيسرة لهم الآن وربما لا يتيسر السعي له الا بعد حين من الزمن . ولهذا لم أرجع بعد لقي هؤلاء النجباء عن رأيي في ترجيح استعداد مسلمي بيروت للعمل على استعداد مسلمي طرابلس وان كان في الكلام عن هؤلاء الطلاب نوع من الاستدراك على ما تقدم

الجمعيات في طرابلس

ألف اهل طرابلس ثلاث جمعيات غير فرع جمعية الاتحاد والترقي كما فعل أهل بيروت . الاولى جمعية الجامعة العثمانية ولها ناد يجتمع فيه أعضاؤها وهم الآن يفكرون في عمل مالي يكون لهم منه ريع يمكنهم من الخدمة النافعة للبلاد التي توثق بها عرى الجامعة العثمانية وما أظن أن ذلك ميسور لها الآن ففائدتها محصورة في اجتماع أعضائها في ناديها فنقترح عليهم أن يطالعوا فيها الكتب النافعة التي تغذي العقول وترقي الافكار والآداب ككتب التربية والاخلاق والمجلات العلمية ، وان يتمرنوا فيه على الخطابة في السياسة والآداب وشؤون الاجتماع والعمران ، وان يكون لهم في كل شهر مناظرة في مسألة علمية أو سياسية أو اجتماعية ، فبذلك تكون جمعيتهم نافعة مذ اليوم ، فان تيسر لهم بعد ذلك جلب المال وانفاقه على عمل من الاعمال ، كانوا به أبصر ، وعليه أقدر ،

والثانية الجمعية العلمية ورأيت بعض أعضائها يتحدثون بجعل تعليم الفنون العربية والعلوم الشرعية بطريقة منتظمة في مدرسة كبيرة يتخرج فيها المستعدون للتدريس والقضاء الشرعي والمحاماة . ويقول آخرون منهم ان إنشاء هذه المدرسة لا يكون الا بمال كثير ، وهو عسير علينا غير يسير ، على انهم لو وجهوا همتهم الى جمع المال لتيسر لهم جمع مقدار يكفيهم لاستئجار دار يعلمون فيها ، وأكثر الشيوخ لا يسألون على التعليم أجراً ، والطلاب هم الذين يشترون الكتب لانفسهم ، وليس

من مقاصد الجمعية تعليم العلوم الطبيعية التي يتوقف تعليمها على الآلات والمعلمين بالأجور فتحتاج إلى المال الكثير ، ولكن اعضاء الجمعية مختلفون في الامر وهو غير عظيم ، فبعضهم يشعر بهمة في نفسه تصغر له الكبير ، فيرميه الآخرون بالغرور والتغرير ، ولعلهم يشرعون في التعليم بالطرق المستحدثة والكتب المختارة ولو في المساجد الى ان يتيسر لهم ولغيرهم من المسلمين تحويل معظم الاوقاف الخيرية للتربية والتعليم ، وعسى ان لا يكون ذلك بعيدا

واما الجمعية الثالثة فقد أطلق عليها اسم الجمعية الخيرية ، والذي يفهمه القراء من هذا الاسم انها جمعية تجمع الاموال لإعانة الفقراء والعجزة ، ولكن الذي وصل الينا من خبرها انها شركة مالية أسسها بعض الاغنياء لاجل استغلال أموالهم بالاعمال الكبيرة التي يرجى ربحها ، وسمعت كثيرين من أعضاء الجمعيات الاخرى يطلقون على مؤسسي هذه الجمعية أو الشركة لفظ « حزب التقهقر » ويقولون ان أكثرهم من الذين عزلوا بعد إعلان الدستور لخياناتهم وفسادهم في الحكومة الماضية أو استقالوا لعلمهم بأنهم لابد ان يعزلوا ان لم يبادروا بالاستقالة . ويقولون انهم أعداء الدستور ويطعنون دائما بجمعية الاتحاد والترقي ويكابرون أنفسهم فيدعون انها لم تعمل عملا وقد ذكر لي اسم ثلاثة منهم لم أسمع من أحد منهم شيئا مما يحكونه عنهم ، ولكنني سمعت من شابين من حملة الاقلام كلاما صريحا وتهكما شديدا في ذلك ، وقيل لي ان هذين الشابين من اعضاء هذه الجمعية أو انصارها وربما كانا لسان الجمعية الناطق وقلمها الكاتب

وفي هذا المقام اشكو مما سمعت في طرابلس من طعن الناس بعضهم ببعض حتى في المحافل والاندية العامة ، وأرجوا ان يفتح الله لهم في أيام الدستور من الاعمال ، ما يشغلهم عما يضر ولا ينفع من الاقوال ،

العمران في طرابلس

رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ إحدى عشرة سنة كأنه لم يتبدل ولم يتحول فيها شيء ، حتى خيل لي ان ما رأيته في الدكاكين ومخازن التجار هو الذي تركته فيها بعينه ، وقلما رأيت أحدا ممن أعرفهم انتقل من دكانه سواء كان

مالـكا أم مستأجرا . واما ضواحي البلد فقد تجدد فيها دور وقصور كثيرة على عدم نمو الثروة الطبيعية . فالزراعة لا تزال على حالها وعليها مدار معيشة السواد الاعظم . والصناعة كذلك على حالها وليس في طرابلس منها ما يعد مصدرا لارتقاء ثروتها ولم تتصل بها سكك حديدية ترتقي بها تجارتها فأكثر الذين أثروا فيها هم من عمال الحكومة أكلة أموال الناس بالباطل

شعائر الدين

لعل أهل طرابلس أشد أهل سوريا محافظة على شعائر الدين من صـلاة وصيام، وأبعدهم عن الجهر بالمعاصي، وحسبك من هذا أن صاحب قهوة احضر في هذه الايام بعض النساء الراقصات ليروج بها قهوته فقامت قيامة أهل العلم من المسلمين عليه، وتعصب لهم الجمهور حتى ألزموا الحكومة بمنعه من ذلك

تسامح الدين الاسلامي

جاء في جريدة اللواء تحت هذا العنوان ما يأتي مع تصحيح قليل :

« نشرت جريدة (ريج) الروسية أن مخبرها الخصوصي في الاستانة العلية قابل سماحتلو شيخ الاسلام وطرح عليه أربعة أسئلة طالبا الجواب عن كل منها وهي :

١ — ما رأي شيخ الاسلام في تعليم المرأة المسلمة

٢ — ما رأي شيخ الاسـلام فيما نشرته الجرائد التركية من وجوب ترجمة القرآن الـكريم إلى اللغة التركية

٣ — بأي نظر ينظر شيخ الاسلام إلى المدارس الفنية العثمانية

٤ — ماذا يفهم شيخ الاسلام من الاقوال القائلة بالحرية في الدين ؟

أجاب سماحتـه عن السؤال الاول بقوله « ان القرآن الـكريم يأمر الرجال والنساء جميعا (بالعلم) فيلزم كل فرد من أفرادهما أن يتعلم القراءة والـكتابة ولهذا السبب نقابل — بانشراح صدر — انتشار التعليم بكل أنواعه بين النساء زيادة

على تحصيلهن العلوم الابتدائية لاني أرى من الاوفق والاصوب أن تتولى الطبيبة أمر معالجة المريضة المسلمة، لذلك يجب أن تؤخذ الفتيات الى المدارس الطبية، وأما مسئلة قيام النساء بوظيفة المحاماة والقضاء فأمرها لم يتم بعد في البلاد الاخرى ولا أدري بأي نظر ينظر الاهالي هذه المسألة في بلادنا »

وقال سماحته مجيبا عن السؤال الثاني :

« فهم القرآن واجب على المسلمين مطلقا ، لذلك لا نعارض فكرة ترجمة القرآن الى اللغة التركية بل نعد بذل كل مجهود في ابراز هذه الفكرة الشريفة الى حيز الوجود دينا عظيما علينا ولكن حيث إن في القرآن كثيرا من المواضع يصعب فهمها على العامة واشترطت لحلها كثرة العلم والتعلم لذلك نرى من الواجب أن تعهد وظيفة ترجمة القرآن الى أفاضل الفلاسفة المسلمين الذين لهم المام تام بلغة القرآن وروح الاسلام وأدبيات العرب حتى لا يخشى من تغيير معانيه الجليلة »

وأجاب عن السؤال الثالث بما ترجمته :

« إنا معشر رجال الدين وظيفتنا النظر في شؤون المدارس الدينية وأما الفن فأمره ليس بأيدينا بل هو راجع الى الحكومة والأهالي لذلك نحن لا نتداخل في أمره وعلى الحكومة أن تنتخب لمدارسها من الفنون ما ينجم عنه رقي الاهالي وقوة الدولة وحضارة البلاد ولا نطلب من الحكومة تسليمها لنا ولا أن تكون مدارسها الابتدائية تحت نفوذنا

ولا يوجد في المدارس الفنية من الدروس الدينية غير حصة واحدة وأكرر القول بأن الفن والصناعة ليسا من عمل رجال الدين بل من عمل الحكومة ولكنهما ليسا بمخالفين للدين ولهذا السبب نسلم أمر هذه المسألة تماما الى الحكومة »

وقال مجيبا عن السؤال الرابع :

« نحن على جانب عظيم من الحرية الدينية ولكن لا نتداخل في أمور ديانة الامم وخصائصها ووجدانها في أي حال واذا تداخلنا فانما يكون ذلك باللسان فقط . ويأمر الدين الحنيف كل مسلم متزوج بزوجة مسيحية ان يرسل زوجته مرتين في الاسبوع لزيارة أقربائها ولم يأمر نبينا الكريم الناس بما لا طاقة لهم به حتى أن

تركيا لم تضغط ولا في الازمنة التي كانت لها فيها قوة كبرى على رعاياها المسيحيين في أمورهم الدينية فينبغي أن ينفذ حكم الحرية التامة في أمور الديانات ليأمن كل على معتقده وديانته »

شأن المرتدين عن الاسلام

وهنا قطع المخبر كلام سماحته سائلا رأيه في المتنقلين من الاسلام إلى المسيحية فأجاب قائلا « افرضوا أن فرقة عسكرية فرت من بين صفوف المقاتلين لاشك انكم تعتبرونها خائنة شر خيانة وحينئذ تحكمون عليها بأشد العقاب ونحن كذلك أمة واحدة نذوب أسفا على كل خارج من صفنا ونستاء منه استياء شديدا وليس أمرنا هذا مخالفا للحرية الدينيـة المبنية على أساس أن كل الناس مختارون في أمر الدين ولا نطلب بأي حال من الحكومة أن تعاقب الخارجين من الدين أو تضغط عليهـم بالقوانين والتضييق كما لانحكم على الخارجين عن الدين الا بالحكم المعنوي ولا يمكن اجبار الناس لقبول الاسلام أو المسيحية واذا كان لشخص اختيار في الارتداد فلا يمنعنا مانع عن اظهار كراهتنا له ونفورنا منه

زواج المسلم بالمسيحية (١)

وسأل المخبر سماحته أيضا قائلا « ان الاسلام يصرح لمنتحليه بزواج الفتاة المسيحية

---

(١) المنار : كتبنا منذ ست سنين تعليقا على كلام الاستاذ الامام بشأن زواج المسلم بالمسيحية في كتاب الاسلام والنصرانية هذا نصه :

« يقول بعض النصارى : اذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف ، مع التباين في العقيدة والتخالف ، فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض ؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لانهـم أقوى منهن فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه و بين زوجته الضعيفة و يأمره ببغضها و ببغض أولاده ووالديه اذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة ، أباح الاسلام ذلك لمن يعمل بما أمر من العدل والرحمة وهو المسلم »

فرأي شيخ الاسلام موافق لرأينا في روح المعنى وان خالفه في الاسلوب

ولماذا يمنع الفتاة المسلمة من الزواج بالمسيحي ! فأجاب بقوله « تعرفون أن نفوذ الزوج فوق نفوذ الزوجة في المنزل وهي تابعة له ونحن معشر المسلمين نعد كلا من اليهود والنصارى من أهل الكتاب ونؤمن بكتبهم ونصدق برسلهم ولهذا السبب الصراح تقدر على الاقامة مع اليهودية أو النصرانية بلا أدنى تعد على عقيدتها ولا تعرض لامورها الدينية وأما اليهود والنصارى فليسوا بمؤمنين بالقرآن ولا بمصدقين بنبينا الكريم بل يعدونهما كذبا محضا لذلك حرم على المسلمين إن يضعوا فتياتهم تحت نفوذ قوم هذه حالهم مما يحرمه ديننا الحنيف »

مسلمو روسيا

ثم عرج سماحته بالكلام نحو مسلمي روسيا فقال « اني ما زلت أنصح لمسلمي روسيا بأن يكونوا مطيعين ومخلصين لوطنهم بيد أنه يجب عليهم أن يعضوا بالنواجذ على حقوقهم الدينية وعلاقاتهم الجنسية »

العلماء الروحيون والحرية الدينية

ثم فتح باب الكلام أيضا بشأن الحرية الدينية اذ قال « اني في جانب من يقول بالحرية التامة نحو الدين وأعتقد أن جميع العلماء الروحيين إذا اعتقدوا أن جميع البشر اخوان وانهم عبيد مستوون عندالله الواحد القهار زالت من بينهم المجادلات الدينية وطمست آثار المظالم والفتن »

ثم قال المخبر تعليقا على ما تقدم « فليفهم القراء علو منزلة رئيس علماء المسلمين وليحكموا على بقية رؤساء الاديان الاخرى » اه

(المنار) : إن قراء المنار يعرفون رأينا في هذه المواضيع وربما عدنا اليها في جزء قادم

﴿ جريدة النظام ﴾

جاءنا من ادارة جريدة النظام ما يأتي :

« يسرني ان انهي الى علمكم اني قد عولت بعون الله وحسن توفيقه على اصدار جريدة يومية سياسية اسمها (النظام) بالحجم المعتاد للجرائد الكبرى ، سيكون شعارها

الدفاع عن مصالح مصر بالاخلاص والصدق اللذين اعتادهما القراء منا في الخمسة عشر عاما التي مضت من خدمتنا الصحافية . فاذا تفضلتم بالاشارة لذلك في صحيفتكم الغراء بشكل يجذب الانظار فانكم تعجزونني عن النهوض بواجب الشكر لكم . واذا اردفتم تلك الاشارة برجاء ممن يريدون مراسلة الجريدة أو التوكيل عنها في الجهات أن يخاطبونا منذ الآن في ذلك بحيث لا تتعدى طلباتهم منتصف شهر نوفمبر فانكم تجعلون الفضل فضلين والشكر لكم عليه شكرين والسلام » محمد مسعود

صاحب جريدة النظام بمصر

و (المنار) يرحب بالنظام ويرجو له نجاحا وفلاحا ، وتوفيقا للسير على النهج القويم ، والصراط المستقيم ، وان في خبرة صاحبه لمزاولته الكتابة بضع عشرة سنة ، وتفننه الصحافي ، وذوقه الادبي ، مايرجى معه رواج النظام ، ورغبة محبيه فيه

(الجزائر) - وجاءنا من عمر افندي راسم الجزائري انه عزم على إنشاء مجلة « علمية أدبية تهذيبية » سماها الجزائر ولقد ضاق هذا الجزء عن التنويه بها بأكثر من هذا فندعوله بالتوفيق والنجاح

﴿ تصحيح ﴾

سقط السطر الاخير من (ص ٥٦٨ ج ٨ - ١١) وهو: « ثلاثون رجلا . اي صدقكم الله وعده ونصركم على قلتكم وكثرة المشركين واستمر هذا » فيكتب بالقلم

﴿ بيان ﴾

اصدرنا هذا الجزء من المنار غير مصدر بالتفسير والفتاوى لان صاحب المجلة لايزال في سياحته

مجلة

المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء العاشر

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر

المنار
١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الاثنين ٢٩ شوال ١٣٢٦ — ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٠٨ ﴾

اعجاز القرآن

« قطعة للجاحظ »

سلك أئمة البلاغة في الكلام عن اعجاز القرآن الحكيم سبلا عديدة وذهبوا مذاهب مختلفة في تبيين وجوه الاعجاز وبيان أساليب التحدي وكان الباقلاني أكثرهم إيفاء للكلام في كتابه (اعجاز القرآن) الذي جعله خاصا بهذا الموضوع . بيد ان الجاحظ وهو إمام الكتاب ورئيس المنشئين سلك سبيلاً أخرى في كلامه عن اعجاز القرآن فانه لم يتعرض الى دقائق الفصاحة وفلسفة البلاغة وبيان مناحي الكلام ومسالك النظم والنثر بل تكلم عن الاعجاز باعتبار كونه ثابتا واقعا واليك كلامه :

بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام في زمن أكثر ما كانت العرب فيه شاعرا وخطيبا ، وأحكم ما كانت لغة ، واشد ما كانت عدة ، فدعا اقصاها وادناها الى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، نصب لهم الحرب ونصبوا له ، وقتل من عِليتهم واعمامهم وبني اعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباح مساء الى معارضته — ان كان كاذبا — بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما أراد تحدّيا لهم بها وتقريعا لهم بعجزهم عنها قالوا له انت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا .

قال فهاتوا ولو مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، وعارض الشعراء من أصحابه والخطباء من أمته ، لأن سورة واحدة وآية يسيرة كانت انقض لقوله ، وابلغ في تكذيبه ، واسرع في تفريق اتباعه من بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الاموال ،

وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والنبل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الاسجاع واللفظ المنثور ، ثم يتحدى به اقصاهم ، بعد ان ظهر به عجز أدناهم ، فمحال — أرشدك الله — ان يجتمع هؤلاء كلهم في الامر الظاهر ، والخطاب المكشوف البين ، مع التقريع بالتقصير والتوقيف — على العجز وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد أعمالهم ، وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة في الامر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، كما انه محال ان يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل المنفعة ، فكذلك محال ان يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه ،

تتمة الخطبة الاولى

« من خطبنا الاسلامية في الديار السورية »

تابع لما نشر في (ص ٦٤١ ج ٩ م ١١)

الاسلام هو الذي هدى المسلمين الى العلم ، وكانت عنايتهم بالعلوم تنمو بنمو سلطانهم وقوة شوكتهم ، ثم دالت دولة العلم ، ودولة السيادة والحكم ، وضعف الدين مع ضعف العلوم العقلية ، وقام الاستبداد يحارب العلم و يضطهده ، فان الحاكم المستبد يرى من مصلحته ان تكون الامة جاهلة ذليلة ، اذ الاستبداد في الامة العالمة بحقوقها أمر عسير غير يسير . قال حكيمنا السيد جمال الدين : العاقل لا يظلم ولاسيا إذا كان أمة . فهذا سبب ما كنتم تقاسون من محاربة الحكومة التي سقطت منذ عهد قريب للعلم ، واضطهادها المتهمين به وهو عندها أشد الجرائم !!!

أتى على المسلمين حين من الدهر وهم لا يجارون أحـدا من الامم في العلوم والفنون ، وقد ذاقوا مرارة ذلك ورأوا سوء عاقبته في أنفسهم ودولتهـم ، فصاروا يفتنون من كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون ، كما قال الله تعالى في المنافقين : تنقص بلادهم من اطرافها وتسقط في أيدي الاجانب ولاية بعـد ولاية بل مملكة بعد مملكة وهم لا يهتدون الى سبب ذلك ولا الى طريق تلافيه ، بل يعتمدون و يتكلون على مالا يتكل عليه من كرامات الاولياء ومدد الاموات ! ولم يجعل الله ذلك سببا للنصر بل أمر باعداد ما يستطاع من القوة ، حتى في زمن النبي المؤيد بالآيات الإلهية ،

اذكر لكم من الشواهد على ذلك ما يؤثر عن أهل بخارى : فانهم أنذروا هجمة روسيا عليهم فلم يعدوا لها ما يستطيعون من قوة ، بل هزئوا بذلك وسخروا ، وقالوا ان بلادنا في حماية شاه نقشبند ! (هو الولي الذي تعزى اليـه الطريقة النقشبندية) فلما

زحف عليهم جيش الروس لم يملكوا من نجدة هذا الولي لهم شيئا ، بل انقلبوا على أعقابهم خاسرين ، وخسروا استقلالهم وما كانوا معتبرين

فيا أيها الناس تأملوا وتدبروا : إذا تركت الامة أن تعدّ لاعدائها ما تستطيع من قوة كما أمر الله تعالى وكما تقتضي طبيعة الاجتماع ، واتكلت في حياتها السياسية والاجتماعية على الاموات ألا تكون جديرة بالموت دون الحياة ؟ بلى وهذه هي حالنا في هذه القرون الاخيرة ، ولكن الله تعالى وعد بأن يظهر هذا الدين ، وان لا يذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، ولذلك سخر لنا من المجددين من يعلمنا كيف نحفظ شرف الاسلام ، ونكون أعزاء بين الانام ، :

ظهر بين المسلمين أقوام تعلموا العلوم الاوربية وعرفوا أحوال العالم فرأوا ان جميع الامم تقوى والمسلمين يضعفون ، ودول النصرانية والوثنية ترتقي وتعز ، ودول الاسلام تتدلى وتذل ، وبحثوا في سبب ذلك فرأوا ان المسلمين مؤلفون من كل جنس ، ومتبوّئون لكل أرض ، فلا يمكن ان يكون سبب ضعفهم في كل قطر عدم استعداد جنسهم ، ولا شيء يرجع إلى طبيعة أرضهم ، ولم يروا سببا مشتركا بينهم لايشاركهم فيه غيرهم ، الا تقاليد دينهم ، فقالوا — كما قال بعض أساتذتهم من الافرنج — ان دين المسلمين هو سبب انحطاطهم ولا مطمع لهم في الارتقاء الا بتركه والاخذ بما عليه أوربا !! ، وعلى هذا الرأي الفاسد كثير من نابتة الترك والهنود والمصريين والتونسيين

فهذا صنف واقف على طرف مقابل للطرف الذي عليه السواد الاعظم الذي يمقت العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية التي عليها مدار العمران ، والصنفان يتجاذبان سائر المسلمين ، ذاك يدعوهم الى دنيا بغير دين ، وذاك يمسكهم ليبقوا على ماهم عليه وما هم بباقين ،

بين هذين قامت طائفة معتدلة وقفت موقف الوسط بين الفريقين فالتفتت الى هؤلاء الذين يريدون ان يبقى المسلمون على ماهم عليه حرصا على دينهم وقالت لهم ان نيتكم صالحة ولكنكم تنكبتم الطريق لتعليم الدين وحفظه حتى صار بين أمتكم وبين هذه الكتب الكلامية والفقهية مراحل كثيرة ، فلاهم يطلبونها ولا أنتم

قادرون على حملهم على تعلمها والاخذ بما فيها ، فيجب أن تبحثوا معنا عن طريق آخر لتعليم الدين بسهولة تليق بفطرة الناس في أفرادهم وجمعياتهم ، كما أخطأتم في ظنكم ان العلوم التي تبنى عليها الاعمال تنافي الدين فنفرتم المسلمين عما به قوام أمتهم ودولتهم

والتفتت الى أولئك الذين يريدون الدنيا بترك الدين فقالت لهم ان قصدكم الى تقوية الامة والدولة حسن ولكنكم تبنون من جهة وتهدمون من جهة فيقل نفعكم فيما تبنون لعدم الثقة بكم ، ويعظم ضرركم بما تهدمون من أساس التقوى والفضيلة ، مع التقاليد والبدع القبيحة

هذه الطائفة هي التي تدعو الى حقيقة الاسلام الذي يجمع لاهله بين مصالح الدنيا والآخرة ومطالب الروح والجسد . وأول من دعا الى ذلك في بلادنا العربية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى . طرق سمع كثير منكم اسم هذا الرجل الذي هز الآفاق هزا ، ولكن يوجد فيكم من لا يعرف شيئا من أنبائه الصحيحة لكثرة خوض أهل الاهواء فيها ، وقد كان مخاطبكم ممن استقرأ أخباره ، وتتبع آثاره ، وجمع كثيرا مما كتبه ، وقد علمت من ذلك انه دعا الى حقيقة الاسلام وإحياء القرآن في قلوب الناس ، ودعوتهم به الى ما يحييهم ، ويجعلهم أمة عزيزة ، ذات دولة أو دول قوية ، ولكنه قد انفق أكثر أيام عمره في السياسة ، لما رأى ان الملوك يقاومون هذه الدعوة ، لأن البلاد التي تحكم بالاستبداد ، لا مقام فيها للاصلاح والاستقلال

بالله عليكم كيف يرضى الحاكم المستبد بالدعوة الى هداية القرآن الذي يجعل أمر المسلمين شورى بينهم ، وإنما استبداده عبارة عن جعل أمرهم بيده وحده ، وجعلهم عبيدا خاضعين له ؟ كيف يرضى بأن يكون شأنه في سياستهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان لا يبرم أمرا من الامور العامة الا بعد الشورى حتى انه كان يعمل برأي الجمهور وان خالف رأيه ورأي بعض كبراء أصحابه كما فعل يوم أحد؟!! (وذكرنا ملخص الخبر فيها في الخطبة) ألا ان أولئك المستبدين يحاولون ان تكون رتبتهم فوق رتبة النبي عليه الصلاة والسلام وهم لا يصلحون ان يكونوا خدمة له ، بل يحاولون ان يكونوا آلهة تعبد ، يستخفون الامة و يستعبدونها بالفعل ، وان وجدوا مجال القول

ذاسمة صرحوا بما يودعه الاستبداد في نفوسهم كما فعل الذي قال «أنا ربكم الاعلى»

لذلك أقول لكم عن خبرة و بصيرة ان الذي دعا السيد جمال الدين الى الاشتغال بالسياسة هو اعتقاده ان الدعوة لا تكون الاحيث تكون الحرية وحكومة الشورى، ولهذا قام في مصر بتأسيس حزب له نفخ فيه روح حب الحكم الذاتي أو النيابي، وكان من أعضاء حزبه توفيق باشا ولي العهد للامارة المصرية يومئذ، وقد عاهده على ان يجعل لمصر — اذ يصير الامر اليه — مجلسا نيابيا ويحول الحكومة بذلك من النوع الاستبدادي المطلق الى النوع الشوري المقيد، ولكنه لم يكد يستقر على كرسي الامر حتى نفى السيد جمال الدين من مصر حبا في الاستبداد، وتلذذاً بالاستعباد. ولكن السيد لم يملّ ولم ييأس، بل صبر ينتهز الفرص، فجذبته الايام الى بلاد الفرس فاستأنف فيها العمل لإنشاء حكومة الشورى فنفاه الشاه من البلاد، ولقي من البلاء في ذلك مالم يلقه الا قليل من العباد، ثم قذفت به المقادير الى الاستانة فأحسن السلطان اليه، حتى طمع فيه، ولكنه ماعتم ان يئس منه، حتى مات هناك غير راض ولا مرضي عنه، هكذا قضى حياته في التطويف في البلاد ولم يتخذ له زوجة ولا جنح الى شيء من حظوظ الدنيا

كان للسيد مريدون كثيرون يردون ينبوع معارفه، ولكن لم يصدر أحد منهم ريّان من مشربه، و يثبت على مذهبه، الا الشيخ محمد عبده، فقد كان هذا الامام الجليل تربى تربية دينية صحيحة الاما كان من غلوه في العبادة، فقد مكث زمنا طويلا لا يكلم أحدا، وزمنا أطول من ذلك الزمن لاينظر الا الى الارض ولا يهتم بغير إصلاح نفسه، الاما كان من درس يقرؤه لاخوانه المجاورين في الازهر، ثم رجع الى الاعتدال ولكن لم يفارقه الخشوع ورقة القلب . ولقد دخلت عليه مرة بيته فرأيته يطالع في السيرة النبوية ودموعه تجري على لحيته، خشوعا واعتبارا بما لقيه (ص) من الاذى في سبيل ربه، وكان في كل سنة أو أكثر يعتريه تنبه عصبي من إطالة الفكر في سوء حال المسلمين حتى همّ في ليلة من ليالي رمضان أن يطيع هذا الوجدان فينزل الى جوار الازبكية حيث مجامع اللهو و ينادي : أيها المسلمون ماذا رأيتم في دينكم من العيب حتى تركتموه ؟ اخبروني لعلي أبين لكم خطأكم . وأرسل اليّ مرة يخبرني بأن

مرضا ألمَّ به فمنعه النزول من عين شمس الى القاهرة ، فجئته فاذا هو في حجرة النوم واذا بين يديه ثلاثة كتب مفتوحة ينظر فيها ، فقلت له ماهذه الكتب وماهذا المرض؟ فقال هذه كتب من أصول الفقه أشغل نفسي بمباحثها وعباراتها المعقدة عن القرآن قد اطلت الفكر فيه وفي أحوال المسلمين فحصل لي التنبه العصبي الذي تعرف حتى أثر في ظاهر جلدي فاذا أنا وضعت أصبعي على جبهتي أتألم

اشتغل الاستاذ الامام بالسياسة زمنا مع السيد ثم وجد في أواخر عمره حرية في مصر فترك السياسة واشتغل بالاصلاح الديني والاجتماعي ، واشتهر أمره بذلك حتى عرفه الاقارب والاجانب. أليس من العجب ان يوجد في كتاب فرنسا من يشهد بأن طريقة الاستاذ الامام هي الطريقة المثلى لإصلاح حال المسلمين ، و يوجد في المسلمين انفسهم من يقول بضرر تعاليمه عن جهل وغباوة ، أو تقليد للمرجفين عن بغي وحسد ؟

نشرت جريدة الاهرام منذ شهرين مقالة مترجمة عن جريدة الطان الفرنسية الشهيرة جاء فيها : ان المسلمين في تونس ثلاث طبقات (الاولى الجامدة) وهي التي تحرص على بقاء المسلمين على ماهم عليه وتنفر من العلوم العصرية والمدنية الغربية وأهلها هم الاكثرون (الثانية المارقة) وهي التي تنكر الدين ولا ترى ان تقف عند حدوده في شيء وأهلها هم الاقلون وهم يخفون مذهبهم هذا لضعفهم ولا يرجى منهم خير لأمتهم (الثالثة المعتدلة) وهي التي تعمل لترقية المسلمين في العلوم والمدنية مع المحافظة على دين الاسلام وهي التي يرجى منها الخير للبلاد التونسية وأهلها يتبعون التعاليم التي كان يلقيها في مصر الشيخ محمد عبده والتي تنشرها بينهم مجلة المنار. وقد كتب اكثر من واحد من الافرنج مثل هذا عن مسلمي مصر وهو ما كتبه لورد كرومر في تقاريره وتاريخه لمصر

فهذه طريقتنا أيها الاخوان في الاصلاح . نريد ان نجمع لأمتنا بين مصالح الدنيا والآخرة ، وقد عرف هذا كتاب الافرنج واعترفوا بفائدته فلا ينبغي للمسلمين انفسهم ان يجهلوه !

نحن في حاجة عظيمة إلى العلوم والفنون والصناعات العصرية التي تقوى بها

أمتنا وتعتز بها دولتنا . ولا يكون الخير في ذلك تاما لنا إلا اذا أقمنا معه أصول ديننا وهي القرآن الحكيم والسنة السنية التي جرى عليها سلفنا الصالح ، ولا تنافي بين الامرين ، فنحن اذا لم نجمع بين مصالح الدنيا وهداية الدين لا تقوم لنا قائمة . فهذه الطريقة الإصلاحية التي دعانا اليها حكيما الاسلام السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده هي التي يدعو اليها المنار ويناضل عنها ، وهو مستعد بمعونة الله تعالى للتوفيق بين العلوم الحقيقية وأصول المدنية الصحيحة وبين الكتاب والسنة، ومن اشتبه عليه شيء في ذلك فليكتب اليه به يفصله له تفصيلاً

قد انتشرت دعوتنا هذه في جميع الاقطار حتى ان جماعة من علماء الترك أنشأوا مجلة إسلامية في الاستانة سموها « صراط مستقيم » فكتبوا إليّ يطلبون مجلدات المنار كلها ليستعينوا بها على خدمتهم هذه . فهم على علم بطريقتنا في الاصلاح على كون المنار كان ممنوعا عنهم وقلما يصل الى الاستانة جزء منه، فندعو جميع علماء المسلمين هنا وفي كل مكان الى هذه الطريقة بل ندعو اليها كل مسلم « وتعاونوا على البر والتقوى » وينبغي لكل مسلم أن يكون له حظ من اصلاح حال أمته في دينها ودنياها ، فمنهم من يدعو ومنهم من يستجيب للداعي ومنهم من يساعده بجاهه ، ومنهم من يساعده بماله ، والسلام على من اتبع الهدى ، ورجح العقل على الهوى ، اه ما كتبه ذلك الاديب من الخطبة مع تصحيح وتوضيح وزيادة فاتته

(استدراك) بعد النزول عن المنبر تذكرت ما كنت عازما عليه من التنويه بصديقنا عبد الرحمن افندي الكواكبي فذكرت فضله بمساعدة الاصلاح الديني والاجتماعي بكتابه (سجل جمعية أم القرى) والاصلاح السياسي بكتابه (طبائع الاستبداد) رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه

الانقلاب العثماني (*)

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٣

بروتوكل لوندره ورفضه

سمي جمهور المبعوثين بعد ذلك (اوت افندم) لتصديقهم على كلام الرئيس بدون مناقشة ولا مباحثة ، ولكن كان فيهم – والحق يقال – فئة عارفين بمصالح الدولة وطرق الاصلاح ، جسورين على التكلم والدفاع عن حقوق الامة والمناضلة في سبيل منافعها ، غير ان الحال كانت ذات خطر شديد لأن العدو كان يتأهب للحرب على الحدود ، فأراد رئيس المجلس تحويل المذاكرات الى المسائل الخارجية لان مندوبي الدول الست الذين عقدوا مؤتمر الاستانة اجتمعوا في لونده وليس للدولة العليــة مندوب معهم ، ووقعوا بتاريخ ٣١ مارث (مارس) سنة ١٨٧٧ على (بروتوكل) أي مضبطة طلبوا فيها من الباب العالي عقد الصلح مع الجبل الاسود ، والتفرغ له عن نحو عشرين ناحية من املاك الدولة العلية لكون لسانهم سلافيا ودينهم مسيحيا !!! كما طلبوا اجراء الاصلاحات الموعود بهــا تحت مراقبة الدول وإشرافها وغير ذلك ، وأبلغوا هذه المضبطة الى الباب العالي في ٣ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

جاء ناظر الخارجيــة الى مجلس المبعوثان وقرأ على أعضائه ترجمة البروتوكل وشرح لهم أحوال السياسة الخارجية وأفهمهم ان رد البروتوكل تكون نتيجتــه اعلان روسيا للحرب علينا ، وليس للدولة العلية عضد من بقية الدول كما كان لها في حرب القرم ، ولا نقود في خزينتها . وكرر عليهـــم ما قاله مدحت باشا في المجلس

(*) تابع لما نشر في (ص ٦٤٦ ج ٩ م ١١) من رسالة محمد روحي افندي الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

العالي لدى مذاكراته في لائحة مؤتمر الاستانة ، وكانت اكبر الصعوبات من العسرة المالية ؛ وشدة الاحتياج الى التجهيزات العسكرية . فاعترض اكثر المبعوثين على قبول البروتوكل ، وأظهروا من الحماسة والغيرة الوطنية ما لا مزيد عليه ، وكان مبعوثو الارناؤط المجاورة بلادهم للجبل الاسود أشدهم اعتراضا ، وقام مبعوث الاكراد فقال ما ملخصه : تزعمون أن المالية في ضيق شديد فكيف يمكننا تصديق ذلك وأنتم في هذه البهرجة والالبسة الغالية والدور المفروشة بأحسن الاثاث والرياش والعربات والخيل المطهمة ؟ تعالوا الى عندنا في كردستان وانظروا بؤس العيش ومرارة الحياة التي نحن فيها !! لما كنت في بلادي لم يكن علي إلا ألبسة مرقعة بالية كبقية اخواني من أهالي كردستان ، ولما رأيتكم ترتدون أحسن الالبسة وتتألق على صدوركم النياشين المجوهرة خجلت من نفسي فاشتريت الثوب الذي ترونه عليّ من سوق الدلالين !! وأنا مرهق ، لا من المخازن الكبيرة وانا موسر ، واذا كانت سلامة الوطن والمحافظة عليه تقضي عليّ ببيعه فأنا أبيعه وأنا مغبوط وأعود الى ثوبي المرقع .

ثم قال الرئيس في ختام المذاكرة : هل يقبل المجلس ما جاء في البروتوكل لملاحظات ناظر الخارجية ؟ فرفض المجلس قبوله بالاكثرية ، وكانت الاقلية ثمانية عشر صوتا من الروم المبعوثين عن الروم ايلي ومن الارمن . فنظم الباب العالي نشرة مؤرخة في ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧ احتج فيها على بروتوكل لونده المنظم بدون اطلاعه وانضمام رأيه ، وقال : ان تكليف الباب العالي اجراء الاحكام على ما تقضي به هذا البروتوكل مخالف لاستقلال المملكة العثمانية الذي اقرته الدول في معاهدة باريس ، فقرئت هذه النشرة على مجلس المبعوثان فاستحسنها وأقرها وشكر الباب العالي على تنظيمها فأجاب عنها البرنس غورجاقوف في بطرسبرج بنشرة رفعها إلى الدول في ١٩ نيسان (ابريل) مضمونها : ان الباب العالي رفض اجراء الاصلاح الموعود به فصارت الحرب ضرورية لان روسيا مضطرة الى إيفاء واجباتها نحو الاهالي المسيحيين !!!

فأجاب الباب العالي بنشرة أخرى للدولة قال فيها : ان تركيا لا ترفض اجراء

الاصلاحات وانما ترفض الاشراف والمراقبة على اعمالها ، لان في ذلك غمطا لحقها وإزراء بشرفها وعبثا باستقلالها الذي اقرت عليه الدول الموقعة على معاهدة باريس. وصارت النشرات (سيركولير) والمحررات السياسية تتطاير من عواصم أور باوالانذارات (ميموراندوم) والمذاكرات تتساقط على السفراء ونظار الخارجية فلم يجد ذلك نفعا بل اعلنت الحرب في ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٨٧٧

مناقشات مجلس المبعوثان وانفضاضه

بحث المجلس بعد ذلك في لائحة نظام الولايات وتشكيل مجالس الادارة وذكر في اللائحة ان مجلس ادارة الولاية يتألف من ستة أعضاء ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين ، فاعترض بعض المبعوثين على هذا التخصيص الذي هو داعية للتفريق ، وقالوا : إن القانون الاساسي أطلق على جميع الرعية اسم (عثمانيين) بدون تفريق بينهم في الدين والمذاهب ، وان الاكثرية في مجالس الادارة تكون من حق المسلمين ، لان الموظفين كالوالي والدفتردار (رئيس المحاسبة) والمكتوبجي ونحوهم أعضاء دائمون في مجلس ادارة الولاية ، وطلبوا إخراج المفتين من بين الاعضاء الدائمين لكونهم بمثابة الرؤساء الروحيين.

فقال الرئيس : ليس للمفتين صفة دينية كصفة الرؤساء الروحيين ، ورغم انتشار هذا الزعم الفاسد فالمفتي ماهو الا مأمور القانون أي المحامي عن القانون والشريعة ، وليس له سيطرة على المسلمين كسيطرة الرئيس الروحي على ابناء ملته ، وانما هو من علماء الحقوق المعروفين عند الافرنج باسم (Jurisconsulte) واعترضوا أيضا على تسمية (متصرف) فقالوا ان هذا الاسم مشتق من التصرف الدال على الاستبداد والاذلال والاستعباد ، فهو لا يوافق روح الحرية والمساواة . واستعلم بعض المبعوثين عن احوال معسكر الاناضول ونقصان التجهيزات العسكرية ، وعلى تعيين احد الخدمة قائمقام وقد كان (شوبقجي) اي حامل قصبة التدخين عند بعض الكبراء ، الى غير ذلك.

ثم اشتغل مجلس المبعوثان بتدقيق ميزانية المالية ، وطلبت الحكومة خمسة ملايين ليرة عثمانية للدخول في الحرب فتألف قوميسيون من احد عشر مبعوثا للتذرع بالوسائل المؤدية الى الحصول على المبلغ المطلوب . فحاولوا اقتراضه من إنكلترا على ان يكون لها في مقابل ذلك واردات مصر كما فعلوا قبلا فرفضت إقراضهم لان التأمينات غير كافية ، فقرروا عقد قرض داخلي بفائدة عشرة في المئة من واردات اصحاب الاملاك والتجار ، واخذ راتب شهرين من اصحاب الرواتب ، فصدق مجلس المبعوثان على هذا القرض وعلى كل ماطلبته الحكومة منه وختم جلساته في تموز (يوليو) سنه ١٨٧٧ فقال الرئيس: ارجعوا الى ولاياتكم وأعيدوا الانتخابات واجتهدوا بأن ترسلوا الينا مبعوثين او فر عقلا و أكثر وقوفا على ماتحتاج اليه البلاد !!!

فيرى من ذلك ان مجلس المبعوثان — على ضعفه وعجزه وجهل اعضائه في السياسة والادارة — لم يكن منه قصور أو تقصير في وظائفه ، ولم يحصل فيه اختلاف شديد بين المسلمين والمسيحيين ، وانمــا كانوا جميعا متفقين على مقاومة الاستبداد ومنع التعدي وتبذير الاموال ، وكل منهم عارف بمصالح بلاده الخاصة ، لأن معرفة ذلك لا تحتاج الى عــلم كبير أو رأي ثاقب لبداهتها ووضوحها كالشمس في رابعة النهار ، غير أن الواقفين منهــم على مصالح الدولة العامة وسياستها الخارجية كانوا أقل من القليل ، والحكومة ابت ان تعترف لهم بحق ، بل نظرت اليهم نظر الوصي إلى الصبي !!!

الحرب الروسية العثمانية

استمرت الحرب الروسية العثمانية ثمانية أشهر (نيسان — كانون الاول سنة ١٨٧٧) وابرزت الجنود العثمانية فيها من الشجاعة والصبر والثبات والقوة مادل على حياة الامة وقوتها وسلامة جسمها من اعراض الهرم أو المرض الذي يصفها به العــدو ، ولكن نقصان التجهيزات العسكرية وسوء الادارة كانا سـببا في انتصار الروس في أوربا وآسيا ، وتجاوزهم نهر الطونة (الدانوب) وجبال البلقان ، وأخــذ القرص ومحاصرة ارضروم من جهة الاناضول ، وفتح بلفنا في الروم ايلي ، ولقد أظهر عثمان

باشا وعسكره من الشجاعة والمقاومة ما حير الروس وأوربا كلها فاعترفوا بفضلهم وقدروهم قدرهم « والفضل ما شهدت به الاعداء » ١٠ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧

طلب مدحت باشا وانتخاب المبعوثان ثانية

استنزفت هذه الحرب ثروة البلاد واضعفت قوتها وافرغت صناديق الحكومة من الاموال ، لكثرة الإنفاق وانقطاع الوارد اليها من التكاليف والرسوم ، فتقرر إعادة التئام مجلس المبعوثان وطلب مدحت باشا من أوربا ، وعقد قرض لوندره ، وعقد الصلح مع روسسيا ، فجرى انتخاب ثان بأمور (أوامر) مؤقتة لا كما يقضي نظام انتخاب مجلس المبعوثان

افتتاح مجلس المبعوثان مرة ثانية وخطاب السلطان فيه

افتتح مجلس المبعوثان مرة ثانية في يوم الخميس الواقع في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٤ و١٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٧ فذهب الوكلاء الفخام والوزراء الكرام والعلماء الاعلام واعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان وسفراء الدول الاجنبية الى سراي بشكطاش واصطفوا على الصورة الآتية : فكان عن يمين الحضرة العلية السلطانيه أدهم باشا الصدر الاعظم ووكلاء الباب العالي ثم موظفو المجالس العالية ثم رؤساء المذاهب المختلفة ثم اعضاء شورى الدولة ومستشارو النظارات المختلفة وكثيرون من اعيان رجال العسكرية والملكية بحسب رتبهم ومقاماتهم ، وكان عن شمالها حضرات شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب أمير مكة المكرمة قبلا ثم العلماء من رتبة قاضي عسكر الروم ايلي والاناضولي ثم (الفريقان) الكرام وفريق من العلماء الاعيان . وكان اعضاء مجلس الاعيان أمام الحضرة العلية السلطانية من ناحية اليمين على صفين ، واعضاء مجلس المبعوثان امامها من ناحية الشمال على تسعة صفوف ، وفي الساعة السادسة على الحساب العربي دخل السلطان الاعظم وسلم الرقيم المشتمل على نطقه لسعيد باشا باشكاتب المابين فتلاه على الحاضرين وهو :

« يا أيها الاعيان والمبعوثان

« انني اكتسبت الممنونية بفتح المجلس العمومي وبمشاهدة مبعوثي الملة (الامة) — ثم ذكر الحرب مع روسيا والمحافظة على الملية أي القومية واللغات وحق المساواة وادخال غير المسلمين من الرعية في الجندية والمحافظة على القانون الاساسي واصلاح المالية والعدل في جباية الاموال الاميرية وتنظيم القوانين — وختمه بقوله:

« يا أيها المبعوثان

« ان ابراز الحقائق في المسائل القانونية والسياسية وضمان منافع البلاد يتوقفان على مجاهرة أرباب الشورى بأفكارهم بالحرية التامة ، وبما ان القانون الاساسي يقضي بذلك فانني لا أرى احتياجا إلى أمر أو ترغيب آخر »

مذاكرات مجلس المبعوثان

ثم انعقد مجلس المبعوثان في الدائرة الخاصة به تحت رياسة حسن فهمي افندي (وهو اليوم باشا من النظار) وشرع المبعوثون في المذاكرات والمباحثات بقية شهر كانون الاول (دسمبر) وكانون الثاني (يناير) وأوائل شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ وكثر الجدال بين المبعوثين وبين الحكومة — لا بين الاعضاء المختلفين بالدين واللسان — وطلب بعضهم التدقيق في حسابات المالية ، وحضور ناظرها لمناقشته الحساب ، ومحاكمة المرتكبين ، وسؤال المتهمين باختلاس الاموال الاميرية ، وسوء الاعمال المختلفة المتعددة ، وقام أحد المبعوثين وقال : إن الجاندرمة (فرسان الشرطة) في الولاية التي بعثت منها تنهب الاهالي ، والمحاكم ترتشي على إبطال الحق وإحقاق الباطل ، والضابطة تعذب المحبوسين بالضرب وأنواع العذاب . واعترض مبعوث آخر على المذابح التي جرت في بلغارستان وطلب التحقيق والبحث عنها . وطلب جماعة من المبعوثين عزل خمسة من الوكلاء : منهم محمود جلال الدين باشا وسعيد باشا وكجوك سعيد باشا ، والتحقيق عن كثيرين من رجال الدولة وقواد العساكر ، ولا سيما عن الاختلاس والاسراف في نظارة البحرية وغير ذلك .

إلغاء الصدارة واستبدال مجلس الوكلاء بها

بعد ذلك تولى الصدارة أحمد حمدي باشا المعروف في ولاية سوريا ، وذكر في فرمان التولية « إن اعتزال أدهم باشا مدة للاعمال كان مراعاة لصحته هذا مع التسليم بنزاهته ودرايته ، ونحن راضون عنه من كل الوجوه أتم الرضى ... الخ » وبقي حمدي في الصدارة بضعة وعشرين يوما ، وفي غرة صفر سنة ١٢٩٥ و ٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ صدر الفرمان القاضي بإلغاء لقب (صدر أعظم) واستبدال رئيس الوكلاء به ، وتوجيه هذه الرياسة إلى أحمد وفيق باشا رئيس مجلس المبعوثان مع رتبة الوزارة ، وتعيين مسئولية (تبعة) الوكلاء أي النظار كما هي الحال في وزارات أوربا ، فحضر (الباش وكيل) الأفخم الى مجلس المبعوثان وقال لهم ما ملخصه :

« إن جلالة السلطان الاعظم تريد في الحقيقة باطنا وظاهرا إدارة الملك كما تقضي احكام القانون الاساسي ، ولذا استبدلت رياسة الوكلاء بمسند الصدارة . فالوزارة الجديدة المؤسسة على قاعدة المسؤلية لا ترغب إلا في سلامة الدولة وترقيها ، والوكلاء مستعدون للحضور دائما إلى المجلس عند الطلب ، ولكنهم يرجونه ان يقبل في بعض الاحيان وكلاء عن اعضائه لكثرة شواغلهم وحرصا على أوقاتهم !!! »

فقام أحد المبعوثين وقال ما خلاصته :

« ان مجلس المبعوثان له الحق وحده ومن شأنه خاصة إحداث تغيير عظيم مثل هذا التغيير ، تقولون دائما انكم تريدون المحافظة على القانون الاساسي ، إذا فاحترموا حريتنا لأننا نحن الذين نمثل القانون الاساسي ونحافظ على احكامه ، وأنتم الذين تحاولون نقضه وإبطاله ... » فأحيلت المسألة على قوميسيون مخصوص ليدقق فيها في ٥ شباط (فبراير) وكانت الحرب أوشكت أن تضع أوزارها ، وعسا كر روسيا استولت على أدرنه وتجاوزتها ، وطلبت اوستريا (النمسا) أن تجمع في فينا مؤتمرا من مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس لتنقيح المعاهدة الجديدة بين تركيا وروسيا ، والتوفيق بين أحكامها وأحكام المعاهدات القديمة ، وبعث

انكلترا بأسطولها الى بحر مرمره في ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨

المجلس العالي

تداخلت دول اوربا في المسألة الشرقية بعد ان تركن روسيا تفعل ما تريد في الحرب ، وعدن الى المناقشات والمحاورات — على عادتهن — في هذه المسألة واعتمد المابين على ما بينهن من الاختلاف واستغنى عن مجلس المبعوثان فألف في ١١ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ مجلسا عاليا من وكلاء الدولة ورجالها وأعيانها والرؤساء الروحيين ، وطلب من مجلس المبعوثان خمسة أشخاص : الرئيس ووكيليه وأحد مبعوثي الاستانة وهو الحاج احمد افندي كتخدا الاسترجية (الكدش) ومبعوث آخر يهودي ، فقال لهم الحاج احمد افندي ان طلبكم الآن رأينا في غير محله ، فقد كان يجب عليكم أن تسألونا قبل الخراب ، فمجلس المبعوثان يتنصل من كل تبعة تلقى عليه لامر وقع بغير علمه ، ولم يكن برأي من آرائه ، وكرر القول بأن المجلس يرفض كل تبعة في الحال الحاضرة .

تعطيل مجلس المبعوثان الى اجل غير مسمى

صمم السلطان الاعظم حينئذ على العدول عن سياسة والده الماجد السلطان عبد المجيد خان في عمل الاصلاح باطلاق الحرية والعمل بمقتضى أحكام القانون الاساسي ، وجنح لسياسة جده السلطان محمود خان في إعمال القهر والاستبداد ، مفضلا هذه السياسة اعتقادا منه أن الشعوب التي وضعها الله تحت يده لا يمكن تسييرها الا بالقوة !! . وكان حضر المندوب الروسي الى الاستانة فلم يسر بوجود مجلس المبعوثان لخلو بطرسبرج من مثله ، واستبداد القيصر برعيته ، ففي ١٤ شباط (فبراير) سنة ١٨٧٨ قرأ الرئيس حسن فهمي افندي على المبعوثين منطوق الارادة السنية القاضية بتعطيل مجلسهم الى أجل غير مسمى !!!

استخذاء المبعوثين والامة لتعطيل مجلس المبعوثان واسبابه

خرج المبعوثون يتعثرون بأذيالهم ، وأنذرت الضابطة المتطرفين منهم والجسورين على التكلم وإيقاظ افكار الامة بوجوب المهاجرة من الاستانة !

فذهب بعضهم الى الولايات العثمانية وبعضهم الى مصر والبلاد الاجنبية . ولم تقلق الامة أو تتأثر من هذا الاحتقار والامتهان، ولا حصل منها هيجان أو اعتراضات! كأنها جمل المحامل

يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالمراوى فلا غير لديه ولا نكير

ولم يبق من المبعوثين من أصر على مبعوثيته الى آخر نفس من حياته الا أفراداً قلائل كمبعوث القدس الذي كان — بجراءته — يثبت على بطاقة الزيارة (كارت فيزيت) انه مبعوث القدس، ويقدمها الى وزراء الدولة ورجالها لدى زيارته لهم في الاستانة" والى سفراء الدول الاجنبية وموظفي نظارات الخارجية في أوربا . ولما اجتمع بصديقه خليل غانم مبعوث بيروت في الاجتماع الثاني للمجلس ومنشئ المقالات الرنانة في جريدة الديبا وغيرها من جرائد باريس وذلك قبيل وفاتها — آخذه لكتابته في بطاقة الزيارة كلمة المبعوث السابق (Ex-Député) فمحا كلمة « سابق » لان صفة المبعوثية انما هي بارادة الامة وانتخابها ، فهي لا تزول عن صاحبها إلا بانتخاب آخر ، ومجلس المبعوثان لم يُلغ إلغاء وانما عطل الى اجل غير محدود ، فكان اجتماعه في كل سنة من قبيل الممكنات الجائزة عقلا ونظاما . ولكن اكثر المبعوثين تناسوا وظيفتهم كأنها وظيفة حقيرة لا يؤبه لها وقد عزلوا منها ، ولم يجسر احد على ذكرها في ترجمة حاله الرسمية ، ولم يذكرهم بها مذكر ولا وعظهم واعظ !! ولا حررت في هذا الموضوع جريدة من جرائد المملكة العثمانية

ان لهذا السكوت والاستخذاء اسبابا كثيرة . منها ان الحرية أمر تستحوذ عليه الامة بالغلبة والاستيلاء، وليست مما ينعم به انعاما أو تعطى جزافا، ولقد كانت الأمة حينئذ منهوكة القوى مكسورة الجناح بسبب الحرب ، لا دار الا وفيها مأتم، ولا اسرة الا وقد أصابتها مصيبة. وزاد البلاء بسبب البحران المالي ، ونزول قيمة المسكوكات (النقود) فكانت الاسرة تبعث خادمها الى السوق ليشتري القوت الضروري فيعود اليها خاوي الوفاض لعدم رواج النقود ، فتطوي على الجوع وتتفتت اكباد الوالدين

لبكاء اطفالهم . ثم ان الامة هي عبارة عن أهل العاصمة منبع الاستبداد وأهالي الولايات والقرى ، والعساكر المنظمة المدربة على الحرب ، المسلحة بالاسلحة الجديدة والمدافع ، فأما أهل الاستانة ولا سيما المسلمون فانه لايتصور قيامهم لطلب الحرية لان جلهم — ان لم نقل كلهم — موظفون أو عائشون في ظل الموظفين ، والعساكر المسلحون واقفون لهم ولاهل الولايات بالمرصاد ، وقادرون على إخماد نار اية ثورة أو مظاهرة ، وان قيام طائفة مسيحية وحدها لطلب الحرية مما لايرضى به المسلمون ولا بقية الطوائف المسيحية واليهودية ، كما شاهدنا ذلك في أرمينيا ومقدونيا التي اشتدت فيها المناقشة بين الروم والبلغار والصرب والرومان ، كما أن العساكر وحزب الاحرار العقلاء لايرضون به ، لان قيام كل ملة على انفراد يقضي بتقسيم الممالك وتفريقها وضعفها ، وإثارة اضغان العداوة الموروثة من الحروب الصليبية والقرون المتوسطة المظلمة ، على ان هذا القيام كان مصدره الكنائس والاديار بإيعاز الرهبان والقسيسين والمبشرين والمرسلين ، فكان سببا لايجاد المذابح والفظائع ومداخلة الاجانب .

أما حزب تركيا الفتاة الذي أسسه مصطفى فاضل باشا وخليل شريف باشا فانه لم يكن في عهد مدحت باشا الافئة قليلة من صغار الموظفين وضباط العساكر والمتعلمين في المدارس الجديدة ، والذين درسوا شيئا من اللسان الفرنساوي أو الانكليزي ، واشتهروا باسم « انكلز » لتعلمهم الانكليزية فقط ، مثل : انكلز سعيد باشا ، انكلز كريم افندي ، انكلز علي بك والد أحمد رضا بك روح هذا الانقلاب ، أو الذين أصلهم من الاوربيين فأسلموا ودخلوا في الوظائف ، مثل عمر باشا المجري ، ونوري بك ابن المركي دوشاتونيف الفرنساوي ، وكثير غيرهما ، أو الذين تزوجوا بنسوة أوربيات وربوا أولادهم تربية أفرنجية أوغير ذلك ، فكانت هذه الفئة متحدة بالفكر في إعجابها بالمدنية الاوربية وميلها اليها ، ولم تكن لهم جمعية ولا رابطة غير الرابطة المعنوية الفكرية ، لانهم من موظفي الحكومة والوظائف تضطرهم الى إخفاء الرأي ، وإطاعتهم لآمريهم إطاعة يرفضها العقل والسياسة ، والا كانت الامور فوضى ، ولكن الجامدين من المسلمين لم

يفرقوا بين الدين المسيحي والمدنية الاوربية ، واعتبروا كل إصلاح صدر من أوربا المسيحية مخالفا للدين والآداب الاسلامية ، وشتان ما بين المدنية الاوربية والدين المسيحي ،

سعاوي افندي وحادثة جراغان

على ان بعض المتطرفين من حزب تركيا الفتاة ثاروا بزعامة علي سعاوي أفندي ، وكان من طلاب العلم المعروفين بالصوفتاوات ، مطلعا على العلوم العربية والفنون الرياضية ، وواقفا على الافكار الجديدة . نفي في أيام السلطان عبد العزيز وصدارة عالي باشا ، وفر الى باريس ولوندره ونشر ثمة الرسائل والمقالات ، وكان ينفق على نفسه فيهما مما ينفحه به بعض رجال الاستانة ، ثم عاد اليها وصار من حزب مدحت باشا انصار القانون الاساسي ، وعين مديرا للمكتب السلطاني ثم عزل ، فاتفق مع صالح بك الارناؤط احد الضباط وجماعة من المهاجرين فكانوا زهاء مئة رجل ، وهجموا على سراي جراغان لاخراج السلطان مراد منها ومبايعته ، واسترداد الحرية والقانون الاساسي ، ففاجأتهم العساكر بالسلاح فشتت شملهم . وكانت هذه الحادثة في ١٣ مايس (مايو) سنة ١٨٨٧ زمن رياسة صادق باشا لمجلس الوكلاء

صدارة رشدي وصفوت وخير الدين التونسي

لبث احمد وفيق باشا (باش وكيل) لمجلس الوكلاء مدة قليلة ، ثم وجهت الى صادق باشا فبقي فيها تسعين يوما ، ثم استبدلت الصدارة (بالباش وكالة) وعين فيها رشدي باشا ودام فيها ثمانية أيام ، ثم عين لها صفوت باشا ناظر الخارجية فأكتسب فيها ثقة الحضرة السلطانية ولم تطل فيها مدته ، وعين لها خير الدين باشا الجركسي الاصل والتونسي النشأة ، وهو مؤلف التاريخ العربي «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » وله وقوف على العلوم العربية وعلى الفرنساوية ، وتجول في ممالك أوربا ، وقد طلب منها في سنة ١٢٩٤ ه كما طلب السيد جمال الدين الافغاني وغيره ، وعين رئيسا لشورى الدولة ثم (صدر اعظم) سنة ١٢٩٥ وبقي في الصدارة ثمانية أشهر ، ثم استقال وبقي

حلس بيته الى أن توفي سنة ١٣٠٧ في الاستانة. فكان في طلبه وتوظيفه شبه ميل الى سياسة (بانسلاميزم) ولكن هذه السياسة لها معنيان: المعنى القديم الاستبدادي الذي مشى عليه خلفاء بني أمة والعباسيين، وهو مخالف لحقيقة الاسلام، ومناف لروح العصر الجديد والمدنية الحاضرة — والمعنى الحديث وهو يوافق أصل الاسلام والمدنية، ولكنه يخالف مسلك المستبدين بالامر، ويحول بينهم و بين مآربهم، وهو اشد وطأة عليهم من القانون الاساسي وحزب تركيا الفتاة.

صدارة كجوك سعيد باشا واعماله

ثم عين لمسند الصدارة سعيد باشا المشهور بسعيد باشا الصغير (كجوك سعيد) تمييزا له عن سميه ناظر الداخلية الكردي الاصل والمتوفى قبل بضع سنين. وكان سعيد باشا الصغير محررا في جريدة «حوادث» فاتصل بالداماد محمود جلال الدين باشا ودخل بوساطته المابين وصار باشكاتب له، وهو المتسبب في إبعاد مدحت باشا وتعطيل احكام القانون الاساسي، وإعلان الحرب، وعزل القائد (السردار) عبد الكريم باشا وإخلائه موقع (بَليه) امام بلفنا، ومداخلة المابين في إدارة جميع الشؤون العسكرية، واصدار الامور من السراي السلطانية اثناء الحرب، وتقسيم المملكة العثمانية في معاهدة سان ستفانو التي نقحتها معاهدة برلين..الخ فان الارادات السنية في جميع ذلك كانت تصدر برأي سعيد بك باشكاتب المابين وتوقيعه، ولهذا كان مبغوضا من حزب تركيا الفتاة لانه كان آلة وعونا على الاستبداد، وعلى ادارة المصالح بدون رأي الباب العالي. مع أن باشكاتب المابين كان لذلك العهد ينتخب من قبل الصدارة العظمى، وكان الصدور لا ينتخبون لهذه الوظيفة الا الذي يعتمدون عليه لعرض المضابط والمقررات والانهاآت واستصدار الارادات السنية بها، ولم يكن للباشكتّاب نفوذ معارض لنفوذ الباب العالي صاحب التقاليد والاصول المرعية في ادارة المملكة، ولا سيما في أيام رشيد باشا وفؤاد باشا وعالي باشا، فلما توفي عالي باشا وتولاها محمود نديم تدنت اهميتها بسبب نفاقه وتملقه المابين وتقديمه اموال الخزينة اليه بغير عد ولا حساب. ولما ولي سعيد باشا الباشكتابة زالت اهمية الصدارة بتة، وانحصرت

الاعمال والادارة في المابين ، وصار للباشكاتب نفوذ يمكنه ان يطلب مدحت باشا الصدر الاعظم الى المابين و يبلغه الارادة القاضية بنفيه على الباخرة عز الدين!!

تولى سعيد باشا الصدارة بعد مدحت واشتهر بالنزاهة والاستقامة ، فلم يسمع عنه ارتكاب ولا انهماك في جمع الاموال وادخارها ، ولهذا كان أقل الصدور ثروة ، وكان شديد السطوة على المرتكبين ، كثير البطش بهم والاستبداد فيهم ، ولكنه عادل في احكامه وعقابه . وفي زمن صدارته وضع نظام المعارف ، وأسست المدارس على النسق الجديد ، وصار للمعارف إيرادوافٍ من واردات الحصة التي أضيفت الى الاعشار ، ونظمت نظارة العدلية وأصول المالية ، وأسست إدارة الديون العمومية ، و بوشر في مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح الطرق والمعابر ، من دون ان يؤدي اعطاء امتيازاتها الى ارتكاب فاحش . فكان أصلح الصدور في الدور الاخير ، ولم ينتقد عليه حزب تركيا الفتاة الا استبداده ومقاومته مشروع مدحت باشا وتوقيف أحكام القانون الاساسي وجميع ما صنعه وهو رئيس كتاب المابين ،

لم يصد سعيد باشا كونه من رجال السكامريلا - لانه نشأ وتربى في المابين - ان يحاول الاستقلال في وظيفته واعلاء شأنها ورفع مكانتها ، وتمشية المصالح بالعدل على قاعدة مطردة وأصول منظمة ، كما كانت عليه في زمن عالي باشا . فأصبحت بذلك أعمال سعيد باشا موضعا للريبة ، وكثرت الوشايات به فصار مبغوضا منفوراً منه ، ووضعت عليه العيون والجواسيس ، وصارت أعماله تراقب مراقبة دقيقة فأحدث قلم للترجمة في المابين وانجمن التفتيش (مجلس التفتيش) والمعاينة في نظارة المعارف لمراقبة الكتب المطبوعة والتدريس ومصادرة المضر منها (!) على زعمهم وبحسب اصطلاحهم ، وقلم مراقبة المطبوعات الداخلية والاجنبية في الباب العالي . هذا ماعدا دوائر وشعب الخفية (الجواسيس) المتعددة المحدثة التي مركزها في المابين تحت نظارة السرخفية (رئيس الجواسيس) فهذا الذي قضى بسقوط سعيد باشا في الحقيقة والواقع فذهب بإصلاحاته ادراج الرياح ، وان كان عزله في الظاهر بسبب احتلال البلغار للروم ايلي الشرقية ، واصراره على ارسال العساكر كما تصرح بذلك معاهدة برلين ،

صدارة كامل باشا الصدر الحالي

تولى الصدارة كامل باشا الصدر الحالي بعد سعيد باشا ، ومولده في جزيرة قبرص ومرباه في مصر ولهذا نسب اليها ، وله معرفة باللغات الاجنبية وبإدارة الدولة ، لانه تقلب في جميع وظائفها ، فمن قائمقام الى متصرف الى والٍ الى ناظر، ولكنه في نظر تركيا الفتاة كان أقلَّ شهرة من كثيرين من الوزراء والرجال الموجودين إذ ذاك · واستمرت صدارته ست سنوات وهو آلة في يد المابين ، مطيع لما يلقي عليه من الامور ، ثم ظهرت شجاعته فعارض وعاند ، فأصابه ماأصاب سلفه سعيد باشا من سوء الظن به ، والريبة في أعماله وشؤونه مما قضى بفصله

صدارة جواد باشا وضعف الدولة

لماولي الصدارة جواد باشا قوبل ذلك بالاستغراب العام ، ولم يكن يخطر تعيينه ببال ، لانه من أمراء العسكرية وهو صغير السن غير متمكن من اختبار الادارة الملكية، على انه كان من النابتة الجديدة ، وتخرج في المدارس العسكرية ، وربما كان الغرض من تعيينه هو الإيهام بالعود الى الاصلاح واطلاق الحرية ، ولكنه في الحقيقة لم يكن قائما بوظيفة الصدارة بل كان ياورا للحضرة السلطانية مكلفا بتنفيذ الامور التي تلقى اليه ! ! ، كما كان رئيس الوزارة الالمانية ياورا للحضرة الامبراطورية ولكنه غير مسؤول امام الريشستاغ ! فلم يبق بعد ذلك شأن للصدارة ، واستولى رجال المابين على الشؤون كافة ، وصار في يدهم العزل والتوظيف والحل والربط وإعطاء الامتيازات بمد الخطوط الحديدية واستخراج المعادن وسائر الامور النافعة، وكانوا يتناولون الرُّشى من وراء ذلك بصورة فاحشة . واستولوا على الاوقاف، ووسعوا نطاق الخزينة الخاصة بانتزاع المتلكات من أيدي أصحابها بالثمن البخس، وإقامة الموظفين فيها يعارضون بنفوذهم موظفي الحكومة ونفوذها ، حتى أصبح المابين حكومة صغيرة قوية ! ! داخل حكومة كبيرة ضعيفة ! لان مركز الحكومة نقل من الباب العالي الى سراي يلديز السلطانية ! !

الجاسوسية في الدولة العلية

ضعفت إدارة الدولة وجعلت تتدهور بسرعة الى دركات التأخر والانحطاط، بعد ان خطت خطوات محمودة في سبيل التقدم أيام صدارة سعيد باشا، وانقطع أمل الاحرار العثمانيين وخاب رجاؤهم بعد ان كانوا يؤملون تخليص الدولة والمملكة من المرض الذي منيتا به قديما . فاضطهد هؤلاء الاحرار واهينوا وعوملوا اسوأ معاملة، حتى ذاقوا أشد العذاب الوجداني والأدبي، وصار أرباب الدناءة والفساد يتقربون الى المابين بالتملق والوشاية والتجسس على إخوانهم وأعمامهم وآبائهم! ومنهم من تجسس على أمه وأخيه فنفيا من الاستانة، فكانوا — بمفترياتهم — يصورون الرعية الصادقة للسلطان الاعظم كالوحوش الضارية تريد افتراسه ونزع تاجه، ويزينون في عينيه الاستبداد، ويبعدون عنه الخبيرين بأمور الدولة العارفين بطرق الاصلاح، زاعمين انهم من ذوي الافكار المتطرفة وحزب تركيا الفتاة حتى اختل نظام المملكة، وبطلت مراعاة الاحكام القانونية، والسير في إدارة الدولة على الاصول والتقاليد المعروفة من القديم، وفسد التعليم في المدارس، وانحرفت ادارة الامور الداخلية والخارجية عن محورها، ومالت الى التدلي والانحطاط، رغم الابهة الظاهرة، والعظمة الكاذبة، ولا سيما في موكب صلاة الجمعة اذ تصطف العساكر في ساحة المسجد الحميدي امام باب السراي صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض رجالا وفرسانا، وتتسابق مركبات الكبراء والسفراء الاجانب، ثم تشرق المركبة السلطانية من مطلع السراي وهو المشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبة مشاة خشع الابصار، ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الإمامية، وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الفرس وقياصرة الرومان كبرا وجبروتا، وكلهم في أمواج الملابس الذهبية يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار. وكان في كل نظارة من نظارات الداخلية والعدلية (الحقانية) والمالية والمشيخة الاسلامية وغيرها رجال معروفون يبيعون الوظائف والرتب بأسعار معلومة، ويقتسمونها هم وكبار الموظفين، فمن اشترى وظيفة بمئة

ايرة فأ كثر فانه يجتهد في استغلاله منها اضعاف ما بذله بإرهاق الاهالي وظلمهم أو اختلاس الاموال الاميرية أو بكليهما !!

الميل عن انكلترا الى المانيا . الحوادث الارمنية

انحرفت سياسة المابين عن انكلترا الملحة في طلب القيام بالاصلاحات وتغيير الادارة المستبدة الظالمة ، واتجهت نحو المانيا التي لاترى بأسا في ادارة الدولة بالقسر الاستبدادي ، فجنح بعض ساسة الانكليز للارمن ومالوا اليهم ، وساعدوا جمعيتهم السرية التي في لوندره ، واشار عليهم بعض رجال السياسة كغلادستون بالقيام والهيجان حتى اذا حدثت في البلاد مذابح كمذابح البلغار هاجت الافكار العمومية في أوربا ، وتسنى لحكوماتها المداخلة في طلب الامتيازات لارمينيا ، كما حدث في البلغار والجبل الاسود والصرب . ويساعد على ذلك نص المادة الحادية والستين من معاهدة برلين فقد جاء فيها مامعناه « يتعهد الباب العالي بأنه يسرع في القيام بالاصلاحات والتحسينات التي تقتضيها حال البلاد الداخلية في الولايات الآهلة بالارمن ، ويحمايتهم من الجراكسة والاكراد ، ويعطي الباب العالي في معظم الاوقات معلومات عن التدابير المتخذة في هذا السبيل للدول المشرفة على القيام بالاصلاحات »

وفي سنة ١٨٩٠ تشكلت جمعية انقلابية ارمنية (١) لتحرير الارمن التابعين للدولة العلية وروسيا والعجم ، وكان رأس مالها مئة وثلاثين الف فرنك ، وميزانيتها اليوم مليون فرنك ، منها ثلاثون في المئة للقيام بالحركات الانقلابية والسياسية ، وخمسة وعشرون في المئة لتسليح الامة ، وعشرون في المئة للنشرات والتبشير . فأحس احرار العثمانيين بذلك وتأثروا جدا ، فاجتمعوا سرا وتشاوروا ، وخابر بعضهم كبراء الارمن وعقلاءهم وقالوا لهم ما حاصله :

لامحل لاصلاح ولايات ارمينيا وحدها دون باقي الولايات العثمانية ، فالواجب طلب الاصلاح للمملكة العثمانية كلها . نعم ان الارمن يتألمون من الادارة الحاضرة ولكن الظلم والاستبداد ليسا موجهين اليهم خاصة ، بل هما شاملان للارمن

(١) في سنة ١٨٨٧ تألفت جمعية هنجاق الارمنية ومعنى اسمها الجرس

والاتراك وعموم المسلمين والمسيحيين ، فانهم جميعهم يئنون تحت اثقال التكاليف وارتكاب الموظفين ومعاملاتهم القسرية والاستبدادية ، ويتحملون انواع الظلم والاعتساف وهضم الحقوق . وحظ المسلمين من ذلك اكبر ، لقيامهم وحدهم بإعباء الخدمة العسكرية التي تقعدهم عن زرع الارض واكتساب الثروة والرفاه والنمو والازدياد في العدد ، وان اتفاق الارمن والاتراك على القيام بطلب الاصلاحات اللازمة وتأسيس حكومة مقيدة حرة يعد من الحمية والغيرة الوطنية ، ولكن قيام الارمن أو طائفة أخرى على انفراد بمساعدة الاجنبي وترغيبه لا تعده تركيا الفتاة إلا خيانة وجناية وضررا بمنافع الوطن المشتركة . على أن الارمن كانوا لدى تجنسهم بالجنسية العثمانية لا يزيدون عن بضعة عشر الفا وقد أصبحوا اليوم يعدون بالملايين وان القاطنين منهم في العاصمة والمدن الكبيرة على جانب عظيم من الغنى والثروة والرفاه ، وبيدهم الشؤون المالية والوظائف العالية والرتب السامية وهم على وفاق وائتلاف تام مع الاتراك حتى اذا أطلقت كلمة « ملت(١) صادقة » لاتنصرف إلا الى الارمن . فبناء على هذا الامتزاج التام بين الترك والارمن وما فيه من الفوائد والمنافع للفريقين طلب بعض احرار الترك من معتبري الارمن وعقلائهم إفهام الجمعيات السرية الارمنية التي في أوربا هذه المقاصد ، واستعمال نفوذهم لتعديل المطالب الارمنية ونبذ التهور في سياستهم

وفي سنة ١٨٩٤ اشتعلت نيران الحادثة الارمنية وحصلت مذابح ساسون وخربت ثلاثون قرية من قراهم . كل هذا وجواد باشا الصدر الاعظم لاه عن اتخاذ الوسائل لحسم هذه المسائل ، والقيام بالاصلاحات في جميع ارجاء المملكة ، ولقد كانت سياسته محصورة بالتدابير المؤقتة لايقاف الاعتداء وسلوك سبيل المماطلة والإرجاء ، واوربا — ولا سيما انكلترا — واقفة للدلة بالمرصاد ، تخلق لها المسائل والمشاكل واحدة بعد أخرى . فمن الحادثة الارمنية

(١) المنار : يراد بكلمة « ملت » عند الترك الامة ، والملية هي القومية فكل مايرد في هذه الرسالة من هذه الكلمات ينصرف الى ما ذكر ، على انا وضعنا عند معظم الكلمات التركية التعبير كلمة عربية بين قوسين تفسيرا لها

الى المشكلة الكريدية الى المسألة المقدونية وهلم جرا . . . ورجال المابين اكثرهم جهلاء أغبياء ، لا خبرة لهم بالسياسة ، ولا معرفة لهم بالشؤون الحاضرة . وقليل منهم شياطين ابالسة لا يتأبون الا على جمع الاموال وادخارها . ولو ادى ذلك الى خراب الوطن وسقوط المملكة . فكانوا يخوفون السلطان من حزب تركيا الفتاة ومن القيام بالاصلاحات . ويشيرون باتخاذ التدابير السيئة حتى حدث ما حدث من المذابح والفظائع التي نسبت الى الاسلام ، والاسلام يبرأ الى الله منها :

والدين انصافك الاقوام كلهم — وأي دين لآبي الحق ان وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة — للخير وهو يقود العسكر اللجبا

تأسيس جمعية الاتحاد والترقي

كان من نتيجة هذا الخلل في الادارة والاستبداد والعسف بالامة أن تأسست في الاستانة جمعية الاتحاد والترقي لاخماد نار الفتن المشتعلة في البلاد ، وطلب الحرية والعدل لجميع العثمانيين وتأييد روابط الحب والامان بين الامة — المؤلفة من السنة وأديان مختلفة — وبين الدولة . وقد بعثت الجمعية في تلك السنة (١٨٩٤) فريقا من الشبان الاحرار — أكثرهم من طلاب المدرسة الطبية — الى باريس ليؤسسوا فرعا للجمعية فيها ويقوموا بنشر الجرائد والرسائل . وكان في باريس اذ ذاك عدد ليس بالقليل من الشبان العثمانيين ، بعضهم يدرس على نفقة الحكومة العثمانية او نفقته الخاصة ، وبعضهم يدرس ويشتغل بالمسائل السياسية وأشهرهم احمد رضا بك صاحب اللائحة المشهورة .

احمد رضا بك ومبادىء جمعية الاتحاد والترقي

ولد أحمد رضا بك في الاستانة منذ خمسين سنة تقريبا ووالده انكلز علي بك وأمه نمسوية ، وسمي انكلز لتعلمه الانكليزية ووقوفه على المدنية الاوربية كما مر بيانه ، والا فهو من الاتراك المسلمين وكان من معتبري الموظفين الذين نشأوا في عهد مصطفى رشيد باشا وعالي باشا . فتخرج أحمد رضا بك في مدارس الاستانة

وعين مديرا للمدرسة الاعدادية في مدينة بروسه فأحس من نفسه بلزوم السفر الى أوربا للاطلاع على علومها ومدنيتها فذهب الى باريس سنة ١٨٩٠ واختلف الى مدرسة الزراعة لشدة احتياج المملكة الى العلوم الزراعية، وتعرف الى علي شفقي بك الذي كان يصدر جريدة « استقبال » في ايطاليا ثم في فرانسا، وهو من رجال السلطان مراد . وكان رضا بك كثير التردد على المكتبة الاهلية في باريس فطالع فيها على أهم الكتب والفنون، واشتغل بالمسائل السياسية، وحرر لائحة مفصلة مشتملة على رسائل في إصلاح الادارة والمالية والزراعة والتجارة وغير ذلك بعد ان درس لائحة مصطفى فاضل باشا ووصية فؤاد باشا وما حرره ملكوم خان وشارل ميزمر وغيرهما من أكابر الرجال المشتغلين بالسياسة الشرقية والواقفين على أسباب الانحطاط وعلله الفلسفية .

سلك احمد رضا بك في الفلسفة الحقيقية مسلك أوكوست كونت وخليفته بيير لافيت، وصار إماما في هذه الطريقة المؤسسة على « النظام والترقي » وهذه الكلمة هي شعارهم وعليها بناء أعمالهم، ومن مبادئهم التفاني في حب الوطن وخدمة الجماعة، أي وقف حياة الفرد على خدمة المجموع، وهم ينفرون من الانغماس في الشهوات وتبذير الاغنياء لان المبذرين إخوان الشياطين، ويشددون النكير على الذين يبتزون الاموال الاميرية ويأكلون أموال الناس بالباطل ويعبثون بالحقوق العمومية، فالمرتكب الملوث بالرشوة يعدونه ساقطا مهما بلغ علمه وقدره . فأحمد رضا بك متصف بكل هذه الخلال الجليلة، وقد ضحى نفسه وشبابه في سبيل المحافظة على مبدأه، ورفض قبول الالوف من الدنانير وهزىء بالمناصب العالية التي كانت تعرض عليه، مع شدة حاجته واضطراره، وتحمل الاذى والمكاره، وجاهد في سبيل استرداد الحرية حق الجهاد قائلا : لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تحولت عما قصدت اليه . فكان بالحقيقة من اولي العزم الصادق ونشر تعاليمه وأفكاره وله رسالة مطبوعة بالفرنساوية عنوانها « التساهل الديني » رد فيها على الذين يتهمون المسلمين بالتعصب، واستدل بكثير من الآيات القرآنية

والاحاديث النبوية مما دل على غزارة علمه . واما اللائحة التي مر ذكرها فهي رسالة باللغة التركية مشتملة على تحقيق وعلم وسياسة في اصلاح إدارة الدولة ولما تنشر . وكانت جريدته « مشورت » تصدر بالتركية والفرنساوية في كل أسبوع أو أسبوعين مرة ، ثم اقتصر على القسم الفرنساوي وهي صغيرة الحجم مضى على إنشائها أربع عشرة سنة ، ويتألف منها مجلدان أو أكثر ، وربما كان له غير ذلك من المؤلفات . فانه كثير الدرس والتحقيق ، يقضي الساعات الطويلة في المكتبة الاهلية ، وفي مكتبته الخاصة مؤلفات كثيرة في التاريخ والسياسة العثمانية والمسألة الشرقية

ولما وصل وفد جمعية الاتحاد والترقي الى باريس سنة ١٨٩٤ كان رضا بك ساكنا في شارع مونج في بيت صغير (Appartement) في الطبقة السادسة فقصد اليه الوفد وذاكروه في انضمامه اليهم ، فتردد في بادئ الامر وقال اذا عزمت على شيء فانني لا أرجع عنه مطلقا . وكان أقدر الموجودين وأعرفهم بطرق الاصلاح ومواضع الخلل . لأن إصلاح مملكة عظيمة مشتملة على أمم مختلفة في الجنس والدين واللسان ، ووارثة للخلافة الاسلامية والدولة البيزنطية — ليس بالامر السهل ، ولا يشبه اصلاح مدرسة أو ادارة تلاميذ وانما يحتاج الى علوم ومعارف شتى ونظر واختبار ونفاذ بصيرة ، وليس ذلك في مقدور من درس سنتين أو أكثر في مدرسة طبية لا تدرس فيها العلوم السياسية والحقوقية ولا العلوم الشرقية التي هي موضوع بحث العلماء المستشرقين . فقبل أحمد رضا بك الانضمام الى الجمعية وصار رئيسا لفرع باريس ، ونشر جريدة « مشورت » بالتركية والفرنساوية ناطقة بمقاصد الجمعية

مماكسة المابين للاحرار في اوربا

أمَّ باريس من ذلك الحين كثيرون من شبان العثمانيين وكهولهم حتى الشيوخ ذوي العمائم والفراء ، ونشروا الجرائد والرسائل والوريقات ، وادبوا مآدب وعقدوا اجتماعات سياسية . فانصرفت همم رجال المابين والسفارات العثمانية الى إبطال هذه النشرات واسترضاء اصحابها بالمال والرتب والنياشين والمناصب ، حتى قيل لبعضهم «اطلب تُعط» كما ينقل عن الخلفاء في حكايات الف ليلة وليلة . وكان العطاء حاتميا

بل أكثر، كان سلطانيا شاهانيا !! وصار طلاب الوظائف أو المعزولون يقصدون باريس فيكون ذلك سببا لعودتهم الى وظائفهم . ودخل في حزب تركيا الفتاة الصبيان الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة، والتونسيون حتى الاجانب من الطليان واليونان، وأصبحت سفارة باريس مرجعا للجميع كأنها أعظم دائرة من دوائر الباب العالي!! . واقدم الجرائد التي ابطلت جريدة المرصد العربية التي تعين صاحبها عضوا في شورى الدولة، فحسده عزت باشا العابد حتى صرف قوة عقله، وذكائه في سبيل الوصول الى ما وصل اليه . وظهرت عدة جرائد ورسائل ومحررين بالتركية والعربية والكردية والفرنساوية والالبانية وغيرها، منهم أصحاب صدق وقناعة، ومنهم ذوو طمع وشعوذة . ورجال الدولة يتقربون باسترضائهم واحضارهم كما كانوا في الازمان الماضية يتقربون بجلب أهل الظنة من الشيوخ وأصحاب الكرامات كالمرحومين الشيخ ابي السعود من القدس الذي استقدموه للسلطان محمود خان، والشيخ السن من صيداء والشيخ العمري من طرابلس الشام، وكذا المشايخ الذين كانوا في المابين وخاتمهم استاذنا الشيخ حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية . فلو اطلعت على تراجم هؤلاء الشيوخ ومقدار معارفهم وكيفية طلبهم والاسترشاد بهم لعرفت ارتقاء الفكر التدريجي الذي حدث من عهد السلطان محمود، ولرأيت للانقلاب الحاضر معنى في الرسالة الحميدية التي دلت على كثير من العلوم الطبيعية والعصرية

لم يقصد من نشرات تركيا الفتاة في أوربا الا ايصال الشكاية من سوء الادارة الى مسامع الحضرة السلطانية، وافهام الدول الاوربية الموقعة على معاهدة برلين بأن لحزبهم السياسي كيانا ووجودا وان غايتهم اعادة القانون الاساسي، فكادت أوربا تعتقد بوجودهم كما ظهر من انتصار الجرائد الباريسية لصاحب جريدة «مشورت» يوم محاكمته في باريس والحكم عليه بفرنك واحد مع تطبيق قانون بيرانجه القاضي بالسماح عنه . وبينما كان المابين يقدم رجلا ويؤخر أخرى في اجابة حزب تركيا الفتاة الى مطالبهم الاصلاحية واعادة القانون الاساسي واذا بالمسألة الكريدية ولدت الحرب بين الدولة العلية واليونان (نيسان – مارس ١٨٩٧) وتم النصر فيها للعساكر العثمانية فأخذته العزة ودام على سياسته الاستبدادية، وقعدت همة الاكثرين

من حزب تركيا الفتاة فخضعوا لاحكام الاستبداد جبرا وقهرا، وان كانوا غير راضين عنها ، وذاقوا عذابا شديدا بسبب غلاء أوربا وكثرة الانفاق فيها مع قلة ذات يدهم وفراغهم من نحو صناعة أو تجارة بأيديهم كما هي حال الارمن والبلغار ، الا ما كان من علمهم باللغة " التركية " أو العربية " ومعاونة " الاطباء في المستشفيات بأجرة قليلة والسهر في الليل على المرضى . والاغنياء من أهل البلاد وكبار الموظفين لم يساعدوهم بشيء ، الا بعض الامراء المصريين الذين نهجوا نهج مصطفى فاضل باشا مؤسس حزب تركيا الفتاة " فانهم أمدوا بعضهم بالاموال وكانوا عونا لهم . اما الجمعيات " الارمنية " والمقدونية " الانقلابية " فان أصحابهم وأغنياء أمتهم أعانوهم بالمال وأيدوهم بكل ما في طوقهم ، وقد علمت مما تقدم ان ميزانية " الجمعية " الارمنية بلغت مليون فرنك فأين هذا من جمعية الاتحاد والترقي ؟ ألا ان سبب خذلان العثمانيين لجمعياتهم هو موت النعرة الوطنية في نفوسهم وفقد الحماسة القومية وكونهم لم يفقهوا معنى الاجتماع والتعاون .

غرور المابين واستفحال الاستبداد

اظهرت الحرب اليونانية العثمانية قوة الامة العثمانية وحميتها وسلامتها من عوارض المرض أو الهرم كما يصفها أعداؤها ، وظهر فيها من شجاعة الضباط العثمانيين ومعارفهم ومحافظتهم على قواعد النظام الحربي ومقدرتهم على ضبط أفراد العساكر وكفهم عن النهب والعبث بالآداب وغير ذلك من الافعال المهجية ما يخلد لهم هذه المآثر في بطون التواريخ ، وابرز الجيش العثماني من الشجاعة " العظيمة " والصبر والقناعة المعجب والمعجز ، وامتاز بالسلامة من الابتلاء بالمسكرات كما هي عليه عساكر الروس وغيرهم من عساكر أوربا

زاد غرور المابين واستبداده بعد خروج الدولة من ميدان الحرب فائزة منصورة " وانتقل مركز ادارة الحكومة من الباب العالي الى سراي يلديز وأصبح مجلس الوكلاء لا عمل له " والنظار لا وظيفة لهم الا تنفيذ ما يقرر في السراي . على ان الالتفات والاقبال والتقريب والنفوذ كان ينتقل من الباشكاتب الى الكاتب

الثاني الى كاتب الشفرة (١) الى (الشيخ) الى (العابد) الى (الملاحمة) الى غني آغا الى لطفي آغا الى فهيم باشا الجبار العاتي — أولئك الذين ألقوا الرعب في قلوب المسلمين والمسيحيين وغيرهم مما دل على استبداد متقلب مذبذب حيران ، حتى لم يعد لاحد ثقة بالحكومة ، وكاد الانقلاب يحدث في نفس السراي . وأكثر رجال السراي أميون ويندر في كتاب المابين من يعرف اللغة الفرنساوية بله غيرها من لغات أوربا ، وهم في جهل مطبق بالسياسة . ولذلك كثر الخطأ السياسي وسوء الادارة واختلاس الاموال الاميرية وظلم الرعية بما لم يسبق له مثيل .

(لها بقية)

البلاد العربية والسكة الحجازية *)

بلاد العرب أوشبه جزيرة العرب مساحتها مليون ومئة ألف ميل مربع ، وعدد سكانها على أقل تقدير سبعة ملايين وعلى أكثره عشرة ملايين ، وهي من أخصب البلاد أرضا وأجودها تربة وأعظمها خيرا اذا اعتني بها وتوفرت وسائل الامن والراحة والعمران فيها . واليمن أجود بلاد العرب بقاعا وأكثرها سكانا واعظمها ثروة وخصبا ، ولهذا كانت تسمى قديما (العربية السعيدة) الا انها محاطة بصحارى رملية منخفضة شديدة الحرقلية المياه ، يظن السامع بها ان اليمن كلها على هذا النمط : صحارى ورمال مع ان هذه الصحارى لا تمتد الى الداخل من السواحل الشرقية والغربية أكثر من خمسين إلى ستين ميلا يجتازها المسافر في ثلاثة أو أربعة أيام حيث يرى سلسلة جبال الثراة وبلاد شحر وحضرموت وجبل صعدة وصنعاء

---

(١) المنار : الشفرة في اللغة التركية هي المخاطبة بالارقام بطريقة لايعرفها الا المتخاطبان وهي مأخوذة من كلمة (جفر) العربية

*) بقلم رفيق بك العظم المؤرخ المشهور

حيث الوديان الفسيحة المخصبة والسهول المكسوة بالخضرة والجبال ذات الينابيع الغزيرة والأشجار الباسقة

وسكان اليمن أهل نشاط وعمل متوفرون على الزرع والتجارة بقدر ما يتسع لهم المجال وتساعدهم الحال ومع هذا فان بلادهم مفتقرة الى إصلاح كثير وعناية من الحكومة كبيرة، لفقد الوسائل الحديثة في تعميم الري واستنبات أنواع الزرع وفقد الراحة والامن في أيام الحكومة الماضية التي كانت كلها أيام خصام ونزاع بين الحاكم والمحكوم اه كادت تفضي الى خراب البلاد

ولو صرفت الحكومة الآن وجهتها الى اصلاح اليمن مع توفر أسباب العمران الطبيعية ثمة لكان لها منها مورد رزق عظيم يقدره بعضهم ببضعة عشر مليونا من الليرات ، وأهم أصول الاصلاح التي يحتاجها رقي البلاد وعمرانها وإثراء الخزينة والاهلين هي :

(أولا) إن مياه الامطار الغزيرة التي تنهمر في اليمن تكوّن مجاري وسيولا لا تصل الى البحر بل تغور في الرمال ، وأكثرها يتجمع في مخازن في باطن الارض على عمق أربعة أو ثلاثة أمتار ، فاذا تتبعت مظانّ هذه المخازن وحفرت فيها الآبار ثم استكثر من عمل الحياض والخزانات الكبيرة في الجبال وسفوحها جعلت السقيا تامة في أكثر اطراف اليمن وتحولت تلك الصحارى القاحلة الى جنات ناضرة حافلة بالزرع والضرع ، ويساعدها على ذلك ما منحتها إياه الطبيعة من قوة الانبات والخصب ، وهي تصلح لكل أنواع النبات الذي ينبت في البلاد الحارة كالبن والقطن والنيلة وأنواع البهارات وغيرها ، ويمكن ان تزدرع في السنة ثلاث مرات ويحصد منها ثلاث غلات ، والبلاد الجبلية صالحة لاستنبات جميع أنواع النبات الذي ينبت في البلاد المعتدلة ، ناهيك بقطر عظيم كاليمن اذا بلغ نظام الري [illegible] فيه مابلغه في الهند ومصر فانه يكون بلا ريب من اغنى البلاد العثمانية [illegible] للحكومة والاهلين اذا أضيف الى ذلك تمية [illegible]

(٢) [illegible] تقسيم ولاية اليمن الى ثلاث ولايات احداها صنعاء والثانية عسير

والثالثة تعز ، لكي يتسنى بهذا التقسيم ادارة شؤون اليمن ادارة منتظمة تشرف بها الحكومة على أمور الرعية والبلاد اشرافا حقيقيا يضم اليه اطراف البلاد المتنائية و ينشر راية العدل والراحة والامن على كل البلاد ، وهذا العمل مهما استلزم من النفقات التي ستقوم بها خزانة الدولة فانه يعوض على الحكومة تلك النفقات اضعافا مضاعفة في بضع سنين . ولقد أجمع على لزوم تقسيم اليمن الى أربع أو ثلاث ولايات كل العارفين بأحوال اليمن والذين اختبروا حالها من اخواننا الاتراك ، فلا مندوحة للحكومة عن هذا التقسيم اذا عزمت عزما أكيداً على اصلاح البلاد اليمانية وهي عازمة على ذلك ان شاء الله

(ثالثا) إصلاح مرفأ الحديدة وجعله مرسى امينا للسفن ، ومد خط حديدي من الحديدة الى صنعاء ، ثم تعميم السكة الحديدية في البلاد بالتدريج بقدر مايمكن مالية الحكومة لان سهولة المواصلات ضروري لبلاد متباعدة الارجاء يراد اصلاحها وتكثير موارد الثروة الزراعية والتجارية فيها ، ولا سيما وان بلاد اليمن فيها كثير من المعادن والكنوز الارضية التي لايتيسر استخراجها والعمل فيها الا بسهولة المواصلات ، ولقد عُرفت اليمن قديما بغناها بمعدن الذهب و يظن بعضهم ان هذا المعدن النفيس فقد منها مع انه لم يزل موجودا بكثرة فيها ، ولقد رأيت بعيني رأسي قطعا منه ممتزجة اجزاء ذهبها برمل متحجر كان استحضرها صديق لي من بعض اطراف اليمن لاجل تحليلها وتقدير النسبة بين الرمل والذهب فيها ليسعى بعد ذلك بتأليف شركة لاستخراجه فعاجلته المنون واصبح مطويا في التراب

ومما لاريب فيه ان السكة الحديدية الحجازية اذا امكن ايصالها الى القطر اليماني كانت من خير المشروعات النافعة لبلاد العرب عامة وللدولة خاصة ، فانها متى بلغت مكة ومد منها ناشط الى جُدة سهل مدها الى الحديدة عن طريق القنفذة او طريق آخر أقرب منها وهناك تتصل بخط الحديدة الذي يتصل بصنعاء ، وبذلك تكون الدولة قد وصلت بين أقصى بلادها في الجنوب واقصاها في الشمال والغرب [illegible] تصل بين خط الاستانة والحجاز بخط برجيك المنوي مده من حلب . وفي هذا العمل الجليل من الفوائد الاقتصادية والسياسية مالا ينكر قدره ومنفعته ولا سيما بعد

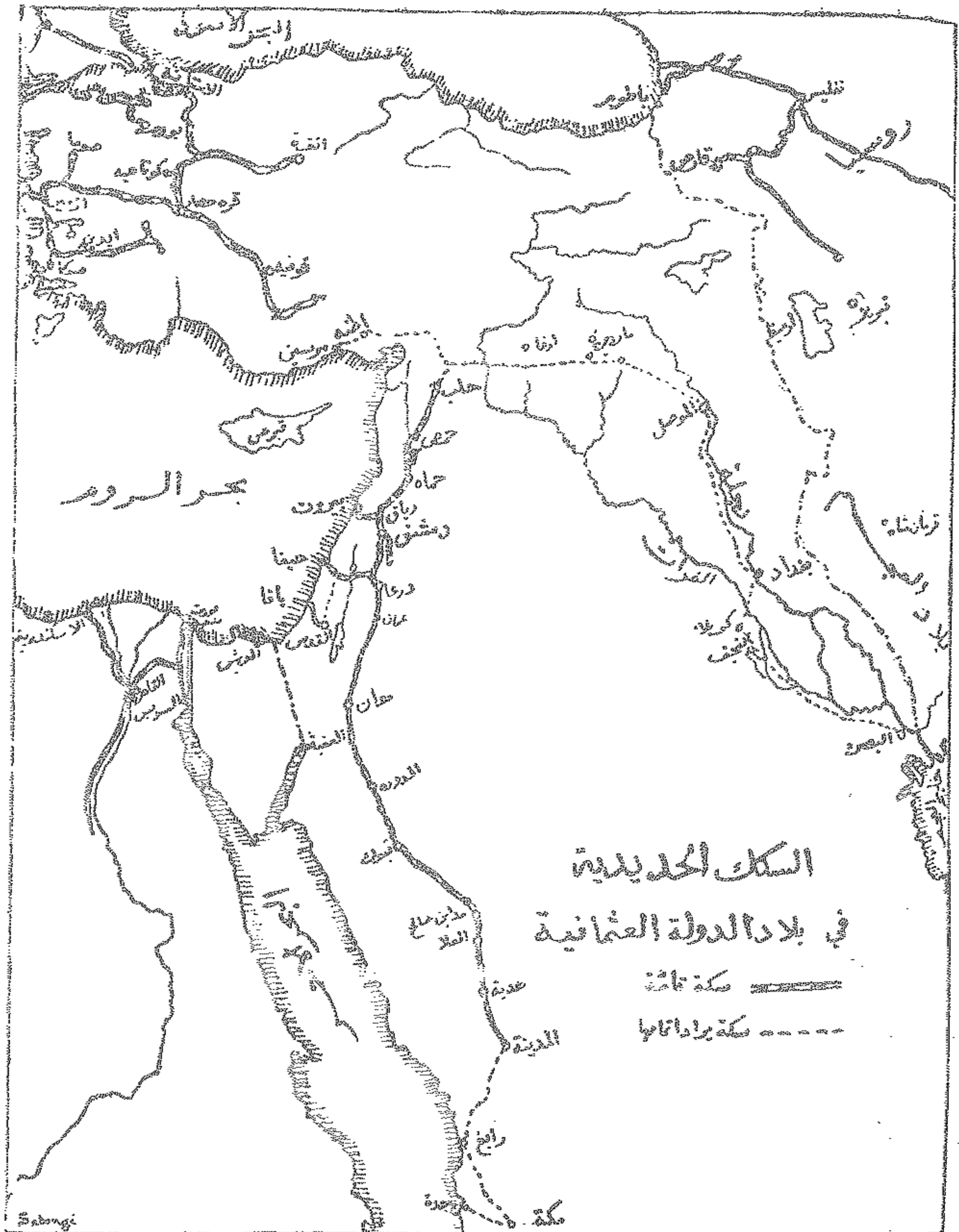
ان صار البحر الاحمر مزدحما لعدة دول اجنبية وكان من قبل بحيرة عثمانية

ويجدر بنا أن نطلب من رجال حكومتنا النظر فيما تقدم من الامور ، وفي اصلاح شؤون بلاد العرب والتوفر على عمرانها . وقد يرون ان الدول الاجنبية تبذل مزيد الجهد في عمران مستعمراتها في أفريقيا على قلة سكانها وقلة الايدي التي تعمل فيها وضعف الامل في أن تكون تلك المستعمرات بكثرة سكانها وعمرانها والانتفاع من ثمراتها كمستعمراتها في آسيا وأمريكا وجزائر المحيط ، فما أحرى الدولة العثمانية بأن تنافس الدول بقطر عظيم فسيح كثير السكان متوفرة فيه مصادر الثروة ووسائل العمران اذا أعطي كل العناية والالتفات ونال حظا من الاصلاح عظيما ، ولاسيما في عصر الحكومة الدستورية التي نرجو أن تكون حكومة خير وسعادة على المملكة العثمانية جمعاء ان شاء الله

أما السكة الحديدية الحجازية التي نتمنى أن تكون خير واسطة لعمران شبه جزيرة العرب في مستقبل الايام اذا اتصلت باليمن فقد انتهى منها الآن قسم عظيم وبلغت المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام . وقد افتتح هذا الخط باحتفال عظيم في شهر اغسطس الماضي ، والادوات التي تلزم لاتمام الخط الى مكة البالغ ثمنها نحو ثلاث مئة وخمسون الف ليرة كلها معدة على ما نعلم ، وطول الخط من دمشق الشام الى المدينة الف كيلومتر وثلاث مئة وكيلومتران يضاف اليه الخط من حيفا الى درعا وطوله مئة وواحد وستون كيلومترا ، فيكون مجموع ما تم من الخط الى الآن الف كيلومتر وأربع مئة وثلاثة وستون كيلومترا بلغت نفقاته نحو ثلاثة ملايين ليرة عثمانيـة ، وكانت نفقة الكيلومتر الواحد ما عدا آلات السكة نحو الف ليرة وثلاث مئة ليرة

وطول الخط من دمشق الى مكة ١٧٥١ كيلومترا وطوله الى جدة ١٨٣٠ كيلومترا

والخط يمر من الشام الى معان في سهول منبسطة وأراضي خصبة مبثوثة فيهـا القرى الآهلة بالسكان ، الا ان حوران أكثر سكانا وعمرانا من معان وربما كانت أراضي معان أخصب من أراضي حوران



(مستعارة من مجلة المقتطف الغراء)

وأحسن البلاد التي يمر فيها الخط وأجودها هواء وأعلاها عن سطح البحر هي عمان فانها تعلو عن سطح البحر نحو ١٠٧٤ مترا وفيها من الآثار القديمة والخرائب العظيمة شيء كثير ومنها الملعب (Amphithéatre) الذي وجدوه في تلك الخرائب وخارطة سورية المرسومة على قطعة كبيرة من الحجر (بلاطة) وهي أعجب وأبدع ما روئي في اطلال عمان وخرائبها

وسكان معان وعمان أكثرهم من عرب البادية ويشتغل قليل منهم بالزراعة وفي معان بعض قرى لمهاجري القفقاس . ولو نشط العربان الذين في تلك الديار الى الاعمال في الارض ونشر الاصلاح جناحه على تلك الديار لكانت من أغنى البلاد السورية وأكثرها غلة وأجملها بقاعا . ولقد همّ كثير من الناس بابتياع الاراضي التي على جانبي الخط من الحكومة في معان وعمان لاحياء مواتها واستغلالها فأبت عليهم ذلك لصدور إرادة سلطانية تقضي بالمنع ، على أمل ان تضم تلك الاراضي الفسيحة الى الجفالك (المزارع) السلطانية أو يستأثر بها أفراد من المقربين ولم يكن شيء من ذلك الى الآن . فنرجو ان توفق الحكومة الحاضرة لاطلاق يد الناس في استعمار تلك البلاد بحيث لا تباع أرض إلا على شرط إصلاحها واستثمارها في برهة سنتين أو ثلاث سنين واذا مضت المدة ولم تصلح الارض وتستثمر ساغ للحكومة استردادها . وفي يقيننا ان كثيرا من أغنياء البلاد السورية يتقدمون الى إصلاح تلك الاراضي وإحيائها متى انتظمت أمور السكة الحديدية وانصرفت همة الحكومة الى عمران تلك الجهات ورفع راية الراحة والعدل والأمان على ربوعها

ومحطة عمان الآن هي من المحطات العظيمة في هذه الطريق وفيها معمل (ورشة) لاصلاح القواطر ومخازن للسكة الحديدية ، ويليها في العظم محطة تبوك والاراضي التي بعد عمان ومعان الى المدينة ليست خصبة بل هي صحارى وقفار الا العلا فانها قرية عامرة ذات ينابيع وأشجار وحدائق تزرع فيها أنواع البقول والفاكهة والنخيل وتجود في أرضها فواكه البلاد الحارة كالنخيل والموز والليمون ، وأهلها بارعون في فن الزراعة لان أكثرهم يذهبون الى دمشق ويزاولون فن

الزراعة عملا في غوطتها ولا سيما في قرية جوبر المشهور أهلها بالبراعة في فن الزراعة ثم يعودون الى بلدهم لاجل الاعمال في الارض . ولقد كان بعد المسافة بينهم وبين الشام يمنعهم من التوسع في إنشاء الحدائق والاكثار من زرع أنواع الفواكه والبقول والاشجار بها واما الآن فالأمر ليس كذلك ، ولو اعتنى أهل هذه القرية بزرع النخيل والموز واستكثروا من الجيد منها لانتفعوا بذلك كثيرا لان دمشق محرومة من هذين الصنفين من الفاكهة لان جوّها لا يناسبهما في الشتاء لشدة البرد والصقيع

هذا ومن الضروري ان يمدّ ناشط من هذه السكة الحديدية من معان الى العقبة وطول هذا الخط نحو ٩٠ كيلو مترا أو من المدور وهو أقصر مسافة من ذلك لان هذا الفرع يفيد الدولة من الوجهة العسكرية جدا ريثما يصل الخط الى اليمن

وكل من رأى خط السكة الحجارية لا يسعه الا شكر القائمين بالعمل فيه كسبير باشا ومختار بك وباقي المهندسين والعمال ولا سيما المشير كاظم باشا رئيس إنشاء الخط الذي بذل من الهمة في انجازه والعناية في شأنه مالا يستكثر على رجل عظيم مثله وأنا لنرجو بعد توليه منصب الولاية في الحجاز ان يساعد على اتمام هذا الخط ووصوله إلى مكة ثم اليمن بما في إمكانه ليكون شكر الامة له مضاعفا جزاه الله وكل العاملين لانجاز هذا الخط خير الجزاء



باب المراسلة والمناظرة

« كلمات في النسخ والتواتر واخبار الاحاديث والسنة »

رد على الأستاذ الفاضل الشيخ صالح اليافعي (*)

(الكلمة السادسة) — في التواتر

أهم ما نطعن به في وجوب التواتر فيما يعمل به في الدين مسألة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم الآحاد للتعليم والحكم بين المسلمين والملوك . فاعلم أن خبر الواحد — كما قلنا — لا يوجب اليقين ولا يجب العمل به إلا إذا أيدته قرائن أخرى قطعية فهؤلاء الآحاد الذين كان يبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهات للتعليم ما كان يجب على الناس فيها ان يوقنوا بما يخبرونهم به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يجوز عليهم الخطأ والنسيان كما أنه يجوز عليهم الكذب أو الارتداد . وإنما هؤلاء الناس الذين كانوا في تلك الجهات تحققوا أن رسول الله أرسل إليهم هؤلاء الرسل وأوجب عليهم إطاعتهم والاستماع لهم وقبل أن يحققوا ذلك لا يجب عليهم طاعتهم ولا الاخذ عنهم فهم في طاعتهم لهم وأخذهم عنهم بعد تيقنهم من أنهم مرسلون إليهم من قبل النبي صلى الله عليه وسلم إنما هم مطيعون لله ولرسوله ولأولي الامر ، فاذا قالوا لهم ان الرسول قال كذا فاعملوا به وجب عليهم أخذ هذا القول عنهم كما أمرهم الرسول ووجب عليهم العمل به لا لانهم أيقنوا أن الرسول حقيقة قاله ولكن لانهم أمروا بطاعة أولياء أمورهم فلا يجوز مخالفتهم أو رفض كلامهم إلا اذا علموا بكذبهم وحينئذ يرفعون الامر إلى رسول الله فيحكم بعزلهم عن تولي أمورهم وتسقط عنهم طاعتهم فيما يروونه عن رسول الله . وعليه فهؤلاء القوم ما كانوا عاملين بالظن وإنما هم مطيعون لامر يسمعونه من أولياء أمورهم

(*) تابع لما نشر في (ص٨٦٦ ج٩ م١١) من مقالة الدكتور محمد توفيق افندي صدقي

بآذانهم فيأخذون به ويعملون به كما أمروا وسواء في ذلك أيقنوا أن الرسول قاله أو لم يقله فالعهدة فيه على رواته

فان قيل إن لم يكن هؤلاء عاملين بالظن فالرسول نفسه عامل بالظن وإلا فكيف يوثق بأن هؤلاء القوم لا يبلغون عنه إلا ما يريدون؟ — قلت ان الرسول ان لم يعلم ذلك بطريق الوحي كما كان يخبره الوحي بحالات كثيرة مثل هذه عن اصحابه البعيدين عنه كما هو مشهور في سيرته فقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم من هؤلاء المبعوثين الصدق والايمان وقوة العقل والعلم بالدين وقد اختبرهم بنفسه زمنا طويلا حتى علم اخلاقهم وأميالهم وأحوالهم وسبر غورهم فهو يكاد يجزم بصدقهم واخلاصهم كما يجزم أحدنا — وان كان نظره أضعف من نظر الرسول — بصدق صاحبه واخلاصه بعد معاشرته له زمنا طويلا في أحوال مختلفة . وان بقي في النفس أدنى شك في ذلك أو تجويز الخطأ أو النسيان عليهم فهؤلاء المبعوثون ما كانوا يذهبون الى جهات منقطعة عن المسلمين بل كان بينهم وبين المسلمين صلة وثيقة وعلاقة كبيرة فكان يأتي منهم الكثيرون الى المسلمين مرات عديدة في السنة للزيارة والتعارف والحج والتجارة وغير ذلك ويذهب اليهم المسلمون لمثل هذه الاغراض فاذا حاد المبعوثون عن شيء مما تلقوه عن رسول الله أو أخطأوا فيه وصل ذلك الى علم رسول الله في أقرب وقت فيصحح هذا الخطأ أو يعزلهم او يعاقبهم . فالوحي وبقته الاكيدة بمن أرسله بعد التحقق منه زمنا طويلا وباخبار الذاهبين اليهم والآتين من عندهم يكون الرسول واقفا على ما يبلغ عنه في تلك الجهات ومهيمنا عليه فان حصل خطأ أو كذب في شيء منه فالعاملون به مطيعون لاولياء أمورهم وليسوا عاملين بالظن ولا يلبث هذا الخطأ أو الكذب الا قليلا فيمنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقرب وقت . وهذه الحالة ضرورية في مبدأ الدعوة حتى يعم الدين تلك الجهات ويكون فيها وفي غيرها مشهورا مستفيضا متواترا فلا يتطرق لشيء منه بعد ذلك ريب أو شك وهي تشبه حالة التلاميذ مع معلمي المدارس وتلقيهم العلم عنهم وعملهم به فان الامة رقيبة عليهم فان أخطأوا في شيء أو دسوا عليهم أمرا فسرعان ما يصل الى علم الامة وأولياء أمورها فيتلافونه في أقرب وقت

أما أحاديث الآحاد عنه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فهي تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا لان رواتها ليسوا أولياء أمر المؤمنين حتى تجب طاعتهم من هذه الوجهة ولم يثق بهم الرسول ولم يعرفهم ولم يعينهم لهذا الامر ولم يقم رقيبا عليهم لا بالوحي ولا بأخبار الناس عنهم فالفرق بين الحالتين عظيم

أما رسله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك فالغرض من ذلك إلفات نظرهم إليه وتنبيههم للبحث في دعوته وتشويقهم للنظر في أمره وحالته وإلا فلا يمكن الايمان لاجلها إلا بعد التثبت منها والتحقق من أمر الدعوة والداعي فهي كالتمهيد للدعوة الحقيقية بوصول الدين اليهم متواترا على أيدي الناس كما حصل بعد وفاته

والخلاصة أن القرآن الشريف يذم العمل بالظن كثيرا فلا يمكن ان الله سبحانه وتعالى يلزم عباده المؤمنين بالعمل بما لا يوجب عندهم اليقين وإلا كان أمرا لهم بما يذم به غيرهم ويلومهم على اتباعه

وحيث أن أحاديث الآحاد من حيث هي لا تفيد اليقين كما بيناه في الكلمة الرابعة فلذا اشترطنا التواتر فيما يجب علينا الاخذ به في الدين فدليلنا على ذلك مبني على حكم العقل وما جاء به الكتاب العزيز

(الكلمة السابعة) — معنى السنة وبيان وجوب العمل بها

السنة في اللغة وفي اصطلاح السلف هي الخطة والطريقة المتبعة فسنته صلى الله عليه وسلم هي طريقته التي جرى عليها في أعماله واقتدى به أصحابه فيها وهي واجبة الاتباع حتما على كل من آمن به وصدقه صلى الله عليه وسلم وهذا هو المراد بما جاء في الحث عن اتباع السنة في أقوال الصحابة والسلف رضوان الله عليهم جميعا كما لا يخفى على متأمل في أقوالهم ومن ذلك حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» أي عليكم بطريقتي وطريقة خلفائي الراشدين من بعدي فلا نزاع في أن اتباع طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الدين هي واجبة على جميع أتباعه المؤمنين أما أقواله صلى الله عليه وسلم التي لم تكن طريقة متبعة له ولا لاصحابه فهي موضوع بحثنا وهي المقصودة في مقالاتنا الاخيرة تلك التي رواها الآحاد وانفردوا بها ولو كانت واجبة الاتباع لعلمها الناس جميعا في عصره عليه السلام وجروا عليها في أعمالهم

وهذا هو أدل دليل على أنها لم تكن دينا عاما لجميع البشر بل هي خاصة لمن وجهت اليهم لاحوال خاصة وظروف مخصوصة أو انها كانت للارشاد والندب لا للوجوب ولذلك لم يكن اتباعها عاما بينهم . فهناك فرق عظيم بين لفظ (السنة) ولفظ (الاحاديث) ويجب على كل باحث في هذا الموضوع أن يدرك هذا الفرق جيدا حتى لا يقع في الخلط والخبط . وقد أدرك الامام مالك هذا الفرق فكان — رضي الله عنه — يقدم عمل اهل المدينة على الاحاديث ويرد منها ما خالف سنتهم التي ورثوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو صحت أسانيدها وقد رد من ذلك مئات كثيرة

أما تسمية الاحاديث مطلقا بالسنة فهي من اصطلاح المتأخرين ولولا هذا الاصطلاح لما احتجنا في مقالاتنا الى تقييد لفظ السنة بقولنا (العملية) فان السنة لا تكون الا عملية وأما القول الذي يقال ولا يكون مبدأ يجري عليه العمل دائما فلا يسمى سنة عند المتقدمين

فاتباع سنة أي شخص هي الجري على منهجه والتزام طريقته ومبادئه وأصوله وليس معنى ذلك أن يتقيد المتبع بكل جزئية من جزئيات كلام المتبوع ، مثلا قد أكون متبعا لسنة الاستاذ الامام رضي الله عنه في تفسير القرآن الحكيم ومع ذلك أرى في بعض الآيات خلاف ما يرى ولا يخرجني ذلك عن كوني متبعا سنته فان سنته هي في ترك التقليد واستعمال العقل وعدم القول بالنسخ وتحري الحق والصواب لا في التزام كل قول من أقواله التزاما أعمى فكذلك ترك بعض أقواله صلى الله عليه وسلم في الامور الدنيوية المحضة وما حكم فيه بالرأي والاجتهاد وما خالف المصلحة في زمننا لا يخرج المسلم عن كونه متبعا سنته صلى الله عليه وسلم فان سنته هي في اتباع الحق والصواب وتجنب الضار ومراعاة المصالح كما دل عليه الكتاب العزيز وترادفت فيه الاخبار المتعددة المصادر المختلفة المبنى المتحدة المغزى وكما جرى عليه عمل كبار المسلمين وعقلاؤهم في كل زمان ومكان . فسنته صلى الله عليه وسلم هي في اتباع مبادئه الشريفة والجري على خطته ومنهجه وإطاعته فيما أوحي به إليه أو ما وافق الصواب والمصلحة من آرائه واجتهاداته وليست سنته في الجمود والتقليد

والبعد عن العقل والتفكير كما عليه أكثر المسلمين اليوم ولذلك كان أصحابه يخالفونه في كثير من المسائل في حياته وكان عليه السلام يرجع عن رأيه لآرائهم ولذلك أمر بمشاورتهم وما قال أحد بأن من خالفه منهم خرج عن سنته فان سنته هي الشورى والتفكير ورعاية مصالح العباد وتحري العدل والانصاف وعدم الاستبداد بالرأي . وقد خالف أصحابه رضوان الله عليهم في حياته وبعد مماته بعض أقواله وبعض ما حكم به مراعاة للمصلحة ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئا من ذلك كثيرا وقد وفيت هذا البحث في رسالة لي طويلة وفقنا الله لطبعها عن قريب

وسنته صلى الله عليه وسلم في الامور تعلم من نصوص الكتاب العزيز ومما تواتر بين المسلمين عنه قولا وعملا ومن مجموع ما روي عنه من المصادر المختلفة في المسائل المتعددة . فسنته معلومة للمسلمين باليقين وواجب اتباعها على جميع المؤمنين . وهذا هو المراد بما جاء في الكتاب الكريم من الامر باتباعه والاقتداء به والجري على منهجه والاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم وهو أيضا المراد مما ورد عن أصحابه وعن سلف المسلمين من القول بوجوب اتباع السنة النبوية

وأما أخبار الآحاد التي لم يجر عليها العمل بلا انقطاع بين المسلمين فهي موضع النزاع في كل عصر وجيل كما يتضح لك من الكلمة الآتية :

(الكلمة الثامنة) — آراء أئمة المسلمين في أخبار الآحاد وما قالوه فيها وكيفية معاملة الصحابة لها

(١) قال الامام أحمد بن حنبل ما معناه : إن الأحاديث الواردة في تفسير عبارات القرآن الشريف لا أصل لها . كما نقله عنه الحافظ السيوطي في الاتقان

(٢) وقال الامام الشافعي « إن نسخ القرآن بالحديث لا يجوز »

(٣) وقالت الظاهرية : إن تخصيص عموم القرآن بها غير جائز وأن العمل بها غير واجب

(٤) وقال جمهور الاصوليين « إنها ظنية »

(٥) وقال جمهور المسلمين « إنه لا يجوز الاخذ بها في العقائد »

(٦) وقال كثير من الأئمة كالقاضي عياض « إنه لا يجب الأخذ بها في المسائل الدنيوية المحضة ولو كانت موثوقا بها »

(٧) وقال جميع المحدثين « إن الموضوع منها كثير وتمييزه عسير وفي بعض الأحوال مستحيل » راجع ما ذكرناه في الكلمة الرابعة

(٨) وقال أبو حنيفة وأضرابه من أهل الرأي والقياس « ان الصحيح منها قليل جدا » حتى أنه لم يأخذ إلا ببضعة عشر حديثا

(٩) وقال مالك رضي الله عنه « إن عمل أهل المدينة مقدم عليها » وكذلك أهل الرأي والقياس يقدمون القياس الجلي عليها

(١٠) أجمع جمهور المسلمين على عدم تكفير من أنكر أي حديث منها

(١١) إن تناقضها كثير ومعرفة ناسخها من منسوخها عسير أو مستحيل وكذلك أكثر أسباب قولها

(١٢) قام الدليل الحسي على ان الله لم يتكفل بحفظها من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان

(١٣) لم يجمعها الصحابة ولم يتفقوا عليها

(١٤) لم يبلغوها إلى الأمم بالتواتر مع علمهم بأن اتباع الظن غير جائز في الاسلام إلا لضرورة

(١٥) انهم نهوا عن كتابتها وأمروا بإحراق ما كتبوه منها كما في الروايات التي صحت عندكم

(١٦) قد نهى بعضهم عن التحديث وكرهه وكذلك علماء التابعين

(١٧) كان أفاضلهم أقل الناس حديثا ويصدفون عنه ولو كان واجبا كان هذا حالهم

(١٨) من كان من الصحابة كثير الحديث ماوا منعوه وزجروه كما فعل عمر بأبي هريرة وشكوا فيه وقالوا إنه يضع الشيء في غير موضعه ونسبوه للجنون كما في كتبكم

(١٩) إن أئمة المسلمين لم يتفقوا على الصحيح منها وما منهم من أحد إلا خالف في مذهبه كثيرا منها

(٢٠) لم يعتن المسلمون بحفظها في صدورهم كما اعتنوا بحفظ القرآن الشريف فاذا كان هذا حال الاحاديث وما قاله المسلمون فيها وما عملوه بها فأي فائدة منها ترجون ؟ وأي ثقة بها تثقون ؟ وأي شيء خالفت فيه الاجماع أو ابتدعته حتى أرمى بالكفر أو المروق ؟ مع أن هذه المطاعن وأمثالها كثير لم يخل منها عصر من عصور المسلمين ولم تصدر إلا منهم · فيجب علينا أن نقدر أخبار الآحاد قدرها ولا يعمينا الجهل والتعصب عن حقيقة أمرها

أما قول حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي في الجواب عن بعض هذه المطاعن إن الصحابة اختلفوا في جمع القرآن وكتابته فهو لا يرد شبهة ولا يدحض حجة · فان القرآن الشريف من عهد رسول الله الى اليوم قد حفظ حفظا جيدا في الصدور لم يسبق له مثيل ولم يعرف عند أمة أخرى في كتبها · وكتب في عصر النبي صلى الله عليه وسلم و بأمر منه عليه السلام و باملائه على ما عرفوه إذ ذاك من أنواع القرطاس (كل ما يكتب عليه) ولم يختلف أحد منهم في وجوب كتابته ولم يمت عليه السلام الا بعد أن كانت جميع سوره مرتبة الآيات محفوظة في صدور الجماهير مكتوبة في سطورهم المحفوظة عندهم وانما كان اختلافهم بعد وفاته عليه السلام في كيفية جمعه على طريقة لم يكونوا يعرفونها من قبل وما كانوا عهدوها وهي كتابته على صحف من الكاغد (كالورق الآن) مع ضم هذه الصحف بعضها الى بعض بالطريقة المعروفة اليوم فى عمل الكتب فان الكاغد وعمل ما نسميه الآن كتبا ما كان معروفا لهم فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وانما هو رقي فى الصناعة التابع لرقيهم في المدنية بعد وفاته عليه السلام ولو كانوا علموه من قبل لعملوا المصاحف في زمنه ولما اختلف في ذلك منهم اثنان (راجع مقالة تاريخ المصاحف المنشورة سابقا في المنار) · ولما لم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم الناس شيئا من الصناعات وغيرها من أمورهم الدنيوية التي يمكنهم أن يصلوا اليها بعقولهم وتدرجهم فى سلم المدنية واقتباسهم أشياء من الامم الاخرى الراقية فلذا لم يوح اليه عليه الصلاة والسلام بتعليمهم صناعة ما نسميه الآن ورقا وكتبا كما أنه لم يوح اليه بتعليمهم أي

صناعة أخرى بل تركوا وشأنهم حتى يصلوا الى ذلك بمرور الزمان

والخلاصة أن القرآن محفوظ في الصدور مكتوب في السطور من عهد الرسول وبأمره لم يختلف في ذلك أحد وإنما الاختلاف كان في مجاراة الترقي في الصناعة . وقد ترقت صناعة عمل المصاحف شيئا فشيئا كما ترقى كل شيء آخر حتى وصلت الى ما وصلت اليه في عصرنا الحالي

وأما كتابة الاحاديث فقد كتبت فيها مرات وأفاض القول فيها بعلمه الواسع استاذ المنار فلا حاجة للتكرار

(الكلمة التاسعة)— أسباب استشهادي بأحاديث الآحاد في مقالاتي —

إعلم بأن من الحجج ما يسمى (بالاقناعي) وذلك ان تحتج على الخصم بما هو مسلم عنده كأن تحتج على النصراني ببعض ما في الأنجيل الحالي وان كنت غير معتقده . فأنا أورد الاحاديث غالبا لا لاثبت معتقدي لنفسي بل لاقنع من لا يقنع الا بها ولست أعول في براهيني القطعية إلا على ما يفيد اليقين فما اذ كره من الاحاديث إما لاقناع المسلمين وإلزامهم بها او التكثير من الادلة بضم ضعيفها الى قويها ليقوى بها مع استعمال مبدأ الاستنتاج والنقد فيها .وقد اتبعت في ذلك خطة علماء التاريخ المصريين فانهم يؤيدون آراءهم في التاريخ القديم ببعض ما يعثرون عليه من الروايات ولو كانت من الاساطير ويستنبطون منها ما لا يستنبطه الجهلاء من الحقائق بعد ان يستنيروا في دياجير ظلماتها بمصابيح من نور العقل والعلم فانه قد جرت عادة الناس بتضمين حكاياتهم شيئا من حقائق التاريخ فيأتي أهل النظر والبحث فيعرفونها ويلتقطونها من وسط الخرافات ويتثبتون من صحة ما التقطوه بالاقيسة المنطقية والقضايا العقلية فاذا أراد بعضهم ان يعرف مثلا أصل الحجر الاسود عندنا عمد الى رواياتنا فيه وحكم بها محك النقد والعقل فاذا سمع رواية « ان الله استودع الحجر أبا قبيس حين اغرق الله الارض زمن نوح عليه السلام وقال له اذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له فلما انتهى ابراهيم لمحل الحجر نادى ابو قبيس ابراهيم فجاء فحفر عنه فجعله في البيت » استنتج منها بعد ان يزيل قشورها ولوازمها حقيقة هذا الحجر وهو ان اصله قطعة اخذها ابراهيم عليه السلام من احجار جبل ابي قبيس البركانية من الاكمة ووضعها في احد

اركان الكعبة علامة على الركن الذي يبتدأ منه بالطواف ليعرف الطائف كم مرة طاف بالبيت وليبتدئ الناس بالطواف من نقطة واحدة حفظا للنظام وتسهيلا للطائفين (١) وكذلك يأخذ علماء التاريخ كثيرا من حقائق تاريخ اليونان مثلا مما يجدونه عندهم من الاشعار والحكايات القديمة كالياذة (هومير) فاذا كان هذا مايفعله العلماء في الاساطير فهل يستنكر مني أن استشهد لقوم بأحاديثهم الصحيحة المسلمة عندهم وهي التي يعولون عليها في مذاهبهم؟ وماذا يكون قولهم إذا لم أؤيد مقالي بشيء من ذلك؟ أما كانوا يقولون إنها محض رأي له غير مؤيد بشيء من النقول ولو كان صحيحا ما خلت أحاديثنا منه فانها تكاد لا تغادر شيئا (إني والله لفي حيرة من أمرهم!!) على ان كثيرا مما أذكره في مقالاتي مروي عن كثير من الصحابة بالاسانيد المسماة عندهم صحيحة والروايات فيه مترادفة تكاد توجب اليقين والقول بأنها جميعا موضوعة لايكفي عند الباحثين في نشوء الروايات لارواء غلتهم وإشباع نهمتهم في العلم فلا بد إذاً من البحث والتنقيب . ولو رفض المسلمون الآن ما ألزمهم به من الأحاديث بعد تدوينهم لها في كتبهم واعتبارهم لها صحيحة أفما

(١) حاشية للكاتب — تقبيل الحجر الاسود هو كتقبيل آثار رجال التاريخ العظام احتراما لهم واجلالا لشأنهم وحبا فيهم كمن يقبل سيف نابليون أودواة شكسبير وقلمه ان وجدت ولكل أمة آثار موروثة عن رجالهم العظام ويقبلونها وهذا الحجر هو من آثار إبراهيم في بنائه الكعبة ومحفوظ بالتواتر في الامة العربية فلذا قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبل غيره من أركان الكعبة واتبعه المسلمون في ذلك إلى اليوم وإن لم يقل أحد منهم بوجوب ذلك ولم يذكر هذا الحجر في القرآن الشريف . ومن اعتقد أن شيئا من هذه الآثار يضر أو ينفع فقد خرج عن عقله وكفر بالله ورسله . ومن العجيب أن الافرنج يسمون تقبيلنا هذا الحجر عبادة — مع أن التقبيل لايسميه أحد في الدنيا عبادة — ولايسمون سجودهم لصورهم وصلبانهم وقديسيهم والخبز في قربانهم — لا يسمون ذلك عبادة لهذه الاشياء مع أنه شتان ما بين السجود والتقبيل فانظر وتعجب!!!

يكونون متعسفين ؟ وكيف إذا يكون التمييز عندهم بين الصحيح والضعيف والموضوع ؟ فاللهم اجعل العقل رائدنا . وأنر بصائرنا . واجعل كتابك هادينا ومرشدنا . ونبيك إمامنا وقدوتنا ولا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

الملمة

« بكتاب تاريخ العرب قبل الاسلام » (*)

لحضرة جرجي افندي زيدان

ذكرنا في مقالنا الآنف الامر الأول من الامور التي تؤخذ على المؤلف وهو « تردده أو انكاره بعض الحقائق التاريخية البديهيـة في موضع . وتشبثه بتحقيق بعض الظنون والتخرصات في موضع آخر اعتماداً على أوهام وتخيلات قامت بذهنه فقط » ومثلنا للشق الاول من هذا الامر وأدحضناه بما عرفه القراء . والآن نمثل للثاني ونأتي على بقية الامور التي تؤخذ على المؤلف فنقول :

مثال الثاني — انه عند ما تكلم على دولة النبط في بطرا نقل عن التوراة وعن كاترمير الفرنسي وعن كوسين دي برسفال وعن آخرين ما يفيد أن الانباط ليسوا عربا وانهم آراميون اتوامن الشرق فأجلوا الادوميين عن بطرا واحتلوها ثم رفض كل هذه النصوص والآراء وغيرها من النصوص التي لم يذكرها مما جاء في السفر الاول من اسفار المكابيين وفي تاريخ يوسفيوس من غير ان يذكر برهانا واحدا على نقضها واستنبط هو بنفسه انهم عرب وذكر لذلك دليلين : الاول ان اليونان حينما ذكروهم سموهم عربا (ولعله يعني تقسيمهم جزيرة العرب إلى عرب بترية في الشمال وسعيدة في الجنوب) والثاني ان أسماء ملوكهم عربية . وهما دليلان

(*) تابع لما نشر في ص ٦٨١ م ١١ من مقالة الشيخ أحمد الاسكندري

يتضاءلان امام النصوص التاريخية ولا سيما اذا كان ثمة ما يجعل هذين الدليلين ينعكسان على غير مراد المؤلف فيكونان حجة عليه لا له . ونحن ننفي أولا هذين الدليلين ثم نأتي بأدلتنا الوجودية على آرامية النبط أما الدليل الاول فان تسمية اليونان لسكان الشمال العربي من جزيرة العرب بالعرب البترية هي تسمية جغرافية كما اننا نسمي ماوراء اسوان بالسودان مع ان أكثرهم عرب لا زنوج وكما نسمي الصحراء الشرقية من مصر الصحراء العربية مع ان سكانها من البشارية والبجاة لا يعرفون العربية. على ان جميع ما عرف من حروب القائد اليوناني انتيفونوس وابنه ديمتريوس أنه وجد حولهم قبائل يظاهرونهم ويستجيبون لصراخهم ويؤيد ذلك ما نقله حضرة العلامة المفضال جبر ضومط عن يوسفيوس (جزء ثالث . مجلد ٣٣ مقتطف) على ان سفر المكابيين من التوراة سماهم نبطا وجعل العرب احلافا لهم حينما استعان بهم يهوذا المكابي وهو كان معاصرا لهم أيضا

وأما الدليل الثاني — فان ماعثر عليه من اسماء الملوك العربية لا يثبت ان الشعب عربي فقد ثبت ان النبط في آخر أمرهم خضعوا للعرب وخصوصا قضاعة وان الملوك الذين عاصروا منهم ملوك اليونان هم عرب حكموا أمة النبط كما يستفاد من تاريخ يوسفيوس . وكما اننا لا نسمي الامم الهندية انجليزا لان امبراطور الهند انجليزي كذلك لا نسمي النبط عربا لان ملوكها في بعض الاحيان كانوا عربا على ان هذه الاسماء لم تكن خالية من التحريف والصبغة الآرامية والعبرية مع اننا عثرنا على كثير منها مكتوب بالخط النبطي نفسه لا اليوناني الذي هو مظنة التحريف واما كون لغة الكتابة عند النبط غير لغة التخاطب فهو مما لم يقم عليه دليل وما كان أحوج المؤلف الى ذكره لو وجده

أما أدلتنا على ان النبط ليسوا عربا وانهم خليط من الادوميين القدماء ومن الآراميين الذين جاءوا مع بختنصر ومن اليهود ومن العرب فهي :

(١) ماهو مشاع مستفيض عن العرب قبل الاسلام وبعده ان النبط غير العرب وانهم كانوا يعيرون العربي بأنه نبطي واعتبر كثير من الفقهاء ان نداء

العربي يا نبطي قذف وسب ناهيك بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاتكونوا كنبط السواد إذا سئل عن نسبه قال أنا من بلد كذا

(٢) إن لغتهم لغة خاصة بهم تخالف العربية وتنال حظا من الآرامية وحظا من العبرية وحظا من العربية · بل فيها كثير من اليونانية

(٣) إن جميع النصوص التاريخيــة من التوراة في إشارة أرميا وحزقيال وفي أسفار المكابيين ما يفيد ان النبط غــير العرب وان الإله انتقم من الادوميين وضربهم بغارة بختنصر فدمر عليهم وأورث الارض من بعدهم الكلدانيين الذين جاءوا معه من بابل وان النبط كانوا في بعض أدوارهم احلافاً ليهوذا المكابي وانهم استأجروا جيوشا من العرب يظاهرونهم وهذا يدل على ان المستأجر غير الاجير

(٤) ما جاء في تاريخ يوسفيوس من ان النبط بقوا مستقلين عن العرب الى أيام الاسكندر مانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هركانوس بن سمعان أخي يوناثان ويهوذا المكابي اليهودي فانه بعد وفاة هذا الملك اخضعهم العرب وقام منهم عليهم عدة ملوك كانوا يسمون تارة ملوك النبط وتارة ملوك العرب وان كانت الجنسية متميزة بينهما وبقوا كذلك الى ان استولى عليهم الرومان سنة ١٠٥ م

(٥) حقق كل من كاترمير الفرنسي وكوسين دي برسفال وغــيرهما من علماء الآثار ان سكان بطرا بعد الادوميين هم أمم نازحة من العراق وبابل ولا ينطبق ذلك إلا على زمن بختنصر اذ سكان بطرا قبل بختنصر لم يعرفوا إلا باسم الادوميين وبعده لم يعرفوا إلا باسم النبط مع انه من الثابت ان بختنصر أباد الادوميين تحقيقا لوعيد حزقيال وأرميا النبيين من ان الله ينزل عليهــم بلاءه ويجعل جبال عيصو خرابا وميــراثا لذئاب البرية وانه حارب العرب حتى كاد يفنيهم فلو كان النبط عربا لمــا استبقاهم فيها فظهر من ذلك أن الانباط بقايا القبائل الآرامية التي اسكنها بختنصر في بطرا ليكونوا حراسا ونقلة لتجارة بابل لان فتوحاته كانت كلها تجارية ثم امتزجوا بغيرهم من اليهود والعرب وما يرى في لغتهم من الالفاظ العربية لا يربو على ما يوجد في العربية المضرية من الالفاظ العبرية

على ان المؤلف الا حسن تضعف دلائله عن تبريره تلك الحملة التي هاجها في

اكثر من خمس صفحات من كتابه مع تيقنه ان المكتوب من آثارهم ليس عربيا زعم بلا دليل ان لغة تخاطبهم غير لغة كتابهم ثم رجع وقال:

«على اننا لا نظن اللغة العربية التي كان يتفاهم بها النبطيون هي نفس اللغة العربية التي عرفناها في صدر الاسلام ولا بد من فرق بينهما اقتضاه ناموس الارتقاء» هذا مع علمنا ان النبط دخلوا في حوزة الرومان في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد واننا نروي كثيرا من شعر العرب وامثالهم منذ القرن الرابع من الميلاد مما يظهر لنا تمام الاظهار ان هذه اللغة العربية الفصيحة باعرابها واشتقاقها وكثرة اساليبها التي لاتتناهى قد تكونت بهذه الصورة قبل ذلك بكثير أي وقت ما كان النبط نبطا بل قبل هذا الوقت ولاسيما اذا علمنا ان اللغة العربية هي لغة أهل بادية وهم أبعد الناس عن الانقلابات اللغوية كما يصرح بذلك حضرة المؤلف في أكثر من موضع من كتابه

(٦) ان النبط الذين كانوا في الشرق في صحراء الكوفة وعلى ضفاف الفرات وبقوا متميزين عن العرب الى ما بعد الاسلام بنحو مئة وخمسين سنة هم يشبهون نبط الشام من أكثر الوجوه بدليل أن ماوجد من آثارهم ومعبوداتهم وخطوطهم يدل على انهم من عنصر واحد واطلال تدمر والخط التدمري صنو النبطي تشهد بذلك فان كان نبط الشام خالطوا قضاعة فنبط العراق خالطوا لخما وجذاما و بكرا وتغلب وعبادا

ومن أمثلة الشق الثاني وهو تشبثه بتحقيق بعض الظنون الخ انه عندما تكلم على دول اليمن ذكر من بينها دولة زعم ان العرب لم تعرفها وهي أهل (معين) وقفى على أثر ذلك بأن استظهر انها أمة قديمة جدا تبتديء أخبارها منذ أربعين قرنا قبل الميلاد لعثوره على أثر قديم من آثار بابل ذكر فيه بالخط المسماري «ان زام سين حمل على مغان وقهر ملكها معنيوم» واستنتج ان مغان هذه هي مغان طورسينا وأن الميم في «معنيوم» للتنوين و بالطبع يعتقد ان اللفظ حرف واختزل حتى صار (معينا) وكذلك نقل عن سفر الاخبار «أن الله أعان عزريا على الفلسطينيين وعلى العرب المقيمين بجوار بعل وعلى المعونيين» أي المجاورين طبعا للفلسطينيين وكل هذه الحوادث حدثت في برية الشام والامة يمانية

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يماني

ولو كان الشبه بين لفظين يكفي ان يبنى عليه تاريخ أمتين لقد حق لنا ان نقول على التاريخ العفاء

ثم اقتضب الكلام ورأى رأياً أخيراً انهم من جالية الآراميين أقوام العراق في هذه العصور السحيقة واستعمروا اليمن ثم اشكل عليه الامر بأن المعينيين لو كانوا من العراق لكتبوا بالخط المسماري مع ان آثارهم مكتوبة بالخط المسند المشتق من الفينيقي فلم يرحلا لهذا المشكل سوى ادعائه بانهم استبدلوا بالخط المسماري الخط الفينيقي لسهولة هذا الاخير في نظره !!! ولكن كل هذه المراقة في القدم لم تمنعه من وصفهم في موضع آخر انهم كانوا معاصرين للسبئيين الذين لم تبتدىء دولتهم على رأيه الا في القرن الثامن قبل الميلاد ونقل عن اليونان في صفحة (١١٦) ان هذه الامم وغيرها كانت متعاصرة وان عاصمتهم (مأرب) ثم يتشبث في موضع آخر بأن القحطانيين السبئيين كانوا بعد المعينيين أو انهم ورثتهم أو انهم حبشان أو انهم عمالقة جاءوا من مصر هذا الى اضطرابات وتناقضات توقع طالب التاريخ في حيرة وارتباك يهون عليه معهما نبذ كل هذه التخرصات والاعتقاد بأن كل هذه الامم كانت قبائل متجاورة في مخاليف متقاربة أعظمها مأرب

الامر الثاني من الامور التي تؤخذ على المؤلف — تناقض عبارات كتابه في عدة مواضع

منها ادعاؤه ان اسماء ملوك حمير لم يكن بينها اسماء عدنانية حتى قال في صفحة (١٦٦) لم نجد لذلك أثراً في الآثار المنقوشة ثم نقل في صفحة (١٥٩) اثراً اعطيا لابرهة الحبشي وفيه يسمي ولاته من حمير واقيالهم يزيد وكبشة ومرة وثمامة وحنشا ومرثد كما تقدم

ومنها تناقضه في ان الجباثيين لم يعرفهم العرب بل عرفهم اليونان وحدهم ثم ذكر في صفحة (١٣٤) ان الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب قال «جبأ مدينة المفاخر وهي لآل الكرندي من بين ثمامة آل حمير الاصغر» مع ان اليونان لم يذكروهم بأكثر من انها قبيلة تجارية

ومنها تناقضه في استظهار أن السبئيين حبشان ثم ذكر في صفحة (١٣٦) ان المعينيين القادمين من العراق نقلوا معهم حضارة العراق ونظام حكومته وقسموا اليمن الى محافد وقصور وطمعوا في جيرانهم واخضعوهم وانشئوا الدولة المعينية والسبئية والحميرية

ومنها تناقضه في ان المعينيين لم تعرفهم العرب مع انه نقل في صفحة (١١١) عن الهمداني في كتاب الاكليل ان « محافد اليمن براقش ومعين وهما بأسفل جوف الرحب مقتبلتان فمعين بين مدينة نشان و بين درب شراقة » وروى ان مالك بن حريم الدلاني يقول فيها

ونحمي الجوف مادامت معين بأسفله مقابلة عرادا

وفيها وفي براقش يقول فروة بين مسيك

أحل يحابر جدي عطيفا معين الملك من بين البنينا

وملكنا براقش دون أعلى وانعم اخوتي و بني ابينا

ومنها تناقضه في أن العرب لم يعرفوا دولة النبط في الشام ثم ذكر في عدة حوادث انهم عرفوها خصوصا في صفحة (٧٩) حيث نقل عن ابن خلدون وحمزة الاصفهاني معرفتها لنبط الشام وان بطرا كانت تسمى بعد الاسلام الرقيم ولهم فيها شمر هذا الى مناقضات كثيرة لا تسع سردها ولا تفصيلها هذه العجالة

الامر الثالث من الامور التي تؤخذ على المؤلف جسارته على وضع الاسماء والتقسيمات التاريخية مع ضعف الاستظهار كتقسيماته أدوار تاريخ العرب وكتسميته الامة التي سماها استرابون اليوناني جرهيين بالقريين نسبة الى قرية وهي إسم اليمامة قديما وهم الذين قال فيهم استرابون « انهم أغنى أهل الارض و يكثرون من آنية الذهب والفضة ويزينون جدران منازلهم بالعاج والذهب والفضة والاحجار الكريمة » فمتى كان أهل اليمامة أغنى أهل الارض ومتى كان لهم جدران تزين بالذهب والفضة والاحجار الكريمة !!؟ أليس كلام استرابون أشبه بالخرافات التي تقال عن مدينة شداد بن عاد (إرم ذات العماد) التي يبكت حضرة جرجي افندي زيدان جهلة مؤرخينا على ذكرهم

لها! ولكنه لا يكت استرابون بل لم يكتف بقوله حتى حرف لفظه (جرها) بلفظ (قرية) وجعل اهلها دولة لم تعرفها العرب وفتح بابا لها خاصا في كتابه ورسمها على المصور الجغرافي !!

الامر الرابع من الامور التي تؤخـذ على المؤلف ارتياب القارئ في تهجينه أخبار العرب في حوادث الفخر والغلبة كفتوحات شمر يرعش وأسعد ذي كرب في آسيا وأفريقس في أفريقيا وحسان بن تبع . وتصـديقه خرافات اسـترابون وهيرودوت مع انهما لم يدخلا بلاد العرب ولم يرياها . واقرأ ما نقله عن استرابون في صفحة (١٣٨) تتحقق صدق ماتقول وهذا نصه :

« وذكر استرابون ضربا من الاشتراكية عند أولئك العرب غريبا في بابه فبعد ان أورد اشتراك كل عائلة بالاموال والمتاع بين أفرادها وان رئيسها أكبر رجالها سنا قال : والزواج مشترك عندهم يتزوج الاخوة امرأة واحدة فمن دخـل منهم اليها أولا ترك عصاه بالباب والليل خاص بأكبرهم وهو شيخهم وقد يأتون أمهاتهم ومن تزوج من غير عائلته عوقب بالموت . كان لاحـد ملوك العرب ابنة بارعة في الجمال لها ١٥ أخا كل واحد منهم يهواها حتى ملتهم واحتالت على منعهم بعصي اصطنعتها تشبه عصيهم وكان لكل منهم عصا عليها علامته . فكانت إذا خرج أحدهم من عندها حمل عصاه ومضى فتضع هي مكانها العصا التي اصطنعتها على مثالها فيتوهم سائر الاخوة أنه لا يزال عندها وقد يجيء أحد يتفقد الباب ولما يرى العصا بجانبه يرجع فتبدل العصا الاولى بعصا مثـل عصاه وهكذا . فاتفق مرة ان الاخوة كانوا جميعا في ساحة ورأى أحدهم بباب أخته عصا وليس من إخوته أحد غائبا فظن فيها السوء فشكاها إلى أبيها ولما اطلع على عذرها برأها . هذه حكاية استرابون ولم نذكرها إلا لغرابتها ولا نعلم مقدار ما فيها من الصحة » اهـ

يذكر هذه الحكاية هنا بالتفصيل ويعتذر بهذا العذر مع انه عنـد ما يقتضي المقام شيئا صحيحا تاريخيا عن العرب يدمجه ويجمل فيـه ويحيل القارئ على الكتب الاخرى !!

الامر الخامس سوء التعبير من الوجهة الدينية في عبارات الكتاب كقوله في صفحة (١٠) أقدم المصادر العربية المدونة عن تاريخ العرب وأقربها إلى الصحة القرآن (؟)

الامر السادس من الامور التي تؤخذ على المؤلف انه أغفل مدة حكم الفرس على اليمن بعد ذي يزن فلم يذكر أحدا من عمالهم مع ان عمال كسرى استمروا يحكمون اليمن الى الاسلام فكان آخرهم باذان الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم ثم صارت اليمن الى الاسلام

الامر السابع من الامور التي تؤخذ على المؤلف كثرة شكه وتردده وتناقضه في اكثر الحوادث حتى انه لا يرى المطلع على كتابه خبرا مبرهنا على صحته بدليل مقنع ويظهر ذلك ظهورا بينا في آرائه الخاصة واجتهاداته التاريخية

الامر الثامن من الامور التي تؤخذ على المؤلف تخريجه الاعلام تخريجا غريبا، قال ان اسم امرئ القيس يظنه محرفا عن مرقس !! وان اسم الحارث ربما كان ترجمة جيورجيوس واسم صخر ترجمة بطرس !! الخ ما ذكر من التخريج

الامر التاسع اختصاره التاريخ جدا وهو أحد العيوب التي عابها على مؤرخي العرب فلم يسلم هو منها والكمال لله وحده

آثار علمية ادبية

ترجمة الخنساء (*)

هي السيدة تُماضر الصحابية الشهيرة الجليلة بنت عمرو بن الحرث بن الشريد من سراة سُليم، كانت رضي الله عنها من شواعر العرب المشهود لهن بالتقدم، وإنما لقبت الخنساء تشبيها لها بالظبية لان الخنس من صفات الظباء وهو تأخر

(*) خلاصة درس ألقاه على طلاب مدرسة القضاء الشرعي الشيخ محمد المهدي الاستاذ المشهور المدرس بمدرسة القضاء

الانف عن الوجه مع ارتفاع في الارنبة ، ويقال لها خناس على سبيل التمليح ، وقد كانت من أجمل نساء العرب وأفصحهن ، نشأت عزيزة حرة لاتفتات عشيرتها عليها بأمر مر بها دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جُشَم وهي تهنأ بعيرا لها فانخلع له على كبر سنه وانصرف الى رحله وهو يقول :

حيوا تُماضِرَ واربعوا صحبي ... وقفوا فإن وقوفكم حسبي
أخناس قد هام الفؤاد بكم ... وأصابه تبل من الحب
ما إن رأيت ولا سمعت به ... كاليوم طالي أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه ... يضع الهناء مواضع النقب (١)
متحسرا نضح الهناء به ... نضح العبير بريطة العصب (٢)
فسليهم عني خناس إذا ... عض الجميع هناك ما خطبي

ثم غدا إلى أبيها فخطبها اليه فردته أحسن رد ثم طلب إلى أخيها معاوية ان يشفع له عندها فأبت بعد امتحانه وقالت : أأترك أولاد عمي كعوالي الرماح وأتزوج شيخا من بني جشم هامة (٣) اليوم أو الغد !! فألح عليها فقالت القصيدة التي مطلعها

أتكرهني هبلت على دريد ... وقد أصفحت سيد آل بدر
معاذ الله يرضعني حبركى ... قصير الشبر من جشم بن بكر (٤)

فهجاها دريد فقيل لها الا تجيبينه ؟ فقالت والله لا أجمع عليه أن أرده واهجوه ومن هنا تعلم مقدار أدبها وحريتها وعزتها عند قومها

وقد كانت في أوائل أمرها تقول البيتين والثلاثة فلما قتل شقيقها معاوية يوم حورة الاول سنة ٦١٢ م وقتل أخوها لابيها صخر يوم كلاب سنة ٦١٥ م في خبر بن طويلين ، أكثرت من الشعر واجادت وأنسيت بهما من كان قبلهما وا كثرت المراثي ، وأجود مراثيها ماخلط فيه مدح بتفجيع فانه يكاد يكون الغاية من كلام المخلوقين ، كقولها في معاوية :

---

(١) الهناء : القطران ، والنقب : القطع المتفرقة من الجرب في جلد البعير

(٢) النضح كنفح : الرش . والعبير اخلاط من الطيب والريطة هي الملاءة أو الثوب اللين الرقيق ، والعصب : ضرب من البرود (٣) الهامة طائر صغير يألف القبور (٤) الحبركى : القصير الرجلين الطويل الظهر . والشبر : الخير والعطاء

سأحمل نفسي على حالة ... فإما عليها واما لهـا
نهين النفوس وهون النفو ... س يوم الكريهة أبقى لها
فان تك مرة أودت به ... فقد كان يكثر تقتالهـا
فيوما تراه على هيكل ... أخا الحرب يلبس سربالها
ويوما تراه على لذة ... وعيش رضي فقد نالهـا
فخر الشوامخ من فقده ... وزلزلت الارض زلزالهـا

وكقولها في صخر

الا ياصخر ان أبكيت عيني ... فقد أضحكتني زمنا طويلا
دفعت بك الخطوب وأنت حي ... فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقولها فيه

أعينيّ جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر ندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما ... د ساد عشيرته امردا
اذا القوم مدوا بأيديهم ... الى المجد مد اليهم يدا
فنال الذي فوق أيديهم ... من المجد ثم مضى مصعدا
يحمله القوم ما عالهم ... وان كان أصغرهم مولدا
وان ذكر المجد الفيته ... تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقولها :

يا أم عمرو ألا تبكين معولة ... على أخيك وقد أعلى به الناعي
فابكي ولا تسأمي نوحا(١) مسلبة ... على أخيك رفيع الهم والباع
فقد فجعت بميمون نقيبته ... جم المخارج ضرار ونفـاع
فمن لنا ان رزئناه وفارقنا ... بسيد من وراء القوم دفاع
قد كان سيدنا الداعي عشيرته ... لا تبعدن فنعم السيد الداعي

(١) النوح جمع نائحة على غير قياس

ورثائيتها المشهورة التي تقول فيها

كأن لم يكونوا حمى يتقى ... اذ الناس اذ ذاك من عز بزا
هم منعوا جارهم والنسا ... ء يحفز أحشاءها الموت حفزا
ببيض الصفاح وسمر الرماح ... فبالبيض ضربا وبالسمر وخزا
وخيل تكدس بالدارعين ... وتحت العجاجة يجمزن جمزا
جززنا نواصي فرسانها ... وكانوا يظنون ان لن تجزا
فمن ظن ممن يلاقي الحروب ... بأن لن يصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القرى ... ونتخذ الحمد مجدا وكنزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد ... ونلبس في الامن خزا وقزا

ورثائيتها السائرة مسير الامثال

اغر ابلج تأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار
جلد جميل المحيا كامل ورع ... وللحروب غداة الروع مسعار
حمال الوية هباط أودية ... شهاد اندية للجيش جرار
لا يمنع القوم ان سالوه خلعته ... ولا يجاوزه بالليل مرار

وقد فاخرتها سلمى الكنانية وكذلك هند بنت عتبة في عكاظ ففخرتهما في حديث مشهور

رتبة الخنساء بين الشعراء

اجمع علماء الشعر على أنه لم تكن امرأة قط قبل الخنساء ولا بعدها اشعر منها ولقد كان النابغة الذبياني تضرب له قبة حمراء فيجلس لشعراء العرب بعكاظ على كرسي فينشدونه، فيفضل من يرى تفضيله، فأنشدته الخنساء فأعجب بشعرها وقال لولا أن أبا بصير انشدني آنفا لفضلتك على شعراء الموسم. فاغتاظ حسان بن ثابت (رض) من تفضيل الاعشى على شعراء الموسم وقال للنابغة انا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة يا ابن أخي أنت لا تحسن ان تقول

فانك كالليل الذي هو مدركي ... وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء انشديه فانشدته فقال ما رأيت امرأة أشعر منك قالت ولا فلا،

قال حسان أنا والله أشعر منك ومن أبيك حيث أقول

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء ضعفت افتخارك وانزرته في ثمانية مواضع، قال وكيف!؟ قالت قلت لنا الجفنات والجفنات مادون العشر فقللت العدد، ولو قلت الجفان لكان اكثر، وقلت الغر والغرة البياض في الجبهة، ولو قلت البيض لكان اكثر، وقلت يلمعن واللمع شيء يأتي بعد الشيء، ولو قلت يشرقن لكان اكثر لان الاشراق اكثر من اللمعان، وقلت بالضحى ولو قلت بالدجى لكان اكثر في المديح، لان الضيف بالليل اكثر طروقا، وقلت اسيافنا والاسياف دون العشرة، ولو قلت سيوفنا لكان اكثر، وقلت يقطرن فدللت على قلة القتل ولو قلت يسلن لكان اكثر لانصباب الدم، وقلت دما والدماء اكثر من الدم، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك!! فسكت حسان ولم يحر جوابا وقام منكسرا منقطعا، وقد سئل جرير من اشعر الناس؟ فقال انا لولا الخنساء، قيل بم فضلتك؟ قال بقولها

ان الزمان وما يفنى له عجب ابقى لنا ذنبا واستؤصل الراس

ان الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وكان بشار يقول: لم تقل امرأة شعرا الا ظهر الضعف فيه فقيل له او كذلك الخنساء؟ قال تلك غلبت الفحول

الخنساء في صدر الاسلام

اتفقت كلمة الرواة على ان السيدة تماضر الخنساء رضي الله عنها كانت صحابية قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي وقومها بنو سليم واسلمت معهم، بيد انها لم تدع ما كانت عليه في الجاهلية من تسلبها (١) على ابيها واخويها، وقد بلغ من وجدها على صخر انها عميت من البكاء، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه اقبل بها بنو عمها عليه وقالوا يا أمير المؤمنين لو نهيتها، فدخل عليها فوجدها على ما وصفت من تفرج مآقيها، فقال لها ما اقرح مآقي عينيك ياخنساء؟ فقالت بكائي على السادات

(١) تسلبت المرأة لبست السلاب وهو الحداد والتسلب هو الإحداد على الميت

من مضر ، فقال حتى متى ؟ اتق الله ان الذي تصنعين ليس من صنع الاسلام ، وانه لو خلد احد لخلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الذين تبكين هلكوا في الجاهلية وهم اعضاء اللهب وحشو جهنم ، فقالت ذلك أطول بعويلي عليهم ، ثم استنشدها فأنشدته ارتجالا :

سقى جدثا أكناف غمرة (١) دونه ... من الغيث ديمات الربيع ووابله

وكنت اعير الدمع قبلك من بكي ... فأنت على من مات بعدك شاغله

فرق لها عمر وقال خلوا سبيل عجوزكم فكل امرئ يبكي شجوه

وقد رآها مرة تطوف بالبيت محلوقة تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها فوعظها وقال انه لا يحل لك لطم وجهك ، ولا كشف رأسك ، فكفت عن ذلك وقالت

هريقي من دموعك واستفيقي ... وصبرا ان اطقت ولن تطيقي

بباقية فان الصبر خير ... من النعلين والرأس الحليق

ولما لامتها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقالت لها ان الاسلام قد هدم كل الذي تصنعين انشأت تقول :

الا يا صخر لا انساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رمسي

يذكرني طلوع الشمس صخرا ... واذكره بكل مغيب شمس

فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

فقد ودعت يوم فراق صخر ... ابي حسان لذاتي وأنسي

فقالت عائشة ما دعاك الى هذا الا صنائع منه جميلة ، فقالت نعم ان لشعاري سببا ، وذلك ان زوجي كان رجلا متلافا للاموال ، يقامر بالقداح ، فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء ، فأراد أن يسافر فقلت له أقم وأنا آتي أخي صخرا ، فأتيته وشكوت اليه حالنا وقلة ذات اليد بنا فشاطرني ماله ، فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء ، فعدت اليه في العام المقبل أشكو اليه حالنا فعاد لي بمثل ذلك

(١) غمرة مكان والاكناف النواحي

فأتلفه زوجي ، فلما كان في الثالثة خلت بصخر امرأته فعذلته ، ثم قالت ان زوجها مقامر وهذا ما لا يقوم له شيء ، فان كان لا بد من صلتها فأعطها أخس مالك فانما هو متلف ، والخيار فيه والشرار سيان ، فانشأ يقول :

والله لا أمنحها خيارها وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هلكت قددت خمارها واتخذت من شعر صدارها(١)

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه ، فلما هلك تخذت هذا الصدار ، والله لا أخلف ظنه ولا أكذب قوله ما حييت . وقد مكثت أكثر من أربعين سنة وهي أحزن نساء العرب على فقيد ، غير أن الاسلام اجتث جاهليتها ووجهها الى رضوان الله وابتغاء مثوبته ، يشهد لذلك ما كان من خطبتها في بنيها الاربعة يوم القادسية سنة ١٦ ﻫ وذلك انه لما ضرب البعث على المسلمين لفتح فارس سارت مع بنيها الاربعة وحضرت الوقعة وأوصت أولادها من أول النهار فقالت : يا بني انكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ، واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا) الآية فاذا أصبحتم غدا ان شاء الله سالمين فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى سياقها ، وجللت نارا على أرواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، عند احتدام خميسها ، تظفروا بالمغنم والكرامة ، في دار الخلود والمقامة . فقاتلوا حتى قتلوا رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته . ولما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك أجرى عليها أرزاق

---

(١) الصدار ثوب بلا كمين غير مشقوق تلبسه نساء العرب في الحزن ويصح أن يطلق على ما يسميه المصريون الصديري والشاميون الصدرية

أولادها الاربعة وكان لكل واحد مائتا درهم حتى قبض رضي الله عنه ، وكانت وفاة الخنساء زمن معاوية بالبادية سنه ٥٠ هجرية ٦٧٠ ميلادية

باب الأخبار والآراء

حادثة صاحب المجلة بطرابلس الشام

(أقوال الصحف فيها)

لم تكن الرسائل البريدية والبرقية التي وردت على منشئ هذه المجلة وهو في سياحته معلنة الاسف العظيم لوقوع حادثة الاعتداء بطرابلس — بأكثر مما ورد على إدارة المجلة من سائر انحاء القطر المصري ومن الشرق والغرب وسوريا أيضا والاستانة وكلها تبدي الاستياء الشديد والتعريض والتنديد وتهنئ صاحب هذه المجلة بسلامته مما كيد له وتعدّ نجاته عناية من الله بالعلم والاسلام واننا كنا بدأنا الشكر للكاتبين الأولين نعيد الثناء عليهم وعلى الآخرين

وقد تناولت هذا الموضوع جرائد سوريا ومصر الكبرى باهتمام زائد وإلى القراء ما كتبته بهذا الشأن :

شاع أمس في الثغر انه بوصول الاستاذ السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار الأغر إلى طرابلس تصدى له بعضهم وضربه بعصا فجرحه في رأسه ثم ابتدره باطلاق الرصاص فاخطأه فكان لهذا الخبر رنة أسف لدى الجميع ، وانا نبشر الكل بان الاستاذ في سلامة وعافية والحمد لله وهذا نصّ تلغراف تلقيناه في هذا الصباح من طرابلس بتفصيل الحادثة :

« وصل الاستاذ الرشيد مساء الجمعة فكان له استقبال حافل وعدد المستقبلين يربو على الخمسمائة شخص ، أرسلت شعبة جمعية الاتحاد والترقي العثماني عربة

خصوصية لركوبه والموسيقى الوطنية فوصل البلدة بكل احتفاء تحفه الاهل والاحباب إلى ان اقترب الجميع من سوق العطارين فتصدى كامل المقدم الذي كان ضرب صالح وأدهم رضا سابقاً ووقف امام الاستاذ وابتدره بضربة على رأسه بعصا فلم تصبه تماما فأراد أن يضربه ثانية فتلقاها الشيخ محمد الرافعي بيده وتمسك بالعصا حتى أخذها من كامل فما كان منه إلاّ ان أشهر مسدسين واخطر كلّ من يقترب منه بالموت العاجل فاقترب منه رجل لم تؤثر به تلك التهديدات وأراد ردعه فاطلق عليه عيارا ناريا فلم يصبه وبعد ذلك فرّ

وقد كان الاستاذ أدخل إحدى الدور القريبة فأخذ بعد ذلك لدار الشيخ محمد الرافعي ولم يزل هناك

لم يهتم كما يجب من بيده أمر الضبط، الكدر عمومي من جراء ذلك، الاستاذ لم يبد عليه أثر كدر بل تحمل ذلك بصبر كما هي عادته . لم يبق أحد من الوجوه إلا وقد هرع للسلام عليه . أمور الحكومة ليست هي على ما يرام وقد استغنى أكثر أفراد الضبطية ، التفصيل بالبوسطة »

فنهنئ صديقنا الاستاذ بسلامته ونطلب من الحكومة بكل إلحاح التحري على المعتدي ومجازاته أشد المجازاة تنكيلا له وارهابا لغيره (الاتحاد العثماني)

* * *

كتب إلينا من طرابلس أن حضرة العلامة السيد رشيد افندي رضا صاحب مجلة المنار وافى الفيحاء مساء الجمعة الماضي على انه قبل وصوله إلى الدار المعدة لنزوله هجم عليه أحد الاهالي وضربه بعصا على رأسه رغما عن شدة ازدحام الناس الملاقين حوله . ثم اطلق عياره الناري في الهواء وأخذ يطوف في الاسواق كأنه لم يأت شيئا مذكورا

نقول وهذه الحادثة السيئة غريبة في بابها ولا نظن الذي أقدم على هذا العمل الفظيع إلا مغرى مدفوعا بيد أعلى فعسى أولياء الامور ان يبحثوا ليقفوا على الحقيقة لكي يقطعوا تلك اليد أو يقيدوها على الاقل (لسان الحال)

* * *

صرف حضرة العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية ١٢ سنة في القطر المصري بعيدا عن أهله ووطنه وأصاب أهله وذويه ما أصابهم من اضطهاد المعتدين كما يذكر اكثر قراء هذه الجريدة التي وقفت وقتئذ في وجه الظالمين وقفة طويلة.
ولما أعلن الدستور سافر السيد رشيد الى طرابلس فمر ببيروت حيث قوبل مقابلة شائقة جديرة به وبعد الاقامة في بيروت اياما سافر الى طرابلس فوصل مساء الجمعة ٢٩ الماضي . فنزل لمقابلته على ظهر الباخرة جمهور من مشايخ طرابلس واعضاء جمعياتها وجمهور من أهالي القلمون . وكان في انتظاره على الرصيف خلق كثير ومعهم الموسيقى فاستقبلوه بكل اجلال وأعدت له في الترام عربة خاصة ركب معه خواص المحبين وهكذا سار موكب المقابلة بين عزف الموسيقى واطلاق البارود الى منزل فضيلة مضيفه الاستاذ الشيخ محمد الرافعي حيث توافد العلماء والوجهاء للسلام عليه . وحدث في في اثناء الطريق ان شقيا من أشقياء طرابلس المشهورين هجم على السيد رشيد بعصا وضربه بها فأصابت شطر رأسه ولم تؤلمه
فهجم الجمهور على ذلك الشقي كامل المقدم فأخذ باطلاق النار على الجمهور وفر هاربا وكان هذا العمل مدعاة للمغامرة بالسيد رشيد ووردت عليه تلغرافات التهنئة من والي بيروت وجمعية الاتحاد والترقي والوجهاء والاعيان والعلماء . وزاره القومندان واعرب عن اسفه وظهر ان الشقي مدفوع بأيدي اناس من الحساد ثم زار القومندان والضباط واعضاء نادي جمعية الاتحاد والترقي السيد رشيدا وطلبوا منه ان يحضر الاجتماع الذي عقد في النادي ففعل وألقى خطابا جميلا كان له احسن وقع
وقد اهتم والي بيروت بالاعتداء على السيد رشيد اهتماما عظيما فأرسل وكيلا لمتصرفية طرابلس وأمره بالقبض على الجاني فنحن اذا شكرنا أعيان طرابلس للحفاوة بعالم منهم هو فخر بلدهم بلا نزاع ولا جدال فانا نأسف لوجود انذال في تلك المدينة يحرضون السفاحين على ارتكاب مثل هذه الجنايات وأملنا ان يعاقب والي بيروت ذلك الشقي والذي أغروه عقابا صارما شديدا يكون عبرة لسواهم (الاهرام)

* * *

اعتداء ذميم — ورد كتاب من طرابلس ينبيء بأن أحد الاشقياء المدعو كامل

المقدم هجم على حضرة العالم الفاضل السيد رشيد رضا صاحب المنار بينما كان جمهور عظيم يحتفل بقدومه وضربه بعصا على رأسه ولكن فضيلة الشيخ محمد كامل الرافعي تلقى العصا قبل ان تصيب السيد رشيداً بسوء . فكان للحادث وقع كبير وازداد على أثره ميل الجمهور الى السيد رشيد وكتبت لجنة الاتحاد والترقي في بيروت الى لجنة سلانيك تستشيرها في إعلان الاحكام العرفية في طرابلس بعد حادثة السجن وهذا الحادث الموجب للاسف . أما الجاني فالهمة مبذولة للقبض عليه وعلى من يظهر التحقيق اشتراكهم معه ولقد طلب والي بيروت قوة عسكرية من دمشق لاستخدامها عند الضرورة في توطيد الامن (الجريدة)

* * *

اتانا من غير مكاتبنا في طرابلس الشام ان حضرة العالم الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وصل اليها يوم الجمعة الماضي فاستقبله جمهور كبير من العلماء والاعيان ورجال جمعية الاتحاد والترقي على ظهر الباخرة ووقفت الناس على المرفإ لرؤيته واعدت له الجمعية عربة خصوصية ركب فيها والموسيقى تصدح امامه حتى قرب من دار الشيخ محمد كامل الرافعي ففجأه هناك شقي اسمه كامل بن عبد الرحمن المقدم بضربة عصا على رأسه ولكنها لم تكد تصيبه حتى تلقاها عنه العلامة الرافعي ونزعها من يد ذلك الشقي . فشهر هذا مسدسين وجعل يطلقهما على الجماهير التي حاولت صده ثم فر هاربا ولم يصب أحد بسوء والحمد لله . وظل حضرة الاستاذ مع ذلك ساكنا رابط الجأش كما ينتظر من امثاله من ذوي النفوس الكبيرة . وقد وردت الرسائل من انحاء سورية بتهنئته واستنكار فعلة ذلك الشقي . وقد طير البرق خبر ماجرى الى دولة والي بيرت وجمعية الاتحاد والترقي فيها فأرسل دولة الوالي وكيلا لمتصرفية طرابلس وطلب قوة عسكرية من دمشق بعدما ظهر احتياج طرابلس الى زيادة عساكرها وأوصى دولته بالقبض على الجاني الذي يقال انه فعل ما فعل باغراء واحد من اقاربه . ولا يزال العلماء والوجهاء وكبار رجال الحكومة يؤمون منزل الشيخ الرافعي لتهنئة ضيفه الكريم بالقدوم والسلامة (المقطم)

* * *

كان حضرة الفاضل الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار في مصر قد

سافر في الاسبوع الفائت إلى بيروت ومنها إلى وطنه طرابلس الشام بعد أن حالت الاحوال الماضية دون ذهابه إلى وطنه زمنا طويلا. وقرأنا اليوم في جريدتي الاتحاد العثماني والاحوال ما خلاصته ان حضرة الشيخ رشيد رضا وصل إلى طرابلس مساء الجمعة في ٢٥ الماضي فاحتفل باستقباله حتى إذا اقترب من سوق العطارين تصدى له كامل المقدم (وفي رواية الاحوال انه عبد القادر مؤذن) وابتدره بضربة على رأسه وضربة ثانية فتلقاها الشيخ محمد الرافعي ونزع العصا من يده فما كان من الرجل الا أن أشهر مسدسين ثم أطلق عيارا ناريا فلم يصب أحدا وأركن إلى الفرار وقد كان الاستاذ أدخل إحدى الدور القريبة فأخذ بعد ذلك إلى دار الشيخ محمد الرافعي ولم يزل هنالك وقد اتفقت الاحوال والاتحاد العثماني على تواني من بيدهم أمر الضبط في هذه الحادثة . والمؤيد يأسف لهذا الحادث ويستنكر هذا الاعتداء ويرجو أن يكون ناشئا عن تهوس فرد واحد فقط وأن يتمتع حضرة صاحب المنار بكل هناء وسرور في زيارته لوطنه (المؤيد)

الدولة العلية وبلغاريا والنمسا

ما أكثر العبر في أعمال البشر وما أقل المعتبرين ! إن الخطيئة التي يأتيها الفرد في بيئة عسى لا يشعر بها أحد أو الذنب الذي يصدر من بدوي في العراء لا يحس به سوى خليطه أو رهطه قد يصدر من أمة برمتها ، وتأتيه حكومة بعد تقريره في دار ندوتها ! ! وان ما يمر على الذاكرة من اشباه هذا ونظائره كثير جدا ولكن قل من يتدبر ويعي ، ذلك ان أعمال الافراد لا يلاحظها إلا علماء الاخلاق والاجتماع وهم أطباء النفوس والامم ، ولكن أعمال شعب بأسره مما لا سبيل إلى كتمانه واخفائه ، بل هو مما يصل إلى كل حس ويقع تحت كل نظر

يقول الفلاسفة الاجتماعيون ان اقرار مجموع عاقل على الخطأ مستحيل ولكن هذا القول لا يصح على إطلاقه إلا اذا كان التهذيب والاحتلاس في عرف الفلاسفة

أمرا حلالا طيبا ، والحق الذي لا امراء فيه ان الانسان مهما استكنه أحوال البشر فانه لا يحيط علما الا بجزء يسير من كل كبير ، وعليه فلا تثريب على من قال وهو يظن نفسه مصيبا ، بل على من فعل وهو يوقن انه مخطئ ،

أعلنت النمسا في السابع من اكتوبر الماضي انها ألحقت مقاطعتي بوسنه وهرسك بمملكتها وانهما صارتا بهذا الالحاق جزءا منها !! فقلب هذا الحادث كيان السياسة الأوربية وحول انظار الدولة الدستورية الجديدة إلى مايراد بها فصرفها عن القيام بالاصلاح الداخلي ، وكانت بلغاريا سبقتها فأعلنت استقلالها قبيل ذلك بيومين ، فكان هذا وما سبقه صادفا بالدولة العلية عن الاهتمام بما تقتضيه أحوال البلاد الداخلية بَله الخارجية

توقع الناس من وراء هذا الانقلاب المفاجئ في عالم السياسة حربا ضروسا تشتعل جذوتها في (ترنوفو) ثم تمتد الى سائر أنحاء شبه جزيرة البلقان ، وتنبأ فريق بأن ذلك قد يحمل بعض دول أوربا الكبرى على خوض غمراتها ، فيكون اذ ذاك من جناتها وكماتها ، وفي ذلك من الويلات والمصائب مافيه . على ان هذا الفكر والذهاب اليه ليس من باب الحدس والتخمين ، ولولا حلم الدولة الدستورية الجديدة وأناة الامارة النزقة لحمّ الامر وجف القلم ، ولكنا الآن نكتب بدل هذه الكلمات اخبار الفلج والخذلان

عظم على العثمانيين صنع بلغاريا والنمسا واستغرب صدوره آخرون ، على أنه لامحل للغرابة فان بلغاريا تحفز لهذا الامر منذ أمد بعيد ، وإنما دعاها الى التسرع ماتتوقعه من سيدتها (الدولة العلية) إذا هي استجمعت قواها ومضى عليها نصف عقد من الاعوام وهي دستورية حرة ، فانها اذ ذاك تخشى أن تعبث بحقوقها وتستهين بسيادتها فأسرعت الى اعلان استقلالها وهي تكاد لاتتوقع من وراء ذلك الا احتجاجا يتلوه سكوت ورضى ، لانها مستيقنة بأن رجال الدولة العقلاء لايرون من الصواب الدخول في حرب اقل ماتخشى فيها من الخسار ان تنقلب الحال الى ما كانت عليه — لاقدر الله — وفي ذلك البلاء الجم والمصاب الصم

إن استقلال بلغاريا يتألم له العثماني الصادق ولكنه ليس مما يؤبه له في الحقيقة

فان بلغاريا قد استقلت فعلا في أيام حكومة الجواسيس الخائنين ، فليس من الكياسة ان يجعل استقلالها قولا من المصائب التي نزلت بالعثمانيين ، على اننا ربما نال شيئا من حقوقنا التي اغتصبتها من قبل بسبب هذا الاستقلال

الا أن صنع النمسا لهو شر صنع يقع أو يتصور ، وشر منه أقوالها بعد وقوعه ، ومن العجيب أن يكون القول انكى من العمل !

لم تكد هذه الدولة النهمة تعلن الحاق هاتين المقاطعتين بمملكتها حتى قام العثمانيون من سائر النحل والملل في كل أرض يتبوأونها يعلنون استياءهم واستهجانهم عمل النمسا ، وعز عليهم أن تؤذيهم بالفعل وأن يؤذوها هم بالقول فصمموا على الاعراض عن مشترى سلعها ، وهذه الحرب الاقتصادية — كما يسمونها — من أجمل ما تحارب به أمة عدوا لها ولا سيما إذا كان هذا العدو كالنمسا : أمة تجارية بحتة . ومن دلائل الحياة في الامة العثمانية اجماعها على ذلك في جميع بلاد الدولة ، فقد كانت البواخر النمسية تغادر الاستانة كما تغادر بيروت ويافا واللاذقية وغيرها من دون ان تأخذ شيئا أو تعطي شيئا حتى أضبارات البريد ، وغلا كثيرون في ذلك فطفقوا يمزقون ما لديهم من الملابس النمسية على كونها — حال تمزيقها — ملكا لهم !!! وكان لمصر وغيرها من مدن القطر حظ من هذا العمل ، فكان لمجموع هذا الاعراض أو المقاطعة — كما يقولون — تأثير شديد في معامل النمسا ومصانعها حدا بالاكثرين من اصحابها الى مخاطبة حكومتهم ناعين عليها ذلك الالحاق ، الذي يخشى ان يؤدي الى إملاق أي إملاق ، فما كان من هذه الحكومة المنصفة (؟) الا أن أوعزت الى معتمدها في الاستانة بأن يحتج على حكومتها !!! طالبا منها حمل رعيتها على نبذ المقاطعة ! ! !

هذا هو القول الذي قلنا عنه فيما تقدم انه انكى من العمل ! أليس من الاعاجيب ان تقرر النمسا في دارندوتها الحاق بوسنه وهرسك بمملكتها وسلبا من الدولة العلية جهارا وتحظر على الامة العثمانية أن تسير وراء ميولها ورغائبها ؟ ان من المتعذر على دولة مستبدة ان تحمل رعيتها على مشترى سلعة دون أخرى قسرا فكيف يكون ذلك ميسورا لحكومة دستورية ؟!! ان في هذا لمواطن للعبر ومواضع للتذكير فهل من معتبر أو مدكر !!

حسين وصفي رضا

مجلة

المنار

المجلد الحادي عشر

الجزء الحادي عشر والثاني عشر

إهداء من



تابعوا ...



طبعة دار الوفاء
للطباعة والنشر

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

{ مصر — الخميس ٣٠ ذي القعدة ١٣٢٦ — ٢٤ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٠٨ }

الاسلام والمدنية الحديثة (*

﴿ هل يتفقان ؟ ﴾

اني اخترت موضوع البحث في الاسلام لاول مرة في مؤتمر أفريقية الشمالية لسببين: الاول ان المسألة الاسلامية هي مركز دائرة جميع المسائل في أفريقية الشمالية وذلك لان هذه المسألة مهمة في أفريقية أكثر منها في البلاد الاسلامية الاخرى اذ كان بين الاسلام والنصرانية على شواطيء البحر الابيض المتوسط نضال قديم وما زال أثره باقيا في القلوب . والثاني لأ ننا نحن الفرنسيين نعيش مع المسلمين في تونس والجزائر ونحن مضطرون الى الاختلاط بأهلهما لارتباطنا معهم بمصالح دائمة

ان الهند الانكليزية فيها زهاء أربعين مليونا من المسلمين ولكن الانكليز لايختلطون بهم اختلاطا دائما وفي مصر وهي أكثر بلاد الاسلام مدنية لايختلط الانكليز كذلك بأهلها اختلاطا يفضي الى الاستعمار الحقيقي والاوربيون لايقطنون سوى المدن الكبيرة وليس لهم من العلاقات مع سكان القرى ما للمستعمرين منا مع العنصر الوطني في مستعمراتنا الافريقية على ان المسألة الاسلامية يجب أن تتقدم على غيرها من المسائل الاخرى التي يبحث فيها المؤتمر بقطع النظر عما تقدم

لايكون الاستعمار موطد الاركان قائم البنيان الا اذا أمكننا الوصول الى طريقة تجعلنا على صفاء ووداد مع أهل الدين الاسلامي الذي يربط الامم المختلفة الاجناس والمشارب المنتشرة بين المحيط الاطلانطيقي وخليج قابس

---

*) خطبة لموسيو رينيه ميليه القاها في مؤتمر أفريقية الشمالية المنعقد في باريس من عهد قريب ونشرت في المجلة الاستعمارية الفرنسية وترجمتها بعض الجرائد المصرية بالعربية فآثرنا تلخيصها لقراء المنار لما فيها من الحقائق والانصاف

ويجب ان نضيف الى هذا الاعتبار اعتبارا آخر أكبر منه شأنا وأعم فائدة وهو أن ظنون الغربيين بالامم الاخرى قد بدأت تتغير تماما وأذكر انني كنت أسمع وانا يافع ان الامم الآسيوية لاتقوم لها قائمة وانها ستبقى رازحة تحت اعباء الانحطاط والجمود ، وفي الغالب كانوا يلصقون التهمتين معا بها على مافيهما من التناقض اذ حينما توجد حركة تأخر لابد وأن تتبعها حركة تقدم . وقد كان من الامور التي لانزاع فيها ان الصين أمة جامدة وان اليابان أمة ليس لها الا مدنية سطحية وان الهند لايمكن أن تصلح شؤونها وكانوا يتهمون الاسلام بهذه التهم نفسها وان الذين هم في سن موافقة يذكرون ان الغربيين كانوا يرددون نظرية مؤداها ان المسلمين في جمود تام بسبب اعتقادهم في التوكل والقضاء والقدر ولست في حاجة الى القول بأن هذه التهم التي كانت تجسمها كبرياء الغربيين قد تبين فسادها فان المدافع التي أطلقت في موكدن دوت في أقاصي آسيا وأصبحت الامم التي كنا حكمنا عليها بالموت والجمود يقظة نامية سواء كانت في الصين أو الهند الصينية أو الهند الانكليزية أو في ايران التي أخذ أهلها يطلبون دستورا وهاهي الاستانة ظهرت فيها حركة أهلية أدهشت العالم بأجمعه وما كان يخطر ببال طلبة مدرسة العلوم السياسية انه سيطرأ تغيير على برنامج دراستهم وهو الامر الذي أصبح لابد منه الآن بعد ان تغيرت المسألة الشرقية ودخلت في طور جديد

واننا ازاء هذا الانقلاب الذي حصل لانجد بدًّا من التساؤل عن الجمود الذي وصفوا به الاسلام اذ قد يكون شبيها بتهمة الخمول التي ألصقوها باليابان ومالبثت أن اضمحلت وظهر بطلانها !!

واني لا أريد ان أذكر انتشار الاسلام لانه هو الدين الوحيد الذي ينتشر ويزداد أهله بسرعة في آسيا وافريقية على حين ان الاديان الاخرى بقيت واقفة عند حد محدود لاتتجاوزه البتة وقد أصبحت هذه المسألة لانزاع فيها ولكن ماذا تقولون اذا أثبت لكم ان الاسلام شرع يطبق العلوم الحديثة ويستفيد منها ومن ذلك انه أنشأ بقوته الذاتية وبالمهندسين المسلمين ذلك الخط الحديدي العظيم المتدين دمشق

والمدينة المنورة الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلومتر!! وماذا يقول اليوم فطاحل الفلاسفة الذين قالوا ان أهل الاسلام مصابون بنوع مخصوص من أنواع مرض النوم ؟ ماذا يقولون الآن اذا علموا أن المسلمين تبرعوا بمقدار ثمانين مليوناً من الفرنكات مما أنفق عليه ؟

وان لفرنسا فائدة كبرى بالاشتراك في هذا البحث العظيم

فاذا كانت مدنية الاسلام هي تلك المدنية الجامدة المزعومة فيجب علينا اذ ذاك أن نعامل هؤلاء المسلمين الذين نحن مرتبطون بهم بسياسة الضغط والشدة خلافا لما جبلنا عليه من انعطافنا لجميع الناس ازاء مايبدو من حركاتهم أو يظهر فيهم من روح الحروب الصليبية التي بقيت بكيفية غريبة كامنه في صدور المسلمين حتى البعدين عن الدين منهم (؟) ومن الامور المدهشة أن الانسان قد يلاقي في فرنسا أناسا مازالوا محافظين على بقية من أوهام الحروب الصليبية ضد المسلمين

وأما إذا اعتقدنا في الحركات التي تجلت في كل مكان عكس ذلك فمن الواجب أن نمد أيدينا بحرية الى شعوبنا الاسلامية ونقودها معنا في طريق المدنية وهذه النقطة هي التي أريد أن أبحث فيها اليوم أمامكم

ان امامنا طرقا لحل هذه المسألة الكبرى

فمنها الطريقة التي يمكنني أن أسميها الطريقة المباشرة وهي أن نفتح القرآن وكتب السنة ونستخلص منها النصوص التي تثبت أن المؤمنين الصادقين في كل عصر يعشقون العلوم ويقبلون عليها . منذ عهد غير بعيد جاءني كتاب من أحد المسلمين الجزائريين وهو السيد عبد السلام بن شعيب فرأيت فيه بعض تلك النصوص مثل « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها انى وجدها » و « اطلبوا العلم ولو بالصين » وغير ذلك من الآيات والاحاديث والآثار

هذه الطريقة تصلح لاقناع قومنا بان الاسلام يحث على العلم ولكن هناك عقبتين تقفان في سبيل نجاحها (الاولى) انني وزملائي الذين يدافعون عن الاسلام لسنا بحجة في تفسير الآيات والاحاديث واستخلاص المبادئ الاسلامية الصحيحة

منها (والثانية) ان المتدينين لا يتبعون دائما ما ترمي اليه نصوص دينهم بل كثيرا ما يحيدون عنها ويأخذون بأقوال الفقهاء والشراح الذين يذهبون في أقوالهم كل مذهب فلا يكفي أن ينص الدين على شرف العلم ليكون أبناء ذلك الدين راغبين فيه مقبلين على تحصيله

وهناك طريقة أخرى وهي الطريقة التاريخية :

في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالاسلام هو في درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره فلو عرفنا كيف كانت حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش

ان الذي ساعد الاسلام على الانتشار هو ماقرره الامبراطور بيزانطين في القرن الثالث للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة وقد جر هذا القرار على الدولة البزنطية من المشاكل أعقدها .

ولقد كان الدين الروماني القديم دين حكومة أيضا ولكنه كان دينا يبتلع الديانات الاخرى بمعنى ان روما كانت كلما تغلبت على أمة جعلت آلهتها آلهة لروما .

وبخلاف ذلك كانت الحال في بزنطية ومنذ اليوم الذي استخدم فيه الامبراطور السيف لنشر الدين انفتح في وجه الدولة البزنطية باب الآلام والهموم ولو أعدتم النظر في تاريخ القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح لوجدتم الاباطرة متوفرين على توحيد الدين وموجهين اليه كل قوى الدولة وفي ذلك كان تضعضع ملكهم وانقراضه . فكم أهرقت دماء في سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية وكم من مقاطعة ضيعها الامبراطور على أثر كل قرار كان يصدر من مجمع « نيقة » ! !

وان مسألة طبيعة المسيح أو مسألة الاقانيم التي نعتقدها الآن بكل سكينة واطمئنان قد سالت من أجلها دماء غزيرة ونشأت من الجدال فيها حروب هائلة — هذا وإنه قد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين انها غفلت عن احتياجاتها الاولية فاحترمت الصوامع ورفعت عن أهلها الخدمة العسكرية وعافتهم من دفع الضرائب

فلم يكد يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة في غاية الضعف وملئت جوانبها بالخلافات الدينية

إذاً فما هو الاسلام ؟ الاسلام دين جاء بخلاف كل ذلك فقد اعتاض عن تعدد درجات الادارة بسلطة واحدة يرجع اليها الحل والعقد في كل الامور ولم يقر شيئاً من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب ولم يسن نظام الصوامع وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة مستفيضة بين المسيحيين في ذلك العصر وقضى أيضا على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة معا و بالجملة فقد أتى الاسلام بنظام مضاد للنظام المسيحي في ذلك العهد ملائم لحاجات الناس وهذا هو سر غلبته على الدين المسيحي

ثم ان الاسلام ارجع الدين الى حاله الطبيعية ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية بل قال بكل وضوح « لا إله إلا الله » و بذلك خلا الاسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الاوربية والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البزنطية

وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين لا يطلبون منهم الا ضريبة يستعينون بها على اصلاح شؤونهم وشؤون الدولة الاسلامية ولقد بلغ الامر بأحد الولاة الى تثبيط دخول الذميين في الاسلام بدلا من أن يرغبهم فيه أو يكرههم عليه لان اسلامهم يقلل من دخل بيت المال

ومن هذا الوصف التاريخي الموجز يمكنكم ان تتصوروا كيف نضبت ينابيع الحياة في الدولة البزنطية وانتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتقشف مع انها لم تقلل من فساد الاخلاق — ويمكنكم ان تدركوا كيف ان التبعة الآسيوية اعتبرت ظهور الاسلام ايذانا بنجاتهم وسعادتهم .

وأذكر أني أيام كنت أدرس تاريخ الاسلام كان الاساتذة يقررون سرعة انتشاره من دون ايقافنا على أسبابه، وغاية ما كانوا يذكرونه هو ان طبيعة العرب طبيعة

حربية وان خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها !! مع ان الحقيقة ان الفتوحات العربية كانت على الغالب الا ان العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لاتثقل الجندي المجاهد ثم انهم فوق ذلك أتوا متشبعين بروح التسامح وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وأفريقية ونصف أسبانيا .

واذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الاعمال الجليلة .

أتى العرب بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم واني ليخيل إليّ انه كانت على أبصار مسيحيي القرون الوسطى غشاوة من تنسك منعتهم من إدراك الاشياء على حقائقها

وقد جاء العرب في الوقت نفسه بمبدأ في البحث جديد مبدأ يتفرع عن الدين نفسه وهو مبدأ التأمل والبحث .

ثم هل تعرفون بأي كتاب من كتب العهد العتيق كان يتعلق المسلمون ؟ كان اهتمامهم بكتاب ارسطو أكثر منه بخيالات أفلاطون، نعم كان كل اهتمامهم بكتاب ذلك الحكيم المدقق وواضع أساس العلم في الحقيقة ثم انهم مالوا الى الاشتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء وقد وجد فيهم كبار الاطباء — ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء المجيدون الذين قالوا شعرا اذا وصفناه بانه أرضي فذلك لانه قريب من العقول يغذيها وينعمها وانه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة فأين هذه الحياة من تخبط الغرب المسيحي في تماثيله وأوهامه وانزوائه !!

هذا واني لا أطيل القول في الشيء المشهور من أن الحضارة العربية بلغت شأوا عظيما في بغداد وقرطبة وانما يسرني ان أبحث في أسباب هذه المدنية الراقية وحدودها

واليكم أول ما يتبادر الى ذهن الباحث النزيه وهو ان الاسلام أعطى أشهى ثمرة لما سرت اليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب .

ففي بغداد استفاد الاسلام قوته السياسية من تلك المدنية الفارسية التي قاومت عوادي الزمان والتي نشأ فيها من الفلاسفة والعلماء عـدد عظيم وكذلك في أسبانيا حصل تمازج بين الروح الاسـلامية والروح اللاتينية وسأبين لكم الآن ان افتراق هاتين الروحين كان وبالا عليهما معا

كان الباحثون في الاسلام يعتقدون ان الدين نظام كامل لايتبدل ولايتغير فيكفي ان يدرس مستقلا عن كل عامل أجنبي عنه للوقوف على قيمته ولكن الحقيقة ان كل دين يستمد جل قوته من العوامل الاجنبية التي كان له معها شأن ومن مقدار قبول الدين نفسه لتأثير هذه العوامل . وان لي كلمة على دولة الاسلام في الاندلس التي فتحها مسلمو افريقية الشمالية : انظروا الى قرطبة تلك المدينـة التي سقطت الآن الى حضيض الهوان والفقر وانظروا اليها لما كانت في عهد الدولة العربية عامرة آهلة يبلغ عدد سكانها زهاء خمس مئة ألف نسمة وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد منازلها مئة وثلاثة عشر ألفا عدا ثلاث مئة من الحمامات العامة ثم اذا أردتم أن تقفوا على اخلاق أمراء المسلمين في تلك الدولة ودرجة آدابهم ورقيهم فاليكم صورة الوصية التي تركها عبد الرحمن الاول أحد خلفاء قرطبة لابنه وقـد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التي تتعلق بتاريخ الاسلام في اسبانيا :

« اعلم يابني ان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء فاحمد الله على ان وهبنا ملك الاندلس ، فعليك بتقوى الله وطاعته ، واعمل خيراً مع الناس كافة وخصوصا أولئك الذين وكل الله شؤونهم اليك ، وساو في حكمك وقضائك بين الفقراء والاغنياء ولا تول أمور الناس الا من عرفت فيهم الحكمة والخبرة ، وعامل جندك بالشدة واللين معا ليكونوا حماة الدولة لا عونا للظلمة من الحكام . وواجب عليك أن تظل الزراع بحمايتك ، وأن تودهم بمونتك ، لانهم مورد حياتنا واحرص على محبة الرعية لك وتعلقهم بك . . » الخ

اني أود أيها السادة أن أسمع مثل هذه الوصية من رئيس وزارتنا في زمننا هذا ولا أفكر في وصف ما كان يجري في بلادنا في القرن العاشر أي العصر الذي

قال فيه الخليفة عبد الرحمن هذا القول لاني أخشى أن تتهموني بعمل مقارنة تشوه سمعة العالم المسيحي وتظهره بمظهر مخجل

لبثت هذه المدنية التي أتت بالمدهشات والتي لايزال الناس في حيرة من أمرها زاهية زاهرة ثمان مئة سنة . فتح العرب الاندلس في سنة أو سنتين ثم لم تنتزع من أيديهم الابعد ثمانية قرون من حكمهم . أليس ذلك مما يدعو الى العجب واذا أضفنا الى هذه المدة المئتين أوالثلاث مئة سنة التي اتسعت فيها دولة الاتراك وبلغت شأوا بعيداً من العظمة الحربية علمنا ان الدول الاسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريباً وهي مدة تناهز عمر الدولتين اليونانية والرومانية

ولكن ثمة أمرا يرتبط بالموضوع الذي نبحث فيه الآن (موضوع التوفيق بين المسلمين) وهو نتائج ماجرى في القسطنطينية وما جاورها من شواطيء البحر الابيض وفي الاندلس من تعارف الاسلام والمسيحية وتآلفها

ابتدأ هذا التعارف في الاندلس بعد فترة قصيرة من الفتح الاسلامي ولا يفوتنكم أن مايرويه القصاصون من الجهاد بين النصارى والمسلمين في اسبانيا لا يطابق الحقيقة في جملته لانهم يمثلون «السيد» في قصة الفيا (كورنيل) بطلا مقداما أعده قومه لمجاهدة الكفار (يريد المسلمين) في حين ان الحقيقة هي ان هذا البطل انما قدم نفسه لخدمة المسلمين وحارب في صفوفهم ومات وهو بين المسلمين يحارب اعداءهم . إن المستقريء لاطوار العلاقات بين النصارى وأمراء الاسلام في الاندلس يعلم ان الامراء المسيحيين كانوا يستشيرون اطباء المسلمين اذا أصابهم أو أصاب أبناءهم مرض وكثيرا ماكانوا يفدون الى قصور الخلفاء ويقيمون بها حتى يتم شفاؤهم فترون أيها السادة ان هذه العادات تناقض بتة مايرجف به القصاصون من خرافة الحرب الصليبية الخالدة بين النصارى والمسلمين

لقد لزم مسلمو الاندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى في الدور الذي

اضمحلت فيه دولتهم وأخذ أعداء المسيحيين ينقصونها من أطرافها فاذا اتيح لاحدكم أن يتجول في انحاء اسبانيا الآن يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك وعلى بقايا ما شيدوه في دور اضمحلالهم ليستخلص من دراسة تلك الآثار ان الاندلس كانت بلاد غنى ورفاهة حتى في دور تضعضع سلطان المسلمين ويدهش من أنها كانت في ذلك العهد أيضا بلاد تسامح وتساهل .

في هذا العهد كانت دولة غرناطة زهرة أوربا وكان كل من يريدون أن يستنشقوا نسيم الحرية الدينية يذهبون الى تلك البلاد فارين من البلاد التي كان يحكمها الامراء المسيحيون وهي مهد القسوة والظلم هنالك يعاقب الامراء من يأسرونهم في ساحة الحرب بالقائهم الى كلاب مفترسة تمزق أجسامهم إرباً إرباً

لم يكن ذلك مقصورا على الاندلس بل كان بين المسلمين والمسيحيين علاقات متينة محكمة لبثت من انتهاء الحروب الصليبية الى فتح القسطنطينية . فانكم تعلمون أيها السادة ان عظمة البندقية وجنوه في العصور الوسطى راجعة الى تجارتهما مع الشرق وتعلمون مااستفدناه من احتكاكنا بالمسلمين اذ ذاك فقد كان لنا كثير من البيوت التجارية في فلسطين وسوريا واليونان ولا يخفاكم ان من أسعدهم الحظ من الغربيين بازدياد احتكاكهم بالمسلمين كان يسري اليهم كثير من عاداتهم وأخلاقهم الشريفة حتى قلقت الكنيسة الكاثوليكية على أبنائها من سريان روح الاسلام اليهم ونظرت بعين الخوف الى تنازع المبادىء الاسلامية والمسيحية وخصوصا الى مبدأ التسامح الذي كان آفتهم وعدوهم اللدود ! !

هذا وان هناك حقيقة يجب أن نبينها وهو انه في هذه الفترة التي تعارف فيها المسلمون والمسيحيون أي من انتهاء الحرب الصليبية الى فتح القسطنطينية، في هذه الفترة التي تعارفت فيها المدنيتان المسيحية والاسلامية ـ كان الاسلام هو العنصر المؤثر والعالم الاوربي هو العنصر المتأثر ، فكانت أوربا تجلب من المشرق كل ما كانت تحتاج اليه من المصنوعات والمنسوجات وضروب الرفاهة حتى لم يعد في امكانها ان تدفع ثمن كل ما تشتريه، ومن ذلك تعلمون ان سبب اندفاع امراء أوربا في

سبيل اقتناء الذهب بأية وسيلة راجع في الاكثر الى فقر أوربا واعوازها من الحاصلات التي تتبادلها مع تجار المشرق

هذا من جهة الماديات وأما من جهة العلوم والآداب فان أوربا لبثت ثلاث مئة سنة تقتبسها من الاسلام وكانت المدنية العربية تجني ثمارها اليانعة

ولكن حادثين عظيمين أوقفا سير ذلك التيار الكهربائي الذي كان يحيط بالبحر الابيض المتوسط وهما : استيلاء الاتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ واستيلاء الاسبانيين على غرناطة سنة ١٤٩٢

فمن ذلك اليوم قامت حرب الاحقاد الدينية حتى انك ترى آثار التعصب الاسباني في تاريخ عرب الاندلس كالنقطة السوداء في الصحيفة البيضاء الناصعة ولاسيما في ذلك الوقت الذي حالف فيه الامير يوسف جماعة القسيسين . وفي رأيي ان تعصب الاسبانيين كان أفظع وأقل عذراً لانه جاء في زمن كانت القوة والمدد لهم . وان الاستيلاء على غرناطة الذي يفتخر به الاسبانيون والذي يحسبونه يجمل عصر فرديناند وايزابلا لم يكن في الحقيقة الا عملا وحشيا بربريا لم أعهد في التاريخ أقبح منه ، خصوصا وان امارة غرناطة لم تكن لتهدد أسبانيا في شيء لاستيلائها على ما حواليها من الاراضي والمدن ، وانما كانت غرناطة عروس أسبانيا وزينتها — ولا بد ان يكون الاكليروس الاسباني أو الطليطلي رأى ان يمحق هذا الجمال ويزيل المدنية البديعة خدمة للمسيحية والمسيحية بريئة منه .

والأدهى من ذلك ان المسيحيين كانوا أعطوا وعودا قبل الدخول ولكنهم أخلفوها وجمعوا الكتب الجليلة وأحرقوها فتلذذوا بمنظرها وظنوا أنهم بعملهم هذا قد قضوا على دين المسلمين وآدابهم . ثم إنهم أمروا المسلمين أن يدخلوا في المسيحية كافة ولما لم يجابوا إلى طلبهم جمعوهم زمرا زمرا وحبسوهم في غرف واسعة ورشوهم بالماء اشارة إلى تعميدهم وتنصيرهم ! — ثم لما رأوا أن هؤلاء المسلمين المتنصرين لا يزالون يفتنون طمعوا في أموالهم وصاروا يظلمونهم من آن لآخر . ومن ذلك ما وصل الينا من أوامر فيليب الثاني التي يحرم عليهم فيها لبس الثياب العربية واستعمال

اللغة العربيـة والاستحمام في الحمامات العامة والسبب في هـذا الامر الاخير ان الكنيسة الاسبانية كانت ترى الاستحمام جرما لا يغفر !!!

ولقد زرت غرناطة ورأيت آثار تلك الحمامات المحكمة البناء البديعة النقوش التي أمر فيليب الثاني بتهديمها حقدا منـه على المسلمين ومطاوعة لاعتقاد الكنيسة الاسبانية انها مأوى الشياطين !! . في هذه الحمامات كان العرب يتنظفون وبهـا يتطيبون مع اننا نلاقي مصاعب عظيمة في تعويد بني وطننا على عادة الاسـتحمام النافع وانكم تعلمون كيف طرد المسلمون المجـبرون على التنصر من وطنهم سـنة ١٦١٠ ثم كيف خانهم أصحاب السفن فألقوا متاعهم في البحر وأنزلوهم في أرض لا أنيس بها .

وبذلك انقلب الاسـلام المتمدن بربريا نعم لما انفرد الاسـلام بنفسه بينما كانت أوربا تخطو خطوات واسعة وترقى درجات عالية أصبح كشجرات الزيتون المشوهة التي نراها في جبال تونس فهي غليظة الجزع ولكنها تثمر ثمارا غير جيّدة

هذا ولا تظنوا ان أوربا لم تتأثر من مفارقة المدنية الاسلامية فانها بدأت تشعر اليوم بالنقص — ثم هل نحن في حاجة إلى بيان ما وصلت اليه أوربا من الرقي وما انعكس من تقدمها على البلاد الاجنبية ؟

الا أنها في علاقاتها مع الاجانب عنها كانت فظة غليظة القلب ويكفي أن أذكركم بفظائع دخول الاسبانيين أمريكا لتتبينوا بأنفسكم قيمة المسيحي أيام طرد العرب من أسبانيا ولقد ضاع رشـد الاسباني حتى لم يعد يدرك معنى الحياة فيقود الامم الاجنبية .

ولو أنكم تطالعون تاريخ الاستعمار في القرنين الاخيرين لتمثلت لكم روح الظلم والعدوان ولرأيتم ان اتساع سلطة أوربا وانتشار نفوذها انما كان باسترقاق السود وتعذيبهم ولرأيتم ان غرضها إنما كان جمع المال لاتتحرج من اتيان الشر والاعتساف كل ذلك جاءها من مغادرة الاسلام لها وافتراقه عنها — ولقـد بلغ من غلوها فى الظلم والاعتساف أنها رأت في بعض الاحايين أنه لا يستقيم لها بلد الا اذا استأصلت أهله وأهلكتهم وهكذا فعلت انكلترا في أمريكا

ثم ان براعة الاوربيين قد ظهرت في المسائل المادية فترقت العلوم والفنون والصناعات بين أيديهم . ثم انهم تحملوا المشاق وقاموا بالاعمال الجسام ولكنهم عجزوا في كل وقت عن أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدنيتهم وأن يقفوا على كنه عقول ليست من عقول اخوانهم في الجنس وقد أدركوا اليوم ضلالهم في خططهم الاولى وشرعوا يتلمسون خطة جديدة غايتها تقدير نفوس الاهلين الاصليين ومعرفتها معرفة صادقة

فهذا التفسير التاريخي كاف لايقافكم على أسباب ارتقاء الاسلام تارة وأسباب أفول نجمه تارة .

اني أيها السادة أتبع في بحثي هذا الطريقة التاريخية فلا أقصره على الوجهتين الدينية والفلسفية لاننا اذا قصرنا ابحاثنا على ذلك انسد أمامنا مجال البحث وعجزنا عن الوصول الى حقائق الاشياء فجدير بنا اذن أن نتتبع الادوار التاريخية التي مر بها الدين لنعرف طبيعته واستعداده للارتقاء

ان لنا أن نحكم على بعض الاجناس من البشر بانها لا تقبل الارتقاء والمدنية ولكن اذا رأينا أمة كان لها في خلال العصور مدنية زاهية زاهرة فمن الظلم أن نحكم على تلك الامة بالسقوط الابدي وباستحالة يقظتها وارتقائها لان الامة التي أمكنها أن تنهض في وقت ما يمكنها أن تعيد عهد نهضتها في المستقبل

يقولون ان عقيدة القضاء والقدر هي السبب في استحالة ارتقاء المسلمين ويهمني أن أتناول في بحثي هذه المسألة التي طال عليها القدم والتي قال العلماء وكتبوا فيها كثيرا . أليس فيما يقولونه عن هذه العقيدة شيء صحيح ؟ وما هو تأثير تلك العقيدة التي يفهم الناس منها انها تحمل صاحبها على الاستسلام للحوادث من غير ان يبدي مقاومة ما ؟

الا ان مبدأ القضاء والقدر لم يختص به الاسلام بل قررته المسيحية بصفة اوضح وأجلى فاذا قلنا ان سبب انحطاط المسلمين تقرير دينهم لهذا المبدأ فماذا نقول عنه في المسيحية ؟

ان لكم ان تسألوني لماذا لم يؤثر هذا المبدأ في أبناء المسيحية وانى أبدأ الجواب بقولي ان هذا المبدأ مبدأ الاستسلام للحوادث قد كان له أثر فعال في حياة المسيحيين فترة من الزمن ولكني أجيب عن هذا السؤال متبعا الطريقة التاريخية التي توخيتها في هذا البحث وهي ان كل دين لا يثمر ولا تبدو نتائجه من نفسه بل لا تظهر قيمته الا بعد ان ينتحله شعب من الشعوب

فالمسيحية ظهرت في ربوع الشام تلك البلاد الغنية الجميلة ولكن انتحلها اقوام أشداء بعيدون عن طور الحضارة في بلاد ذات هواء قاس تحدو بأهلها الى اجهاد أنفسهم فلم يأخذوا من المسيحية الا ما يلائم طباعهم ويتفق مع اخلاقهم الشديدة وكذلك كان الامر في الاسلام إذ لم يعرف المسلمون الاولون الاستسلام للحوادث، بل كانوا لا يتركون من يعتدي عليهم من غير أن يثأروا منه لانفسهم وتلك كانت حالهم في زمن الفتوحات فلما سرى اليهم الضعف والانحلال أصبحوا قوما جبريين يتركون المصائب تنزل بهم وتعمل فيهم ولا يقدرون على الخلاص منها مكتفين بالتسلي وقولهم « كل ذلك كان في الكتاب مسطورا » فالمبادئ الدينية تفسرها الامم بحسب ماتوحيه اليها طباعها وأخلاقها فتأخذ اشكالا متباينة ولذلك تكون في عصر ما سببا في ارتفاع الامة وفي عصر آخر عاملا من عوامل انحطاطها

أفل نجم المدنية الاسلامية بعد ما أثمرت واينعت فترة طويلة من الزمن ولكن هذه المدنية تكفيها نفحة من نسيم الحياة الجديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها

أيها السادة : اذا كان الاسلام قد أخطأ فخطؤه في تلك السذاجة التي اختص بها من دون الاديان والتي لم تأت على ما كان يقصد منها . لست ادري ان كان لنا أن نقول عن تلك الميزة انها خطأ فقد كانت في العصور الوسطى نعمة على المسلمين الا انها انقلبت ضررا فيما بعد

ان الاسلام لم يتوسع في مبادئه وقواعده ولم يحللها تحليلا يتناول أصول الاشياء وفروعها سواء كان ذلك في دائرة الفكر أو في دائرة العمل . انظروا مثلا الى نظام

الخلافة في صدر الاسلام : كان الخلفاء يقومون باعباء الخلافة كلها أو يسندونها كلها الى عمالهم في الولايات فلم يكونوا متبعين قاعدة تقسيم العمل في ادارة شؤون الدولة كما هي الحال في الممالك الحديثة بل كان الامير أو القائد البعيد عن رئيسه ينوب عنه في جميع مظاهر سلطته وهو نظام كامل في عهد الفتوحات والحروب ولكنه مستحيل اذا جاء طور الحضارة وتشعبت الاعمال فلا يعود في امكان فرد واحد ان يمثل السلطة العليا التي أنابته في فروعها كافة

واذا أردتم ان تقفوا على اضرار هذا النظام فانظروا الى الطريقة المتبعة الآن في مراكش لجباية الاموال والضرائب تجدوا ان وظيفة الجباية أشق الوظائف وأصعبها فان قائد الجند هو الموكل بالجباية ولا يمثل السلطان الا بقيادته الجيش ولذلك لا يمكنه ان يجبي الاموال الا اذا سار بجيشه نحو القبائل فيصادف كثيرا من المشاق والمتاعب في سبيل القيام بوظيفة نقوم بها نحن على أسهل الطرق لما لدينا من مصالح منتظمة تقيد فيها الحسابات فلا يحدث في الجباية ارتباك وتعقيد البتة

إني أذكر ان سلطان مراكش السابق قضى حياته في الحروب الداخلية قضاها على ظهر جواده متنقلا من قبيلة الى أخرى كل ذلك ليصل الى جباية الضرائب في حين ان الذين يقومون بهذه الوظيفة في بلادنا مثلا هم جباة من آحاد الناس يؤدونها وهم بمنجاة من التعب والنصب

فالطرق النظامية التي نتبعها لا تحتاج في جباية الضرائب الى ازهاق الارواح بل يكفينا ان نتبع الوسائل النظامية التي تتكفل القوة العامة بحمايتها وتحقيق غايتها

هذا هو خطأ الاسلام في دائرة العمل على أن هذا الخطأ — ان صح ان نسميه كذلك — ليس مما لا يمكن تداركه فان تلك الصبغة " العامة " اللينة " التي اتصفت بها مبادىء الاسلام هي التي جعلته يقبل ضروب المدنية ولا ينافيها بل يقابلها بصدر رحيب ولذلك ترون المسلمين المستنيرين لا ينفرون من النظامات التي أنبتتها مدنيتنا بل ترونهم يقبلون عليها ولا يجدون من دينهم حرجا في اتباعها

أما في دائرة الفكر فنقص الاسلام أمر واحد لم يحرم منه في عهد عزه بل في

العصور الاخيرة وهي طريقة التحليل العلمي طريقة توزيع العلوم حتى يسهل على كل فريق ان ينبغ فيما انتدب له وانه يحضرني الآن مثال على ذلك :

كنت منذ عهد بعيد مشتغلا بالبحث عن حال المسلمين الفكرية وأدى بي البحث مرة الى محادثة بعض علماء المسجد الاكبر في تونس . اجتمعت معهم خفية لان المسلمين والفرنسيين كانوا لا ينظرون بعين الارتياح الى التقرب بين زعماء كل من المدنيتين فقلت لاحد اولئك العلماء :

« كيف تفسرون ان كلياتكم كانت زاهية زاهرة في العصور الوسطى وانها أمدت أهل أوربا اذ ذاك بالعلوم والمعارف ثم اصبحنا الآن أعلى منكم كعبا في العلوم كافة — حاشا الدين — وسبقناكم في هذا الميدان بمراحل ؟

ان السبب الذي أراه هو أنكم متبعون الآن نفس الطريقة التي كنا نتبعها في القرون الوسطى ، انكم لا تتبعون نظام التقسيم في العلوم وتخصيص كل فريق بفرع منها بل يعمل كل منكم معتقدا أن في امكانه تحصيل العلوم كلها ، أما نحن فقد وصلنا الى درجة راقية في العلوم باتباعنا طريقة تحليل العلوم وتوزيعها وكما اننا أمكننا أن نخرج من حالتنا السابقة فيمكنكم أنتم أيضا أن تخرجوا من حالكم الحاضرة الى حال أرقى منها باتباعكم هذه الطريقة نفسها »

لقد شاهدت بنفسي أيها السادة أهل تونس يقبلون على العلوم الحديثة وآنست فيهم صفات ومواهب ساعدتهم على الارتقاء في هــذا المضمار . وكأن محادثتي مع علماء تونس وترغيبي إياهم في اتباع الطرق الحديثة لتحصيل العلوم دينية كانت أو غير دينية قد أثمرت وأتت بالنتيجة المبتغاة لانها حركة اصلاحية ابتدأت في تونس وسيكون لها مستقبل كبير .

أسست في حاضرة تلك البلاد جمعية بمساعي بعض التونسيين النيرين دعوها الجمعية الخلدونية نسبة الى المؤرخ المغربي الشهير عبد الرحمن بن خلدون وقد وجهت اهتمامي الى تأسيسها وأخذت أساعدها ورغبت رؤساءها في أن يقصروها على الاعضاء المسلمين وكان غرضي من ذلك ان أثبت درجة استعداد الاســلام لتلقي العلوم الحديثة وكفاءة المسلمين لتلقين اخوانهم ثمار هذه العلوم

ولقد سبقني الى هذا الموضوع الذي أخطب فيه الآن أحد علماء المسجد الاكبر وأحد أعضاء هذه الجمعية فطفق يسرد الادلة على اتفاق الاسلام مع المدنية الحديثة وعلى مقتضى آرائه في هذا الموضوع رسمت الجمعية خطتها ولا تزال تسير بمقتضاها الى الآن

ولا يفوتني أن أذكر لكم الصعوبات التي يلاقيها القائمون بالحركة الاصلاحية من أنصار القديم فانه وان كان أهل الرأي والبصيرة من المسلمين يرون اتفاق الاسلام مع فضائل التمدن الغربي سهلا فان هناك فريقا كبيرا يطعن على هذه الحركة ويحاربها . فكر أعضاء هذه الجمعية في تجنب الاندفاع في قلب نظام التعليم القديم فلم ينشئوا دار الجمعية في مسجد الزيتونة بل تركوا المسجد على نظامه وأقاموا بجواره هذه الدار . و إنما تركوا المسجد حتى لا يثيروا عليهم سخط الجمهور

حييت الجمعية وانتشر مبدؤها بالرغم عن المعاكسات التي اعترضتها في مبدأ أمرها لان كل اصلاح لا بد وأن يلاقي في طوره الاول معارضة ولقد كثر أعضاء هذه الجمعية وصار طلبة مسجد الزيتونة بعد أن يتلقنوا العلوم فيه على الطرق التقليدية يفدون إلى دار هذه الجمعية فيستنيرون بما يلقى فيها من العلوم الحديثة وان هذه الجمعية لا تزال في مهدها ولكن من المحقق أن سيكون لها في نهضة الاسلام يد طولى فيتحقق مبدأ القائلين : ان الاسلام لا ينافي المدنية .

بقيت مسألة جديرة بان نبحث فيها وهي ما يتخوفه بعضنا من قرب احداق خطر تيقظ المسلمين بنا . واني معبر لكم عن آرائي في هذه المسألة بالصراحة التي سمعتموها في جميع النقط التي تناولها بحثي اليوم

ان هناك أمرا يجب أن نقف على حقيقته وهو هل نقدر على ايقاف تيار هذه النهضة الاسلامية وهل في وسعنا أن نقضي عليها ؟

اعلموا أيها السادة ان هذه النهضة اذا قويت وكملت بعد أن كنا محاربين لها فلا بد أن تنقلب علينا وتتجه ضدنا وتتم على مالا نرضاه ومالا يتفق مع صالحنا البتة

ليست نهضة الاسلام بالامر الهين وليست الجزائر وتونس هما البلدين اللذين ينهض فيهما الاسلام بل هناك مصر التي حدثتكم عنها والتي خطت خطوة كبرى في نهضتها وهناك كثير من البلاد الاخرى التي حيي فيها الاسلام حياة جديدة

على ان هناك اعتبارا أشرف من هذا الذي ذكرته لكم يدعونا الى أن لا ننظر بعين الكره والسخط الى يقظة المسلمين وهو ان هذه الحياة الجديدة التي ابتدأ يسري روحها في العالم الاسلامي من شأنها أن تقرب بين العالمين المسيحي والاسلامي وتوفق بين المدنيتين الغربية والشرقية

يقول بعضهم : اذا كنا نفرض أن المسلمين يسيرون في طريق المدنية الغربية سيرا حثيثا فلماذا نعتبر أن ستكون هناك مدنيتان ولماذا لا تفنى المدنية الاسلامية في جسم المدنية الغربية مادام المسلمون يأخذون العلوم عنا ولان العلوم هي أساس كل مدنية ؟ على اني لا أشارك أصحاب هذا الرأي في رأيهم لان العلم له دائرة محدودة لا يتعداها وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات لها تأثير كبير في أحوال الشعوب وهذه المعتقدات هي دائرة الدين

ان الذين يقفون على الحركة العلمية في بلادنا يعتقدون أن العلم يعترف بوجود دائرة مجهولة لا تزال بعيدة عن مداركه فقد ابتدأ الفلاسفة والعلماء يوضحون تلك الحقيقة الثابتة وهي أن العلم مهما اتسعت دائرته فلا يزال أمامه عالم غامض ومهما استجلى العلم من حقائق ذلك العالم فستظل دائرة المجهول أوسع بكثير من دائرة المعلوم .

انه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الاديان على النفوس مادام عالم ماوراء المادة مكتنفا بالمدهشات وعلى ذلك فلا أرى حدا لبقاء الدين الاسلامي ذلك الدين الذي أتى بأحسن العقائد وأكثرها ملاءمة للفطرة والذي سعد حظه بان امتد ظله على ضفاف البحر الابيض تحت سماء صافية الاديم لم تتلبد بالغيوم كما تلبدت سماء بلادنا في الزمن السالف فظل نوره متلألئا في تلك البلاد المتنائية الاطراف ولم تقدر الحوادث على اطفاء ذلك النور الرباني الساطع

أيها السادة : ان مبـــدأ التفريق بين عالم المادة وعالم ما وراء المادة قد تبيّنه المسلمون فجعلهم يقبلون على علومنا ولا يرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح ولا أريد أن أتخذ من التونسيين برهانا على ذلك خشية أن يقال فيهم انهم انمـــا يتبعون الخطة التي نوحيها اليهم والتي تقصد منها إفراغهم في قالب فرنسي يتفق مع أغراضنا الاستعمارية . بل أقول لكم انظروا إلى الاتراك وكيف وفقوا بين الدين وجنسيتهم العثمانية فأظهروا بذلك ان الحكومة الاسلامية قابلة لمبـــدأ الجنسية وان مبدأ الدين فيها لا يمنعها من ان تصطحب مبادى حكوماتنا الحديثة

ان الحكومات الاسلامية لسعة مبادئها قابلة للتشكل باشكال مختلفة وهذا التشكل هو الكفيل بارتقائها . اتذكرون أيها السادة ماقاله الاقدمون في المسيحية؟ قالوا انها اذا ارتبطت بشكل الحكومة الملكية ولم تتحول عنه كان في ذلك القضاء عليها وكذلك الحال في كل دين من الاديان فلو ان الاسلام اتخذ شكلا من اشكال الحكومات وظل باقيا عليـــه لا يعدل فيه ولا يغـــيره لمات موتة أبدية وافضى ذلك الى ضرره وضررنا .

واسمحوا لي ايها السادة ان أختم كلامي بتذكيركم بتلك الكلمة التي قالها مسيو جونار حاكم الجزائر العام تلك الكلمة التي املتها الحكمة والدربة وهي : « ليس المقصود من الفتوحات مجرد الاحتفاظ بالبلاد بل هناك ماهو اسمى غرضا من ذلك وهو الاحتفاظ بالقلوب والارواح » .



الخطبة الثانية (*)

« من خطبنا في الديار السورية »

وهي من الخطب السياسية

أيها الاخوان الكرام

اقترحتم علي ان أقول شيئا في الدستور والاجتماع وماذا عسى ان أقول في موضوع قد تبارى فيه الخطباء الكثيرون من قبل فلم يدعوا لمن بعدهم مقالا ، ولم يغادروا لمن تأخر عنهم متردّما ، فرب فكر فيه أريد ان ألقيه عليكم ، فيخطر في بالي انه قد ورد على مسامعكم ، وجال في مجامعكم ، فيقف الفكر ، ويتلعثم اللسان ، ولكنني لم أحضر تلك المجامع ، ولم أسمع شيئا من تلك الاقوال ، فاذا قلت شيئا مما قيل من قبل ، فلي فيه شيء من العذر ، ورب مكرر يحلو ، ورب إعادة ، فيها افادة ،

المراد من الدستور ان يكون حكم الامة كأن تديره بيد من تختار من أفرادها ، لا بيد رئيس يستبد فيه برأيه ، ويتصرف فيها بهواه وارادته ، وان استبداد شخص واحد بأمة كبيرة لمن أعجب أمور البشر في طور الجهل والانحطاط

أتدرون ما هي القاعدة النظرية التي يبني عليها المستبدون هيا كل سلطتهم الجائرة ؟ هي ان الامة كالمجنون أو السفيه أو الولد القاصر الذي لا يحسن التصرف في ملكه فلا بد له من وصي يقوم بمصالحه ، وولي يتولى تدبير أموره !!!

---

*) بعد وصولنا الى طرابلس جاء أمير الالاي عبد الحميد بك وكيل قومندان موقع طرابلس العسكري مع وفد من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ودعونا لزيارة نادي الجمعية فذهبنا معهم وهناك اقترحوا ان نلقي عليهم خطابا في الدستور والاجتماع فارتجلنا خطابا نثبت هنا ما نتذكر من مسائله ولعله معظم كلياتها ولا نزيد شيئا الا ان يكون في العبارة كزيادة السجع دون جوهر المعنى

هذه النظرية باطلة من عدة وجوه ولكنهم يحقونها بالقوة : هل يمكن ان تكون الامة كلها جاهلة أو سفيهة كالطفل أو المجنون فلا يوجد في سوادها الكثير أفراد يصلحون لتدبير أمرها ، وإقامة العدل والنظام فيها بالشورى دون هوى الرئيس ، و يكون ذلك الرئيس الذي يدعي حق الوصاية عليها ، والولاية على جميع مصالحها ، هو الحكم العدل ، والعاقل الرشيد ، يأخذه عن آبائه بحق الارث ، كما يرث عنهم الولاية والملك ، ؟

كلا إن ذلك أمر غير معقول ، وحكم استبدادي غير مقبول ، المشاهدة تنقضه ، والتاريخ يفنده ، فقد قرأنا في سير الغابرين ، ورأينا في حال الحاضرين ، ان اكثر الملوك والامراء المستبدين هم أعرق أفراد أممهم في الجهل ، وأوغلهم في أفن الرأي ، وأشدهم فسادا في الارض ،

أي قاض من قضاة العدل حكم بجنون الامة أو سفهها ، ووجوب نصب فرد من الافراد وصيا عليها ؟ أي شرع يبيح للوصي ان يتصرف في حال السفيه أو القاصر تصرف المالك في ملكه ، ولمن كان في وصايته كثيرون ان يتبع في معاملتهم هواه ، فيمنع بعضهم من حقه ، و يعطي الآخر مالا يستحقه ، كما هو شأن الملوك والامراء المستبدين !!

ألا ان هؤلاء الادعياء في وصايتهم ، المعتدين في ولايتهم ، ليسيئون التصرف في ملك الامة وفي سياستها ، فهم قد جعلوا انفسهم أوصياء عليها بالقوة القاهرة ، و بالقوة القاهرة يمنعونها من التصرف معهم ومشاركتهم بالرأي ، بل يحولون بينها و بين معرفة ما تملك ، وما لها من حق الرأي والتصرف ، لتبقى عالة عليهم ، راضية ببقاء الامر فيهم ، ولهذا يمقت المستبدون العلم و يقاومونه اشد المقاومة ، وقد رأيتم ذلك في انفسكم فقد كنتم منذ اشهر تحرقون كتب العلم ، أو تدفنونها في حنادس الليل تحت الارض ، خوفا من زبانية الاستبداد أن تدمر على بيوتكم قراها ، فتنزل العقاب الشديد بمن اقتناها ، على انهم كانوا يعاونون الذين يهربون السلاح ، و يساعدون الاشقياء على إفساد الامن وهضم الحقوق ، فقد كان كل ذنب مباحا أو متساهلا فيه عند حكومتنا الماضية الا ذنب العلم واقتناء الكتب والصحف الحرة ، التي كانوا يعبرون فيها بالاوراق المضرة ،

لماذا ؟ لأنهم يعلمون ان الامة اذا عرفت حقوقها ، يوشك ان تجتمع فتطلبها من طريقها ، واذاً يحرمون من التمتع بذلك السلطان المطلق ، والتصرف بتلك القناطير المقنطرة ، فقد قال حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني : العاقل لا يظلم ولاسيما اذا كان امة

ما هو الطريق الذي تسلكه الامم لاسترجاع حقوقها المغصوبة من الملوك المستبدين ؟ ألا إنه لهو الاجتماع والتعاون : الاجتماع الذي تسوق اليه المعرفة ، والتعاون الذي يدعو اليه الشعور بالحاجة ، ومن هنا ننتقل الى الكلام على الاجتماع والجمعيات

الاجتماع على الحق قوة لا تعلوها قوة ، بهذا قد جرت سنة الله في خلقه وقد ورد في الحديث الشريف « يد الله على الجماعة » وهذا أبلغ تمثيل لعظمة هذه القوة ، وأي شيء أعظم قوة ممن كانت كلاءة الله ظلا ممدودا فوقهم ، وسنته في النجاح صراطا مستقيما أمامهم ، ألا ترون أن الحكام المستبدين يطاردون الجمعيات ويخافون منها ما لا يخافون من الجيوش المنظمة ، والاساطيل المدرعة ، لعلمهم ان الحق لا يغالب اذا وجد نصيرا . قال الاستاذ الامام « إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه »

ماذا أقول في بيان قوة الجمعيات ؟ هي التي قوضت حصون الظلم ، ودمرت هياكل الاستبداد ، وحررت الامم والشعوب من العبودية ، وشيدت فيها صروح العلم والمدنية ، وليس الشاهد والدليل على هذا ببعيد عنكم وانتم الآن في نادي شعبة للجمعية التي أسقطت سلطة الاستبداد في المملكة العثمانية ، وأدالت منها سلطة دستورية شورية ،

أرأيتم لو أن أحدا همس في آذانكم قبل ثلاثة أشهر وأنتم تئنون من ذلك الظلم الفاحش قائلا : ان نفرا من اخوانكم العثمانيين لا يتجاوزون عدد الانامل يجتمعون في حجرة لهم نوافذها مغلقة ، وستورها مسبلة ، يتخافتون بينهم في تدبير الحيل ، واتخاذ الوسائل ، لتقويض هيكل تلك السلطة الاستبدادية ، التي أوشكت ان تقضي

على الدولة العلية ، وإعادة الدستور العثماني ، وإحياء القانون الاساسي ، فما هو رأيكم في هؤلاء المجتمعين ؟ ألا يقول اكثركم انهم مجانين (مجانين مجانين) بلى ولكن قد علمتم الآن علم اليقين ان هؤلا النفر هم الذين قوضوا تلك السلطة الظالمة ، وقضوا عليها قبل أن تقضي هي القضاء الاخير على الدولة العلية ، فما الذي أقدر ذلك العدد القليل ، على إسقاط حكومة مؤيدة بجيش عظيم ، ومال كثير ، وألوف كثيرة من الاعوان والانصار ، القابضين على زمام الاحكام ، كانت ترتعد من ظلمهم الفرائص ، وتضطرب لتصور استبدادهم القلوب ؟ إليس هو الاجتماع للمطالبة ، والتعاون على استبدال العدل بالظلم ، ؟ بلى ولو كان أولئك الانصار الاخيار من اليائسين ، كما كان اكثر العثمانيين ، لما نالت الامة العثمانية هذا النصر المبين ، الذي كان موضع إعجاب الناس أجمعين ، حتى قال كثير من ساسة أوربا وكتابها انه لم يسبق له نظير في تاريخ البشر ، لان المعهود في التاريخ أن هذه الغاية لا تنال الا بعد ثورات داخلية ، وحروب أهلية ، بين أنصار الاستبداد والظلم ، وطلاب الدستور والعدل ،

الآن قد خطر في بال كثير منكم اننا قد نلنا هذا النصر بسيوف جيوشنا ، لا بتدبير أفراد من جمعياتنا ، نعم اننا لولا جيشنا الباسل لما عملنا الآن شيئاً ، ولكن لا ننسى أن جيشنا قد كان منذ كان حامي السلطة الاستبدادية ونصيرها ، وعونها على قهر الامة وظهيرها ، فما عدا مما بدا ؟ أليس قد اتحد بعض ضباطه اهل العرفان والحمية ، بأولئك المجاهدين في سبيل العدل والحرية ، فكان العلم والرأي هما القائدين للجيش ؟ بلى

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

نلنا الحرية والدستور وأصدر قاضي محكمة الاجتماع العليا حكمه ببطلان تلك الوصاية الاستبدادية ، والولاية القهرية ، واثبات رشد الامة وأهليتها للقيام بشؤونها ، والتصرف في ملكها ، ولكن هل رشدت الامة حقيقة وصارت أهلا للتصرف النافع الذي تحفظ به المصالح ؟ إن الحكم الصحيح في شأن الامة العثمانية عسير جداً. فانها على اختلاف شعوبها في الاجناس واللغات والاديان والمذاهب متفاوتة تفاوتاً عظيماً

في التربية والتعليم اللذين يؤهلان الامم للحرية والحكم الدستوري فتكون دستورية بطبيعتها لا مقودة الى الدستور بالسلاسل

إن مجموع الترك أرقى في هذه التربية من مجموع العرب، والارمن أرقى من الاكراد، والاستانة والولايات الاوربية، أرقى من الولايات الآسيوية، وولايات سورية وسط بين ولايات أوربا وبين العراق والحجاز واليمن، وانا نرى الاستعداد في سورية ضعيفا فماذا نقول فيما دونها ،فكرنا كثيرا ونحن في مصر لنختار من كل مدينة في سورية أفرادا من الاحرار الشجعان ليؤلفوا لنا شعبا لجمعية الشورى العثمانية فلم نعثر في أكثر المدن على من نثق بقبوله لدعوتنا ،ودخوله في جمعيتنا ،دخل في الجمعية رجلان من أهل بيروت كل منهما صديق للآخر ولم يكاشف احدهما الآخر بذلك الا بعد إعلان الدستور، وناهيكم بجرأة أهل بيروت

ان العاقل الراشد اذا منع التصرف في ماله بالقوة القاهرة وطال عليه الزمن وهو لا يعمل ثم أبيح له العمل وهو غير متمرن عليه يحار في كيفية التصرف ولا يسهل عليه ان يجري فيه على طريق السداد . وقد اهتدى الى هـذا المعنى أحد أغنياء بلادنا العقلاء (المرحوم محمد باشا المحمد) فقسم ثروته الواسعة في حال حياته بينه وبين أولاده ليتمرنوا تحت مراقبته على إدارة تلك المزارع والضياع لئلا تفاجئهم الثروة فيعوزهم حسن إدارتها وحفظها، وغفل عن ذلك كثير من الاغنياء فلم يأذنوا لاولادهم بالتصرف في ادارة ثروتهم ولا بالتمتع بما تستشرف له نفوسهم منها، فلم يلبث أولئك الاولاد بعد موت والديهم إلا قليلا ، حتى أضاعوا جميع ما تركوه لهم إسرافا وتبذيرا، كما رأينا وشاهدنا في مصر كثيرا، واذا كانت ادارة الثروة الشخصية لا تصلح الا بالعلم والتمرن معا فكيف تكون ادارة الممالك وسياسة الامم ؟

لا يعجلن أحد بالاعتراض على هذا الكلام فيقول انه مؤيد للحكومة المطلقة التي اراحنا الله من شرها، ومعارض للحكومة الدستورية التي امتلأت القلوب رجاء في خيرها ، معاذ الله أن أحتج لتلك الحكومة الظالمة بكلمة وأنا أعلم انها لو بقيت سنة أو سنتين ولم ينجح الاحرار بالوسيلة التي أخذوا بها في هذا العام لوقعت الامة

والدولة في خطر لا تؤمن عاقبته ، وإنما قلت ما قلت آنفا لانبه الافكار الى حقيقة حالنا وما يجب علينا في هذا الطور الجديد

الامة العثمانية في مجموعها مستعدة للحكم الدستوري فان فيها من الاحرار المرتقين في المعارف والاخلاق من جميع الشعوب من يرجى ان يقوم بهم هذا الحكم خير قيام ، ويؤمن عليه من عدوان الاستبداد ، ولكن ضعف استعداد الامة في كثير من البلاد يحملهم مشاق كثيرة في إقامة العدل ، واصلاح حال الملك ، ومقاومة كيد المتقهقرين ، أعوان المستبدين الظالمين ،

لا تظنوا ان الاحرار الكرام الذين نلنا الدستور بسعيهم كانوا غافلين عن هذا ، كلا إنهم قد أعدوا له عدته فأخذت جمعية الاتحاد والترقي على نفسها ان تكفل الدستور الذي كانت قابلة ولادته وأمه ومرضعه الى أن يبلغ أشده ويستوي ، فانشأت لها شعبا ولجانا في كل مركز من مراكز الولايات والألوية والاقضية في المملكة ، وجعلت لها أندية سياسية اجتماعية ولها في ذلك مقصدان :

المقصد الأول مراقبة الحكومة في سيرها لاجل ان تنفذ الشريعة والقوانين في دائرة الدستور ، ويحفظ الامن ويقام العدل بقدر الاستطاعة والإمكان . والمقصد الثاني نفخ روح الحياة الدستورية في الامة وتحبيب الحرية اليها ببث الآراء والافكار النافعة فيها بالخطب والمحاورات ، وحثها على التربية الملية والتعليم العصري الذي يجعلها أمة دستورية بالطبع ، تأبى الاستبداد وتنفر منه كما تنفر من الاسقام والادواء . فحيا الله جمعية الاتحاد والترقي ، وانه يجب على الامة كلها ان تساعدها في سعيها فانه لا حياة لنا الا بالتربية الملية وتعلم الفنون العصرية . . .



الانقلاب العثماني (*)

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

٣

تفنن المابين في أكل الرشى ومنح الرتب والاوسمة

كان لرجال المابين في الارتكاب وسوء الاستعمال ظرف ورقة وتورية بديعة ؛ فلما أنشىء قضاء (بئر السبع) في تيه بني اسرائيل وعين له قائمقام في الاستانة قال له دولة الناظر حسبما افاد: « بالطه كيرمامش اورمانه كوندر يورم » أي اني أرسلك الى غابة لم تدخلها بلطة الحطاب . فذهب وحطب في الناس حتى عزل وأخذ تحت المحاكمة ، ثم عين في محل آخر . وهذا مثال من الف بل آلاف أمثلة للارتكاب الذي أفسد اخلاق الامة وأخرها عن اللحاق بالامم المتمدنة ، ويروي عنه الناس نوادر عجيبة واساطير غريبة تحتاج الى الجمع في كتاب او الافراغ في قالب قصصي ؛ وبعدان كان تعيين الموظفين يكون بطلب الباب العالي والنظارات صار التعيين وتوجيه الرتب من المابين مباشرة !

تهافت الناس على احتجان الرتب مع لقب بك الذي لاوجود له في الحقيقة بين الالقاب الرسمية كوجود لقب باشا مثلاً ، وإنما اشتهر فريق باسم بك وفريق باسم أفندي فكانوا عند توجيه الرتبة ينظرون اذا كان الاسم مقرونا بلقب بك صدرت الارادة السنية بموجبه ونشرت في التوجيهات الرسمية ؛ فصار بائعو الرتب يتعمدون وضع لقب في الطلب لتصدر بموجبه الارادة السنية وتنشر في القسم الرسمي من الجرائد ، فتتناقلها الجرائد العربية وتقول وجهت الرتبة الفلانية مع لقب بك لتوهم

(*) تابع لما نشر في (ص ٧٤٣ ج ١٠ م ١١) من رسالة محمد روحي بك الخالدي العضو في مجلس المبعوثان عن القدس الشريف

القاري، ان لقب بك توجيه جديد كلقب كونت أو مركيز عند الافرنج، وامتلأت دوائر الاستانة بالموظفين بلا تمييز في جدارتهم واستحقاقهم واضطلاعهم بالعمل الذي هم فيه، ولم يكن الغرض من التعيين التحري على موظف قادر على ايفاء الوظيفة حقها من العمل، بل ايجاد وظيفة وعمل للمقربين والملتمس لهم أو للذين يخشى بأسهم !! فزاد عدد الاعضاء في شورى الدولة عن الثمين، ونظامهم ان يكونوا سبعة وثلاثين عضوا، وكذلك مجلس المعارف ومجلس التفتيش والمعاينة الضاغط على حرية نشر الكتب وادخالها وهو الذي محا من كتب اللغة كلمات كثيرة مثل: حرية، وطن، اختلال، انقلاب، جمعية، رشاد... كما غيرت اسماء الموظفين من عبد الحميد وسلطاني ونحو ذلك الى اسماء اخر وبعضها حرفت وكتبت سلتاني، وامتلأت نظارة المعارف بالموظفين حتى قال ناظرها الاخير لما عرضوا عليه الميزانية: لولا وجود معاشات المعلمين لامكنني وضع الموازنة !! . فكانت معاشات المعلمين تضايقهم وهم يريدون حصر المعاشات بالموظفين من الرؤساء والاعضاء والكتاب والمفتشين، وزاد عدد اعضاء الجمعية الرسومية عن ثمانين عضوا، وكذلك مجلس المالية والاوقاف والعسكرية والبحرية وغير ذلك من أنواع المجالس ودوائر الحكومة والمعية الشاهانية، حتى ضاقت المجالس والاقلام بالموظفين وصار أكثرهم لا يجد له كرسيا للجلوس عليه !! . وكانوا يأخذون رواتبهم وهم نائمون في بيوتهم"

اختلال المالية وارهاق الفلاح

اختلت الموازنة المالية اختلالا عظيما ادى بها الى حجز نحو نصف رواتب الموظفين والعساكر ومخصصاتهم في كل سنة، واستفحل الظلم في جباية الاموال الاميرية وطرح الاعشار وتحصيل رسوم الاغنام، وتسابق الموظفون الى المزايدة بأعشار الاقضية والالوية، وعدوا ذلك فضيلة وسببا مشروعا للمكافأة والترقي، والمكلفون من الزراع والفلاحين يئنون تحت اثقال هذه التكاليف والمظالم ولا ناصر لهم ولا مفكر في شؤونهم، وقلما كان يمر على القرية شهر من دون ان يأتيها المشردون وجباة الاموال الاميرية وقصيب المعارف ومصرف (بنك) الزراعة وادارة

الرسوم الستة أي الديون العمومية والاعانات المختلفة» وكان الظلم اشد على المسلمين منه على المسيحيين الذين كانوا يحتمون بأديارهم وبرؤسائهم الروحيين ، ولقدسمعت كثيرا من الفلاحين انهم اضطروا الى بيع أراضيهم وتزويج بناتهم ليأخذوا صداقهن و يعطوا للجباة مايطالبونهم به من الاموال الاميرية ! ! فصار الفلاح يتجنب زراعة الارض الا بقدر حاجته الضرورية . ومن القواعد التي قررها الفيلسوف الشهير مونتسكيو مؤلف روح القوانين: «ان الاراضي يقل ايرادها بالنسبة لحرية سكانها لا بالنسبة لخصبها » فاذا كان الفلاح حرا عمر الارض الموات وجعلها خصبة بعمله وحراثته ، واذا فقد الحرية أصبحت أرضه الخصبة مواتا بسبب الظلم والاستبداد . وعليه فان ما نشاهده اليوم في اوربا من العمران إنما هو نتيجة الحرية «فحيثما توجهت فيها لا ترى الامروجا نضرة واشجارا وكروما مخضرة وانهارا جارية كأنها بستان عظيم ليس فيه قطعة أرض خراب

وصار رجال المابين يحرضون الولاة والمتصرفين على الاسراع بتحصيل الاموال والبعث بها الى الاستانة » وكان القائمون بادائها لا يدرون اين تنفق وكيف تصرف لعدم نشر الموازنة المالية (Budget) بخلاف ادارة الديون العمومية التي هي تحت مراقبة الاجانب فانها في غاية الانتظام والترقي » تزيد وارداتها في كل سنة فتدفع رواتب موظفيها ومرتبات الديون بأوقاتها المعينة ، وقد حدا ذلك الدولة الى العود الى الثقة المالية بهـا ، وأصبح أصحاب الديون في أوربا آمنين على أموالهم ، ولو حدثت قلاقل في المملكة العثمانية فان قيمة أسهم الديون لا تنزل إلا قليلاً ، واذا أردت المقايسة بين ادارة الديون العمومية و بين نظارة الماليـه فانظر إلى قرية من قرى الالمان أو اليهود المستعمرين في سوريا وفلسطين وما فيها من الانتظام والعمران والترقي ، والى قرى الاهالي المجاورة لها وما فيها من الفقر المدقع والخراب — يتضح لك الفرق بين الادارتين

اختلال الادارة العسكرية بادارة الجواسيس لها

اختلت ادارة العساكر البرية والبحرية ، وأصبحت لا تمرن على التعليم الناري

واصابة الهدف ، ولا تساق سوق الجيش خوفا من الهيجان وحدوث الانقلاب !! مع ان دول أوربا ولا سيما المانيا وروسيا والنمسا وفرنسا تقوم جيوشهن في كل سنة بمناورات حربية ، يحضرها الامبراطور نفسه مع أولاده وأسرته وجميع ضباط السفارات الاجنبية ، فيستطلعون أحوال الجند ويشوقونهم . وصار الاسطول العثماني الذي انفق على شرائه الملايين كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يقدر عليه لطول مكثه ، فصدأت آلاته بسبب عدم الاستعمال والجري في البحار ، واختلست أموال كثيرة من التجهيزات العسكرية ولا سيما في تجهيز الاسطول وشراء البواخر والمدرعات ، وصار الترقي في المراتب لا يبنى على القدم والاضطلاع والاستحقاق ، بل على الالتماس والانتساب والرشوة ، فكان الضابط يرتقي الى المراتب الكثيرة في أوجز مدة وقد يكون لا يعرف للجندية معنى حتى ولا احترام من فوقه في الرتبة ، وكان الضباط يبيعون رواتبهم التي تبقى دينا عند الحكومة للسماسرة بأثمان بخسة ، حتى يبعث المئة قرش بأربعة قروش ! ويبع حُلّة (بدله) العسكري التي تشتريها الدولة بمئات من القروش بعشرين قرشا .. أي ان المستحق للراتب والحلة كان يوقع على الورقة المؤذنة بالوصول اليه على القاعدة والاصول ، كأنه استلم الحلة من مخزن الالبسة أو قبض الراتب من صندوق الخزانة ! ثم يسلمها للسمسار فيعطيه هذا في مقابلها ما يتفقان عليه ، ثم يتفق السمسار مع المحاسبه جي ومن فوقه ويربحون الفرق ، ويقيدون ذلك في الدفاتر (ايراد ومصرف) كأنها جرت على القاعدة والاصول . وبهذا أصبح الضباط في حالة يرثى لها . وكنت ترى ضباط البحرية البالغ عددهم نحو ستة آلاف في قهوات الاستانة خلوا من العمل يتجولون في شوارعها وحاراتها !!

اشتبهت الادارة المستبدة في أمراء العسكرية الذين تعلموا في أوربا وخدموا الامة والوطن وصارت لهم ملكة ومعرفة تامة بأحوال الزمان ، فابعدتهم عن الاستانة وأشغلتهم بالوظائف الثانوية بداعي ميلهم الى الافكار الحرة واعادة القانون الاساسي ، ولقد بلغ عدد الراجعين منهم الى الاستانة بعد حدوث الانقلاب ستين شخصا من الباشوات وأمراء العسكرية وخمس مئة ضابط ، ومنهم رجب باشا وفؤاد

باشا الشهير وناظم باشا وهو صهر عالي باشا. وأصبحت قيادة العساكر وادارة المدارس العسكرية بأيدي اناس لا كفاءة لهم وليس لهم عمل الا التجسس على أصحاب الافكار النيرة وابعادهم عن مركز الادارة، وكانوا يعدون ذلك خدمة لمنافع السلطنة والمحافظة على الخلافة الاسلامية !!! فأصبح التجسس والمراقبة دائرة من أعظم دوائر الدولة، لها مراكز وشعب كثيرة ومعاشات وافرة غير الاحسانات والانعامات!!. فكان الجواسيس ينظمون التقارير في كل حادثة ومسألة صغيرة كانت أو كبيرة، ويختلقون المسائل ويفترونها ويصورونها في قوالب مستحيلة ينبذها العقل ويأباها أولو النظر الصحيح والوجدان السليم، وما ذلك الا لاظهار خدمهم واثبات تيقظهم ومنالبهم لنيل المكافأة، والمابين لا يكلف من تحقيق مضمون هذه التقارير لعله يجد في مئة كاذبة واحدا صحيحا، فاذا قالوا: «فلان له قصد سيئ بالخليفة» أو «له مخابرة مع حزب تركيا الفتاة» أو «عنده أوراق ضارة» كانت كل واحدة من هذه التهم كافية للدمور على منزله وتفتيش أوراقه وهتك حرمته ثم نفيه أو حبسه أو عزله وابعاده، فكانت شبههم هذه تدور على حدوث المؤامرة ضد الذات الملوكية والمس بحقوق الخلافة الاسلامية، على انهم لم يتخذوا في الحقيقة سياسة اسلامية وهي المعبر عنها عند الافرنج بقولهم «بان اسلاميزم Panislamisme» كما توجد سياسة سلافية «بان سلافيزم Panslavisme» وسياسة جرمانية «بان جرمانيزم Pangermanisme» ولا تجد في دوائر الدولة كلها قلم مخصوص المصالح الاسلامية كما يوجد في باريس وبرلين وبطرسبرج أقلام ودوائر خاصة بدرس المسائل الاسلامية درسا تاريخيا علميا للوقوف على افكار المسلمين وهيئتهم الاجتماعية، وعلى أحوال العالم الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها، ليكون الوزراء والموظفون على بصيرة ويقين من حقائق هذه المسائل الحيوية الاجتماعية. فقصدهم من السياسة الاسلامية انما هو أكل الخيرات والتظاهر بالكرامات والتكبر على الناس والتشبه ببني العباس لم تباشر الحكومة أمرا جديا لعمران البلاد واستخراج ثروتها الطبيعية والسير بها في معارج التمدن والرفاه، وتعليم رعاياها أصول الزراعة والتجارة وعقد الشركات والتعاون على ما فيه نفع البلاد، بل قاومت جميع المشروعات الوطنية فكانت لا تمكن من فتح المدارس

الخصوصية أو تعليم الاولاد ولا سيما المسلمين في المدارس والبلاد الاجنبية، وحظرت تأسيس الجمعيات واطفأت حمية أرباب الهمم تذرعا بأنها تؤدي الى الثورة والانقلاب ! فكم نظر الولاة والمتصرفون شزرا الى مدرسة وطنية أسسها الفرد أو الى مدرسة سلطانية اسستها الجماعة أو الى شركة صناعية أو مالية عقدها الاهالي، وسرعان ما كانت تعطل ويمحى أثرها، وكم منعوا الآباء من ارسال أولادهم الى المدارس الاجنبية أو الى مدارس أوربا، وكم اضطهدوهم من أجل ذلك !!

ليس ما أجرته الحكومة من مد بعض الخطوط الحديدية واصلاح المرافيء التجارية وتطهير المستنقعات الا اجابة لطلب الشركات الاوربية وتوسط بعض المتنفذين للاستحصال على امتيازاتها والاستفادة بما يعود عليهم بسببها من المنافع الشخصية، فمنح الامتياز كان من قبيل الانعام والاحسان لا يكاد يتم لصاحبه ويأخذ به الفرمان السلطاني حتى يبيعه لشركة أجنبية ويربح منه الملايين فيوزع نصفها على الذين كانوا عونا له في الحصول على الامتياز، ويبقى النصف الآخر ربحا صافيا له في مقابل اتعابه بالذهاب من المابين الى نظارة النافعة (الاشغال) والصدارة، وملاحظة الخدم والكتاب والتقرب بهم الى كبير القلم أو الدائرة، وكل زيارة تحتاج الى اكرام و(شوقة خاطر) !! . روى لي احدهم عن بعض النظار انه أوقف ختم مضبطة امتياز في مد سكة حديدية كبيرة على أخذ أربعين ألف ليرة عثمانية، وانه لم يقبل أخذ حوالة على المصرف (البنك) أو قوائم نقدية خوفا من ظهور الارتكاب، واشترط ان يكون ذهباً عيناً ! قال الراوي فجاؤا بالمال وصفوه على منضدة كبيرة مرخمة عمدا عمدا وكان عدد كل عمود خمسين ليرة فكان ذلك ثمان مئة عمود مصفوفة صفوفاً متوازية مطروزة، وللاصفر الرنان فوق الرخام منظر عجيب، فلما تم العد والحساب قال دولة الناظر وكان مستلقيا على فراش الموت (تمامي ؟) يريد هل العد تام فقيل له نعم ياسيدي تام، فاخرج الختم من كيسه المعلق في عنقه وختم المضبطة ثم توفي بعد ثلاثة أيام فكانت آخر ملذاته من نعيم الدنيا !! . ولذلك كان فريق من الكبراء والموظفين يتمتع بالقناطير المقنطرة من الذهب ويقبض رواتبه سلفا، وويل لعمال الخزانة ان لم يدفعوها — وفريق يتضور جوعا وهو ينتظر رواتبه المتراكمة دينا عند

الحكومة من سبعة وثمانية أشهر في السنة ، وهي التي يعوّل عليها في الانفاق على نفسه وعياله النفقة الضرورية ، وكان ضباط العساكر مظلومين أكثر من سواهم فكانت رواتبهم وتعييناتهم على قلتها -لا تعطى لهم ، وليس تحت أيديهم أموال ينهبونها أو رعية يرتشون منها ، ولقد كان ذلك من أعظم أسباب الانقلاب ، قال فيكتور هوكو: «ان الجوع يثقب في قلب الانسان ثقبا ويملؤه حقدا »

سقوط هيبة الحكومة في بلادها وفي الخارج

ان اختلال الادارة وتذبذ بها لم يبق للحكومة قاعدة مطردة ولا أصولا مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ، وانما اصبحت ذات قواعد مختلفة وسياسات شتى بعضها يناقض بعضها ، فكانت تمحو في الغد ما أثبتته في الامس ، وربما غيرت سياستها مرتين في اليوم بحسب الاشخاص والوقائع ، ولهذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية فتجرأن على تهديدها حتى في المسائل الحقيرة كمسألة توبني دلوراندو التي أوجبت خروج الاسطول الفرنسي الى جزيرة مدللي (متلاين) ، فصرخ إذ ذاك مارسل سامبا زعيم الاشتراكيين في مجلس النواب الفرنسي قائلا : ماهذه السياسة الخرقاء ؟ انكم لم تحركوا ساكنا في المذابح الارمنية ولم تتداخلوا فيما توجب معاهدة برلين المداخلة فيه من طلب الاصلاح واجراء العدالة الانسانية ، والآن تتكبدون النفقات باحراق فحم الامة وارسال الاسطول لحماية نفرين من المرابين اقرضوا أموالهم على ان يكون ربحهم عشرين وثلاثين في المئة حتى أصبح ما يطلب لهم عين السحت !.

وسقط اعتبارها أيضا في نظر رعاياها وصار اكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون ان يكونوا من رعيتها ، فكانوا يتعمدون بقدر الامكان عن سفارات الدولة وقنصلياتها ، وبعضهم استبدل التابعية الاجنبية بالتابعية العثمانية

كان أرباب الحمية والغيرة الوطنية من العثمانيين ينظرون الى هذه الاحوال بعيون الاسف والاستياء ويعتقدون ان مصدرها الوحيد هو الاستبداد ولا تخلص منه الا بتعليم الامة وتنوير ذهنها ، والرجوع في الاحكام الى الدستور المنسوب لمدحت باشا وان لم يكن كله من بنات افكاره . فكان الاستبداد ضاغطا على جميع افراد

الامة اذا لم يقتصر بضغطه على ضعفائها واحرارها وحزب تركيا الفتاة فقط ، بل شمل جميع افراد خاندان آل عثمان وجميع المقربين من رجال الدولة الذين افنوا اعمارهم في تأييد دور الاستبداد وجمع الاموال والوزراء والموظفين كافة وجميع الاهالي ولا سيما في الاستانة ، حيث بطلت الافراح والجمعيات المشروعة لعقد النكاح أو للختان ، وحرم على الناس الاجتماع للسمر والحديث ، كل ذلك خوفا من الانقلاب ، وصار لا يؤذن لاحد بالذهاب الى أوربا ولو كان مريضا ، كما انه لا يؤذن للضباط بالتوجه الى الاستانة أو المرور بها ، وصار كبار الموظفين لا بد لهم من إذن مخصوص وارادة سنية لحركاتهم الشخصية وافعالهم البيتية حتى زواج بناتهم وأولادهم !!!

دخلت يوما على السيد جمال الدين الافغاني وهو في قصر لطيف على بابه الخدم وكانت تأتيه مائدة من (المطبخ العامر) فقال: اية فائدة من هذا القصر والخدم والمائدة وانا اذا اشتهيت أكلة بفتك (شواء) أو نشر فكر في جريدة أو التنزه في ناحية من المدينة لا استطيع . أيهنأ عيش الانسان بغير الحرية ! ولهذا فر الى باريس الداماد محمود جلال الدين باشا وابناه الامير صباح الدين بك والامير لطف الله بك ، وفر الى مصر احمد جلال الدين باشا رئيس الجواسيس وكثيرون غيرهم

اتحاد الارمن والاتراك في طلب الحرية

شكلت جمعية الانقلاب الارمنية بعد مذابح ساسون المتقدم ذكرها فرقة من الثائرين هجموا على البنك العثماني في الاستانة والقوافيه القابل سنة ١٨٩٦ ليلفتوا بذلك نظر الحكومة العثمانية والدول الاوربية الى وجوب القيام بالاصلاحات واعطاء الحرية وتعميم المساواة بين جميع الاهالي بلا فرق في الدين والجنس ، ثم ألفوا لجانا (Comités) كثيرة أهمها لجنة سيروب التي قاومت ست سنوات في جبال ساسون ، ثم حولت الجمعية نظرها الى جهة قافقاسيا (القوقاز) الروسية بسبب اضطهاد أميرها البرنس غاليتزين للارمن التابعين لروسيا وتسليط التتر المسلمين عليهم ، مما أدى الى حدوث مذابح باكو وفظائعها وعدة وقائع ومقاتلات ، وتصدى الثوار لقتل الرؤساء والقواد والامراء والضباط

الذين سببوا المذابح ، وكان قتل كل واحد منهم يكلف الجمعية الاموال والنفوس ، فقتل بليف مثلاً سبب هلاك أربعة من اعضاء الجمعية وصرف مئتي ألف فرنك ، وكذلك القاء القنبلة في موكب صلاة الجمعة امام سراي يلديز فانه كلفهم خسائر جسيمة ، فعدلت الجمعية الارمنية بعد ذلك عن هذه الحركات ومالت الى الاتفاق مع تركيا الفتاة فعقدت مؤتمراً في ويانة حضره جماعة من الترك والارمن والمقدونيين والروم والكرد والعرب واليهود والارناؤط ، وكان الشارع في عقد هذا المؤتمر معلوميان افندي الارمني الشهير وقد تم اتفاقهم فيه على المسائل الآتية : (١) قلب الحكومة الحاضرة والسعي في تحقيق ذلك بجميع الوسائل (٢) تأسيس حكومة مقيدة دستورية لجميع رعايا المملكة العثمانية (٣) استعمال جميع الوسائل الانقلابية لتحقيق هذا المقصد . وذلك لان الحكومة المستبدة استعملت جميع الوسائل لخراب المملكة واطفاء نور العلم والحرية ، فأقفلت المدارس وحبست المعلمين ونفت التلاميذ وان الاماكن التي بقي فيها شيء من المدارس أنقصت التعليم فيها بايجاد مراقبة لم يسبق لها مثيل . وصارت الجرائد لا تنشر من الاخبار الا ما يؤذن لها بنشره بعد التحريف والتغيير أو الاختراع من جانب المراقب . وصارت التكاليف المستوفاة بلاعدالة لا تصرف على التعليم أو التبسط في الحضارة والعمران ، بل على الجواسيس والجرائد المؤيدة للظلمة المحبذة لاعمالهم ولاسيما في البلاد الاجنبية ، وذلك لإيهام الناس ومخادعة أوربا عن أحوال الممالك العثمانية .

فمنع العثمانيين من التجول والسفر ومنعهم من اخذ تذاكر الجواز (Passes-port) أوجبا تعطيل التجارة ، كما ان استيفاء التكاليف الاميرية بطريقة غير عادلة وفقدان الامن في البلاد وتراكم المحصولات وكثرة المراباة وفقدان وسائل الاختلاط كل ذلك كان سببا قويا في خراب الزراعة . فأصبحت البلاد التي كانت مزرعة الدنيا في عهد المدنيات السابقة خرابا ، وأراضيها قفرا بلقعا ، حتى هاجر منها أهلها الذين ولدوا فيها الى أمريكا وأوربا ومستعمرات أفريقيا ، ليفتشوا لهم عن قليل من الحرية والامن وأسباب المعيشة ، فالمهاجرة والقحط أكملا العمل الذي بدئ بالمذابح وانتج الخراب للبلاد وخلوها من السكان . فلجميع ما ذكر من الاسباب أصبح الانقلاب

السياسي ضروريا لمنع انقراض المملكة العثمانية ولتوقيف انحطاطها — تلك خلاصة المذاكرات والمناقشات التي جرت في المؤتمر

نهضة جمعية الاتحاد والترقي وانتشارها

وأما فرع جمعية الاتحاد والترقي العثمانية في أوربا فانه حدث الاختلاف فيه على الرياسة ، فانقسم إلى أحزاب وفارقه الكثيرون من اعضائه ، ولكن صاحب جريدة مشورت بقي ثابتا يتوفر على اصدار جريدته في أوقاتها وغيرها من المنشورات وكان الدكتور نظمي بك السلانيكي الاصل وغيره من ذوي الغيرة الوطنية من خير الاعوان له ، وقبل حدوث الانقلاب بأربع سنين كانت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية ضعيفة عاجزة في حكم العدم ، ولذلك لم يعبأ بها أرباب السياسة ولم يعتدّوا بأن لتركيا الفتاة حزبا موجوداً ، بل كانوا يرون ان هنالك بعض المتشردين ينشرون أوراقا قليلة الجدوى لتخويف المابين ونيل الوظائف والاحسان ، وكانوا يعدون أحمد رضا بك معاندا مصرا على طلبه لتخليد اسمه بين الفلاسفة الحقيقيين ، مفضلا ذلك على حطام هذه الدنيا الفانية

تداخلت الدول الاوربية منذ أربع سنين في المسألة المكدونية أي في ولايات سلانيك وقوصوه ومناستر وطلبوا إصلاحها ، فزال منها بعض الظلم وتحسنت ادارتها تحقيقا لرغبة أوربا وخوفا من مداخلتها ، وسمحوا لاهالي تلك الولايات بقليل من الحرية ، فنفسوا بها عن صدورهم ونظروا في شؤونهم . وكانت البلغار والروم تشكل الجمعيات السرية السياسية المعروفة باسم كوميته (Comité) فسموا الداخل فيها (كوميته جي) باضافة اداة النسبة التركية إلى كلمة كوميته الافرنجية للمحافظة على قوميتهم وحقوقهم واوضاعهم ، وكانوا يبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيلها ويظهرون من الحماسة والغيرة الوطنية مالا يقدر ولا يوصف . وكانت الحكومة المحلية تهابهم وتلاطفهم وتستميح رضاهم ، فعز ذلك على المسلمين من الترك والارناؤط سكان تلك الولايات ، واعتبروا باخوانهم في الممالك البلقانية المستقلة استقلالا كلياً أو جزئيا كرومانيا والصرب والجبل الأسود والبلغار والبلغار

والبوسنه والهرسك ، فاستيقظوا من نومهم وأفاقوا من غفلتهم ، وقالوا إلى متى نبقى في هذا الظلم والاعتساف والجور والاستبداد والذل والتحقير ؟

ولا يقيم على ضيم يراد به   الا الاذلان عير الحي والوتد

مالنا لا نفعل كالروم والبلغار والرومان والصرب في محبة الوطن والدفاع عنه؟ ولما سألوا مشايخهم عن ذلك أجابوهم بان الاسلام يساعد ويحض على ذلك ، ووجدوا امامهم تعليمات جمعية الاتحاد والترقي فدخلوا فيها باختيار وشوق وحميه ، عارفين بما ينتجه فلهم من الفوائد المادية والمعنويه ، فتشكل لهذه الجمعية مركز في سلانيك وفروع عديدة في جميع جهات الولايات الثلاث المقدونيه ، ولقد بلغ عدد اعضاء الجمعية في سلانيك وحدها سبعة آلاف شخص ، والجواسيس غافلون لا يدرون من أمرهم شيئا ، وكان جمهور الاهالي في الولايات الثلاث المذكورة يعتقدون بانه سيصيب بلادهم ما أصاب كريد وولاية الروملي الشرقية والبوسنه والهرسك . . . الخ ، ولذلك كانوا في الباطن يتمنون نجاح الجمعية وان لم يقدروا على التظاهر بذلك .

الامير صباح الدين وسياسته

اكب الامير صباح الدين على تحصيل العلم ولا سيما بعد وفاة والده فاستنار فكره ، وجنح للحرية والاخذ بوسائل المدنية الحديثة ، فأسس حزبا سياسيا يعرف بحزب (المشروطية وعدم المركزية مع التثبت الشخصي) ولسان حال الحزب جريدة (ترقي) التركية وقد تأسست سنة ١٩٠٦ ومحررها هو أحمد فضلي بك كاتب الجمعية . فعدم المركزية (Décentralisation) يقسم إلى قسمين عدم مركزية سياسية مثل مستعمرة كندا الامريكية مع انكلترا . وعدم مركزية إدارية وهو عبارة عن توسيع اختصاص الولايات وتزييد حريتها وانتخاب المجالس العمومية فيها كما أشير اليه في المادة (١٠٨) من القانون الاساسي ، وجرى تطبيقه قبلا فتشكل لولايات الشام مع فلسطين مجلس عمومي اجتمع مرة واحدة في بيروت ، وكان ذلك في أيام ولاية راشد باشا الذي صار بعد ذلك ناظرا للخارجية وقتل في واقعة جركس

حسن بك . فمراد البرنس صباح الدين بك بعدم المركزية هو عدم المركزية الادارية كما صرح به لا عدم المركزية السياسية الذي هو عبارة عن مختارية الادارة مثل حكومة كندا

ومرادهم بالتشبث الشخصي ان لا تكون الاهالي عالة على حكومتهم بل ان يسلكوا سبل التجارة والصناعة والزراعة في أمر معايشهم حتى لا يكونوا منتظرين تيب الرزق من حكومتهم والانكباب على طلب الوظائف للتعيش منها ، لان السنة في الحكومات المستبدة ان ينتظر الأولاد دائما الاعانة من أسرهم والأسر من أرباب مجالسهم وأرباب المجالس من حكومتهم . ولكن الامم الانكلوسكسونية بعكس ذلك فان أولادهم يعتمدون في تحصيل الثروة على أنفسهم ويختارون الصناعة اللائقة بهم . فهذه خلاصة افكار هذا الحزب السياسي

نهاية الفساد والخراب في احوال الدولة

زاد البلاء في السنين الاخيرة وتعسر تدوير دولاب الحكومة مع اجهاد المأمورين أنفسهم في جره ، فحدث في الاذهان كدر من الامس وخوف من الغد ، واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة و بغض وحقد كامنان في النفوس ، وعلم المقربون انهم على وشك الانقراض ، فضاق عليهم الوقت ولزمهم الاستعجال ، فتهالكوا على ادخار الاموال واقتناء العقار ، وأودع الدهاة منهم ثروتهم في مصارف أوربا وأمريكا ، وتطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها واستفادوا من الحال الحاضرة بقدر ما أمكنهم . ولم يفكر الواحد منهم الا بنفسه وأولاده ثم بالاقرب فالاقرب من أسرته ، واستماتوا في سبيل الوصول الى السعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب ، واستحوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها والقابها ، ووجهت رتبة امراء العسكرية ورتبة بالا العلمية على المشايخ ذوي التيجان والعمائم ، ومنحوا الراحة من الخدمة العسكرية هم ومن انتسب اليهم من الرفاعية في جميع المملكة فاصبحوا لا ينتظمون في سلكها ، فكانت هذه المنحة من غريب التناقض ، وكان اذا انصب الانعام على فرد أو أسرة انهمل كالغيث المتواصل وانصب

كله في زرع ذلك الفرد او الاسرة دون ان يفيض منه شيء على المزارع المجاورة ، ولهذا قال احد الفضلاء:

أمير المؤمنين فدتك نفسي ونفس (ابي الضلال) لها فداء
أتحبسه وقتلنا جميعاً لعمرك ان ذا لهو البلاء
فلا والله ما هذا بعدل ولكن انت تفعل ما تشاء

واحتكروا أوقاف الجوامع ومزارعها بل ضبطوها ضبطاً بلا حكر ، وباعوا امتيازات الامور النافعة للاجانب فاضروا الدولة بذلك اضرارا جمة ، وشرهت نفوسهم للعجب وتلعت أعناقهم عظمة وكبرياء . وزاد بهم الحرص والطمع حتى فقدوا جميع المزايا الانسانية ، فصار الواحد منهم كأنه وحش مفترس ، ينقلب يوم سقوطه وابعاده عن منصب الدولة شيطانا رجيما ، كما ظهر من افعال فهيم باشا وهو منفي الى بروسه الذي أهلكه الاهالي فيها ضربا بعد إعلان الحرية

كنا أشرنا الى هذه الحالات المنكرة المكدرة ، والى قرب حدوث الانقلاب في مقالة عنوانها «حكمة التاريخ» نشرتها جريدة طرابلس الشام في عددها (٥١٧) الصادر في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٣ بعد ان بدل المراقب فيها وحرف كما أراد ، ظنا منه أنها تخفى ورمما خفيت على فطنته ودقت على فهمه ، ولكنها عندما بلغت الاستانة واطلع عليها الملدوغون صدر الامر بتعطيل الجريدة ، فكاد بركان الاستياء تنفجر منه فوهات في عدة جهات ، لأن بقاء الحال على ما ذكر غير ممكن في القرن العشرين ، خصوصا وأن البلاد العثمانية متوسطة بين أوربا والشرق الاوسط والاقصى . ومما زاد اختلاطنا بالعالم المتمدن تجديد السكك الحديدية وتوارد بواخر الشركات الاجنبية على ثغورنا ، ومشاهدتنا صور السينماتوغراف وسماعنا اصوات الفونوغراف ، وركوبنا الترام الكهربائي والحوافل والدراجات كل ذلك كان من دواعي اختلاط الامم وامتزاجها ، واصبحت المسافة بين الاستانة وباريس اقل من ستين ساعة بعد ان كانت تقطع في شهور وأعوام

نمت الناشئة الجديدة من الشبان المتعلمين في مدارس الدولة الملكية والعسكرية أو في المدارس الاجنبية التي افتتحها الاوربيون والاميركيون في الشرق رغم منع الحكومة

المسلمين من دخولها والتضييق عليهم وعلى أوليائهم في ذلك ، أو في المدارس الخصوصية التي اسستها طوائف الروم والارمن واليهود والبلغار ، فتعلمت الناشئة الجديدة من الشبان والبنات اللغات الاجنبية ، وطالعوا الجرائد والكتب ووقفوا على مواضع الضعف في الدولة ، وادركوا محل الخلل ، وصار يتخرج في كل سنة في هذه المدارس عدد عظيم متشبعون بفكر الحرية ومتخلقون بالاخلاق الاوربية والحماسة الوطنية . فكانوا كلهم موضع شبهة أولئك الجهال المستبدين بالامر ، فضيقوا عليهم واضطهدوا هؤلاء الشبان اضطهادات كثيرة شتى كالنفي والحبس والمراقبة ودهم المنازل وتفتيش الاوراق فكانوا كلهم عرضة لاستبداد المستبدين ،

فلما حدث الانقلاب في ٢٤ تموز (يوليو) وانفجر في سلانيك وما جاورها من الولايات بركان الاستياء كان هؤلاء الشبان وجميع العثمانيين مساعدين ومعضدين لحزب تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي ، ولذلك لم تحصل معارضة ولا مقاومة من احد لان الجميع مستاؤن حتى المستبدين انفسهم والمستفيدين من الحال الماضية والوزراء الذين اودعوا السجن واسترد منهم ما اغتصبوه من الاموال لان كلا منهم كان يتطلب اكثر مما ناله ، ولو لم يحدث الانقلاب بالصورة التي ظهر فيها لحدث بصورة اخرى بعد تبدل السلطنة ولكان اذ ذاك مدهشا دمويا

انفجار بركان الحرية وحدوث الانقلاب في ٢٤ تموز

نمت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية في سلانيك اخفاء أمرها مدة ولكن رائحتها فاحت بعد ذلك لكثرة الداخلين وصعوبة الكتم والاخفاء ، فاحس بها جواسيس سلانيك وبعثوا بتقاريرهم الى المابين ، فأرسلت الجواسيس من الاستانة ، فقررت الجمعية اعدام الذين ثبت لديها تجسسهم وخيانتهم للوطن ، وعينت فدائيين من اعضائها بالقرعة أو بالتراضي

وكان القائمقام ناظم بك قومندان مركز سلانيك يبذل مجهوده في كشف اسرار الجمعية فذهب اذ ذاك الى الاستانة لعرض معلوماته ، ورجع منها نائلا الفي قرش ضما على راتبه فزاد اجتهاده وتحريه ، وطلب ثانية الى الاستانة وبينما كان على

أهبة السفر اذ فوجئ بضربة من احد الضباط فذهب الى الاستانة مجروحا وحضر بعد ذلك الى سلانيك صادق باشا وماهر باشا وأمير اللواء يوسف باشا وبعض الياورية وعدة من موظفي الملكية ونظموا دفترا باسماء كثيرين من المتهمين بعضوية الجمعية ، وحبسوا ونفوا والقوا الرعب في قلوب الناس حتى كاد اليأس يستولي عليهم ، فقام في مناستر صلاح الدين بك قائمقام اركان حرب والبيكباشي نيازي بك الارناؤطي بتشكيل فرقة من العساكر الوطنية وذهبوا لناحية (رسنه) وهي في الغرب الشمالي من مدينة مناستر على مسافة ثلاثين كيلو مترا ولحق بهما كثيرون من الوطنيين وانور بك البكباشي صهر ناظم بك قومندان سلانيك وكان طلب الى الاستانة ووعد بمكافأة كبيرة ولكنه اختار نفع وطنه على منفعته الذاتية

ثم قتل في سلانيك أحد الجواسيس فقلقت حكومة الاستانة قلقا عظيما وطلبت مفتي الالاي مصطفى افندي لتستفهم منه عن هذه الاحوال ، وضمت إلى معاشه خمس مئة قرش ! ! وبينما كان خارجا من الفندق للسفر الى الاستانة جرحه أحد الضباط بحضور جم غفير ، وهرب الجارح من دون ان يعارضه أحد من الحاضرين ولا أخبروا عن أشكاله وصفاته ، فندبت حكومة الاستانة للسفر الى (رسنه) الفريق الاول شمسي باشا قومندان (متروبجه) فاختار من يعتمد عليهم من الضباط وتابورا من العساكر وحضر على القطار الى سلانيك ومنها الى مناستر وذهب تو إلى إدارة التلغراف لمخابرة المابين ، فخرج عليه أحد الضباط وقتله ، وامتنع من معه من الضباط والعساكر عن الزحف على (رسنه) ومقاتلة اخوانهم

ثم قتل على هذا الوجه كثير من الجواسيس الملكيين والعسكريين فقرر مجلس الوكلاء ارسال ثلاثين ألفا من عساكر الاناضول . ولما وصل منهم إلى سلانيك الثلاثة توابير الأول امتنعوا عن مقاتلة اخوانهم وانضموا اليهم أيضا ، فأحس المابين بأن سوق عسكر الاناضول الى الروملي إنماء لقوة الجمعية فأوقف ارسال بقية عساكر الاناضول الى سلانيك . ثم اجتمع في (فيرزو بك) عشرون ألفا من الارناؤط وذهب سبع مئة من رؤسائهم الى اسكوب لاعلان القانون الاساسي والحكومة المقيدة وفي يوم الخميس ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨ خرج الناس في سلانيك

صباحا ووجدوا اعلانات مختومة بختم الجمعية أي جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تدعوهم الى الاجتماع في يوم الجمعة لاعلان القانون الاساسي والحرية ، فلم يمهلوا للغد بل اجتمعوا في ذلك النهار في ميدان أوليمبوس على الطوار (الرصيف) في مدينة سلانيك وضج الجمهور قائلا إما الحرية واما الموت !!. وأول من خطب على طَنَف (بلكون) فندق (أوليمبوس بلاس) غالب افندي بالتركية ثم مانويل قره صو باليهودية (الاسبانية) ثم روصو افندي بالفرنسية وسليمان افندي بالتركية وفضلي بك نجيب محرر جريدة (عصر) بالتركية وفيلوطاش بابا جورج بالرومية والتركية وترجمان المحكمة المخصوصة (فوق العادة) بالبلغارية وفي ختامهم عادل بك رئيس البلدية بالتركية ثم هتف الجميع « فليحي الوطن ، فلتحي الامة ، فلتحي الجمعية ، فليحي الجيش ، الحرية أو الموت » وأعدوا في تلك الليلة مأدبة ضربت فيها الموسيقى العسكرية على الانغام المرسيلية :

Allons enfants de la patrie le jour de gloire est arrivé (1)

وكانت ترجمت بالتركية هكذا : « قالقك أي أهل وطن شان كونلري كلدي »

وفي ليلة الجمعة وردت رسالة برقية إلى حلمي باشا المفتش العام لولايات مكدونية بصدور الارادة السنية باعادة القانون الاساسي ، فاجتمع الناس في سراي الحكومة ، واعلنت الحرية والقانون الاساسي رسمياً بحضور المفتش العام ومشير الفيلق الثاني ابراهيم باشا ، وموظفي الحكومة والبلدية واعضاء الجمعية وابتدأ موسم الافراح والسرور .

الخلاصة واسباب الانقلاب بلاسفك دماء

حدث الانقلاب العثماني بلا سفك دماء ولا حصول اضطراب أو قلاقل في

---

(١) المنار : هذا البيت من أبيات لحن الثورة الفرنسية وترجمته بالعربية ترجمة حرفية نظما هكذا :

هلموا يا بني الوطن   فيوم المجد قد وافى

المملكة كما حصل عند باقي الامم من الانكليز والفرنسيين والاحريكان والمجر والروس وغيرهم . وفي ذلك قال بعض رجال السياسة : « لا تنبت الحرية مالم تسق بالدم » ولذلك أسباب كثيرة منها :

(١) ان الحكومة ليست حكومة مطلقة كما يظنها الناس ويسميها الافرنج (Théocratique) وانما هي مقيدة باحكام الشرع الشريف الذي يأمر بالشورى ويحض عليها كما ذكر في صدر هذه الرسالة . فالانقلاب لم يضيع حقوق السلطنة والخلافة كما ضيع انقلاب الفرنسيين وغيرهم حقوق ملوكهم المطلقة المقدسة الالهية !!! حتى انتصر لها فريق من الناس وقاتلوا في سبيل استرجاعها ولم يزالوا يطالبون بها في هذا القرن العشرين عصر التمدن والعلم والنور .

(٢) عدم وجود امتيازات لصنف من أصناف الامة العثمانية كما يوجد عند الفرنسيين للاشراف وللرهبان امتيازات وحقوق مشروعة على الاراضي بحسب عرفهم وشرعهم القديم، ولذلك قاتلوا عليها لما حدث الانقلاب الفرنسي وحرمهم من حقهم المشروع على زعمهم واعتقادهم ، أما الانقلاب العثماني فلم يضيع لاحد حقا فان الحقوق التي كانت على الاراضي للدره بكوات (دره بكلر ***) المعروفين عند الافرنج باسم (Féodalité) وهي في المملكة العثمانية حقوق الزعامة ألغيت بعد التنكيل بالانكشارية في عهد السلطان محمود خان ، وأعطي لاصحاب هذه الحقوق ضمانة ورواتب استوفوها مدة حياتهم ومنهم من لا يزال في قيد الحياة ليومنا هذا يستوفي حقه من الخزانة في كل سنة ، ووضع أخيرا قانون الاراضي الموافق لاحكام الشرع وهو من أحسن قوانين الدولة وضعا وترتيبا كما هو معلوم عند طلبة مدارس الحقوق . فالمسلمون لا فرق في الحقوق بين الشريف منهم والوضيع وغير المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » اما الامتيازات التي وهبها السلطان محمد

(*) المنار : يراد بكلمة (دره بكلر) في التركية أصحاب الزعامة والنفوذ الفعلي في المقاطعات وقد كانت بلاد الدولة معظمها على هذا النمط ولا سيما في الاناطول فان السلطة والنفوذ كانا في أيدي هذا الصنف من الناس

الفاتح للروم وأقرتهم عليها والامتيازات الاجنبية التي أنعم بها سلاطين آل عثمان على الاجانب تفضلا منهم واحسانا لا بحرب وغلبة فسيجري الاتفاق عليها بصورة حبية يرضى بها الجميع .

(٣) ان الافراد الذين عزلوا من وظائفهم وصودر ما استحوذوا عليه من الاموال المنقولة وغير المنقولة بسبب ارتكابهم واستبدادهم يعترفون بانهم ادخروا هذه الاموال الكثيرة من غير الوجوه المشروعة بل بأكل أموال الامة والدولة بالباطل ، كما يعترف الاذكياء منهم بمشروعية هذا الانقلاب ولزومه وفائدته ، وقد صرحوا بذلك وأقروا به فلا يتصور قيامهم للمطالبة بشيء أو لاعادة الادارة السابقة المستبدة ، وليس لهم عصبية تساعدهم على ذلك ان هم أرادوا أوحاولوا . وإن الامة بأجمها عرفت الحق من الباطل والنافع لها من الضار ، نعم ان الموظفين الذين خدموا مدة ثم ألغيت وظائفهم أو عزلوا منها لهم حق في طلب راتب التقاعد أو التوظيف في وظائف أخرى ، إذ لا يليق بشرف الامة ان تلقي على قارعة الطريق جماغفيرا قضوا حياتهم في خدمة الادارة السابقة ولا معاش لهم ولعيالهم غير ما كانوا ينقدونه من الرواتب ، فان هذا الانقلاب الذي بدأ بالشفقة على الاهالي المظلومين من شأنه ان يستعمل الشفقة والحنان أيضا في حق الظالمين لتتم سعادة الامة ولا يلحق بأحد ضرر ولا خسران .

والحاصل ان الفضل في حدوث الانقلاب العثماني من دون سفك دم ولا حصول اضطراب وقلاقل في المملكة انما هو للشريعة الاسلامية وما في احكامها من العدل والمساواة في الحقوق . ولهذا كان رد الفعل أو الرجعة (Réaction) في هذا الانقلاب غير محتمل بل هو مستحيل لعدم وجود اسباب معقولة أو مشروعة تحفز اليه ، بخلاف ما حدث في فرنسا وأمثالها إذ كان للقائمين برد الفعل أسباب كثيرة تحملهم على القيام لاعادة الادارة السابقة . اه

افتتاح مجلس المبعوثان

﴿ ثلاث خطب ارتجالية في الاحتفال به ﴾

بطرابلس الشام (*)

خلاصة الخطبة الاولى في ميدان التل

أيتها الامة العثمانية الكريمة

أهنئكِ بهذا اليوم السعيد الذي تحتفلين فيه بافتتاح مجلس المبعوثين واني لاهنئك بأمر عظيم ، أهنئك بأنك صرت بهذا اليوم أمة ، وما أحلى هذا القول في فمي ، وأحبه الى قلبي ، نعم في هذا اليوم صار يصح إطلاق لفظ الامة عليك ولم تكوني من قبله الا عبارة عن افراد متفرقين لا يصدق عليهم هذا اللفظ على وجه الحقيقة .

يطلق لفظ الامة في عرف علماء الاجتماع والسياسة على الجمع العظيم الذي يتألف من شعوب متعددة ويرتبط بعض افراده ببعض بقوانين ومصالح مشتركة .
فالاجتماع هو الاصل الذي يتحقق به معنى الامة المؤلفة من جمعيات بعضها أكبر من بعض أدناها الاسرة وهي أول اجتماع بشري وأقدمه ، وأعلاها الامة التي هي منتهى ما يصل اليه الاجتماع

هل يسوغ لنا ان ندعي اننا كنا أمة في طور الاستبداد الماضي الذي قضينا عليه القضاء المبرم في هذا اليوم ؟ كيف وقد كنا ممنوعين من كل معنى من معاني

---

*) احتفل بطرابلس كسائر البلاد العثمانية بافتتاح مجلس المبعوثان يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة فخطب صاحب هذه المجلة في الاحتفال العام بميدان التل امام هيئتي الحكومة الملكية والعسكرية وجمهور الاهالي ثم خطب في نادي الجامعة العثمانية امام الهيئتين ثم في نادي جمعية الاتحاد والترقي وهذه خلاصة ما قال

الاجتماع حتى في الاسرة فقد صار الاب يهرب من ابنه والابن ينفر من أبيه والاخ يفر من أخيه خوفا من تجسس بعضهم على بعض ، وحتى صار الاجتماع في الاعراس والمآتم مخوفا ومهددا في دار السلطنة !! منع الاستبداد الماضي ان يجتمع الناس للشكوى من الظلم بأنفسهم أو بكتابة « المحاضر » وفرض عليهم ان يشكوا منفردين وان كان ما يشكون منه مشتركا بل منع شهادة التواتر الشرعية لانها لا تحصل إلا من جمع كثير · فالافراد الذين يمنعون من أصغر أنواع الاجتماع ويهددون بالعقاب عليه كيف يسوغ لهم ان يدعوا أرقى أنواعه وأعلاها ؟

اليوم قد تحقق زوال ذلك الاستبداد المفرق فاجتمع المبعوثان الذين اختارتهم الشعوب العثمانية لينوبوا عنها في القيام بمصالحها العامة كوضع القوانين والمراقبة على الحكام العاملين فبهذا الاجتماع تحقق تكوّن الامة

فهذا اليوم هو العيد الوطني الاكبر العام لجميع العثمانيين فان ما عداه من الاعياد الدينية وغير الدينية خاص ببعض الشعوب والاجناس أو بعض الاديان والمذاهب ، وفي هذا اليوم يحتفل بهذا العيد المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم ، يحتفل به التركي والعربي والالباني والرومي والكردي والارمني ، يحتفل به العثمانيون في البلاد العثمانية ، وحيثما كانوا من البلاد الاجنبية ، يحتفلون به مجتمعين ممتزجا بعضهم ببعض لانه عيد الجميع

هذا الجمع الذي نحن فيه يمثل لنا احتفالا من تلك الاحتفالات الكثيرة · أما ترون فيه الحاكم السياسي والاداري والقاضي الشرعي وأمراء العسكرية وغيرهم من رجال الحكومة ممتزجين بعلماء الدين الاسلامي وقسوس النصرانية وسائر أصناف الامة من الزرّاع والصناع والتجار والعمال وتلاميذ المدارس (١) والبشر يتدفق من وجوه الجميع لان العيد هو عيد الجميع

ثم انني أهنئ الامة في هذا العيد السعيد بمعنى آخر وهو انها قد صارت في هذا اليوم حاكمة لنفسها بنفسها فان المبعوثين الذين اجتمعوا في هذا الوقت المبارك في دار السلطنة لينظروا في قوانين البلاد وكيفية تنفيذها فيقروا ما يشاؤن ويغيروا

(١) ذكرت هذه الاصناف مع الاشارة الى كل صنف من المتصرف الخ

ما يشاؤن لم يكن السلطان هو الذي اختارهم وولاهم هذا العمل ولا غيره من رجال الحكومة ، وليس له ولا للحكومة ان يختاروا غيرهم عند انتهاء مدتهم أو يعيدوا انتخابهم، وانما كان هذا من الامة فهي التي أنابتهم عنها للنظر في شؤونها لأن هذا الحق هو لها دون غيرها فهي إذن الحاكم الاعلى وجميع الحكام من أعلاهم الى أدناهم مستأجرون لها بمالها لاجل ان يقوموا بما لابد لها منه ولا غناء عنه من المصالح العمومية ملتزمين في ذلك شريعتها وقوانينها التي ارتضتها لنفسها

في هذا اليوم نالت الامة هذا الشرف العظيم بالفعل ، وكانت من قبل مستعبدة للحاكم المستبد يتصرف في أموالها وأرواحها وحقوقها كما يشاء ، ولا يسمح لها ان تقول ولا ان تفعل الا ما يدل على السمع والطاعة والخضوع للعبودية

بقي ان تعلموا أيها الاخوان أن حكم الامة لنفسها محصور فيما ذكرنا من اختيارها وانتخابها لمن ترى فيهم الكفاءة والاستعداد لوضع القوانين العادلة لها والمراقبة لتنفيذها والنظر في مصالحها العامة كعلاقة الدولة مع الدول الاجنبية وليس منه ما رأيناه من تجمهر بعض الافراد واجتماعهم في دار الحكومة لإلزام بعض الحكام بما يرونه ويرغبون فيه فان هذا هو عين الفوضى والخلل لا تصلح معه حال ، ولا يستقر نظام ، ونسأل الله ان يتم علينا هذه النعمة ويوفق نوابنا إلى ما فيه خير الملة والامة .

* * *

خلاصة الخطبة الثانية في نادي الجامعة العثمانية

أحب أن أقول كلمة وجيزة في معنى الثقة بنجاح مجلس الامة ودوام الدستور: سمعت كثيرا من الناس يدعون الله تعالى بمثل قولهم « الله يتم بالخير » فكان يسرني هذا الدعاء من جهة و يسوءني من جهة أخرى . يسرني لانه صادر عن غيرة وحرص على نعمة الدستور وخوف على مجلس المبعوثين الذي يكفله ان يفشل أو يصيبه كيد الكائدين ، ويظفر بمراده حزب المستبدين المتقهقرين ، ويسوءني بما يظهر من فحوى القول ولحن الدعاء ، من ضعف الثقة وتغليب الخوف على الرجاء ، فان هذا الخوف يكاد يقرأ على الوجوه ، ويسيل من الالسنة متدفقا عن القلوب ،

اني أدعو مع الداعين بأن يتم الله عملنا بالخير ويجعل النهاية خيراً من البداية فاننا لا نستغني عن الدعاء، في السراء ولا في الضراء، ولكنني أدعو وأنا ممتلئ القلب بالأمل والرجاء، ولست أرى للخوف محلاً بفضل الله وكرمه فان حالنا اليوم لا تقاس على حالنا من مدة ثلث قرن كامل أيام عقد مجلس الامة الاول ثم حله الاستبداد فلم يلق في حله مقاومة ولا ملاما، بل كان برداً وسلاما،

الفرق بين مجلسنا اليوم ومجلسنا في ذلك الوقت بعيد جداً، ان ذلك المجلس لم يكن بسعي الامة ولا برأيها ولم تكن عالمة به ولا مستعدة له، وإنما هو من صنع مدحت باشا ابي الحرية و بعض اخوانه الوزراء والكبراء فهم الذين وضعوا القانون الاساسي، و بسعيهم ألزموا السلطان بقبوله فأظهر القبول وأمرت الوزارة بانتخاب المبعوثين فانتخبوا واجتمعوا ولما تفرق شمل هذه الوزارة حل السلطان ما كان منعقدا، وفرق ما كان مجتمعا، فكان ابطال «مجلس المبعوثان» أسهل عليه من إبطال نابليون لمجلس النواب، إذ لم يكن له من الامة عضد يؤيده، ولا من الجيش نصير يحفظه ويعضده، أطلقوا على ذلك المجلس لقب «أوت أفندم» (١) إذ قالوا ان الاعضاء كانوا يصادقون على كل شيء تلقيه اليهم الحكومة بكلمة «أوت أفندم» فلما أراد السلطان فض المجلس قال لهم مندوبه: اخرجوا واذهبوا إلى بلادكم، فوضعوا أيديهم على جباههم «إشارة الطاعة» قائلين «أوت أفندم» وولوا منصرفين، فما كان لهم من فئة ينصرونهم وما كانوا منتصرين،

ماذا كان من أمر القوة العسكرية كالشرطة وغيرها ؟ انها هددت المبعوثين ذوي الجرءة وأنذرتهم البطش بهم اذا لم يسرعوا بالسفر من الاستانة، فذهبوا مسرعين ذلك بأن الاستبداد خاف من بقائهم ان يحدثوا هنالك تأليبا للناس ويحملوهم على المطالبة ببقاء مجلس الامة والمحافظة على القانون الاساسي، على أن الامة نفسها لم تكن تحفل بذلك ولا تعرف قيمته ولذلك لم يظهر منها أدنى اهتمام في مكان ما

أما الآن فقد تغيرت الحال، واستبدل الله أقواما بأقوام، فقد نلنا الدستور وأعدنا القانون الاساسي بسعي احرار الامة النابغين، ومساعدة الجند وضباطه المستنيرين،

---

(١) كلمة تركية معناها : نعم ياسيدي

لا بسعي أفراد من الوزراء يمكن أن يصيبهم ما أصاب مدحت باشا واخوانه من نفي واغتيال فيذهب الدستور ومجلس الامة ويموتان بموتهم . كلا إن من ورائهما ذلك الجند الباسل الذي ساعد احرار الامة على نيل هذه الرغبة ولولاه لم نصل الى هذه النعمة ، من غير خطر على الدولة والامة ، ومن ورائهما احرارنا المنبثون في جميع الولايات العثمانية ينفخون روح الدستور فيها

تشهد أمم أوربا كلها بأن الجيش العثماني أشجع جيوش العالم وأشدها بأسا وثباتا في ميادين الجلاد حتى قال الجنرال مولتك القائد الالماني الشهير الذي نكل ذلك التنكيل بالفرنسيس : اعطوني مئة الف جندي عثماني افتح بهم اوربا كلها . ولكنهم كانوا يقولون ان هذا الجيش الباسل ينقصه الضباط والقواد العارفون الصادقون . والآن يوجد عندنا عدد عظيم من هؤلاء الضباط الذين تعلموا أحسن التعليم وتربوا أعلى التربية وهم الذين كانت تطاردهم السلطة المستبدة الماضية خوفا أن ايقضوا على استبدادها حتى شتتت شمل الكثير منهم فكان منهم المسجونون ومنهم المنفيون ومنهم الهاربون وقد بقي في الجيش العامل منهم من قلب تلك السلطة وأراح الله البلاد العثمانية من شرها فهل نخاف اليوم على مجلس الامة وقد عاد أولئك الضباط الكثيرون من سجونهم ومنفاهم وانضموا الى اخوانهم العاملين في الجيش وكل منهم يفدي الدستور ومجلس الامة بروحه ويبذل دونها آخر نقطة من دمه ؟

كلا ان العارف بحال الدولة والجيش وبما أتته جمعية الاتحاد والترقي من الاحتياط والتدبير للمحافظة على الدستور وحماية مجلس الامة لايخالج صدره أدنى خوف على المجلس في هذا اليوم وإنما كنا نخاف على الدولة في دور الانقلاب من الخارج ، كنا نخاف ان تقوم في وجهنا أوربا فتفسد علينا عملنا وتضطرنا الى الدخول في حرب لاتؤمن عاقبتها ، أما وقد لقينا من الدول الاجنبية ميلا وانعطافا عظيمين الا ما كان من ضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى أملاكها ومن إعلان البلغار الاستقلال ولم يكن في ذلك أدنى خطر على حكومتنا الجديدة ولله الحمد والمنة ، بل رأت النمسا الحرب الاقتصادية التي ناجزتها بها الامة العثمانية ماجعلها تندم على مافعلت وتود إرضاء الدولة العلية

أما المشاغب الداخلية التي يحركها في بعض الولايات انصار الاستبداد من حزب التقهقر كالعراق والشام والحجاز فلا خوف منها ولا خطر فاذا قام مثل طالب الرفاعي، يثير حزبه من أكلة الافاعي « ليفسدوا في الارض ويؤلبوا الاشقياء في ولاية البصرة على الدولة فان قيامه هذا لا تأثير له، ولا يعجز الحكومة الحرة استئصاله ، فان لديها من الرجال من يأكلون أكلة الافاعي ، فلا يعجزهم التنكيل بهذا الرفاعي « كما نكلوا قبله بذلك الشقي الكردي، فسيحبط عمل المفسدين ويستقر الامن في جميع الولايات العثمانية عن قريب ان شاء الله تعالى

ومن الناس من يخاف ان يفشل مجلس الامة ويعجز المبعوثون عن القيام بما نيط بهم وعهد اليهم من مصالح الدولة والامة ، واني أصيح بأعلا صوتي ان هذا الخوف في غير محله أيضا . ان المجلس السابق على ما كان عليه من الضعف وماقيل من ان جميع أعضائه أرادوا ان يكونوا من حزب الحكومة حتى لقبوا بكلمة « أوت أفندم » لخضوعهم لما يراد منهم — على هذا كله قد ظهر من بعضهم أفكار وآراء حسنة واستقلال يرجى خيره لودام فكيف يكون مجلسنا اليوم وقد ارتقت الامة بالنسبة الى زمن المجلس الاول في الاستعداد والمعارف والافكار بالرغم من اضطهاد الحكومة الاستبدادية للعلم والحرية حتى انها بنبوغ الكثيرين من رجالها قد انتصرت على الاستبداد وهو — كما قال الاستاذ الامام — في عنفوانه « والظلم قابض على صولجانه « ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له أيّ عبيد

ثم ان مجلسنا الذي نحتفل بافتتاحه اليوم مؤلف من طائفة من الاحرار المتطرفين وطائفة من المحافظين الجامدين ، وفيه عدد قليل من المعتدلين « وكثير من رجال العلم والدين ، واني أرجو — كما يرجو كثير من محبي الاعتدال — ان يكون تأليفه من هذه الطبقات المختلفة التي تمثل الامة كلها أقرب الى النفع وأبعد عن الخطر فاني أعرف كثيرا من احرارنا المتطرفين يميلون الى العجلة في الاصلاح ، وقد يكون من المستعجل الزلل ، ومن تأنى نال ماتمنى ، والعجلة في طور الانتقال من حال الى حال لا تخلو من خطر أو ضرر فان خاب الامل (لاسمح الله) وضعف المجلس عن الاصلاح المطلوب

الآن فان جمعية "الاتحاد والترقي المباركة" التي أخذت على نفسها كفالة" الدستور تسعى عند الانتخاب الثاني وتجتهد في جعل جميع الاعضاء أو اكثرهم من نابغي الامة" ونحمد الله ان في أمتنا من النابغين ، من يشهد لهم بالفضل والعرفان ساسة الاوربيين ، ناهيكم بأولئك الكرام الذين احدثوا هذا الانقلاب العظيم الذي ادهش عالم المدنية" بما دل عليه من الحكمة" والاعتدال

من الخطإ العظيم ان نطالب المجلس بأن يصلح حال الدولة" ويرقي الامة" في زمن قريب فان التدريج سنة" الهية" في الارتقاء ، والطفرة محال لا يطلبها العقلاء ، وإننا واثقون — مع الاتكال على معونة" الله وتوفيقه — بأن يكون لمجلسنا من الخدمة" النافعة ، ما تقتضيه مصلحة" الامة" في حالها الحاضرة ، آمين

***

خلاصة الخطبة الثالثة في نادي جمعية الاتحاد

انا منذ أعلن الدستور ، في فرح وسرور ، الى أن أتم الله سرورنا في هذا اليوم السعيد ، الذي هو للامة العثمانية اكبر عيد ،

كانت أسباب سرورنا في الاشهر الماضية سلبية وسبب سرورنا اليوم ايجابي وجودي ، سررنا منذ اعلن الدستور بأننا صرنا آمنين على أنفسنا أي لا نخاف ان نؤخذ بتهمة جاسوس ولا وشاية واش ، آمنين على بيوتنا أي لا تستطيع الحكومة أن تدهم علينا فيها ليلا أو نهارا للبحث عن كتب العلم وصحف السياسة التي كانت تسمى في عرفها بالاوراق الضارة أو « المظرة » ، سررنا بأننا صرنا أحرارا لا يمنعنا أحد مما نريد من التعليم والتربية ولا من اظهار استعدادنا في أي عمل من الاعمال ، سررنا بأننا صرنا آمنين على أموالنا لا يستطيع أحد أن يضرب علينا ضرائب ولا أن يأخذ منا أموالا لا يفرضها علينا الشرع الذي نعتقده أو القوانين التي يضعها لنا نوابنا الذين انتخبناهم للنظر في مصالحنا — كل هذه الفوائد التي استفدناها من الدستور مذ أعلن الى اليوم معناها سلبي تفسر بلا لا لا

في هذا اليوم تبتدئ المنافع الايجابية فقد اجتمع وكلاء الامة الذين أنابتهم

عنها للقيام بما يعزز دولتها ويرقي شؤونها ، وانا ننتظر من وراء ذلك من الفوائد ما ينمي ويزيد مع الايام والسنين الى آخر الدهر ، انا نهنيء أنفسنا بأن الامة قد صارت مذ اليوم حاكمة لنفسها وأمرها في يدها ، فما الذي يجب عليها لتكون محسنة في هذه السلطة وقادرة على استدامتها وحفظها ؟ يجب أن تُعنى بأن تكون أمة دستورية بالطبع مستقلة بالذات متحلية بالمعارف والاخلاق التي تعتز بها الامم بأن تحاول أن يصير كل فرد من أفرادها اهلا لان يَختار نواب الامة عن بصيرة أو يُختار هو بالاستحقاق

أول ما يجب علينا أن نفكر فيه ونتوجه اليه هو أن نتولى نحن بأنفسنا إصلاح أمورنا ولا نتكل على الحكومة في عمل من الاعمال التي يفرضها القانون على رجال الحكومة . فحسبنا من هؤلاء أن يقوموا بما عهد اليهم بالصدق والاستقامة ، ويجب أن يكون لهم منا عون ومساعد على ذلك ، وأن نتولى نحن سائر الامور التي تحتاج اليها الامة كتربية الاولاد ، وما يتعلق بالثروة والاقتصاد

قد تعودنا أن ننتظر كل اصلاح من الحكومة ولذلك اصابنا ذلك الفساد الكبير بفسادها ، ولا يزال كثير منا ينتظرون أن تصلح لهم الحكومة ماء البلد ، وتمهد لهم الطرق ، وتمد لهم خطوط الحديد ، وان اتكال الامة على الحكومة في كل الامور العامة صار مذ اليوم من التناقض أو مما يستلزم التناقض ، فبينا هي تفتخر بأنها صارت حاكمة لنفسها متولية لامورها اذا هي تتبرأ من كل عمل لها وتلزّه بالحكومة لزا ، وتلصقه بها الصاقا ، وان لم يكن مما يعمل مثله الحكام . فالحكومة على المعنى الاول افراد من الامة — في الغالب — تستأجرهم بمالها للقيام بأعمال مخصوصة لا تستغني الهيأة الاجتماعية عنها على الوجه الذي تحدده شريعتها (أي الامة) وقوانينها التي يضعها نوابها الذين اختارتهم لذلك ، وهي على المعنى الثاني عبارة عن رعاة والامة رعية لهم ليس لها من أمرها شيء فهم يسوسونها كما يسوس الراعي غنمه ، أو سادة يتصرفون في ملكهم وعبيدهم فما هذا البون العظيم بين الامرين !!!

انما فشل مجلس المبعوثين السابق لانه لم يكن من جانب الامة ولا كانت الامة كافلة له ولا عارفة قيمته ، ولم يكن المرحوم مدحت باشا واخوانه الذين وضعوا

القانون الاساسي وأسسوا مجلس المبعوثين يجهلون ان الاصلاح الحقيقي الذي يثبت ويدوم إنما يكون بتربية الامة وتعليمها حتى تصير أمة دستورية بالطبع لاتقبل الحكم الشخصي بحال من الاحوال ، ولكنهم رأوا هذا الطريق طويلا يحتاج الى عشرات من السنين ، ورأوا الاخطار مهطعة الى الدولة ، وأعناق الدول الطامعة ممتدة اليها ، وبراثنها ناشبة بأطراف جسمها ، فعزموا على سلوك الطريق القريب وهو جعل الاصلاح من جانب الحكومة ، فعملوا ماعملوا وألزموا السلطان بإعلان القانون الاساسي . ولا يشك عاقل في كون الإصلاح اذا جاء من جانب الحكومة، يكون أسرع من مجيئه من جانب الامة ، إذا هو ثبت ودام ، ولكن ثباته ودوامه عزيز المنال ، بل هو مع جهل الامة من قبيل المحال ،

ان الإصلاح في الأمم لا يأتي الا بالتدريج وهو انما يكون أولا بنبوغ بعض الرجال فيها ثم لا يزال يزيد النابغون حتى تكون بهم الامة من الامم الحية العزيزة القوية ، فيكون مثلهم فيها كمثل الشجرة المثمرة التي يبدو صلاح ثمراتها طائفة بعد طائفة ، وان من الشجر ما تكون بواكر ثمره غير جيدة ويجيء الجيد بعد ذلك كشجرة التين فان أول ثمرها الذي نسميه (الدافور) لا يجدي ولا يفيد ، ولكنه يكون مبشرا بماوراءه . ولقد كان شهيد الحرية والدستور مدحت باشا وإخوانه من قبيل (الدافور) من شجرة التين من حيث انهم كانوا مقدمة لصيرورة الامة العثمانية دستورية اذ تحقق ذلك من بعدهم ، ولم يتم في عهدهم ،

إن أول شيء يجب أن نوجه همتنا وعنايتنا اليه ، ونعول في حفظ شجرة الامة عليه ، هو التربية والتعليم ، اللذان يكثران فينا عدد النابغين ، فان الاحرار الذين قلبوا لنا الحال ، ونلنا بسعيهم هذه النعمة ، كلهم من ذوي التربية العالية ، الواقفين على العلوم العصرية التي عليها مدار العمران وارتقاء الممالك . وان جمعية الاتحاد والترقي التي نشيد بذكر فضلها قد تأسست أولا في المدرسة الطبية العسكرية في الاستانة ثم كان لها تأسيس آخر منذ عهد قريب

اخبرني بعض من تخرج في هذه المدرسة أن الشعور بسوء حال الدولة وبما ينذرها من الخطر قد بلغ من نفوس التلاميذ فيها مبلغا عظيما حتى ان الصائح بكلمة الدعاء

للسلطان في الوقت المعتاد صاح مرة « بادشاهم جوق يشا » ففتح التلاميذ أفواههم ولكن لم يخرج منها ذلك الصوت المعتاد الذي كان يملأ جوّها ، وما ذلك الا ان العلم بسوء الادارة وما كان يجب ان تكون عليه قد حرك في نفوسهم ذلك الشعور المحزن فعقد ألسنتهم ان تنطق بذلك الدعاء التقليدي المعتاد . فاذا لم نجتهد في تعميم التعلم الذي يمنح صاحبه هذا الشعور بحيث ينمي ويكثر فينا أمثال هؤلاء الرجال فاننا نخاف ان لايكون لهم خلف وما الموجودون منهم بخالدين ، فاذا لم ينتجوا ويجيء بعدهم من هم مثلهم وخير منهم فلا حياة في الأمة فان النتاج والنماء هما ثمرة الحياة والمقصد منها

يوجد في أكثر الولايات بل البلاد العثمانية افراد من الاحرار الذين استنارت عقولهم بالافكار العصرية ، ومعرفة طرق ترقي الامم والغيرة على المصلحة العامة ، فيجب على الامة ان تقدرهم قدرهم وأن تستعين بهم على ماينبغي لها في هذا الطور الجديد

لست أعني باعتماد الامة على نفسها دون الحكومة في التربية والتعليم ان لاتبالي بمدارس الحكومة . كلا ان الفرض الاول للحكومات من مدارسها هو تعليم طائفة من الامة مايقدرون به على القيام بأعمالها على وجه السداد ، وليس في وسع الحكومة ان تعلم جميع افراد الامة جميع مايحتاجون اليه وانما تقدم بذلك الامة نفسها

كيف تقوم الامة بذلك ؟ هل يعلم كل واحد نفسه ؟ هل يقول كل متعلم لمن يراه غير متعلم هلم أعلمك ؟ لالا ، وانما تقوم بذلك الجمعيات الخيرية فهذا الزمن زمن الجمعيات ، ولم ترتق أمة فيه بغير الجمعيات ، وحسبكم ان بعض الجمعيات عندنا قد اسقطت الحكومة الاستبدادية ، وأدالت منها حكومة دستورية ، فأي برهان أقيمه لكم على قوة الجمعيات أوضح من هذا الذي أنتم فيه ترون أثره بأعينكم ، وتلهجون بذكره بألسنتكم

لاينتشر العلم في هذا العصر الا بالجمعيات ، ولا يرتقي نوع من أنواع العلوم الا بالجمعيات ، ولا يقوم أمر من الامور العامة الا بالجمعيات فعلينا ان نبدأ قبل كل شيء بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تنشئ لنا المدارس والكتاتيب ، وان نعضدها بأموالنا على قدر استطاعتنا فبذلك نكون اهلا لترقية أنفسنا وترقية زراعتنا وترقية تجارتنا وسائر موارد الثروة التي تعتز بها الامة

ان في بلادنا خيرات كثيرة منعنا من الاستفادة منها الجهل والاستبداد الذي

كان يضطهد العلم ويؤيد الجهل ، فبالعلم صارت جزيرة زيلنده اكثر فائدة وانمى زراعة من مصر المشهورة بالخصب والزكاء وإن في بلادنا ماهو أخصب من أرض مصر تربة كأراضي الجزيرة بين النهرين (دجلة والفرات) التي قال هيرودس ابو التاريخ انها كانت تؤتي غلتها من مئة ضعف الى مئتي ضعف أي ان الشنبل (كالاردب) من القمح كان يغل لصاحبه مئتي شنبل . أيجوز ان تبقى هذه الارض التي لا نظير لها خرابا لا ينتفع منها بشيء (*

حسبنا من نعمة الدستور اننا صرنا احرارا لا يمنعنا مانع من الاستعداد ، ولا من العمل الذي نستغل به أرضنا ونستفيد من مواهبها الطبيعية ، وقد سمعتم من بعض الخطباء كلاما في الحرية فمن لي في هذا المقام أن ازيد شيئا وجيزا على ماقالوا فان المجال ذو سعة

الحرية تقابل الرق والعبودية فمعنى كوننا صرنا احرارا اننا كنا من قبل مستعبدين للحاكم المستبد أو اننا الآن قد خرجنا من هذا الرق والعبودية ، كان الحاكم قادرا على ان يمنعنا من التصرف في انفسنا وأموالنا كما نشاء فأصبح عاجزا عن ذلك . كان يمنعنا بالفعل ان نظهر استعدادنا الفطري للارتقاء من العلوم والاعمال فزال هذا المنع وصار يمكننا ان نخرج من المضيق الحيوي الذي حبسنا فيه ليسهل عليه ان يجعلنا رعية ويكون لنا كالراعي للبهائم ، صار يمكننا ان نكون اناسيّ وبشرا يتمتعون بمزايا البشر.

يقول العارفون بعلم النفس وعلم الاجتماع البشري ان استعداد الانسان لا يعرف له حد يقف عنده فاذا عاش البشر ملايين من السنين فانه يمكن ان يكون ارتقاؤهم فيها متصلا ومستمرا ، ويعرف هذا من قارن وقابل بين أولئك الذين يعيشون حفاة عراة في صحاري أفريقية وجبالها وفي بعض جزائر المحيط وبين هؤلاء الذين

*) ذكرت لهم بعد الخطبة حكاية الملك المستبد الذي سمع صوت بومتين تتحاوبان فسأل وزيره عن ذلك وكان الوزير قد ضاق ذرعا باستبداده فقال له انه ذكر يخطب أنثى فسألته ان يمهرها بضيعة خربة فقال لها انى أعطيك في عهد هذا الملك مئة ضيعة أو بلدة من الخراب . قلت وهكذا كان الخراب عندنا بحيث تصير أرض الجزيرة مهرا للبوم وجبال مالطه تزرع بالتراب الذي ينقل من الخارج

يخاطب بعضهم بعضا بالقول والكتابة بواسطة الاسلاك الكهربائية وبغير واسطتها مع بعد المسافات بينهم ، ويتمتعون بغير ذلك من ثمرات العلوم ونتائج المدنية الغربية

ما وصل أهل المدنية العالية في هذا العصر إلى ماوصلوا اليه من العزة والكرامة الا باطلاق العنان لجياد العقول ، في ميادين العلوم والفنون ، ومساعدة الاستعداد البشري على الرقي في معارج الكمال الاجتماعي اللائق به في ظل الحرية الظليل وحماية الدستور العادل

ولسنا نحن الشرقيين دون الغربيين استعدادا للعلوم والاعمال ولكن عبودية الاستبداد هي التي كانت تطفئ نور فطرتنا وتحجر على استعدادنا فلا تسمح لنا ان نظهر اسرار صنع الله وحكمه في خلقه ، ولا ان نتمتع بما سمح لنا الخالق الرحيم بأن نتمتع به ، كما قال في كتابه الحكيم : (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً)

كان العالم منا إذا أراد ان يؤلف كتاباً نافعا قال نذير الاستبداد إياك ان تفعل فان مولانا لا يريد ذلك ، واذا حدثت محب الفلسفة نفسه بأن يحل إشكالا ناجاه منه الاستبداد في سره إياك ان تفعل فان مولانا لا يحب ذلك ، واذا خطر في بال أحد ان يبحث في اسرار الخليقة ليخترع شيئا ينفع الامة اسرَّ له رسول الاستبداد : إياك ان تفعل فان مولانا لا يروق له ذلك ، كان لا يتجرأ أحد على إظهار أثر علمي أو عملي يرقي الامة في عقولها ونفوسها ، في دينها أو دنياها ، الاوجد الاستبداد له بالمرصاد ، وناله منه ماتعلمون من الاضطهاد ،

فالحرية اهي تحرير البشر من هذه العبودية ، الحرية هي التي يكون بها البشر بشرا ، لاغنما ولا بقرا ، فالانتفاع من الحرية يجب ان يكون بتوجيه الاستعداد الانساني إلى العلوم والاعمال التي ترتقي بها الامة والأخذ بها بلا شرط ولا قيد ، لا باتباع الشهوات ، واتيان الفواحش والمنكرات ، ولهذا كان الحكماء ومحبو الانسانية ينشدون الحرية ، ويبذلون في الجهاد في سبيلها أموالهم وأنفسهم ، ولا غرو فهم العالمون بالاسرار الالهية ، المودعة في الغرائز البشرية ، وبكونها لاتظهر الا في دائرة الحرية ،

ومن فوائد الدستور المساواة وقد خاض في بيانها الخطباءفأحببان أزيدعليهم كلمة في إزالة شبهة للناس فيها : يظن بعض الناس ان الدستور جعل الناس كلهم في مرتبة واحدة من كل وجه . وهذا من المحال الذي لا ينال بالدستور ولا بغيره وانما جعل الدستور الناس سواء في الحقوق — كما قال الخطيب السابق — فالغني والفقير ، والصعلوك والامير ، والعالم والجاهل ، والنبيه والخامل ، كلهم سواء في الحقوق ليس لأحد ان يعتدي على أحد في نفسه ، ولا ماله ولا يراعيَ الحاكم أحدا منهم ويهضم الآخر

أما المساواة في المواهب والغرائز وآثارها فليس للدستور فيها شأن فقد فضّل الله بعض الناس على بعض في الرزق والعلم والعقل كما نطق به كتابه ، ودلت عليه سنته في خلقه ، وله في ذلك الحكمة البالغة ، ولو جعل أفراد البشر سواء من كل وجه لما كان الانسان هو هذا النوع من الخلق الذي يظهر اسرار الطبيعة ، ويتمتع بما فيها من الحكم البديعة ، ولما تيسر للبشر ان يوجدوا الخبز الذي يأكلونه والثياب التي يلبسونها

ان تفاوت الناس في العقول والاخلاق ، هو الذي مكنهم من القيام بما ترون من الآثار والاعمال ، فان اختراع السفن البرية والبحرية واستعمالها مثلا لا بد فيه من العلماء الطبيعيين الذين اكتشفوا فوائد البخار والكهرباء والمهندسين والميكانيكيين كما انه لا بد له من الفعلة لاستخراج الفحم من المناجم ومن الوقادين لوضعه في النار وهذان العملان من أشق الاعمال وأصعبها . أفرأيتم من كان مستعدا للاكتشاف والاختراع في العلوم والسياسة والامارة هل تتوجه نفسه وهل يرضى بأن يستخرج الفحم من مناجمه في الارض أو بأن يقذفه في النار ؟ أو تتوجه نفسه لنحو ذلك من الاعمال الحقيرة التي لا بد منها في الاجتماع البشري كالكناسة وما في معناها ؟ كلا إن هذا النوع من المساواة ما كان ولن يكون وانما يتقارب الناس و يتعاطفون بتعميم التربية والتعليم ، فنسأل الله أن يهدي الامة العثمانية في ذلك إلى الصراط المستقيم

باب التربية والتعليم

« اصلاح التعليم الديني في الاستانة »

هذا ملخص مطالب طلاب دار الفنون في الاستانة من نظارة المعارف وقد ذكرت جرائد الاستانة ان طلبهم قد أجيب :

١ — تدريس التفسير الشريف بتقرير معاني القرآن الحكيم الظاهرة وأسباب نزوله و بيان الناسخ والمنسوخ وتطبيق ذلك على القوانين الفلسفية

٢ — تدريس الحديث الشريف وان تكون مدة تدريس البخاري أربع سنين

٣ — تدريس أصول الحديث مع تراجم رواته وطرق أسانيده

٤ — تدريس أصول الفقه و بيان قواعده الكلية وتقرير تعاليمه وتفرعاته وتدريس الفروق في القواعد والاصول بين المذاهب الأربعة

٥ — تدريس الفقه مع بيان القواعد الفقهية والفروع ، ومأخذ ذلك من الادلة الشرعية الاربعة مع إيضاح الحكمة الشرعية في ذلك وفلسفة الاحكام

٦ — تدريس التاريخ الاسلامي

٧ — تدريس تواريخ الاديان المشهورة

٨ — تدريس السيرة النبوية بالتفصيل

٩ — تدريس التوحيد وذلك بان تنبذ طرق تدريس التوحيد القديمة ويلقى علم التوحيد إلقاءً عمليا يوافق الزمان والبيئة ، ويترك من علم الكلام الالوف من خرافات الفلسفة القديمة التي امتزجت به

١٠ — تدريس الدين الاسلامي وبقية الاديان : وذلك بتدريس المقايسات بين أصول الدين الاسلامي وقواعده وأصول باقي الاديان وقواعدها

١١ — تعليم طرق الدفاع عن الدين الاسلامي قولاً وكتابة وأصول المباحثة فيه
١٢ — تعليم أصول التدريس والتعليم وعلم تربية الاطفال بطريقة نظرية وعملية
١٣ — تدريس الحكمة والفلسفة على الطريقة الجديدة
١٤ — تدريس علم الاخلاق نظريا وعمليا
١٥ — تدريس علم الروح
١٦ — تدريس التاريخ العام
١٧ — تدريس أصول الانشاء بالتركي والعربي
١٨ — ايضاح تشبث المسيحيين ولاسيما البروتستانت بنشر دينهم وأساليبه
١٩ — تعليم القاء المواعظ والنصائح وأصول الخطابة على الطراز الجديد

باب الأخبار والآراء

رحلة صاحب المنار في سوريا

﴿٢﴾

القلمون

مكثت في طرابلس أسبوعا زارني في أثنائه أكثر أهل القلمون وأخذوا يستعجلونني بالخروج إليها فلما كان يوم الموعد الذي ضرب به لهم انقسم أهلها شطرين أحدهما جاء طرابلس لأجل أن يكون معي وأكثر افراده من الشبان والكهول ، والآخر خرج لاستقبالنا مسافة ربع الطريق وثلثه ونصفه بين القلمون وطرابلس ، وأكثره من الشيوخ والنساء والاطفال والمسافة كلها ساعة ونصف

كان عدد كثير من الشبان يحملون السلاح فطفقوا منذ خرجنا من طرابلس يطلقون بنادقهم ومسدساتهم في الهواء فرغبت اليهم ان يكفوا عن ذلك فامتثلوا حتى اذا ماوصلنا الى الموضع المعروف بأبي حلقة الفينا فيه نفرا من شبان طرابلس

فحيونا بإطلاق البارود والرصاص في الهواء فأجابهم من معنا بمثل تحيتهم بل بأحسن منها فلم أنكر عليهم ذلك لعلمي بأن العرف يقضي بتسجيل العار عليهم إذا لم يفعلوا. وكذلك فعلوا عند ما اشرفوا من رابية «ظهر الرويسات» على القلمون لإيذان من بقي فيها بقدومنا وعند ما وصلنا الى دارنا ايضا لانه من قبيل سلام المفارقة . وقد ذكرت هذا لانه من العادات التي لم أكن أعرفها من قبل وسيأتي ذكر شيء آخر في معناه

وكان من حفاوة أهل القلمون بي أن حمل بعض نسائها مجامر العود الهندي وغيره من البخور أمامي من طرابلس الى القلمون وكان فيمن خرج للقاء ممن بقي فيها من يحمل المجامر أيضا . وقد راعني وأثر في نفسي رؤية الأولاد الصغار من بنين وبنات في الخامسة والسادسة فما فوق يتسعون الطريق ويتسلقون الروابي بين الاشواك والحجارة ، تبعوا في ذلك آباءهم وأمهاتهم واخوتهم واخواتهم وكان النساء يغنين ويزغردن ولهن في ذلك أغاني مناسبة للمقام ، وهذه العادة قديمة عند نساء البادية والقرى والبلاد التي لم يتسع نطاق الحضارة فيها . وقد ورد في هذا الباب ان النساء استقبلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة وهن يضربن بالدفوف وينشدن الاناشيد ومنها قولهن

طلع البـدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان فيمن خرج للقائنا مسافة نصف ساعة شيوخ وعجائز في عشر التسعين وعشر المئة من السن وهم صائمون وصحتهم جيدة بل مشى الى طرابلس اكثر من واحد من هؤلاء المعمرين . وأهل القلمون يعمرون لاعتدالهم في معيشتهم ورياضتهم الدائمة بالعمل في الارض مع جودة الهواء والماء فالخمر لا تدخل القلمون ولا يشربها أحد من أهلها والفاحشة غير معروفة فيها ولله الحمد والمنة ، وهاتان الكبيرتان هما افتك بصحة الناس من كل ما يأتيه الناس

سألت رجلا من هؤلاء الشيوخ (هو الحاج علي طوط) عن سنه فقال : أربع وسبعون سنة . وهو يواظب على صلاة الفجر في المسجد غلسا وربما يجيئه قبل

طلوع الفجر حتى في أوقات المطر والبرد كهذه الايام . ويمشي عدة ساعات في النهار وهو صائم . وسألت رجلا آخر (هو السيد عبد القادر علي) عن سنه فقال لا أدري ولكنه ذكر لي حكايات منها انه كان ملاّحا في البحر فجاءه مرة علي طوط ليعمل معه عمل البحر فلم يقبله لانه صغير لا يستطيع ان يحرك المجذاف . فالظاهر من هذا انه يكبره بزهاء خمس عشرة سنة فهو قد ناهز العشرة الاولى بعد المئة أو جاوزها ولا يزال يصوم ويعمل في أرضه بالعزق وشيبه غير تام . فليعتبر بهذا بعض الشبان والكهول المتفرنجين في مصر وغيرها الذين يزيّن لهم الترف والتهاون بالدين ترك الصيام محافظة على الصحة !! ولو عقلوا لعلموا ان البطنة هي التي تفسد عليهم صحتهم حتى ان أكثرهم ليتناول الادوية والعقاقير والمياه المعدنية لاجل إصلاح المعدة والمعى وتسهيل الهضم وهم في سن الشباب فماذا تراهم يفعلون إن شاخوا ؟ على انه قلما يشيخ منهم أحد !

ومما يفيد ذكره في هذا الباب : باب الاعتبار بحال الناس في الدين ان أهل القلمون كانوا بهدي بيتنا أبعد مسلمي بلادنا عن البدع كما انهم أبعدهم عن المعاصي . ولما انتهى دور الارشاد فيهم إليّ رأيت عندهم من البدع انهم يوقدون السرج والشموع عند قبرين أحدهما قبر السيد محمد القصيباتي الحسني المشهور في المقبرة القديمة وهو أحد أجدادهم وأجدادنا من جهة الامهات وثانيهما قبر بني حديثا عند عُليقة على شاطئ البحر وكانوا يربطون بهذه العُليقة خرقا صغيرة يقتطعونها من ثيابهم الخليقة يسمونها آثارا لأجل شفاء المرضى ، وكل من هذا وذاك معروف في جميع البلاد . فما زلت أنهاهم وأعظهم حتى تركوا البدعتين نساء ورجالا وصار من يزور القبور منهم يكتفي بالسلام على الموتى والدعاء لهم والتفكر في الموت والآخرة كما هو المأثور

وكان أكثر النساء من غير أسرتنا تاركات للصلاة وجاهلات بأحكامها وأحكام الطهارة وآداب الزوجية فجعلت لهن مكانا أعظهن وأعلمهن به كما أعلم الرجال في المسجد فصلحت حالهن في زمن قريب وكنّ أسرع امتثالا من الرجال . وكذلك كان يوجد رجال يتركون الصلاة ولا يحضرون الدرس في المسجد فكنت اختلف اليهم في بيوتهم وأذكر انه استعصى واحد من البلداء الخاملين فأمرت الشبان فسحبوه

سحبا ولكنه لم يواظب وأعيانا أمره فاكتفيت منه بوعد مكذوب . وكان فيها رجال يسرقون الثمرات كثيرا وغيرها من المتاع قليلا ، فندر ذلك ندورا ، كأن لم يكن شيئا مذكورا ، وكان عمدتي في وعظهم وتعليمهم كتاب إحياء العلوم وكتاب الزواجر وشرح المنهاج فصار فيهم متفقهون في دينهم يستحضرون مالا يستحضره كثير من العلماء المدرسين وكلهم من الفعلة والفلاحين والصيادين

على هذا تركت القلمون عندما سافرت الى مصر ولذلك قال أزهد الزاهدين ، وبقية السلف الصالحين ، العالم الأصولي السائح المعتبر الشيخ عبد الباقي الافغاني رحمه الله تعالى : لو بقي رشيد في بلده يعلم الناس ويرشدهم لكان خيرا له من الذهاب إلى مصر حيث لا يستطيع ان ينفع كما ينفع هنا . قال هذا عندما ذكر سفري له وهو لا يعلم ان قصدي بالسفر التصدي لإرشاد أعظم ، وتعليم أعم وأشمل ،

ولما عدت اليها في هذه الايام علمت انه قد فتن كثير من أهلها فتركوا الصلاة واتصل بعضهم بالذين اعتدوا على بيتنا من أشقياء طرابلس فأغراهم هؤلاء بقطع الاشجار وشهادة الزور وإضاعة الحقوق وكادوا يجذبونهم الى الخمر والفحشاء والقيادة . أغروهم بالمال وغروهم بأنهم يحمونهم من الحكومة وإن سلبوا ونهبوا وضربوا وقتلوا ، فسلسوا لهم وساعدوهم على نهب بيتنا ، وتقطيع الاشجار من بعض بساتيننا وكرومنا ، ونحمد الله ان كان هؤلاء المغرورون قليلين ، وأن كان أكثر الأهالي لهم ولفعلهم من الكارهين ، ونحمده أن جعل الشر أضعف من الخير

عدت الى هؤلاء الناس وهم قومي الذين أغار عليهم مالا أغار على سواهم وكنت أظن أن مالي من مثال الهداية والدين في نفوسهم قد صغر وتضاءل في هذه الفترة فاذا هو قد كبر وعظم حتى صار خياليا مقرونا بشيء من الخرافات فقد كان الرجال والنساء والاطفال يفدون على دارنا ليلا ونهارا ومنهم الضعفاء والمرضى والمُخدجون يلتمسون الشفاء مني باللمس والرُّقى وكتابة النشرات ومايعبرون عنه بالحرز والحجاب على ان في رجالهم من يعرف رأيي في ذلك فكنت اتلطف في بيان الحق لهم بقدر ما يسمح به المقام ويليق بحال المخاطب وأحثهم على المداراة الصحية والتداوي ومراجعة الاطباء عند الحاجة وقد سبق للمنار البحث في هذه المسائل والجمع بين الاحاديث

الواردة في الرق كحديث إقرار الذين رقوا الملدوغ بسورة الفاتحة وحديث وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم لا يسترقون على أن إقناع الناس بالباب الحق في هذه المسائل عسير، ولا يتم ولو مع الارشاد في زمن قصير، ونسأل الله تعالى ان لا يجعلنا فتنة لانفسنا، ولا لمن يحسن الظن بنا،

قلت مرة لعبد الرحمن افندي الكواكبي (رحمه الله) لو تيسر لنا ان نجعل بعض محبي الاصلاح المتمسكين بالكتاب والسنة شيوخا للطريق لامكن لنا بذلك هداية العامة بسهولة ولكن هؤلاء المصلحين قليلون ولا يكاد أحد منهم يرضى بأن يكون شيخا لطريقة من الطرق . فقال إنا قد جربنا ما ذكرت فأقنعنا رجلا من الصالحين المستنيرين في حلب بأن يكون من شيوخ الطريق فيرجع العامة عن بدعهم وخرافاتهم ويهديهم الى طريق الدين السوي فقبل بعد إباء ونفور فلما رأى إقبال العامة عليه واعتقادهم صلاحه وبركته فتن بذلك وجاراهم في اعتقادهم فكانوا سببا لضلاله بدلا من ان يكون سببا لهدايتهم وخسرناه خسارة لا نطمع في رجوعها (راجع تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا » الآيات في الجزء الثاني من تفسير القرآن الحكيم أو في المنار)

عقدت في القلمون عدة مجالس للوعظ والتذكير قل من تخلف عنها من حاضري القرية فتاب الناس توبة يغلب على ظني ان اكثرهم صادق فيها ولا أخشى من الاصرار على الفساد الا على نفر قليل من الموالين لبعض الاشقياء الغرباء الذين أشرت اليهم فيما سبق من القول، وقد ألفت لهم جمعية عنوانها قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » وجعلت لها صلة بجمعية التعاون التي سعيت بتأسيسها في طرابلس

دده وسائر الكورة

بدأت الوفود تفد من الكورة على القلمون للسلام علينا منذ اليوم الثاني من وصولنا اليها كرئيس دير البلمند ووجهاء البلاد من المسلمين والنصارى وقد نزل معظم أهل « دده » - وهي على قمة الجبل بازاء القلمون على الساحل - بعد العشاء وهم يطلقون البارود من بنادقهم والرصاص من مسدساتهم ويهزجون بالاغاني فتلقاهم

شبان القلمون في خارجها وأدخلوهم باحتفال يناسب مالم فيه وقد قيل لي ان من الرسوم المعتادة في ذلك أنه لو لم يخرج شبان القلمون لتلقيهم لما دخلوها لان ذلك يعد من الاهانة في عرفهم · وعند وصولهم الى دارنا تحلقوا أمامها وطفقوا يهزجون ويطلقون العيارات النارية الى قريب من نصف الليل ثم انصرفوا شاكرين مشكورين وكان زعيمهم في هذا الاحتفال الامير علي عبد الرحمن الايوبي

وجميع الاناشيد التي هزجوا بها مناسبة لمقتضى الحال ولعل أكثرها ارتجالي فانه في الترحيب بالقادم (صاحب هذه المجلة)وفيها إطراء له بالاعمال السياسية والعلمية وقد ذكر بعض القوالين المسلمين فيما أنشده عبارة معناها : لولاك يافلان لما ارتفع شأن الاسلام فأجابه رفيق له من النصارى بعبارة معناها انه ليس لكم وحدكم وانه قد طبع لنا الانجيل يعني بذلك انجيل برنابا ! ! وقد أضحكتني هذه العبارة وأضحكت كل من سمع بها من العارفين بانجيل برنابا · فحبذا هذه المداعبة مع هذا الاتفاق بين المسلمين والنصارى الذي حمدت عليه أهل دده حمدا جميلا (للرحلة بقية)

خطاب السلطان

﴿ في افتتاح مجلس المبعوثان ﴾

أيها الأعيان والنواب

« بسبب الصعاب التي قامت في وجه انفاذ الدستور الذي وضعته موضع الاجراء عند ارتقائي العرش أوقف هذا القانون يومئذ الاضطرار الذي أشار اليه كبار الحكومة ، وأجل انفاذ القانون وارجيء عقد المجلس الى وقت يصل فيه الشعب الى الدرجة المرومة من التقدم بواسطة نشر التعليم العام ، وقفت عنايتي على ايجاد الرقي في جميع انحاء بلادي ، وبفضل نشر التعليم العام ارتقت درجة افهام جميع طبقات شعبنا وبناء على الرغبة التي أعلنت ولان هذه الرغبة تضمن في الحاضر والمستقبل خير بلادنا لم نتردد — رغم الذين كانوا على رأي مخالف — في اعلان الدستور

ثانية وأمرنا بإجراء انتخابات جديدة . ودعونا مجلس المبعوثان للاجتماع . وعلى أثر تغيير طريقة الحكم الاداري اسندنا منصب الصدارة العظمى الى كامل باشا

وبينا كان مجلس النظار المؤلف تحت رياسته عاكفا على تنظيم الحكومة الدستورية خرج أمير بلغاريا ووالي الروملي الشرقية عن حدود الأمانة لسلطنتنا لسبب ما وأعلن استقلال بلغاريا وعلى أثر هذا العمل أخذت النمسا وهنغاريا أيضا بضم البوسنه والهرسك اللتين سلم اليها احتلالهما وقتيا بمعاهدة برلين . فابلغت اقرارها الى الباب العالي والى الدول . فهذان الحادثان العظيمان اللذان يخترقان حرمة المعاهدات ويمسان الصلات . سببا لنا اسفاً عظيماً

وعلى أثر اختراق حرمة المعاهدات سلمنا مجلس نظارنا مهمة عمل الواجب للدفاع عن حقوق حكومتنا . وانا نود في كل حال معاونة مجلس المبعوثان . وبما ان صلاتنا مع جميع الدول حسنة ووثيقة . فلنا الامل انه مع معاونة الدول صديقاتنا تحل المسائل السياسية

وانا نود من صميم الفؤاد تنظيم المالية ، وتسوية موازنة الميزانية ، ومواصلة تحسين حالة سلطنتنا وزيادة عدد المدارس لزيادة نشر التعليم العام ، وابلاغ جيشنا وبحريتنا درجة الكمال . وكذلك تنظيم الدوائر المختلفة التي وضعت مشروعات قوانين شتى ستعرض على مجلس المبعوثان ومجلس الاعيان لإقرارها

وعلى أمل ان مبعوثانا سيبذلون كل جهدهم في هذه السبيل نعلن اليوم اذاً فتح مجلس المبعوثان

ومنتهى متمنانا سعادة الامة ونجاحها وأقصى رغبتنا وآكدها وعزيمتنا الثابتة التي لا تتغير ان تكون ادارة البلاد مطابقة للدستور

نسأل الله أن يحصر مجلس المبعوثان كل قواه في خدمة البلاد وخيرها

(المنار) : بعد ان تلا رئيس كتاب المابين هذا الخطاب نطق السلطان بهذه الجملة بصوت خافت «انني كثير السرور برؤيتكم مجتمعين امامي هنا واسأل الله ان يكلل أعمالنا بالنجاح والتوفيق» ولقد كان للخطبة وقع سيء في الاستانة وانتقدتها الصحف ثمة انتقادا شديدا

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الجمعة ٢٩ ذي الحجة ١٣٢٦ — ٢٢ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٩ ﴾

خطب ودروس

﴿ صاحب المنار ﴾

في هذه الديار (*)

إن لي في هذه الدنيا وطنين : وطن المنشأ والتربية وهو سورية فانني نشأت في قرية القلمون المجاورة لطرابلس الشام في ساحل الكورة من لبنان وتعلمت في طرابلس . ووطن العمل وهو مصر التي أقمت فيها إحدى عشرة سنة أدعو الى الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي واقرأ الدروس واعمل في بعض الجمعيات .

ولما أقر الله عيوننا معشر العثمانيين بالحكومة الدستورية اشتقت الى زيارة وطني الأول لرؤية الاهل والاصدقاء ولاختبار حال البلاد بعد ان اشتدت عليها

(*) نشرت في العدد ٥٣ من جريدة الاتحاد العثماني البيروتية الصادر في ٢ ذي القعدة سنة ١٣٢٦

وطأة الاستبداد ومساعدة محبي الاصلاح والترقي في التنبيه لما يجب ان توجه اليه الهمم .

زرت بيروت وطرابلس والقلمون ثم عدت الى بيروت ومنها ذهبت إلى دمشق الشام فبعلبك فحمص فطرابلس . وقد ألقيت في أكثر هذه البلاد خطباً ودروساً وجرى لي مع أهل الفهم والظهور فيها محاورات كثيرة فوقفت على ماأحببت الوقوف عليه . أما المقاصد التي كان يدور عليها كلامي فهي محصورة فيما يأتي :

(١) وجوب الجمع بين هداية الدين والعلوم العصرية التي عليها مدار ثروة الامة وعزة الدولة ، مع بيان عدم التنافي والتعارض بين دين الاسلام وهذه العلوم من رياضية وطبيعية واقتصادية

(٢) الاعتماد في هداية الدين على اتباع سيرة السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم ومن سار على طريقهم وما طريقهم إلا الاهتداء بالكتاب العزيز والسنة السنية وقد فصلت ذلك في الخطب والدروس بمطالبة العلماء بأن يعلموا الناس دينهم كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم المؤمنين به فهديه أفضل الهدي وطريقه أقصد الطرق . و بينت ذلك في أسس الدين الثلاثة العقائد والآداب والاعمال

(٣) أما العقائد فبينت ان الاعتماد على كتب الكلام في تلقينها للعوام لا يأتي بالفائدة المطلوبة وربما يضرهم ويوقعهم في شكوك وشبهات لا يجدون منها مخرجا . ذلك بأنها لم تؤلف الا لحماية العقيدة من شبهات الفلاسفة والمبتدعة كما بينه حجة الاسلام الغزالي في كتاب (الجام العوام عن علم الكلام) وفي غيره من كتبه . وإنما يجب اتباع طريقة القرآن في تلقين المسلمين عقائدهم بالاستدلال عليها ببديع صنع الله في خلق السموات والأرض وما فيها من البحار والانهار والجبال والحيوان والنبات

(٤) وأما الآداب والأخلاق فيعتمد في تعليمها على الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الناهية عن الفواحش والمنكرات ، الآمرة بالمعروف والباقيات

الصالحات ، المنبهة على ما فيها من فوائد الخير ومنافعه في الدنيا والآخرة، وغوائل الشر ومضاره في الدنيا والآخرة — وعلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن اهتدى بهديهم من الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين

(٥) وأما الاعمال كالوضوء والتيمم والصلاة والحج فقد بينت انه ينبغي ان تعلم بالعمل كما ورد في الاحاديث الصحيحة ومنها حديث « صلوا كما رأيتموني أصلي » واذا قرأ الانسان جميع الكتب ولم يتلق الامور العملية بالقدوة فانه لا يحسنها على ان الاقوال لا يستغنى عنها في كثير من المسائل

ذكرت في عدة دروس وخطب ان هذه الطريقة هي التي يمكن تعميمها في مدة قليلة ترجى فائدتها و يظهر أثرها وانه من استطاع ان يعلم الناس كلهم أو بعضهم ما زاد على ذلك من كتب الكلام والفقه وغيرها فليفعل فالطريقة التي تقترحها لا تكون مانعة له بل تكون مسهلة عليه ولكنني أرى ان من المتعذر تعميم تعليم هذه الكتب فلنبدأ بالممكن الاسهل طريقا الذي لا بد منه لكل مسلم

(٦) الحث على تأسيس الجمعيات الخيرية لانشاء المدارس ونشر التعليم الذي يتحقق به المقصد الاول من هذه المقاصد وهو الجمع بين الدين والعلوم ولاعانة المنكوبين والمعوزين عند الحاجة لتكون طبقات الامة متعاطفة متراحمة يحترم فقيرها غنيها ويرحم كبيرها صغيرها

(٧) الحث على شكر نعمة الدستور بمساعدة جمعية الاتحاد والترقي على اتمام عملها العظيم في داخل البلاد من مراقبة الحكومة لأجل الثقة بالعدل وحسن الادارة ، ومن بث الآراء والافكار التي تنفخ روح محبة الدستور والمحافظة عليه في قلوب طبقات الامة العثمانية . وقد خطبت وتكلمت في الاستبداد والدستور والمساواة أكثر من مرة

(٨) تنبيه الامة إلى ما يجب عليها من محبة الدولة العلية وبذل المستطاع في تأييدها وتعزيز جانبها . وموالاة الدول التي تواليها ومعاداة الدول التي تعاديها ومجازاة هذه الدول بالاقبال على بضائعها أو بالاعراض عنها حتى تصير الدول تخشى عداوتنا وترجو مودتنا فانه لا شيء يهم أوربا من بلادنا مثل رواج تجارتها فيها . ولما جاءنا

نبأ ضم النمسا ولاية البوسنه والهرسك الى أملاكها واعــلان البلغار الاستقلال التام دون الدولة العلية وتحدث الناس باحتمال محاربة الدولة للبلغار وأظهر كثير من الشبان التطوع في الحرب بينت في خطاب ألقيته في نادي جمعية الاتحاد والترقي بطرابلس وفي خطبة ألقيتها امام الثكنة العسكرية في بيروت ان الدولة انما تحتاج الى مساعدة الامة بالمال دون تطوع الرجال لان ما عندها من العسكر كاف لمحاربة اية دولة عظيمة إذا وجد المال الـكافي لتجهيزه . ثم رأيت بعــد أسابيع من آخر خطبة ألقيتها في ذلك بعض الجرائد المصرية تقول مثل هذا القول الواضح لـكل عارف بالحقيقة

(٩) بيان التفاوت بين الشعوب والملل في البلاد العثمانية في العلوم والمعارف والاستعداد للقيام بأعمال الحـكومة والكسب والاستطراد من ذلك الى أن العرب أشد تقصيرا في ذلك من الترك والارمن والارناؤط كما ان المسلمين من العرب أشد تقصيرا من النصارى ، ولفت الاذهان الى مضرة هذا التفاوت اذا طال أمره لان الوحدة العثمانية لا تتحقق الا باتفاق جميع الشعوب والفرق التي تتكون منها الامــة العثمانية واشتراكها في الاعمال التي تصلح بها الدولة وتعمر بلادها، وهذا الاتفاق والالتئام من نتائج التقارب في التربية والتعليم ، فلا بد من عناية العرب عامــة والمسلمين منهم خاصة بالتربية والتعليم بقصد مجاراة غيرهم من إخوانهم العثمانيين وتمكين رابطة الاتحاد بهم ومساواتهم في أعمال الحكومة ومجاراتهم في الاعمال الحرة والا ساءت العاقبة وخيف ان تساعد أوربا في المستقبل كل جنس على الاستقلال وتجعل العرب تحت سيطرتها لعدم استعدادهم لتكوين حكومة مدنية

(١٠) تكريم الشعب وتنبيهه الى انه أهل لـكل مكرمة وكل خير ، وان العامي اذا اتقى الله فاجتنب الشرور والمعاصي ولزم الطاعة ورغب في الخير والبر فانه يكون خيرا وأفضل من كثير من المتعلمين الذين لا يستعملون علمهم الا لجر المنافع الى أنفسهم ولو بالباطل، وان الفقير القائم الصالح أفضــل من الغني الذي لا ينفع الامة بغناه ، ولا يقف في الـكسب عند حدود الله ، وان كثيرا من الفقراء

يمكنهم ان يبذلوا شيئا قليلا من الصدقة على قدر حالهم للجمعيات الخيرية وبذلك يعدون من خدمة الأمة ونحو ذلك

هذه هي المقاصد التي كان يدور عليها كلامي وكان يفهمها المتعلم والعامي: هذا يفهم فهما اجماليا، وذلك يفهم فهما تفصيليا، وقد رضيها وأثنى عليها جميع من لقيت من العلماء والأدباء وظهر لها أثر حسن في اندهماء، لما عليه أهل بلادنا من الذكاء، وقد سألت أكثر من واحد من أهل العلم الذين سمعوا الخطب والدروس الدينية التي كنت ألقيها في المساجد: هل انتقدتم عليّ شيئا فاتقي العود إلى مثله؟ فيقولون ما يقول أهل الفضل في هذا المقام اذا كان ما سمعوا مستحسنا عندهم غير منتقد. ذكرت هذه الكلمة تمهيدا لما يأتي

حادثة الشام

ذكرت جريدة الاتحاد العثماني خبر تلك الحادثة ولم تخطيء إلا في قولها اني سافرت من الشام ليلاً والصواب أني صليت الفجر فيها وسافرت في القطار الذي يخرج منها بعد مطلع الشمس. وقد علم القراء ان ذلك الرجل الذي قطع عليّ الدرس قبل اتمامه لم يدّع في مجلس الدرس اني قلت شيئا وأخطأت فيه وانما تكلم كلاما مستقلاً في مسألتين لم أتعرض لهما في ذلك الدرس ولا في غيره من دروسي في بر الشام باثبات ولا نفي وهما مسألة تقليد الأئمة الأربعة واعتقاد فضلهم وهدايتهم ومسألة زيارة القبور واحترام الصالحين والتوسل بهم. وقد كان صاحب الفضيلة مفتي الشام حاضرا ذلك المجلس فإيَّاه أسأل دون أولئك الألوف التي كانت حاضرة الدرس: هل سمع مني كلمة مخالفة للشرع؟ ان كان سمع شيئا مخالفا فاذكّره بالميثاق الذي أخذه الله على الذين أوتوا الكتاب «لتبيننّه للناس ولا يكتمونه» ان يبين لي ذلك في كتاب خاص يبعث به إليّ وأنا أنشره في المنار وغيره مع بيان ما عندي فيه، أو في رسالة ينشرها في بعض الصحف ليظهر الحق لطالبه ولا يخوض الناس في الباطل بغير علم. وسأكتب اليه كتابا خاصا أسأله فيه هذا البيان وهو أعلم بما ورد في الكتاب العزيز والاحاديث الشريفة في وعيد كاتمي العلم

كشف شبهتين او ثلاث

إذا كنت لم أتعرض لذكر زيارة القبور والتوسل بالاموات الصالحين في شيء من كلامي في بلاد الشام فقد اشتهر عني انني كتبت كثيرا في انكار البدع المتعلقة بذلك . واذا لم أكن قد تعرضت هنا لذكر الاجتهاد والتقليد فقد علم الكثيرون انني كتبت بذلك كثيرا . وكنت أعرض كل ما أكتبه ولا أزال أعرضه لنقد العلماء وأنشر كل ما يرد عليَّ منهم في ذلك ولا تتسع هذه الجريدة لذكر شيء من ذلك وانما أريد هنا كشف شبهتين خاض فيهما بعض الناس بسوء نية و بعضهم باخلاص وحسن قصد ولكن مع سوء فهم أو تصديق الكاذبين الذين يشيعون عنا الاباطيل حتى زعموا اننا ننكر وجود الملائكة وجودا مستقلا

الأولى : أشيع عني انني أطالب كل مسلم بان يكون مجتهدا مثل الأئمة رضوان الله عليهم ! وربما تطرف من يستبيح الكذب لارضاء هواه فزعم انني أطعن في الأئمة المجتهدين ! . وأقول في الجواب عن هذه الشبهة انه لا يطالب الناس بمثل ما ذكر إلا من كان لا يعقل ان هذا من طلب المحال لقصور استعداد أكثر الناس عن ذلك أو عدم تفرغهم له . ومن فهم انني أعنى هذا بالترغيب في الاهتداء بالكتاب والسنة فهو مخطيء فانما أعني به ان وعظ الناس وتذكيرهم بالكتاب والسنة هو الذي يؤثر في قلوبهم ويبعث روح الدين في نفوسهم، وأطالب المشتغلين بالعلم ان يعنوا بفهمهما ويذكروا العامة بهما ، سواء منهم من تفرغ لدرس كتب المذاهب كبعض طلاب العلم ومن لم يتفرغ له كأكثر العامة . ومسألة النهي عن التقليد مسألة أخرى يراد بها فهم كل قول بدليله لا ان يكون كل مشتغل بالعلم قادرا على تدوين مذهب!! . وهذا ما أعنيه بالاصلاح الديني وملخصه ان يعنى المشتغلون بعلم الدين بفهم الكتاب والسنة بقدر الاستطاعة وفهم كلام الأئمة بدليله وان يبذلوا جهدهم بارشاد العامة بهما كما تقدم . وهذا هو عين اتباع الأئمة وقد ورد عنهم نصوص كثيرة مصرحة به وهو غير التقليد الذي نهوا عنه

الثانية : انني لم أنكر زيارة القبور وانما أنكر دائما ما يكون عند زيارتها من

البدع التي لم تكن على عهد السلف الصالحين ، ولم يقل بمشروعيتها أحد من الائمة المجتهدين ، وأقول ان حب الصالحين والاولياء المقربين من الاحياء والميتين انما ينفع ويكون وسيلة الى الله عز وجل إذا أفاد صاحبه التشبه بهم في خشية الله وتقواه بترك المعاصي والعمل الصالح مع الايمان الصحيح والا كان غرورا . ومن الغرور الذي يغمه الاسلام دعاء أصحاب القبور بما لا يطلب إلا من الله واعتقادهم يستجيبون لمن دعاهم ؛ وان لهم سلطة غيبية وراء الاسباب والسنن الالهية ينفعون بها ويضرون ، ويعطون ويمنعون ، فهذا الاعتقاد عبادة باطلة وان سميت توسلا فان الاسماء لا تغير الحقائق

ومما يتعلق بهذه المسألة بحث الكرامات واني لم أنكر جواز الكرامات ولا وقوعها ولكن بينت انها لاتكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير او تبديل أو تحويل لان الله تعالى أخبر بان سننه لا تتبدل ولا تتحول . وانها لاتكون معتادة كأنها صنعة بيد الولي ؛ بل قال في الفتوحات انها لا تتكرر فان المكرر يكون معتادا لا خارقا للعادة وغير ذلك من الاغلاط التي لا دليل عليها في الشرع ولا العقل . وحذرت عوام الأمة من الدجالين المحتالين الذين يدخلون عليها التلبيس من هذا الباب . فمن أراد أن يقف على التفصيل في ذلك فليراجع المجلد الثاني والمجلد السادس من المنار ففيهما بضع عشرة مقالة مطولة في الكرامات . ومن يدعي ان شيئا من كلامنا المجمل هنا والمفصل هناك مخالف للشرع فعليه أن يكتب الينا دعواه مؤيدة بالدليل لننشرها له والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

محمد رشيد رضا

باب المراسلة والمناظرة

« من بحث الكرامات »

الى حضرة البارع الغيور ابي عبدالله الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار ايده الله وسدد مسعاه

السلام عليكم و بعد فقد طالما تشوقنا الى مناسبة المراسلة وارتباط المواصلة حتى حان وقتها بمناسبة ما كتبتموه في جريدة الاتحاد العثماني من اجمال رحلتكم إلى سورية فهنئكم بتعاهدكم للوطن الاول وا كتسابكم علما باحوال ما كان غائبا عنكم واطلعنا على مقاصد دروسكم وخطبكم الدالة على غزارة علم وجودة براعة وحسن احساس وشعور من تنبيهكم للتعاون على البر والتقوى والتعاضد ماديا وادبيا والسعي في عمارة الدارين وحضكم العلماء والمفيدين أن يكون وعظهم وتعليمهم مؤسسا على الكتاب وما صح من السنة فقهاً وعقائد وآدابا فلقد وفيتم ماعليكم من مسؤلية قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف) الآية وقدأبلغتم تلك النصائح بالحكمة والموعظة الحسنة فصنعكم هذا لا ينكره عالم يتحرى السنة والجماعة ولا يستقله الا جاهل أوحاسد فنشكركم على تلك الهمة والحزم السديد

بقي بحث الكرامات ذكرتم انكم لم تتعرضوا له في الشام وقد تعرضتم له الآن اماما أحلتم عليه في مجلدات المنار فمع الاسف انني الى الآن مارأيت من المنار عددا السبب الذي كان حائلا في الاستانة كما لا يخفى ولكن النقطة المقصودة هنا من بحث الكرامات جلية من الاجمال المسطور في الاتحاد العثماني وقد أكدتم على أهل العلم ان يكتبوا لكم ماظهر لهم فإنكم طوقتم أعناقهم امانة شديدة المسؤلية فيكون السكوت منهم وفاقا في جميع ماهو مسطور هناك فاخترت مكاتبتكم بما عن لي والمأمول من كمالكم الانصاف والرجوع الى الحق الذي يتبين لكم فنقول: قولكم في الكرامة « انها لا تكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير أوتبديل أوتحويل لان الله تعالى أخبر بأن سننه لاتتبدل ولاتتحول » هذا لفظكم تعنون:

قوله تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) تفسير هذه الآية ونحوها بعدم خرق العادة وعدم انحراف سبيل الطبيعة في الكون موجب للاسف وقد سمعت الاحتجاج بها مرارا على لسان من يدعي انحصار حوادث الكون في الاسباب انحصارا كليا ورأيته في كتب جديدة عربية وتركية ولا أدري أول من دس هذا البلاء تحت هذه الآية الكريمة فهو دفع للمعجزات النبوية بالصدر لانها محض خرق العادة وما هو الا تبديل وتحويل لما هو معتاد في النظام الكوني وليس لاحد ان يفرق بين المعجزة والكرامة في أصل التبديل والتحويل لانه لا دليل على تخصيص عدم التبديل والتحويل بزمان دون زمان فالمراد بسنة الله في الآية نصره لانبيائه ومن قفاهم، وخذلانه لاعدائه ومن والاهم، ونحو ذلك من احقاق الحق وابطال الباطل . قال المحقق مجدد القرن الثاني عشر الامام الشوكاني في تفسير فتح القدير تحت هذه الآية مانصه «فهل ينظرون أي فهل ينتظرون الاسنة الاولين أي سنة الله فيهم بأن ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل باؤلئك فلن تجد لسنة الله تبديلا أي لا يقدر احد ان يبدل سنة الله التي سنها بالامم المكذبة من انزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلا منه ولن تجد لسنة الله تحويلا بأن يحول ماجرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم و يضعه على غيرهم ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما ثم قال أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم هذه الجملة مسوقة لتقرير معنى ما قبلها وتأكيده»

ومثل الشوكاني سائر المفسرين من أئمة الدين ولا يقال هنا العبرة بعموم اللفظ لأن المعنى الذي زعموا تناول اللفظ اياه مناقض لاكثر آيات القرآن التي قصت وقائع الانبياء وغيرها من عجائب قدرة الله كنار ابراهيم وعصا موسى وخلق الله عيسى بلا اب وواقعة اصحاب الفيل وغير ذلك ولنا ان نقول نزوعا بالآية اعتبارا بعموم اللفظ عموما لا ينقض آية اخرى من سنة الله ان يخلق اشياء باسباب لحكمة واشياء بلا اسباب لحكمة ولن تجد لسنة الله تبديلا . واعجبني ما كتبه صاحب الحمية الاسلامية مفتي الديار المصرية في كتابه المسمى « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» بعد اشارته الى حديث« لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا

بذراع ، قال في صحيفة ١٣٨ : ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت احكام سنن الله فيهم فهل ينتظر المتبعون سنهم السائرون على أثرهم ان يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم وقد قضى بان تلك سنته ولن تجد لسنة الله تبديلا . اه فان كان مرادكم سد الذريعة خوف توسيع الخرق على الراقع من جهة العامة فسد الذريعة من أصول الشريعة لكن مع السلامة من مفسدة أكبر من تلك وخوفكم على العامة بهذه المثابة إفراط فانه لاتلازم بين جواز وقوع الكرامة خرقا للعادة باذن الله وجواز مايعمل من البدع في زيارة الاولياء والغلو في الاعتقاد . وانتم تعلمون ان الكرامة ثابتة عند أهل السنة قاطبة حتى الاسفرايني والقشيري المروي عنهما البحث في شأن الكرامة ما انكراها وانما قالا لا تبلغ مبلغ المعجزة و بعضهم شرط ان لاتتوالى وتترادف ترادفا يجعلها عادة وفيه نظر . وكلامنا الآن في جواز اصل وقوعها امكانا وسنة، لا في عوارضها وارشاداتكم على طريقة السلف الصالحين في الاعتقاد ، وهل نطق بذلك احد من اهل القرون الثلاثة؟ فتأملوا المسألة فان خطرها كبير والماديون والطبيعيون بالمرصاد فاذا سمعوا علماء الملة يقولون بعدم خرق العادة فيا بشراهم يبنون على هذا الاساس الموهوم ماشاءوا لان مذاهبهم انعزال الخالق جل جلاله عن التصرف في العالم استغناء بالطبيعة أعاذنا الله واياكم من الضلال و بالله تعالى التوفيق

محمد المكي بن عزوز بالاستانة

(المنار) إننا لا نقول بأن ما يعبر عنه بخوارق العادات غير جائز ولا غير واقع بل نقول الآن كما قلنا من قبل انه جائز وواقع وان كانت الآيات التي أيد الله بها الانبياء ليست محصورة في الخوارق الكونية وقد كانت عبارة الكرامات التي ذكرناها في المقالة التي نشرناها في جريدة الاتحاد العثماني مجملة لأ نا كتبناها بعد كتابة تلك المقالة فأودعناها بين سطورها في المكان اللائق بها فكان إيجازها هو السبب في إجمالها ولم نر بذلك بأسا لاننا أحلنا على ما سبق لنا من التفصيل الذي يبين مرادنا . وفي تلك المقالات التي نشرت في المجلد الثاني والمجلد السادس بيان مستفيض لكل ما ألم به صاحب هذه الرسالة ومنه البحث في تأييد الدين بالخوارق

وفي عد كثير من علماء الدنيا إياها شبهات على الدين ومنفرات عنه فعسى أن يطلع عليها كلها ثم يبين لنا رأيه فيها . وانا ننقل الآن له شيئا منها يتعلق بمرادنا من قولنا ان الكرامات لا تكون مغيرة لسنن الله تعالى

كتبنا في المقالة الثامنة من مقالات « الكرامات والخوارق » التي نشرناها في الجزء الأول من المجلد السادس الذي صدر في غرة المحرم سنة ١٣٢١ ما نصه (ص ١٧)

« أما البحث في آيات الأنبياء كيف وجدت وهل كانت كلها بمحض قدرة الله تعالى التي قامت بها السموات والارض أم كانت لها سنن روحانية خفية عن الجمهور خصهم الله تعالى بها كما خصهم بالوحي الذي هو علم خفي عن الجمهور ؟ فكل ذلك مما لا يفيد البحث فيه بل ربما كان ضارا . ومبلغ العلم فيها انها كما قال ابن رشد قد وجدت ونقلت نقلا متواترا اعترف به المؤمنون بهم والكافرون الذين سموها سحرا لجهلهم بالتفرقة بينها و بين تلك الشعوذات والحيل الباطلة . وفي شرح المواقف ان المعجزة كل ما يراد به إثبات النبوة وان لم يكن من الخوارق

« فعلم بهذا ان آيات الأنبياء عليهم السلام مصونة من انكار المنكرين ، واعتراض الواهمين ، وانها قد انتهت فلا يخشى ان يضر الاعتقاد بها في الزمن الحاضر وما بعده كما انه لم يضر في الماضي وإنما كان نافعا » اه من سياق الكلام في مبحث تنفير الخوارق عن الدين

وذكرنا في المقالة التاسعة التي نشرت في الجزء الثاني من ذلك المجلد (ص ٥٥ م ٦) عدة مسائل فى الموضوع الأولى منها فى سنن الكون وكونها عامة فى ارتباط الاسباب والمسببات والثانية فى كون الظن لا يعارض اليقين والثالثة فى كون روايات الآحاد تفيد الظن . والرابعة فى كون العجائب والخوارق قد نقلت عن جميع الامم ووجوب تمحيص النقول وتحريرها . والخامسة فى تمحيص المروي « ليعلم انه واقع حقيقة ولم يكن تخييلا للانظار ، أو خداعا للأبصار أو الافكار ، » وهذا نص السادسة :

« قد كشف العلم أسبابا لامور كثيرة كانت تسمى خوارق وكرامات فاذا علم بعد تمحيص الرواية والمروي أن شيئا من هذه الغرائب وقع لا محالة فينبغي الرجوع

لالتماس الاسباب من مظانها في العلم الطبيعي وعلم النفس فان لم يظهر له سبب يحمل عليه، ولا وجه يمكن ان يؤول اليه ، فهو الذي يصح ان يسمى خارقة أو أعجوبة ، والنظر فيه من وجهين: حال من ظهر على يده وامكان قياسه على غيره ، ثم بينا ذلك والغرض منه — كما لا يخفى — تنبيه الناس لحيل الدجالين ، وجذب منتحلي الخوارق الى الدين ، ولذلك قلنا في المسألة العاشرة (ص ٥٩ م ٦) ما نصه:

«اذا فرضنا ان العلم أظهر لما يؤثر من المعجزات عللا روحانية ، وأسبابا خفية ، (أي كما يعتقد منكرو الخوارق الآن) فلا يهمن واهم ان ذلك قدح في النبوة أو ظهور لبطلانها ، كلا إن تحقق (تأمل) فلا يبعد ان يكون تحققه مظهرا لحقيقة النبوة كأن يتبين ان الارواح العالية التي تتصل بالعالم الاعلى وتستمد من عالمه الذي يسمى الملائكة قوة العلم والهداية وقوة الاعمال الغريبة كإحياء الموتى وقلب العصا حية . فان لم يتبين به صدقها فلا وجه لظهور عدمه لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يدعون أن الآيات التي يؤيدهم الله تعالى بها خارجة من سننه الظاهرة والخفية ، وما كانوا يدعون ان لهم سلطانا في ملك الله تعالى يتصرفون فيه بمشيئتهم وارادتهم كما شاؤا وكيفما شاؤا ، وإنما كانوا يتبرؤن من حولهم وقوتهم و يسندون ما يؤيدهم الله سبحانه به اليه و يقولون انه واقع بإذنه ، وقد كان اعتمادهم في دعوتهم الى الله على البرهان ، وكانوا لا يعطون الآيات الا بعد معاندة ومجاحدة من قومهم والحاح في طلب آية لا يعرف مثلها عن البشر في افعالهم السببية ، وكان الله تعالى يقيم عليهم الحجة التي يطلبونها ولم تكن هي العمدة في إثبات الدعوة الى الله و بيان وحدانيته وقدرته وعلمه ووحيه (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب * قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فهذه سنة الله في الانبياء والامم : يدعو النبي قومه

الى الله بالبينة وهي كل ما يتبين به الحق من برهان عقلي ودليل إقناعي فيطلبون منه آية كونية فيتبرأ من حوله وقوته الى حول الله وقوته فيعطيه آية يخوفهم بها فيخضع المستعد لقبول ذلك، ويعاند الآخرون فحق عليهم كلمة العذاب، قال تعالى (وما نرسل بالآيات الا تخويفا)

«فاذا فرضنا ان العلم أظهر سببا معقولا لآيات موسى عليه السلام فهل ينافي ذلك أنها كانت تخويفا لفرعون وقومه وجاذبة لبني إسرائيل الى طاعة موسى بالارهاب اللائق بأمثالهم في بلادتهم وجفوتهم ؟

« ثم ان ما يتوقع كشفه بالعلم سيكون القاضي على بقايا دين لا يحتج على صحته الا بالعجائب وليس لاصحابه برهان على عقائدهم ، ولا سند متواتر على صحة كتابهم، أولئك الذين ينعقون في كل بلاد اسلامية : ان القرآن لم يثبت لمحمد (عليه افضل الصلاة والسلام) العجائب والخوارق فهو ليس بنبي ودعوته ليست صحيحة !! . فالعلم الإلهي والشرائع الدينية والمدنية والحربية والسياسية وتكوين الامم وتربيتها من رجل أمي تربى يتيما في جاهلية جهلاء وأمة أمية لا يرونه تأييدا الهيا ، وبرهانا على صدقه قطعيا، وإنما البرهان عندهم هو تلك الحكايات التي ينقلونها في عجائب مقدسيهم ويقل الوثنيون عن كهنتهم أعظم منها » اه ومنه يعلم اخوانا صاحب الرسالة مرمانا في هذه المباحث وانها تأييد دعوة الانبياء ومحاجة منكري آياتهم ومعجزاتهم ، فهل يخاف بعد هذا ان يكون كلامنا حجة لهم ؟؟ ولا يحسبن اننا نصور شبها لم ترد علينا كما فعل كثير من علمائنا كالرازي وغيره . كلا اننا نرد على قوم موجودين وشبهات كثر الحديث فيها. وهاك نص المسألة الثانية عشرة (ص ٦١ م ٦):

«سبق في المقالات الاولى ان اصحابنا فرقوا بين معجزة النبي وكرامة الولي بأن الاولى لابد ان تكون مقرونة بدعوى النبوة وطلب المعارضة الذي يسمونه التحدي ، والثانية لاتكون كذلك ، وبأن الاولى يجب إظهارها لاقامة الحجة ، والثانية يجب إخفاؤها خوف الفتنة ، وزاد بعضهم كالقشيري من أئمة الصوفية والسبكي في الطبقات الكبرى ان الكرامة لا تبلغ مبلغ المعجزة كإحياء الموتى وانما تكون فيما دون ذلك كشفاء مريض ومكاشفة خلافا للقول المشهور: ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون

كرامة لولي . ولقائل ان يقول جمعا بين القولين : اذا جاز ذلك في تصور العقل فانه ماوقع ولا يقع بالفعل » اه

هذا وقد بحثنا في مسألة الخوارق والسنن الالهية في غير هذه المقالات كدروس الامالي الدينية في العقائد و بينا ان السنن منها مايتعلق بالعالم المادي ومنها مايتعلق بالعالم الروحاني وان من يقول ان آيات الانبياء والكرامات لاتخالف سنن الله تعالى فمراده سننه العامة لان مخالفتها للسنن المادية قد شوهد في زمن ظهورها ونطق به الكتاب المعصوم وهذا الذي أوردناه هنا يكفي لتفصيل مارآه اخونا الكريم صاحب الرسالة في مقالتنا التي نشرناها في جريدة الاتحاد العثماني

وانا نشكر له فضله وعنايته بما كتبنا ومراجعتنا فيما أنكره منه فعسى ان يكون الشكر مدعاة المزيد من مثل هذه المراجعة المفيدة ومثله أهل لذلك . فحيا الله العلماء المنصفين، وجعل سيرتهم عبرة يستفيد منها الناس التفرقة بين علماء الآخرة وعلماء السوء الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فاذا رأوا عبارة يمكن انتقادها لاجمال فيها وغموض ، أو لكونها خطأ لصدورها عن غير معصوم ، اخذوا يشنعون ويغتابون، ولكنهم لاينبهون صاحبها ولا ينصحون ، وان لم يجدوا ذلك استنبطوا واخترعوا، وتقولوا وكذبوا ،

ان يسمعوا الخير أخفوه وان سمعوا   شرا اذاعوا وان لم يسمعوا كذبوا

صدى حادثة الشام

﴿ في تونس ﴾

جاءنا هذا الرقيم من أحد علماء تونس المصلحين وقد سألنا نشره في المنار وانا ننشره اجابة لسؤاله مع الشكر له ولاولئك الذين يحسنون بنا الظن قال :

أيها السيد الكريم

من ذا الذي يعلم خدمتك للملة ، وجهادك في سبيل ترقية الامة ، ثم لا يسجد

لله شكرا على ما نجاك ممن أراد بك كيدا ؛ فهنيئا للعلم والحكمة ، بما اسبغ الله عليهما من النعمة ،

ولقد رأيت المصطفين الاخيار ، من نابتة هذه الديار ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وافاض عليهم من طوله ، اذ حفظ زعيم هذه الامة ، الداعي الى سبيل ربه بالموعظة الحسنة والحكمة ،

واني لأذكر بهذه الحادثة ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد من عمرو بن قمئة ، وأحب ان يذكر ذلك اسرى الاوهام ، حيثما كانوا ، ممن يرون هذه الحادثة اثراً من آثار تحرج الدين عليك ، وانتظاره الفرص للانتقام منك ! كلا والله ، انك لمن أحب الناس اليه ، واكرمهم عليه ، ولو تمثل لهم بشرا لرأوه يحمد الله حمداً كثيرا ، ويشكره بكرة واصيلا ، على ان الحادثة — بفضل الله — لم تزد درجتك الا ارتفاعا ، وصيتك الا اشتهارا ، ولكنهم يفهمون الشرف مقلوبا ، والمجد معكوسا .

فيالله والدين والانسانية ، وطلاب الاصلاح من نبغاء الجمعية البشرية ، من هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويلقبون انفسهم بالفهماء وهم لا يفهمون ، ويحسبون انهم على شيء ألا انهم هم الكاذبون .

وانا نشكر للمنار الزاهر فضله في تبديد حزبهم ، وتمزيق شملهم ، والاجهاز على مذهبهم حتى أصبحت كلمة الحق هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، وازداد ايماننا بما قال الله في كتابه (انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال)

والله يحفظك لحماية دينه والدعوة الى سبيله ، والسلام .



آثار علمية أدبية

الانقلاب العثماني

طبعت رسالة الانقلاب العثماني بمطبعة المنار في كتاب مستقل[1]

وهذا نص المقدمة التي كتبها له شقيقنا السيد حسين وصفي رضا :

بسم الله الرحمن الرحيم

(وشاورهم في الامر)
(وامرهم شورى بينهم)
« القرآن الحكيم »

كانت الدولة العثمانية منذ أسسها السلطان عثمان ذلك الرجل المدبر العصامي ، الى نهاية أيام السلطان عبد المجيد العاقل الابي ، --- دولة حربية بحتة ، شادت بناء عظمتها على أسس الاقدام والشجاعة والغلب ، فلم يمض زمن كبير حتى اصبحت من الدول ذوات البأس اللاتي يتقى غضبهن ، ويخطب ودهن ، فأمعنت في الفتوحات ، واسترسلت في الغزوات ، وقلما كانت ترجع من غزوة إلا و بنود الفلج تخفق فوق رأسها ، ورايات الظفر تمايل في أيدي رجالها الكماة صلفا وفخرا ، فعز مكانها ، وتطاول بنيانها ، واتسع ملكها ، حتى تغلغلت في أحشاء أوربا ، بعد أن استحوذت على آسيا الصغرى وجزء كبير من إفريقيا .

---

(١) بلغت صفحاته ١٨٢ بالقطع الصغير وهو يباع بثلاثة قروش صحيحة في مكتبتي المنار بمصر وطرابلس

كانت سريعة الخطى في هذه السبيل فسادت وشادت ، وبنت على أطلال الدولة السلجوقية دولة عظيمة قوية ، وما كان الفخر في تلك العصور التي يسمونها العصور المظلمة الا بقوة المراس ، وثبات الجاش ، والنشوء بين صليل السيوف ، وتزاحف الصفوف .

أخذ بعضدها فاتح القسطنطينية وكان فتيا صالحا فأناف بها على اليفاع ، وتوقل بها سني المراتب ، ناهيك بمالك القسطنطينية اذا كان خيّرا عادلا ، وما زالت تتدرج في منازل العظمة ، ومواطن السؤدد ، حتى كانت أيام السلطان سليمان القانوني ، وفيها بلغت آخر مدى ووقفت عند منتهى الغاي ، وهو صاحب الفضل في جعلها حكومة نظامية قانونية ، بعد ان كانت تجري على تقاليد محفوظة ، لا غناء بها ، ولا نظام لها ، ومن ذلك الحين دب الضعف في جسمها وكان اهمال أولي الامر وجهلهم وسومهم الرعية سوء العذاب مساعدا على نماء الضعف ، وسريانه في جسم الدولة ، الى أن تولى السلطان محمود الثاني ذلك المحب للاصلاح ، والدولة على شفا جرف هار ينذرها بالاضمحلال والفناء ، الفاها وقد فقدت تلك القوة التي كانت تباهي بها ، ولم تضرب بسهم في العلم الذي أصبح السلاح القاطع والقوة الكبرى في ذلك الحين وهذا الحين ، فقوم منآدها بما في وسعه ، واصلح فاسدها بما في طوقه ، ومما يذكر له بالثناء عليه تنكيله بالانكشارية الذين كان زمام الملك في يدهم لذلك العهد ، وكانوا من أشد العوامل في افساد الدولة واضعافها

ثم تولى الملك السلطان عبد المجيد والدولة في قلاقل داخلية ، ومشكلات خارجية ، تضعف الرجاء في إقالتها من عثرتها ، وانهاضها من كبوتها ، بله ارجاعها الى سابق عزها ، وسالف مجدها ، فأخذ بضبعها ، وحدد للحكومة وظائفها ، وبين للرعية حقوقها ، ويكفيه فخرا انه هو الواضع لخط « كلخانه » المعروف

لم يكد عبد المجيد يوارى في رمسه حتى قام السلطان عبد العزيز وهو الذي زيّن له حب الشهوات ، وأولع بحب السيطرة ، واشرب قلبه القسوة ، ينكث فتل سلفه ، ويصدع رأب سابقه ، وكان عونا له على هذا التخريب وزيره محمود نديم باشا ، حبيب (اغناتيف) السفير الروسي في ذلك العهد ، ومنفذ غاياته ومقاصده

ثم جلس على سرير الملك السلطان عبد الحميد الثاني ، بعد ان تولى الملك السلطان مراد مدة لم تتجاوز ثلاثة وتسعين يوما ، ولم يكد يستقر على السرير حتى أحاط به جمهور من الاحرار ، وزينوا له ان يسير على سنن أوربا ، فتكون حكومته دستورية حرة ، وكان مدحت باشا هو الرأس المدبر لهذه الحركة ، واليد العاملة فيها ، ولم تكد تقر عيونهم بتحقيق الرغبة ، حتى فوجئوا بالنفي والابعاد ، وإلقائهم في غيابة السجون ، وإغراقهم في لجج البوسفور ! ! !

ابتدأت المظالم منذ ذلك الحين تحارب الامة في جميع مقومات الحياة ، والتف حول السلطان فريق من الجواسيس « يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فطفقوا يرضون المخلوق بما يسخط الخالق ، واقترعوا ضروبا من الظلم ، وأفانين من الارهاق والتضييق ، كانوا يصولون بها على الأمة صيال الوحوش الضارية ، والطيور الكاسرة ذوات المخالب ، وامتد بهم الافساد الى أن سلطوا بعض رجال الامة على بعض ، ففتوا في عضدها ، وأفسدوا أخلاقها ، حتى بات الابن يخشى ان يأتيه الضر من قِبَل أبيه ، والأخ يتوقع ان يحيق به البلاء من ناحية أخيه ، وكان العلم أخوف ما يخافونه ، فنكلوا برجاله شر تنكيل ، ففر منهم من أفلت من ظلمهم الى أوربا وأمريكا ومصر .

كان الاحرار في غضون هذه الملمات والكوارث النازلة بأمتهم قد اجمعوا أمرهم سراً وانشأوا الجمعيات السياسية في بلاد الحرية التي تبوأوها ، ونشروا الجرائد والكتب والرسائل ، وكلها تنديد بالحال الحاضرة ، وغلا في ذلك قوم واستخذى آخرون ، حتى قام فريق من الشبان في الاستانة — ومعظمهم من طلاب المدرسة الطبية والمتخرجين فيها — فأسسوا جمعية الاتحاد والترقي منذ ثماني عشرة سنة ، ثم نمت وعظمت بعد ذلك ، وانتظم في سلكها كثيرون من كبار الاحرار وخيار العقلاء . وقد كان لرجالها تكتم غريب ، وتحفظ شديد ، وحزم عظيم ، كانت بدايته السلامة من صولة الجواسيس ، ونهايته ذلك الفوز الكبير والنصر المبين ، إذ قاموا بقلب أعرق حكومة في الاستبداد الى حكومة دستورية حرة ، من دون ان

يراق في سبيل ذلك نقطة دم، مع أن المسطور في التواريخ ان مثل هذا الانقلاب لم تصل أمة إلى ساحله الا بعد خوضها في بحر لجي من الدم،

لم تكن دهشة الامة العثمانية واعجابها بهذا الانقلاب بأكثر من دهشة سائر الامم الاخرى، فقد تجاوزت صيحات (نيازي) و(أنور) بلاد الدولة العلية الى مدن أوربا وغيرها، فالتفتت مذعورة حائرة من هذا المصير العجيب الذي ما كان يخطر لها ببال، ولا يزال الناس فيها وفي غيرها من بلاد الدنيا معجبين بهذا الانقلاب الذي لم يع التاريخ في صدره له ضريبا، حائرين في أسبابه ومقدماته، حتى قام اليوم الكاتب السياسي، والاديب الالمعي، صديقنا محمد روحي بك الخالدي، عضو القدس الشريف في مجلس النواب العثماني — بتأليف رسالة جليلة في هذا الموضوع، أماط فيها اللثام عن الاسباب المجهولة، والحقائق المخدرة، وقد بحث فيها بحثا فلسفيا في أصل الاستبداد ونشوءه، وشكل الحكومة العثمانية في بدء تأسيسها، وبيان تقاليدها الموروثة ونظاماتها المكتسبة، وشيوع الخلل في إدارة الدولة واستبداد أولي الامر فيها، مما أدى بها الى شر حالة، وكان سببا في قيام الاحرار ومطالبتهم بالاصلاح، وأفاض القول في شؤون الاحرار وتاريخ ظهورهم، وبيان الطرق التي سلكوها ليصلوا الى مقاصدهم، مع تراجم لمشهوريهم.

جال المؤلف في ذلك جولة المؤرخ الواقف على الحقائق، واستنتج من الحوادث التي سردها أن الانقلاب هو النتيجة التي لا بد منها لتلك المقدمات التي سبقته، فكان ما كتبه جديرا بأن يكون رائدا لمن يأنس في نفسه شغفا الى استكناه تلك الغوامض التي ادهشت العالم، وقلبت كيان السياسة، وأي قارئ ليس شغوفا بذلك؟

نشرت الرسالة في مجلة (المنار) فكانت موضع استحسان العلماء العقلاء، والكتاب الابيناء، وكان بدا لي ان استأذن مؤلفها في طبعها على حدة لتكون كتابا مستقلا تلذ مطالعته، وتسهل مراجعته، فكتبت اليه راغبا في ذلك، فرجع القول ملبيا الطلب، سامحا بتنقيح ما لا تسلم منه كتابة المتسرع، ولا سيما اذا كان كمؤلفنا لم يتح له ان يعيد النظر على ما كتب،

واني أزفها اليوم الى الناطقين بالضاد مطبوعة طبعا صحيحا، رجاء ان يستفيدوا من تحقيق مؤلفها، ويقفوا على أسباب ذلك الانقلاب العجيب. وخليق بأهل هذا

القطر الذين شغفوا بالدستور وقد ضلوا طريقه ، ولم يهتدوا إلى بابه ، أن يمعنوا في معانيها ويتبينوا مراميها ، عسى ان يتأسوا بأولئك الاحرار ، ويكونوا من خير المحتذين لهم في هذه الديار

القاهرة في سلخ ذي القعدة سنة ١٣٢٦

حسين وصفي رضا

التقريظ والانتقاد

حالت كثرة المواد في أجزاء المجلة الأخيرة دون التنويه بالكتب التي أهديت إلينا، وذكر المجلات والجرائد التي صدرت في هذه الفترة ، ولما كان هذا الجزء هو آخر أجزاء السنة التي أهديت إلينا فيها تلك المطبوعات رأينا ان ننوه بها على سبيل الاختصار ، وربما نعود إلى الكلام على ما يستدعي منها الكلام في السنة الثانية عشرة :

﴿ الكتب ﴾

تاريخ مشروع السكة الحجازية

ألفه صديقنا الشيخ محمد انشاء الله صاحب جريدة « وطن » الهندية الشهيرة في ثلاث لغات : الاوردية والعربية والانكليزية وهو تاريخ مفصل لهذا المشروع الجليل

اتمام الوفاء

مؤلفه الشيخ محمد الخضري المدرس في مدرسة القضاء الشرعي وهو يحتوي على سيرة الخلفاء الراشدين وقد جعله مؤلفه قسمين : قسماً سماه عصر اتحاد الكلمة وقد ذكر فيه الفتوحات ونبذة من نظامات الأمة الاسلامية في ذلك الحين ، وقسما سماه عصر الفتن وهو ما كان في أيام الخليفتين عثمان وعلي (رض)

والكتاب يقع في ٣٣٩ صفحة بالقطع الصغير ويباع بخمسة قروش في جميع المكتبات

تاريخ اسلاميت

مؤلفه الدكتور . ر . دوزي الهولاندي أحد علماء المشرقيات الاعلام ومن اعضاء المجامع العلمية في أوربا ، وهو كتاب جليل ترجمه باللغة التركية الدكتور عبد الله بك جودت منشيء مجلة « اجتهاد » وصفحاته ٣٣٤

المنهج المسلوك

ألفه الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن السادس للملك الناصر صلاح الدين يوسف وقد طبع على نفقة أحمد زكي افندي أبو شادي ومحمد رشدي افندي الخبير بالمحاكم الاهلية وهو يطلب منهما وصفحاته ١٤٠ بقطع المنار

تأويل مختلف الحديث

هذا الكتاب من نفائس الكتب وضعه الإمام ابن قتيبة الدينوري من أهل القرن الثالث « في الرد على أعداء أهل الحديث والجمع بين الأخبار التي ادعوا عليها والاختلاف والجواب عما أوردوه من الشبه على بعض الاخبار المتشابهة أو المشكلة بادي الرأي » وقد طبعه الشيخ زكي فرج الله الكردي بعد ان صححه على نسخة مصححة بقلم السيد محمود شكري الآلوسي عالم العراق ونسخة مصححة بقلم الشيخ جمال الدين القاسمي الشهير وحسب الكتاب ثقة أن يكون مصححا بقلم هذين العالمين ، ويطلب من طابعه بمصر

ثمار القلوب

مؤلفه الامام ابو منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر وفقه اللغة وهو من كتب الأدب التي يرغب فيها ، ومن ذا الذي لا يرغب في كتب الثعالبي من الادباء ؟ والكتاب يقع في ٥٦٠ صفحة مطبوع طبعا نظيفا على ورق جيد ويطلب من طابعه احمد زكي افندي ابو شادي بمصر

الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده

تأليف صديقنا سليمان افندي البستاني العضو في مجلس المبعوثان عن ولاية بيروت والكتاب يحتوي على فصول كثيرة من آراء المؤلف ومروياته ومرئياته ، وهو مطبوع

طبعا نظيفا على اجود ورق وصفحاته ٢٠٣ وثمنه ١٢ قرشا صاغا وهو يباع في جميع المكتبات ويطلب من اسعد افندي البستاني بشارع صندوق الدين بمصر

تركيا الجديدة

مؤلفه جميل افندي معلوف من مشهوري كتاب السوريين في أمريكا وقد قسمه الى ستة كتب: (١) اسباب الانحطاط في الشرق ، (٢) تفرنج الشرقيين ، (٣) التعليم ، (٤) القانون الاساسي ، (٥) الديانة السياسية ، (٦) ابقاء أم فناء. وختمه بفصل في حقوق الانسان وملاحظات متفرقة.

عفة الاولاد

كتاب صغير يحتوي على نصائح وعظات يجدر بالنابتة أن تعنى بتلاوتها وتدبرها ترجمه بالعربية سليم افندي خوري «بقلم سكرتير مالي السودان» وهو يطلب منه

جواهر الحكماء

هو مجموع رسالتين إحداهما لابن المقفع والاخرى للحافظ ابن عبد البر الاندلسي جمعهما في كتاب واحد عوض افندي واصف صاحب مجلة المحيط ويطلب منه وثمنه ثمانية قروش.

« الدواوين الشعرية والرسائل والقصص »

ديوان احمد نسيم

احمد افندي نسيم من شعراء مصر المشهورين وقد جمع شعره في كتاب بلغت صفحاته ١٣٩ مطبوع طبعا نظيفا على ورق صقيل

ديوان الحمويات

نظم هذا الديوان السيد محمد الحسن الحموي وهو يحتوي على موضوعات شتى وكثير من المقاطيع وقد طبع بالقطع الصغير وصفحاته ٢٠٨ ويطلب من ناظمه بحلوان

رسالة المطور

ترتيب محمد توفيق افندي عطار الدمشقي نزيل الاستانة وهي رسالة في علم الفرائض سهلة العبارة حسنة الترتيب

تاريخ الحرمين وبيت المقدس

كراسة لأحمد حافظ افندي هدايه وتطلب منه بطنطا

المبادىء النحوية

رسالة في النحو مختصرة سهلة للشيخ مصطفى بكري الاسيوطي « مدرس اللغة العربية بالمدارس الحرة »

فتح القيوم

وهي ختمة مقدمة ابن آجروم للسيد محمد بن سودة من علماء فاس

في سبيل الدستور الفارسي

كراسة تحتوي على خطب وكلمات جمعها حسين افندي ابراهيم الايراني نزيل مصر

يوم الحساب

هو الجزء الاول من مجلة حدائق الظاهر لصاحبها أحمد زكي افندي أبو شادي ومحمود افندي عباسي وثمنه ٣ قروش

ربة الجمال

قصة ترجمها باللغة العربية اسكندر افندي خوري وتباع بستة قروش في المكتبة الشرقية

﴿ المجلات والجرائد ﴾

الشرق الادني The Near East.

مجلة انكليزية مصورة تبحث في شؤون الشرق الادنى خاصة ، وتطبع على أجود ورق ، وتنشر صورا للبلاد الشرقية ورجالها ومجالسها وغير ذلك في غاية الاتقان ، وموضوعها سياسي مالي أدبي ، وهي تصدر في لندرة وثمن الجزء منها نصف شلن ، ولم يكتب عليها اسم صاحبها أو أصحابها

الجنس اللطيف

مجلة « أدبية اجتماعية لصاحبتها ومحررتها ملكه سعد » تصدر في مصر مرة في الشهر

باثنتين وثلاثين صفحة وطبعها في غاية الجودة، وورقها صقيل وموضوعها جليل، فخليق بالشبان والشواب التوفر على مطالعتها، وقيمة اشتراكها أربعون قرشا صاغا في السنة

بيان الحق

مجلة تركية تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية، وتنشر أفكار الجمعية العلمية الاسلامية ثمة، وهي دينية علمية سياسية أدبية تصدر مرة في الاسبوع، وقيمة اشتراكها في السنة ٩٥ قرشا صاغا عثمانيا وثمن النسخة قرش ونصف

المباحث

صدرت هذه المجلة التي أشير اليها في (ص ٦٣٦ م ١١) وهي كما كان ينتظر من منشئها صديقنا جرجي افندي يني وأخيه صموئيل افندي، فهي تدل على علم وبحث واضطلاع، ويقع الجزء منها في ٤٨ صفحة وقيمة اشتراكها في طرابلس الشام ١٥ فرنكا و١٧ في الخارج

روضة المعارف

«مجلة علمية أدبية تاريخية فكاهية اخبارية تصدر في كل خمسة عشر يوما مرة» في بيروت لمديرها محمد علي بك القباني ورئيس تحريرها الاستاذ عبد الرحمن افندي صلام من علماء بيروت. جاءنا الجزء الاول منها منذ شهرين وهو مصدر بصورة السلطان !! وقيمة اشتراكها ريالان في بيروت و١٢ فرنكا في خارجها

المنتقد

«مجلة عمرانية اجتماعية انتقادية فكاهية» تصدر في بيروت مرتين في الشهر بالقطع الصغير، لمنشئها محمد افندي باقر ومديرها كمال افندي بكداش، وقيمة اشتراكها ٣٥ قرشا في بيروت و١٠ فرنكات في خارجها

الاعمال اليدوية للسيدات

مجلة ذات رسوم لصاحبتيها فاسيلا وأختها وقيمة اشتراكها ستون قرشا صاغا في مصر

القرطاس

«مجلة علمية أدبية مدرسية تصويرية» تصدر في آخر كل شهر افرنكي في الاسكندرية لمحررها أحمد افندي فائق وقيمة اشتراكها ٢٠ قرشا صاغا

الجامعة المصرية

مجلة نصف شهرية مصورة تنشر محاضرات أساتذة الجامعة المصرية لاصحابها محمود افندي شاهين ومحمد كامل افندي فيضي وعبدالله افندي أمين وقيمة اشتراكها ٥٠ قرش في مصر لغير طلبة الجامعة

المدرسة

« مجلة علمية أدبية تاريخية يقوم بتحريرها نخبة من كبار الأدباء والكتاب» تصدر في الشهر مرة باثنتين وثلاثين صفحة وقيمة اشتراكها ٤٠ قرشا في مصر

فرعون

مجلة تبحث في شؤون القبط الملية وتصدر في الشهر مرتين لمديرها توفيق افندي حبيب واشتراكها ٢٠ قرشا في مصر

صحيفة

مجلة أوردية تصدر في حيدر أباد الدكن (الهند) لمنشئها مولوي محمد أكبر علي معتمد مجلس المعارف ثمة

ابوقشه

جريدة اصلاحية اسبوعية تنشر الجد في قالب المزل، يصدرها في تونس السيد الهاشمي احد الكتاب المشهورين، وقيمة اشتراكها في السنة عشرة فرنكات

الحكيم

جريدة اسبوعية « حرة تبحث في كل شيء » يصدرها في كوردوبا (الارجنتين) عزيز افندي حكيم ولها عناية خاصة بالابحاث الفلسفية

شمس العدالة

جريدة اسبوعية « سياسية فنية ادبية » أنشأها فريق من الكتاب باللغة العربية في الاستانة، وقد سموها في هذه الايام « شمس الحقائق » وقيمة اشتراكها ليرة عثمانية في السنة

الاتحاد العثماني

« جريدة يومية سياسية ادبية اجتماعية عمرانية » يصدرها في مدينة بيروت صديقنا الشيخ احمد حسن طباره من مشهوري أرباب صناعة القلم، وهي من مثليات الجرائد الراقية في سورية، وقيمة اشتراكها اربعة ريالات في بيروت وليرة عثمانية في سائر الجهات

كلمة الحق

جريدة عربية تصدر في الاستانة ثلاث مرات في كل اسبوع، انشأها فريق من الكتاب وعهدوا في رياسة تحريرها الى ج. حرفوش، وقيمة اشتراكها ٢٥ فرنكا في مصر والبلاد الخارجية وأربعة ريالات في الاستانة

اوقيانوس

جريدة فارسية تصدر في طهران تحت مراقبة ميرزا عبد الرحيم الّهي وقيمة اشتراكها ١٥ فرنكا

الحجاز

هي جريدة الحكومة الرسمية، تصدر باللغتين التركية والعربية، ولقد سررنا بانشائها سرورا عظيما لانها أول جريدة أنشئت في أم القرى مكة المكرمة، وقيمة اشتراكها ١٥ فرنكا في الخارج

الطلبة

« جريدة عمومية تصدر مرة في كل اسبوع » مديرها عبد الحميد افندي حمدي وقيمة اشتراكها ٥٠ قرشا في مصر

الرغائب

« جريدة عثمانية علمية ادبية سياسية تجارية أسبوعية » لمديرها ومحررها حكمت بك شريف من مشهوري الكتاب في طرابلس الشام، وقيمة اشتراكها ريالان في طرابلس و١٥ فرنكا في الخارج

المقتبس

« جريدة يومية سياسية اقتصادية اجتماعية » لمنشئها ومديرها صديقنا محمد افندي كردعلي

الكاتب المشهور ، والمقتبس من الجرائد الممتازة بتحري الصدق والتزام النصح والبعد عن سخيف القول ورذيلة التملق ، وهي تصدر في دمشق الشام وقيمة اشتراكها اربعة ريالات ثمة و٢٥ فرنكا في الخارج

المحروسة

«جريدة يومية سياسية علمية ادبية تجارية» والمحروسة من الجرائد القديمة التي ابطلت منذ زمن فأعاد اصدارها في مصر الياس افندي زيادة ، وعهد في رياسة تحريرها الى الاستاذ ابراهيم افندي الحوراني من مشهوري علماء سورية ، وقيمة اشتراكها مئة وخمسون قرشا صاغا في السنة

باب الاخبار والآراء

جواب مجلس المبعوثان (*)

﴿ عن خطاب السلطان ﴾

في افتتاح مجلس المبعوثان

ياصاحب الشوكة :

ان ادوار الفتور التي حدثت على أثر أدوار الفتوحات العثمانية وتوالي ظهور الغوائل الخارجية من جهة وسوء الاستعمالات الداخلية التي هي أشد تأثيراً في التخريب من جهة أخرى - كانت نتيجتها استياء جميع العناصر العثمانية ، وكان من ذلك ان والدكم المعظم قد وضع خط (كلخانه الهمايوني) الضامن للحقوق الشخصية ، والقاضي بالمساواة بين جميع العناصر العثمانية المختلفة ، وبهذه الوسيلة قد اكتسبت الدولة العثمانية حياة جديدة ملائمة للحال العصرية

(*) نشرنا في (ص٨٧٩) من الجزء الماضي خطاب السلطان في افتتاح مجلس المبعوثان ، واننا ننشر الآن جواب مجلس المبعوثان وجواب مجلس الاعيان عنه

بيد انه لما كان من اللازم تأمين الحقوق البشرية وضماتها بصورة راسخة ثابتة وكان من الضروري ـ صيانة لهذه الضمانة ـ تبديل شكل الحكومة القديم وقبول الاصول الدستورية المستندة على حكم الامة الاصلي ـ صدرت في زمن جلوسكم السعيد ارادتكم السنية بوضع القانون الاساسي ونشره وفتح مجلس النواب إجابة لآمال خواص الامة التي هي خلاصة آمال الامة كافة

على ان طريقة الشورى هي أصل في ادارة الحكومات وان صور الحكومات التي تغاير هذا الشكل المشروع ناتجة عن تغلب الباطل على الحق والاستبداد على العدل بصورة موقتة

ثم انه مع تصريح جلالتكم في الخط السلطاني بان استعداد الامة وأهليتها في ذلك الحين مسلم بهما ومع اعترافكم بان القانون الاساسي وضع موافقا لذلك الاستعداد قام بعض رجال حكومتكم وأحدثوا مشاكل وهمية متناقضة جعلوا بها مستقبل قوة هذه الامة العظيمة عرضة للخطر مدعين انها غير أهل لصورة ولا شكل من الاشكال التي عينها (القانون الاساسي) وعليه تفرق مجلس الامة أيدي سبا !!!

ان أولئك المخادعين الذين خدعوا جلالتكم بالمشكلات الوهمية التي احدثوها لم يكتفوا بالتعدي على احكام القانون الاساسي الذي هو مناط سعادة الامة وحريتها بل قد تجرأوا على بهتان آخر وهو زعمهم عدم استعداد ادمغة الامة لهذا القانون فحسنوا لجلالتكم إرجاء تنفيذه مستخفين بقوة ادراك الامة !

ولكن نشكر الله فان الامة رغما عن المساعي التي بذلها من نيط بهم نشر العلم والمعارف في سبيل تعطيل الادمغة وتغطية العيون قد ادركت بحسب استعدادها الفطري وقابليتها الطبيعية ان هذه الحال ستؤول الى الانقراض وانها إن لم تنل حقوقها السياسية فلا تستطيع ان تحفظ مركزها في عالم السياسة والمدنية وعليه عرضت لجلالتكم الآمال العامة

ونحمد الله على ان جلالتكم قد أدركت كل الادراك الخطر المحدق بالدولة الذي لم يستتر الا عن ابصار الرؤساء ورجال الحكومة فرفقتم ما ينتج للدولة والمملكة بسبب اطمئنان الافكار العامة من السعادة في الحال والاستقبال فأصدرتم

الأمر السلطاني القاضي بالدعوة الى افتتاح مجلس الأمة واعادة الانتخاب موافقة لاحكام القانون الاساسي بالرغم عن آراء المخالفين لفتحه ، ولذلك فان الامة تشكر جلالتكم هذا الشعور الذي كان سببا لانقاذ الدولة العثمانية من انقراض محقق وسوقها الى طريق الترقي والسعادة

ولو انكم تفلتم قبلاً على خداع أرباب الغايات لكانت الاراضي العامرة الموجودة في اطراف المملكة قد أصبحت في خلال الثلاثين سنة الماضية أراضي عامرة ، ولكنا في ارتقاء وعلاء بدل التدني والانحطاط ، ولما كانت الشرذمة القليلة التي استفادت من الاستبداد فتحت في قلب الامة جرحا كاد يصير قرحا ، ولكان الوطن نال الرفاهة والسعادة من كل الوجوه ، ولكانت الدولة العثمانية استقرت في مركزها السياسي اللائق بها امام الدول منذ زمن مديد

ان الامة العثمانية تشارك جلالتكم في الاسف الذي أظهرتموه بسبب اعلان امارة بلغاريا استقلالها ، وضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى املاكها ، وهما الولايتان اللتان كانت تديرهما موقتا بموجب ميثاق دولي ، لان الامة العثمانية كانت في دور انقلابها السعيد تقطع الطرق السياسية بصورة سلمية ، وتربي صميم الآمال لتكون مظهرا لموازرة الدول المتمدنة وأهلا لانعطافها في حياتها الدستورية الجديدة

ان هذه الحوادث السياسية التي هي إرث مشوم من سيئات الماضي المديد سيبذل مجلسنا النيابي كل الوسائل التي يحفظ بها شرف حقوق الدولة حلها ، وسيقوم بجميع المساعدات اللازمة لمجلس الوكلاء المحرز ثقة الامة والمسئول امام مجلسها النيابي

ان خطة مجلسنا ستكون دائرة على ادامة حسن العلاقات بين الدولة العثمانية وجميع الدول ، وان الامة التي أحدثت في الدولة هذا الانقلاب السلمي الداخلي ستري العالم أجمع بان سياستها الخارجية موئدة للسلم

وان آمالنا معقودة بان دولتنا سترتقي بفضل خطتها السلمية الى الدرجة التي تليق بدولة عظيمة الشأن امام الهيئة الدولية ، وانها ستكون جديرة بالاستفادة من الحقوق الدولية على وجهها ، كما انها ستكون مرعية الجانب أهلا لمحبة الدول كافة ،

وانا نتوقع أن تنتهي المسائل السياسية الحاضرة على وجه حسن بموآزرة الدول المعظمة التي ثبتت لها خطتنا السلمية ونيتنا السليمة

ان مجلسنا سيبذل الجهد بتنظيم الامور المالية التي هي من أهم المسائل الداخلية ، وسيكون رقيبا صادقا على الواردات ، ومسيطرا غيورا على الصادرات ، وسيمنع بتة إعطاء درهم واحد من الخزانة على غير وجهه ، كما انه سيمنع أيضا اخذ بارة واحدة من افراد الامة بغير وجه مشروع ، مقتحما في هذه السبيل كل المصاعب التي سيلاقيها في امر ضبط الواردات والصادرات ، وذلك بسبب النتيجة الاليمة التي انتجها الاسراف والتبذير في الماضي بصورة لم يعهد لها نظير في تاريخ الامة ، حتى يتسنى لدولتنا ان تكتسب لقب دولة مقتصدة تدير امورها على القواعد المالية ، وترفع عنها لقب دولة سفيهة مبذرة !!

وانا نرى من الامور الهامة الواجبة بذل الجهد بتوطيد الامن وتأييد رفاهة العناصر المختلفة المؤلفة منها دولتنا ، وصيانة الحقوق العامة باجراء العدالة مجراها والمحافظة على جريان القضاء بكل استقلال ، وفتح المدارس في جميع انحاء المملكة واصلاح حال الموجود منها ، وتربية ابناء الوطن تربية وطنية دستورية ، وتزييد الوسائل النقلية وفتح الطرق والمعابر لتسهيل نقل الصادرات والواردات ، وترقية حال الصناعة والزراعة وتوسيع نطاق التجارة

ومن الضروريات تعزيز القوتين البرية والبحرية لتكونا بدرجة مناسبة لموقعنا الجغرافي ، وليتسنى لنا بهما المحافظة على حقوقنا المشروعة وحكومتنا المقيدة ، لا للتعدي على حقوق الغير

ولهذه الامور الحيوية المذكورة سنبذل الجهد بتدقيق التقارير التي قدمت من الحكومة لمجلسنا ونضع القوانين الموافقة لبلادنا وأمتنا

وانا مع الشكر لجلالتكم على عزمكم القطعي الثابت على ادارة المملكة بموجب احكام القانون الاساسي الكافل الحقيقي لسعادة الامة نؤكد لجلالتكم بان عزم الامة الحقيقي على صيانة القانون الاساسي ثابت راسخ لا تزعزعه اية قوة مهما عظمت ، كما اننا نعرض لجلالتكم ما خالج افئدتنا من الابتهاج والسرور برؤية شخصكم الكريم ماثلا امام نواب الامة مما جاء دليلا على رفع الحواجز والحوائل بينكم وبين الامة

ان قلبنا لا يشعر بغير محبة الأمة والوطن ، وكل آمالنا الاشتغال لخير الملك والامة، ورائدنا في ذلك مصباح المساواة والاتحاد، وغايتنا الحق والعدل، وقد عاهدنا ثلاثين مليونا من العالم على المحافظة على حقوقهم ولا نخاف في القيام بعهد وكالتنا غير توبيخ الوجدان وخوف الرحمن ومن جعل الحق وجهته فالله يعينه ويؤيده

***

جواب مجلس الاعيان

يا سلطاننا

كانت اعضاء الاعيان كلها آذانا مصغية وقلوبا واعية لذلك الخطاب الذي فهتم به يوم افتتاح مجلس الأمة المؤلف من الاعيان والمبعوثين

انقضى ذلك الزمن الذي أصيبت فيه الحكومة بادواء الخلل فزالت بزواله تلك البرازخ التي كانت حائلة دون اختلاط السلطان بالشعب وتوثيق الروابط بينهما ، وكانت تلك الحوائل لاغراض شخصية ، فالشعب اليوم يرى نفسه مغبوطا برؤية سلطانه وسماع خطابه بواسطة المبعوثين والاعيان ، ذلك الخطاب الذي ضمن فيه الدستور فلنا الشرف ان نرفع لجلالتكم واجب الشكر الصادر عن هذا الامر السار

والحكومة الشورية تقوم على هذا الأس المتين الكافل لجميع الحقوق وليس هناك ضامن لتثبيت السلطة العليا وتنزيهها عن التبعة الا حفظ ذلك الاساس المتين

لذلك تحقق ذلك العزم الوارد في الخطاب والموجه الى الشعب والعالم بأسره وهو الاشارة الى حفظ القانون الاساسي بالميثاق الثابت ، وانا نقابل ذلك بالحمد والثناء الجميل

ان ما ورد في الخطاب السلطاني من الامل في بذل الهمة والمساعي لانجاح المداولات بين الدول الموقعة على عهدة برلين بشأن البوسنه والهرسك والبلغار — ذلك كله — من مهمات السلطة التنفيذية ، ولنا الامل الوطيد بقيام الوزارة خير قيام بمهماتها ، وانا نضيف الى ذلك الامل النظر في مسألة كريد

نحن في حاجة عظيمة الى الثقة بنا ولا يتم لنا ذلك إلا بنجاح حقيقي في النظام الاداري والعسكري ، ويعوزنا بذل المساعي العظيمة لنحفظ موآزرة الحكومات ولتكون لنا مدنية صحيحة ثابتة

إن المساواة بين الافراد والعدل بين أفراد الامة وجماعاتها وتعليم الشعب وتهذيبه حسب حاجات الزمان على نمط الشعوب المتمدنة والاعتماد المالي الصحيح وضمانة حال البلاد من حيث الاقتصاد وتعزيز القوة العسكرية — كل ذلك من الامور الضرورية التي لا تقبل التسويف والتأجيل

وان ثقتنا كلها موضوعة في مجلس الامة (المبعوثان) وآمالنا بمساعيهم الحكيمة محققة ، وسنرى منهم مشروعات وقوانين تضمن لنا وتسهل بلوغ الاماني المشار اليها ، وبذلك يكون للأمة والبلاد مستقبل زاهر سليم من كل شائبة

ومن الضروري ألاّ تقصر السلطة التشريعية التي هي مؤلفة من الاعيان والمبعوثين في العناية بالمسائل الحقيقية لوضع قوانين تسير البلاد بسببها في سبيل التقدم والنجاح ، ولا ريب عندنا بان مساعي الوزارة التي يناط بها التنفيذ ستنضم الى هذه المساعي ، وحينئذ ننال السعادة التامة التي نطلبها ، وهي ذلك الغرض الذي يرمي اليه المصلحون من ابناء الوطن

وانا نختم عريضتنا هذه بتكرار الشكر لجلالتكم لتعهدكم وعزمكم الأكيد على حفظ شكل الحكومة الشورية ، ونؤكد لجلالتكم أن مجلس الاعيان يبذل جهده في قيامه بواجب حفظ الدستور الذي يرى حفظه من أقدس الواجبات

وانا نعرض لجلالتكم بان مجلس الاعيان يقوم نحوكم ونحو الأمة بكل ما يجب عليه من الإخلاص التام



رحلة صاحب المنار

﴿ في سوريا ﴾

٣

دمشق الشام

عدت في ٢٣ رمضان الى بيروت وفاء بوعدي لأصدقائي والوالي فأقمت فيها أربعة أيام كنت ألقي في كل يوم منها درساً دينياً بعد العصر في أحد المساجد ، وفي اليوم الاخير استبدلت بالدرس خطبة سياسية في حظيرة الموقع العسكري إجابة لطلب الكثيرين

وفي صبيحة الخميس ٢٧ منه ركبت القطار الحديدي الى دمشق الشام وهو قطار ردي‌ء الدرجة الاولى منه دون الدرجة الثانية من القطار الذي بين رياق وحمص ، فبلغ عاصمة دمشق قبيل المغرب فاذا بانتظارنا صديقنا الكريم عثمان بك العظم وجمهور ممن نعرف ومن لم نعرف من المحبين العلماء والوجهاء ، نخص منهم بالذكر أعلم علماء الشام الاستاذ الاكبر بركة الوقت بقية السلف الصالح الشيخ عبد الرزاق البيطار والاستاذ العامل المجد الذي يشغل وقته كله في التدريس والتصنيف وتصحيح الكتب النافعة الشيخ جمال الدين القاسمي أدام الله النفع بعلمهما وعملهما

نزلنا في دار عثمان بك فأقبل السلام علينا فيها كثير من الوجهاء فرأينا من أدبهم وحسن محاضرتهم ما ينطبق على ما هو مشهور عنهم ، وسمعنا منهم منذ الليلة الأولى أخباراً سيئة عن جمعية الإخاء العربي التي أسست في الاستانة فقال بعضهم انها اسست بإيعاز من السلطان لتكون عضداً له وعوناً على جمعية الاتحاد والترقي ، وقال آخرون انها ضد الترك ، وقالوا ان ندره بك المطران جاء الشام ليدعو الى هذه الجمعية ، وهو يذم الترك ويدعو الناس الى العصبية الجنسية العربية وينفر من جمعية الاتحاد والترقي ، وذكروا ان سيرة بعض أعضاء هذه الجمعية غير محمودة وان بعض

افرادها يحتقرون وجهاء البلد ويفطرون في رمضان جهرا وان هذا مما يمهد السبيل لتدره المطران ويجعل دسائسه مقبولة عند كثيرين

هذا مخلص ماسمعته من أكثر من واحد وكنت أبين لهم ولغيرهم ان تنفير العرب من الترك مفسدة من أضر المفاسد وانا في أشد الحاجة الى الاتحاد بالترك والاخلاص لهم لان مصلحتنا ومصلحتهم في ذلك ، على اننا أحوج اليهم منهم الينا فمن يسعى الى التفرقة بيننا وبينهم فهو عدو لنا ولهم فان كان سعيه لهواه فهو شر الشياطين وان كان سعيه لغيره فهو شر الاجراء الخائنين ولا عجب فى صدور ذلك من بني المطران المفسدين

ثم يجب على العرب ان لا ينسوا فى اتحادهم بالترك انفسهم ويتكلوا على غيرهم بل يجب عليهم مباراة اخوانهم في التربية التي تقتضيها حال العصر وتحصيل العلوم والفنون التي عليها مدار العمران ليكونوا يدا واحدة فى إحياء الدولة وليقدروا على ترقية شأن بلادهم واستخراج خيراتها العظيمة ثم ليكونوا أهلا لادارتها بأنفسهم اذا غلب فى المستقبل حزب صباح الدين افندي ابن أخت السلطان على غيره من الاحزاب التي ينتظر ان تكون فى الدولة وهو أي رأي صباح الدين ان تكون كل ولاية من ولايات الدولة مستقلة في ادارتها الداخلية ويعبر عن ذلك بعدم المركزية (Décentralisation) ويرى بعض علماء السياسة انه لابد في المستقبل من استقلال كل جنس بنفسه ويروى هذا الرأي عن نابليون واذا صح هذا في المستقبل البعيد وكان الجنس العربي غير أهل للادارة التي تقتضيها حال مدنية ذلك العصر الذى سيكون أرقى من عصرنا هذا — وان قرب — وغير أهل لمشاركة سائر الامم في السياسة العامة والحقوق المتبادلة بين الاجناس على أصول المساواة فكيف تكون حاله يومئذ ؟ ألا نكون (لاقدر الله) تحت وصاية غيرنا من الاجناس المرتقية في العلوم والاعمال ؟ ومن هو الجنس الذى يتولى هذه الوصاية ؟ وكيف تكون سيرته فيها ؟ يجب علينا ان نفكر في حالنا الحاضرة وفي مستقبلنا القريب ومستقبلنا البعيد وان نعلم ان حسن المستقبل متوقف على ماقبله والنهاية أثر البداية ويجب ان يكون الاساس

الذي نبني عليه في حاضرنا ومستقبلنا الاخلاص لدولتنا والاتحاد بالترك وسائر العناصر العثمانية مادامت هذه العناصر متحدة بالدولة مخلصة لها وان نكون الآن من أشد الاعوان لجمعية الاتحاد والترقي على بث روح الدستور في جميع الطبقات، ورقباء على الحكومة في سيرها وأعمالها حتى ترسخ فيها الديموقراطية وتسير بعد اجتماع المبعوثان على الاصول الدستورية

هذا ما كنت أبثه من الافكار في مثل هذا المقام واستطرد منه الى بيان وجوب العناية بتأسيس المدارس لنشر التعليم الاهلي في جميع طبقات الاهالي وان ذلك يتوقف على تأسيس الجمعيات الخيرية في كل لواء من ألوية كل ولاية لاجل تعليم أولاد الفقراء بغير أجرة وتعليم أولاد الاغنياء بالاجرة . ثم انوه بالتعليم العالي والرحلة الى حيث توجد الى أن يوجد في كل ولاية مدارس عالية يستغنى بها عن الرحلة . وهذا ما كنت أقوله في كل بلد

ومما سرني بدمشق وأهلها سرورا عظيما حياة كثير من الصناعات فيها . وكيف لا ينشرح صدري لذلك وقد رأيت ذلك الجامع الفخم الذى كان هو الأثر العظيم في هذه العاصمة لأول دولة عربية تأسست فيها فدمره عصر الظلم والاستبداد بالنار فاعاده أهل دمشق الى ما كان عليه لا ينقصه الا ما كان فيه أولاً من زينة الفسيفساء التي يحترعنها حتى الافرنج من أهل هذا العصر، ثم انني رأيت معظم أثاث البيوت ورياشها من صنع أهل البلد حتى في بيوت الكبراء كبيت عبد الرحمن باشا اليوسف أمير الحج الذي هو أوسع أهل دمشق ثروة وأعلاهم جاها ومنزلة فقد تأملت أثاث بعض الحجرات ورياشها في داره فلم يقع نظري على شيء فيها من غير صنع الشام الا السجاجيد العجمية حتى إن القناديل الكهربائية " النحاسية " التي فيها هي من صنع الشام فلنا ان نفتخر بصناعات الشام في النسج والحفر والبناء والنجارة وغير ذلك وان نجتهد في توسيع دائرتها بالطرق الحديثة"

رغب إليّ بعض الفضلاء أن أقرأ درسا في الجامع الأموي كما فعلت في بيروت وطرابلس فأجبتهم الى ذلك لرميهم فيه عن قوس عقيدتي وموافقتهم لرغبتي واستحسنت ان يكون ذلك بعد صلاة الجمعة فقيل ان هذا هو الوقت الذي يختم

فيه المدرسون الرسميون دروسهم فيرونك فيه مزاحما لهم فيثقل عليهم فالأولى ان يكون درسك بعد العصر ، فوافقتهم على ذلك . وقد صلينا الجمعة في الجامع الأموي ورجونا ان نسمع فيه خطبة تناسب في حسنها المعنوي ما في ذلك الجامع من الحسن الحسي ولكن خاب رجاؤنا فسمعنا ما ملته اسماعنا من عهد الحداثة وهو مدح رمضان وتقرير العامة بحديث العتق فيه الذي بينا في المنار من قبل ما قيل في وضعه . وشهدنا بعد الصلاة دروس المدرسين فجلسنا زهاء ثلث ساعة في درس الكزبري الذي حضره الوالي والمشير حسب العادة المتبعة وخلق كثير . ووقفنا هنيهة على درس رجل يقال له الشيخ صالح التونسي يحضره زهاء ١٥ أو ٢٠ رجلا ثم على درس الشيخ بدر الدين فاذا هو رجل يسرد الأحاديث الشريفة بأسانيدها بالضبط الصحيح ويورد في معناها كل ما قاله بعض العلماء في شرحها أوجله وينتقل من المسألة الى ما يناسبها من غير تلعثم ولا مكث

درسنا الاول في الاموي

ثم خرجنا من المسجد وعدنا اليه في وقت العصر وبعد صلاة الفريضة تلا بعض القراء آيات من الكتاب العزيز فجعلتها موضوع الدرس واستطردت منها إلى غيرها من الآيات الواردة في صفات المؤمنين وما وعدهم الله تعالى به في الدنيا والآخرة مع تنبيه الأذهان إلى عرض أنفسنا في هذا العصر على هذه الآيات لنعلم هل هي منطبقة علينا أم لا . . . وذكرت ما يطلب من المسلمين في هذا العصر ليحافظوا على دينهم الذي يرشدهم الى ما فيه سعادة الدارين ويعدهم بذلك جزاء على نصره والقيام بحقوقه وكون ذلك يتوقف في هذا العصر على العلوم والفنون التي يرتقي بها الاجتماع البشري وتعتز بها الأمة ويرفع شأن الدولة الا وهي العلوم والفنون الرياضية والطبيعية والاقتصادية . ومما قلته وكررته : انني أرفع صوتي قائلا أننا لا تقوم لنا قائمة إلا بالاخذ بهذه العلوم والفنون التي يتوقف عليها امتثال قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فاننا نستطيع ان ننشئ المدرعات البحرية ونعمل المدافع والبنادق وقذائف الديناميت لأجل حماية حقيقتنا وتعزيز دولتنا وأن نعمل السكك الحديدية وغيرها من الامور التي ترقي مدنيتنا وتحفظ ثروتنا

وكل ذلك يتوقف على العلوم الرياضية والطبيعية التي لا حياة لأمة في هذا العصر بدونها ، إن علماءنا السابقين الذين كانوا يذمون العلوم الطبيعية وينهون عنها لم يكونوا يعنون بها إلا تلك النظريات اليونانية التي تبحث في الالهيات بحثا يخالف أصول الدين وقواعده ، والعلوم الطبيعية في هذا العصر مباينة لتلك النظريات وناقضة لها لأن أساسها التجربة والاختبار والعمل فمن فروعها علم الكهرباء الذي ترون من آثاره النور الذي يتألق في مسجدكم هذا ليلا ، والمركبات التي تجري في شوارعكم وأسواقكم ، ومنه علم البخار الذي تسير به قطارات السكة الحجازية من بلدكم الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . فهل يمكن ان يكون هذا العلم معارضا للدين ؟ كلا انه لا يضر الدين وأهله ولكن يمكن أن يستخدم لحفظ الدين ورفعة شأن أهله فكل من يصد المسلمين عنه فهو إما صديق جاهل بحقيقة هذا العلم وفائدته وإما عدو غاش للمسلمين

ثم بينت لهم ان الاسلام على جمعه بين مصالح الدنيا والآخرة دين يسر لا عسر ولا حرج فيه وانه يمكن للمسلمين ان يجمعوا بينه وبين جميع العلوم والفنون العصرية التي نوهت بفائدتها اذا احسنوا التربية الدينية وأصلحوا طرق التعليم وان ذلك انما يكون بانشاء المدارس الاهلية ، وهذه المدارس لا يقوم بها حق القيام إلا الجمعيات فالذي يجب ان يبدأ به أهل بلادنا في هذا العصر هو تأسيس الجمعيات التي تنشر التعليم في جميع طبقات الامة وذكرت لهم موقع دمشق ومكانها من جزيرة العرب وما ينبغي من السعي في جعلها ينبوعا للمعارف والمدنية فيها ثم قلت في آخر الدرس انه يمكنني ان أبين لكم في مجلس آخر كيف يمكن الجمع بين الاسلام تربية وتعليما وبين تحصيل العلوم العصرية الكثيرة التي تقوى بها الامة وتعتز الدولة ان شئتم فأظهر الرغبة في ذلك الجمهور . وقد حضر الدرس عدد كثير من الناس يبلغ المئات على ما قدره بعض الحاضرين . ومنهم العلماء الرسميون الذين اقبلوا عليّ بعد الدرس بالتحية والثناء واظهار الاعجاب بالدرس والدعاء بان ينفع الله بي وبه ، والوجهاء كأحمد باشا ومحمد باشا العظم وعلي باشا الامير وعبد الرحمن باشا اليوسف وشكروني على ما أبديته وألحوا على بأن أعيده في اليوم الثاني

درسنا الثاني في الاموي والحادثة المشهورة

تحدث الناس في الدرس الاول في ليلتهم تلك وانه على غير ما يعهدون في الموضوع وهو الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة والاستناد على آي القرآن — وفي الأداء وهو أسلوب الخطابة ، فرغب الناس بعضهم بعضا في حضور الدرس الثاني فلم نكد نصلي العصر في اليوم الثاني وننفتل الا وقد تحلق الناس في مكان الدرس الأول (تحت القبة) وصار يلزّ ويزحم بعضهم بعضا فلما اتسعت مساحة القاعدين طفق الناس يتحلقون حولهم وقوفاً ثم ازدحموا فصاروا كالقاعدين على غير نظام حتى صاروا يقدرون بالألوف فرأى بعض المهتمين بأمر الدرس أنه لا يمكن إسماعهم إلا بالقعود على شيء مرتفع فأحضروا الكرسيّ الذي يقرأ عليه خطباء المسجد قصة المولد ونحوها في المواسم المحدثة في الاسلام فصعدت اليه وشرعت في الدرس بعد ذكر الله والثناء عليه والصلاة والسلام على البشير النذير جزاه الله عنا أفضل ما جازى نبيا عن أمته

كان موضوع الدرس تعريف الدين وكونه هادياً الى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة وكون الاسلام عاما لجميع البشر موافقا لمصالحهم في كل زمان ومكان وبيان إمكان الجمع بين هدايته وبين جميع العلوم والفنون التي عليها مدار العمران في هذا العصر اذا صلحت طريقة التربية والتعليم

قلت ان القاعدة التي ينبغي لنا ان نبني عليها أساس اهتدائنا بالاسلام هي قول الامام مالك بن أنس رضي الله عنه « لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها » فيجب علينا ان نرجع الى سيرة الصدر الأول فننظر كيف تلقى الصحابة عليهم الرضوان دينهم عن النبي عليه الصلاة والسلام وكيف كانت سيرتهم في العمل به وكيف تلقى عنهم التابعون فنهتدي بهديهم في ذلك

ثم بينت ان ما جاء به الاسلام ينقسم الى ثلاثة اقسام : قسم العقائد وقسم الأخلاق والآداب وقسم الأعمال من العبادات والمعاملات ، وشرعت في بيان طريقة التعلم التي ينبغي سلوكها لاحياء الاسلام في زمن قليل لا تحتاج فيه إلى مدارسة هذه الكتب الكثيرة في الكلام والفقه وغيرها التي لا يتفق تحصيلها في عشرات من السنين الا للعدد القليل من المنقطعين لتحصيلها وهؤلاء المنقطعون عشر

مشاعر الامة . فاذا كان الدين لا يؤخذ الا من هذه الكتب التي اختارها علماؤنا للتعليم العام في هذه القرون الأخيرة فكيف السبيل إلى تعليم الدين لجميع المسلمين؟ وههنا قلت كم عدد مسلمي هذا البلد؟ فقال بعضهم مئتا ألف أو يزيدون فقلت هل يوجد فيهم ألفا عالم فهم كتب الكلام وكتب الفقه المتداولة؟ قيل ولا ألف . فقلت اذا كان هذا مبلغ تعلم الدين في مدينة تعد من أعظم أمصار الاسلام في الارض فكيف يكون حال مسلمي القرى وأهل البوادي ومثل مسلمي الصين ؟

ثم شرعت في بيان الطريقة السهلة لتعميم تعليم العقائد فقلت ما معناه : ان كتب الكلام المشهورة لم توضع لأجل تلقين المسلمين ما يجب عليهم اعتقاده وإنما وضعت لرد شبهات الفلاسفة والمبتدعة عن العقائد الاسلامية والاحتجاج على حقيتها وقد انقرض أولئك الفلاسفة والمبتدعة الذين عُني المتكلمون باقامة الحجة عليهم! وظهر بطلان مذاهبهم الا قليلا من مسائلها وحدثت لفلاسفة هذا العصر ومقلدتهم شبهات جديدة تولدت من الفلسفة الجديدة يجب أن يُعنى متكلمو هذا العصر بكشفها ولا ينبغي ان يذكر شيء منها لعامة المسلمين ولا لتلاميذ المدارس الابتدائية عند تلقينهم الدين وإنما يخص بذلك طلاب العلوم العالية الذين يدرسون الفلسفة وعلم الكلام

المسلم لا يحتاج الى الاستدلال على وجود الله تعالى بالطريقة الكلامية وان الدلائل التي تبنى على فرض خلاف المطلوب قد يكون إثمها أكبر من نفعها لأنها تثير الشبهات وتوقع كثيرا من السامعين في الشك وانما الطريقة المثلى لذلك طريقة القرآن الحكيم وهي عرض محاسن الخليقة واسرارها على العقل وتذكيره بحكمة مبدعها البالغة وقدرته العظيمة وعلمه الواسع وتفرده بالخلق والتكوين والرحمة والاحسان (وذكرنا بعض الآيات في ذلك)

لماذا تقول للمسلم الخالي الذهن من الشبهات والشكوك لو لم يكن للعالم إلـه للزم الدور أو التسلسل وكل منهما باطل فما أدى اليه وهو عدم وجود الإلـه باطل — فثبت نقيضه وهو ان للعالم إلـها — ثم تحاول ان تفهمه معنى الدور والتسلسل والبرهان على بطلانهما وما أصعبه مركبا وأبعده مطلبا! وقد رأينا كثيرين من المتصدرين لتدريس علم الكلام يذكرون ما كتب من الاستدلال على بطلان الدور والتسلسل وهم لا يفهمون ما يقولون

ان الايمان بوجود واجب جل شأنه عام في البشر باديهم وحاضرهم حتى قال كثير من العلماء انه فطري مودع في النفوس بأصل الخلقة فأكثر علماء أوربا وفلاسفتها يؤمنون بذلك وكذا المؤمنون الذين ارتقت وثنيتهم كالبراهمة والبوذية حتى اليوم ومشركي العرب في زمن البعثة . ومن شذ من البشر فأنكر وجود الباري تعالى لشبهة أثارتها في نفسه تقاليد دينه أو نظريات فكره الضعيفة فهو لا يمنع ان يكون هذا الاعتقاد أصلا في الفطرة البشرية فقد قال الاستاذ الامام رحمه الله تعالى : ان الذين ينكرون وجود الله تعالى قليلون في مجموع البشر فهم مرضى الارواح — أو قال العقول — من هذه الجهة وان صحت أفكارهم من جهة أو جهات أخرى ومرض الروح والعقل عرض يطرأ على بعض الناس كمرض البدن ، فمرض الجسد مهما كثر لا يعد هو الاصل في المزاج وكذلك مرض العقل والروح لا يعد في الاصل وأن كثر المرضى *

قلنا ان أكثر البشر يؤمنون بوجود الله تعالى ونقول ان الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بعلمه وقدرته وارادته ويعظمونه ويقدسونه وقلما أخطأ الكفار في غير وحدانية الالوهية والربوبية من مسائل الإلهيات . فأما وحدانية الالوهية أي العبادة فهي عبادة غير الله تعالى بالدعاء ونحوه ، وأما وحدانية الربوبية فهي اتخاذ بعض البشر شارعين يشرعون للناس من الدين مالم يأذن به الله . وقد بين الله لنا ذلك في كتابه الحكيم قال في بيان عقائد مشركي العرب (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) فقد اثبت لهم الايمان بوجود الله وانه هو الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وقال فيهم مع ذلك (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) فما هو شركهم ؟ هو ما بينه في آيات اخرى كقوله عز وجل (والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، ان الله

لايهدي من هو كاذب كفار) وقوله سبحانه (و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض؛ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال في أهل الكتاب (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وقد روي في الصحيح ان عدي بن حاتم اسلم وكان نصرانيا فلما سمع هذه الآيات قال النبي صلى الله عليه وسلم انهم لا يعبدونهم فقال مامعناه: أليس يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم؟ قال نعم قال فذاك . فهذا وما قبله هو الذي فتن به الوثنيون والذي طرأ على أهل الكتاب وقد بينه القرآن الكريم تبيينا

قلت كل هذا تمهيدا لبيان ما يجب اتباعه من تلقين المسلمين عقائد دينهم على طريقه القرآن المثلى وأردت ان أشرع في المقصد فاذا أنا برجل مغربي قد اخترق جمهور الواقفين حتى انتهى الى دائرة القاعدين وصاح يا اخواننا المسلمين اسمعوا لي كلمتين وشرع في الكلام فاضطرب الناس وكثر اللغط وقام كثير من القاعدين فرغبت اليهم في السكوت والاستماع له . فأما احدى كلمتيه فكانت في مشروعية زيارة القبور والتوسل بالصالحين الميتين الى الله تعالى ليقربوهم اليه ؛ ويقضوا حوائجهم هذه ، واعتقاد كرامات الاولياء ، والتحذير ممن ينكرون ذلك ويضلون به الناس كما فعلت الوهابية ، ثم ذكر ماهو شائع بين الناس من فتنة الوهابية ومحاربة السلطان وأمير مصر لهم . وأما الكلمة الثانية ففي وجوب تقليد الائمة المجتهدين في الدين والثناء عليهم وكون العمل بما في كتب الفقه هو عين العمل بالكتاب والسنة ١ . وكان يقول مامثاله : ياإخواننا هل الذي يتوسل الى الله تعالى بالاولياء يكون مشركا بالله ؟ هل الذي يحب الصالحين ويعظمهم يكون مشركا بالله ؟هل الذي يؤمن بكراماتهم يكون مشركا بالله ؟هل الذي يعظم الأئمة ويعمل بمذاهبهم يكون مشركا بالله ؟!!!

فلما أتم كلامه قلت أيها الاخوان : ان من يسمع كلام هذا الشيخ ممن حضر في اثناء كلامه يظن ان ما قاله في درسي ليس الا ردا عليّ واني كنت أتكلم في هذه المسائل بخلاف ما قاله ومن حضر المجلس من أوله يعلم اني لم أتعرض لهذه المسائل بنفي ولا بإثبات وليست هي من موضوع كلامي فان الذي قصدت اليه في هذا الدرس ووعدت به أمس هو بيان طريقة تعميم تعليم الدين لجميع المسلمين

بأسلوب سهل وزمن قليل يبعث فيهم روح الدين ولا يشغلهم عما هم في اشد الحاجة اليه من أمر الدنيا وقد أشرت فيما قلت الى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن الحكيم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام في تلقين الدين لا طريقة المتكلمين وقد سبقني الى ذلك حجة الاسلام الغزّالي فقال بمثل ما قلته في كتابه (الجام العوام عن علم الكلام) وغيره ، فصرح بأن كتب الكلام وضعت لحماية العقيدة من هجمات المخالفين ، لا لإفادتها وتقريرها لعامة المسلمين ، وان طريقة القرآن هي التي يجب الاعتماد عليها في التعليم ، وكل ما قلته تمهيد لبيان ذلك بعبارة ممحصة قريبة من الأذهان . وما خطر في بالى أن أحشر في درسي شيئا من هذه المسائل التي قطع بها الرجل علي كلامي قبل ان أصل الى المقصد منه . وكأني بأناس يقولون الكذب ويتجرمون عليّ ويأخذون من كلامه تهما يلصقونها بي فحسبي ان يعلم هذا الجمهور العظيم الذي سمع كلامي عني ويسمعوا مني بأنني ما أنكرت ولا أنكر زيارة القبور لاجل الاعتبار وتذكر الآخرة والموت كما ورد في حديث الإذن بها بعد النهي عنها وانني أزورها بالفعل ، وأحب الصالحين ولا أنكر مالهم من الكرامة عند الله تعالى فان من لا يحب الصالحين يكون أشقى الاشقياء ، وأعظم الائمة المجتهدين واعتقد انهم كانوا على هدى واخلاص في خدمة الدين وان من التوفيق والسعادة اتباعهم في الاهتداء بالكتاب والسنة . ثم صعد الكرسي الشيخ عبد القادر الخطيب وأراد ان يتكلم فأنزله عثمان بك المظم عن الكرسي وصده عن التكلم ووقف عليه وقال ما معناه : أيها الاخوان انه لا ينبغي للعوام الخوض فيما يختلف فيه العلماء فانصرفوا الى شأنكم ومن كان من العلماء يريد مناظرة الاستاذ في هذه المسائل أو غيرها فليتفضل بعد العشاء الى منزلي . ثم نزل وقال لي تفضل فنزلت ومشينا معا فمشي معنا جمهور عظيم من الحاضرين وسمعت بعض من بجانبي يقولون ما معناه لا تخف ولا تحزن فلا قيمة لهذا الرجل ولا تأثير لكلامه وبعضهم يقول هلمّ واسرع . وكان اللغط والضوضاء على أشدهما حتى خرجنا من باب صحن المسجد وحينئذ رغب اليّ الشيخ أديب تقي الدين ان أدخل داره وهي بقرب المسجد

للاستراحة وردّ الزيارة (فقد كان زارني في دار عثمان بك) فأجبته الى ذلك فلما دخلت داره طفق يقبل رأسي ويثني علي ويطري درسي ويهون عليّ ما جرى ويحلف الايمان بانني ما قلت الا الحق وان ما عورضت به ليس بشيء . فعجبت من ذلك كله لأنني لم أكن أعد ما جرى في الجامع من قطع الدرس عليّ أمراً عظيما ولا مصابا يعزّى عنه . وظننت ان السبب في كل ما رأيت من لهف الناس وعنايتهم بتسليتي هو عدم تعودهم في تلك المدينة مثل ما رأوا من ذلك الافتيات . وخطر في بالي ان الباعث لذلك الرجل على ما فعل هو حب الظهور والشهرة أو سوء الظن والظِنّة فانه هو الرجل الذي ذكرت انني رأيته يقرأ درسا لا يحضره الا قليل من الناس وقد علمت بعد ذلك ان اسمه الشيخ صالح وأنه داعية لأبي الهدى الصيادي أرسله الى دمشق ليبث دسائسه فيها

قبيل المغرب من ذلك اليوم ذهبت مع عثمان بك الى دار عبد الرحمن باشا اليوسف لاننا كنا مدعوين للفطر عنده فلما كنا على المائدة جاء أسعد بك بيكباشي أركان حرب وهو وكيل الشرطة في دمشق وأحد اعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين يشكو منهم أكثر وجهاء دمشق فجلس معنا وأخبرنا انه قبض على الشيخ صالح وأودعه في السجن . فقال له عثمان بك أخطأت في هذا العمل فيجب ان نذهب بعد الفطور لأجل إخراجه لأن ما حصل يجب ان يقف عند الحد الذي وصل اليه . وكان الامر كذلك فقد ذهب أسعد بك بين المغرب والعشاء لاجل اطلاق الشيخ صالح على ما فهمنا وبعد صلاة العشاء في بيت عبد الرحمن باشا خرجت أنا وعثمان بك فركب هو مركبته وتبع أسعد بك لينظر ماذا فعل وركبت أنا مركبة أخرى الى دار عثمان بك

ولما عاد عثمان بك أخبرني بأنهم أخرجوا الشيخ صالحا من الحبس وان فتنة عظيمة أثيرت في الشام فحمل ألوف من الناس السلاح واحتشدوا في الاسواق والشوارع وذهب جمهور عظيم منهم الى مجلس البلدية وجمهور الى دار الحكومة . قال وهذا الذي كنت أخشى بادرته في الجامع فأحببت ان تختم الدرس وتخرج ولا تطيل في الرد على الشيخ صالح . قلت له ماهو سبب ذلك فان ما حصل في الجامع لا يصح ان يكون سببا لحمل السلاح ولا للفتن لانه لا يزيد على اساءة رجل

بقطعه الدرس عليّ وأنا لا أحب الانتقام وليس لي عصبة تنتقم لي ان أحببت ولا هذا الذنب مما يعاقب عليه بالسلاح وان أدري ألذلك الرجل عصبة قوية تعظم عليها أمر حبسه فأرادت ان تنتصر له ؟ وهل يكون الانتصار في الشام دائما مثل هذا ؟ أعني اذا حبس رجل له انصار يطلب انصاره من الحكومة اطلاقه بقوة السلاح !!!؟ قال اني علمت من حال بعض الحاضرين في الدرس ان هناك فتنة مـدبرة يراد إيقاعها في الجامع بأدنى مناسبة أو بخلق مناسبة ولست انت المقصود بها . وانه ليس للشيخ صالح عصبة ولا محبون والذين هيجوا الناس ودفعوهم الى المطالبة باطلاقه لهم بذلك اغراض يتوسلون اليها بكل وسيلة تتيسر لهم لا يهمهم فيها أن يعظم من لا يستحق التعظيم ويؤذى من لا يستحق الايذاء ولا حاجة الى شرحها ولكن أقول بالاجمال إنها تتعلق بانتخاب المبعوثين . ولا أكتم عنك انه لا يكاد يوجد أحد في الشام يخرج من بيته بغير سـلاح . قلت اذاً ليس في الشام حرية شخصية تحميها الحكومة فأنا مسافر في الصباح حتما ، ولا أقيم في هذا البلد يوما ، فرضي مني بذلك على كره منه وحرص على ان أقيم عنده أياما أرى فيها معاهد البلد وأعرف أحواله . فهذا ما دار بيني وبينه في الليل ثم نمت طائفة من الليل واستيقظت وقت السحور ولما طلع النهار سافرت من الشام قاصدا رياق

اجتمعت في قطار سكة الحديد ببعض أدباء دمشق وتجارها فسمعت منهم شيئا كثيرا من أخبار الفتنة الظاهرة والفتن الباطنة ، منهم شابان ذكيان من محبي الاصلاح والعلوم العصرية كاشفاني بما في صدورهما وذكرا لي أسماء شبان آخرين على مشربهما وقالا انهم يكتمون ميلهم ورأيهم ولا يحبون ان يعرف شيء عنهم . ثم اجتمعت ببعض باشوات الشام في بعلبك فحدثني بما يعلم من أمر الحادثة ومن أحوال الشام وهو ممن حضر الاجتماع عند الوالي ليـلا . واجتمعت أيضا هناك ببعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي فسمعت منهم انباء وآراء فعلمت من ذلك ومما سمعته في حمص وقرأته من المكتوبات التي بعثها من الشام الى حمص وغيرها جميع ما كان من المكايد والفتن وهذا مجمل ما وصل اليّ :

أسباب فتنة دمشق

الاصل في ذلك كله امتعاض بعض الوجهاء أصحاب النفوذ من أسعد بك وسليم بك الجزائري كلاهما قائد ألف « بكباشي » من أركان الحرب والدكتور حيدر وكلهم من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، وكراهتهم لهذه الجمعية لانها جعلت لهؤلاء منزلة ونفوذا في الشام يعلو نفوذ أولئك الوجهاء المتمضين الذين يرون أنهم سادات الشام وانه يجب أن يكون النفوذ فيها مقصورا عليهم ومحصورا فيهم وخاصا بهم !!

فهرتهم جمعية الاتحاد بظهورها مؤيدة بالقوة العسكرية ولكنهم لم يتجرءوا على الوقوف في وجهها ومناجزتها جهرا فتربصوا بها الدوائر حتى اذا ما جاء زمن انتخاب المبعوثين ورأوا من ذكرنا من اعضائها يشتغلون بأمره عيل صبرهم ولجأوا الى الكيد وجرأهم عليه ندره بك المطران الذي جاء الشام ليرشح نفسه للانتخاب ويستعين عليه بمن يستميلهم الى جمعية الاخاء العربي فانه كان يهون على الناس أمر جمعية الاتحاد والترقي ، ويكبر في نفوسهم شأن جمعية الائتلاف والتدلي ، أي التي تفرق بين الترك والعرب وتنصر الاستبداد وتخذل الدستور . فاندفع أولئك الوجهاء الى الفتنة بقوة وهمة وبثوا دسائسهم في العامة الذين هم اتباع كل ناعق كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه حتى دخلت طائفة منهم الجامع الأموي مدججة بالسلاح للتنكيل ببعض المشايخ المدرسين لانه ختم من بعض العوام ورقة يطلب فيها ترشيح مبعوث ولكنه كان يقول لمن يطلب منه الختم انا نطلب بهذه العريضة ابطال رقص النساء في بعض الملاهي !! . ووقعت فتن ومشاغب أخرى اطلق فيها الرصاص وأصيب بعض الناس كما قيل لنا ولا نحب ان نخوض في ذلك

ولكن موقظي الفتن ومثيري الشغب لم يكن لهم سبيل للنيل من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي فيما جرى الا بالكلام كقولهم انهم علة اختلال الأمن وحدوث الاضطراب في البلد « رمتني بدائها وانسلت » وانهم يريدون إبطال الدين بتجريئهم الناس على الفطر في نهار رمضان علنا و باحتقارهم لوجهاء البلد وعلمائه !!!

هذا ما كانت عليه دمشق عند قدومي اليها كانت تتمخض بالفتن التي يدبر أمرها رجال لا يزيد عددهم على عدد الذين دبروا أمر الصحيفة من قريش وكان

أشدهم افسادا أحد الباشوات الذي يرى انه بعظمة بيته يجب أن يكون صاحب الأمر المطاع في البلد والقول المتبع في حكومتها وأهلها . واستعانوا على كيدهم ببعض أصحاب العمائم الجاهلين الذين جعل لهم الحكم الاستبدادي رياسة دينية علموا انها لا تلبث ان تمحى وتزول في عهد حكومة العدل والشورى

رأى هؤلاء الكائدون تحت قبة الجامع الأموي أبين للناس انهم دخلوا في طور جديد من الحكومة يمكنهم ان يحيوا فيه دينهم علما وعملا واخلاقا وآدابا ، وان يرقوا فيه دنياهم حتى يكونوا فيه من أوفر الامم ثروة وأعلاها جنابا ، ورأوا أن الناس قد قبلوا هذا الارشاد ولهجوا بالثناء عليه ، فقالوا ان هذا السيل الأتي يأتي على ما بنينا من صروح الآمال ، ويجرف ما نضع في طريق الدستور وجمعية الاتحاد والترقي من العقبات ، ولكن الشعب يراه عذبا فراتا ، يطفي غليلا ويحيي مواتا ، فيجب ان نبادر الى تحويله عن هذه الديار ، قبل ان تروى منه القلوب والأفكار ، فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون ، وعهدوا الى افراد من الجمعية العلمية ان يقطعوا علي الدرس الثاني فولوا وهم يعتذرون ، فقالوا ان هؤلاء لا يملكون لنا نصرا ولا انفسهم ينصرون ، فما لهذا الامر الا رجل يشتري ما يراد منه بالمال ، وقد مرد على أمثال هذه الدسائس والاعمال ، وما ذاك الا داعية ابن صياد الدجال ، المعروف في جميع البلاد بأبي الضلال ، فذلك المغربي يطيعكم فيما يترفع عنه أهل الشام ، اذا وعدتموه بالتعويض عن مرتبه الذي قطع في هذه الايام

فلما لبى الشيخ صالح داعية أبي الهدى دعوتهم ، وقبل صلتهم ، أوعزوا الى بعض أفراد حزبهم بأن يحضروا الدرس مستعدين للكفاح والصيال ، اذا جر الى ذلك ما ينتظرون من القيل والقال ، وقد علم هذا كثير ممن كانوا معنا في مجلس الدرس من الاهالي الواقفين على حال البلد وكان هو السبب في رغبة عثمان بك في عدم إطالة المراجعة والمدافعة وان لم يصرح لي به وفي تحويم الفضلاء علي وتسليمهم اياي كما تقدم

لطف الله تعالى ولم يقع في المسجد ما كانوا يرومون من العدوان ، وعلم أسعد بك — وهو أخبر من هناك بكيدهم — أنهم لا يقفون عند ذلك الحد ، وان الخيبة في هذه تدفعهم الى ما هو شر منها وان الشيخ صالحا هو الذي رضي ان يكون مثيرا لفتنتهم ورأى أعوانهم قد أدلوا اليه يوسوسون له ويمدونه في الغي ثم لا يقصرون ، فظن ان

حبسه يسد باب الفتنة فحبسه فطاروا بذلك فرحا، وفتح لهم به باب جديد أقرب الى مقصدهم لانهم يصلون منه الى الايقاع بعدوهم اسعد بك نفسه وجمعيته بلا وسيلة ولا واسطة ، فأنفذوا أناسا الى المساجد يستغيثون المسلمين و يستفزونهم لاعانة الدين وحماية علمائه من ظلم جمعية الاتحاد والترقي والحكومة الجديدة! فصاح اولئك المنفذون صيحتهم بعد صلاة التراويح؛ فأقبل الناس يتساءلون : أي خطب دهى الاسلام وأي بلاء نزل بالعلماء؟ ويجيبهم خطباء الفتنة إن فلانا العالم الفاضل دافع عن الدين فقبض عليه أسعد بك وزجه في السجن فاذا لم نبادر الى انقاذه بقوة الشعب فان هذه الحكومة تقضي على جميع العلماء وتمحو دين الاسلام من الشام!!. ويقال انهم أنفذوا اناسا آخرين يقولون مثل ذلك في الاسواق وأعطوا كل واحد منهم «بشلكا» (١) فاجتمع الناس من كل فج حتى صاروا يعدون بالألوف وصاروا ينادون : ليسقط أسعد بك لتسقط جمعية الاتحاد والترقي . و بلغني انهم قالوا أيضا ليسقط القانون الاساسي وليعش الوالي ! (ولكن الله أسقط الوالي ورفع الجمعية والقانون الاساسي فكان دعاؤهم في ضلال) ولولا ان توارى أسعد بك لقضوا عليه كما قيل

وقد ظهر من ضعف الوالي (شكري باشا) وافن رأيه ، مالا ينتظر أكثر منه من مدمني السكر وأسرى الشهوات مثله؛ فانه لما رأى الجموع قد حشرت، وزمرة الوجهاء قد حضرت ، وعظمت عليه الامر وأرجفت، رجفت في قلبه الراجفة ، وتلتها الرادفة، فخنع لمكرهم ، وخضع لامرهم، وأمر بأن يؤتى بالشيخ صالح فجيء به، وطاف بالناس في مركبته (مركبة الوالي) من بعد ما آذنه المشير بأن لديه من الجند ما يكفي لقمع الفتنة الاهلية بل لاعلان الاحكام العرفية ، ولو أخذ الوالي يومئذ بالحزم؛ لاستقرت هيبة الحكومة في النفوس منذ ذلك اليوم؛ لاأقول في دمشق وحدها؛ بل في الولايات السورية كلها ،

فعلم من هذا الشرح الذي اخذته من مصادر كثيرة انني لم أكن مقصودا بالإيذاء الذاتي ، ولا مؤاخذا علي قول زل به في الدرس الثاني لساني ، (لانني لم أذكر فيه نعمة الدستور ولا نوهت بجمعية الاتحاد!) وإنما كثر في القيل والقال لكثرة من كان يسأل بماذا دافع فلان عن الدين حتى حبس ؟ فكان كل مسئول يجيب بجواب حتى كان مما سمعته في بعلبك وحمص انه نام رجل في الجامع الأموي فأنكر

---

(١) البشلك ضرب من نقود الدولة العثمانية يزيد عن نصف فرنك قليلا

القرآن وقال آخرون انه سب الانبياء ! . ولكن الذي لقنه دعاة الفتنة للأكثرين هو انه دعا الناس الى مذهب الوهابية وأنكر زيارة القبور والتوسل بها . وهذا هو الذي كتبوا به الى جرائد بيروت وطرابلس ومصر والاستانة وقد علمت انه كذب وبهتان

نال محركو الفتنة من أسعد بك ما أرادوا وانتهت هذه الحادثة بخروجه من الشام وضعف جمعية الاتحاد والترقي وعجزها عما كانت تحاول من أمر الانتخاب وذلك جل ما كانوا يبغون في نفس الشام فكان من المعقول مع هذا أن يسكتوا عني لاني لم أكن الغرض الذي يرمون سهامهم اليه ، وانما عرضت بينهم و بينه فرموني لا تنحي فتصل سهامهم اليه وحده « فما هو السبب يا ترى في استمرار عداوتهم لي ومكاتبة الجرائد بسبي وثلبي ؟ يظهر لي ان لذلك أسبابا : منها أن الشر داعية الشر وان الرجل الخبيث اذا حاول شرا فتم له كما يحب تضرى نفسه بالشر فاذا ظلم انسانا بالاهانة والتسخير مثلا فذل له المظلوم ولم يجد له نصيرا فانه يستمر على إهانته وتسخيره له استلذاذا بذلك وتبجحا ، ومنها انه اغتنم هذه الفرصة رجل من أدعياء العلم حاقد علي فرج نفسه في حمأة هذه الفتنة وطفق يكتب و يستكتب غيره مقالات في الطعن علي ولكن الجرائد ترفعت عن نشر ما بعثوا به اليها من السخف فلم تقبله الا مثل جريدة بيروت التي هي جريدة المتهورين أعداء حكومة العدل والدستور وأعداء الاصلاح . ذلك الرجل الذي كان استأجر أحد أرباب العمائم فكتب له رسالة في الرد على المنار في مسألة طهارة الكحول زاد هو فيها ما زاد فرد عليه المنار يومئذ ردا صريحا صرح فيه باسمه ففضح جهله وجهل من كتب له (١) ولعل هذا الرجل هو الذي تصدى للكتابة بيده وماله ، واعانه عليها نفر من أقتاله ، ولي هنا استدراك وهو ان أكثر الجرائد التي انتصرت للحق في هذه الحادثة قد اسندت البغي والعدوان فيها الى أهل دمشق الشام على الاطلاق لاستخفاء المعتدين منهم وذلك تساهل في التعبير أدى الى خلاف ما يريده الكاتبون فبني عليه حكم فاسد خفي عن الاكثرين فساده لخفاء المراد من العبارة التي اخذ منها . أعني انه صار يقال ان أهل الشام ناصبوا صاحب المنار العداء وآذوه بالكلام وإن أهل بيروت انتصروا له وأهانوا

(١) راجع مقالات طهارة الاعطار ذات الكحول (ص ٨٢١ و ٨٦٦ م ٤)

أهل الشام بما كتب في جرائدهم ودار في محافلهم ... والصواب ان صاحب المنار لم يسمع من أحد من اهل الشام كلمة شاذة عن النزاهة والادب بل سمع من كل من لقيه منهم أرق الكلام واعذبه، وألطف عبارات الترحيب والثناء، وإنما تصدى لقطع درسه وإيهام العامة أنه اخطأ فيه رجل غريب عنهم لم يكن محبوبا عندهم لانهم يعدونه من جواسيس الشيخ أبي الهدى والدعاة له، وشاب آخر من طلاب العلم اراد أن يسأل عن شيء سؤال متبرم مستاء فكفاه ذلك الرجل الغريب ما كان يريده من ذلك . واما زعماء الحركة الذين اشرنا الى كيدهم آنفا فهم لا يتجاوزون جمع القلة على انني لم اكن غرضهم وانما عرضت أمام غرضهم كما تقدم . على اني لو بقيت في دمشق لتصدوا لايذائي بتحريض العامة على ذلك ولكن لا يؤخذ من هذا ان اهل الشام فعلوا ذلك . وقد زارني في ليلة الحادثة بعض الوجهاء المحبين للمنار الذين كانوا يقرؤنه في زمن الاستبداد ونصح لي بأن اسافر ثم كتب الي بعد ان عدت الى طرابلس كتابا قال فيه « واني لخجول وايم الله من فضلكم ومقابلتي اياكم بدار عثمان بك تلك المقابلة لكن ربنا عليم بأني لم أحضر تلك الليلة لمقابلتكم وتكليفكم السفر الا خوفا عليكم وحفظاً لكرامتكم من سفهاء العمائم المتزين بزين العلم والعلم بعيد عنهم بعد السماء عن الارض فترى ان الواحد منهم يظن أنه اذا كبر العمامة وطول الذقن ووسع أكمام الجبة وركب البغلة وغش البسطاء بهيكله — وان لم يكن تحت القبة ولاحبة — انه صار عالما » ومع هذا كله اقول اني لست على يقين من طعن رجل معين من أهل الشام فيَّ الا ذلك الحاقد الذي اشرت اليه آنفا، فاهل الشام ليسوا خصما لي ولا لاهل بيروت وليس أهل بيروت خصما لهم

وجملة القول ان الذين ابتغوا الفتنة من أهل الشام نفر لا يخرجون من مضيق جمع القلة ومن صدقهم من العامة يندر في الجملة وانه لم يتصد أحد من علمائهم للرد عليَّ في شيء سمعه مني أو قرأه من كلامي مظهرا نفسه مبينا اسمه وقد حضر كثير منهم درسي فان كانوا يعلمون اني أخطأت فلماذا سكتوا لي على الخطأ وقد سألت مفتيهم وكان من حاضري درسي ان يكتب اليَّ مبينا خطأي ان كنت أخطأت . سألته ذلك في مقالة نشرتها في جريدة الاتحاد العثماني واسأله هو وسائر علماء الشام ذلك

بلسان المنار وأنا أنشر لهم ما يكتبون في المنار وأذعن له إن كان حقا وأبين ما عندي فيه ان كان خطأ . وهذه هي حجتي عليهم فاذا هم سكتوا عن هذا البيان فهم لا يخرجون عن أحد أمرين : إما انه لم يثبت عندهم أني قلت شيئا مخالفا للشريعة وهذا كاف لتكذيب أولئك المداعين الذين خاضوا في الاثم ، وإما انهم يكتمون الحق وهم يعلمون ولا يخفى عليهم ما ورد في القرآن والاحاديث من وعيد الكاتمين

(تنبيه) — سقط اسم السيد (حسين وصفي رضا) من ذيل مقالة التقاريظ سهوا إذ انه هو الكاتب لها

﴿ تصحيح ﴾ وقعت اغلاط في الجزئين ١١ و١٢ وهذا بيانها فصحح بالقلم :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٠٢	١٩	لوصفهم	فوصفهم
٨٠٣	٢	المعتدلين	المعتدين
٨٠٥	١٧	نزوع	نزوع
٨٠٨	٢٤	في وعيد	من وعيد
٨١٠	٧	له	إلى
٨١٢	٢٢	يستوي	تستوي
٨١٥	٦	الذين	وهم الذين
٨٣٦	١١	كأن	لما
٨٣٧	١٢	حال	مال
٨٦٤	١٦	دونها	دونها
٨٦٤	٢٤	الحرب	من الحرب
٨٦٥	١٩	عدد قليل	عدد غير قليل
٨٦٧	٩	التي يفرضها	التي لا يفرضها
٨٦٩	١٤	تقدم	تقوم
٨٧٠	١٢	أو انا	وانا
٨٧٠	١٤	من	في
٨٧١	١٤	منه	مناجي
٨٧١	١٢	قال	قال له
٨٧٢	٦	ولا يراعي	ولا يجوزان يراعي
٨٧٥	٢٥	وسبعون	وتسعون
٨٨٣	٥	هذا المتبادر	هذا هو المتبادر
٨٨٣	١٤	تقوى	تقوى
٨٨٤	١٥	دخلت	خلت
٨٨٥	٢٠	وقاتلوا	قاتلوا
٨٨٦	١٥	ظاهر	ظاهراً
٨٨٦	١٦	الواجب	لوجب
٨٨٧	٥	التنزيه	التنزيل
٨٨٧	١١	قالوا وفي	قالوا الواوفي
٨٨٨	١٦	ويدل على	ويدل أيضا على
٨٩٢	٢٢	البشري أو	البشرى
٨٩٦	١٥	فألحق	فالحق
٨٩٧	٢١	يكتب بعد كلمة : ويجمع هذه الفقرة (بينه وبين القول الاول)	
٩١٣	٢١	بها فكان	بها ثم جعلناها ذيلا لها ، فكان
٩١٥	٨	لحقيقة	لحقيقة
٩١٥	٩	العالية التي تصل	العالية تصل

خاتمة السنة الحادية عشرة

بحمد الله وشكره نختم السنة الحادية عشرة من سني المنار ، فهي وله الشكر الاسنى ، والثناء الاوفى ، خير سنة مرت بنا ، تعدها فاتحة حياة جديدة لنا ولأمتنا ، فكأن تلك السنين العشر ، غير معدودة من العمر ، وكأن هذه السنة الاولى من العقد الثاني للمجلة ، هي الولادة الاولى من العقد الاول لها والملة ، كيف لا وهي سنة حكومة الشورى والدستور ، ومحو آية ليل الظلم بآية العدل والنور ، فيرى القارىء هذا المجلد من المنار طافحا باخبار الدستور العثماني ، ومجلس المبعوثان والقانون الاساسي ، وأسباب ماحدث في الدولة العثمانية من الانقلاب ، وما كان من ضروب الاحتفال ، وذكر سياحة صاحب المنار في البلاد السورية ، و بعض ما ألقاه فيها من الدروس والخطب الدينية والسياسية ، بعد ان كان ذكر اسم المنار أو صاحب المنار ، يعد من اكبر الاخطار ، حتى كان بعض محبيه يشيرون اليه بلفظ النار . وسنلم في فاتحة السنة القابلة ، بتاريخ المنار في تلك السنين الخالية ، بما يفسر بعض الاشارات التي تقدمت في فواتح بعض السنوات ، ونشير فيها الى مستقبله في البلاد العثمانية ، ولا سيما في الولايات العربية ، حيث كان لا يقرأه الا بعض المستعدين لمشربه ، اذ كانت الاخطار تواثب من يطلع عليه او يتصل بصاحبه ، فصار شرعا بين المصلحين والجامدين ، والمنصفين والحاسدين ،

ما انتقد على المنار في هذه السنة

لا اذكر وانا اكتب هذه الخاتمة في مدينة بيروت — انه انتقد على المنار شيء لم ينشر فيه الا ما كتبه الي بعض طلاب مدرسة الحقوق الخديوية ينكر فيه عليّ ما كتبته في الرد على من اقترحت بناء مدفن خاص بعظماء الرجال بمصر من انكار نصب التماثيل للموتى ، وما زعمته جريدة طرابلس الشام من أني طعنت في اهل طرابلس فيما كتبته عن سياحتي

نصب التماثيل للموتى

احتج علي طالب الحقوق بما كتبه الاستاذ الامام في رحلته الى صقلية من حكمة تحريم التصوير واتخاذ الصور والتماثيل، وانها قلع جذور الوثنية وسد الذريعة المفضية اليها . ويرى المنتقد ان هذا هو رأيي في المسألة واني ما تشددت فيها أخيراً الا تثبيطا للذين دعوا المصريين الى الاكتتاب لنصب تمثال لمصطفى كامل لما كان بيني وبينه من الخلاف السياسي . ويرى هو ان اقامة تمثال لمصطفى كامل ولغيره مما يبيحه الاسلام اذ ليس فيه شبهة دينية . هذا مجمل ما كتبه المنتقد كما أتذكر . فاما ما ذكر من حكمة تحريم الصور والتماثيل فقد صرحنا به في المنار قبل نشر رحلة الاستاذ الامام (بلرم صقلية) بسنين . ولو تأمل المنتقد ذلك الرد الذي بنى عليه انتقاده حق التأمل لما كتب الينا حرفا مما كتبه فان ما ذكر من حكمة التحريم اوعلته لا ينقض شيئا مما كتبناه وكذلك ما كتبه الاستاذ الامام فى رحلته لاينقض قولنا بل يؤيده ، فقد صرح بأن المفتي لايفتي بجواز التصوير ونصب التماثيل مطلقا

وههنا نبين للمنتقد وامثاله مسألة مهمة يغفل عنها اكثر الناس وهي ان ما كان يقوله الاستاذ الامام من الآراء الاجتهادية وما ننشره من ذلك في المنار إنما نقصد به بيان حكم الاسلام وموافقته لمصالح الناس وافضاءه الى سعادتهم ما تمسكوا به ودفع الشبهات التي ترد على أحكامه دون جعله مذهبا يقلدنا الناس فيه، الا من ظهر له الدليل على شيء فأخذ به لاعتقاده أنه هو الحق، فأولئك لايكونون مقلدين لنا وإنما يكونون متبعين للدليل الذي قام عندهم لا يخرجهم عن ذلك كوننا سبقناهم الى ذلك الدليل وهديناهم اليه . فاذا فرضنا ان ما ذكرناه من حكمة تحريم التصوير ونصب التماثيل يقتضي إباحة نصب تمثال لمصطفى كامل — وهو لا يقتضي ذلك — وكان المنتقد معتقداً ذلك فهل يقول ان مسلمي مصر الذين دُعوا الى هذه البدعة قد اعتقدوا مثله إباحتها شرعا ؟ كلا . إنه ليعلم انهم يعتقدون حرمة ذلك الا النفر ربما كان اعتقادهم كاعتقاده ، ومن دونهم آخرون قد مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية فهم لا يبالون اكان ما وافق هواهم حلالا ام حراما !

المسلمون قسمان : الاول المقلدون للفقهاء وهم السواد الاعظم وفقهاء المذاهب الاربعة وهؤلاء يحرمون نصب التماثيل ، أفليس من امتهانهم ان يدعوا دعوة عامة لعمل محرم عندهم ؟ والثاني المتبعون للدليل وإنما يعمل الواحد منهم بما يقوم عنده من الدليل فيما يتعلق بخاصة نفسه ، وليس له ان يفتات على الجمهور بالعمل كأن يهدم المساجد التي على القبور لحظرها في الاحاديث الصحيحة ، ولا ان ينصب لهم تماثيل فان ما يتعلق بالجمهور من شأن الحكام ، ولكن له أن يبين رأيه بالدليل وان يدعو اليه ويناظر المنكر عليه فان اقنعت دعوته الجمهور عمل بها وانما نحتج على المنتقد بنفس ما احتج علينا به وهو حكمة تحريم التصوير ونحت التماثيل فنقول :

ان نصب تمثال لمصطفى كامل لا يخلو من المعنى الوثني الذي يعترف المنتقد بأنه علة حظر نصب التماثيل فان أخاه وبعض محرري اللواء غلوا في تعظيمه بالوطنية كما كان (رحمه الله وعفا عنه) يطري نفسه بذلك ، فلما لم يلق غلوهم نقداً ولا اعتراضاً جعلوه بعد موته قطباً من أقطاب الدين وغلوا في وصف صلاحه ومزاياه وتبعهم على ذلك بعض الشعراء الذين لا يزنون الكلام بميزان عقل ولا شرع اكتفاء بموازين العروض ، وتبع هؤلاء من يتبعهم عادة فلم يمض على موت الرجل أيام معدودات إلا وصار له مثال ديني خيالي غريب ، وصار بعض المارقين والجاهلين يقرنونه بالانبياء أو يفضلونه عليهم ، وذكر أخوه في ترجمته انه ولد على غير الصفة التي يولد عليها البشر عادة ! وانه ظهر له في طفوليته شيء من خوارق العادات كما ذكرنا ذلك في الرد على « باحثة بالبادية » التي اقترحت بناء مدفن لعظماء الرجال بمصر . أفرأيت من غلا حزبه فيه هذا الغلو ، وجعلوه في هذا الأفق الخيالي من العلو ، أيستغرب افتتان العامة بتمثاله في بلاد تلتمس فيها البركات ، ودفع المضار وقضاء الحاجات ، من نعل الكلشني وباب المتولي وشجرة الحنفي وعمود الرخام الذي في المسجد الحسيني وغير ذلك من الجمادات وكذا المائعات كزيت مسجد السيدة نفيسة وبعض الآبار العتيقة !!؟

لا أرى وجهاً في ذلك التعليل لنصب تمثال لرجل خلق له أخوه صورة دينية كصور أصحاب الآيات والخوارق ، وأنشأ بعض الشعراء يخلع على هذه الصورة من

حل الخيالات الوهمية والخرافية ما تجود به أقلامهم وناهيك بجود الشعراء في الكلام !

ان كثيرا من الأصنام التي عبدت كانت تماثيل لأناس عظمهم قومهم تعظيما دنيويا ولما طال عليها العهد عبدت وصار يتوسل بها إلى الله أو تطلب منها الحاجات ، فسدَّ الدين هذا الباب سدًّا محكما فهو لا يأذن لأحد بأن يتخذ صورة ولا تمثالا لاجل تعظيم صاحبه ٠ ولا يقاس نصب مثل هذا التمثال على الصور والرسوم التي يستعان بها على العلوم كالطب والتشريح وعلم وظائف الاعضاء (Physiologie) أو على اللغة ليعرف الحيوانات التي وضعت لها الالفاظ من لم يكن رآها معرفة صحيحة لا شبهة فيها ، فان احالة الكثير من كتب اللغة العربية في تفسيرها على المعرفة لا يفيد فاذا قيل: النسر طائر معروف والعقاب طائر معروف ولم يكونا معروفين عندك وان هذا هو النسر وهذا هو العقاب لا يفيدك قول اللغوي شيئا ، ولا يقاس أيضا على الصور التي يستعين بها الحكام على حفظ الأمن وتربية المجرمين ٠ فأمثال هذه الأغراض الصحيحة من التصوير هي التي كان يقول الاستاذ الامام ان الاسلام يجل عن تحريمها وأذكر انني ناظرت بعض علماء طرابلس فيها قبل هجرتي الى مصر وذكرت له خمسة مقاصد صحيحة للتصوير فوافقني على ما ذكرت من كون علة تحريم التصوير دينية وكون هذه المقاصد صحيحة لا يحرمها الشرع

انتقاد جريدة طرابلس

قرأ كثير من المنصفين ما كتبناه عن طرابلس فقالوا انه بيان صحيح لحالها واعتذار عما رمي به أهلها من اللوم والذم لذنب أتاه شقي يوجد مثله في كل بلد ٠ ولكن تلك الكتابة ساءت نفرا من الطرابلسية فهموا انهم هم المقصودون بمن أثروا من الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، فأرادوا ان ينتقموا من الكاتب بتهييج أهل طرابلس عليه وإيهامهم انه أهانهم أجمعين! وبلغني انهم كانوا يطوفون على الأدباء ويطلبون منهم ان يكتبوا في الرد على المنار ووعدت جريدة طرابلس بأن تنشر ما يرد عليها من الرد !

واتفق ان رأيت مدير جريدة طرابلس بالقرب من المحكمة الشرعية فأخبرني بما ينكره المنكرون من عبارة المنار عن طرابلس وبأنه رد عليهم واعتذر عن المنار بقدر استطاعته مع انه موافق لهم في بعض ما انتقدوه لعدم اعتياد أهل هذه البلاد أن يسمعوا في الجرائد نقدا الا بقصد الذم والإيقاع . وعلمت منه ان أنكر ما نكروه هو حكاية قول من كتب الينا « أترك فيحاء الاشقياء » الخ وقال ما كان يجوز أن يكتب مثل هذا وان كان حكاية . فقلت لكننا نقلناه لنرده ونقول انه في غير محله . قال انهم يقولون انه طعن على كل حال لا يصح ان يذكر . فقلت وماذا تقولون في حكاية القرآن الحكيم للطعن فيه وفي النبي صلى الله عليه وسلم بمثل قوله عزوجل « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » وقوله تعالى « وقالوا إن هذا الا إفك افتراه » الخ ؟ فسكت .

قلت ثم ماذا ؟ فذكر ما كتبته عن الجمعية الخيرية العثمانية . قلت وهذا حكاية أيضا لم أقله من عند نفسي بل لم أكن حين كتبته أعرف من أعضاء هذه الجمعية غير من أشرت اليهم . وإن ما كتبته عنها هو أقل ما سمعته وبلغني ان جمعية الاتحاد والترقي ترى أن هذه الجمعية مقاومة لها وللحكومة الدستورية فكتابتي هذه وأنا من أنصار جمعية الاتحاد تصلح ان تكون دفاعا عن جمعيتكم أو تلطيفا لما يقال عنها عند اللجنة العليا لجمعية الاتحاد والترقي في الاستانة .

قلت ثم ماذا ؟ فذكر ان ما كتبناه عن الذين أقاموا المباني الجديدة في جهة التل يشعر بأنهم ماقدروا على ذلك الا بما أكلوه من الرشوة . فقلت ان هذا غير مقصود فأنا أعلم ان ثروة اكثر اصحاب هذه المباني قديمة وليست من جهة الحكومة . فاذا كانت عبارة المنار تدل على ان الذين بنوا القصور في جهة التل هم الذين أثروا من الرشوة في الحكومة فأنا أعترف بأنها لم تؤد مرادي اذ لم أرد ربط مسألة عدم وجود موارد جديدة للثروة في طرابلس غير الرشوة لبعض رجال الحكومة بمسألة العمارات في جهة التل واقعة على هذا الوجه وانما ذكرت ذلك بالمناسبة وسأراجع المنار

ثم ذكر مسألة عدم تقدم طرابلس في العلوم والتجارة وانه كتب في المنار بأسلوب فيه مبالغة وشدة في النقد لم تتعوده سوريا كما تعودته مصر . قلت انه نقد صحيح

والغرض منه صحيح وهو ان ينبه أهل بلدنا الى مايجب عليهم لتدارك ماأصابهم في الايام الماضية . وان ما كتبه الآن غير كاف لأنه إشارة جاءت بطريق العرض ولا بد ان نعود قومنا على الانتقاد الشديد في المصالح العامة ولا خير في الجرائد التي لايكتب فيها الا المدح والاطراء ، لأجل الاستمالة والاسترضاء ، أو الذم والهجاء ، لأجل التشفي أو الايذاء ، واذا كان الناس هنا يشكون من مقال كتب لأجل الدفاع عنهم ، والرد على من أساء الظن فيهم ، فماذا يقولون اذا قرأوا مقالات طويلة في الانتقاد عليهم ، وبيان تقصيرهم في خدمة أمتهم وبلادهم ؟ ؟ وهل تكون الصحف مفيدة الا بمثل هذا الانتقاد ؟

هذا ماأتذكره مما دار بيننا وقال هو في خاتمة الكلام ماذا تأمر ان أكتب في العدد الآتي من طرابلس للتنصل من نشر ماريد نشره المتقدون ؟ فاتفقنا على ان يكتب اني بينت له ان ما كتب في المنار لم يكن طعنا في أهل طرابلس بل دفاعا عنهم خلافا لما فهم بعض الناس واني سأبين هذا في بعض أجزاء المنار . وقد كتب هو ذلك ونحن بيناه هنا المراد كما بيناه له وفاء بالوعد وجريا على سنتنا من نشر ماينتقد علينا

اختصار جملة الصلاة على النبي

وبلغني ان بعض الناس انتقد في المنار اختصار كلمة « صلى الله عليه وسلم » بحرف (ص) وزعم بعضهم عن غير بصيرة ولا استقراء ان هذا مطرد في المنار كلما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام كما يطرد التصريح بكلمة « رضي الله عنه » كلما ذكر الاستاذ الامام ، والصواب الذي يراه القارئون للمنار اننا لا نذكر كلمة « رضي الله عنه » عند ذكر الاستاذ الامام مطلقا وانما تذكر في عنوان التفسير وهو سطر ثابت في المنار لا يتغير ، وأما جملة الصلاة فلا تكاد تذكر مختصرة بحرف (ص) إلا حيث تتكرر وكثيرا ماتذكر غير مختصرة . والاختصار يوفر شيئا من وقت الكاتب ومن الورق فيسع من الفوائد أكثر مما يسعه مع تكرار الجملة بنصها . وهي عادة طال عليها العهد في كتب المسلمين ولا سيما المطبوعة في الهند والاستانة ، وكانوا يختصرون الجملة هكذا « صلعم »

فصار بعض الناس ينطق بهذه اللفظة لا بالجملة المختصرة حروفها منها فاستحسنت ان استبدل بها حرف (ص). ورأيت في كثير من الكتب بدل (صلم) حرفي «ع م» بمعنى عليه السلام كما يختصرون جملة «رحمه الله» بحرفي (رح) وجملة «رضي الله عنه» بحرفي (رض) والمقصود من الكتابة فهم المراد فلو أمكن اختصار كل الجمل بحروف يفهم منها المراد لما اختلف العقلاء في العمل بهذا الاختصار ولكن هذا لا يتأتى الا في بعض الجمل التي يكثر استعمالها . وقد اخترع الناس طريقة لاختزال الخط لأجل نقل الخطب وما يدور في مجالس الحكم والعلم من الفوائد وهي خاصة بمن يتصدون لذلك كمحرري الجرائد

دعوة المنار الى الانتقاد عليه

انا ندعو في هذه الخاتمة الى مثل مادعونا اليه في فاتحة هذا المجلد من الانتقاد على المنار ولكننا لا نقبل نقدا مبنيا على ما يقوله بعض الناس على المنار، ولا نقدا يخرج فيه المنتقد عن موضوع ما ينتقده من قوله ، وإنما يقبل الانتقاد على فقرة تنقل بنصها من المنار مع بيان صفحة المجلد التي نقلت منها والاستدلال على خطإها

طلب الاشتراك وقيمته

لا تزال قيمة الاشتراك على اصلها فانا لم نزدها وان كانت جميع الاشياء ازدادت غلاء في هذا القطر. ولكن أمرا طالما نبهنا اليه ولا يزال الناس يتهاونون عنه ذلك انا صرحنا مرارا بأن المنار لا يبعث به الا لمن يبعث بالقيمة سلفا ، واننا لا ننقص من قيمة اشتراكه شيئا لأحد ما، ومع ذلك فان الناس لا يزالون يسألوننا ذلك! فنحن نكرر القول هنا كما كررناه مرارا بأن الادارة لا تجيب من يسألها ذلك مطلقا

هذا واننا نختم هذا المجلد بمثل ماافتتحناه به من ذكر الله والثناء عليه عز وجل ونسأل الله ان يلهمنا الصواب ويديم علينا نعمة الاخلاص، وسلام على المرسلين ومن تبعهم بالهداية والاصلاح في الدنيا والدين ، والحمد لله رب العالمين .

منشئ المنار ومحرره

محمد رشيد رضا الحسيني